عيون الأدب الأجنبي

5

ترجمة : إلياس بديوي

مارسيل بروست

البحث عن الزمن المفقود



السجينة

شرقيات

« البحث عن الزمن المفقود »
مغامرة كائن رائع الذكاء، مريض الإحساس، ينطلق من طفولته في البحث عن السعادة المطلقة، فلا يلقاها في الأسرة ولا في الحب ولا في العالم. ويرى نفسه منساقاً إلى البحث عن مطلق خارج الزمان، شأن المتصوفين من الرهبان، فيلقاه في الفن، مما يؤدى إلى اختلاط الرواية بحياة الروائي، وإلى انتهاء الكتاب لحظة يستطيع الراوي، بعدما استعاد الزمان، أن يبدأ كتابه؛ فتنقلب بذلك الحيّة الطويلة على نفسها لتغلق الحلقة العملاقة.

رواية تقارب المليون كلمة، بأشخاص تبلغ المائتين، أشبه ما تكون بالتمثال الروحّي الذي يصُمدُ كالصخر في وجه العاديات. إنها مرثاةٌ للدمار الذي يصنعه الزمن بالأشياء والناس إن غَفلَت.

دار شرقيات للنشر و التوزيع

البحث عن الزمن المفقود

البحث عن الزمن المفقود

مارسيل بروست

ترجمة: إلياس بديوي

A la recherche du temps perdu

Marcel Proust

Gallimard, Paris

الجزء الخامس:

السجينة

La prisonniere

© الطبعة العربية الأولى لترجمة الجزء الخامس من " البحث عن الزمن المفقود". دار شرقيات، ٢٠٠١

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي، ١١١١١ باب اللوق ، القاهرة
ت : ٣٩٠٢٩١٣ فاكس ٣٩٣١٥٤٨

تصميم الغلاف : محي الدين اللباد

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع

المركز الفرنسي
للثقافة والتعاون العلمي
قسم الترجمة والنشر

مارسيل بروست

البحث عن الزمن المفقود

ترجمة: إلياس بديوي

5

السجينة

دار شرقيات للنشر والتوزيع

كنت منذ الصباح، ولاأزال أدير رأسي صوب الجدار وقبل أن أكون شاهدت فوق الستائر الكبيرة التي تغطّي النافذة من أيّ لون هو مفرق النهار، كنت أعلم مذ ذاك الطقس السائد. فقد أنبأتني عن ذلك أولى أصوات الشارع حسبما تبلغني مخفّفة تحرِفُها الرطوبة أوهي تصدح فعلَ السّهام في المساحة الداوية الفارغة لصباح رحب قرّ نقيّ.كان قد وافاني، منذ انزلاقة أول حافلة، إن كانت متضجّرة تحت المطر أم هي تنطلق وجهة السماء الزرقاء. وربمّا سبق تلك الأصوات نفسها فَوحٌ أكثر سرعة وأشد نفاذاً تسرّب عبر منامي فنشر فيه حزناً يؤذن بالثلج أوجعل شخصاً هيّناً متقطّع الظهور يصدح فيه بأناشيد جمّة في تمجيد الشمس حتّى ليبلغ بها أن تحمل إليّ ، وقد شرعت، في استمرار إغفاءتي، أتبسّم وتستعدّ أجفاني المطبقة للانبهار، استفاقة مدوّخة في جوّ من الموسيقا . وإنّما وافاني على أيّ حال من غرفتي على الخصوص حسّ الحياة الخارجيّة في تلك الفترة. وأعلم أن "بلوك" روى أنّه كان يسمع حينما يجيءُ لزيارتي في "كومبريه" وماكان يلقى في يوم أحداً في غرفتي فقد خلص إلى أنيّ كنت اتحدّث بمفردي. وحينما بلغه بعد حين طويل أن "ألبيرتين" كانت تسكن آنذاك إلى جانبي صرّح إذ أدرك أني أخفيتها عن أعين الجميع، أنّه يرى أخيراً السبب الذي كنت من اجله لاأبغي الخروج البتّه في تلك الفترة من حياتي، وقد أخطأ الظنّ. كان على أيّة حال معذوراً في ذلك لأن الواقع وإن يكن لازماً لايمكن توقّعه توقّعاً تاماً والذين يبلغهم أمر صحيح عن حياة آخر غيرهم يستخلصون منه في الحال نتائج ليست من هذا القبيل ويرون في الأمر المكتشف حديثاً التفسير لأمور ليس لها بالضبط أيةّ صلة به .

حينما أفكّر الآن أن صديقتي بادرت لدى عودتنا من "بالبيك" إلى السكنى في باريس تحت سقف بيتي وانهّا تخلّت عن فكرة القيام برحلة بحريّة وأن حجرتها على عشرين خطوة في أقصى الممّر وفي مكتب والدي ذي النجود وأنّها كانت كلّ مساءٍ في ساعة متأخرة جداً وقبلما تفارقني، تدسُّ لسانها في فمي وكأنّما خبز يوميّ، كانمّا طعام مغذٍ يرتدي الطابع القدسّي تقريبًا الذي لكلّ جسد أولته العذابات التي قاسيناها بسببه في آخر المطاف ضرباً من العذوبة الروحيّة ، فليس ما أستذكره في الحال بالمقارنة هي الليلةَ التي أذن لي النقيب "بوردينو " بقضائها في الثكنة منّةً منه ما كانت تشفي في النهاية سوى وعكة عابرة ، بل تلك التي أرسل والدي فيها أمّي لتنام في السرير الصغير إلى جانب سريري . لأنّ الحياة إن انبغى مّرة أخرى أن تخلّصنا إزاء عذاب يبدو محتمًا فما أكثر ما تفعل

في ظروف مختلفة ومتعارضة أحياناً إلى حدّ يكون معه من باب التدنيس الظاهر تقريباً أن نلاحظ التماثل في النعمة الممنوحة!

حينما كانت "ألبيرتين " تعلم على يد "فرانسواز" أنّني لم أكن في ليل غرفتي التي لاتزال مرخاة ستائرها نائماً لم تكن تتورّع عن إصدار بعض الأصوات وهى تستحمّ في حجرة حمامّها. حينئذ كنت أمضي في الغالب ، بدلا من الانتظار حتى ساعة متاخرة ،إلى حجرة استحمام ملاصقة لحجرتها وكانت محبّبة. كان مدير المسرح فيما مضى ينفق مئات ألوف الفرنكات كي يرصّع بأحجار زمرّد حقيقيّة العرش الذي تمثّل المغنّية فوقه دور امبراطورة، وقد علّمتنا الباليهات الروسيّة أن تلاعب أضواء بسيط يوفّر لنا، إمّا وُجهّتْ حينما ينبغي،جواهر بمثل بذخها وتنوّعها. وليست هذة الزينة، وهى مذ ذاك أكثر بعداً عن المادّة، ليست مع ذلك بمثل حسن الزينة التى تحلّها الشمس فى الثامنة صباحاً محلّ تلك التي تعودّنا رؤيتها هناك حينما لاتنهض إلاّ ظهراً. لم تكن نافذتا حجرتي استحمامنا مالستين كي لاتتسنّى رؤيتنا من الخارج، بل كانتا مغضّنتين بفعل صقيع صناعيّ تقادم عهده. كانت الشمس فجأة تغمر بالصفرة تلك الموسلين الزجاجيّة وتلونها بالذهب فأنتشي، وانا أكتشف رويداً في داخلي شاباً أقدم عهداً حجبته العادة طويلاً، أنتشي بالذكريات كما لو كنت في قلب الطبيعة أمام أغصان مورقة خضراء مُذهبة لاينقصها حتّى وجود عصفور. ذلك أنّي كنت أسمع "ألبيرتين" تصفر دون توقّف:

"مجنونة هي الآلام

ومن يصغي إليها يفوقها جنوناً."

كنت أحبها أكثر من أن لا ابتسم فَرَحاً لرداءة ذوقها الموسيقيّ. والأغنية هذة على أية حال سبق أن فتنت في الصيف الفائت السيدة "بونتان" التى سرعان ما بلغ أسماعها من يقول أنّها ضرب من السخافة حتّى إنّها بدلاً من أن تطلب من "ألبيرين" إنشادها حينما تستقبل، استبدلت بها:

"أنشودة وداع تنتلق من الينابيع المضطربة"

وهذه أضحت بدورها"لحناً عتيقاً مملاً لـ "ماسنيه" تجرّح به الصغيرة آذاننا"

وتمرّ سحابة فتحجب الشمس وأرى ستارة الزجاج الحييّة المورقة تنتطفئ وتنكفئ إلى لون رماديّ.

كان الحاجزان الفاصلان بين حمّامينا (وحمآم "ألبيرتين" ، وهو شبهه تماماً، حجرة لم يسبق لأمي،وهى تملك أخرى في القسم المقابل من الشّقة، أن استخدمتها في يوم كي لايصدر عنها ضجّة) رقيقين إلى حّد نستطيع معه التحدّث فيما يغتسل كلّ منّا في حجرته ونوالي حديثاً يقطّعه فقط صوت الماء في هذا الجوّ الحميم الذى غالباً ما يتيحه في الفندق ضيق المسكن وتقارب الحجرات ولكنه شديد الندرة

في باريس.

وفي مّرات أخرى كنت ألبث مستلقياً أحلم قدر ما أشاء إذ كان ثمّة أوامر بالامتناع مطلقاً عن دخول غرفتي قبلما أكون قرعت الجرس، الأمر الذى كان يقتضيني، بسبب الطريقة غير المريحة التي وضعت بها الإجّاصة الكهربائيّة فوق سريرى، وقتاً طويلاً إلى حدّ أنى كنت أمكث في الغالب لحظات وقد عاودنى النوم تقريباً بعدما أتعبنى البحث عن بلوغها وسرّنى أن أكون وحيداً. وليس يعني ذلك أنيّ كنت غير مبال تماماً باقامة"ألبيرتين" في منزلنا. فقد أخذ انفصالها عن صديقاتها يفلح في تجنيب فؤادى عذابات جديدة. كان يمسك به في جوّ من السكينة وفي لاحراك تقريبّي ربّما أعانا في شفائه، لكن هذة الطمأنينة التى توفّرها لي صديقتي كانت تسكيناً للألم أكثر منها مسّرة. وليس يعني ذلك أنها لم تمكني من تذوّق الكثير من تلك التى أوصد الألم المفرط بابي دونها، لكن تلك المسّرات، ولم أكن أدين بها، وما أبعد أن يكون، لـ "ألبيرتين" التى كدت لاألفيها جميلة من بعد ويداخلنى الضجر برفقتها وشعور واضح بأنى لاأحبّها، إنّما كنت أتذوقها على العكس حين لاتكون"ألبيرتين" إلى جانبى. لذلك كنت لاأرسل في طلبها فى الحال، لمباشرة فترة الصباح، ولاسيْما إن كان الطقس صحواً كنت أمكث على مدى لحظات في اجتماع منفرد مع الشخص الصغير الداخلى محيّي الشمس المنشد الذى سبق أن رويت عنه وأنا عالم أنّه يسعدني أكثر منها، ومن بين أولئك الذين يؤلفون شخصنا ليس من كانوا الأكثر وضوحاً للعين مَنْ هم الأكثر أساسيّة. سوف يظلّ فى داخلي، بعدما يكون المرض قد انتهى من القائهم أرضاً الواحد تلو الآخر، اثنان أو ثلاثة أصلب عوداً من الآخرين، ولاسيما فيلسوف منهم لايسعد إلاّ بعد ما يكتشف بين عملين، بين إحساسين، قسماً مشتركاً. ولكنيّ تساءلت أحياناً إن كان الأخير بينهم لن يكون الشخص الصغير الذى يشبه إلى حدّ بعيد شخصا ً آخر كان بائع البصريّات في"كومبريه" قد وضعه خلف واجهته الزجاجية كي يحدّد الطقس المتوقّع وكان ينزع غطاء رأسه حالما تسطع الشمس ويعيده إن أزمعت أن تمطر.والصبىّ هذا، أنا أعرف أنانيته، فانّه يمكن أن اعانى من نوبة اختناق ربّما سكّنها محض هطول المطر، أمّا هو فلا يأبه للأمر ولدى أوّل حبّات عيل صبري في انتظارها يفقد مرحه فيردّ غطاء رأسه معكّر المزاج. واعتقد جازماً في المقابل أن الصبّي المضغاطيّ سوف يشعر بارتياح كبير ساعة احتضارى وبعدما تكون سائر"أنواتى" الأخرى قد ماتت إن أقبل يلتمع شعاع شمش فيما ألفظ أ نفاسي ألأخيرة، وتراه ينزع غطاء رأسه لينشد:

"وأخيرا ًصحا الجوّ"

كنت أقرع الجرس لاستدعاء"فرانسواز" وأفتح صحيفة"لوفيغارو" وأبحث فيها فألاحظ أن ليس ثمة مقالة، أوما أزعم أنها كذلك، كنت بعثت بها إلى هذه الصحيفة ولم تكن بعد تدبيرها بعض الشئ سوى الصفحة التي عثرت عليها مؤخراً وكنت كتبتها فيما مضى في عربة الدكتور" بيرسبييه" وأنا أشاهد قبتّي أجراس"مارتنفيل". ثم أقرأ رسالة أمّي. كانت ترى من الغريب والفاضح أن تسكن فتاة بمفردها وإيّاي. ربّما سعدتْ أمّي في اليوم الأول، لحظة مغادرة"بالبيك" حينمارأتني على قدر من

التعاسة عظيم وأهَمَّها أن تتركني وحيداً، سعدتْ إذ بلغها أن"ألبيرتين" ذاهبة معنا وإذ رأت أنّهم حمّلو القطار إلى جانب حقائبنا تماماً(الحقائب التي أمضت بجانبها الليلة في فندق"بالبيك" باكياً) حقائب"ألبيرتين"، وهي ضيّقة سوداء وكانت بدت لي على شكل توابيت وكنت أجهل إن هي ستحمل إلي المنزل الحياة أوالموت. علي أني لم أطرح حتيّ السؤال علي نفسي وقد تملّكني الفرح كلياً في الصباح المشرق، وفي أعقاب هلعي من البقاء في"بالبيك"، باصطحابي"ألبيرتين". ولئن لم تعارض والدتي في البداية ذاك المشروع (فتكلّم صديقتي بلطف مثل والدة أصيب ابنها بجروح خطيرة، وهي ممتنّة للعشيقة الشابّة التي تتفانى في العناية به) فقد أضحت تعارضه منذ أن تحقّق فجاوز الحدّ وتطاولت إقامة الفتاة في بيتنا، في بيتنا وفي غياب والديّ. على أني لايسعني أن أقول عن هذه المعارضة إنّ والدتي أفصحت عنها في يوم. وكما هو شأنها بلأمس حينما كفّت عن أن تجرؤعلي توجيه اللوم إليّ على عصبيتّي وكسلي، كانت الآن تصادف حرجاً- ربّما ما تبينّته تماماً في حينه أولم أشأ تبيّنه-، إن هي أبدت بعض تحفظات إزاء الفتاة التي قلت لها إني أزمع أن أخطبها، في المجازفة بتعكير حياتي وجعلي فيما بعد أقلّ تفانياً في خدمة زوجتي وأن تدخل في نفسي ربّما في الفترة التي لن تكون بعد فيها على قيد الحياة الندم علي أنّي غممتها بزواجي من"ألبيرتين". كانت أمّي تفضّل أن تتظاهر بالموافقة على اختيار تحسّ أنها لن تستطيع أن تثنيني عنه. لكنّ الذين رأوها جميعاً في تلك الفترة قالوا لي إنّه كان ينضاف إلي حزنها علي فقد والدتها انشغال دائم يلوح في محيّاها. والتركيز الفكري هذا والجدال الداخلي كانا يلهبان صدغي والدتي فتفتح النوافذ باستمرار لتبترد. أمّا القرار فما كانت تفلح في اتخاذه مخافة "استمالتي" إلى اتجاه خاطئ وإفساد ما تعتقد أنّه سعادتي. ما كانت حتّي تستطيع حزم أمرها للحؤول دون استبقائي مؤقّتاً لـ "ألبيرتين" في المنزل. فإنها لاتودّ أن تبدو أكثر صرامة من السّيدة"بونتان" التي يعنيها الأمر أوّل ما يعنيها وهي لاترى ذلك غير لائق، الأمر الذي كان يدهش والدتي كثيراً. كانت في جميع الأحوال تأسف أنْ اضطرّت أن تدعنا وحدنا برحيلها في تلك الفترة بالضبط إلى"كومبريه"حيث يمكن أن تمكث(ومكثت في الواقع) شهوراً طويلة كانت أخت جدّتي في أثنائها بحاجة مستمّرة إليها في النهار والليل. وقد سهل عليها هناك كلّ شيء بفضل طيبة وتفاني" لوغرندان" الذي لم يحجم عن أيّة مشقّة فأجل عودته إلى باريس من أسبوع إلى آخر دون معرفة وافية لعمّتي ولمحض أنّها كانت، باديء الأمر، صديقة لوالدته، ثّم لأنّه أحّس أن المريضة التي لاأمل في شفائها كانت تحبّ علاجه ولاتستطيع الاستغناء عنه. إن السنوبيّه مرض في النفس خطير بيد أنّه محّدد المكان ولا يفسدها كليًّا. أما أنا فقد كنت، على عكس أمّي، شديد السعادة بانتقالها إلى"كومبريه" والذي ربّما كنت خشيت بدونه(اذ لااستطيع أن أعرض على"ألبيرتين" أن أخبئّها) أن تكتشف حبهّا للآنسة"فانتوي". ولعّل ذلك كان شكّل في نظر والدتي عقبة مطلقة ليس فقط في طريق زواج كانت قد طلبت منّي بشأنه على أى حال أن لاأكلّمها بعد عنه بصورة نهائّية وكانت فكرته أضحت لديّ أكثر عسيرة الاحتمال، بل هي تحول حتيّ دون أن تقضي هذه الأخيرة بعض الوقت في المنزل. وباستثناء سبب بتلك الخطورة، وهي لاتعرفه، أضحت أمّي جرّاء المفعول المزدوج الناجم عن تقليد طيّب الأثر ومحّرر لجدّتي المعجبة ب"جورج صاندا" والتي كانت تجعل

الشهامة قوام الفضيلة، وعن تأثيري المفسد من ناحية أخري، أضحت تبدي الآن تسامحاً إزاء نساء لعلّها كانت أبدت بالأمس صرامة تجاه سلوكهّن، بل حتّي اليوم إن سبق أن كنّ من صديقاتها البورجوازيات في باريس أو"كومبريه" ولكنّما كنت أشيد بنبلهنّ وكانت تغفر لهنّ كثيراً لأنّهن كّن يحببنني كثيراً. لكنّي أعتقد، على الرغم من كل شيء وحّتي بمعزل عن مسألة اللياقة، أن"ألبيرتين" كانت ثقلت على والدتي التي أخذت عن"كومبريه" وعن خالتي"ليوني"وعن سائر قريباتها عادات على صعيد النظام ما كانت صديقتي تحمل عنها أدنى فكرة. فما كانت لتغلق باباً وما كانت تورّعت في مقابل ذلك عن الدخول حينما يكون الباب مفتوحاً أكثر مّما يفعل كلب أوهرّ. كانت فتنتها المزعجة بعض الشيء هي أن تسلك في المنزل سلوكاً هو أقلّ لفتاة منه لحيوان أليف يدخل حجرة ويخرج منها وتلقاه حيث لاتتوقّع وجوده وكان يقبل ليرتمي علي سريري بجانبي -والأمر يوليني فيما يخّصني راحة عظيمة - ويوسع لنفسه مكاناً لايبرحه من بعد، دون أن يضايقك كما لعل شخصاً كان فعل. لكنّها التزمت في النهاية بساعات نومي وبأن لاتحاول الدخول إلي غرفتي، وليس ذالك فحسب بل بأن لاتحدث ضجيجاً قبلما أكون قرعت الجرس. و"فرانسواز" هي التي فرضت عليها تلك القواعد، فقد كانت من صنف أولئك الخدم في"كومبريه" العارفين بقيمة سّيدهم وأقل ما يستطعونه أن يعملوا علي أن يُقَدَّمَ له بالتمام والكمال ما يحكمون أنهّ متوجّب له. فحينما كان زائر غريب يعطي"فرانسواز" اكرامية عليها أن تتقاسمها وفتاة المطبخ لم يكن يتّسع الوقت للواهب لتسليم قطعة نقوده حتّي تكون "فرانسواز" قد قرأت الدرس بذات السرعة والتكتّم والعزيمة علي مسامع فتاة المطبخ التي تبادر إلي الشكر لابالايماء بل بالفم الملآن والصوت العالي مثلما قالت لها"فرانسواز" إنّه يتوجّب عليها أن تفعل. لم يكن كاهن"كومبريه" نابغة ولكنّه كان بدوره يعرف ما ينبغي أن يكون. فإن ابنة أبناء عّم بروتستانتيين للسّيدة "سازرا" كانتقد ارتدت إلي الكاثولكّية بارشاد منه، وكان سلوك الأسرة تجاهه لاغبار عليه. وجري الحديث عن زواج مع أحد نبلاء"ميزيكليز". وكتب والدا الشاب، بغيه الحصول على معلومات، رسالة يلوّنها شيء من الازدراء وكان الأصل البروتستانتي موضع احتقار فيها. وردّ كاهن"كومبريه" بلهجة جعلت نبيل"ميزيكليز" يسطِر، حاني الرأس ذليلاً، رسالة مختلفة تماماً يلتمس فيها الاقتران بالفتاة على أنه أثمن منّة.

لم يكن لـ "فرانسواز" فضل في حمل"ألبيرتين" علي احترام نومي، فقد كانت مشبعة بالأعراف. لقد أدركت"ألبيرتين" من صمت التزمته أو جواب قاطع أجابته عن اقتراح لابدّ صاغته الفتاة ببراءة بشأن الدخول الي غرفتي أو الارسال في طلب أمر، أدركت وقد أخذ منها الذهول أنها في عالم غريب مجهولة قواعده وتحكمه قوانين سلوكّية لايمكن التفكير بخرقها. لقد كان وافاها حدس أولي عن ذلك في"بالبيك" ولكنها في باريس لم تحاول حتّي أن تقاوم وانتظرت بأناة صوت الجرس الصغير في كلّ صباح لتجرؤ على إصدار أيّ صوت.

كان التهذيب الذي وفرّته لها"فرانسواز" جليل الفائدة من جانب آخر لخادمتنا العجوز نفسها إذ هدأ شيئاً فشيئاً من التأوّهات التي لم تكفّ عن اطلاقها منذ رجوعها من"بالبيك". ذلك لأنهّا تبيّنت

لحظة صعودها إلى الحافلة أنّها أغفلت أن تودّع"القيّمة" علي الفندق،وهي امرأة ذات شارب كانت تراقب الأدوار وتكاد لا تعرف"فرانسواز" ولكنّها كانت مهذّبة نسبيا فيما يخصها.كانت"فرانسواز" تودّ قطعاً أن تنثني عائدة وتهبط من الحافلة وترجع إلى الفندق وتودّع القيمّة ولاترحل إلاّ في الغد. وحال تعقّلي وكرهي المفاجئ لـ "بالبيك" على وجه الخصوص دون أنعم عليها بتلك المنّة فحلّ بها من ذلك مزاج كدر مرضيّ محموم لم يكن تغيير الهواء كافياً لازالته وامتدّ إلي باريس. فليس تمنيّ الموت لعدوّ أوحتيّ انزاله به ممنوعاً حسب شرعة"فرانسواز" على نحو ماهي موضّحة في نقوش"سانت اندريه دي شان" البارزة، ولكنّما من الشنيع أن لاتفعل ما يجدر بك أن تفعل وأن لاتردّ المجاملة بمثلها و أن لاتودّع قيمّة الدَّور قبل الرحيل شأن سَمِجَة حقّة، وعلى مدى كامل الرحلة كان تذكّرها المتجدّد في كل لحظة أنهّا لم تستأذن تلك المرأة بالانصراف قد دفع إلى وجنتي"فرانسواز" لوناً قرمزياً يمكن أن يبعث الرعب. ولئن رفضت الشراب والطعام حتّي باريس فلأن ذلك التذكّر ربّما كان"ينقل معدتها" حقاً أكثر ممّا هو عقوبة تنزلها بنا (فلكلّ طبقة اجتماعيّة علم أمراضها).

إن من بين الأسباب التي كان من شأنها أن دأبت والدتي على تسطير رسالة يوميّة لي، ورسالة لاتخلو البتّه من استشهاد بالسيدة"دوسيفينييه"، ذكرى جدتّي. كانت أمي تكتب إليّ قائلة:"لقد قدمّت لنا السّيدة"سازرا" واحدة من تلك الواجبات الصباحية المحببّة التي تعرف سرّها والتي تجنبنا العزلة دون أن تحمل إلينا المجتمع،كما لعلّ جدّتك المسكينة كانت قالت مستشهدة بالسيدة "دوسيفينييه" وكان من غبائي أن كتبت إلي والدتي في أوّل ردودي:"ربما تعرّفتك والدتك في الحال بمثل هذة الاستشهادات." وقد جنيت من ذلك بعد ثلاثة أيّام هذة الكلمة:"إن كان القصد أن تحدّثني عن **والدتي**، يا ولدي المسكين، فانّك تستذكر السّيدة"دوسيفينييه" بمالا يناسب الواقع إطلاقاً. فلعلّها كانت أجابتك بمثل ما أجابت به السيدة"دوغرينيان"[١]:

"لم تكن تعني أيّ شئ لك إذن؟ وكنت أظنّكما قريبين."

وفي تلك الأثناء كنت أسمع وقع خطى صديقتي وهي تخرج من غرفتها أوتعود إليها. فأقرع الجرس إذ الساعة تلك التي تزمع"أندريه" المجيء فيها برفقة السائق صديق"موريل"، والذي قدّمه آل"فيردوران"، لاصطحاب"ألبيرتين". وكنت كلّمت هذة الأخيرة عن امكانية بعيدة في عقد قراننا ولكنّي لم أفعل ذلك صراحة في يوم، وهي نفسها حينما قلت لها:"لست أدري ولكن ربّما كان ذلك ممكناً"، هزّت رأسها محاذرة تقول بابتسامة حزينة:" لا، ربّما لم يكن ذلك ممكناً"، الأمر الذي كان يعني:"إني فقيرة جداً". حينئذ كنت، فيما أقول:"لاشيء أقل ثبوتاً" حينما الأمر أمر مشروعات مستقبلّية، كنت أفعل الآن كّل شيء للترويح عنها واكسابها رغد العيش، أحاول ربّما بذلك على نحو غير واع حملها على ابتغاء الاقتران بي. كانت هي تضحك من كلّ هذا البذخ."والدة"أندريه" هي التي

---

(١) هي ابنة السيدة"دوسيفينييه" وكانت سطّرت لوالدتها كتاباً تسأل فيه عن جدّها فتقول: كيف حال السّيد والدك؟(بدلاً من"كيف حال جّدي").

ستعقد الدهشة لسانها أن تراني وقد أصبحت سيّدة غنية مثلها وما تدعوه بالسيّدة التي تملك"الجياد والعربات واللوحات".كيف ذلك؟

أما رويت لك قطّ أنّها تقول هذا؟ آه! يالها من نموذج! وما يدهشني أنّها تُعلي اللوحات لتبلغ مكانة الجياد والعربات".

ذلك أننا سنشهد بعد هذاأن"ألبيرتين"، على الرغم من عادات كلاميّة غبيّة ظلّت عليها، قد تطّورت تطورا ًمدهشا، والأمر كان عندي سواء تماماً إذ كنت على الدوام قليل الاهتمام بمواطن التفوّق الفكريّ لدي إحدى النساء إلى حدّ أنّي إن كنت لفتّ هذه أو تلك إليها فانّما من قبيل المجاملة البحتة. وحده نبوغ"سيليست" الغريب ربّما كان راقني. فقد كنت ابتسم راغماً على مدى لحظات حينما كانت تفيد على سبيل المثال ممّا نُقل إليها عن غياب"ألبيرتين" فتبادرني بهذه الكلمات:"ياإلها من السماء موضوعاًعلى سرير!" فأقول:"ولكن هيّا يا"سيليست"، ولماذا"إله من السماء"؟ - "آه! إن كنت تظنّ لديك شيئاً من أولئك الذين يطوفون على أرضنا الحقيرة فأنت مخطيء تماماً!" - "ولكن لماذا"موضوع"على سريري؟ فإنّك ترين أنني مستلق." - "لست مستلقياً في يوم. فهل من رأى في يوم أحداً مستلقياً على هذا النحو؟ لقد أقبلتَ تحطّ هنا. إن بيجامتك الشديدة البياض في هذه اللحظة تعطيك إلى جانب حركات رقبتك هيئة حمامة."

كانت"ألبيرتين"حتّي في منطق الأ شياء الغبّية تتحدّث على نحو مختلف تماماً عن البنت الصغيرة التي كانتها منذ بضع سنوات فحسب في"بالبيك". فقد كان يبلغ بها أن تعلن، بشأن حدث سياسيّ تستنكره:"أجد هذا هائلاً"، ولست أدري إن لم تكن تعلّمت حوالي ذلك الوقت أن تقول لتعني أنّها تجد أحد الكتب سيّء الصياغة:"مشوّق، ولكنه واعجبي قد صيغ كأنما بقلم خنزير."

كان خطر الدخول إلى غرفتي قبلما أكون قرعت الجرس يضحكها كثيراً.ولّما كانت قد أخذت عنا عادة الشواهد في أسرتنا وكانت تستخدم لذاتها شواهد من المسرحيّات التي سبق أن مثّلَتْها في الدير وكنت قلت لها إني أحبّها فقد كانت تشبهّني علي الدوام بـ "أحشورش"

وإنّما الموت جزاء كلّ متهوّر

يمثل أمامه دون أن يُستدعى.

ليس ثمّة ما يحمي من هذا النظام المحتوم،

لا المقام ولاالجنس، والجريمة سواء هنا وهناك.

وإنّي أنا...،

كأخرى غيري ،خاضعة لهذا القانون

ولابد لي كيما أكلّمه دون أن أخطره بذلك

أن يسعى إلي أويستدعيني على الأقلّ.(١)

كانت قد تغيّرت جسمياً كذلك. فعيناها الزرقاوان المديدتان - قد ازدادتا طولاً- لم تحتفظا بالشكل ذاته. كانتا باللون نفسه ولكنّما تبدوان وكأنّهما انتقلتا إلى الحالة السائلة، فلكأن أمرها حينما تطبقهما أمر من يحول بستائر دون رؤية البحر. وليس من شكّ أن ماكنت أذكره على وجه الخصوص آن أفارقها في كّل ليلة إنّما ذاك الجزء منها.وعلى العكس تماماً آثار تجّعد شعرها كل صباح على سبيل المثال، آثارطويلاً في نفسي الدهشة عينها وكأنّما شيء جديد لم يسبق أن رأيته في يوم. ومع ذلك، هل ثمة ما كان أكثر جمالاً من إكليل البنفسج الأسود الجعد هذا الذي يعلو إشراقة عيني فتاة؟ إن الابتسامة تقدّم قسطا أوفر من الصداقة، أمّا العقفات الصغيرة اللمّاعة لشعور مزهرة، وهي أشد قربى إلى الجسد الذي تبدو كأنها صورته نُقِلَتْ موجات صغيرة فإنها تعلق أكثر بالرغبة.

كانت ما إن تدخل غرفتي حتّي تقفز إلى السرير وتحدّد أحياناً نوع ذكائي وتُقسم عبر فورة صادقة أنّها تفضّل الموت على أن تفارقني: كان ذلك في الأيام التي حلقت فيها ذقني قبل الإرسال في طلبها. كانت من تلك النساء اللواتي لايعلمن كيف يكشفن سبب ما يعتلج في صدورهَن. فإنّهنَ يفسرن المتعة التي تسبّبها بشرة ندية بالصفات الخُلقّية التي يتّصف بها ذاك الذي يبدو أنّه يحمل لهّن فيما يخّص مستقبلهّن سعادة يمكن إلى أن تتقلّص وتصبح أقلّ ضرورة كلّما أطلق المرء لحيته.

كنت أسألها أين تنوي الذهاب" أظن أن" أندريه" تودّ اصطحابي إلي منطقة"ليه بوت شومون" التي لاأعرفها."كان يستحيل علي بالتأكيد أن أحرز بين هذا الكمّ من الأقوال الأخرى إن كان ثمّة كذبة مخبّأة تحت هذا القول. كنت على أيةّ حال أثق بـ "أندريه" كي تروي لي عن سائر الأماكن التي تذهب إليها برفقة"ألبيرتين" وكنت نويت في"بالبيك"، حينما أحسستني سئمت إلى أبعد حّد"ألبيرتين"، أن أقول لـ"أندريه" كاذباً:"يا صغيرتي"أندريه"، لو اني عدت فالتقيك قبل هذا فقط! فأنت من كنت أحببت . أمّا الآن فإن فؤادي استقّر في مكان آخر. بامكاننا مع ذلك التلاقي كثيراً لأن حبّي لأخرى يسبّب لي غموماً كبيرة وستساعدينني على التسرية عنها." على أن هذة الأقوال الكاذبة نفسها أضحت حقيقة بعد انقضاء ثلاثة أسابيع. فربّما ظنّت"أندريه" في باريس أن الأمر كذبة بالفعل وأنني أحبها كما لعلّها كانت دون شكّ فعلت في"بالبيك". ذلك لأن الحقيقة تتّبدل بالنسبة إلينا كثيراً حتيّ ليعسر على الآخرين الفصل في الأمر. ولما كنت أعلم أنّها سوف تحدثني عن كلّ ما تكونان فعلتاه هي"ألبيرتين"، سألتها المجئ لاصطحابها كلّ يوم تقريباً وقبلت بذلك. وهكذا يمكنني دون همّ البقاء في المنزل. كانت مهابة"أندريه" التي تكتسبها من أنهّا إحدي فتيات المجموعة الصغيرة توليني ثقة بأنها ستحصل على كلّ ما أبغيه من"ألبيرتين". كان بامكاني حقًا أن أقول لها الآن بصراحة كليّة أنها تستطيع طمأنتي .

ثم إن اختياري لـ"أندريه"(التي اتفّق أنهّا في باريس بعدما تخلّت عن مقصدها في العودة

---

(١) من مسرحية "إيستير" Esther للمسرحي الشهير "جان راسين" (القرن السابع عشر).

إلى"بالبيك") بمثابة دليل لصديقتي كان مردّه ما روته لي"ألبيرتين" عن المحبّة التي محضتني إياّها صديقتها في"باليبك" في فترة كنت أخشى فيها على العكس أن ازعجها ولو انى عرفت الأمر آنذاك فربّما كانت"أندريه" من أحببت. وقالت لي"ألبيرتين": "عجباً، ماكنت تعلم ذلك؟ مع أنّنا كنّا نتبادل المزاج بيننا بهذا الشأن. ألم تلاحظ إلى ذلك أنّها شرعت تتّخذ طريقتك في الكلام والمحاكمة؟ كان الأمر ملفتاً، ولاسيما حالما تكون قد فارقتك. وما كان ثمّة حاجة لتقول لنا إن كانت قد رأتك، فحينما كانت تصل كان يبرز للعيان منذ الثانية الأولى إن هي كانت بالقرب منك. وكنّا نتطلع بعضنا إلى بعض ونتضاحك. لقد كانت مثل فحّام يودّ الإيهام بأنّه ليس فحاماً وهو كله سواد. وليس يحتاج طحان أن يعلن أنه طحّان إذ يرى الناس تماماً كل الطحين الذي يغطيه ولا يزال هناك مطرح الأكياس التي نقلها. والأمر نفسه كان أمر"أندريه"، فقد كانت تدير حاجبيها مثلما تفعل أنت، وكذلك عنقها الطويل، شيء في النهاية أعجز عن إبلاغك إيّاه. حينما آخذ كتاباً كان في غرفتك، يمكنني قراءته خارجاً ويعلم الناس مع ذلك أنّه جاء من عندك لأنّه يحتفظ بشيء من تبخيراتك القذرة. ذلك أمر يسير، ولا يمكن أن أقول العكس ولكنّه يسير في الأساس لطيف إلى حد ما. وفي كلّ مرّة تناولك أحدهم بحديث لطيف وبدا أنّه يقيم لك وزناً كبيراً كانت"أندريه تأخذها النشوة."

لكنّي كنت أنصح، مع ذلك، تجنّباً لأمر ربّما أعد دون علم منّي، بالتخلّي في ذاك اليوم عن "ليه بوت شومون" والتوجّه بالأحرى إلى"سان كلو" أو إلى مكان آخر.

وليس يعني ذلك بالتأكيد، وكنت عالماً بذلك ، أني أكنّ لـ"ألبيرتين" أدنى قدرمن الحبّ. فربّما لم يكن الحب سوى انتشار تلك الحركات الجياشة التي تهزّ النفس على إثر انفعال. وكان سبق أن هزّ بعضها مشاعر نفسي بأكملها حينما حدثتني"ألبيرتين" في "بالبيك" عن الآنسة"فانتوي"، ولكنها توقفّت الآن. فلم أعد أحبّ"ألبيرتين" إذ لم يتبقّ لديّ شيء من الألم، وقد سكن الآن، الألم الذي سبق أن عانيت منه في الحافلة في"بالبيك" وأنا أوافى بما كانت عليه مراهقة "ألبيرتين" التي اقترنت ربّما بزيارات إلى"مونجوفان". كلّ ذلك فكّرت فيه طويلاً جداً وقد شفيت منه. ولكن بعض عبارات "ألبيرتين" كانت تحملني -ولاأدري السبب -على افتراض أنّها لابد تلّقت في حياتها، وما أقصرها بعد، الكثير من الثناء وصنوف البوح الغرامية، وأنّها تلقّتها بالتذاذ، بل كمثل قولك بشهوانية. من ذلك أنّها كانت تقول بشأن أمر، أيّ أمر :"صحيح؟ أهو صحيح تماماً؟" والأكيد أنّها لو قالت كواحدة من أمثال"أوديت" :"أتراها صحيحة هذة الكذبة الكبيرة؟" لما أقلقني ذلك لأن موطن السخرية في التعبير ربّما لقي تفسيره في تفاهة حمقاء تصدر عن فكر امرأة. ولكن هيئتها المستفهمة:"صحيح؟" كانت توليك من جهة انطباعاً غريباًعن مخلوق يعجز عن تبيّن الأمور بذاته، ويناشدك شهادتك كما لو لم يكن يملك ما تملك من قدرات(كنتَ تقول لها:"لقد انقضت ساعة على رحيلنا" أو "المطر يهطل" فتسأل"صحيح؟"). ومن جهة أخرى كان لابد للأسف، أن لايكون غياب السهولة في تبيّن الظاهرات الخارجية شخصياً المنشأ الحقيقي لعبارة"صحيح؟ أهوصحيح تماماً؟" كان يبدو بالأحرى أن هذه الكلمات ربّما كانت، منذ بلوغها المبكّر، إجابات عن: "تعلمين أنّي لم أجد في يوم من كان بمثل

جمالك" ، "تعلمين أني أكن لك حبّا عظيماً، وأني في حال من التهيّج فظيع" ، وهي توكيدات كانت تقابلها، بتواضع كله غنج ورضى، عبارتا:"صحيح؟ أهو صحيح تماما؟" وما كانت تفيدان"ألبيرتين" من بعد فيما يخصني إلا في الإجابة بسؤال عن توكيد من هذا القبيل:"لقد أغفيت ساعة وتزيد.-صحيح؟".

لقد ظلّ يشغلني برنامج نشاطها اليومي دون أن أحسّني مولعاً بـ"ألبيرتين" أقل الولع ودون أن أضع في عداد المتع الفترات التي كنّا نقضيها معاً، أجل، لقد هجرت"بالبيك" كي أتيقّن أنّها لن يسعها من بعد التقاء هذا الشخص أو ذاك من الذين كنت أخشى أن تفعل الإثم معهم وهي تضحك، ربما وهي تضحك منّي إلى حدّ أني حاولت بحذاقة أن أقطع برحيلي علاقاتها المشبوهة جميعها دفعة واحدة. وكانت "ألبيرتين" تملك زخماً كبيراً من السلبيّة وقدرة عظيمة على النسيان والخضوع إلى حدّ قُطعت معه هذه العلاقات فعلاً وشفيت الرهبة التي كانت تسكن ضلوعي. لكنّما يمكنها أن ترتدي من الصيغ ما يرتدي المرض الغامض الذي يؤلّف موضوعها. فقد توافر لي فسحة من السكينة بعد عذاباتي الماضية ما دامت غيرتي لم تتجسّد ثانية في شخوص جديدة. على أن المرض المزمن يفيد من أدنى ذريعة ليُبعث من جديد مثلما يمكن لأدنى مناسبة من جانب آخر أن تفيد عيب الكائن الذي هو علة تلك الغيرة في أن ينشط مجدّداً(بعد فترة من العفّة) مع أشخاص مختلفين. لقد استطعت فصل "ألبيرتين" عن شركائها في الجرم وطرد وساوسي جرّاء ذلك، ولئن كان باستطاعتنا أن ننسيها الأشخاص وأن نقصّر من ارتباطاتها فإن ميلها إلى المتعة كان بدوره مزمناً ولا ينتظر ربّما سوى فرصة سانحة كيما يعاود سيرته، وباريس توفّر منها مقدار ما توفّر"بالبيك".

لم يكن بها حاجة للبحث في أية مدنية كانت لأن العلة لم تكن في"ألبيرتين" وحدها بل في أخريات تبدو كلّ فرصة للمتعة صالحة في نظرهنّ. فإن نظرة من إحداهنّ فهمتها الأخرى في الحال إنّما تقرّب بين الجائعتين. ومن السهل على امرأة حاذقة أن تبدي أنّها لاتبصر، ثمّ تمضي بعد خمس دقائق إلى المرأة التي فهمت وانتظرتها في شارع عَرْضي وأن تضرب موعداً بكلمتين اثنتين. فمن عساه يعرف في يوم؟ وما كان أسهل على"ألبيرتين" أن تقول، كيما يستمرّ ذلك، إنها راغبة في زيارة ثانية لمنطقة في جوار باريس سبق أن أعجبتها. ولذلك كان يكفي أن تعود وقد أفرطت في تأخّرها وأن تكون نزهتها امتدّت فترة يصعب تفسيرها، مع أنّها ربّما تيسّر تفسيرها دون إقحام أيّ سبب شهواني فيها، حتّى ينبعث دائي من جديد وقد انصب هذه المرة على تصوّرات لم تكن من"بالبيك" وسوف أجهد في تدميرها شأن سابقاتها، وكأنّما يستطيع تدمير سبب زائل أن يفضي إلى تدمير داء خلْقي. وما كنت أتبيّن أني، في هذة العمليّات التدميرية التي كان يشاركني فيها، داخل"ألبيرتين"، ملكة التغيير لديها وقدرتهاعلى نسيان بل ما يقارب كره موضوع حبّها الأخير، كنت أتسبّب في ألم عميق لهذا أو ذاك من أولئك الأفراد المجهولين مّمن صادفتْ على التوالي متعةً لديهم، وأني كنت أبعث ذاك الألم دون جدوى لأنهم سوف يُهْجَرون ولكنمّا يُسْتَبْدَلُ بهم آخرون، وفي موازاة الدرب المحوّط بالكثير من صنوف الهجران التي ستفتعلها غير عابئة سوف يتوالى بالنسبة إليّ آخر لا يعرف الرحمة وتكاد

لاتقطّعه فترات راحة قصيرة جداً. وهكذا ما كان لعذابي، لو فكّرت في الأمر، أن ينتهي إلا بانتهاء "ألبيرتين" أوبانتهائي. وحتّى في الفترات الأولى من قدومنا إلى باريس شعرت، وأنا غير راضٍ عن المعلومات التي زوّدتني بها"أندريه" والسائق عن النزهات التي يقومان بها برفقة صديقتي، أن جوار باريس بمثل قسوة جوار"بالبيك" وذهبت بضعة أيّام في رحلة مع"ألبيرتين". لكنّ الشكّ في ما تفعله كان واحداً أنّى كان، واحتمالات أن يكون إثماً كثيرة بالمثل، والرقابة أكثر صعوبة بعد حتي انثنيت عائداً وإيّاها إلى باريس. والواقع أنني ظننت وأنا أغادر"بالبيك" أنيّ أغادر عاموره[١] وأنتزع منها"ألبيرتين". لكّن عاموره كانت، وا أسفي، موزّعة في أربعة أركان العالم. وكنت قد نظّمت في غفلة منّي لعبة"التخبية" هذة التي ستفلت فيها "ألبيرتين" دوماً منّي، في النصف غيرة منيّ والنصف جهلاً بتلك المسرّات (والحالة هذة نادرة جداً).

وكنت أسائلها فجأة: "آه! بهذه المناسبة يا "ألبيرتين"، تراني أحلم، ألم يسبق أن قلت لي إنّك تعرفين "جيلبيرت سوان" ؟" - "أجل، أعني أنّها كلّمتني أثناء الدرس إذ كان لديها دفاتر تاريخ فرنسه، بل هي كانت لطيفة جداً فأعارتني إيّاها وأعدتها إليها حالما رأيتها" - "وهل هي من صنف النساء اللواتي لاأحبهن؟" - "لا، على الإطلاق، بل هي العكس تماماً."

لكنيّ كنت في الغالب، عوضاً عن الانصراف إلى هذا النوع من الأحاديث المستقصية، أكرّس في تخيل نزهة "ألبيرتين" القوى التي لاأستخدمها للقيام بها، وكنت أكلم صديقتي بذاك الاندفاع الذي تحفظه كاملاً غير منقوص المشروعات غير المنفّذة. وكنت أعبّرعن توق كبير للمبادرة إلى مشاهدة ثانية لهذا المزجّجة أو تلك من كنيسة " لاسانت شابيل"، وعن أسف عظيم أن لايسعني القيام بذلك معها وحدها حتّي لتقول لي برقّة: "ولكن يا صغيري، بما أن الأمر فيما يبدو يروقك إلي هذا الحدّ فقم بجهد صغير وتعال معنا. وسننتظر قدر ما تريد إلى أن تكون جهزت. وإن سرّك أكثرعلى أيّ حال أن تكون وحيداً برفقتي فما عليّ إلا أن أعيد "أندريه" إلى منزلها وتجيء هي في مرة ثانية." على أن هذه التوسّلات للخروج كانت هي نفسها تزيد من الطمأنينة التي تسمح لي بالمكوث في البيت.

ما كان يخطر لي أن الخمول الذي بي في الاتّكال هكذا علي"أندريه" أو على السائق في أمر تهدئة اضطرابي بأن أدع لهما أمر مراقبة "ألبيرتين" كان يشلّ ويجمد كل هذة الحركات التخييلية للعقل وكلّ إيحاءات الإرادة التي تعين على أن نكشف ونمنع ما يزمع شخص أن يقوم به. والأمر يزداد خطورة بقدر ما بدا لي عالم الممكنات على الدوام، بدا لطبيعة فيّ أكثر انفتاحاً من عالم الواقع الحقيقي. فإن ذلك يعين في معرفة النفس بيد أن المرء ينخدع بالأفراد. كانت غيرتي تنطلق من صور، ومن أجل عذاب، وليس انطلاقاً من احتمال. لكنمّا يمكن أن يكون ثمّة في حياة الناس وفي حياة الشعوب (وكان لابدّ أن يكون ذات يوم في حياتي) فترة نحتاج فيها إلى مدير شرطة في داخلنا، إلى ديبلوماسي واضح الرؤى ومدير أمن عام صحيح المحاكمة يقول، عوضا عن أن يحلم بالممكنات التي

---

(١) هي مدينة الشاذات في العهد القديم.

تخفيها الأمداء على امتداد الجهات الأربع:" إن أعلنت ألمانيا عن هذا فانمّا يعني أنها تريد أن تفعل أمراً آخر، لاأمراً آخر في المبهم، بل هذا الشيء أو ذاك بصورة دقيقة وربمّا بدأ حتّى مذ ذاك.- ولئن هرب هذا الشخص فإنّه لم يفعل باتّجاه الأهداف أ، ب، د بل باتجاه الهدف ج، وإنّما المكان الذي ينبغي أن نقوم فيه بتحرّياتنا هو، الخ" بيد أني للأسف كنت أدع تلك الملكة التي لم تكن متطّورة لديّ كثيراً، أدعها تتخدرّ وتفقد قواها وتزول وذلك بتعويد نفسي التزام السكينة مادام آخرون ينصرفون إلى المراقبة بدلاً منيّ. أمّا بشأن سبب تلك الرغبة فلعلّ قول ذلك لـ"ألبيرتين" كان بدا لي غير مستحبّ. كنت أقول لها إنّ الطبيب يأمرني بملازمة الفراش، وما كان ذلك صحيحاً. وحتىّ لو كان صحيحاً ما كانت تعليماته لتستطيع الحؤول دون مرافقتي صديقتي. كنت أستأذنها في العزوف عن مرافقتها و"أندريه". ولن أقول سوى واحد من الأسباب وكان سبباً أساسه التعقّل. كنت حالما أخرج بصحبة "ألبيرتين"، نهب القلق إن هي ظلّت لحظة بدوني، فأتصور أنّها ربمّا تحدّثت إلى أحدهم أوحتىّ نظرت إليه. وإن لم تكن صافية المزاج تماماً ظننت أني أفوّت عليها مشروعاً أو أؤجّله. هذا، وإنّ الحقيقة الواقعة لم تكن في يوم سوى مدخل إلى مجهول لايمكننا الذهاب بعيداً جدّا على دربه. والأفضل أن لانعلم وأن نفكّر أقلّ ما يمكن وأن لانزوّد الغيرة بأقلّ التفصيلات المحسوسة. لكنّ ثمةّ لسوء الحظّ في غياب الحياة الخارجية حوادث تجيء بها الحياة الدخلية. فإن لم تكن ثمّة نزهات لـ"ألبيرتين" فقد كانت المصادفات التي ألقاها في صنوف التفكير الذي أقوم به وحيداً تزّودني أحياناً بهذه النتف الصغيرة من الواقع التي تجذب إليها شأن المغناطيس شيئا من المجهول يصبح، وهذه حاله، مصدر ألم. وعبثاً يعيش المرء تحت ما يشبه الخيمة العازلة فإن توارد الخواطر والذكريات تستمرّ في التحرّك.

لكن هذه الصدمات الداخليّة ماكانت تتشكّل في الحال، فما إن تكون "ألبيرتين" مضت في نزهتها حتّى أجدني منشّطا، وإن يكَ لبضع لحظات، جراّء خواصّ العزلة المثيرة. كنت آخذ نصيبي من متع النهار في بدايته، وماكانت الرغبة الاعتباطيةّ - التوق الغريب الأطوار المنطلق منيّ فحسب- ماكانت لتكفي في وضعها في متناول يدي لولم يبادر الطقس الخاصّ السائد لا إلى تذكيري بصورها الماضية فحسب، إلى توكيد الواقع الراهن وهو مباشرة في متناول جميع الناس الذين لايضطرّهم ظرف احتمالي، ولايؤبه به بالتالي، إلى ملازمة منازلهم. كان الطقس في بعض الأيام الصافية بارداً وكنتَ على اتّصال واسع بالشارع حتىّ ليبدو لك أنّهم باعدوا بين جدران المنزل وفي كل مّرة تمّر الحافلة كان صوتها يدوّى كما لعلّ سكّيناً من فضّة كانت فعلت على بيت من زجاج تضرّ به. لكنّما كنت اسمع في داخلي على وجه الخصوص، أسمع منتشياً نغمة جديدة جاء بها الكمان الداخلي. وإنمّا تشدّ أوتاره أو ترخيها محض اختلافات في الحرارة والضوء الخارجيّين. وفي كياننا، هذه الآلة التي جعلها تماثلُ العادة صامته، يولد الغناء من هذه الفروق، من هذه التبدّلات التي هي مصدر كلّ موسيقى: فالطقس الذي يسود في بعض الأيّام ينقلنا في الحال من نغمة إلى أخرى. ونعود فنلتقى اللحن المنسيّ الذي ربمّا كان وسعنا أن نحرز ضرورته الأكيدة والذي ننشده في اللحظات الأولى دون أن نعرفه. وحدها تلك التبدلات الداخلية كانت، وإن هي جاءت من الخارج تجدّد في نظري العالم الخارجيّ. وكانت تعود

فتنفتح في دماغي أبواب اتّصال سُدّت منذ زمن طويل. وأخذت حياة بعض المدن ومرح بعض النزهات، يستعيدان مكانهما في نفسي ولعلّني وأنا أرتعش بكليّتي حول الوتر المهتزّ كنت ضحّيت بحياة الأمس الباهتة وحياتي المستقبلية، وقد ذهبت بهما ممحاة العادة، في مقابل هذة الحالة الشديدة الخصوصّية.

إن كنت لم أذهب لمرافقة"ألبيرتين" في مشوارها الطويل فما كان فكري إلا ليهيم متزايد التطواف، ولأنني رفضت تذوّق تلك الصبيحة بحواسّي كنت أتمتّع في خيالي بسائر الصبيحات المماثلة، الماضية أو الممكنة، والأحرى أن أقول بنمط معين من الصبيحات التي لم تكن كلّ تلك التي من الصنف نفسه سوى ظهور متقطّع له وسرعان ماتعرّفته. ذلك لأنّ الهواء القارس كان يقلّب بنفسه الصفحات اللازمة فأجد أنجيل اليوم أمامي وقد حُدّد تماماً كيما أستطيع متابعته من سريري. تلك الصبيحة المثاليّة كانت تغمر فكري بواقع دائم يماثل تماماً سائر الصبيحات المشابهة ويبعث في نفسي حبوراً لاتقلّل منه حال الوهن الذي بي، فالهناءة إنّما تنجم عن الفائض اللامستخدم في قوانا أكثر منها عن صّحة جّيدة، ويمكننا بلوغها بتقليص نشاطنا تماماً كما نفعل بزيادة تلك القوى. والنشاط الذي كان يفيض منّي وأحتفظ به بالقوّة في سريري كان يجعلني أنتفض وأقفز في داخلي، مثلي مثل آلة حيل دون أن تبدّل مكانها فتدور حول ذاتها.

كانت"فرانسواز" تُقبل لإشعال النار وترمي فيها بغية إيقادها بعض دقاق الحطب وكانت رائحته المنسيّة طوال الصيف ترسم حول الموقد دائرة سحريّة كنت، وأنا أشاهد نفسي فيها أقرأ تارة في "كومبريه" وأخرى في"دونسيير"، فرحاً فيما لاأبرح غرفتي في باريس، فرحي لو أنني على وشك الذهاب في نزهة في جانب"ميزيكليز" أو لقاء"سان لو" وأصدقائه يقومون بأنشطتهم العسكرية خارج المعسكر. وغالباً ما يتّفق أن تكون المتعة التي يحسّها كّل الناس في استعادة الذكريات التي جمعتها ذاكرتهم أوفر شدّة على سبيل المثال لدى أولئك الذين يحرمهم طغيان الداء الجسماني والأمل اليوميّ في شفائه أن يمضوا من جهة باحثين في الطبيعة عن لوحات تشبه تلك الذكريات، ويدعهم من جهة أخرى على شيء من الثقة بأنهم سيستطيعون القيام بذلك في القريب العاجل ليلبثوا تجاهها في حال من الرغبة والتوق ولايقتصروا على اعتبارها ذكريات ولوحات. ولكن حتى لو استطاعت أن لا تكون في يوم سوى ذلك بالنسبة إليّ وأمكنني في تذكّرها أن أستعيدها فحسب فقد كانت تعيد فيّ وتجعل منّي فجأة، بفضل إحساس مماثل، الطفل، اليافع الذي سبق أن شاهدها. فلم يكن ثمّة تبدّل في الطقس في الخارج فحسب أو تحوّل في الروائح داخل الغرفة، بل اختلاف في السنّ لديّ وحلول شخص محل آخر. كانت رائحة دقاق الحطب في الهواء القارس كأنّما قطعة من الماضي، جليديّة لامرئية اقتُطعت من شتاء قديم تقدّم داخل غرفتي ويخدّدها في الغالب على أيّ حال ذاك العطر وذاك الوميض وكذلك سنون مختلفة أعود فأجد نفسي مغموساً فيها ويجتاحني، قبل أن أكون تعرّفتها، مرح آمال مهجورة منذ زمن طويل. كانت الشمس تُقبل حتّى سريري وتخترق الحاجز الشفّاف الذي يشكّله جسمي المرقّق ويدفّئني ويُلهبني كما يفعل بالكريستال. حينئذ كنت أسائل نفسي، كناقه عضّه الجوع فإذا به يغتذي

بجميع الأطباق التي لايزالون يرفضونها له،إن لم يكن زواجي من"ألبيرتين" سوف يفسد حياتي، سواء في ذلك تحميلي العبء الثقيل عليّ المتمثّل في تكريس ذاتي لشخص آخر وإلزامي أن أحيى في غياب عن ذاتي بسبب وجودها الدائم وحرماني إلى الأبد من مسرّات العزلة. وليس من هذه فقط. فحتّى إن لم أطلب في نهاري سوى رغبات، فانّ ثّمة منها- تلك التي تبعثها لا الأشياء بل الأشخاص- ماكان طابعها الفرديّة. لذلك كنت إن مضيت وأنا أغادر فراشي لأزيح مقدار لحظة ستارة نافذتي فما كان ذلك فقط كأمر موسيقيّ يفتح البيانو مقدار لحظة وكيما أتحقّق إن كان نور الشمس على الشرفة وفي الشارع يطابق تماماً صورته في ذاكرتي، بل إلى ذلك لمشاهدة غسّالة تحمل سلّة غسيلها، وبائعة خبز بصدارة زرقاء وبائعة حليب بمريلة وأكمام من قماش أبيض تمسك بمحجن عُلّقت به زجاجات الحليب، وفتاة شقراء مزهوّة تتبع معلّمتها، صورة باختصار القول كانت الفوارق في خطوطها، وهي ربّما لاقيمة لها على صعيد الكم، كافية لتجعلها مختلفة عماّ عداها مثلما هو الفارق بين نغمتين في جملة موسيقيّة، ولعلي كنت بدون رؤيتها سلبتُ النهار الأهداف التي يمكن أن تعرضها على رغباتي في السعادة. ولئن كان فرط الغبطة الذي تجيئني به رؤية النساء اللائي تصّورهّن قبليًا، لئن كان يجعل الشارعَ والمدينةَ والعالم أشدّ استنارة لأشواقي وأولى بالاستكشاف فقد كان يوليني من جرّاء ذلك تعطّشاً إلى الشفاء والخروج خارجاً وأن أكون، بدون"ألبيرتين"، حراً طليقاً. وكم مرة عانيت، لحظة تمرّ المرأة المجهولة التي كنت أزمع أن أحلم بها، أمام البيت سيراً على الأقدام تارة وطورا بأقصى سرعة سيّارتها، من عجز جسمي عن أن يلحق بنظري الذي كان يدركها وأن يوقف، وقد أهوى عليها وكأنّماَ أطلقته بندقّية عتيقة من شقّ نافذتي، هروب المحّيا الذي ينتظرني فيه الوعد بسعادة ماكنت، وأنا حبيس على هذا النحو، لأذوقها في يوم!

وفي المقابل لم يظلّ لي بعدُ شيء أتعلّمه عن"ألبيرتين". فقد كانت تبدو لي كلّ يوم أقلّ جمالاً. وحدها الشهوة التي تؤجّجها لدى الآخرين كانت ترتفع بها في نظري إلى سدّة عالية حينما كنت أعود فأتألم حين أبلّغ الأمر وأعتزم منازعتهم إيّاها. كان بمقدورها أن تسبّب لي العذاب وليس الفرح، وبالعذاب وحده كان يستمرّ تعلّقي المزعج. وحالما كانت تغيب وتغيب معها الحاجة إلى تسكينه، وهي تقتضي كامل انتباهي كمثل تسلية مريحة، كنت أشعر بالعدم الذي كانته بالنسبة إليّ وما لابدّ كنته بالنسبه إليها. كنت تعيساً لدوام هذه الحال فأتمنىّ بين الحين والحين أن أبلّغ أمراً مريعاً اقْتَرَفَتْه وكان بمقدوره إلى أن أكون شفيت أن يخلف بيننا، والأمر سيمكّننا من التصالح وجعل الرباط الذي كان يجمعنا مختلفاً وأكثر مرونة. وبانتظار ذلك كنت أكلّف ألف ظرف وألف متعة أن تزوّدها بقربي بوهم تلك السعادة التي لاأحسني قادراً على توفيرها لها. وددت حال شفائي لو أمضي إلى البندقيّة، ولكن كيف أفعل ذلك إن تزوّجت"ألبيرتين" أنا الغيور عليها حتّى إنّي حالما كنت أقرّر التحرّك حتّى في باريس فإنّما أفعل للخروج برفقتها؟ وحتّى حينما أمكث طوال العصر في المنزل كان فكري يتعقّبها في نزهتها ويرسم أفقاً بعيداً ضارباً إلى الزرقة ويولّد حول المركز الذي كنته منطقة متحركة من الشكّ والغموض. وكنت أقول في نفسي:"كم لعلّ"ألبيرتين" توفّر عليّ من غموم الانفصال لو قررّت، في أثناء واحدة من تلك النزهات، وهي تبصر أني ما عدت أكلّمها عن الزواج، أن لاتعود وذهبت إلى

عمتها دون أن أضطرّ لوداعها! " لقد شرع قلبي منذ أن أخذ جرحه يلتئم، شرع لا يلتصق بقلب صديقتي، فكنت أستطيع نقلها بالخيال وإبعادها عنّي دون تألمّ. وليس من شك أن آخر غيري، إن خلا منّي المكان، سوف يصبح زوجها وربّما وقع لها، وقد أضحت حرّة، شيء من تلك المغامرات التي كانت تثير اشمئزازي. ولكن الطقس كان جميلاً جداً وكنت واثقاً أنّها ستعود في المساء إلى حدّ أستطيع معه، إن خطرت لي فكرة الأخطاء الممكنة هذه أن أسجن الفكرة بفعل حرّ في قسم من دماغي لم يكن لها من الأهمّية فيه أكثر ممّا تكتسبه معايب شخص وهمي تجاه حياتي الحقيقية. لقد تجاوزت، إذ أعملتُ مفصّلات فكري المليئة، تجاوزت، بعزم كنت أحسّه داخل رأسي ماديّا وفكريًا في آن واحد على غرار حركة عضلية ومبادرة روحيّة، حالة الانشغال المعتاد الذي سُجنت داخله حتّى الآن وشرعت أتحرّك في الهواء الطلق من حيث تبدو لي التضحية بكل شيء للحيلولة دون زواج"ألبيرتين" من آخر غيري وعرقلة ميلها إلى النساء من قبيل اللامعقول في نظري كما هو الأمر في نظر من لم يكن عرفها. والغيرة بأيّة حال من تلك الأمراض المتقّطعة التي يبدو سببها متقلّباً وقاهراً ومتماثلاً على الدوام لدى المريض عينه، ومختلفاً تمام الاختلاف أحياناً لدى آخر غيره. فثمة مرضى بالربو لايهدّئون من نوبتهم إلاّ بفتح النوافذ وتنشّق الهواء الطلق، الهواء النقيّ على المرتفعات، وآخرون باللجوء إلى مركز المدينة في غرفة تملؤها الأدخنة. وليس من غيور تقريباً إلاّ وتشوب غيرته بعض الخروقات. فهذا يقبل الخيانة شرط أن يُقال له ذلك، وآخر شرط إخفاء الأمر عنه، وكاد هذا لا يكون أقلّ عبثيّة من ذاك في هذا الأمر، لأنهّ إن كان الثاني أقرب إلى الخديعة الحقّة لما يُخفون الحقيقة عنه، فالأوّل يلتمس في هذه الحقيقة غذاء لآلامه وامتداداً وتجديداً.

أضف أن هذين الصنفين من التصرّف الغريب والمتناقض للغيرة يتجاوزان في الغالب حَدّ الأقوال، سواء التُمِسَتْ أورفضت المسارّات. فإنّك ترى غيارى لايغارون إلاّ من الرجال الذين ترتبط عشيقتهم بعلاقات معهم بعيداً عنهم، ولكنّهم يسمحون أن تسلّم نفسها لرجل آخر غيرهم إن كان بتصريح منهم وعلى مقربة وإن لم يكن حتّى تحت العين والبصر فعلى الأقلّ تحت سقف بيتهم. والحالة هذه كثيرة الحدوث إلى حّد لدى المسنّين الذين وقعوا في غرام امرأة فتيّة. فإنّهم يشعرون بصعوبة نيل إعجابها وأحياناً بعجزهم عن إرضائها فيفضّلون على خديعتهم السماح بأن يجيء إلى بيتهم وفي غرفة مجاورة من يحكمون أنّه عاجز عن إسداء نصائح السوء لاعن توفير المتعة. والأمرعلى نقيض ذلك تماماً بالنسبة إلى آخرين: فهم إذ لايدعون لعشيقتهم أن تخرج وحدها دقيقة واحدة في مدينة يعرفونها يفسحون لها أن تذهب شهراً إلى بلد لايعرفونه ولايستطيعون أن يتخيّلوا ما ستفعل فيه. كنت أسلك إزاء"ألبيرتين" هذين النوعين من السلوك الغريب المهدّىء. فما كنت لأغار لو أنّها بلغت متعاً بالقرب منّي وبتشجيع منّي وأمكن أن أجعلها جميعاً تحت رقابتي فأوفّر على نفسي بذلك خشية الكذب عليّ. ولعلّني ماكنت لأغار أيضاً لوأنّها ذهبت إلى بلد مجهول لديّ إلى حدّ ما وبعيد بما لاأقوى معه على تصوّر أسلوب حياتها أو على إمكان ورغبة معرفته. ولعلّ الشكّ في كلا الحالتين كان زال من جرّاء معرفة أو جهل تامّين على السواء.

كان تراجع ضوء النهار يغمسني من جديد عن طريق التذكّر في جوّ قديم نديّ فأتنشّقه بذات التلذّذ الذي يتنشق به"أورفيوس"[١] الهواء الرقيق المجهول على هذه الأرض والمنبعث من"الشانزيليزيه".[٢] لكن النهار كان يدرك مذذاك نهايته وأخذت تجتاحني كآبة المساء. كنت أرى، وأنا أنظر عفوياً على ساعة الحائط كم ساعة ستنقضي قبل عودة"ألبيرتين"، أن الوقت لايزال يتّسع لي لارتداء ملابسي والنزول لأسأل صاحبة بيتي السيّدة"دوغيرمانت" إرشادات حول بعض أشياء الملبس الجميلة التي أودّ تقديمها لصديقتي. كنت أحياناً ألتقي الدوقة في الباحة وهي خارجة في جولات على الأقدام، حتّى إن كان الطقس سّيئاً، بقبّعة مسطحة وفراء. كنت أعلم تمام العلم أنّها لم تكن في نظر كثير من الناس الأذكياء سوى سّيدة أيّة سيّدة، إذ لايعني اسم دوقة"غيرمانت" شيئاً الآن حين لم يبق هناك دوقيّات ولا أمارات ولكني كنت قد اتخذت وجهة نظر مغايرة في طريقة استمتاعي بالكائنات والبلدان. فقصور الأراضي جميعها التي كانت دوقة عليها وأميرة و"فيكونتيسّة"، كانت تلك السّيدة ذات الفراء التي تتحدّى الطقس الرديء. تبدو كأنّما تحملها معها مثلما الأشخاص المنحوتون على ساكف البوّابة يحملون في يدهم الكاتدرائيّة التي شيّدوها أو المدينة التي دافعوا عنها. لكنّ عيني فكري وحده كانتا قادرتين على رؤية هذه القصور وهذة الغابات في اليد المقفّزة للسيّدة ذات الفراء ابنة عمّ الملك. أمّا عينا جسدي فما كانتا تميّزان فيها في الأيّام التي ينذر الطقس فيها بالسوء سوى ممطرة ماكانت الدوقة تخشى التسلّح بها."ليس أحد يدري، والأمر زيادة في الحذر إن وجدتُني بعيدة جدّا وطالبتني العربة بأسعار غالية جداً عليّ." كانت عبارتا: "غالية جداً" و"تتجاوز إمكاناتي" تتردّدان طوال الوقت في حديث الدوقة، وكذلك عبارة:"أنا فقيرة جداً" دون إمكان أن تستخلص إن كانت تتكلّم على تلك الشاكلة لأنّها تجد تسلية في قولها إنّها فقيرة، وهي بمثل غناها، أو لأنّها تراه من باب الأناقة، وهي بمثل أرستقراطيّتها، أعني تكلّفها الظهور بمظهر الفلاّحة وبأنّها لاتولي الغنى الأهمّية التي يوليها الناس الذين هم محض أغنياء ويزدرون الفقراء. وربّما كانت تلك بالأحرى عادة اتخذت في فترة من حياتها كانت تعاني فيها، وهي غنيّة مذذاك ولكن بمالا يكفي إزاء ماتقتضيه صيانة هذا الكمّ من الممتلكات، عوزاً إلى المال لاتودّ أن تبدي أنها تتستّر عليه. وانّ الأمور التي نتحدّث عنها في الغالب مازحين إنّما هي بعامّة وعلى العكس تلك التي نضيق بها إلاّ أننّا لانودّ أن يبدو علينا أنّنا نضيق بها، ربّما إلى جانب الأمل الدفين بذاك المكسب الإضافيّ الذي قوامه بالضبط أن الشخص الذي نتحدّث وإيّاه سوف يظنّ، إذ يسمعك تمازح بشأنه، أنّ الأمر ليس صحيحاً.

لكنيّ كنت أعلم في الغالب أنّي سألقي الدوقة في منزلها في تلك الساعة، وكنت سعيداً بذلك فقد كان الأمر أيسر لي كي أطيل في سؤالها حول معلومات ترغب فيها"ألبيرتين". وكنت أنزل إلى هناك دون أن أفكّر تقريباً كم كان غريباً أن أمضي إلى بيت السيّدة"دوغيرمانت" الغامضة هذه، سيّدة

---

(١) Orphée: منشد ورد ذكره في ملحمة هوميروس! وقد انحدر إلى الجحيم بحثاً عن زوجته"أوريديسي".

(٢) هو مقرّ أرواح الأبطال وأرباب الفضيلة في ميثولوجيا اليونانيين (مثل قولك جنّات الخلد).

طفولتي، لمحض أن استخدمها في سبيل تيسيرأمورعملي مثلما نفعل بالهاتف، الآلة الخارقة التي كان الناس بالأمس يذهلون إزاء معجزاتهم وهم يستخدمونها الآن، حتّى دون أن يفكّروا فيها، ليستقدموا خياطهم أو في طلب"البوظة".

كانت هنات الزينة تولي"ألبيرتين" مسرّات عظيمة. وما كنت أقوى على أن أحجب النفس عن توفير مسرّة جديدة لها في كل يوم. وفي كل مرّة حدثتني فيها بافتتان عن منديل، عن وشاح من الفرو، عن شمسيّة أبصرتها من النافذة أو لدى مرورها في الباحة، بعينيها اللتين كانتا تميّزان بسرعة عظيمة كلّ ما يتّصل بالأناقة، حول جيد السيّدة"دوغيرمانت" وعلى كتفيها وفي يدها، كنت، وأنا عالم أن ذوق الفتاة المتصعّب في طبيعته(وقد زادت من رهافته دروس الأناقة التي شكّلها بالنسبة إليها حديث"ايلستير") لن يرتضي إطلاقاً أي شيء تقريبيّ بسيط، وإن كان نقلاً عن نموذج جميل، يحلّ محلّه في نظر الدهماء، ولكنه يختلف عنه اختلافاً كاملاً، كنت أمضي سراً طالباً أن توضح لي الدوقة أين وكيف وعن أيّ نموذج صُنِعَ ما راق لعيني"ألبيرتين" وكيف يجدر بي أن أفعل للحصول عليه بالضبط وعلى ما يقوم سر الصانع وسحر طريقته(وهو كانت"ألبيرتين" تدعوه"الأناقة" و"المسحة") والاسم الدقيق ونوعيّة الأقمشة التي يجدر بي أن أسألهم استخدامها- فإن لجمال المادّة أهميّته-.

حينما قلت لـ "ألبيرتين" لدى وصولنا إلى"بالبيك" إن الدوقة"دوغيرمانت" تسكن قبالتنا في الفندق نفسه اتخّذت لدى سماعها اللقب الكبير تلك الهيئة التي تتجاوز اللامبالاة، إلى العداء، إلى الازدراء الذي هو علامة الرغبة العاجزة في الطبائع الأبّية الحماسيّة الهوى. وعبثاً كانت طبيعة"ألبيرتين" تتّسم بالسموّ فما كانت الخصال التي تحويها تستطيع التنامي إلاّ وسط هذه العقبات التي تؤلفها أذواقنا أوما سلّمنا بحرماننا منه من أذواقنا، هذا الجزء الذي اضطررنا إلى التخلّي عنه- كما هو حال"ألبيرتين" بالنسبة إلى السنوبيّة: وهذا ما ندعوه بالأحقاد. وحقد"ألبيرتين" على ناس المجتمع الراقي كان يحتلّ على أيّة حال حيّزاً هيناً جداً في نفسها ويروقني بجانب روح الثورة فيه- ونعني الحبّ الفاشل لطبقة النبلاء- المنقوش على الوجه المقابل من الطباع الفرنسيّة حيث الصنف الأرستقراطيّ، صنف السيّدة"دوغيرمانت". والصنف الأرستقراطيّ هذا ما كانت"ألبيرتين" ربّما اهتّمت به لاستحالة بلوغه، بيد أنّها إذ تذكرت أن"إيلستير" سبق أن حدّثها عن الدوقة على أنّها المرأة الباريسيّة الأفضل مَلْبساً فقد أفسح الازدراء الجمهوري تجاه إحدى الدوقات، أفسح المكان لدى صديقتي لاهتمام شديد بإحدى الأنيقات. فكثيراً ماكانت تسألني معلومات عن السّيدة"دوغيرمانت" وتودّ أن أمضي إلى منزل الدوقة لأحمل لها نصائح في اللباس. كان بوسعي دون شك أن أطلبها من السيّدة"سوان"، بل كتبت إليها مرة لهذه الغاية. لكنّما كان يبدو لي أن السيّدة"دوغيرمانت" كانت تبلغ مدى أبعد في فنّ الملبس. فإن نزلتُ فترة إلى بيتها بعدما أكون تأكّدت أنّها لم تخرج ورجوت أن يخطروني حالما تكون "ألبيرتين" قد عادت، كنت أجد الدوقة غارقة في ضباب مبذل من قماش "كريب" الصين الرمادي وكنت أقبل هذا المظهر الذي أحسُه ناجماً عن أسباب معقّدة ولعلّه ما كان يمكن

تغييره، وأدع للجوّ المنبثق منه أن يجتاحني، مثلما يجتاح ضباب رقيق أواخر بعض أَعْصُرٍ يبطّنها لون رماديّ لؤلئيّ. فإن كان ذاك المبذل على العكس صينيّاً بلهب أصفر وأحمر كنت أراها بصورة غروب مشتعل. ما كانت تلك الأثواب زينة، أيّة زينة يمكن تغييرها حين تشاء بل حقيقة معطاة شاعريّة كما هي حقيقة الطقس السائد، كما هو الضوء الخاص في ساعة معينّة.

من بين سائر الفساطين أو المباذل التي كانت السيّدة "دوغيرمانت" ترتديها كانت تلك التي تبدو الأكثر استجابة لمقصد محدّد وتحمل دلالة خاصّة هي الفساطين التي صنعها "فورتوني" نقلاً عن رسوم قديمة في البندقيّة. فهل هو طابعها التاريخي، أم هو بالأحرى كون كلٍّ منها فريداً هو الذي يوليه طابعاً خاصاً إلى حد تتخذ معه وقفة المرأة التي ترتديها وهي في انتظارك، وهي تتحدث وإيّاك: أهميّة استثنائية كما لو كانت تلك البزّة ثمرة تشاور طويل وكما لو كانت تلك المحادثة تنفصل عن الحياة العاديّة شأن مشهد روائيّ؟ فإنّك تشاهد في روايات "بلزاك" بطلات يرتدين عمداً هذه الأثواب أو تلك في اليوم الذي يقع عليهنّ استقبال زائر معيّن. أمّا أثواب اليوم فلم يعد لها هذا الطابع البارز، باستثناء فساطين "فورتوني". ولايمكن أن يبقى أيّ غموض في وصف الروائي بما أن هذا الفسطان موجود حقّاً وأن أقلّ رسومه محدّدة بصورة طبيعيّة تضاهي رسوم عمل فنيّ. لقد كان على المرأة قبل أن ترتدي هذا أو ذاك أن تقوم بعمليّة اختيار بين فسطانين ليسا متشابهين تقريباً بل لكلّ منهما فرديّته العميقة ويمكن أن نطلق اسماً على كلّ منهما.

لكنّ الفسطان لم يكن يحول دون أن أفكّر في المرأة. والسيّدة "دوغيرمانت" بدت لي في هذه الفترة حتّى أكثر إمتاعاً منها في الزمن الذي كنت بعد على حبّها. ولما تناقص ما كنت أتوقّعه منها (هي التي لاأمضي للقائها من بعد من أجل شخصها) فقد كنت أصغي إليها بما يقارب الهدوء اللامبالي الذي نبديه حينما نكون وحدنا نضع قدمينا على قضبان المدفأة وكما لعلّي كنت قرأت كتاباً ألّف بلغة الأمس. لقد توافر لي ما يكفي من حريّة فكرية كيما أتذوّق في ما كانت تقول هذه الأناقة الفرنسيّة الشديدة الصفاء التي لانلقاها من بعد لافي كلام الزمن الحاضر ولا في كتاباته. كنت أصغي إلى حديثها إصغائي لأغنية شعبيّة عذبْ طابعها الفرنسيّ، وأدركُ أن كنت سمعتها تسخر من "ميترلنك" (Moeterlinck) (الذي أضحت الآن معجبة به على أيّة حال لضعف في فكر المرأة الذي يتأثّر بهذه الصرعات الأدبيّة التي تأتي أشعتّها متأخّرة) مثلما أدرك أن يسخر "ميريميه" (Mérimée) من "بودلير" (Baudelaire) و"ستاندال" (Stendhal) من "بلزاك"(Balzac) و"بول لوي كورييه" (Paul Louis Courier) من "فيكتور هوغو" (Victor Hugo) و"ميلاك"(Meilhac) من "مالارميه"(Mallarmé). وأدرك تماماً أنّ الساخر كان يحمل فكراً محدوداً جداً قبالة ذالك الذى يسخر منه، ولكنّما يملك إلى ذلك مفردات أكثر صفاءً. كانت مفردات السيّدة "دوغيرمانت"، بما يقرب من ذات المقدارني مفردات والدة "سان لو"، تتّسم بتلك الصفة إلى حدّ كان يفتنني. فما أنت واجد في معارضات كتّاب اليوم الجافّة ممّن يقولون "في الواقع" (بدلاً من "في الحقيقة") و"على نحو غريب" (بدلاً من"على وجه الخصوص") و"مستغرب" (بدلاً من "يتملكه الذهول") إلخ، إلخ، اللغة العتيقة

والتلفّظ الصحيح بالكلمات، بل في حديثك مع السيّدة "دوغيرمانت" أومثيلات "فرانسواز". فقد تعلّمت من الثانية ومنذ الخامسه من عمري أنهّم لايقولون "لوتارن"(Le Tarn) بل "لوتار"(Le Tar)، ولايقولون "لوبيارن"(Le Béarn) بل "لوبيار" (Le Béar). وقد كان من ذلك أني حينما دخلت عالم النخبة لم يقع عليّ أن أتعلمّ أنه ينبغي أن لانقول مثلما تفعل السّيدة "بونتان": مدام "دوبيارن".

لعلّني أكذب إن قلت إن هذا الجانب الريفيّ وشبه الفلاّحي الذي ظلّ باقياً لديها لم تكن الدوقة تعيه ولم تكن تتعمّد بعض التصنّع في إبرازه. ولكن الأمر من جانبها كان أقلّ ما كان بساطة كاذبة لدى سيّدة كبيرة تظهر مظهر الريفيّة واستكبار دوقة تسخر من السيّدات الغنيّات المزدريات للفلاّحين الذين لايعرفنهم، وأكثره ميل يقرب أن يكون فنيّاً لدى امرأة تعرف سحر ماتملك ولن تفسده بطلاء عصريّ. وبالطريقة عينها عرف الجميع في "ديف" صاحبَ مطعم نورمانديّ يملك "غليوم الفاتح" تَجَنّبَ تماماً أن يضفي على دائرته الفندقيّة طابع البذخ العصري الذي يطبع الفنادق وكان يحتفظ، هو المليونير، بلغة وصدريّة فلاّح نورماندي ويأذن لك أن تأتي لمشاهدته وهو يعدّ بنفسه في المطبخ، كما هي الحال في الريف، عشاء كان مع ذلك أفضل إلى مالاحدود وأغلى ثمناً ممّاهو في أعظم الفنادق.

ليس يكفي كلّ النسغ المحليّ الكائن في الأسر الأرستقراطيّة العريقة ولابدّ أن يولد فيها شخص على ذكاء كافْ كي لايجرى ازدراء ذاك النسغ وطمسه تحت طلاء المجتمع الراقي. أما السيّدة "دوغيرمانت" وهي لسوء الحظّ خفيفة الظلّ باريسيّة وما كانت تحتفظ من ريفها حين عرفتها بغير النبرة، فكانت على الأقلّ قد وجدت حينما تبغي وصف حياتها البنويّة بالنسبة إلى لغتها (بين ما لعلّه بدا ريفياً تغلب عليه العفويّة أوعلى العكس تغلب عليه صنعة المثقّفين) واحداً من تلك الحلول الوسط التي هي مبعث الإمتاع في رواية "فاديت الصغيرة"(La Petite Fadette) لـ"جورج صاند" أو في بعض أساطير نقلها "شاتوبريان" في كتابه "مذكّرات مابعد الممات". كانت متعتي على وجه الخصوص أن أسمعها تروي حكاية تضع أمامنا فلاّحين برفقتها. لقد كانت الأسماء العريقة والعادات القديمة تولي المقارنات بين القصر والقرية نكهة مستملحة. فإن طبقة من الأرستقراطيّين ظلّت على اتّصال بالأراضي التي كانت سيّدة فيها إنّما تبقى محلّيّة الطابع حتىّ لينشر أبسط القول أمام ناظرينا خريطة تاريخيّة وجغرافية كاملة لتاريخ فرنسه.

فإن لم يكن تصنّع البتّة أو أيّ تصميم على اصطناع لغة ذاتيّة فإن هذه الطريقة في التلّفظ كانت حينذاك متحفاً حقيقياً لتاريخ فرنسه يستخلص من المحادثة. لم يكن في عبارة "شقيق جدّي فيت-جام" مايدُهش، إذ نعلم أن آل"فيتس جيمس" يعلنون من تلقاء أنفسهم أنهم أسياد فرنسيّون كبار ولايودّون أن يلفظ اسمهم على الطريقة الانكليزية لـ"Fitz-James ← Fitt-jam". وينبغي لنا على أيّة حال أن نعجب بالطواعية المؤثّرة لدى من ظنّوا إلى الآن أنّ عليهم أن يجهدوا في لفظ قواعديّ لبعض الأسماء، فإذا هم ينصرفون فجأة، بعدما سمعوا الدوقة "دوغيرمانت" تقولها بطريقة مختلفة، إلى اللفظ الذي ما استطاعوا افتراضه. من ذلك أن الدوقة سبق أن كان لها والد جدّ لدى الكونت

"دوشامبور" فكانت تحبّ أن تعلن، بغية مضايقة زوجها لأنه انحاز إلى آل"أورليان": "نحن قدامى "فروشدورف". وكان الزائر الذي ظنّ أنّه يُحسن فعلاً بقوله حتّى ذاك "فروسدورف"، كان يبدّل رأيه كأسرع مايكون ويقول دون إبطاء "فروشدورف".

وفي مرّة كنت أسأل فيها السيّدة "دوغيرمانت" من عساه كان الشاب الرائع الذي سبق أن قدّمته لي على أنّه ابن أخيها ولم أسمع اسمه بوضوح، لم أميّز ذاك الاسم أكثر من ذي قبل حين قالت الدوقة بصوت قويّ ولكن دونما تلفّظ واضح:"إنّه الـ..زيز"ايون" شقيق "روبير"، ويبدو أنّه يملك شكل جمجمة الغاليّين القدامى" حينئذ فهمت أنها قالت: إنّه العزيز "ليون" (الأمير"دوليون" وهو بالفعل صهر"روبير دوسان لو"). وأضافت قولها: "وفي جميع الأحوال لاأدري إن كان يملك جمجمتهم ولكن طريقته في الملبس، وهي على كثير من الأناقة على أيّة حال، ليست من هناك تماماً. ففي يوم ذهبنا فيه، من "جوسلان" حيث كنت لدى آل"روان"، صبحً، أقبل فلاّحون من جميع أنحاء "بريتانيه" تقريباً. وكان ثمّة قرويّ من مقاطعة "ليون" عظيم القد، ينظر بدهشة إلى بنطال صهر "روبير" "البيج"، فقال له "ليون": "ما بك تنظر إليّ؟ أراهن أنّك لاتعلم من عساني أكون." وإذ كان الفلاح يجيب بالنفي:"هاك إذن! إنّي أميرك". فأجاب القلاح وهو يكشف عن رأسه ويعتذر:"آه! ظننتك انكليزيّاً." فإن انتهزت نقطة الانطلاق هذه فدفعت بالسيّدة "دوغيرمانت" حول موضوع آل "روان" (وكثيراً ماعقدت أسرتها مصاهرات معهم) شاب حديثها شيء من سحر الاستغفارات الحزين وكما ربّما قال هذا الشاعر الحقيقيّ المدعوّ "ياميبيي"، "من النهكة اللاذعة التي لفطائر القمح الأسود المخبوزة على نار الجولق".

أمّا عن المركيز "دولو" (الذي نعرف آخرته التعيسة حينما كان يُحْمَل وبه صمم إلى منزل السيّدة هـ..العمياء)، فقد كانت تروي عن سنيه الأقل مأساويّة حينما كان يحتذي، بعد الصيد في "غيرمانت"، مشايته لتناول الشاي مع ملك انكلتره، وما كان يرى نفسه دونه ولايتحرّج معه كما نرى. كانت تُلفت النظر إلى ذلك بكثير من الإثارة حتّى لتضيف إليه الزهو الفضفاض الذي يطبع النبلاء في منطقة "بيريغور" وهم على بعض اعتزاز.

والاهتمام على أيّ حال، حتّى في محض توصيف الناس، بالتمييز بين المقاطعات، كان في نظر السيّدة "دوغيرمانت"، التي لبثت أبداً ذاتها، سحراً عظيماً ما كان لباريسيّة المنشأ أن تحوزه في يوم وكانت مجرّد أسماء الـ"أنجو" والـ"بواتو" والـ"بيريغور" تعيد في حديثها تشكيل مناظر طبيعيّة.

فإن عدنا إلى لفظ ومفردات السيّدة "دوغيرمانت"، فإنّما يبدو النبلاء محافظين حقّاً في هذا الجانب بكل ماتنطوي عليه هذه الكلمة من بعض الصبيانية وبعض الخطورة ومقاومة التطورّ، بل من إثارة كذلك للفنان. كنت أودّ أن أعلم كيف كانت تكتب فيما مضى كلمة"جان" (Jean) وعرفت ذلك باستلامي رسالة من ابن شقيق السيّدة "دو فيلباريزيس" الذي يوقّع "جيهان دو فيلباريزيس" Jehan de Villeparisis - كما ورد في المعموديّة وما هو موجود في كتاب "غوتا"(Gotha) -بحرف الـ"h" نفسه الجميل العديم الجدوى الشعاريّ على نحو ماتتأمّله مزوّقاً باللون القرمزيّ أو اللازوردي في

كتاب للساعات[١] أو مزجّجة.

لم يكن الوقت يتّسع لي للأسف لإطالة هذه الزيارات إلى غير ما حدّ فقد كنت أودّ أن لاأعود بعد صديقتي ما أمكنني ذلك. بيد أنّي ماكنت أستطيع الحصول من السيّدة "دوغيرمانت" على معلومات حول ملابسها إلاّ بالقطّارة، والمعلومات كانت تفيدني من أجل صنع ملابس لِـ"ألبيرتين" من الطراز نفسه إن كان بمقدور فتاة أن ترتدي مثلها.

"كنت على سبيل المثال ياسيّدتي، في اليوم الذي كان عليك فيه تناول طعام العشاء في منزل السيّدة "دوسانتوفيرت" قبل الذهاب إلى منزل الأميرة"دوغيرمانت"، ترتدين فسطاناً أحمر كلّه وحذاء أحمر، كنت أمراً لايصدّق وتبدين صنفاً من زهر دام كبير وياقوتة مشتعلة،فبأيّ اسم يدعونه؟ وهل يمكن لفتاة أن ترتديه؟"

وردّت الدوقة إلى وجهها المتعب التعبير المشرق الذي كان لأميرة "دي لوم" حينما يوجّه إليها "سوان" صنوف الثناء ونظرت، ضاحكة حتّى لتدمع عيناها وبهيئة ساخرة متسائلة مفتونة، إلى السيّد "دوبريوتيه"، ولايزال هناك في تلك الساعة وكان يبعث تحت نظّارته الدفء في ابتسامة مترئفة لهذا الهذر الصادر عن المثقّف بسبب مايبدو لها أنّه يخفي وراءه من حماسة جسديّة شابّة. كانت الدوقة تبدو كأنّما تقول: "ما به؟ إنّه مجنون". ثمّ تستدير صوبي بلهجة مغناجة: "ما كنت أعلم أنّني أشبه ياقوته مشتعلة أو زهرة دامية، لكنّي أذكر بالفعل أنْ كان لي فسطان أحمر، وكان من الساتين الأحمر من مثل ما كانوا يصنعون في تلك الفترة. أجل تستطيع فتاة أن ترتديه لدى الاقتضاء، ولكنّك قلت لي إنّ فتاتك لاتخرج ليلاً، وهو فسطان سهرات كبيرة ولايمكن ارتداؤه للقيام بزيارات".

والعجيب أن السّيدة "دوغيرمانت" لم تذكر من تلك الأمسية، وهي بالإجمال غير قديمة، سوى أثوابها وأنّها نسيت شيئاً كان ينبغي مع ذلك، مثلما سنرى، أن يكون عظيم الأهميّة فيما يخصّها. فإنّه يبدو لدى رجال الفعل، وناس المجتمع الراقي رجال فعل(صغار جداً، مجهريوّن، ولكنّهم في النهاية رجال فعل)، أن الفكر الذي يُجْهده الانتبهاه لما سيجري بعد ساعة لايستودع الذاكرة إلاّ النزر اليسير. ففي الكثير الغالب مثلاً لم يكن السّيد "دونوربوا" يقول، بداعي الخداع وكي يبدو أنّه لم يخطىء حينما كانوا يكلّمونه عن تنبؤات صدرت عنه بشأن تحالف ألماني لم يبلغ حتّى غايته:"لابّد أنكم تخطئون القول، لست أذكر البتّة والأمر غريب عنيّ، فاني دوماً شديد الاقتضاب في صنوف الحديث هذه وما كنت لأتنبأ في يوم بنجاح أحد تلك الأعمال الباهرة التي ليست في الغالب سوى أعمال طائشة تنقلب عادة أعمال عنف. ليس من ينكر أن تقارباً فرنسيّاً -ألمانياً يمكن أن يحدث في مستقبل بعيد ويكون ذا نفع كبير لكلا البلدين ولاتكون فرنسه الطرف الخاسر فيه حسب ظنّي، ولكنّي لم أتكلّم عن الأمر البتّه لأن القضيّة لم تنضج بعد، وإن وددتم سماع رأيي فإني أعتقد أننا إن طالبنا أعداءنا القدامى بالارتباط معنا بزواج شرعي فسوف نمنى بفشل كبير ولن ينالنا سوى الأذيّة". لم يكن

(١) كتاب الصلوات الموزّع على ساعات النهار لدى المسيحيّين.

السيّد "دونوربوا" يكذب إذ يقول ما يقول بل كان قد نسي فحسب. وسرعان ما ينسى المرء على أيّة حال مالم يفكّر فيه بعمق وما أملاه عليه التقليد وأملته الأهواء المحيطة. وهي تتغيّر وتتبدّل معها ذاكرتنا. والسياسيّون حتى أكثر من الديبلوماسيّين لايتذكرون الموقف الذي اتّخذوه في وقت معيّن وإنّ تراجعهم عن آراء سابقة ناجم عن نقص في الذاكرة أكثر منه عن فرط طموح. أمّا أهل المجتمع الراقي فإنّهم يتذكرون القليل.

لقد أكدّت لي السيّدة "دوغيرمانت" أنّها لا تذكر أن السيّدة "دوشوسبيير" كانت في الأمسية التي كانت ترتدي فيها الفسطان الأحمر وأنّني مخطىء بالتاكيد. والله يعلم مع ذلك إن كانت عائلة "شوسبيير" قد شغلت مذ ذاك بال الدوق وحتّى الدوقة! وإليك السبب. كان السيّد "دوغيرمانت" أقدم نائب رئيس لنادي الخيول عندما توفي الرئيس. وقد قام بعض أعضاء المنتدى الذين لامعارف لهم، وممّن قوام متعتهم الوحيدة أن يشهّروا بالذين لايَدْعُونَهْم، بحملة على الدوق "دوغيرمانت" الذي لم يبد أيّ اهتمام وهو على يقين من انتخابه وغير مبال إلى حّد ما بتلك الرئاسة التي كانت أمراً هيّناً بالنسبة إلى موقعه في المجتمع الراقي. وأبرزوا أنّ الدوقة من أنصار"دريفوس" (مع أن قضيّة "دريفوس" انتهت منذ زمن طويل، لكنّهم كانوا لايزالون يذكرونها بعد عشرين عاماً، وهي لم تنحز إلى "دريفوس" إلاّ منذ عامين) وأنّها تستقبل آل "روتشيلد" وأنهّم يفرطون منذ بعض الوقت في محاباة طواغيت دوليين عظام على شاكلة الدوق "دوغيرمانت"، وهو نصف ألماني. وصادفت الحملة أرضاً مؤاتية، فالمنتديات تبدي على الدوام كثيراً من الغيرة من القوم البارزين جداً وتكره الثروات الضخمة. ولم تكن ثروة "دوشوسّبيير" هينة ولكن لم يكن بوسع أحد أن يستاء منها فهو لاينفق فلساً واحداً وشقّة الزوجين متواضعة والمرأة تمضي وملبسها الصوف الأسود. صحيح أنّها تقيم، إذ هي مجنونة بالموسيقى، حفلات نهاريّة صغيرة كانت تُدعى إليها مغنّيات يفوق عددهنّ كثيراً من يُدْعَيْن لدى آل"غيرمانت". لكنّما لايتحدّث أحد عنها فكلّ شيء يجري دون مرطّبات، حتّى في غياب الزوج، في ظلمة شارع"لاشيز". وفي الأوبرا كانت السيّدة "دوشوسبيير" لاتسترعي الأنظار وهي دوماً برفقة أناس يذكّر اسمهم بالوسط الأكثر تطرّفا في بطانة "شارل" العاشر، ولكنّهم قوم مغمورون نادرو الظهور في المجتمعات. وانتصرت العتمة على النور المبهر يوم الانتخاب وعَمت الدهشة وعُيّن "شوسبيير" النائب الثاني للرئيس رئيساً لنادى السباق ولبث الدوق"دوغيرمانت" على الحصير، يعني النائب الأول للرئيس. صحيح أن رئاسة نادي السباق لاتمثل الشيء الكثير في نظر أمراء من المقام الأوّل كمال أسرة "غيرمانت". أمّا أن لاتكون رئيساً عندما يحين دورك وتراهم يفضّلون عليك أمثال "شوسّبيير" الذي لم تكن "أوريان" لسنتين خلتا تردّ التحيّة لزوجته، وليس ذلك فحسب بل يبلغ بها أن تُبدي أنّها أهينت إذ يحيّيها هذا الخفّاش المجهول، فقد شقّ ذلك على الدوق. كان يدّعي أنّه يسمو على هذا الفشل ويؤكد من جانب آخر أن الأمر ناجم بالنسبة إليه عن صداقته القديمة لـ "سوان". لكنّما لم يبرحه الغضب في الحقيقة. وثمّة أمر على شيء من الغرابة، فلم يسمع أحد الدَوق "غيرمانت" يستخدم في يوم العبارة العاديّة إلى حدّ ما:"بالتمام والكمال"، لكنّها، منذ انتخابات نادي السباق وحالما يجري الحديث عن قضيّة "دريفوس" تطلع عبارة" بالتمام والكمال": "قضيّة دريفوس، قضيّة

دريفوس، ما أسرع ماتُقال والكلمة غير صحيحة. ليست قضيّة دينيّة بل هي "بالتمام والكمال" قضيّة سياسيّة". كان يمكن أن تنقضي خمس سنوات دون أن تسمع "بالتمام والكمال" إن لم يجر الحديث في أثنائها عن قضيّة "دريفوس"، أمّا إذا عاد اسم "دريفوس" بعد انقضاء السنوات الخمس كانت عبارة"بالتمام والكمال" تعود في الحال آليّاً. والدوق على أيّة حال لم يعد يطيق أن يجري الحديث عن هذه القضيّة التي"سببّت، يقول،طائفة من المصائب"، مع أنّه لم يكن يتأثر بالحقيقة إلاّ بواحدة هي فشله في رئاسة نادي السباق.

لذلك استُقبل السيّد "دوبريوتيه"، عصرَ اليوم الذي أروي عنه وذكّرت فيه السيّدة"دوغيرمانت" بالفسطان الأحمر الذي كانت ترتديه في أمسية ابنة عمّها، استقبالاً سّيئاً إلى حدّ حينما أراد أن يقول شيئاً فشرع، بتوارد أفكار ظلّ غامضاً ولم يكشف عنه، شرع يقول وهو يدير لسانه في مقدّمة فيه المزموم: "بشأن قضّية "دريفوس"..." (لماذا قضيّة "دريفوس"؟ والأمر كان فقط أمر فسطان أحمر، وما كان "بريوتيه" المسكين، ولايفكّر في يوم إلاّ في إشاعة السرور، ليضّمنه بالتأكيد أيّ خبث). لكنّ مجرد اسم "دريفوس" جعل الدوق "دوغيرمانت" يقطّب حاجبيه السلطويين. "لقد رُوي لي، يقول "بريوتيه"، عن طرفة على شيء من الحلاوة ومرهفة جداً في الواقع لصديقنا "كارتييه" (دعنا ننبّه القارىء إلى أن "كارتييه" هذا، وهو شقيق السيّدة "دوفيلّفرانش"، لم تكن له أدنى صلة بالجواهريَ الذي يحمل ذات الاسم!) وليس يدهشني ذلك على أيّ حال إذ كان على ظرف كبير." وقاطعته "أوريان" قائلة: "آه! ما أنا من يشتريه. فليس بمقدوري أن أقول إلى أيّ حد أزعجني "كارتييه" هذا على الدوام ولم أستطع البتّه أن أفهم السحر اللامتناهي الذي يلقاه "شارل دو لاتريمواي" وزوجته لدى هذا المبرم الذي التقيه في منزلهم كلّما مضيت إلى هناك". وأجاب "بريوتيه" الذي كان يصادف عنتاً في لفظ بعض الحروف:"أزيزتي الدوقة، أراك بالغة القسوة بحقّ"كارتييه". صحيح أنّه ربّما أفرط بعض الشيء في سلوك الدرب المؤدّي إلى منزل "لاتريمواي"، ولكنّه في النهاية من صنف، ماذا عساني أقول، من صنف "آشاتيه"(١) الأمين بالنسبة إلى "شارل"، والأمر أصبح من الطيور النادرة إلى حدّ في هذا الزمن الحاضر. وفي جميع الأحوال إليك الطرفة التي رويت لي. لقد قال "كارتييه"، على حدّ زعمهم، إن السيّد "زولا" إن كان سعى أن تقام عليه الدعوى ويصدر حكم بحقّه فإنّما ليختبر إحساساً لم يكن بعد يعرفه، إحساس الإقامة في السجن." وقاطعته "أوريان" قائلة: "وهو هرب لذلك قبل توفيقه، ليس يستقيم الأمر هكذا. وإني على أيّ حال، وحتّى إن كان الأمر محتملاً، أرى الطرفة غبّية بالتأكيد. فإن كان هذا ماتجده على ظرف!" وأجاب "بريوتيه" الذي أخذ يتراجع عن موقفه إذ رآهم يعارضونه: "ياإلهي، ليست الطرفة منّي يا أزيزتي "أوريان"، وأنا أردّدها مثلما قيلت لي، فخذي منها بمقدار ما تساوي. لقد جرّت في جميع الأحوال على السيّد "كارتييه" أن جرى تأنيبه بشدّة من جانب "لاتريمواي" الرائع هذا الذي لايودّ البتّه وبكثير من الحق أن يجري الحديث في صالته عمّا أدعود، ماذا عساي أقول؟ القضايا الراهنة، والذي تزايد حنقه من جرّاء وجود السيّدة "ألفونس

(١) هو رفيق "إنيوس" في ملحمة الإنياذة للشاعر "فيرجيليوس".

روتشيلد" هناك. وكان على "كارتييه" أن يتحمل هجائية حقيقيّة من جانب "لاتريمواي".- وقال الدوق وهو في أسوأ مزاج: "بالطبع، آل "ألفونس روتشيلد"، مع أنّهم على ذوق يمنعهم عن الحديث في يوم عن هذه القضيّة المنكرة،هم من مناصري "دريفوس" في طويتهم كما هي حال اليهود جميعاً. بل ربّما كانت هذه حجّة من قبيل "من فمك أدينك"[١] (كان الدوق يستخدم عشوائياً عبارة "من فمك أدينك) لاتُستغلّ على نحو كاف لإبراز سوء طويّة اليهود. فإن سرق فرنسّي، إن قتل، لا أخالني ملزماً باعتباره بريئاً لأنّه فرنسي مثلي. أمّا اليهود فلن يقبلوا إطلاقا أن يكون أحد مواطينهم خائناً، مع أنهم يعلمون ذلك علم اليقين، ويهتمون أقلّ القليل بالنتائج المروّعة (كان الدوق يفكّر طبعاً بانتخاب "شوسّبيير" اللعين) التي يمكن أن تحملها جريمة أحد أهليهم حتّى... ويحك يا "أوريان". لن تزعمي أن مساندتهم جميعاً لأحد الخونة ليست أمراً دامغاً لليهود، ولن تقولي لي أن ليس الأمر كذلك لأنهم يهود." فأجابت "أوريان" (وهي تحسّ بشيء من الإزعاج، برغبة معينة في مقاومة "جوبيتير" الراعد وفي وضع "العقل" فوق قضيّة "دريفوس"): "يا الله، بلى، فإنهّم يعلمون، ربّما بالضبط لكونهم يهوداً ويعرفون ذواتهم، أنّه يمكن أن تكون يهودياً وأن لاتكون حتماً خائناً ومناهضاً للفرنسييّن، كما يزعم ذلك السيّد "درومون" فيما يبدو. وما كان اليهود بالتأكيد، لو كان مسيحياً، ليهتمّوا به ولكنّهم فعلوا لأنهم يحسّون تماماً أنّه لو لم يكن يهودياً لما ظنّوه بهذه السهولة خائناً "بصورة قبْليّة" كما قد يقول ابن أخي "روبير". وصاح الدوق وهو يحدّق بالدوقة:"النساء لايفقهن شيئا في السياسة. فهذه الجريمة المريعة ليست قضيّة يهوديّة فحسب، بل هي "بالتمام والكمال" قضيّة وطنيّة رحبة يمكن أن تجرّ أفظع النتائج على فرنسه التي يجدر بنا طرد اليهود جميعهم منها، مع أنّي أقرّ بأن العقوبات المتخذة حتىّ الآن إنّما اتّخذت (بطريقة دنيئة لابدّ من إعادة النظر فيها) لاضدّهم بل ضّد أبرز خصومهم، ضدّ رجال من الطراز الأوّل تُركوا جانباً لسوء حظّ بلدنا المسكين."

ووافاني إحساس بأن الأمور أخذت تسوء وعدت سراعاً إلى حديث الفساطين. وقلت:"هل تذكرين سّيدتي أوّل مرة كنت فيها لطيفة معي؟" فأردفت القول:" أوّل مرّة كنت لطيفة معه"، وهي تنظر ضاحكة إلى السيّد"دوبريوتيه" الذي أخذ طرف أنفه يصغر وابتسامته ترقّ مجاملة للسيدة "دوغيرمانت" وصوته صوت السكّين وهو يشحذ، بعث بعض نغمات مبهمة صدئة. "كنت ترتدين فسطاناً أصفر بأزاهير سوداء كبيرة." -"لكنّ الأمر واحد ياصغيري، فهي فساطين للسهرة."-"وقبعّتك التي من أزاهير التُرُنْجان والتي ياكثر ما أحببتها! ولكن هذا كلّه في النهاية من قبيل الرجوع إلى الماضي، وودت أن أخيط للفتاة المذكورة معطفاً من الفرو كالذي كنت ترتدينه صباح الأمس. فهل يستحيل أن أراه؟" -"لا،إن "هنيبعل" مضطرّ للانصراف بعد قليل، فتعال إلى حيث أقيم وسوف تُريك وصيفتي كلّ هذا. ولكن يا صغيري إني أرتضي إعارتك كلّ ما تشاء، أمّا إذ أوصيت على ملابس من تصميم "كالو" و"دوسيه"و"باكان" لدى خيّاطات هيّنات فلن يكون ذلك البتّه الشيء ذاته."-"ولكنيّ لاأبغي إطلاقاً أن أقصد إلى خيّاطة هيّنة، فإني أعرف تماماً أن الأمر سيكون مختلفاً،

(١) وردت العبارة بالاتينيّة "ad hominem" وتعني حجّة تؤخذ على الخصم من كلامه والواضح أنّها مذكورة في غير موضعها بما أن المعنييّن لايقولون شيئا.

لكنّما يشوقني أن أفهم لماذا يكون الأمر مختلفاً."- ولكنّك تعلم أنّي لا أحسن شرح أيّ شيء، فإنّي غبيّة وأتكلم مثلما تفعل فلاّحة. إنّها مسألة حرفة يدوية وصنعة. أمّا بخصوص الفراء فيمكنني على الأقلّ أن أزوّدك بكلمة إلى فرّائي الذي لن يسرقك بهذه الطريقة. لكنّك تعلم أنّها ستكلّفك مع ذلك ثمانية أوتسعة آلاف فرنك."-"وذاك المبذل الكريه الرائحة جداً الذي كنت ترتدينه في ذلك المساء، وهو قاتم اللون زغب الملمس مبقّع مخطّط بالذهب كجناح فراشة؟"-"آه! ذاك كان مبذلاً لـ"فورتوني"، وبوسع فتاتك تماماً أن ترتديه في بيتها. لديّ منه الكثير، وسوف أريك بعضها، بل يمكنني أن أعطيك بعضها إن سرّك ذلك. لكنمّا أودّ على وجه الخصوص أن ترى مبذل ابنة عميّ "تاليران". ينبغي أن أكتب إليها كي تعيرني إيّاه."- "لكنّك كنت تنتعلين كذلك حذاء جميلاً جداً، أفكان لـ"فورتوني" أيضاً؟"- "لا، أعلم ماتقصد أن تقول، إنّه جلد جداء كنّا عثرنا عليه في لندن في أثناء مشترياتنا برفقة "كونسويلو دومانشستر"، وكان رائعاً، ولم أستطع في يوم أن أفهم كيف كان مذهباً، لكأنّما جلد من ذهب. ليس ثمّة سوى ذلك بالإضافة إلى ماسة صغيرة في الوسط. لقد ماتت الدوقة المسكينة "دومانشستر"، ولكن إن راقك الأمر كتبت إلى السّيدة "دو وارويك" أو السيّدة "مارلبورو" لنحاول أن نجد مثله. بل أتساءل إن لم يكن بعد لديّ من هذا الجلد. وربّما استطعنا أن نوصي بصنعه هنا. سوف أنظر في الأمر هذا المساء وأرسل من يبلّغك."

لما كنت أحاول قدر المستطاع فراق الدوقة قبل أن تكون "ألبيرتين" عادت كان الوقت في الغالب يوفّر لي أن ألتقي في الباحة لدى خروجي من منزل السيّدة "دوغيرمانت" السيّد "دوشارلوس" و"موريل" وهما في طريقهما لتناول الشاي في بيت... "جوبيان"، وهي أعظم منّة في نظر البارون! ما كنت ألتقي بهما كلّ يوم ولكنهما كانا يذهبان كلّ يوم إلى هناك. ولابدّ على أيّة حال من ملاحظة أنّ ثبات إحدى العادات يتّصل عادة بسخافتها، والأشياء الباهرة لايفعلها المرء بعامّة إلاّ بطريقة غير منتظمة. لكنّ هذه الحيوات، من بين الحيوات المجنونة التي يمتنع فيها المهووس عن سائر الملذّات وينزل بنفسه أفدح الأسواء، هي أقلّ مايتغيّر. فلعلّك تعود فتلقى، كلّ عشر سنوات، لو دفعك الفضول إلى ذلك، هذا التعيس ينام في الساعات التي يمكن أن يعيش فيها، ويخرج في الساعات التي يكاد لايتوافر للمرء شيء يفعله فيما عدا أن يُغتال في الشوارع، ويشرب المثلّجات حين يداهمه الحر وهو على الدوام يقوم بمعالجة رشح له. وربّما كان تحرّك بسيط للعزيمة كافياً في يوم واحد لتغيير ذلك نهائياً. لكنّ تلك الحيوات بالضبط وقف بالعادة على عديمي العزيمة، والنقائص وجه آخر من صنوف العيش الرتيب تلك التي ربما كانت الإرادة كافية لجعلها أقلّ شناعة. كان يمكن تأمل هذين الوجهين على السواء حينما كان السيّد "دوشارلوس" يذهب كلّ يوم بصحبة "موريل" لتناول الشاي في منزل "جوبيان". زوبعة وحيدة تركت أثرها في هذه الحياة اليومية أثارها صانع الصداري قالت ذات يوم لـ"موريل": "موافقة، تعال غداً وسأدفع لك الشاي"، فرأى البارون بحقّ أن العبارة مبتذلة بالنسبة إلى فتاة ينوي أن يجعل منها تقريباً كنّته، ولما كان يحبّ توجيه الإساءة وينتشي بغضبه ذاته فقد انقضت رحلة العودة، بدلاً من أن يقول لـ"موريل" ببساطة إنّه يرجوه إعطاءه بهذا الشأن درساً في اللباقة والتميّز، انقضت كلّها في مشاحنات عنيفة. وباللهجة الأكثر وقاحة والأكثر تعالياً:"إن اللمس الذي

لايقترن اضطراراً بالذوق كما أرى حال دون تطوّر طبيعيّ لحاسّة الشمّ، بما أنّك تقبلت أن تحمل هذه العبارة النتنة حول دفع الشاي، والثمن خمسة عشر سانتيماً حسبما أفترض، رائحة المجارير فيها إلى منخريّ الملكييّن؟ فهل رأيت مرّة في منزلي، بعدما أنهيت عزفاً منفرداً على الكمان، أنّك كوفئت بضرطة بدلاً من تصفيق حادّ أوصمت أشدّ بلاغة بعد لأنّه صُنع من خشية أنْ لايستطيع المرء احتباس لاماتجود به خطيبتك علينا بل الزفرة التي دفعتها إلى أطراف الشفاه؟".

حينما يشهد موظف مثل هذا التأنيب ينهال عليه من جانب رئيسه فإنّه مخلوع لامحالة في الغد. بيد أنّه ما كان على العكس شيء أشد قسوة على السيّد "دوشارلوس" من صرف "موريل"، بل هو إذ خشي أن يكون جاوز الحدّ قليلاً أخذ يكيل للفتاة مدائح وافية التفاصيل تفيض ذماً وتتخلّلها على نحو غير متعمّد الوقاحات. "إنّها فاتنة. وبما أنّك موسيقيّ فإني أظنّ أنّها أغوتك بصوتها الجميل جداً في النغمات العليا حيث يبدو كأنّه ينتظرمرافقة "السي" الرافعة[1] التي تعزفها. أما طبقة القرار لديها فتروقني أقل ولابد أن يكون ذلك على صلة مع المعاودة الثلاثيّة لرقبتها الغريبة الدقيقة التي يبدو أنّها تنتهي، فإذا بها ترتفع ثانية. ما يروقني فيها إنما قوامها الرشيق أكثر منه تفاصيل تافهة. ولمّا كانت خيّاطة وهي لابدّ تحسن التلاعب بالمقصّ فينبغي أن تعطيني رسماً حلواً لذاتها مقتطعاً من ورق." أمّا "شارلي" فقد انخفض معدّل استماعه لتلك التقاريظ بقدر ما فاتته على الدوام المفاتن التي كانت تتغنّى بها خطيبته. لكنّه أجاب السيّد "دوشارلوس" قائلاً:"مفهوم ياصغيرتي، سوف أؤنّبها كي لاتتكلّم من بعد مثلما فعلت!" ولئن كان "موريل" يقول هكذا للسيّد "دوشارلّوس" ياصغيري فليس يعني أن عازف الكمان الجميل كان يجهل أنّه كاد لايبلغ ثلث عمر البارون. وما كان يقول ذلك كما لعلّ "جوبيان" كان فعل، بل بتلك البساطة التي تفترض في بعض العلاقات أن تغييب اختلاف السنّ قد سبق ضمنياً الوداد. الوداد المتكلّف لدى "موريل"، والوداد الصادق لدى آخرين غيره. من ذلك أنّ السيّد "دوشارلوس" تسلّم نحو تلك الفترة رسالة صيغت على النحو التالي: "عزيزي "بالاميد" متى ألقاك؟ فإني أفتقدك كثيراً وأفكّر فيك كثيرا، الخ، بكل إخلاص- بيير." أرهق السيّد "دوشارلوس" دماغه ليعرف من سوّغ لنفسه من بين أقاربه أن يكتب إليه بمثل هذه اللهجة الأليفة. وهو لابدّ إذن يعرفه معرفة عميقة ولكنّه لايتعرّف على الرغم من ذلك خطّه. ومرّ في خاطر السيّد "دوشارلوس" على مدى بضعة أيّام كلّ الأمراء الذين تخصّهم حوليّة "غوتا" ببضعة سطور. وأخيراً اتّضح له الأمر فجأة من عنوان مدوّن على ظهر الرسالة: لقد كان صاحب الرسالة خادماً في منتدى قمار يؤمّه السيّد "دوشارلوس" أحياناً. ولم يعتقد الخادم الخاصّ أنّه بجانب الأدب إذ يكتب بهذه اللهجة إلى السيّد "دوشارلوس" الذي كان يتمتّع على العكس بمهابة عظيمة في نظره. ولكنّه يظنّ من غير المحبّب أن لايرفع الكلفة مع من سبق أن عانقه عدّة مرّات وأولاده بذلك وداده- كما كان يتصوّر في سذاجة فكره-وسرّ السيّد "دوشارلوس" في الحقيقة أعظم السرور بهذه الدالة. بل هو شيعّ السيّد "دوفوغوبير" مودّعاً على إثر عصريّة كي يتمكّن من عرض الرسالة عليه. والله يعلم مع ذلك أن السيّد

(١) Si dièse وهي أعلى قليلاً من النغمة العاديّة.

"دوشارلوس" ما كان يحبّ الخروج مع السيّد "دوفوغوبير". ذلك لأنّ هذا الأخير كان ينظر في كلّ اتّجاه، ونظّارته على عينه، إلى الشبّان لدى مرورهم. أضف أنّه كان يتحرّر حين هو برفقة السيّد "دوشارلوس" فيستخدم لغة كان البارون يمقتها. فقد كان يؤنّث أسماء الرجال جميعها ويتصوّر، إذ هو شديد الغباء، أن المزاح على ظرف كبير ولاينفكّ يضحك مقهقهاً. ولمّا كان إلى ذلك يتشبّث بمنصبه الديبلوماسيّ فإنّ تصرّفاته المؤسفة المتضاحكة في الشارع كانت تقطعها على الدوام الرعدة التي يبعثها في نفسه في الوقت عينه مرور قوم من المجتمع الراقي، ومن الموظفين على وجه الخصوص."عاملة البرق هذه، يقول وهو يدفع بمرفقه البارون المتجهم، عرفتها ولكنّها تعقّلت الحقيرة! آه! عامل التسليم ذاك في مخازن "لافاييت" يالروعته! ياإلهي! هذا مدير الشؤون التجاريّة يمّر طريقه. مناي أن لايكون لاحظ الحركة التي قمت بها؛ فربّما أمكن أن يروي عنها للوزير الذي قد يُحيلني على الاستيداع ولاسّيما أنّه يبدو أنّه واحدة منهنّ." كان السيّد "دوشارلوس" يتميزّ غيظاً. وأخيراً قرّر، بغية تقصير هذه النزهة التي كانت تثير حنقه، أن يخرج رسالته ويحمل السفير على قراءتها، ولكنّه أوصاه بالكتمان إذ كان يتظاهر بأنّ "شارلي" غيور كي يمكنه الإيهام بأنّه محبّ، وأضاف بلهجة تشوبها طيبة مضحكة:"لكنّما ينبغي على الدوام أن نتسبّب بأقلّ ما يمكن من غمّ".

يحرص المؤلّف، قبل العودة إلى دكّان "جوبيان"، على أن يقول كم لعلّه يحزنه أن يستاء القارىء من تصاوير غريبة إلى هذا الحدّ. إننّا نجد من جهة(وهذا هو الجانب الهيّن من الأمر) أن الأرستقراطيّة تبدو في هذا الكتاب نسبياً أكثر اتهّاماً بالانحلال من الطبقات الاجتماعية الأخرى. ولعلّه لامجال للدهشة من ذلك إن كان واقعاً. فإن أعرق الأسر تقرّ في نهاية المطاف، عبر أنف أحمر بحدبة وذقن مشوّه، بعلامات نوعيّة يُعجب كلّ واحد فيها "بالعرق". لكنّما ثمّة بين هذه الميزات المستمرّة والمتفاقمة دوماً ما كان غير مرئي وتؤلّفه المنازع والميول.

وربمّا كان قولنا بأن كلّ ذلك غريب علينا وأنه ينبغي استخلاص الشعر من الحقيقة القريبة جداً، وربّما كان اعتراضاً أكثر خطورة لو كان قائماً على أساس. إن الفنّ المستخلص من الواقع المألوف كأكثر ما يكون موجود فعلاً وربّما كان نطاقه الأكثر اتّساعاً. لكن ذلك لايقلّل من صحّة أنّه يمكن لاهتمام كبير، للجمال أحياناً، أن يولد من أعمال ناجمة عن صيغة فكريّة شديدة البعد عن كلّ ما نحسّ به، عن كلّ ما نؤمن به إلى حدّ نعجز معه حتّى عن إمكان فهمها، وتنبسط أمامنا على هيئة مشهد لاسبب له. فهل ثمّة ما كان أكثر شاعريّة من "ارتحششتا" ابن "داريوس" وهو يأمر بجلد البحر الذي ابتلع سفنه بالسياط؟

والأكيد أن "موريل" استخدم السلطان الذي كانت توليه إيّاه مفاتنه على الفتاة فنقل إليها بعدما تبنّاها، ملاحظة البارون لأنّ عبارة "دفع الشاي" غابت عن دكّان صانع الصداري غياباً تاماً مثلما يختفي إلى الأبد من إحدى الصالات ذلك الشخص الحميم الذي كان يجري استقباله كلّ يوم والذي وقع الخصام معه لسبب أو لآخر أو هم يحرصون على إخفائه ولايخالطونه إلاّخارجاً. وقد سرّ السيّد "دوشارلوس" لاختفاء عبارة "دفع الشاي" ورأى في ذلك برهاناً على سلطته على "موريل" واضمحلال

اللطخة الصغيرة الوحيدة في كمال الفتاة. كان في النهاية كمثل كلّ الذين من صنفه وفيما هو صديق "موريل" المخلص ومن كانت تقريباً خطيبته والنصير المتحمّس لاتّحادهما، كان نهماً بعض الشيء إلى القدرة على أن يبتدع على هواه خصومات تكاد تكون غير مؤذية ويظلّ خارجها وفوقها بمثل الهدوء الملكي الذي لعلّ شقيقه كان أبداه.

كان "موريل" قد قال للسيّد "دوشارلوس" إنّه يحبّ ابنه شقيق "جوبيان" ويودّ أن يتزوّجها، وكان يلذّ للبارون أن يرافق صديقه الشاب في زيارات ينهض فيها بدور الحمو المقبل المتساهل المتكتّم. وما كان شيء يروقه أكثر من ذلك.

أما رأيي الشخصي فإنّ عبارة "دفع الشاي" صدرت عن "موريل" نفسه وأن الخيّاطة الشابّة اتخذت، وقد أضلّها الحبّ، إحدى عبارات الشخص المعبود، والعبارة تنفرد بسماجتها وسط لغة الفتاة الحلوة. وكان من جرّاء تلك اللغة وتلك التصرّفات الرائعة التي تنسجم وإيّاها ورعاية السيّد "دوشارلوس" أنْ كانت الكثيرات من الزبونات اللواتي عملت لهنّ يستقبلنها استقبال الصديقة ويدعونها للعشاء ويدخلنها دائرة معارفهنّ، ولاتوافق الصغيرة على أيّة حال إلاّ بإذن البارون وفي الأمسيات التي تناسبه. وربّ قائل يقول:"خيّاطة شابّة في دنيا المجتمعات؟ ياله من أمر غريب!" وإن فكرنا في الأمر فليس يقلّ عنه غرابة أنْ كانت "ألبيرتين" تجيء بالأمس للقائي في منتصف الليل وأنّها تعيش الآن معي. ولعلّ الأمر كان غريباً من أخرى غيرها، لامن "ألبيرتين" وهي بلا أب ولا أمّ وتحيا حياة حرّة إلى حدّ أنّي حسبتها في البداية في "بالبيك" عشيقة زير نساء، وأقرب القريبات لديها السيّدة "بونتان" التي ما كان يعجبها مذ ذاك لدى ابنة شقيقها سوى عاداتها السيّئة وهي تغضي الآن عن كلّ شيء إن استطاع ذلك أن يخلّصها منها بتمكينها من أن تتزوج شخصاً ثرياً فيتحوّل فيه قليل من المال إلى العمّة (فثمة في أرفع المجتمعات الراقية أمهات من صفوة النبيلات وأشدّهنّ فقراً يرتضين، بعدما أفلحن في تزويج ولدهنّ فتاة غنيّة، أن يتعهّدهنّ الأزواج الشبّان ويقبلن بفراء وسيّارة ومال من كنّة لايحببنها ويدخلنها المجتمعات).

ربّما يأتي يوم ترتاد فيه الخيّاطات المجتمع الراقي، وقد لاأجد الأمر مستغرباً على الإطلاق. وابنة شقيق "جوبيان" لاتمكّن بعد، وهي استثناء، من توقّع هذا الأمر، فالربيع لاتشكلّه سنونوة واحدة. ولئن أثار الموقع الزهيد جداً الذي شغلته ابنة شقيق "جوبيان" استنكار بعض الناس فما كان "موريل" من استنكر في جميع الأحوال لأنّ غباءه حول بعض الأمور كان عظيماً إلى حدّ أنّه لم يكن يرى تلك الفتاة التي تفوقه ذكاء ألف مرّة، "أقرب إلى الغباء" فحسب. ربّما لمحض أنّها تحبّه. بل كان يفترض من صنف المُغامِرات ومساعدات خيّاطات متنكّرات يلعبن دور السيّدات النساءَ الرصينات تماماً اللائي كنّ يستقبلنها وما كانت تفاخر بذلك. لم يكنّ بالطبع من آل"غير مانت" ولاحتىّ من الناس الذين يعرفونهم، بل بورجوازيّات ثريّات أنيقات متحرّرات فكرياً بما يكفي ليرين أن المرء لايعيبه أن يستقبل خياّطة، ومستعبدات فكريًا بما يكفي ليشعرن ببعض الرضى في رعاية فتاة يذهب سموّ البارون "دوشارلوس" للقائها كلّ يوم، وهي بالحفظ والصون.

ما كان شيء يروق البارون أكثر من فكرة هذا الزواج، وكان يعتقد بذلك أنّ "موريل"لن يؤخذ منه. ويبدو أن ابنة شقيق "جوبيان" كانت قد ارتكبت، ولاتزال طفلة تقريباً، "هفوة". ما كان السيّد "دوشارلوس"، فيما يقوم بالثناء عليها أمام "موريل"، ليغضبه أن يبوح بالأمر لصديقه الذي ربّما ثارت ثائرته، وأن يثير بفعلته الشقاق بينهما. ذلك لأن السّيد "دوشارلوس"، وإن يكن شديد الخبث، كان يشبه عدداً كبيراًمن الأشخاص الطيّبين الذين يمتدحون هذا أوتلك ليقيموا البرهان على طيبتهم الشخصيّة، ولكنّما يتجنبّون تجنّبهم للنار الأقوال الخيّرة، وما أندر ما تُقال، وكانت قادرة على إشاعة السلام. إلاّ أن البارون كان يحترس، على الرغم من ذلك، من أيّ تلميح وذلك لسببين. فقد كان يقول لنفسه: "إن حكيت له أن خطيبته لاتخلو من وصمة عار فسوف يُجرح اعتزازه بنفسه ويحقد عليّ. ثمّ من ذا يقول لي إنّه ليس مغرماً بها؟ فإن لم أقل شيئاً فإن نار الهشيم هذه سرعان ماتنطفىء وأتحكّم بعلاقاتهما على هواي ولايحبّها إلاّ بالقدر الذي أرغب فيه. أمّا إذا حدّثته عن الهفوة الماضية التي ارتكبتها خطيبته فمن ذا يقول لي إن "شارلي" العزيز ليس بعد على حبّ كاف كي يضحي غيوراً؟ حينئذ أحولّ، بغلطة تصدر عنّي، حباً لاطائل تحته، ونسوقه حسب مشيئتنا، إلى غرام كبير، وهو أمر يصعب التحكّم به." لهذين السببين مجتمعين كان السيّد "دوشارلوس" يصمت صمتاً ليس له إلاّ مظهر التكتمّ ولكنّه أهل للتقدير من جانب آخر لأن السكوت يكاد يكون مستحيلاً على قوم من طينته.

كانت الفتاة رائعة على أيّ حال وودّ السيّد "دوشارلوس"، الذي كانت ترضي لديه كامل الميل الجمالي الذي يمكن أن يحمله للنساء، لو توافرت له منها مئات الصور الفوتوغرافية. وهو الأقلّ غباءً من "موريل" كان يسره أن يعلم عن السيّدات اللائقات اللواتي كن يستقبلنها واللواتي كان حسّه الاجتماعيّ يحسن تحديد مواقعهنّ. لكنّه كان يحترس تماماً(وهو راغب في الحفاظ على سلطانه) من أن يقول ذلك لـ "شارلي" الذي يوالي الاعتقاد، وهو في ذلك حيوان حقيقيّ، بأنّه لاوجود، باستثناء "صفّ الكمان" وآل "فيردوران"، إلاّ لآل"غيرمانت" وبعض الأسر التي تقرب أن تكون ملكيّة والتي عدّدها البارون، وليس كلّ ماتبقّى سوى "حثالة" و"رعاع". كان "شارلي" يأخذ هذه العبارات بالمعنى الحرفيّ.

كيف ذلك، السيّد "دو شارلوس" الذي ينتظره، وعبثاً يفعل، كلّ أيّام السنة هذا العدد الكبيرمن السفراء والدوقات ولايتناول عشاءه مع الأمير" دوكروا" لأنّهم يقدّمون هذا الأخير عليه، السيّد "دوشارلوس" هذا كان يقضي كامل الوقت الذي يختلسه من هاتيك السيّدات الكبيرات وهؤلاء السادة الكبار لدى ابنة شقيق بائع صدريّات؟ أوّلاً، وهو السبب الأهمّ، كان "موريل، هناك. وحتّى لو لم يكن هناك فلست أرى أيّة غرابة، أو أنّكم تحكمون حينذاك كما لعلّ أحد خدم "إيميه" كان فعل. فليس ثمّة أو يكاد سوى ندل المطاعم للاعتقاد بأنّ الرجل الطائل الثراء يرتدي على الدوام ثياباً جديدة باهرة وأنّ سيّداً يتربّع على قمّة الأناقة ينظم حفلات عشاء لستّين مدعواً ولايتنقل إلاّ في سيّارة. وانهم لفي ضلال. فكثيراً مايحتفظ رجل طائل الثراء بالسترة الرثّة نفسها. وان سيّداً يتربّع على قمّة الأناقة

لسيّد لايصادق في المطعم إلاّ المستخدمين ويلعب لعبة الورق، بعدما يعود إلى منزله، مع خدّامه. لكنّ ذلك لايحول دون رفضه المرور بعد الأمير"مورا".

كان في عداد الأسباب التي تشيع السعادة في صدر السيّد "دوشارلوس" أن ابنة شقيق "جوبيان" سوف تصبح مايقرب أن يكون امتداداً لشخصيّة "موريل". وانطلاقًا من ذلك للسلطان الذي كان للبارون عليه ولمعرفته به. ولعلّ السيّد "دوشارلوس" ما كان فكّر ثانية واحدة في أن يحسّ بتبكيت الضمير لإقدامه على "خيانة" زوجة عازف الكمان المقبلة بالمعنى الزوجي للكلمة. لكنّما وجود "زوجين شابيّن"عليك أن تقودهما وأن يتبادر إليك أنّك حامي زوجة "موريل" المرهوب الجانب الكليّ الاقتدار، الزوجة التي ستقيم البرهان، إذ تضع البارون موضع الآلهة، على أن العزيز "موريل" أدخل في روعها هذه الفكرة وهي تحوي في داخلها والحالة هذه شيئاً من "موريل"، بدلًا من نوع سيطرة السيّد "دوشارلوس" وولدًا في "ضيعته" "موريل" كائناً إضافياً هو الزوج، أي وفّرا له شيئاً إضافياً وجديداً وطريفاً يحبّه فيه. بل ربّما أصبحت تلك السيطرة أوفر حجماً الآن ممّا سبق أن كانت في يوم. فحيثما كان "موريل"، وهو وحيد وعار إن جاز القول، يقاوم في الغالب البارون وهو متيقّن من غزو فؤاده مجدّداً، سوف تجتاحه بسرعة أكبر، ما إن يتزوّج، الخشية على أسرته وشقّته ومستقبله ويوفّر لمشيئات السيّد "دوشارلوس" مساحة أوسع وتأثيراً أوفر. كل ذلك كان يروق السيّد "دوشارلوس" ، بل، إن قضت الحاجة في عشيّات يداخله فيها السأم، إلى حدّ إشعال الحرب بين الزوجين (فالبارون ما كان في يوم كارهاً للوحات المعارك). ولكنّما أقلّ على أيّ حال من تفكيره بالتبعيّة التي سيعيش فيها الزوجان الشابّان في كنفه. كان حبّ السيّد "دوشارلوس" لـ"موريل" يعود فيتّخذ جدّة رائعة حين يقول في نفسه: وزوجته كذلك ستكون لي لفرط ما هو لي، ولن يتصرّفا إلاّ بالطريقة التي لايمكن أن تغضبني وسوف ينساقان لنزواتي وهكذا سوف تكون علامة (هي مجهولة لديّ حتيّ الآن) لماَ كدت أنساه وكان بالغ التأثير في فؤادي وهو أنّ"موريل" في نظر الجميع، في نظر الذين سيشاهدون أنّي أرعاهما وأزوّدهما بالمسكن، في نظري أنا، ملك يدي. كان السيّد "دوشارلوس" أكثر سعادة بهذا الواقع البدهيّ في نظر الآخرين ونظره منه بكل ما تبقّى. ذلك أن امتلاك مانحبّ غبطة أعظم بعدُ من الحبّ. والذين يخفون على سائر الناس هذا الامتلاك فإنّما يفعلون في الكثير الغالب مخافة أن يؤخذ منهم موضوع حبّهم. فإذا سعادتهم تتناقص بسبب تحوّطهم في الإمساك عن الكلام.

ربّما تذكّرنا أنّ"موريل" سبق أن قال فيما مضى للبارون إنّ به رغبة في إغواء فتاة، ولاسيّما هذه، وانّه بغية أن يفلح في ذلك سوف يعدهابالزواج ولكنّه"سيطلق ساقيه للريح" ما إن يتم الاغتصاب. لكن السيّد "دوشارلوس" كان قد نسي الأمر تماماً بمواجهة تصريحات لابنة شقيق "جوبيان" جاء "موريل" يبوح له بها. بل ربّما كان الأمر إلى ذلك واحداً بالنسبة إلى "موريل" أيضاً. وربّما كان ثمة فاصل حقيقي بين طبيعة "موريل" على نحو ما كشف عنها بصفاقة- بل ربّما بالغ فيها حاذقاً- وبين اللحظة التي تعود لها الغلبة فيها. فإنّ الفتاة، إذ توثّقت علاقته بها، قد أعجبته وأخذ يحبّها. وكان قليل المعرفة بنفسه إلى حدّ يخيّل له معه أنّه لاشك يحبّها، بل ربّما يحبّها إلى الأبد. صحيح أن

رغبته البدنيّة الأولى ومشروعه الإجرامي باقيان ولكنمّا تغطّيهما كثرة من العواطف المتناضدة إلى حدّ أن ليس ثمّة ماينبىء بأن عازف الكمان لم يكن صادقاً بإعلانه أن تلك الرغبة الفاسقة لم تكن الدافع الحقيقي لفعلته. كان ثمة على أي حال فترة قصيرة المدّة بدا له فيها ذاك الزواج ضروريًا دون أن يقرّ بذلك لنفسه صراحة. كان "موريل" يعاني في تلك الفترة من تشنّجات في يده قويّة إلى حد ويرى نفسه مضطراً أن يتوقّع احتمال أن يكون عليه هجر الكمان. ولمّا كان به خارج حدود فنّه كسل يستحيل إدراكه فإن ضرورة اللجوء إلى عهدة غيره أخذت تفرض نفسها وكان يفضّل أن تتعهدّه ابنة شقيق "جوبيان" على السيّد"دوشارلوس" إذ توفّر له هذه التركيبة قسطاً أوفر من الحريّة وكذلك اختياراً واسعاً من نساء مختلفات سواء عن طريق المتدرّبات المتجدّدات دوماً اللواتي سيكلّف ابنة شقيق "جوبيان" بإغوائهنّ لصالحه أو عن طريق سيّدات جميلات ثريّات يدفعها إلى التعهرّ في أحضانهنّ. أمّا أن تستطيع امرأته المقبلة رفض النزول إلى صفوف المسايرة هذه وأن تكون شرّيرة إلى هذا الحد فذلك ما لم يداخل لحظة حسابات "موريل". وهي على أيّة حال انتقلت إلى النسق الثاني وخلّفت مكانها للحبّ الصافي بعد مازالت التشنجات. والكمال سيكون كافياً إلى جانب راتب السيّد "دوشارلوس" الذي سوف تضعف بالتأكيد مطالبه بعدما يكون هو، "موريل"، قد تزوّج الفتاة. فالزواج هو الأمر المستعجل بسبب حبّه ولمصلحة حريّته. وبعث يطلب يد ابنة شقيق"جوبيان" الذي استشارها في ذلك. على أنّ الأمر لم يكن ضرورياً. فشغفُ الفتاة بعازف الكمان كان ينساب من حولها مثلما شعرها حينما تحلّه وفرحة نظراتها المبثوثة. كان كلّ شيء تقريباً يُمتع "موريل" أو يرى فيه مكسباً يوقظ لديه انفعالات روحيّة وأقوالاً من ذات القبيل، بل دموعاً في بعض الأحيان. فقد كان صادقاً إذاً- إن أمكن لمثل هذه الكلمة أن تنطبق عليه- في توجيهه لابنة شقيق "جوبيان" أقوالاً تزخر بالعواطف (كما هي عاطفيّة أيضاً تلك التي يوجّهها نفر كثير من نبلاء شباب بهم رغبة أن لايعلموا شيئاً في الحياة إلى ابنة رائعة لأحد البورجوازيّين الطائلي الثراء) بقدر ما كانت تزخر بنذالة فاضحة النظريات التي سبق أن عرضها أمام السيّد "دوشارلوس" حول الإغواء وفض البكارة. لكنّما كان لدى "موريل" مُقَابلُ للحماسة الفاضلة تجاه شخص يوليه مسرّة وللالتزامات العلنيّة التي يتخذّها إزاءه. فما إن يتوقّف الشخص عن إيلائه مسرّة أو حتّى، على سبيل المثال، إن سبّب له الالتزام بالوفاء بالوعود المعطاة إزعاجاً، حتّى يضحي في الحال من جانب"موريل" موضع كراهية كان يبرّرها لنفسه وكانت تسمح له، في أعقاب بعض الاضطرابات العصبيّة، أن يبرهن لذاته بعدما يستعيد مرح جملته العصبيّة أنّه في حلّ من أي التزام حتّى إن أُخِذت الأمور من وجهة نظر فاضلة محضة.

من ذلك أنّه في نهاية إقامته في "بالبيك" كان قد أضاع في ما لست أدري كامل نقوده، وإذ لم يجرؤ على قول ذلك للسيّد "دوشارلوس" أخذ يبحث عمّن يطلب منه مالاً. وكان علم من أبيه (الذي منعه على الرغم من ذلك أن يصبح مدمن اقتراض في يوم) أن من المناسب في مثل هذه الحالة الكتابة إلى الشخص الذي ينبغي التوجّه إليه "بأنّنا نبغي التحدث إليه في شؤون ماليّة" وأنّنا "نطلب منه موعداً لبحث شؤون ماليّة". كانت هذه الصيغة السحريّة تشيع الغبطة في صدر "موريل" إلى حدّ كان تمنىّ معه، فيما أعتقد، أن يخسر مالاً لمجرّد متعة أن يطلب موعداً للحديث في "شؤون ماليّة". لكنّه

رأى في فترة تالية من الحياة أنّ الصيغة لم تكن تحمل كامل الزخم الذي يظنّه لها. فقد لاحظ أن نفراً ممّن ما كان لولا ذاك كتب إليهم في يوم لم يبعثوا إليه بجواب بعد خمس دقائق من استلامهم الرسالة "للتحدث في شؤون ماليةّ". وإن انقضى العصر دون أن يكون وصل جواب لـ"موريل" لم يكن يخطر له أن السيّد المقصود، حتىّ إن وضعنا الأمور في أفضل حالاتها، لم يكن ربّما قد عاد، أو كان عليه أن يكتب رسائل أخرى، هذا إن لم يكن حتّى ذهب في سفر أو حلّ به مرض، الخ. فإن حصل "موريل" بصدفة غريبة على موعد لصباح الغد كان يبادر الرجلَ المُلْتمس إلى هذه الكلمات:"كنت بالضبط دهشاً لعدم ورود جواب لي وأتساءل إن كان ثمة أمر ما، وهكذا إذن، الصحّة دوماً على مايرام، الخ." وهكذا كان قد طلب إلي في "بالبيك" ودون أن يقول لي إنه يبغي أن يكلّمه في "شأن ما"، أن أقدّمه إلى "بلوك" هذا نفسه الذي سبق أن كان كريهاً معه في الحافلة قبل أسبوع. ولم يتردّد"بلوك" في إقراضه- أو بالأحرى في حمل السيّد "نسيم بيرنار" على إقراضه - خمسة آلاف فرنك - منذ ذلك اليوم أحب "موريل" "بلوك" حتّى العبادة. وكان يتساءل مغرورق العينين كيف يمكنه أن يؤدّي خدمة لشخص أنقذ حياته. وأخذت على عاتقي أخيراً أن أسأل لَ"موريل" ألف فرنك شهرياً من السيّد "دوشارلوس"، والمال يسلّمه في الحال لـ"بلوك" الذي يستردّ ماله على هذا النحو في مهلة مقبولة. وفي الشهر الأول أرسل "موريل" في الحال، ولايزال تحت تأثير الطيبة التي أبداها "بلوك"، الألف فرنك، لكنّه رأى دون شكّ بعد ذلك أن استخداماً مختلفاً للأربعة آلاف فرنك المتبقّية يمكن أن يكون أكثر إمتاعاً، إذ شرع يقول الكثير من السوء بحقّ "بلوك". كانت رؤيته كافية لتبعث لديه أفكاراً سوداء، ولّما نسي "بلوك" نفسه ما كان بالضبط قد أقرضه لـ"موريل" وطالبه بثلاثة آلاف وخمس مئة فرنك بدلاً من أربعة آلاف، وهو ما كان أكسب عازف الكمانَ خمس مئة فرنك، عزم هذا الأخير أن يجيب أنّه، إزاء مثل هذا التزوير، لن يدفع من بعد سانتيماً واحداً، وليس ذلك فحسب بل يجدر بمقرضه أن يعدّ نفسه في غاية السعادة لأنّه لايتقدّم بشكوى ضدّه. وكان إذ يقول تتوهّج عيناه. ولم يكتف على أيّة حال بقوله إنّ "بلوك" والسيّد "نسيم بيرنار" ما كان ينبغي أن يحقدا عليه، بل يجدر بهما عما قليل أن يعربا عن سعادتهما بأن لايحقد عليهما. وأخيراً إذ صرّح السيّد "نسيم بيرنار" فيما يبدو، أن "تيبو" كان يعزف بالجودة التي يعزف بها "موريل"، رأى هذا الأخير أنّه يجدر به أن يقاضيه أمام المحاكم إذ يضر بّه مثل هذا القول في مهنته، ثم إنّه، لّما لم يعد ثمة عدالة في فرنسه، ولاسيّما في مخاصمة اليهود (إذ كانت معاداة الساميّة عند "موريل" النتيجة الطبيعيّة لإقراض الخمسة آلاف فرنك من جانب الإسرائيليين[١])، لم يعد يخرج إلاّ بمسدّس محشوّ. إن حالة عصبيّة كهذه أعقبت وداداً كبيراً كانت تزمع أن تتشكّل لدى "موريل"فيما يخصّ ابنة شقيق صانع الصداري. والصحيح أنّ السيّد "دوشارلوس" ربّما كان، دون أن يخالجه الشكّ في ذلك، في بعض أسباب هذا التغيرّ فكثيراً ما كان يصرّح، دون أن يفكّر في كلمة ممّا يقول وبغية تنكيدهما، أنّه لن يلقاهما ثانية حالما يتزوّجان وسيدعهما يحلقّان بقواهما الذاتيّة. كانت تلك الفكرة في حدّ ذاتها غير كافية على الإطلاق لفصل

---

(١) بالمعنى التاريخي.

"موريل" عن الفتاة، لكنّها كانت جاهزة، وقد لبثت في فكر "موريل"، أن تأتلف في اليوم المحدّد وأفكاراً أخرى تجانسها ويمكن أن تضحي، بعدما يتحقّق الامتزاج، عامل قطيعة قوياً.

لم يكن يتّفق لي كثيراً، من جانب آخر، أن ألتقي السيّد "دوشارلوس" و"موريل". فكثيراً مايكونان قد دخلا إلى دكّان "جوبيان" حينما كنت أفارق الدوقة لأن المتعة التي أحسّها بالقرب منها عظيمة حتّى ليبلغ بي أن أنسى، لا الانتظار القلق الذي كان يسبق عودة "ألبيرتين" فحسب، بل حتّى ساعة تلك العودة. سوف أضع جانباً، من بين تلك الأيّام التي أطلت المكوث فيها في منزل السّيدة "دوغيرمانت"، واحداً تميّز بحادث صغير غابت عنيّ دلالته غياباً تاماً ولم أفهمها إلاّ بعد انقضاء فترة طويلة عليه. كانت السيّدة "دوغيرمانت" قد أعطتني في عصر ذلك اليوم سرنجات جيء بها من منطقة الجنوب لأنها كانت تعلم أنّي أحبّها. وعندما صعدت إلى منزلي بعدما فارقتُ الدوقة كانت "ألبيرتين" قد عادت، والتقيت على الأدراج بـ"أندريه" التي بدا أن الرائحة القويّة جداً المنبعثة من الزهور التي أجيء بها أزعجتها.

فقلت لها: "كيف ذلك، أراكما عدتما." -"منذ لحظة مضت، لكنّما كان على "ألبيرتين" أن تسطّر رسائل، فصرفتني." - "ألاتظنّين أنّها تهيّىء لمشروع تلام عليه؟" - "إطلاقاً، في اعتقادي أنّها تكتب لعمّتها. لكنّها لن تغتبط بسرنجاتك هي التي لاتحبّ الروائح القويّة." - "الفكرة كانت خاطئة إذن! سأقول لـ"فرانسواز" أن تضعها على صحن درج الخدمة." - "إن كنت تتصوّر أن "ألبيرتين" لن تشمّ رائحة السرنجة تسري على إثرك. هي ربّما، إلى جانب رائحة المسك الروميّ، من أكثرها تأثيراً. ثم إني أظنّ أنّ "فرانسواز" ذهبت لشراء بعض الحاجات." - "ولكن كيف يمكن إذاً أن أعود وأنا لاأحمل اليوم مفتاحي؟" - "أوه! عليك فقط أن تقرع الجرس وتفتح لك "ألبيرتين". ثم إن "فرانسواز" تكون ربّما عادت في هذه الأثناء."

وودّعت "أندريه". وأقبلت "ألبيرتين" تفتح لي منذ أوّل دقّة جرس، وكان ذلك على شيء من التعقيد، لأنّ "فرانسواز" نزلت و"ألبيرتين" لاتعرف موقع الضوء. واستطاعت أخيراً أن تُدخلني ولكن أزهار السرنجة جعلتها تفرّ هاربة. ووضعتها في المطبخ، فاتّسع بذلك الوقت لصديقتي، وقد قطعتْ رسالتها (دون أن أدرك سبب ذلك)، كي تذهب إلى غرفتي التي نادت عليّ منها، وتستلقي على سريري. ومرّة أخرى لم أجد في اللحظة نفسها إلاّ ما كان طبيعيًا جدًا في كلّ ذلك، وفي الأكثر على شيء من الغموض وغير ذي بال في جميع الأحوال. لقد كانت على شفا أن تُفاجأ بصحبة "أندريه" فوفّرت لنفسها بعض الوقت بإطفاء جميع الأنوار والانطلاق إلى غرفتي كي لاتسمح بمشاهدة فوضى سريرها وتظاهرت بأنّها تكتب. ولكننا سوف نرى فيما بعد كلّ ذلك، ذلك الذي ما عرفت في يوم إن كان صحيحاً.

وباستثناء هذا الحادث الوحيد كان كلّ شيء يجرى بصورة طبيعيّة حينما أعود فأصعد من منزل الدوقة. ولّما كانت "ألبيرتين" تجهل إن لم أكن أرغب في الخروج وإيّاها قبل العشاء فقد كنت أجد في البهو عادة قبّعتها ومعطفها وشمسيّتها وقد تركتها هنالك تحسّباً لأيّ طارئ. وما إن أبصرها لدى

عودتي حتىّ يصبح جوّ المنزل محتملاً. كنت أحسّ، بدلاً من هواء أصبح نادراً، أن السعادة تملأ جنباته، وأراني تخلّصت من حزني وتجعل هذه الهنات من "ألبيرتين" ملكاً لي فأجري إليها.

كنت في الأيّام التي لا أنزل فيها إلى بيت السيّدة "دوغيرمانت" أقلّب مجموعة لوحات لـ"إيلستير" أو كتاباً لـ"بيرغوت" من أجل أن يبدو الوقت اقلّ طولاً في أثناء هذه الساعة التي تسبق عودة صديقتي.

حينئذ- ولّما كانت الأعمال نفسها التي تبدو وكأنّها تتوجّه حصراً إلى البصر والسمع إنّما تتطلّب بغية تذوّقها أن يتعاون العقل المتنبّه تعاوناً وثيقاً مع هاتين الحاسّتين- كنت أدفع خارجاً، دون أن أرتاب بالأمر، الأحلام التي سبق أن بعثتها "ألبيرتين" بالأمس في صدري يوم كنت لا أعرفها بعد والتي أخمدتها الحياة اليوميّة. كنت ألقي بها في جملة الموسيقىّ أو في صورة الرسّام وكأنّما في بوتقة وأغذّي بها العمل الذي كنت أقرأه. وليس من شكّ أن العمل كان يبدو لي أوفر حياة.

على أن "ألبيرتين" لم تكن أقلّ كسباً حينما تُنقل هكذا من أحد العالَمَيْن اللذين أوتينا ولوجهما واللذين نستطيع أن نحدّد بالتناوب موقع الشيء نفسه فيهما، حينما تُفلت هكذا من ضغط المادّة الساحق كيما تلهو في أمداء الفكر السحريّة. وكنت أجدني فجأة وعلى مدى لحظة قادراً على الإحساس بعواطف لاهبة نحو الفتاة المملة. كانت تتخذ في تلك اللحظة مظهر عمل من أعمال "إيلستير" أو "بيرغوت" وأحسّ باندفاعة مؤقتّة إليها إذ أبصرها في فسحة الخيال والفن.

كانوا يخطرونني بعد قليل أنّها عادت للتوّ ,أضف أنّه كان ثمّة أمر بأن لايُعْلن عن اسمها إن لم أكن وحدي، إن كان عندي على سبيل المثال "بلوك" الذي كنت أرغمه على البقاء فترة إضافيّة كي لا أجازف بلقاء بينه وبين صديقتي. ذلك أني كنت أخفي أنّها تقطن في المنزل بل حتّى أن أكون رأيتها قطّ في بيتي لشدّة ما أخشى أن يقع أحد أصدقائي في حبّها وأن ينتظرها خارجاً، أو أن يسعها، في لحظة لقاء في الممرّ أو البهو، أن ترسم إشارة وتضرب موعداً. ثمّ كنت أسمع حفيف تنورة "ألبيرتين" وهي تقصد غرفتها، فإنّها من قبيل التحفّظ، وكذلك دون شكّ بصنوف المراعاة التي تفنّنت فيها بالأمس في أعشيتنا في "لارا سبليير" بغية أن لاتأخذ منّي الغيرة، ما كانت تُقبل إلى غرفتي وهي تعلم أنّي لست وحدي. لكنمّا لم يكن هذا لذاك السبب فحسب، وكنت أدرك الأمر فجأة. وأخذت أتذكر، فإنّه سبق لي أن عرفتُ "ألبيرتين" أولى ثمّ هي بُدّلتْ أخرى غيرها، الحاليّة، وما كان بوسعي أن ألقي مسؤوليّة التبدّل إلاّ على ذاتي. فكلّ ما لعلّها كانتَ أقرّت لي به بسهولة وعن طيب خاطر حينما كنّا رفيقين حقيقيّين توقّف عن الدفق حالما اعتقدتْ أنّي أحبّها أو هي كشفت، ربّما دون أن تفضي لنفسها باسم الحبّ، عاطفة استقصائيّة مرادها أن تعرف وتتألمّ مع ذلك من أنّها تعرف وتحاول أن تعلم أكثر. ومنذ ذلك اليوم أخفت عنّي كلّ شيء. كانت تحيد عن غرفتي إن ظنّت أنني لا حتّى مع صديقة في الغالب، بل مع صديق، هي التي كانت عيناها فيما مضى تهتّمان أشدّ الاهتمام حينما كنت أتحدّث عن فتاة "ينبغي أن نحاول حملها على المجيء، فقد يبهجني أن أعرفها."- "ولكنّها ممّا تدعينه بالصنف المنحطّ."-" تماماً، وسيكون حتّى حينما أبعدتْ في الكازينو الصغير نهديها عن نهدي

"أندريه"، لست أعتقد أنّ ذلك كان بسبب وجودي، بل بسبب وجود "كوتار" الذي ربّما أساء، في اعتقادها دون شك، إلى سمعتها. وكانت مع ذلك قد شرعت مذذاك تبدي جموداً وما عادت الأقوال الواثقة تطلع من شفتيها وأصبحت حركاتها متحفّظة. ثمّ إنّها استبعدت عن ذاتها كلّ ما قد يثيرني. فكانت تضفي على الأجزاء التي لا أعرفها من حياتها طابعاً يشارك جهلي في زيادة ما فيه من بعد عن الإساءة. والآن أصبح التحوّل ناجزاً، فتراها تمضي رأساً إلى غرفتها إن لم أكن وحيداً، لا لتتحاشى الإزعاج فحسب بل لتبرهن لي أنّها غير مهتمّة بالآخرين. كان ثمّة أمر واحد فقط ما كانت لتقدم عليه من بعد من أجلي، وما كانت فعلته إلاّ في وقت كان بدا لي الأمر فيه غير ذي بال، وكانت فعلته بيسر لهذا السبب عينه، وهو بالضبط الإقرار. وكان بلغ بي الحال على مدى الأيّام أن أستخلص، كما هي حال القاضي، نتائج غير مؤكّدة من تهوّرات كلاميّة ربّما لم تكن عاصية على التفسير، بدون اللجوء إلى واقع الجرم. وسوف تحسّني على الدوام غيوراً وقاضياً.

وأخذت خطوبتنا ترتدي هيئة الدعوى وتوليها خجل المذنبة. كانت الآن تغيّر الحديث إن تناول أشخاصاً، من رجال أو نساء، ما كانوا مسنّين. وإنّما كان يجدر بي، حين لم تكن بعد ترتاب بأنّي أغار عليها، أن أسألها ما كنت أبغي معرفته. لابدّ من استغلال ذلك الوقت، فحينذاك تروي لنا صديقتنا عن ملذّاتها وحتّى عن الوسائل التي تتوسّل بها لإخفائها عن عيون الآخرين. ما كانت الآن لتقرّلي من بعد، كما سبق أن فعلت في "بالبيك"، في النصف لأنّ ذلك حقيقيّ، والنصف لتعتذر عن أنّها لاتبدي محبّتها لي أكثر ممّا تفعل، فإني كنت أتعبها مذذاك وقد تبيّنت ممّا أبدي لها من لطف أنّها لا حاجة بها لأن تبدي لي منها بمقدار ما تفعل للآخرين كيما تحصل منّي على أكثر ممّا تحصل منهم، لعلّها ما كانت لتقرّ لي الآن كما تفعل بالأمس: "أرى من الغباء أن نكشف عمّن نحبّ، أمّا أنا فبعكس ذلك: حالما يروقني شخص أبدو كأنّما لا أعيره اهتمامي، وهكذا لايدري أحد شيئاً."عجباً! لقد كانت "ألبيرتين" اليوم ذاتُها بمزاعمها في الصراحة وأنّها غير آبهة بالجميع هي التي قالت لي ذلك! فلعلّها ما كانت الآن لتذكر لي هذه القاعدة من بعد! كانت تكتفي وهي تتحدث وإيّاي بتطبيقها بقولها عن هذا الشخص أو ذاك ممنّ يمكن أن يثيروا قلقي: "أه! لست أدري، لم أنظر إليه، وهو تافه بما يجاوز الحدّ." وكانت بين الحين والحين، وكيما تستبق أموراً يمكن أن أعلمها، تدلي باعترافات من نمط تلك التي تفضحها لهجتها بأنّها أكاذيب قبل أن نعرف الحقيقة التي كلّفت بتشويهها، بتبرئتها.

وكنت فيما أصغي إلى خطى "ألبيرتين" وبي الغبطة الهانئة الناجمة عن التفكير بأنّها لن تخرج من بعد هذا المساء، كنت أعجب أن تكون العودة اليومية إلى منزلها في نظر هذه الفتاة التي ظننت فيما مضى أنني لن أستطيع التعرّف إليها في يوم إنّما هي بالضبط العودة إلى منزلي، وإنّ الغبطة التي كلّها أسرار وشهوانية والتي أحسست بها متهرّبة مجزّأة في "بالبيك" في المساء الذي جاءت تنام فيه في الفندق كانت قد اكتملت وتوطدّت وأخذت تملأ مسكني الفارغ بالأمس مؤونة دائمة من عذوبة بيتيّة وتكاد تكون عائلية تشرق حتّى داخل الممّرات وكانت كلّ حواسّي تتغذّى هانئة بها، تارة بالفعل وطوراً بالخيال وبانتظار العودة في الفترات التي أكون فيها وحدي. وحينما كان يوافي مسمعي إغلاق

باب غرفة "ألبيرتين" كنت أسارع، إن كان برفقتي صديق، إلى إخراجه ولا أتركه إلا بعدما أتيقّن تماماً أنّه على الدرج الذي كنت أنزل بعض درجاته إن اقتضى الأمر.

كانت "ألبيرتين" تأتي لملاقاتي في الممرّ. "هيّا، إنّي أبعث إليك "أندريه" فيما أنزع حوائجي، فقد صعدت مقدار ثانية لتسلّم عليك." وإذ لايزال من حولها الحجاب الرماديّ الواسع الذي يتدلّى من قبّعة من فرو الشنشيلة، وكنت قدّمته لها في "بالبيك"، كانت تنسحب وتعود إلى غرفتها كما لوأنّها حزرت أن "أندريه" التي كلّفتها أنا رعايتها سوف تحمل معها، إذ تزوّدني بعدد من التفصيلات وتذكر لي لقاءهما كليهما لأحد معارفهما، بعض التحديد للمناطق المبهمة التي جرت فيها النزهة التي قامتا بها طوال النهار والتي ما وسعني تصوّرها.

كانت عيوب "أندريه" قد برزت خطوطها، ولم تعد بمثل إمتاعها حينما عرفتها. كان لديها الآن، يضطرب رقيقاً، نوع من القلق الحادّ على أهبة التجمّع كما في البحر عصف مفاجئ، إن أقدمتُ فحسب على التحدّث في أمر يحمل المتعة لـ"ألبيرتين" ولي. وما كان ذلك يحول دون أن تكون "أندريه" ربّما أفضل بحقّي، وأن تحبّني- وكثيراً ما توافر لي برهان ذلك- أكثر من أناس أوفر أنساً. لكنّ أدنى ما يبدو عليك من سعادة، إن لم تكن هي مبعثها، كان يولّد لديها انطباعاً عصبيّاً مزعجاً كصفقة باب تغلقه بقوّة تتجاوز الحدّ. كانت تسلّم بالآلام التي لانصيب لها فيه، لا بالمتع: فكانت إن رأتني مريضاً تغتمّ وترثي لحالي، وربّما اعتنت بي. فأمّا لقيت ارتياحاً بمثل تفاهة أن أتمطّى بمظهر المغتبط وأنا أطوي كتاباً وأقول: "آه! لقد أمضيت توّاً ساعتين حلوتين في قراءة كتاب مسلّ"، كانت هذه الكلمات التي ربّما أشاعت السرور في صدر والدتي و"ألبيرتين" و"سان لو"، كانت تثير لدى "أندريه" ضرباً من الاستنكار وربّما ضيقاً عصبيّاً فحسب. كانت صنوف ارتياحي تسبّب لها انزعاجاً لاتقوى على إخفائه. كانت تلك العيوب تكتمل بأخرى أكثر خطورة: فإن "أندريه"، في يوم كنت أتحدّث فيه عن ذاك الشاب الكثير الإحاطة بأمور السباقات والألعاب والغولف والكثير الجهل في كلّ ما تبقّى وكنت التقيته مع الجماعة الصغيرة في "بالبيك"، أخذت تقهقه: "تعلم أنّ والده قد سَرق وأوشكت تقام عليه الدعوى. وهم يريدون الظهور مظهر اللامبالين فوق ذلك، ولكنّي أتلهّى بقول ذلك الجميع. وددت لو يقاضونني بتهمة البلاغ الكاذب، فما أجملها شهادة سأدلي بها!" وكان الشرر يتطاير من عينيها. لكنّي علمت أن الوالد لم يرتكب أي أمر غير لائق وأن "أندريه" تعلم ذلك بقدر ما يعلمه غيرها. بيد أنها ظنّت نفسها مزدراة من جانب الابن فبحثت عن أمر يمكن أن يربكه ويخجله وابتدعت رواية كاملة من شهادات كانت مدعوّة في خيالها للإدلاء بها وكانت هي ذاتها ربّما تجهل، لكثرة ماتردّد لنفسها تفاصيلها، إن أنت غير صحيحة.

وهكذا ما كنت لأرغب في لقائها بالصورة التي أصبحت عليها (حتّى بدون أحقادها القصيرة المجنونة)، إن لم يكن لشيء فبسبب ذاك النزق المؤذي الذي كان يمنطق بنطاق خشن شديد البرودة طبيعتها الحقة وهي أكثر دفئاً وأفضل. لكن المعلومات التى كانت تستطيع وحدها تزويدي بها حول صديقتي كانت تهمّني أكثر من أن أفوّت فرصة نادرة إلى هذا الحدّ للاطّلاع عليها. تدخل "أندريه"

وتغلق الباب وراءها. لقد التقينا صديقة ولم يسبق أن كلّمتني "ألبيرتين" البتّة عنها. "وماذا قالتا؟"- "لست أدري، فقد أفدتُ من أن "ألبيرتين" لم تكن وحدها لأمضي لشراء أصواف."-"تشترين صوفا؟"- "أجل، وهي "ألبيرتين" من كانت سألتني ذلك."- "ذاك سبب إضافي كي لاتذهبي، فربّما كان ذلك بقصد إبعادك." - "لكنّها سبق أن سألتني ذلك قبل أن تلتقي صديقتها." وأجيب وقد استعدت أنفاسي: "آه!". وكان ارتيابى يعاودنى في الحال: "ولكن من ذا يعلم إن لم تكن ضربت سلفاً موعداً لصديقتها ولم تتدبّر ذريعة كي تكون وحدها متى شاءت ذلك؟" هل كنتُ إلى ذلك على يقين تامّ بأنْ لم تكن الفرضيّة القديمة (تلك التي ما كانت "أندريه" تقول بموجبها الحقيقة فحسب) هي الصالحة؟ فربّما كانت "أندريه" على اتّفاق مع "ألبيرتين". كنت أقول في نفسي في "بالبيك" إنّنا نكنّ الحبّ لشخص تبدو غيرتنا عليه وكأنّما اتخذت أعماله بالأحرى موضوعاً لها، ونحسّ أنّها لو قالت عنها جميعاً فربّما تيسّر شفاؤنا من الحبّ. وعبثاً يجرى التستّر بحذاقة على الغيرة من جانب من يكابدها فسرعان ما تكتشفها تلك التي توحي بها والتي تستخدم المهارة بدورها. فهي تحاول أن تخدعنا حول ما يمكن أن يجعلنا تعساء وتقدّمه لنا، إذ لماذا تكشف جملة لاعبرة فيها الأكاذيب التي تخفيها بالنسبة لمن لم يكن مطّلعاً على بواطن الأمور؟ إننّا لانميّزها عن الأخريات: فإمّا قيلت بلهجة مذعورة جرى الاستماع إليها دون انتباه. سوف نعود إلى هذه الجملة فيما بعد حينما نكون وحدنا ولن يبدو لنا أنها تلائم الواقع. ولكن أترانا نتذكّرها تماماً تلك الجملة؟ إنّه ليولد تلقائياً في داخلنا فيما يبدو شكّ إزاءها وإزاء صحّة تذكّرنا، شك من نمط تلك التي تجعلك لاتستطيع البتّة في أثناء بعض الحالات العصبيّة أن تتذكّر إن كنت أغلقت بابك ولايتمّ لك ذلك فى المّرة الخمسين أكثر من المّرة الأولى: لكأنّما يمكنك إعادة الكرّة إلى مالانهاية دون أن تترافق الإعادة مرّة بتذكّر دقيق مُنْقذ. لكننا على الأقلّ نستطيع إغلاق الباب للمرّة الحادية والخمسين، فيما الجملة المقلقة فى الماضي وجاءت عبر عمليّة استماع غامضة لانملك أن نكرّرها. حينئذ نصرف انتباهنا إلى أخرى لاتخبئ شيئاً، ولعلّ الدواء الوحيد الذي لانقبل به يكمن في تجاهل كلّ شيء كي لاتداخلنا الرغبة في معرفة أفضل. وما إن تُكْتَشَف الغيرة حتّى تعدّها من كانت موضوعَها بمثابة ارتياب يسمح بالخداع. ونحن على أيّ حال من اتّخذ، بغية الاطلاع على أمر ما، مبادرة الكذب والخداع. صحيح أن "أندريه" و"إيميه" يعداننا بأن لايقولا شيئاً، ولكن أتراهما يفعلان؟ لم يستطع "بلوك" أن يعد بشيء لأنّه ما كان يعلم، و"ألبيرتين" سوف تعلم، إمّا تحدّثت إلى كلّ من الثلاثة وبوساطة ما كان دعاه "سان لو" بـ"التقاطعات" أننا نكذب عليها حينما ندّعي أنّنا بأفعالها وأنّنا عاجزون أخلاقياً عن مراقبتها. وهكذا فإنّ نتفة الإجابة التي جاءتني بها "أندريه" كانت، إذ تعقب (فيما يخص ما كانت تفعله "ألبيرتين") شكّي المعتاد اللانهائيّ، وهو مفرط الإبهام كي لايلبث غير مؤلم وكان بالنسبة إلى الغيرة ماهي بالنسبة إلى الغمّ بدايات النسيان حيث تولد السكينة من الغموض، كانت تثير في الحال أسئلة جديدة. فلم أكن أفلحت، وأنا أستكشف قطعة من المنطقة الكبيرة التي تمتدّ من حولي، إلاّ في أن أدفع إلى الوراء حدود هذا المجهول الذى تؤلّفه فيما يخصّنا الحياة الحقيقيّة التي يحياها شخص ما حينما نحاول

فعلاً تصوّرها. كنت أوالي مساءلة "أندريه" فيما تطيل "ألبيرتين"، بداعي التحفّظ وكي تدع لي (تراها كانت عارفة بالأمر؟) كامل الوقت لمساءلتها، في نزع ثيابها في غرفتها.

كنت أقول لـ"أندريه": "في اعتقادي أن عمّ "ألبيرتين" وعمّتها يودّانني كثيراً"، أقول دونما تردّد ودون أن أفكر بطباعها، فارى في الحال وجهها اللزج يتشوّه مثلما شراب يفسد ويبدو وقد تشوّش أبداً. ويلتوي خطّ فمها حزناً. لم يظلّ شيء لـ"أندريه" من ذلك المرح الفتيّ الذي كانت تنشره، كمثل كامل الجماعة الصغيرة وعلى الرغم من طبيعتها السقيمة، في السنة الأولى لإقامتي في "بالبيك" والذي أخذ الآن (وصحيح أن "أندريه" زادت مذ ذاك بضع سنوات) يغيب عنها بسرعة كبيرة. لكنيّ سأبعثه مجدّداً على نحو غير مقصود (قبلما تكون "أندريه" فارقتني لتناول العشاء في منزلها. كنت أقول لها: "هنالك واحد أشاد أما في اليوم إشادة عظيمة بك". وفي الحال يشرق في عينيها شعاع فرح ويبدو عليها أنّها تحبّني حقّاً. كانت تتجنّب النظر إليّ ولكنّها تضحك في الفراغ بعينين استدراتا فجأة استدارة تامّة. وتسأل باهتمام ساذج نهم: "ومن عساه يكون؟" وأقول لها عنه فتبدو سعيدة كائناً من كان.

ثمّ تحل ساعة الرحيل فتفارقني، وتعود "ألبيرتين" بالقرب منّي. لقد خلعت ثيابها، وهي ترتدي واحداً من تلك المآزر الجميلة التي من قماش الكريب الصيني أو من الفساطين اليابانية التي سبق أن سألت السيّدة "دوغير مانت" وصفاً لها وزوّدتني السيّدة "سوان" بالنسبة إلى بعض منها بإيضاحات إضافية في رسالة تستهلّها بهذه الكلمات: "بعد احتجابك الطويل، ظننت وأنا أقرأ رسالتك بخصوص جلابيب الشاي التي أرتديها أني أتبلّغ أخباراً من عائد من القبر." كانت "ألبيرتين" تحتذي حذاء أسود تزينّه ماسات، وكانت "فرانسواز" تسمّيها بحنق "سوكات" وهي شبيهة بتلك التي رأت السيّدة "دوغيرمانت" من نافذة الصالة تلبسها في منزلها مساءً، كما أنّ "ألبيرتين" حصلت بعد ذلك على خفاف بعضها من جلد الجداء المذهب والأخرى من فراء الشنشيلة وكنت أستعذب رؤيتها إذ كانت هذه وتلك بمثابة علامات (لعلّ أحذيةً غيرها لم تكنها) تشير إلى سكناها عندي. كانت تملك أيضاً حاجات لم أكن مصدرها، كخاتم جميل من الذهب، ويعجبنى فيه جناحا نسر منشوران. وقالت لي: "إنّها عمّتي من أعطتني إيّاه، وهي لطيفة أحياناً على الرغم من كل شيء. إنّ ذلك يزيد في سنيّ عمري، فقد أعطتني إيّاه بمناسبة بلوغي العشرين."

كانت "ألبيرتين" تحسّ ميلاً إلى سائر هذه الأشياء الجملية أشدّ من الدوقة لأنّ الفقر، شأن كلّ عقبة تعترض سبيل الامتلاك (كما هو المرض فيما يخصنّي، فالرحلات جرّاءه كم كانت تشقّ عليّ وكم أشتهيها)، الفقر أكثر كرماً من الثراء، إنّما يمنح النساء أكثر من الأبواب التي لايسعهنّ شراؤها، عنينا الرغبة في هذه الأثواب، وهي معرفتها الحقّة المفصّلة المعمّقة. وكنّا، هي لأنّه لم يسعها أن توفّر لنفسها هذه الأشياء، وأنا لأنني كنت أبحث إذ أوصي على صنعها لها عن إدخال السرور على قلبها، كنّا كحال هؤلاء الطلبة الذين يعرفون سلفاً كل شيء عن اللوحات التي يتلهفّون إلى الذهاب لرؤيتها في دريسدن أو في فييننّا؛ فيما تبدو النساء الثريّات بين وفرة قبّعاتهن وفساطينهنّ كمثل أولئك الزوّار

الذين لايوليهم التنقل داخل متحف، بما أنه لم تسبقه أية رغبة، سوى إحساس بالدوار والتعب والملل، كانت هذه القبّعة، وذاك المعطف الذى من فراء الزيبلين وذلك المئزر من أعمال "دوسيه" ذو الأكمام المبطّنة بالزهر، كانت تتّخذ فى نظر "ألبيرتين" التي سبق أن شاهدتها واشتهتها وقامت، بفضل الطابع الحصري والدقّة اللذين يميّزان الرغبة، بفصلها عمّا عداها في فراغ تبرز عليه بروزاً رائعاً البطانة أو الوشاح، وتعرّفها فى الآن نفسه في جميع أجزائها (وفي نظري أنا الذي مضى إلى بيت السيّدة "دوغيرمانت" يحاول استيضاح الأمر الذى تقوم عليه خصوصيّة وتفوّق وأناقة الشيء وطريقة الصانع العظيم التي لا تضاهى)، أهميةً وسحراً لاتتخذهما بالتأكيد في نظر الدوقة، وهي شبعى حتى قبل أن تداخلها الشهيّة، أو حتّى في نظري إن سبق لي أن رأيتها قبل بضع سنوات في مرافقتي لهذه المرأة الأنيقة أو تلك في واحدة من جولاتها المملّة على الخيّاطات. ولا جرم أن "ألبيرتين" أخذت تضحي، شيئاً فشيئاً واحدة من هذا القبيل. فإنّه إن كان كلّ شيء أوصي بصنعه لها على هذا النحو هو الأجمل في طرازه، إلى جانب سائر المنمّقات التي لعلّ السيدّة "دوغيرمانت" أو السيّدة "سوان" كانت تضيفها إليه، فقد أخذت تملك من هذه الأشياء الكثير. لكنّما لا أهميّة لذلك ما دامت أحبّتها باديَ الأمر وكلاً على انفراد. حينما نهيم برسّام، ثمّ بآخر، يمكن أن يدخلنا في النهاية إزاء المتحف بكامله إعجاب لا يكون بارداً لأنه تشكّل من صنوف من العشق متعاقبة، كلّ واحد حصريّ في وقته، ثمّ هي اجتمعت فى نهاية المطاف الواحد إلى جانب الآخر وتوافقت.

لم تكن طائشة على أيّ حال، وكانت تقرأ كثيراً إن كانت وحدها وتقرأ لي حين تكون برفقتي. لقد أضحت في غاية الذكاء. وكانت تقول، وهي مخطئة على كلّ حال: "يتملكّنى الهلع حينما أفكّر أني كنت لبثت غبيّة لولاك. هيّا، لا تنكر ذلك فقد فتحت لي دنيا من الأفكار ما كنت أرتاب بها وإنّي لا أدين إلا لك بالقليل الذي أضحيت عليه".

نحن نعلم أنّها قالت كلاماً مماثلاً عن تأثّر "أندريه" بي. فهل كان لهذه أو تلك مشاعر نحوي؟ وما عسى كانت "ألبيرتين" و"أندريه" فى حدّ ذاتهما؟ لابدّ لمعرفة ذلك من تجميدكنّ وأن لا نعيش من بعد في انتظار، وكيما نثبتّكن أن لا نعرف من بعد مجيئكنّ الذي لا ينتهي والمحيِّر على الدوام أيّتها الفتيات، ياشعاعاً متوالياً في الزوبعة التي يخفق فيها فؤادنا أن نراكنّ تطلعن من جديد، ونكاد لا نتعرّفكنّ، في سرعة الضوء المدوّخة. والسرعة هذه ربّما لم ندركها وبدا لنا كلّ شيء جامداً لو لم يدفعنا إليكنّ جاذب جنسيّ، يا قطرات من ذهب مختلفات أبداً ويجاوزن دوماً توقّعنا. والفتاة قليلة الشبه في كلّ مرّة بما كانت عليه في المرّة السابقة (فتمزّق إرباً حالما نراها الذكرى التي حفظناها عنها والرغبة التي كنّا نرمي إليها) إلى حدّ يبدو معه أن الطبيعة المستقرّة التي نوليها إيّاها محض وهم ولسهولة التعبير. لقد قيل لنا إن الفتاة الجميلة رقيقة مُحبّة تفيض مشاعر من أكثرها نعومة. ويصدّق خيالنا الأمر لمجرّد القول وحينما تظهر لنا أوّل مرّة تحت نطاق شعرها الأشقر الجعد دائرة محيّاها الورديّ نكاد نخشى أن تشيع هذه الشقيقة المفرطة في فضيلتها البرودة في أوصالنا من جرّاء هذه الفضيلة نفسها وأن لا يسعها في يوم أن تكون بالنسبة إلينا العشيقة التي تمنّيناها. كم من الأسرار

نستودعها على أيّة حال منذ الساعة الأولى، وبالاعتماد على نبل الفؤاد هذا كم من المشروعات صيغت سوياً! لكنّنا بعد انقضاء بضعة أيّام نأسف أن نكون كشفنا إلى هذا الحدّ عن مكنونات نفسنا لأنّ الفتاة الموردّة التي التقيناها تحدّثنا في المرّة الثانية حديث جنيّة متهتكة. وفى الوجوه المتعاقبة التي يقدّمها لنا، بعد تذبذب دام بضعة أيام، النور الوردي المحَتجز، ليس حتّى أكيداً أنْ لم تبدّل حركة من خارج هاتيك الفتيات مظهرهنّ ومن الممكن أن يكون ذلك وقع لفتياتي في "بالبيك". يمتدحون أمامنا وداعة ونقاء عذراء. لكننا نشعر بعد ذلك أن شيئاً أوفر "بهارات" ربّما راقنا أكثر فنثور عليها بابداء جرأة أكبر. فهل كانت في حدّ ذاتها هذه بالأحرى أو تلك؟ قد لا يكون ذلك، ولكنها قادرة أن تبلغ الكثير من الإمكانات المختلفة في بحر الحياة المدوّخ. وبالنسبة لأخرى كان قوام كلّ الجاذب فيها شيئاً من قسوة لا ترحم (كنّا ننوي تليينها على طريقتنا)، كما هي حال القافزة المريعة فى "بالبيك" التي كانت تلامس في وثباتها رؤوس الشيوخ المذعورين، أيّة خيبة أمل حينما كنّا نسمعها، في الجانب الجديد الذي يوفّره هذا المحيّا لحظة كنّا نقول لها كلمات رقيقة استثارها تذكّر هذا الحجم من القسوة على الآخرين، تقول لنا منذ البداية إنّها خجولة وإنّها ما عرفت يوماً أن تقول شيئاً معقولاً لأحدهم في المرّة الأولى لفرط ما ينتابها من خوف وإنّها لن تستطيع التحدّث وإيّانا بهدوء مطمئنّ إلاّ بعد انقضاء خمسة عشر يوماً! لقد أصبح الفولاذ قطناً، وربمّا لم يبق لنا من بعد شيء نحاول تحطيمه بما أنها أخذت تفقد ذاتها بذاتها أية صلابة بذاتها، ولكن ربّما كان الذنب ذنبنا لأن الكلمات الرقيقة التي كنّا وجّهناها إلى "القسوة" ربما أوحت لها أن تكون رقيقة حتى دون أن تكون حسبت أيّ حساب مغرض. (والأمر كان يغمّنا ولكنّما لم يكن إلاّ نصف أخرق لأنّ الامتنان لهذا القدر من الوداعة سوف يضطرّنا ربما إلى ما كان أكثر من الافتتان إزاء القسوة المقهورة.) ولست أقول إنّه لن يجيء يوم نخصّ فيه حتىّ تلك الفتيات المشرقات بطباع متميزّة تماماً، لكنّما الأمر أنّهن يكنّ كففن عن إثارة اهتمامنا وأن دخولهن لن يكون لفؤادنا، من بعد، التجليّ الذي كان يتوقّعه مختلفاً والذي يخلّفه كل مرّة مشوّشاً جرّاء تجسّدات جديدة. وسوف ينجم جمودهنّ عن لا مبالاتنا التي ستسلمهنّ إلى محاكمة الفكر. ولن يبتّ هذا الأخير على أيّة حال بصورة أوفر جزماً لأنّه سوف يتبيّن، بعدما يكون قد حكم أن هذا العيب الغالب لدى إحداهنّ كان لحسن الحظّ غائباً لدى الأخرى، أنّ ذاك العيب إنّما يقابله صفة ثمينة. وهكذا تصدر عن حكم العقل الخاطئ، والعقل لا يتدخّل إلاّ حينما نكفّ عن الاهتمام، تصدر محدّدة الخطوط طباع ثابتة للفتيات لن تخبرنا بأكثر ممّا فعلت الوجوه المذهلة التي طلعت في كلّ يوم حينما كانت تبرز إلينا صديقاتنا، في سرعة انتظارنا المدوّخة، حينما يبرزن كلّ يوم وكلّ أسبوع أكثر اختلافا من أن يسمح لنا ذلك، إذ الجرى لا يتوقّف، بأن نصنّف ونحدّد مراتب. أمّا بشأن عواطفنا، وقد تحدّثنا عنها أكثر من أن نكرّر القول، فكثيراً ما لا يكون الحبّ سوى الترابط بين صورة فتاة (لعلّها سرعان ما كانت بدت لنا لولا ذاك غير محتملة) وخفقات القلب التي لا تنفصل عن انتظار لا ينتهي ولا يجدي وتخلف الآنسة في وعدها. وليس كل ذلك صحيحاً فقط بالنسبة إلى الفتيان الواسعي الخيال أمام الفتيات المتقلّبات. فمنذ الوقت الذي وقعت فيه قصّتنا يبدو أنّ ابنة شقيق "جوبيان" وقد عرفت الأمر مذ ذاك، غيرّت رأيها بخصوص "موريل" وبخصوص السيدّ

"دو شارلوس". وهبّ عاملي الميكانيكيّ، هبّ إلى نجدة الحبّ الذي كانت تكنّه لـ"موريل" فامتدح لديه ألطافاً لا تنتهي على أنّها موجودة لدى عازف الكمان، وما كانت إلا ميّالة إلى تصديقها. وكان "موريل" من جانب آخر لا يفتأ يحكي لها عن دور الجلاد الذي يمارسه السيّد "دو شارلوس" عليه والذي كانت تعزوه للخبث إذ هي لا تستشفّ الحبّ فيه. أضف أنّها كانت مضطرّة أن تلاحظ أن السيّد "دو شارلوس" كان يحضر مستبداً لقاءاتهما كافّة. ويجيء سنداً لذاك أنّها كانت تسمع نساء المجتمع الراقي يتكلّمن عن خبث البارون الرهيب. إلا أن حكمها هذا انقلب منذ وقت يسير انقلاباً كاملاً. فقد اكتشفت لدى "موريل" (دون أن تتوقفّ عن حبّه لذلك) أغوراً من الخبث والغدر توازنها على أيّة حال عذوبة تغلب عنده ورقّة إحساس حقيقيّة، ولدى السيدّ "دو شارلوس" طيبة لا يشكّ فيها ولا حدّ لها تختلط بها صنوف من القسوة ما كانت تعرفها. وهكذا لم تفلح في الحكم حكماً أكثر تحديداً حول ما كان عليه عازف الكمان وراعيه، كلّ في ما يخصّه، منّي حول "أندريه"، مع أني ألتقيها كلّ يوم، و"ألبيرتين" التي تعيش تحت سقفي.

في العشيّات التي لم تكن هذه تقرأ لي بصوت جهوري كانت تسمعني موسيقى أو تباشر معي لعبات "الدامه" أو أحاديث فأقطع هذه وتلك لأعانقها. وكانت علاقاتنا تتّسم ببساطة تكسبها جواً من الراحة. كان فراغ حياتها ذاته يولي "ألبيرتين" نوعاً من المسارعة إلى اللطف والطاعة في الأشياء التي أطالبها بها فقط. ومن وراء هذه الفتاة، كما من وراء الضوء الأرجواني الذي ينهمر على حضيض ستائري في "بالبيك"، كانت تموّجات البحر الضاربة إلى الزرقة تكتسي بياضاً. أفلم تكن (هي التي تسكن أعماقها بصورة معتادة فكرة عنيّ أليفة إلى حدّ ربمّا كنت معه، بعد عمّتها، الشخص الذي تميزّه أقلّ ما تميّز عن ذاتها) الفتاة التي شاهدتها أوّل مرّة في "بالبيك" بقميصها الرياضي الذي لا بروز فيه وعينيها الملحاحتين الضحوكتين، وهي بعد مجهولة هيفاء مثلما ارتسام طيف على الأمواج؟ وهذه الرسوم المنقوشة المحفوظة في الذاكرة سليمة لم تمسّ، إنمّا يداخلنا العجب، حين نعود فنلقاها، من اختلافها عن الشخص الذي نعرفه. وإنّنا ندرك أيّ عمل صياغيّ تنجزه العادة يومياً. كان لا يزال يداخل السحر الذى تتمتّع به "ألبيرتين" في باريس في ركن مدفأة بيتى، الرغبة التي بعثها في نفسي الموكب الوقح الربيعى الذي كان يتجلى للناظرين على طول الشاطئ، ومثلما كانت "راحيل" تحتفظ لـ"سان لو" بمهابة حياة المسارح حتى بعدما حملها على هجرها كان لايزال يداخل "ألبيرتين" هذه المحتبسة في منزلي، بعيداً عن "بالبيك" التي اصطحبتها منها على عجل، الاضطراب والضياع الاجتماعي والغرور القلق والرغبات الشاردة التي تميّز الحياة في حمّامات البحر. لقد أحسن سجنها إلى حدّ أني، في بعض العشيّات، ما كنت حتّى أرسل في طلبها لتنتقل من غرفتها إلى غرفتي هي التي كان الجميع بالأمس يسعون في إثرها، والتى كم كان يشق عليّ اللحاق بها وهي تمضي سريعة على دراّجتها والتي ما كان عامل المصعد نفسه يستطيع العودة بها إليّ ولا يدع لي، أو يكاد، أملاً بمجيئها وكنت أنتظرها مع ذلك طوال الليل. أفلم تكن "ألبيرتين" أمام الفندق بمثابة ممثّلة كبيرة على الشاطئ الملتهب تثير مشاعر الغيرة حينما تتقدّم فوق مسرح الطبيعة هذا لاتكلم أحداً، وتدفع عنها روّاده وترتفع فوق صديقاتها، تلك الممثلة المشتهاة أما كانت هي التي أضحت، بعدما انتزعتها عن

خشبة المسرح وسجنتها في بيتي، في منأى عن رغبات الجميع، وكانوا يستطيعون مذ ذاك البحث عنها دون جدوى، تارة في غرفتي وطوراً في غرفتها حيث تنصرف إلى أيّ عمل في نطاق الرسم والنقش؟

ليس من شك أن "ألبيرتين" كانت تبدو في أوّل أيّام "بالبيك" في خطّ مواز لذاك الذي كنت أعيش فيه، ولكنّه اقترب منه (حينما ذهبت إلى منزل "إيلستير") ثمّ لحق به على إيقاع علاقاتي وإيّاها في "بالبيك" و"باريس" ثمّ في "بالبيك" مرة أخرى. ولكن يا للفارق بين لوحتي "بالبيك" في الإقامة الأولى والثانية واللتين تؤلفهما الدارات نفسها التي كانت تخرج منها الفتيات نفسها أمام البحر نفسه! فهل كان بوسعي أن ألقى في صديقات "ألبيرتين" من الإقامة الثانية، وهنّ معروفات تماماً عندي ومزاياهنّ ومعايبهنّ منقوشة بوضوح في محيّاهنّ، هاتيك المجهولات النضرات الغامضات اللواتي ما كنّ يستطعن، دون أن يخفق فؤادي، جعل باب دارتهنّ يصرّ على الرمال ويلوي في دورته أغصان التماري المرتجفة؟ لقد تقلّصت عيونهنّ الواسعة مذذاك لأنّهن دونما شكّ لم يعدن طفلات، بل كذلك لأنّ هاتيك المجهولات الفاتنات، ممثّلات السنة الأولى الخياليّة واللواتي لم أكفّ عن جمع المعلومات حولهنّ، لم يعدن يملكن سراً بالنسبة إليّ. فقد أضحين في نظري، هنّ الممتثلات لنزواتي، محض فتيات متفتّحات وما كنت قليل الاعتزاز بأنّي قطفت من بينهنّ، وسرقت من الجميع أجمل وردة.

كان ثمّة بين المنظرين، وما أشدّ اختلافهما الواحد عن الآخر في "بالبيك"، فاصل من عدّة سنوات في باريس وقع على مسارها الطويل الكثير من زيارات "ألبيرتين". فقد كنت أشاهدها في مختلف سني حياتي تشغل بالنسبة إليّ مواقع مختلفة تُشعرني بجمال المساحات المُدْخلةَ، هذا الزمن الطويل المنصرم الذي لبثت لا أراها فيه، المساحات التي كانت تتشكّل على عمقه الشفّاف الفتاة الورديّة التي تقف أمامي، تتشكّل بظلال زاخرة بالأسرار وبروز خطوط عظيم. وكان ناجماً على أيّة حال لا عن تناضد الصور المتعاقبة التي شكّلتها "ألبيرتين" بالنسبة إليّ فحسب، بل كذلك عن المزايا الفكريّة والقلبية العظيمة والعيوب الخلقيّة، وما كنت أرتاب بوجود هذه وتلك، والتي أضافتها "ألبيرتين"، عبر عمليّة إنبات، عبر تكثير لذاتها وإزهار شحيم عاتم الألوان، إلى جبلة كادت تكون معدومة بالأمس وهي الآن صعب تقصّيها. ذلك لأنّ الكائنات، حتّى منها تلك التي لم تعد تبدو لنا لفرط ما حلمنا بها سوى صورة، سوى وجه من وجوه "بينوتزو غوتزولي" يبرز على خلفية ضاربة إلى الخضرة، والتي كنا نجنح إلى الظنّ بأن تغيّراتها الوحيدة مردّها النقطة التي نقيم فيها لمشاهدتها والمسافة التي تفصلها عنّا والإنارة، تلك الكائنات إنّما تتغيّر أيضاً في حدّ ذاتها فيما تتغير بالنسبة إلينا؛ لقد كان ثمة إثراء وتصلّب وتنام في حجم الوجه الذي ارتسمت خطوطه بالأمس مجرّد ارتسام على صفحة البحر. وما كان البحر وحده في أواخر النهار هو الذي يعيش في نظري داخل "ألبيرتين" بل إغفاءة البحر أحياناً فوق الرمال في الليالي المقمرة. فأحياناً حينما كنت أنهض للمبادرة إلى البحث عن كتاب في مكتب والدي كانت صديقتي، بعدما استأذنت بالاستلقاء في هذه الأثناء، قد أتعبتها أشد التعب

الجولة الطويلة في الصباح وبعد الظهر في الهواء الطلق إلى حدّ أنّي حتّى لو لم أمكث سوى برهة وجيزة خارج غرفتي كنت ألقى "ألبيرتين" نائمة حينما أعود فلا أوقظها. كنت أرى لها، وهي مستلقية من رأسها إلى أخمص قدميها فوق سريري في وضع يتّسم بتلقائيّة ما كان يمكن اصطناعها، هيئة ساق طويلة مزهرة جُعلت هنا. كانت الأمور بالفعل على هذا المنوال: فقد كنت أعود فألقى بالقرب منها في تلك اللحظات القدرة على الحلم التي لا أملكها إلا في غيابها، كما لو أنّها في نومها أضحت نبتة. وبذلك كان نومها يحقّق إلى حدّ ما إمكان الحبّ، إذ كنت أستطيع في وحدتي أن أفكر فيها ولكنّي أفتقدها ولا أمتلكها. كنت في حضورها أتحدّث إليها ولكنّي غائب عن ذاتي بما يتجاوز قدرتي على التفكير. أمّا حينما تنام فلا يقع عليّ من بعد أن أتكلّم وأعلم أنّها لا تنظر إليّ من بعد ولا حاجة بي والحالة هذه إلى العيش على صفحة ذاتي. كانت "ألبيرتين" إذ تطبق عينيها وتفقد الوعي قد انتزعت الواحدة تلو الأخرى سماتها الإنسانية المختلفة التي سبق أن خيبت آمالي منذ اليوم الذي تعرّفت فيه إليها. لم يعد يدبُّ فيها سوى حياة النباتات اللاواعية، حياة الأشجار. حياة شديدة الاختلاف عن حياتي وأكثر غرابة، لكنّها أقرب أن تكون لي. فما كانت "أناها" تهرب في كلّ لحظة، كحالها حين كنّا نتحدّث، عبر منافذ الفكر الذي لايباح به ومنافذ العين. فقد كانت استدعت إلى ذاتها كلّ ما كان منها في الخارج فاتخذت ملاذاً لها وسجنت واختصرت ذاتها داخل جسدها. وإذ أمسك بها تحت ناظري وبين يديّ كان يتولدّ لديّ انطباع بأنّي أملكها بكليّتها وما كان ذلك انطباعي حين تكون مستيقظة. كانت حياتها خاضعة لي وتنفث صوبي أنفاسها الخفيفة. كنت أصغي إلى هذا الانبعاث الهامس الغامض، العذب عذوبة نسيم البحر الأخاذ كما هو ضياء القمر هذا، والذي يمثله نومها. كان بوسعي أن أحلم بها وأنظر إليها مع ذلك مادام مستمراً، وأن ألمسها وأقبّلها حينما يصبح ذاك النوم عميقاً. ما كنت أحسّ به آنذاك إنّما كان حباً في مواجهة شيء نقيّ لا مادي غامض بقدر ما يكون لو أنّني كنت في مواجهة المخلوقات الجامدة التي تمثّلها جمالات الطبيعة. فإنَّها ما إن كانت تنام بشيء من العمق حتىّ تكف عن كونها فقط النبتة التي سبق أن كانتها ويضحي نومها الذي كنت أحلم على حافّته بتلذّذ نديّ لعلّني ما كنت مللته في يوم ووسعني تذوّقه إلى مالانهاية، يضحي في نظري مشهدا متكاملاً. كان نومها يضع إلى جانبي شيئاً هادئاً شهياً مثيراً كتلك الليالي التي يغمرها ضياء البدر في خليج "بالبيك" وقد أضحى هادئاً هدوء البحيرات حيث تكاد الأغصان لا تتحرك، وحيث ربّما أصغيت، وأنت مستلق على الرمال، إلى تكسّر للموج لاينتهي.

وفيما كنا داخلاً إلى الغرفة لبثت واقفاً على العتبة لا أجرؤ على إحداث أيّ صوت ولا أسمع آخر غيره سوى صوت أنفاسها يقبل ليزفر بين شفتيها على فترات متقطّعة منتظمة كأنهّ ارتداد الموج ولكنّه أكثر خفوتاً ورقّة. وكان يبدو لي لحظة تلتقط أذني ذاك الصوت الإلهي أنْ قد تجمع فيه كامل شخص وحياة السجينة الفاتنة المستلقية هنا تحت ناظريّ. وتمرّ سيّارات تضجّ في الشارع فيظلّ جبينها بمثل جموده، بمثل نقائه، وأنفاسها بمثل خفّتها وقد استحالت مجرّد زفرة الهواء الضروريّة. ثم كنت أتقدّم بحذر، وقد تبيّنت أن نومها لن يضطرب، وأجلس على الكرسيّ الذي إلى جانب السرير ثم على السرير نفسه. لقد أمضيت عشيّات رائعة في التحدث إلى "ألبيرتين" واللعب وإيّاها، لكنّها لم تكن في يوم

بمثل عذوبتها حين أنظر إليها في نومها. وعبثا تبدي في ثرثرتها وفي لعب الورق تلك الفطرة التي ما كانت ممثلة تستطيع تقليدها فقد كانت تلك التي يزوّدني بها نومها من تلقائية أكثر عمقاً، تلقائية من الدرجة الثانية. كان شعرها المنسدل على امتداد وجهها الورديّ ملقىً إلى جانبها في السرير فيما توليك أحياناً خصلة مفردة مستقيمة ذات الأثر المنظوري الذي تخلّفه تلك الشجرات القمريّة الناحلة الشاحبة التي تشاهدها تنتصب مستقيمة في الركن القصيّ من لوحات "إيلستير" الرافائيليّة الطابع. ولئن كانت شفتا "ألبيرتين" مطبقتين فقد كانت أجفانها في المقابل، جراء الطريقة التى أتخذ مكاني بها، تبدو قليلة الإطباق حتى كاد يسعني أن أتساءل إن كانت تنام حقاً. كانت تلك الأجفان المرخيّة مع ذلك تخلّف في وجهها استمراريّة في الخطوط لا تقطعها العينان. فثمّة أشخاص يتخذ وجههم جمالاً وجلالاً غير مألوفين إن هو فقد نظرته. كنت أقيس بالعين "ألبيرتين" المستلقية عند قدميّ. كان يسري فيها بين الحين والحين ارتعاش خفيف لا تفسير له مثل أوراق تختلج على مدى لحظات جرّاء نسائم غير متوقّعة. وكانت تلامس شعرها ثم هي ترفع يدها، إذ لم ترتّبه على نحو ما تشاء، ترفع يدها إليه بحركات متتالية بادية التصميم إلى حدّ أوقن معه أنّها توشك أن تستيقظ. وما كان شيء من ذلك إذ هي تعاود هدوءها في الغفوة التي لم تبرحها، وتلبث مذذاك لا حراك بها. لقد وضعت يدها على صدرها في تراخ للذراع طفوليّ حتّى لأراني مضطراً وأنا أنظر إليها أن أكتم الابتسامة التي يبعثها فينا الأولاد الصغار بجديّتهم وبراءتهم وظرافتهم. كان يبدو لي، أنا الذي يعرف عدّة "ألبيرتينات" في واحدة، أني أرى كثيرات غيرها يرقدن بالقرب منيّ. وحاجباها المعقوفان كما لم يتّفق أن رأيتهما من قبل كانا يحيطان بجدبتي جفنيها على هيئة عش ناعم لطائر الألسيون، وتستريح فوق محيّاها أعراق ووراثيات وعيوب. وكانت في كلّ مرّة تبدل فيها موضوع رأسها تبتدع امرأة جديدة ما كنت في الغالب أتوقّعها، ويبدو لي أني لا أملك فتاة واحدة بل عدداً لايحصى من الفتيات. كانت أنفاسها، وهي الآن شيئاً فشيئاً تزداد عمقاً، ترفع بانتظام صدرها، ومن فوقه يديها المشبوكتين ولآليها التي تبدّدها الحركة نفسها مطارح مختلفة، كما هو شأن تلك القوارب وسلاسل الكبول التي يرجحها خفق الموج. حينئذ، وساعة أحسّ أن النوم أخذ منها كلّ مأخذ وأنني لن أصطدم بصخور للوعي تغمرها الآن أعالي بحار النوم العميق كنت أقفز بكامل الوعي ودونما ضجّة إلى السرير وأستلقي على امتداد جسمها وألفّ خصرها بإحدى ذراعيّ وأطبع شفتيّ على خدها، وعلى قلبها ثمّ على سائر أجزاء جسمها أضع يدي الوحيدة التي لبثت طليقة، وكانت ترتفع بدورها كحال اللآلئ جراء تنفّس "ألبيرتين"؛ وكنت أنا أنزاح قليلاً جرّاء حركتها المنتظمة. لقد أبحرت يحملني نوم "ألبيرتين".

كان يذيقني أحياناً لذة أقلّ طهراً ولا أحتاج لذلك أيّة حركة، إذ كنت أدع ساقي تتدلّى على ساقها مثل مجذاف ندعه سائباً ونبعث فيه بين الحين والحين ترجّحاً طفيفا يشبه خفق الجناح المتقطّع الذي للطيور التي تنام في الجوّ. كنت أختار للنظر إليها هذا الجانب من وجهها الذي لا يشاهَد قطّ والذي كان غاية في الجمال. نحن ندرك، في حدود المعقول، أن تكون الرسائل التى يوجهها إلينا أحدهم متشابهة تقريباً فيما بينها وترسم صورة مختلفة إلى حدّ ما عن الشخص الذي نعرفه كيما

تؤلفّ شخصية ثانية. ولكن كم يبدو أكثر غرابة أن تلتصق امرأة، على نحو ما كانت "روزيتا" بـ"دوديكا"(١)، بامرأة أخرى يحملك جمالها المختلف على أن تستخلص منه سمة أخرى وأنه ينبغي لك كي ترى هذه أن تنظر إليها جانبياً، ووجهاً لوجه كي ترى تلك. كان يمكن لصوت تنفّسها وهو آخذ في الارتفاع أن تتوهّم فيه لهاث اللذّة وحينما تبلغ نشوتي حدّها كنت أستطيع تقبيلها دون أن أكون قطعت عليها نومها. كان يبدو لي في تلك اللحظات أنّني قمت بامتلاكها بصورة أوفى وكأنّما شيء غير واع عديم المقاومة من الطبيعة الخرساء. وما كنت أبالي بالكلمات التي كانت تطلقها أحياناً في نومها فقد كان مدلولها يغيب عنيّ، وأياً كان على أيّ حال الشخص الذي ربّما عنته فانّ يدها إنّما كانت، وقد هزّتها أحياناً رعشة طفيفة، تضغط لحظة على يدي أنا، على وجنتي. كنت أتذوّق نومها بحبّ خالي الغرض مهدّئ مثلما كنت ألبث ساعات أصغي إلى تدافع الموج. وربّما انبغى أن يكون الناس قادرين على أن يسوموك عذاباً مراً كي يوفّروا لك في ساعات الصفاء ذات السكينة المهدّئة التي توفّرها الطبيعة. لم يكن عليّ أن أجيبها كما هي الحال حينما كنّا نتحدّث، وحتّى لو استطعت أن أصمت، مثلما كنت أفعل أيضاً حينما تتكلّم، لما نزلت مع ذلك، وأنا أسمعها تتحدّث، إلى مثل ذاك العمق في ذاتها. كان ثمةّ، وأنا ماض من لحظة إلى أخرى في سماع وجمع الهمسة المهدّئة، كما النسيم الأوفر رقّة، لأنفاسها الطاهرة، حياة فيزيولوجية كاملة ماثلة أمامي وهي ملكي. ولعلّني كنت بقيت هنا أنظر وأصغي إليها مقدار ما كنت أظلّ فيما مضى مستلقياً على الشاطئ في ضياء القمر. وأحياناً كان يخيّل إليك أن البحر إلى هياج وأن العاصفة قد وصلت آثارها حتّى الخليج فكنت أنصرف مثله إلى سماع صوت عصفها الهادر.

وكانت حينما تحسّ أحياناً بالحرّ الشديد تنزع، وقد أخذها النوم تقريباً، "الكيمونو" الذي تلقي به فوق مقعد. وكنت أقول في نفسي، في أثناء نومها، إن جميع رسائلها في جيب الكيمونو الداخلي حيث تضعها على الدوام. ولعلّ موعداً كان كافياً ليقيم البرهان على كذبة أو ليبدّد شكاً. وحينما كنت أحسّ أن نوم "ألبيرتين" عميق جداً كنت أغادر جانب السرير الذي كنت أتأمّلها منه منذ فترة طويلة دونما حراك، فأجازف بخطوة وقد تملّكني فضول شديد وأحسست بسرّ هذه الحياة مبذولاً في ذلك المقعد مهلهلاً أعزل. ولعلّني كنت إلى ذلك أقوم بتلك الخطوة لأن النظر إلى أحدهم دونما حركة في نومه إنّما يصبح في نهاية المطاف متعباً. وهكذا كنت أنسلّ حتىّ المقعد على أطراف قدميّ وأستدير دون توقّف لأرى إن لم تكن "ألبيرتين" تستفيق. وأتوقّف هناك وألبث فترة طويلة أنظر إلى الكيمونو كما لبثت فترة طويلة أنظر إلى "ألبيرتين". لكنّي (وربّما كنت على خطأ) لم أمسّ الكيمونو في يوم ولا وضعت يدي في الجيب ولا نظرت في الرسائل. وكنت في النهاية أنثني راجعاً، وقد تبيّنت أني لن أحزم أمرى، فأعود بالقرب من سرير "ألبيرتين" وأنشئ أتأمّلها ثانية في نومها هي التي ما كانت تنبئني بشيء فيما كنت أبصر على ساعد المقعد ذاك الكيمونو الذي ربّما كان أنبأني بأمور كثيرة. ومثلما يستأجر قوم مقابل مئة فرنك في اليوم غرفة في فندق "بالبيك" ليستنشقوا هواء البحر، كنت

---

(١) هما بالحقيقة الشقيقتان السياميتّان "راديكا" و"دوديكا" اللتان جرى فصلهما على يد الدكتور "دوايان" عام ١٩٠٢.

أرى من الطبيعي أن أنفق أكثر من ذلك من أجلها بما أني أملك أنفاسها بالقرب من خدي وفي فمها الذي كنت أفرّجه على فمي ومن حيث تنطلق حياتها على لساني.

لكنّ متعة أخرى وهي أن أبصرها تستفيق كانت تضع حداً لمتعة تأمّلها في نومها وهي بمثل حلاوة أن تحسّها تعيش. والمتعة تلك كانت بدرجة أكثر عمقاً وأوفر غموضاً ذات المتعة التي قوامها أن تسكن عندي. كان يحلو لي دونما شك في العصر حينما تنزل من السيّارة أن تكون العودة إلى شقّتي، ويفوق ذلك حلاوة حينما كانت تعود من أعماق النوم فتصعد الدرجات الأخيرة من سلّم الأحلام، أن تكون عودتها إلى الوعي والحياة في غرفتي وأن تتساءل على مدى لحظة "في أيّ مكان أنا؟" وأن يسعها، إذ تبصر الأغراض التي تحيط بها والمصباح الذي تكاد عيناها لا ترفّان لنوره، أن تردّ أنها في بيتها حينما تتبيّن أنّها تستيقظ في بيتي. كان يبدو لي، في لحظة الشك اللذيذة الأولى تلك، أنّي أمتلكها ثانية على نحو أكثر اكتمالاً لأنها عوضا عن أن تدخل إلى غرفتها، بعدما خرجت منها إنما كانت غرفتي، بعدما تكون "ألبيرتين" تعرّفتها هي التي ستضمّها وتحتويها دون أن تبدي عينا صديقتي أيّ اضطراب إذ تظلاّن بمثل هدوئهما لو أنّها لم تنم. وتَرَدُّد اليقظة الذي يكشفه سكوتها ما كانت تكشفه نظرتها.

وتستعيد الكلام فتقول: " ياصغيري" أو "يا عزيزي" وتُتبع هذا أو ذاك باسمي، الأمر الذي كان يفضي، إن أطلقنا على الراوي اسم مؤلّف هذا الكتاب، إلى: "صغيري مارسيل"، "عزيزي مارسيل". ولم أعد أسمح مذذاك أن يقوم ذويّ داخل الأسرة، إذ يدعونني أيضاً "عزيزي"، بتجريد الكلمات اللذيذة التي كانت تقولها "ألبيرتين" من ميزة أنّها فريدة. وكانت فيما تسمعني إيّاها تقوم بتكشيرة هيّنة تبدلّها من تلقاء ذاتها قبلة. وبالسرعة التي أغفت بها منذ قليل بذات السرعة استيقظت.

لم يكن هذا الثراء الحقيقي وهذا التقدّم المستقلّ لـ" ألبيرتين" السبب الهامّ للفارق القائم بين الطريقة التي أراها بها الآن والطريقة التي كانت لي في النظر إليها بادئ الأمر في "بالبيك" أكثر ممّا كان انتقالي عبر الزمان ونظرتي إلى فتاة تجلس بالقرب منّي تحت المصباح الذي يرسل عليها نوره على نحو يختلف عن الشمس حينما كانت تتقدّم منتصبة بمحاذاة البحر. كان يمكن أن تفصل بين الصورتين سنوات أكثر دون أن تأتي بتغيّر تامّ إلى هذا الحدّ، فقد كان جرى أساسياً مفاجئاً حينما بلغني أنّ صديقتي قد تربّت تقريباً على يد صديقة الآنسة "فانتوي". ولئن هزّتني الحماسة فيما مضى لدى الظنّ بأنّي أرى سرُاً في عيني "ألبيرتين" فما كنت أسعد الآن إلا في الفترات التي أستطيع فيها أن أبعد فيها أيّ سرّ عن تينك العينين، عن تينك الوجنتين ذاتهما، العاكستين كما هما العينان، وهما شديدتا العذوبة طوراً وسرعان ما تخشنان. إن الصورة التي كنت أبحث عنها وأرتاح إليها وودت لو أموت وأنا أستند إليها، لم تعد هي "ألبيرتين" ذات الحياة المجهولة، بل "ألبيرتين" معروفة عندي قدر المستطاع (ولهذا ما كان يمكن لهذا الحبّ أن يدوم ما لم يظلّ تعيساً لأنه تحديداً لم يكن يلبيّ الحاجة إلى السرّ)، بل كانت "ألبيرتين" لا تعكس صورة عالم بعيد ولكنّها لا ترغب في شيء سوى أن تكون معي- كان ثمّة فترات يبدو فيها الأمر حقًّا على هذا النحو- مماثلة لي تماماً، "ألبيرتين" تكون صورة

لما كان بالضبط خاصتي لا صورة المجهول. وحينما يولد الحبّ على هذا النحو من ساعة يعمرها القلق بالنسبة لشخص ما، حينما يولد من شكّنا إن كنا نستطيع الاحتفاظ به أم هو سيفلت منا فإن هذا الحب يحمل طابع هذه الثورة التي أنتجته وقلّما يذكّر بما سبق أن رأيناه حتى ذاك حينما كنا نفكر بذاك الشخص عينه. كان يمكن لانطباعاتي الأولى أمام "ألبيرتين" على شاطئ البحر أن تبقى في جزء صغير في حبّي لها. والحقيقة أنّ هذه الانطباعات السابقة لا تشغل سوى مكان صغير في حبّ من هذا النوع؟، في زخمه، في عذابه، في حاجته إلى الرقّة والتجائه إلى ذكرى هادئة مهدّئة نودّ أن نقيم فيها وأن لا نعلم شيئاً من بعد عن تلك التي نحبّها حتّى إن كان ثمّة أمر شنيع علينا أن نعرفه- بل وأكثر من ذلك، إنّ مثل هذا الحبّ، حتّى إن لم ننظر إلاّ في هذه الانطباعات السابقة، مصنوع من شيء آخر تماماً! كنت أطفئ النور أحياناً قبل دخوها، فكانت تستلقي إلى جانبي في العتمة يقود خطاها ولا يكاد الضوء المنبعث من جمرة. وحدهما يداي، وجنتاي كانتا تتعرّفانها دون أن تبصرها عيناي، وغالباً ما كان يعتريهما الخوف من أن يلقياها تغيّرت، حتّى إنّها ربّما كانت تحسّ، بفضل هذا الحبّ الأعمى، بقسط من الحنان أوفر من المعتاد يغمرها.

كنت أنزع ثيابي وأرقد ونعاود، و"ألبيرتين" تجلس في ركن من السرير، لعبتنا أو حديثنا الذي تقطعه القبلات؛ وإنّنا نظلّ، داخل الرغبة التي تثير وحدها اهتمامنا بحياة وطباع شخص ما، شديدي الإخلاص لطبيعتنا، إن كنّا في المقابل نهجر الواحد تلو الآخر الأشخاص الذين أحببناهم على التوالي، إلى حدّ أن جَعَلَتني إذ رأيت نفسي ذات مرةً في المرآة لحظة كنت أعانق "ألبيرتين" وأنا أدعوها "فتاتي الصغيرة"، جعلتني التعابير الحزينة الولهى التي تعلو وجهي، وهو مماثل لما لعله كان فيما مضى بالقرب من "جيلبيرت" التي لم أعد أتذكرها ولما ربّما سيكون ذات يوم بالقرب من أخرى إن انبغى أن أنسى "ألبيرتين" في يوم، جعلتني أعتقد أنّني كنت، فوق حدود الاعتبارات الشخصيّة (إذ تقضي الغريزة بأن نعتبر أن الشخص الحاليّ هو وحده الحقيقيّ)، أقوم بمناسك عبادة مشبوبة ومؤلمة أرفعها بمثابة قربان لشباب المرأة وجمالها. ولكنّما كان يمتزج بتلك الرغبة التي تُهْدَى تمجيداً للشباب، كما بذكريات "بالبيك"، وفي الحاجة التي بي إلى الاحتفاظ بـ"ألبيرتين" على هذا النحو كل مساء بالقرب منّي، شيء ما كان غريباً حتّى ذاك عن حياتي، الغرامية على الأقلّ، إن لم يكن جديداً تماماً في حياتي. لقد كان طاقة تهدئة من نمط لم أشعر بمثله منذ العشيّات البعيدة في "كومبريه" التي كانت تقبل فيها أمي وتنحني فوق سريري لتحمل إليّ السكينة في قبلة. وكنت بالتأكيد دهشت أيّما دهشة في ذلك الزمان لو قيل لي إنّي لست في غاية الطيبة وإني على وجه الخصوص ربّما أحاول في يوم حرمان أحدهم متعة. وليس من شكّ أني ما كنت أعرف ذاتي حينذاك كما ينبغي، ذلك لأنّ متعتي بأن تكون "ألبيرتين" في بيتي بشكل دائم كانت متعة إيجابية تقلّ كثيراً عن المتعة التي قوامها أن أكون انتزعت من المجتمع، حيث يستطيع كلّ أن يتذوّقها بدوره، الفتاة النديّة التي إن كانت على أيّ حال لا تولبني مسرة كبيرة فقد كانت تحرم منها الآخرين. ولعل الطموح والعزّة كانا خلّياني غير مبال. بل كنت أكثر من ذلك عاجزاً عن الشعور بالضغينة. لكن الحبّ الجسديّ لدي كان مع ذلك بالنسبة إليّ التمتع بنصر على هذه الكثرة من المنافسين. و لن أملّ البتّة قولي بأنّه كان تهدئة أكثر من أي شيء

آخر.

وعبثاً كنت قبل عودة "ألبيرتين" قد ارتبت بها وتصوّرتها في غرفة "مونجوفان" فقد كنت، ما إن تجلس قبالة مقعدي بقميص الحمّام أو إن كنت لبثت كما هو حالي في الأغلب مستلقياً على حضيض سريري، أودع فيها شكوكي وأسلمّها إيّاها كي تريحني منها. وذلك في استسلام مؤمن يؤدّي صلاته. لقد استطاعت العشيّة بطولها، وقد تكوّرت بخبث فوق سريري، أن تلعب وإيّاي لعب هرّة كبيرة وكان وسع أنْفها الورديّ، وهي تقلّص منه بعدُ في أطرافه بنظرة مغناج توليها النعومة المميّزة التي لبعض أشخاص على شيء من السمنة، أن يكسبها سيماء ثائرة لاهبة، وكان أمكنها أن ترسل خصلة من شعرها الطويل الأسود على وجنتها التي من شمع موردّ وأن تظهر، قد أطبقت عينيها نصف إطباقة وصالبت ذراعيها، بمظهر من يقول لي: "افعلْ بي ما تشاء". وحين كانت تقترب، لحظة فراقي، لتودّعني فإنّما كنت ألثم عذوبته التي أصبحت شبه عائلية على جانبي جيدها المكتنز الذي ما كنت ألقاه البتّة آنذاك لا على سمرة كافية ولا مُبَاعَدَ المسامّ بما يكفي كما لو كان لهذه الصفات الصلبة صلة بشيء من الطيبة الصادقة لدى "ألبيرتين".

كانت تسألنى قبل فراقي قائلة: "هل تأتي معنا في الغد أيّها الخبيث الكبير؟"- "وأين تذهبون؟"- "الأمر رهن بالطقس وبك. أفتراك على الأقلّ كتبت شيئا عن قريب أيّها العزيز الصغير؟ لا؟ فما أكثر ما كسبت إذاً من أنّك لم تجئ معنا. وبالمناسبة قل لي، حينما عدتُ منذ قليل، تراك تعرّفت وقع خطوتي وحزرت أنّي أنا من تجيء؟"- "بالطبع. وهل ثمة إمكان للخطأ؟ أترانا لن نتعرّف بين ألف خطى "هبولّتنا" الصغيرة؟ فلتأذن لي بنزع حذائها قبل أن تذهب للنوم فإن ذلك يولينى أعظم السرور. فما أشدّ لطفك وتوردك وسط كلّ هذا البياض من الدانتيلاً."

ذاك كان جوابي. وسوف يتعرّف المرء ضمن العبارات الشهوانية عبارات أخرى كانت خاصّة بأمّي وبجدّتي. ذلك أني اخذت أشبه شيئاً فشيئاً ذويّ جميعهم، والدي الذي كان يبدي- بطريقة تغاير تماما طريقتي دون شك، فإنه إن تكرّرت الأشياء فإنّما بتغيرات كبيرة- أعظم الاهتمام بالطقس السائد، وليس والدي فحسب، بل أكثر فأكثر عمّتي "ليوني". ولعلّ "ألبيرتين" ما كان يمكن، لولا ذلك، إلاّ أن تكون بالنسبة إليّ مدعاة للخروج كي لا أدعها وحدها، بعيداً عن رقابتي. عمّتي "ليوني" المغلّفة بالتّقى والتي لعلّني كنت أقسمت أنْ ليس تجمعني وإيّاها نقطة واحدة أنا الشغوف جداً بالملذّات والمختلف جداً في الظاهر عن تلك المهووسة التي لم تُخْبَر في يوم إحداها وكانت تتلو طوال النهار سُبحتها(١). أنا الذي كان يعاني من عجزه عن تحقيق وجود أدبيّ في حين كانت الشخص الوحيد في العائلة الذي ما استطاع ربّما أن يدرك أنّ القراءة كانت أمراً مختلفاً عن تمضية الوقت واللهو، الأمر الذي كان يجعل القراءة، حتى في الزمن الفصحيّ، مسموحاً بها يوم الأحد حيث يمنع أيّ شغل جديّ كيما يتقدّس بالصلاة وحدها. على أنّ ما كان يحملني على المكوث كثيراً في سريري، مع أني كنت

---

(١) سبحة الصلاة لدى المسحيّين.

أجد سبباً يومياً له في وعكة خاصّة، إنما كان شخصاً، لا هو "ألبيرتين" ولا هو شخص كنت أحبّه، بل شخص أكثر سلطاناً عليّ من كائن محبوب، لقد كان عمتي "ليوني" وقد هاجرت إلى داخلي مستبدة حتى لتُسكت أحياناً شكوك غيرتي أو على الأقلّ تمضي للتأكد من أنّها تقوم أولا تقوم على أساس. أكان كفاني أَن أشبه إلى حدّ المبالغة والدي فيبلغ بي ان لا أكتفي باستشارة ميزان الضغط الجوّي كحاله هو بل أضحي أنا ميزاناً حيّا، وهل كان كفاني أن أسلى القياد لعمّتي "ليوني" لأظلّ أراقب الطقس، ولكن من غرفتي أو حتىّ من سريري؟ وها إنّي كذلك أتحدّث الآن إلى "ألبيرتين" تارة حديث الطفل الذى سبق أن كنته في "كومبريه" وأنا أتحدّث إلى أمي وطوراً مثلما كانت جدتي تتحدث إليّ. فحين نكون جاوزنا سنّاً معيناً تقبل روح الطفل الذي كنّاه وأرواح الأموات الذين صدرنا عنهم لتلقي إلينا بملء اليدين بثرواتهم وأذيات سحرهم وتطالب بالمساهمة في المشاعر الجديدة التي نحسّ بها والتي نعيد صهرها فيها، وقد طمسنا صورتها القديمة، في علميّة خلق جديدة. هكذا كان كلّ ماضيّ منذ أقدم سنيّ، ومن ورائها ماضي ذويّ، يمزج بحبيّ الدنس لـ"ألبيرتين" عذوبة حنان بنويّ وأموميّ. ينبغي لنا أن نستقبل، بدءاً من ساعة معينّة، سائر ذوينا الذين وفدوا من بعيد جدًّا وتجمّعوا من حولنا.

وقبل أن تكون استجابت "ألبيرتين" لطلبي وخلعت حذاءها كنت أشق قميصها. كان النهدان الصغيران المرفوعان عالياً شديدي الاستدارة حتّى ليبدو أقلّ ما يبدو أنّهما يؤلفّان جزءاً لا يتجزأ من جسدها وأكثره أنهما نضجا فيه على غرار ثمرتين: وكان بطنها (إذ يخفي المكان الذي يقبح لدي الرجل وكأنما جراء مخلب تثبيت ظل منشباً في تمثال نُزع من مكانه) ينغلق في التقاء الفخذين بفلقتين يبدو خط انحناءتهما ناعساً مريحا محبسياً كما هو خطّ انحناءة الأفق بعد أن توارت الشمس.

فيا لوَقفات "الرجل" و"المرأة" العظيمة التي يحاول الالتقاء فيها، ببراءة الأيّام الأولي واتضاع الطين، ما فصلته عملية الخلق، وحيث تبدو حوّاء ذاهلة طائعة أمام الرجل الذي تستفيق إلى جانبه كحاله هو، ولا يزال وحيداً، أمام الله الذي كونّه وكانت "ألبيرتين" تعقد ذراعيها خلف شعرها الأسود والخصر منها منَفخ والساق متهاوية كانثناءة عنق تمّ يتطاول وينحني من جديد ليرتد على ذاته. لم يكن ثمة، حينما تكون على جنبها تماماً، سوى جانب معين من وجهها (المحببّ جداً والجميل جداً مواجهة) ما كنت أطيق احتماله وهو معقوف كما في بعض رسوم "ليوناردو" الكاريكاتوريّة، ويبدو كأنّما يكشف عن الخبث والجشع في الكسب ومكر جاسوسة لعلّني كنت أشمئزّ لوجودها في بيتي وتبدو بهذه الصور الجانبيّة كمن نُزع قناعها. فكنت آخذ في الحال بين يديّ وجه "ألبيرتين" وأعيده في مواجهتي.

كانت صديقتي تقول لي وهي تعود فترتدي قميصها: "كن لطيفاً وعدني بأنك ستعمل إن لم تجئ في الغد."- "أجل، ولكن لا تلبسي مئزر الحمام بعد."

وكان يبلغ بي في النهاية أن أغفي إلى جانبها، والغرفة ابتردت ولابدّ من الحطب. فكنت أحاول العثور على الجرس خلف ظهري ولا أفلح وأنا أتلمس سائر القضبان النحاسيّة التي لم تكن تلك التي

يتدلّى بينها، وأقول لـ"ألبيرتين" التي قفزت من السرير كي لا تشاهدنا "فرانسواز" الواحد إلى جانب الآخر: "لا، عودي فاصعدي مقدار ثانية، إنّي لا أستطيع العثور على الجرس".

إنها لحظات حلوة مرحة بريئة في ظاهرها ولكنّما تتجمّع فيها إمكانية الكارثة، الأمر الذي يجعل الحياة الغرامية من أكثرها جميعاً تناقضاً فيها ينهمر مطر الكبريت والزفت اللامتوقع في أعقاب اللحظات الزاهية كأكثر ما تكون، كما نعود بعدها، دون أن تحالفنا الشجاعة في استخلاص العبرة من المصيبة، فنبني في الحال على سفوح فوّهة البركان التي لا يمكن أن يطلع منها سوى الكارثة. كان لديّ لا مبالاة الذين يظنّون سعادتهم دائمة. ولأن تلك الحلاوة كانت بالضبط ضروريّة لولادة الألم- وسوف تعود على أيةّ حال لتسكينه بين حين وحين- يستطيع البشر أن يكونوا صادقين مع الغير، بل حتّى مع أنفسهم حينما يفاخرون بما تبدي لهم امرأة من طيبة على الرغم ممّا يسري باستمرار داخل علاقتهم، إمّا اعتبرنا كلّ شيء، وذلك على نحو سرّيّ ولا يعترف به للآخرين أو هو ينكشف عن غير قصد بأسئلة وتحقيقات، ما يسري من قلق مؤلم. بيد أنّه ما كان لهذا القلق أن يرى النور لولا الحلاوة التي سبقته. وإنّ الحلاوة المتقطّعة لتبدو حتّى فيما بعد ضرورية لتجعل العذاب محتملاً وتحول دون القطيعات، كما أنّ التستّر على الوضع الجهنمي الخفيّ الذي يشكلّه العيش المشترك مع هذه المرأة إلى حدّ التباهي بأنه يُزعم أنّها حلوة إنّما يعبرّ عن وجهة نظر صحيحة، عن علاقة عامّة بين المعلول والعلّة، عن واحدة من الصيغ التي يضحي بموجبها توليد الألم ممكناً.

لم أعد أستغرب أن تكون "ألبيرتين" هنا وأنهّ يجدر بها أن لاتخرج في الغد إلا برفقتي أو بحماية "أندريه". كانت تلك العادات في العيش المشترك، تلك الخطوط العريضة التي كانت تحدّد حياتي ولا يستطيع أحد العبور إلى داخلها فيما عدا "ألبيرتين"، وكذلك (في الخطة المستقبليّة، وهي بعد مجهولة لديّ، لحياتي المقبلة، على غرار الخطّة التي يضعها مهندس معماري للأبنية التي لن تشاد إلاّ بعد ذلك بكثير)

الخطوط البعيدة الموازية لتلك والأوسع منها والتي كانت تخطّ في داخلي،وكأنماً بيت ريفيّ منعزل، الصيغة القاسية بعض الشيء والرتيبة لغرامياتي المستقبلية، كانت بالحقيقة قد خُطّتْ في تلك الليلة في "بالبيك" التي أردت فيها، بعدما كشفت لي "ألبيرتين" في الحافلة الصغيرة عمّن ربّاها، أن أضعها مهما كلّف الثمن في مأمن من بعض التأثيرات وأن أحول دون أن تكون بعيدة عن عيني على مدى بضعة أيّام. ثّم إن الأيام أعقبت الأيّام وأصبحت تلك العادات آليّة، ولكن، على غرار تلك، الطقوس التي يحاول "التاريخ" أن يجد دلالتها، ربّما وسعني أن أقول، (وما وددت أن أقول)، لمن سألني عمّا تعنيه حياة العزلة هذه التي كنت أسجن نفسي فيها حتىّ ليبلغ بي أن لا أذهب إلى المسرح من بعد، إنّ منشأها قلقي ذات مساء وحاجتي إلى أن أبرهن لذاتي في الأيّام التي ستعقبه أنّ التي عرفتُ عن طفولتها المحزنة لن تتوافر لها الإمكانية، لو أنها شاءت ذلك، في التعرّض للإغراءات نفسها. لم أعد أفكّر إلاّ فيما ندر بتلك الإمكانات، إلاّ أنّها لابدّ مع ذلك ظلّت حاضرة في وجداني حضوراً مبهماً. وأن عمليّة القضاء عليها- أو محاولة ذلك- يوماً فيوماً كانت دونما شك السبب الذي

من أجله كان يحلو لي أكثر ما يحلو أن ألثم تلكما الوجنتين اللتين ما كانتا أجمل من الكثير غيرها. هناك خلف كلّ حلاوة جسدية على شيء من العمق خطر مستديم.

كنت وعدت "ألبيرتين" أنّي سوف أباشر العمل إن لم أخرج معها. ولكنّي في الغد، وكأنّما استغلّ المنزلّ نومنا فارتحل بصورة عجائبية، كنت أستيقظ في طقس مختلف ومناخ غير المناخ. وليس يعمل المرء حينما يحلّ في بلد جديد ينبغي له التأقلم مع شروطه. وكان كلّ يوم بالنسبة إليّ بلداً مختلفاً. وخمولي ذاته كيف عساني كنت عرفته خلف الأشكال الجديدة التي كان يرتديها؟ فتارة يقولون، في الأيّام التي ساء الطقس فيها إلى أبعد الحدود، إن لمحض الإقامة في البيت الواقع وسط مطر متساوي الوقع لا ينقطع الانزلاقة العذبة والسكون المهدّئ والإثارة التي للإبحار. وفي مرّة أخرى، وفي يوم صاف، كان البقاء في سريري ولا حراك بي إنّما يعني الإفساح للأخيلة لتدور من حولي وكأنما حول جذع شجرة. وفي مَرّات غيرها أيضاً، ولدى أول رنّات أجراس تنطلق من دير مجاور كنت قد تبيْنت واحداً من تلك النهارات العاصفة المشوّشة اللذيذة، وهي نادرة ندرة المتعبّدات المبكّرات وتكاد لاتبيضّ السماء القاتمة من زخات بَرَدها المتردّدة التى تذيبها الريح الدافئة وتذريها، وفيها تدحرج السطوح التي بللتها همرة متقطعة تجفّفُها هبةّ ريح أو شعاع شمس، تدحرج قطرة مطر تهدل في انزلاقها، وهي، بانتظار أن تعيد الريح دورتها، تصقل ألواحها الاردوازية المتغيرة الألوان تحت أشعة الشمس المؤقتة التي تقزّحها؛ واحداً من تلك النهارات التي تفيض بالكثير الكثير من تقلبات الطقس والأعراض الجويّة والعواصف إلى حدّ أن الكسلان لا يعتقد أنّه ضيّعها لأنّه صرف اهتمامه إلى النشاط الذي بذله عوضاً عنه الجوُّ المحيط وكأنّما ينشط بطريقة ما مكانه؛ النهارات الشبيهة بفترات الاصطخاب الشعبيّ أو الحرب التي لاتبدو فارغة في نظر التلميذ الذي هجر صفّه لأنّه يتوهّم في جوار القصر العدلي أو في قراءة الصحف أنّه واجد في الأحداث التي وقعت، بدلاً من العمل الذى لم ينجزه، مكسباً لفكره وعذراً لبطالته؛ هذه النهارات أخيراً التي نستطيع أن نشبّه بها تلك التي يجرى فيها في بحر حياتنا أزمة استثنائية يعتقد ذاك الذي لم يفعل شيئاً في يوم أنّه سيستخلص منها، إن لقيت حلاً سعيداً، عادات في الجدّ والعمل: إنّه على سبيل المثال الصباحُ الذي يخرج فيه إلى مبارزة ستجري ضمن شروط تكتنفها مخاطر خاصّة؛ حينئذ يتبدّى له فجأة ثمن الحياة في اللحظة التي تزمع ربّما أن تؤخذ منه، حياة كان يمكن أن يفيد منها في مباشرة عمل أو تذوّق متع فحسب، ولم يفلح في التمتّع بشيء منها. يقول في نفسه: "إن اتفق ليّ أن لا أُقْتَل فكم لعلّي أسارع إلى مباشرة العمل في الحال. كم سألهو إلى ذلك!" لقد اكتسبت الحياة فجأة في نظره قيمة أكبر لأنّه يضع في الحياة كلّ ما يبدو أنّها تستطيع تقديمه وليس القليل الذي يحملها على تقديمه عادة. وإنّه يراها بما يوافق رغبته وليس مثلما علّمته تجربته أنّه يستطيع أن يحيلها، يعني على قدر كبير من الضحالة. لقد امتلأت تواً بالمشاغل والأسفار والنزهات في الجبال وبسائر الأشياء التي يقول إن النتيجة المشؤومة لهذه المبارزة

يمكن أن تجعلها مستحيلة دون أن يفكّر أن تلك كانت حالها قبل أن يرد ذكر المبارزة بسبب عادات سيئة ربّما استمرّت حتّى دون مبارزة. ويعود إلى بيته حتّى دون أن يكون جُرِح. ولكنّه يلقى العقبات نفسها في وجه المتع والرحلات والأسفار وكلّ ما خشي للحظة أن يجرّده منه الموت إلى الأبد؛ والحياة كافية لذلك. فأما بشأن العمل- والظروف الاستثنائيّة إنّما ينجم عنها مضاعفة ما كان في السابق لدى الإنسان، الجدّ لدى المجدّ ولدى البطال الكسل- فإنّه يذهب في إجازة.

كنت أفعل مثله ومثلما فعلت على الدوام منذ قراري القديم بالشروع في الكتابة والذي سبق أن أتخذته في غابر الزمان ولكنّه يبدو لي كأنّما يعود إلى أمس البارحة لأنني اعتبرت الأيام كلها الواحد بعد الآخر، وكأنها لم تكن. كنت أفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى هذا الأخير فأدع لوابل أمطاره ولانقشاعاته أن تمرّ دون أن أفعل شيئاً وأعقد العزم على مباشرة العمل في الغد. ولكنيّ لا أظلّ فيه الشخص نفسه تحت سماء خالية من السحب؛ فلم يكن صوت الأجراس المذهب يحتوي، كما هو حال العسل، ضياءً فحسب، بل حسّ الضياء (وكذلك طعم المربيّات التفه لأنّه كثيراً ما تخلفّ في "كومبريه" مثل زرقطة على طاولتنا بعدما رفعوا الطعام عنها). ففي هذا اليوم الذي تسطع شمسه كان المكوث طوال النهار والعينان مغمضتان أمراً مسموحاً به ومألوفا وصحياً وممتعاً وموسمياً، مثل الإبقاء على مغالق النوافذ مرخيّة لمكافحة الحرّ. في مثل هذا الطقس كنت أستمع في بداية إقامتي الثانية في "بالبيك" إلى كمنجات الأوركسترا بين دفقات المدّ الضاربة إلى الزرقة. وكم كان مقدارامتلاكي لـ"ألبيرتين" اليوم أكبر! كان ثمّة أيّام تُلقي فيها رنّة جرس يدّق الساعة، تُلقي على كرة رنينه رقعة من البلل أو الضياء نضرة واسعة الامتداد حتّى ليخيّل لك أنّها ترجمة للعميان أو إن شئت ترجمة موسيقية لسحر المطر أو سحر الشمس. حتّى إنّي كنت أقول في نفسي في تلك اللحظة، والعينان مغمضتان في سريري إن كل شيء يمكن نقله من مستوى إلى آخر وأن عالماً من السمعيّات فحسب يمكن أن يكون بمثل تنوّع 'الآخر. كنت إذ أعود القهقرى منتقلاً من يوم إلى يوم في الزمان بخطىً متكاسلة وكأنما على متن قارب، وإذ أشاهد ذكريات جديدة مسحورة تطلع أمامي على الدوام، وما كنت أنتقيها وكانت للحظة خلت خافية على عيني وتقدّمها لي ذاكراتي الواحدة تلو الأخرى دون أن يمكنني اختيارها، كنت أوالي على هذه المساحات المستوية نزهتي الكسلى تحت الشمس.

لم تكن تلك الحفلات الموسيقيةّ الصباحيّة في "بالبيك" قديمة. وكنت مع ذلك في هذه الفترة القريبة نسبياً قليل الاهتمام بـ"ألبيرتين". بل ما كنت حتّى عرفت وجودها في "بالبيك" في أوّل أيّام وصولنا. فمن ذا إذاً أعلمني به؟ آه! أجل، "إيميه". كان الطقس جميلاً، مشمساً كهذا. يا لـ "إيميه" الطيب! لقد سرّه أن يعود فيلقاني. ولكنّه لايحبّ "ألبيرتين". وليس يستطيع كلّ الناس أن يحبّوها. أجل، هو من نقل إليّ أنّها كانت في "بالبيك". فكيف كان يعلم ذلك إذاً؟ آه! لقد سبق أن التقاها ورأى أنّها تفتقر إلى اللياقة. وينفجر فكري في تلك اللحظة، وهو يتصدّى لرواية "إيميه" من جانب غير الجانب الذي أبرزه لي آن روى روايته، ينفجر فجأة وهو كان حتّى ذاك أبحر باسم الثغر في تلك المياه السعيدة، كما لو أنّه اصطدم بلغم خفيّ خطر وُضعَ بصورة ماكرة في هذه النقطة من ذاكرتي. لقد قال لي إنّه سبق أن

التقاها ورأى أنّها تفتقر إلى اللياقة. فما الذي قصد إليه بقوله إنّها تفتقر إلى اللياقة؟ لقد فهمت من ذلك أنّها عاميّة لأنّني صرّحت بغية نقض ذلك مسبقاً أنها كانت على لباقة كبيرة. ولكن لا، ربّما ابتغى أن يقول إنّها من النوع "العاموري(١)". لقد كانت برفقة صديقة وربّما كانتا تتخاصران وتنظران إلى نساء أخريات وأنّهما بالفعل من "نوع" لم ألحظه البتّة لدى "ألبيرتين" في حضرتي. فمن كانت الصديقة؟ وأين التقاها "إيميه" "ألبيرتين" المقيتة تلك؟ كنت أحاول أن أتذكر بالضبط ما قاله لي "إيميه" لأتبيّن إن كان يمكن أن يكون ذا صلة بما كنت أتصوّره أو هو ابتغى التكلّم عن تصرفات عاميّة فحسب. ولكن عبثا كنت أطرح السؤال على ذاتي فالشخص الذي يطرح السؤال والشخص الذي يسعه أن يقدّم الذكرى ما كانا للأسف سوى شخص واحد هو أنا كان يزدوج مؤقتّاً ولكن دون أن يضيف شيئاً إلى ذاته. عبثاً كنت أسأل فما من مجيب إلا أنا فلا أضيف إلى ما أعلم شيئاً. ولم أعد أفكّر بالآنسة "فانتوي". كانت نوبة الغيرة التي أعاني منها، وقد نجمت عن شك جديد، كانت جديدة بدورها أو هي كانت بالأحرى امتداداً واتساعاً لذلك الشكّ. كانت تجري على المسرح نفسه، وما كان "مونجوفان" من بعد بل الطريق الذي التقى فيه "إيميه" "ألبيرتين"؛ أمّا موضوعاته فبضع صديقات يمكن لهذه أو تلك أن تكون هي من رافقت "ألبيرتين" في ذلك اليوم. ربمّا كانت واحدة باسم "إليزابيث" أو ربّما تلكما الفتاتين اللتين نظرت إليهما "ألبيرتين" في الكازينو عبر المرآة حينما كانت تبدو وكأنها لا تراهما. كانت دونما شكّ على علاقة بهما، كما من جانب آخر بـ "إيستير" ابنة عمّ "بلوك". ولعلّ مثل تلك العلاقات، لو أنّ آخر كشفها لي، كانت كافية لتوردني نصف حتفي، لكنما كان همي، وأنا من كان يتخيلها، أن أضيف إليها ما يكفي من الشك بغية تخفيف الألم. فإنه يتأتى لك أن تبتلع يومياً، على شكل ارتيابات، كميات هائلة من الفكرة نفسها التي قوامها أنّك خُدعْت، فيما يمكن لكمية هيّنة جداً منها، إمّا بثتها لدغة كلمة جارحة، أن تكون قاتلة. ولهذا السبب دون شك، ومن جراء أحد مشتقّات غريزة البقاء، لايتردّد الغيران ذاته في ابتداع شكوك مريعة في معرض وقائع بريئة بشرط أن يمتنع عن الإقرار بالواقع لدى أوّل برهان يؤتى به. والحبّ على أيّ حال مرض لاشفاء منه كتلك الاستهياءات التى لا تدع لك الرثية فيها شيئاً من الراحة إلا لتفسح فى المكان لصنوف من الشقيقة صَرعيّة الشكل. فإن هدأ شك الغيرة كنت أحقد على "ألبيرتين" لأنّها لم تكن رفيقة بى وربمّا لكونها سخرت منّي مع "أندريه". وكنت أفكر بهلع بالفكرة التي لابد تكونت لديها إن كانت "أندريه" قد أعادت عليها كلّ أحاديثنا، وكان المستقبل يتبدّى لي فظيعاً. وما كانت تلك الغموم تفارقني إلا إذا قذف بي ارتياب غيرة جديدة في تحرّيات أخرى أو إن جعلت صنوف وداد "ألبيرتين"، إن جعلت سعادتي على العكس غير ذات شأن في نظري. فمن عساها كانت تلك الفتاة؟ لابد أن أكتب إلى "إيميه"، أن أحاول التقاءه ثمّ أدقّق في أقواله بالتحدّث إلى "ألبيرتين" وبحملها على الإقرار. وبانتظار ذلك، وإذ خطر لي أنّها لابدّ كانت ابنة عمّ "بلوك"، سألت هذا الأخير، الذي لم يفهم البتّة هدفي من السؤال، أن يريني فحسب صورة لها أو أكثر من ذلك أن ييسّر لى الالتقاء بها لدى الحاجة.

---

(١) من جماعة مدينة "عامورة" ويعني سحاقيّة.

كم شخص ومدينة ودرب تجعلنا الغيرة نتلهّف لمعرفتها! إنّها عطش إلى المعرفة نملك بفضله في نهاية المطاف وعلى التوالي كلّ الأفكار الممكنة حول نقاط معزول بعضها عن بعض، فيما عدا الفكرة التي نرغب فيها. وليس يعمل المرء قطّ أن لن يتولّد شكّ ما فإنّه يتذكّر فجأة جملة لم تكن واضحة وعذراً لم يكن تقديمه خالي الغرض. ومع أنّنا لم نلتق الشخص ثانية، لكنّ ثمّة غيرة بعد الأوان لاتنشأ إلا بعدما نفارقه، غيرة الأدراج. ربّما كانت العادة التي سبق أن اتّخذتها في أن أستبقي في أعماقي بعض الرغبات، الرغبة في فتاة من المجتمع الراقي من مثل اللائي كنت أبصرهنّ من نافذتي يخطرن وتتبعهنّ معلمتهنّ، وعلى وجه الخصوص في تلك التي حدّثني عنها "سان لو"، وكانت تمضي إلى بيوت الدعارة، والرغبة في وصيفات جميلات وعلى وجه الخصوص وصيفة السيّدة "بوتبوس"، والرغبة في الذهاب إلى الريف في أوّل الربيع لأشهد شجيرات الزعرور وأشجار التفّاح المزهرة والعواطف، وتوقي إلى البندقية وتوقي إلى مباشرة العمل، والرغبة في أن أعيش حياة سائر الناس، ربما تلك العادة التي قوامها الاحتفاظ في داخلي بكلّ هذه الرغبات دون إشباع مكتفياً بالوعد الذي قطعته لنفسي بأن لا يفوتني إشباعها ذات يوم، ربّما أصبحت تلك العادة القديمة العهد في التأجيل الدائم، وما كان السيد "دو شارلوس" يندّد به تحت عنوان "الإرجائيّة"، شائعة لديّ إلى حدّ كانت تستولي معه على شكوك غيرتي أيضاً، وحملتني، فيما تدفعني إلى أن أسجّل ذهنياً أنّه لن يفوتني ذات يوم أن أطلب من "ألبيرتين" تفسيراً حول الفتاة (وربّما الفتيات، فقد كان هذا الجزء من القصّة مبهماً ممحياً، يعني لا يمكن فكّ رموزه، في ذاكرتي) التي، أو اللواتي صادفهنّ "إيميه" معها، على تأجيل ذاك التفسير. ولعلّي لن أكلّم صديقتي بهذا الأمر في هذا المساء كي لا أجازف بالظهور أمامها مظهر الغيران فأغضبها. لكنيّ سارعت مع ذلك، بعدما أرسل إليّ "بلوك" في الغد صورة ابنة عمّه "إيستير"، إلى إيصالها إلى "إيميه". وتذكّرت في الدقيقة عينها أن "ألبيرتين" سبق أن حجبت عنّي في الصباح متعة كان يمكن بالفعل أن تتعبها. أفكان ذلك لتخصّ بها آخر سواي، ربّما بعد الظهر هذا؟ ومن ذا يكون؟ هكذا تبدو الغيرة لا نهاية لها، فإنّه يتّفق، حتّى إن لم يعد الشخص المحبوب، وقد مات على سبيل المثال، قادراً على بعثها من جرّاء أفعاله، أن تتصرّف بعض الذكريات، في أعقاب أيّ حدث، تصرّفاً مفاجئاً في ذاكرتنا وكأنّما هي أحداث بدورها، ذكريات لم نكن سلطنا عليها الضوء حتّى ذاك وبدت لنا عديمة الشأن ويكفيها تفكيرنا الخاصّ فيها دون أيّ واقعة خارجية كي تزوّدنا بمعنى جديد ومخيف. ولسنا بحاجة إلى أن نكون اثنين ويكفي أن نكون نُعمل الفكر وحدنا داخل غرفتنا كي ما تقع خيانات جديدة لعشيقتنا وإن كانت ميتة. لذلك ينبغي أن لا نقصر خشيتنا في نطاق الحبّ، كما في نطاق الحياة المعتادة، على المستقبل فقط بل حتّى على الماضي الذي لا يتحقق بالنسبة إلينا في الغالب إلا بعد المستقبل، ولسنا نتكلّم عن الماضي الذي نُبلّغه بعد الأوان فحسب بل كذلك الماضي الذي احتفظنا به منذ فترة طويلة في داخلنا نتعلمّ فجأة كيف نقرأه.

وما همّ، لقد كنت سعيداً جداً في أواخر بعد الظهر أن لا نتأخّر الساعة التي سيسعني فيها أن أسأل حضور "ألبيرتين" السكينة التي أحتاجها. إلاّ أنّ العشيّة التي أقبلت كانت لسوء الحظّ واحدة من تلك التي لم تَحْمِلَ إليّ فيها تلك السكينة، والتي لن تهدّئني فيها القبلة التي ستمنحني إيّاها

"ألبيرتين" وهي تفارقني، قبلة شديدة الاختلاف عن القبلة المعتادة، أكثر ممّا هي بالأمس حال قبلة والدتي حينما كانت غاضبة، حين لا أجرؤ على استرجاعها ولكنيّ أحسّ أنّني لن أقوى على النوم، كانت تلك العشيّات الآن هي تلك التي أعدّت فيها "ألبيرتين" لمشروع في الغد لا تودّ أن أعرفه. ولو أنّها استودعتني سرّه لكنت أبديت في سبيل تأمين إنجازه حماسة ما كان استطاع أحد أن يلهمني إيّاه بقدر ما تفعل "ألبيرتين". ولكنها لم تكن تقول لي شيئاً وما كان بها حاجة على أيّة حال لأن تقول شيئاً: فقد كنت شاهدت فور عودتها، وعلى باب غرفتي، وإذ لا تزال تعتمر قبّعتها أو قلنسوتها، شاهدت الشوق المجهول الجامح العنيد الذي لا يُقهر. وكان ذلك في الغالب في العشيات التي انتظرت فيها عودتها وبي من الأفكار أرقّها وأعتزم فيها أن أعانقها بحرارة وبأعظم قدر من الحنان. صنوف سوء التفاهم تلك، من مثل ما اتفّق لي كثيراً مع ذويّ الذين كنت أجدهم فاترين أو حانقين آن أسارع بالقرب منهم وأنا أفيض تحناناً، ما كانت للأسف شيئاً في مقابل تلك التي تقوم بين عشيقين. فالعذاب هنا يرتدي طابعاً أقلّ سطحيّة وهو أعسر احتمالاً ومركزه طبقة في القلب أعمق. لكن "ألبيرتين" في ذاك المساء اضطرّت أن تقول لي كلمة عن المشروع الذي خطّطتْ له، وفهمتُ في الحال أنّها تعتزم الذهاب في الغد لتقوم بزيارة للسيّدة "فيردوران"، ولعلّ الزيارة ما كانت لتزعجنى في شيء. ولكنّما الأمر بالتأكيد لتقوم فيها بلقاء، أيّ لقاء، هناك، لتعدّ فيها لمتعة ما. ما كانت لولا ذاك لتحرص كلّ هذا الحرص على تلك الزيارة. أقصد أن أقول إنّها ما كانت لتكرّر لي أنّها غير حريصة على ذلك. وكنتُ تبعت في حياتي مسيرة معاكسة لمسيرة الشعوب التي لا تستخدم الكتابة الصوتية إلا بعد اعتبارها الحروف مجرّد متتالية رموز؛ فقد بلغ بي، أنا الذي لم يبحث على مدى سنين كثيرة عن حياة الناس وفكرهم الحقيقيين إلا في البيان المباشر الذي يزوّدونني به عنهما طوعاً، بلغ بي، والذنب ذنبهم، أن لا أعلقّ من بعد أهميّة، على العكس، إلا على الشهادات التي ليست تعبيراً عن الحقيقة عقلانياً وتحليلياً: والأقوال نفسها ما كانت تزوّدني بمعلومات إلاّ بشرط أن تُفَسَّر على نحو ما تُفَسَّر به دفقة الدّم في وجه شخص يداخله الاضطراب، وكذلك على نحو ما يفسّر به صمت مفاجئ. فهذا الظرف (الذي استخدمه على سبيل المثال السيّد "دوكامبرمير" حينما كان يظنّ أنّني "كاتب" فاستدار صوبي، وهو بعد لم يكلّمني، يريد أن يحكي لي عن زيارة سبق أن قام بها لآل"فيردوران"، وقال لي: "كان ثمّة **بالضبط** "دو بوريللي") الذي انبثق من ثوران عامّ جرّاء تقارب غير مقصود وخَطِر أحياناً بين فكرتين لم يكن المحدّث يعبرّ عنهما وكان يسعني استخلاصهما منه بطريقة أو بأخرى من التحليل أو الحلّ الكهربائي المناسب، هذا الظرف كان يفيدني أكثر من خطاب. وكانت "ألبيرتين" تدع أحياناً في سياق أقوالها هذا أو ذاك من الأخلاط الثمينة التي كنت أسارع إلى "معالجتها" لأحيلها أفكاراً واضحة.

وإنّه على أيّة حال لمن أكثر الأمور قسوة على المُحب أنّ الحقيقة، إن كانت الوقائع الخاصّة- التي قد تكشفها فقط التجربة والجاسوسية من بين الكثير من الإنجازات الممكنة- عسيرة الاكتشاف إلى هذا الحدّ إنّما يتيسّر إلى حدّ بعيد في المقابل كشفها أو توقّعها فحسب. فكثيراً ما رأيتها في "بالبيك" تسمّر على فتيات يخطرن في الطريق نظرة مفاجئة متطاولة شبيهة بمداعبة باليد تقول لي

بعدها، إن كنت أعرفهنّ: "هل نأتي بهنّ؟ فإني وددت أن أشتُمهن." ومنذ بعض الوقت، منذ أن، نفذتْ إلى أعماقي دون شك، لم يعد ثمّة أيّ سؤال لدعوة أحد، لم تعد كلمة ولا حتّي صرف نظرات هي الآن لا غرض لها وصامتة، وكان مع الهيئة الساهية الفارغة التي ترافقها، كشافاً مثلما بالأمس برق مغناطيسها. على أنّه كان يستحيل عليّ أن أنحي عليها باللائمة أو أن أطرح عليها أسئلة بصدد أمور لعلّها كانت أعلنت أنّها زهيدة جداً ولا شأن لها على الإطلاق وقد استبقيتُها للاستمتاع "بالبحث عن أقلّ الأخطاء". من الصعب أن نقول: "لماذا نظرت إلى عابرة السبيل هذه؟" وأصعب كثيراً "لماذالم تنظري إليها؟" مع أنّي كنت أعرف تماماً أو كنت عرفت على الأقلّ لو لم أشأ أن أصدّق توكيدات "ألبيرتين" أكثر من سائر الأمور الزهيدة المتُضَمَّنة والمُثْبَتَة فيها وهذا التناقض أو ذاك في الأقوال، تناقض ما كنت أتبيّنه في الغالب إلا بعد فترة طويلة من فراقي لها، وكان يعذّبني طوال الليل ولا أجرؤ من بعد على التحدّث عنه ثانية، ولكنّه ما كان يقللّ لذلك من شرف زياراته الدوريّة لذاكرتي بين الحين والحين. كنت في الغالب أستطيع، فيما يخّص هذه النظرات البسيطة المختلسة المُشاح بها على شاطىء "بالبيك" أو فى شوارع باريس، أن أتساءل إن كان الشخص الذي يبعثها ليس مجرّد موضوع رغبات آن كان يمرّ فحسب، بل إحدى المعارف القدامى أو فتاة حدّثوها عنها فقط وكنت أذهل، حين يبلغني الأمر، أن يكون وُجّهَ الحديث إليها لفرط ما كانت خارج نطاق معارف "ألبيرتين" المحتملين تخميناً. لكنّ "عامورة" الحديثة "بزل" (Puzzle) مؤلّف من قطع تأتيك من حيث أقلّ انتظارك. من ذلك أنّي شهدت ذات مرّة في "ريفبيل" حفل عشاء كبير أعرف مصادفةً بالاسم على الأقلّ مدعوآته العشر، وهنّ مختلفات ما أمكن الاختلاف ومتلاقيات مع ذلك تماماً إلى حدّ أني لم أشهد قط عشاء متجانساً بهذا القدر ومتعدّد العناصر إلى هذا الحدّ.

لعلّ "ألبيرتين" إمّا عدنا إلى عابرات السبيل الشابّات، ما كانت نظرت في يوم إلى سيّدة مسنّة أو شيخ عجوز بهذا القدر من التحديق، أو من التحفظّ على العكس وكأنّها لا تبصر. إن الأزواج المخدوعين الذين لا يعلمون شيئاً إنّما يعرفون مع ذلك كلّ شيء. ولكن لابدّ من ملفّ أوفر توثيقاً على الصعيد الماديّ لنبني عليه فصلاً من فصول الغيرة. ولئن أعانتنا الغيرة على أية حال على اكتشاف ميل إلى الكذب لدى المرأة التي نحبّها فإنّها تضاعف مئة مرّة هذا الميل بعدما تكتشف المرأة أنّنا غيارى. إنها تكذب (بمقادير لم يسبق أن كذبتنا بها في يوم) إمّا إشفاقاً أو خشية أو تهرّباً غزيزياً في هروب يتوازى وتحرّياتنا. ثمّة بالتأكيد صنوف من الحبّ طرحت فيها مرأة طائشة نفسها وكأنها الفضيلة فى عيني الرجل الذي يحبّها. ولكن كم ثمّة أخرى غيرها تتضمّن فترتين متعاكستين بالتمام! في الفترة الأولى تتحدّث المرأة بسهولة تقريباً، مع شيء من التلطيف البسيط، عن ميلها إلى المتعة وعن الحياة الغرامية التي وفّرها لها، هذه الأمورجميعاً التي ستنكرها فيما بعد بأقصى الشدّة أمام الرجل نفسه بعدما أحسّت أنّه غيران يترصدها. ويبلغ به أن يتحسّر على زمن تلك المسارّات الأولى التي تعذّبه ذكراها مع ذلك. ولو أَسَرّت المرأة أيضاً إليه بما كان من ذلك القبيل فسوف توفّر له من تلقاء ذاتها تقريباً سرّ الزلاّت الذي يتعقّبها كلّ يوم دون جدوى. وبعد فعلى أيّ تسليم كان دلّ ذلك، وأيّة ثقة وأيّ وداد! فإن هي لا تستطيع العيش دون أن تخدعه، فإنّها ستخدعه على الأقلّ فعلَ

الصديق وهي تروي له عن متعها وتشركه فيها. وإنّه ليتأسّف على مثل تلك الحياة التي كان يتراءى له أنّ بدايات حبّه كانت ترسم خطوطها الأولى وجعلها التالي منه مستحيلة إذ صنع من ذلك الحبّ شيئاً يقطر ألماً مبرحاً وسوف يجعل الهجر أمراً لا مفرّ منه أو مستحيلاً بحسب الحالات.

كان أسلوب الكتابة الذي أكشف فيه كذبات "ألبيرتين" يحتاج فقط، دون أن يكون مرمّزاً، إلى قراءة بالمقلوب. من ذلك أنّها ألقت إليّ هذا المساء بلهجة لا مبالية بالرسالة التالية ابتغاء أن تمرّ دون أن تثير الانتباه تقريباً: "يحتمل أن أذهب غداً إلى منزل آل "فيردوران"، ولست أعلم البتّة إن كنت سأذهب وكدت لاأرغب في ذلك." وهي جناس تصحيف صبياني للتصريح التالي: "سأذهب في غد إلى منزل آل "فيردوران"، والأمر أكيد بالتمام فإنّي أوليه أهميّة قصوى." فقد كان ذاك التردّد الظاهر يعني عزماً قاطعاً وكان هدفه التقليل من أهميّة الزيارة فيما تعلن لي عنها. كانت "ألبيرتين" تستخدم دوماً اللهجة التشكيكية للقرارات التي لا رجعة عنها. ولم يكن قراري أقلّ حزماً فسوف أتدبّر أمري كي لا تتمّ هذه الزيارة للسيّدة "فيردوران". فليست الغيرة في الغالب سوى حاجة حائرة إلى الاستبداد مطبّقة على أمور العشق. وكنت دونما شكّ ورثت عن والدي تلك الرغبة المفاجئة الاعتباطية في تهديد أكثر من أحبهم من الناس في الآمال التي يهدهدون النفس بها بطمأنينة أبغي أن تبدو لهم خادعة؛ فحينما كنت أتبيّن أنّ "ألبيرتين" قد دبّرت، على غير علم منيّ، وهي تخفي عنّي مقصدها، خطّة طلعة لعلّي كنت فعلت أيّ شيء لأزيد من سهولتها عليها وإمتاعها لها لو أنّها أسرّت إليّ بالأمر، كنت أقول غير مبال وكيما ترتعد فرائصها إنّي عازم على الخروج في ذلك اليوم.

وطفقت أقترح على "ألبيرتين" مطارح نزهات أخرى كانت جعلت زيارة آل "فيردوران" مستحيلة، وذلك بعبارات تتسّم بلامبالاة أتصنّعها محاولاً بها إخفاء ثورة أعصابي. ولكنّها كانت قد كشفتها، فقد كانت تلتقي لديها بالقوّة الكهربائيّة المنبعثة من إرادة مضادّة تدفع بها بقوّة وأبصر في عيني "ألبيرتين" تطاير شررها. وماذا يجدي على أيّ حال التمسّك بما كانت تقوله الحدقتان في تلك الفترة؟ وكيف لم ألاحظ منذ وقت طويل أن عيني "ألبيرتين" كانتا تنتميان إلى أسرة تلك العيون التي تبدو (حتّى لدى شخص ضحل السويّة) وكأنّما جُعلت من عدّة قطع بسبب كلّ الأمكنة التي يبغي الشخص أن يكون فيها- وأن يخفي أنّه يبغي أن يكون فيها- في ذلك اليوم؟ عينان- جامدتان مستسلمتان كذباً على الدوام- ولكنّهما ديناميكيّتان يمكن قياسهما بالأمتار أو الكيلومترات الواجب اجتيازها للوصول إلى الموعد المبتغى، المبتغى بعناد شديد، عينان هما حتّى أقلّ ابتساماً للمتعة التي تغريهما ممّا يلفّهما الحزن ووهن العزيمة من صعوبة ربّما تعترض سبيلهما للذهاب إلى الموعد. هؤلاء الأشخاص هم، حتى بين يديك، كائناتُ هروب. ولابدّ كيما ندرك الانفعالات التي يورثونها، ولا يورثها آخرون وإن كانوا أجمل منهم، لابدّ أن نحسب أنّهم غير جامدين، بل هم متحركون، وأن نضيف إلى شخصيّتهم رمزاً يقابل ما هو الرمز الذي يعني السرعة في الفيزياء.

فإن أفسدت عليهم نهارهم باحوا لك بالمتعة التي كانوا كتموها عنك: "كم كنت أودّ الذهاب لتناول العصرونية في الساعة الخامسة مع فلان من الناس أحبّه!" ولكن إن أفلحت بعد ستّة أشهر في

معرفة الشخص المعنيّ فسوف تعلم أن الفتاة التي أفسدت عليها مقاصدها والتي أقرّت لك، وقد وقعت في الفخّ، أقرّت بغية أن تدعها وشأنها بالعصرونية التي كانت تتناولها بصحبة شخص حبيب كلّ يوم في الساعة التي لا تشاهدها فيها، سوف تعلم أن ذاك الشخص لم يستقبلها في يوم وأنّهما لم يتناولا في يوم طعام العصرونية سويّة، إذ تقول الفتاة إنّها مشغولة جداً وإنك بالضبط من يشغلها.

وهكذا فالشخص الذي أقرّت لك أنّها تزمع تناول العصرونية برفقته، والذي رجتك أن تفسح لها في تناول العصرونيّة وإيّاه، ذاك الشخص، وهو سبب جرى الكشف عنه للضرورة، لم يكن هي بل كان آخر غيرها، وكان الأمر كذلك أمراً آخر وأيّ آخر غيرها؟ لكنّ العينين المجزّأتين البعيدتي المدى الحزينتين ربّما سمحتا بقياس المسافات ولكنّهما لا تشيران إلى الاتجاهات. إن حقل الممكنات اللامتناهي آخذ في الامتداد، فإن اتّفق للواقع أن يبرز أمامنا فسوف يكون خارج نطاق الممكنات إلى حدّ أننا قد نتقلب على ظهورنا في دوار مفاجئ وقد رحنا نصطدم بذلك الجدار الذي برز فجأة. وليست الحركة والهروب المشاهَدَ ان، ليسا حتّى أمراً لا غنى عنه إذ يكفي أن نستنتجهما. لقد سبق أن وعدتنا برسالة وهدأت نفسنا وما عدنا نحبّ. ولم تصل الرسالة وليس من بريد يحمل أيّاً منها، "فما الذي يجري؟" وينبعث القلق من جديد والحبّ بعثاً لأسانا. ذلك أن كلّ قلق جديد نعاني منه بسببهم إنّما يَقْتَطع من شخصيّتهم في نظرنا. وكنّا استسلمنا للعذاب ظناً منّا أنّا نحب خارج ذاتنا، ونتبيّن أن حبّنا رهن بحزننا، أن حبّنا ربما كان حزننا وأن موضوعه ليس إلا في جزء يسير منه الفتاة ذات الشعور السوداء. ولكن مثل هؤلاء الأشخاص في النهاية هم على وجه الخصوص الذين يلهموننا الحبّ. وليس يتّخذ الحبّ في الأغلب من جسم ما موضوعه إلا إذا امتزج به انفعال ما وخشية فقدانه والشكّ في العثور عليه ثانية. وإنّما يتّسم هذا النوع من القلق بانجذاب كبير إلى الأجساد. فإنّه يضيف إليها صفة تفوق الجمال نفسه، وذلك أحد الأسباب التي نلفي رجالاً لا يبالون من جرّائها بأكثر النساء جمالاً ويحبّون بعضهنّ ممنّ يبدون لنا قبيحات. تلك الكائنات، كائنات الهروب تلك، إنّما تثبّت لها طبيعتها وقلقنا أجنحة. وتبدو نظرتها، حتّى بالقرب منّا، كأنّما تقول لنا إنّها تزمع أن تطير. والبرهان على هذا الجمال الذي يفوق الجمال والذي تضيفه الأجنحة أن الكائن نفسه كثيراً ما يبدو لنا على التوالي مجنّحاً وبدون أجنحة. فإن خشينا أن نفقده نسينا الآخرين جميعهم. وإن تيقّنا من الاحتفاظ به شبّهناه بهؤلاء الآخرين الذين نفضّلهم عليه في الحال. وبما أن تلك الانفعالات وصنوف اليقين تلك يمكن أن تتعاقب بين أسبوع وآخر فإنه يمكن لأحد الأشخاص أن يشهد أنّه يّضحّي لأجله في أسبوع بكلّ ما يُمتع وأن يُضَحَّى به في الأسبوع التالي وهكذا دواليك لفترة طويلة جداً. والأمر كان يستحيل إدراكه لو لم نعلم، بالخبرة التي يحوزها كلّ إنسان من أنّه توقّف مرّة على الأقلّ في حياته عن الحبّ ونسي امرأة، القليل الذي يساويه شخص في حدّ ذاته حين لم يعد أو هو ليس بعد مستجيباً لانفعالاتنا. طبعاً حينما نقول: كائنات الهروب فإنّما يصحّ ذلك أيضا بالنسبة إلى كائنات في السجن، إلى نساء أسيرات نظنّ أننّا لن نتمكّن من الحصول عليهنّ في يوم. ولذلك يمقت الرجال القوّادات لأنهن يسهلن الهرب ويضفين على التجربة بريقاً، ولكنّهم إن أحبّوا على العكس امرأة حبيسة بحثوا راضين عن

القوّادات لإخراجهنّ من سجنهنّ وحملهنّ إلينا. باعتبار أن الاقتران بالنساء واللواتي تختطفهنّ أقلّ ديمومة من سواه، وسبب ذلك أنّ خشيتنا أن لا نفلح في الحصول عليهنّ أو خوفنا من أن نشهد هروبهنّ إنّما يشكّلان كل حبنا وأنهن ما إن يؤخذن من زوجهن ويُنتزعن من مسرح نشاطهن ويشفين من رغبة هجرنا ويفصلن باختصار القول عن انفعالنا، أياً كان الانفعال، حتّى يضحين مجرّد ذواتهنّ، يعني لا شيء تقريباً، ويهجرهنّ، بعد طول اشتهاء، ذاك نفسه الذي ما أكثر ما خشي أن يهجرنه.

لقد قلت: "كيف اتّفق أن لا أحزر؟" ولكن ألم أحزر ذلك منذ اليوم الأول في "بالبيك"؟ أفلم أحزر في شخص "ألبيرتين" واحدة من تلك الفتيات اللواتي يختلج خلف غلاف جسدهنّ عدد من الكائنات الخفيّة أكبر، لا أقول منه في مجموعة ورق لعب لا تزال في علبتها أو منه في كاتدرائية[1] مغلقة أو منه في مسرح قبلما يدخله الناس، بل منه في الجمهور الهائل والمتجدّد؟ وليس هذا العدد من الكائنات فحسب. بل الرغبة والذكرى التي تنضج شهوة والبحث القلق عن هذا العدد من الناس. وإنّي في "بالبيك" لم يداخلني اضطراب لأنّني حتى ما افترضت أنّي سأقتفي ذات يوم حتّى آثاراً مضلّلة. وما همّ، فقد أكسب ذلك "ألبيرتين" في نظري اكتمال كائن امتلأ حتّى الحواف بتراكم هذا العدد من الكائنات، هذا العدد من الرغبات وذكريات أشخاص تقطر شهوة. أمّا الآن وقد قالت في ذات يوم: "الآنسة فانتوي"، لقد وددت لا أن أنتزع فسطانها كي أشاهد جسدها، بل أن أبصر عبر جسدها كلّ هذه المدّونات لذكرياتها ومواعيدها المقبلة اللاهبة.

كم تكتسب الأمور الأكثر تفاهة على الأرجح، كم ترتدي فجأة قيمة عظيمة حينما يُقْدم شخص نحبّه (أو هو لم يكن ينقصه سوى ذاك الرياء، كيما نحبّه) على حجبها عنّا! إن العذاب في حدّ ذاته لا يولينا بالضرورة مشاعر حبّ أو كراهية للشخص الذي يسبّبه: فإن جرّاحاً يؤلمنا إنّما نظلّ غير مبالين به. لكن امرأة أسمعتنا بعض الوقت أننا كلّ شيء بالنسبة إليها دون أن تكون هي كل شيء بالنسبة إلينا، امرأة يسرّنا أن نلتقيها ونعانقها ونجلسها على ركبتينا، إنّما يدهشنا إن أحسسنا مجرّد إحساس لدى مقاومة مفاجئة لديها أنّها ليست ملك يدينا. حينذاك توقظ خيبة الأمل فينا أحياناً الذكرى المنسيّة لضيق نفسي قديم نعلم مع ذلك أنّه لم تسبّبه امرأة بل آخرون ممّن، تتوزّع خياناتهم على صفحة ماضينا. وكيف تؤتى الشجاعة من جانب آخر، كي تتمنّى العيش، كيف يمكنك القيام بتحرّك لتتّقى الموت في عالم لا يبتعث الحبّ فيه سوى الكذب وقوامه مقصور على حاجتنا إلى رؤية عذاباتنا تسكّن، على يد الشخص الذي عذّبنا؟ وفي سبيل أن نخرج من الضنى الذي نعاني منه لدى اكتشافنا تلك الكذبة وتلك المقاومة هناك الدواء المشؤوم الذي قوامه محاولة التأثير، بوساطة أشخاص نحسّ أنّهم أكثر امتزاجاً بحياتها منّا، التأثير رغماً عنها على تلك التي تقاومنا وتكذب علينا، واللجوء بدورنا إلى الخدعة وحملها على كراهيتنا. لكن معاناة مثل هذا الحب هي من تلك التي تدفع المريض على نحو لا يردّ إلى البحث عن هناء وهميّ في تبديل للموقع. وليست تنقصنا للأسف وسائل التأثير تلك. وإنّما مردّ بشاعة تلك الألوان من الحبّ التي ولدّها القلق وحده أنّنا نقلب ونعيد دون

(١) الكنيسة التي تتبع الأساقفة أو تلك الواسعة الضخمة.

توقّف في قفصنا أقوالاً لا معنى لها. وندع جانباً أنّه يندر أن يعُجبنا الأشخاص الذين يبعثون فينا لواعجه إعجاباً تاماً على الصعيد الجسديّ. فليس ميلنا الواعي هو الذي اختار لنا بل المصادفة، في لحظة من الضيق النفسي، لحظة نمدّدها إلى مالا حدود من جراّء ضعف في الطباع لدينا يعاود في كل مساء تجاربه وينحدر إلى مستوى المسكّنات، هي التي اختارت لنا. ليس من شكّ أنْ لم يكن حبّي لـ"ألبيرتين" الأكثر إملاقاً من بين تلك التي يمكن أن نهبط إليها لقصور في الإرادة، لأنّه لم يكن أفلاطونياً بالتمام، فقد كانت توفّر لي مسرّات جسديّة، ثمّ إنّها كانت ذكيّة. لكنّ ذلك كلّه كان من قبيل نافل القول. فما كان يشغل بالي ما أمكن أن تقوله من أمر ذكيّ، بل تلك الكلمة التي توقظ لديّ شكّاً حول أفعالها. فكنت أحاول أن أتذكّر إن هي قالت هذا الشيء أو ذاك وبأية لهجة وفي أيّة لحظة وجواباً عن أيّة أقوال، وأن أعيد تأليف كامل مشهد حوارها معي وفي أيّة فترة ابتغت الذهاب إلى منزل آل "فيردوران" وأية كلمة منّي طبعت محيّاها بهيئة غاضبة. ولو أن الأمور دارت حول الحدث الأكثر أهميّة لما كنت تحلمّت كلّ هذه المشقة لردّ الحقيقة وإعادة الجوّ واللون الصحيح. وألوان القلق هذه لاشكّ أننا نفلح، بعدما تكون بلغت حدّاً أصبحت فيه غير محتملة، في تسكينها كلياً لأمسية واحدة. فالحفلة التي تزمع الصديقة التي نحبّها الذهاب إليها والتي انشغل فكرنا منذ أيّام بطبيعتها الحقيقيّة إنّما دُعينا إليها بدورنا، ولا تبدي صديقتنا فيها اعتباراً أو توجه كلاماً إلا لنا، ونعود بها ونَنعم حينذاك، وقد تبدّدت مخاوفنا براحة كاملة مرمّمة بقدر ما هي الراحة التي ننعم بها في هذا النوم العميق الذي يلي المسيرات الطويلة. بيد أننّا كثيراً ما نبّدل فحسب من قلقنا. فإنّ إحدى كلمات الجملة التي كان من شأنها أن تشيع الهدوء في نفسنا تنقل شكوكنا في اتجاه آخر. ومثل تلك الراحة تستحقّ دون شكّ أن ندفع مقابلها ثمناً غالياً. ولكن أما كان أكثر بساطة أن لانعمد بأنفسنا وطوعاً إلى شراء القلق، وبثمن أكثر ارتفاعاً بعد؟ ونحن نعلم على أيّ حال تمام العلم أن القلق سوف يكون هو الأقوى مهما أمكن أن تكون حالات الاستراحة المؤقّتة تلك عميقة. بل غالباً ما يتجدّد جراّء الجملة التي كان هدفها أن تجلب لنا الراحة. إنّ متطلبّات غيرتنا والغباوة التي تطبع سذاجتنا أكبر ممّا كان يمكن أن تخمّنه المرأة التي نحبّها. فحينما تقسم لنا عفويّاً أنْ ليس ذلك الرجل سوى صديق بالنسبة إليها فإنهّا تهزّنا في الأعماق إذ تعلمنا أنّه كان صديقاً في نظرها- ولم يكن ذلك ليخطر لنا ببال. وفيما تروي لنا، كيما تظهر سلامة نيّتها، كيف احتسيا الشاي سويّة في عصر هذا اليوم بالذات يتشكّل أمامنا لدى كلّ كلمة تقولها اللامرئيّ والذي لايخطر ببال. إنّها تقرّ بأنّه سألها أن تكون عشيقته فنعاني عذاب الشهداء من أنّها استطاعت أن تصغي لعروضه. وتقول إنّها رفضتها لكنّنا بعد قليل سوف نتساءل، فيما نتذكّر روايتها، إن كان الرفض حقيقياً، لأن ثمّة بين الأمور المختلفة التي سردتها لنا غياب الرابط المنطقي واللازم الذي هو علامة الحقيقة أكثر من الوقائع التي تنقلها. ثمّ إنّه كان لها تلك اللهجة المريعة التي تنضح ازدراء: "لقد قلت له لا، وكان القول قاطعاً"، والتي نلقاها في سائر طبقات المجتمع حينما تكذب امرأة. ولابدّ مع ذلك من توجيه الشكر لها لأنّها رفضت وتشجيعها بما نبدي من عطف على أن تودعنا مجدّداً في المستقبل أسراراً قاسية إلى هذا الحدّ. وأكثر ما يبلغ بنا أن نبدي الملاحظة التالية: "ولكن إن سبق أن قدّم لك عروضاً فلم ارتضيت أن تتناولي

الشاي برفقته؟"- "كي لا يسعه أن يحقد عليّ ويقول إني لم أكن لطيفة." ولا نجرؤ أن نجيبها بأنّها ربّما كانت بدت برفضها أوفر لطفاً إزاءنا.

كانت "ألبيرتين" على أيّة حال تخيفني إذ تقول لي إني على حقّ إذ أقول لها، بغية أن لا أضرّ بسمعتها، إنّي لستُ عشيقها، "فالحقيقة، في جميع الأحوال" تضيف قولها، "أنّك لست كذلك." ربّما لم أكن فعلاً بالتمام كذلك، ولكن أكان ينبغي الاعتقاد آنذاك بأن كلّ الأمور التي كنّا نفعلها سويّة إنّما كانت تأتيها أيضاً مع سائر الرجال الذين تقسم لي أنّها لم تكن عشيقتهم؟ كم كان غريباً أن أضحّي بكل شيء في سبيل تلك الحاجة التي قوامها التصميم على أن أعرف بأيّ ثمن بما تفكّر "ألبيرتين" ومن تلتقي ومن تحبّ بما أنّه سبق لي أن أحسست بالحاجة نفسها إلى أن أعرف، فيما يخصّ "جيلبيرت"، أسماء أشخاص وواقعات أصبحت الآن غير ذات بال في نظري! كنت أتبيّن تماماً أن أعمال "ألبيرتين" ما كانت في حدّ ذاتها تثير اهتماماً أكبر. والعجيب أن الحبّ الأوّل، إن هو يمهد الطريق، بالهشاشة التي يخلّفها في فؤادنا، لصنوف الحبّ التالية، العجيب أنّه لا يوفر لنا، على الأقلّ من جرّاء تماثل الأعراض والعذابات، وسيلة شفائها. من ناحية أخرى، هل ثمّة حاجة إلى معرفة واقعة ما؟ أفلسنا نعلم بادئ الأمر وبصورة عامّة كذب وتكتم هاتيك النساء اللواتي يرين أنّ لديهنّ ما ينبغي إخفاؤه؟

هل ثمة إمكان لوقوع خطأ؟ فإذا بهنّ يجعلن من الصمت فضيلة في حين نودّ أكثر ما يكون أن نحملهنّ على الكلام. ونحسّ أنّهن أكّدن لشريكهنّ في الجرم قائلات: "لست أقول قطّ شيئاً، وهم لن يعلموا شيئاً منيّ أنا، فلست أقول قطّ شيئاً."

إننا نبذل ثروتنا وحياتنا في سبيل شخص، لكننا نعلم تمام العلم أننا بعد مرور عشر سنوات، أو قبل ذلك أو بعده، سوف نحجب عنه تلك الثروة ونفضّل الإبقاء على حياتنا. ذلك لأن الشخص يكون حينذاك قد فُصِلَ عنّا وأصبح وحيداً، يعني لا شيء. إنّ ما يشدّنا إلى الناس إنّما هي تلك الجذور الألف، تلك الخيوط التي لاتحصى التي تؤلّفها ذكريات أمسية البارحة وآمال صبيحة الغد. إنّها تلك الملحمة اللامنقطعة من العادات التي لا نستطيع التحرّر منها. ومثلما هناك بخلاء يكدّسون من كرم فإننا نحن مبذّرون ينفقون من بخل، وإننا أقلّ تضحية بحياتنا في سبيل شخص منّا في سبيل كلّ ما أمكن أن يعلّق حوله من ساعاتنا، من أيّامنا، من ذاك الذي تبدو لنا الحياة التي لم نعشها بعد. الحياةُ الآتية نسبياً، تبدو لنا مقارنة به، أكثر بعداً، أكثر انفصالاً عنّاً وأقلّ حميميةً وأقلّ ملكاً لنا. ما ينبغي أن يكون هو أن نتحرّر من تلك الروابط التي اكتسبت أهميّة تفوقه مراحل، ولكنّ من شأنها أن تخلق فينا واجبات مؤقتة تجاهه، واجبات تجعلنا لا نجرؤ على هجره مخافة أن يسيء الظنّ بنا. في حين يمكن أن تحالفنا الجرأة فيما بعد لأنّه بعد ما يُسْتَخلصَ منا لن يكون نحن من بعد، وأننّا في الحقيقة لاننشئ لنفسنا واجبات (حتّى إن انبغى في تناقض ظاهر أن تفضي إلى الانتحار) إلا تجاه ذواتنا.

إن كنت لا أحبّ "ألبيرتين" (وما كان ذلك عندي بالأمر اليقين) فالمكانة التي كانت تشغلها

بالقرب منّي لم تكن على شيء من الغرابة، فإنّنا لا نعيش إلا برفقة ما لا نحبّ والذي لم نَدَعْهُ يعيش معنا إلا لقتل الحبّ الذي لا يطاق سواء أكان الأمر أمر امرأة أو بلد أو حتّى امرأة تحتوي بلداً. بل ربّما ساورنا خوف عظيم أن نعود إلى الحبّ ثانية لو وقع الغياب مرّة أخرى. ولم أكن بلغت هذه النقطة فيما يخصّ "ألبيرتين". فقد كانت كذباتها وإقرارتها تدع لي مهمّة جلاء الحقيقة. كذباتها وما أكثرها، لأنّها لم تكن تكتفي بالكذب كأيّ شخص يخال أنّه محبوب، بل لأنّها خارج هذا النطاق كانت بطبيعتها كذّابة وكثيرة التقلّب على كلّ حال إلى حدّ أنّها حتّى حينما تقول لي في كلّ مرّة الحقيقة حول ما تظنّه في الناس على سبيل المثال فلعلّها كانت قالت في كلّ مرّة أشياء مختلفة، وإقراراتها، إذ هي شديدة الندرة مُقَصَّرة إلى حدّ بعيد، كانت تخلّي بينها، بما أنّها تتعلّق بالماضي، فواصل كبيرة كلّها بياض وينبغي لي أن أعيد على كامل طولها رسم حياتها وأن أطّلع لهذا الشأن عليها بادئ الأمر. أمّا فيما يخصّ الواقع، وبقدر ما كنت أفلح في تفسير أقوال "فرانسواز" الغامضة، فما كانت "ألبيرتين" تكذب عليّ حول نقاط خاصّة فحسب بل حول مجموعة متكاملة من الأمور وقد أتبيّن "في يوم من الأيّام" ما كانت تتظاهر "فرانسواز" بأنّها تعرفه، ما لا تريد الإفصاح عنه، مالا أجرؤ على سؤالها حوله. وليس من شك على كلّ حال أن "فرانسواز" إنّما كانت تتكلّم، تدفعها الغيرة نفسها التي سبق أن داخلتها تجاه "أولالي"، عن الأمور الأكثر بعداً عن الحقيقة والغامضة إلى حدّ كنت تستطيع معه على الأكثر أن تفترض فيها الإلماح المستبعد تماماً إلى أن الأسيرة المسكينة (التي كانت تحبّ النساء) تفضّل زواجاً تعقده على واحد ما كان يبدو بالتمام أنّه أنا. ولو كان الأمر كذلك، على الرغم من تخاطراتها اللاسلكيّة، فكيف تكون "فرانسواز" عرفت ذلك؟ وحكايات "ألبيرتين" بالتأكيد ما كان بوسعها البتّة أن توفرّ لي رأياً ثابتاً حول هذا الأمر، فقد كانت كلّ يوم بمثل تضادّ ألوان خذروف متوقّف تقريباً. كان يبدو على أيّة حال أن الحقد هو الذي كان على وجه الخصوص يُنطق "فرانسواز". فما كان يوم إلاّ وتقول لي فيه، وأتّحمل فيه في غياب أمّي، أقوالاً من هذا القبيل: "أنّك لطيف بالتأكيد، ولن أنسى في يوم الجميل الذي أدين به لك (وذلك على الأرجح كي أنشئ لنفسي مبرّرات لامتنانها). ولكنّ البيت أنتن منذ أن أسكن اللطفُ ههنا المكر، وصان الذكاء من كانت الأكثر غباء في يوم، وارتضت الرهافة واللباقة والظرف والكرامة في كلّ شيء والأمارة مظهراً وواقعاً أن تُفرض عليها الأمور وتُخدع وأن يجري إذلالي، أنا التي هنا منذ أربعين عاماً في هذه الأسرة، من جانب الرذيلة وما كان الأكثر سوقيّة وسفالة.

كانت "فرانسواز" تحقد على "ألبيرتين" من جراء أنّها تُؤْمَرُ على وجه الخصوص من جانب آخَرَ غيرنا وزيادة في شغل المنزل وتعب لعلّه إذ يُفسد صحّة خادمتنا العجوز (التي ما كانت تودّ مع ذلك أن تُعَان في عملها إذ ليست ممّن "لا يصلحون لشيء")، لعلّه كان كافياً لتفسير تلك الفورة العصبيّة وصنوف الغضب الحاقدة تلك. لقد ودّت بالتأكيد أن تُبْعَدَ "ألبيرتين- إيستير"(١). كانت تلك أمنية "فرانسواز". ولعلّ خادمتنا العجوز كانت وجدت الراحة في مؤاساتها. لكن الأمر حسبما أرى لم يكن

(١) إيستير بطلة رواية دينيّة كتبها راسين في أواخر إنتاجه المسرحي.

ذلك فحسب، فمثل ذلك الحقد ما كان ليولد إلاّ في جسد مرهَق، وكانت "فرانسواز" أكثر حاجة إلى النوم منها إلى صنوف المراعاة.

وفيما كانت "ألبيرتين" تمضي لنزع حاجاتها، وبغية التفكير بأكثر الأشياء استعجالاً أمسكتُ بسمّاعة الهاتف وتوسّلت إلى الإلهات القاسيات القلوب ولكنّي استثرت فحسب حنقهن الذي برز واضحاً في الكلمات التالية: "الخطّ مشغول". وكانت "أندريه" بالفعل تتحدّث إلى أحدهم. وتساءلت بانتظار أن تكون أنهت مكالمتها، وبما أن الكثيرين من الرسامين يحاولون تجديد الصور الأنثويّة في القرن الثامن عشر حيث تبدو الإخراج الذكيّ بمثابة حجّة للتعبير عن الانتظار والحرد والاهتمام وأحلام اليقظة، كيف لم يرسم أيّ من أمثال "بوشيه" أو "فراغونار" من المحدثين لدينا بدلاً من "الرسالة"، بدلاً من "الكلافسان"[١] الخ، هذا المشهد الذي يمكن أن نسمّيه: "أمام الهاتف" والذي ربّما ارتسمت تلقائيّاً فيه على شفتي المستمعة ابتسامة تتزايد حقيقتها بمقدار ما تعلم أنّ ليس من يراها. وأخيراً سمعتني "أندريه": "هل تأتين غداً لاصطحاب "ألبيرتين"؟ "ولدى نطقي باسم "ألبيرتين" أخذت أفكّر بالغيرة التي بعثها "سوان" في صدري حينما قال لي يوم الحفلة في منزل الأميرة "دوغيرمانت": "هلمّ للقاء "أوديت"، وفكرت فيما كان من زخم على الرغم من كلّ شيء داخل اسم ما كان يملك، في نظر كلّ الناس وفي نظر "أوديت" نفسها، ذاك المعني التملكي تماماً إلاّ في فم "سوان". وكم بدا لي أن مثل ذلك السلطان- الذي تختصره كلمة- على حياة بكاملها، كم بدا لي في كلّ مرّة كنت فيها مغرماً أنّه لابّد أن يكون بتلك العذوبة! لكنّنا في الحقيقة حينما نستطيع أن نفصح عنه، فإمّا أن يكون ذلك قد أضحى غير ذي بال أو أن العادة لم تضعف الحنان ولكنّها بدلّت صنوف حلاوته آلاماً. إنّ الكذب هيّن أمره، ونحن نعيش فيه دون أن نقوم بغير التبّسم إزاءه ونمارسه دون ظنّ منا أننا نتسبّب بإيلام أحد، ولكنّ الغيرة تعاني منه وترى أكثر ممّا يخفي (فغالباً ما ترفض صديقتنا قضاء الأمسية برفقتنا وتمضي إلى المسرح لمحض أن لا نرى أنّها منحرفة الصحة)، مثلما تظن في الغالب عمياء إزاء ما تخفي الحقيقة. ولكنّها لا تستطيع الحصول على شيء لأن اللواتي يقسمن بأنّهن لا يكذبن، ربما رفضن تحت تهديد السكيّن أن يفصحن عن طباعهنّ. كنت أعلم أنني وحدي أستطيع أن أقول "ألبيرتين" بهذه الطريقة لـ"أندريه". ومع ذلك فقد كنت، في نظر "ألبيرتين" و"أندريه" ونظري أنا، أحسّني لا شيء. وكنت أدرِك الاستحالة التي يصطدم بها الحبّ. فإننّا نتصوّر أنّه يتناول كائناً يمكن أن نطرحه أمامنا وأن نسجنه داخل جسد لكنّه للأسف امتداد هذا الكائن إلى سائر نقاط المكان والزمان التي شغلها وسوف يشغلها ذاك الكائن. فإن لم نملك نقطة التماسّ بهذا المكان وتلك الساعة فإننا لانملكه. والحقيقة أننا لا نستطيع الوصول إلى كلّ هذه النقاط. ولو أنها عُينَتْ لنا لأمكننا ربّما الامتداد إليها، ولكننّا نتلمّس المكان دون أن نعثر عليها، ومن هنا تجيء الريبة والغيرة وألوان الاضطهاد. إنّنا نضيّع وقتاً ثميناً في اقتفاء أثر مستحيل ونمرّ إلى جانب الحقيقة دون أن نرتاب بها.

لكنّ إحدى الإلهات السريعات الغضب ذوات الخادمات المدوّخات في سرعتهنّ أخذ منها الحنق لا

(١) نوع من البيانو القديم.

لأنّي أتحدّث، بل لأني لا أقول شيئاً. "ولكن الخطّ سالك ويحك! ومنذ أن بدأت اتّصالك، سوف أقطع عليك الخطّ." ولكنّها لم تفعل، وفيما تُيسِّر بذلك حضور "أندريه" غَمَرَتْها، فعل الشاعر الكبير الذي تمثله دوماً آنسة الهاتف، بالجوّ الخاصّ بمنزل صديقة "ألبيرتين" وحيّها وحياتها ذاتها. وقالت لي "أندريه": "أهذا أنت" وكان صوتها مدفوعاً إليّ بسرعة خاطفة على يد الإلهة التي تملك موهبة جعل الأصوات أكثر سرعة من البرق. فأجبت قائلاً: "اسمعي، اذهبا حيثما تشاءان، إلى أيّ مكان ما عدا منزل السيّدة "فيردوران". لابدّ من إبعاد "ألبيرتين" عنه في الغد بأيّ ثمن".- "ولكنّها بالضبط عازمة على الذهاب إليه في الغد."-"آه!".

ولكنيّ كنت مضطراً إلى الانقطاع لحظة والقيام بحركات مُتَوَعِدَة ، فإنّه إن كانت "فرانسواز" توالي رفضها- وكأنّما الأمر بمثل كراهة لقاح الجدري وخطورة الطائرة-، رفضها أن تتعلّم استخدام الهاتف، وهو ما كان رفع عن كاهلنا الاتّصالات التي يمكن أن تطّلع عليها دونما ضرر، فقد كانت في المقابل تدخل على الفور إلى غرفتي حالما أقوم باتّصالات سرّية بما يكفي كي أحرص حرصاً خاصاً على إخفائها عنها. وبعدما خرجت في نهاية المطاف من غرفتي، ولم تفعل دون أن تتأخّر لحمل حاجات مختلفة كانت فيها منذ البارحة وربمّا أمكن أن تبقى دون أن تكون البتّة مصدر إزعاج على مدى ساعة أخرى، وكي تلقي في النار حطبة أصبحت غير ذات فائدة من جراء الحرارة الخانقة التي يخلّفها لديّ وجود الفضوليّة وخشيتي أن تقدم الآنسة على قطع الخطّ عليّ. وقلت لـ"أندريه": "عذراً منك، فقد وقع لي مضايقة. أنت متيقّنة تمام اليقين أنّها تنوي الذهاب في الغد إلى منزل آل "فيردوران"؟"- "تماماً، ولكن يمكن أن أقول لها إنّ الأمر يبعث فيك الضيق."- "كلا، على العكس، ما يمكن فعله هو أن أجيء معكما." وقالت "أندريه": "آه!" بصوت بادي الضيق وكأنما بها هلع من جرأتي التي إنّما تعزّزت بذلك على أيّ حال.- "ها أنا ذا أتركك إذن، ومعذرة لأنّي أزعجتك لغير ما سبب." وقالت "أندريه": "لا، لا" وأضافت تقول (إذ أضحى استخدام الهاتف الآن شائعاً فتنامى من حوله زخرف جمل خاصّة كما كانت الحال فيما مضى حول "جلسات الشاي"): "لقد سرّني أعظم السرور سماع صوتك."

كان باستطاعتي أن أقول القول نفسه وعلى نحو ألصق بالواقع ممّا هي حال "أندريه"، ذلك أنّني تأثّرت تأثّراً لا حدّ له بصوتها، إذ لم يسبق لي قط أن لاحظت أنّه يختلف إلى هذا الحدّ عن غيره . حينئذ تذكرت أصواتا أخرى غيره، ولا سيّما أصوات نساء، منها ما بطأت فيه دقّة السؤال وانشغال الفكر، ومنها مالهث أو تقطّع جرّاء دفق الحماسة في ما تروي عنه، تذكّرت واحداً فواحداً صوت كلّ من الفتيات اللاتي عرفتهنّ في "بالبيك"، ثم صوت "جيلبيرت"، ثم جدّتي، ثمّ السيدّة "دوغيرمانت" فألفيتها مختلفة جميعها ومقولبة حول لغة خاصّة بكلّ واحدة والكلّ يعزف على آلة مختلفة، وقلت في نفسي أيّ عزف هزيل لابدّ يقوم به في الفردوس الملائكة الموسيقيّون الثلاثة أو الأربعة لدى قدامى الرسّامين حينما أرى السلام المتساوق المتعدّد النغمات ترفعه إلى الله كلّ الأصوات بالعشرات، بالمئات، بالآلاف. ولم أدع الهاتف دون أن أشكر ببضع كلمات مستعطفة تلك التي تمدّ سلطانها على

سرعة الأصوات لأنّها تلطفت واستخدمت في سبيل أقوالي المتواضعة طاقة تجعلها مئة مرّة أكثر سرعة من الرعد. لكنّ ضروب شكري لبثت لا جواب لها سوى أن تُقطع.

حينما رجعت "ألبيرتين" إلى غرفتي كانت ترتدي فسطاناً من الساتين الأسود يسهم في زيادة شحوبها ويجعل منها الباريسيّة المتقعة اللون المتّقدة الذابلة لنقص الهواء وجوّ الجماهير وربّما لتعوّد الرذيلة، والعينان منها تبدوان أكثر اضطراباً إذ لا تشبع فيهما حمرة الوجنتين بهجة. وقلت لها: "احزري لمن هتفت منذ قليل: لـ"أندريه".- "لـ"أندريه"؟ تقول "ألبيرتين" صائحة بلهجة صاخبة مستعجبة منفعلة ما كان خبر بمثل تلك البساطة يحتويها. "آمل أن يكون خطر لها أن تقول لك إنّنا التقينا السيّدة "فيردوران" في ذلك اليوم."- "السيّدة "فيردوران"؟ لست أذكر." هكذا أجبت فيما أبدي أنني أفكّر بأمر آخر كيما يبدو أنني لا أبالي بذلك اللقاء وكي لا أخون "أندريه" التي سبق أن قالت لي أني تذهب "ألبيرتين" في الغد. ولكن من ذا يعلم إن كانت "أندريه" نفسها لا تخونني وإن كانت لن تروي لـ"ألبيرتين" في الغد أنّي سألتها أن تمنعها من الذهاب إلى منزل عائلة "فيردوران" بالغاً ما بلغ الثمن وإن لم تكن كشفت لها أنّي أوصيتها عدّة مرّات بأشياء مشابهة؟ وكانت أكّدت لي أنّها لم تردّدها في يوم، لكنّما كان يوازي قيمة ذاك التوكيد في ذهني أنْ قد هجرت وجه "ألبيرتين" منذ وقت قليل الثقة التي أولتني إيّاها منذ زمن طويل.

إن الألم في الحبّ يتوقّف بين حين وحين ولكن كي يعاود بطريقة مختلفة. فإننا نبكي لرؤيتنا من نحبّ لا تبدي لنا من بعد اندفاعات الودّ ودعوات بدايات الغرام، ويزيد من عذابنا أيضاً أنّها بعدما فقدتها بالنسبة إلينا تعود فنلقاها بالنسبة إلى سوانا. ثمّ يصرفنا عن هذا العذاب داء جديد ألدّ وأدهى هو الشك بأنّها كذبت علينا حول أمسيتها في الليلة البارحة التي خانتنا فيها دون شك. وهذا الارتياب يتلاشى كذلك، ويسكّننا اللطف الذي تُبديه لنا صديقتنا، ولكنّ كلمة منسيّة تعود إلى الذهن، فقد قيل لنا إنّها مضطرمة الهوى في حين لم نعهدها إلاّ هادئة، ونحاول أن نتصوّر ما كانت عليه صنوف هيجانها مع سوانا ونحسّ بالأمر الزهيد الذي نمثله في نظرها، ونلاحظ ملامح تضجّر وحنين وحزن في أثناء حديثنا، نلاحظ ملاحظتنا لسماء قاتمة، الفساطين التي يطبعها الإهمال والتي ترتديها حينما تكون بصحبتنا فيما تحتفظ للآخرين بتلك التي كانت تحاول إبهارنا بها في البداية. فإن أبدت على العكس رقّة فأيّ فرحة على مدى لحظة! لكنّنا حين نرى هذا اللسان الصغير الممدود، وكأنّما لنداء بالعينين فإنما نفكّر بسائر اللواتي كان يُوجَّه إليهن مرّات كثيرة إلى حدّ لبث معه، ربما حتى بالقرب مني، ودون أن تفكّر بهنّ "ألبيرتين"، إشارة آليّة من جرّاء عادة قديمة جداً. ثم "يعاودنا الشعور بأنّنا نسببّ لها السأم. لكن هذا العذاب ينقلب فجأة إلى أقلّ القليل حينما نفكر بالمجهول المؤذي في حياتها والأماكن التي لا سبيل إلى معرفتها والتي ارتادتها، التي ربّما لا تزال بعد فيها في الساعات التي لسنا فيها بالقرب منها، وإن كانت حتى لا تنوى الإقامة نهائياً في تلك الأمكنة التي هي فيها بعيدة عنّا وليست ملك يدينا وهي فيها أكثر سعادة منها برفقتنا. تلك هي متواليات الغيرة التي لا تنتهي.

والغيرة إلى ذلك شيطان لا يمكن طرده ويعود دوماً إلى الظهور وقد تجسّد في شكل جديد. فإن أفلحنا في القضاء عليها جميعاً قضاء مبرماً وفي الحفاظ أبداً على الشكل الذي نحبّه اتّخذ روح الشرّ آنذاك شكلاً آخر أكثر شَجىً بعد، وهو أسانا أنْ لم نحصل على الإخلاص إلاّ عنوة، أسانا أنْ لم نظفر بالحبّ.

كان بيني وبين "ألبيرتين" في الغالب عقبة صمت قوامه دون شكّ مآخذ كانت تكتمها إذ تحكم أنّها متعذّر إصلاحها. ومهما كانت "ألبيرتين" رقيقة في بعض الأمسيات فإنّها ما عادت تملك تلك الحركات العفويّة التي سبق أن عرفتها لديها في "بالبيك" حينما كانت تقول لي: "يا كثر ما أنت لطيف أنت!"، وتبدو أعماق فؤادها كأنّما تُقبل إليّ دونما تحفّظ من أيّ من المآخذ التي لديها الآن والتي تكتمها لأنّها تحكم أنّها دون شك متعذر إصلاحها مستحيل نسيانها لا يباح بها، ولكنها تضع مع ذلك بيني وبينها حذر أقوالها البليغ أو فاصل صمت يستحيل اجتيازه.

- "وهل يمكن أن نعلم لماذا اتّصلت هاتفياً بـ"أندريه"؟- "لكي أسألها إن لم يكن يضايقها أن أنضمّ إليكما في الغد وأن أقوم هكذا بالزيارة التي أعدهم بها منذ لقاء "الاراسبلبير".- "كما تشاء، ولكنّي أحذّرك أن ثمة ضباباً مريعاً هذا المساء وسوف يتوافر بالتأكيد في الغد أيضاً. أقول لك ذلك لأني لا أودّ أن يصيبك منه أذى. تعلم تماماً أني أفضّل، فيما يخصّني، أن تجيء وإيانا." وأضافت تقول بهيئة المهتمّ: "لست أعلم البتّة على أيّ حال إن كنت سأذهب إلى منزل عائلة "فيردوران". لقد أحاطوني بالكثير من صنوف اللطف إلى حدّ يجدر بي معه أن أفعل، فلا يزالون بَعْدَك من كانوا أفضل الناس بالنسبة إليّ، لكنّ ثمّة هنات تسوءني لديهم. ينبغي حتماً أن أذهب إلى مخزن "بون مارشيه" أو "تروا كارتييه" لأبتاع وشاحاً أبيض مطرّزاً. فهذا الفسطان مفرط السواد."

أن أدع "ألبيرتين" تمضي وحيدة إلى مخزن كبير يطوف فيه عدد كبير من الناس الذين تحتكّ بهم، وهو مجهّز بمخارج كثيرة إلى حدّ يمكنك معه القول إنّك لم تفلح ساعة الخروج في العثور على سيّارتك التي كانت تنتظر في مكان أبعد، ذلك ما كنت عاقداً العزم على رفض القبول به ، لكنّي كنت قبل كلّ شيء تعيساً. بيد أني ما كنت أتبيّن أنّه كان يجدر بي من مدّة طويلة أن أكفّ عن لقاء "ألبيرتين"، ذلك لأنها دخلت بالنسبة إليّ في تلك الفترة المؤسفة التي لا يظلّ فيها كائن، وقد تبعثر في المكان وفي الزمان، لا يظلّ من بعد امرأة في نظرنا بل متوالية أحداث لا نستطيع إلقاء الضوء عليها وتعاقب من المشكلات التي تستعصي على الحلّ، بحر نحاول بصورة مضحكة أن نضربه لمعاقبته على ما ابتلع، مثلما فعل "كزيركسيس"(١). فما إن تبدأ تلك الفترة حتّى ترانا مغلوبين حتماً. فطوبى للذين يدركون ذلك ويبكّرون في الأمر كفايته كي لا يطيلوا بما يجاوز الحدّ صراعاً غير مجد ومنهكاً وتضيق عليه من كلّ جانب حدود الخيال حيث تتلجلج الغيرة على نحو مخجل حتّى ليقبل ذات الرجل الذي كان بالأمس، لمجرّد أن تحطّ ألحاظ تلك التي كانت تقف دوماً إلى جانبه لحظة واحدة على آخر

(١) من ملوك فارس، انتقم فيما يقولون لهزيمة أسطوله بأن أمر بجلد البحر، واسمه الفارسي "خشايرشا".

غيره، يتخيل دسيسة ويكابد عذابات ما أكثرها، يقبل فيما بعد صاغراً بأن يدعها تخرج وحدها وأحياناً برفقة من يعلم أنّه عشيقها مفضلاً على ما لا يستطيع معرفته هذا العذاب المعروف على الأقلّ! إنّها مسألة إيقاع علينا اتخاذه ونتبعه فيما بعد بحكم العادة. فعصبيونّ قد لايقوون على تفويت عشاء وينصرفون بعدها إلى إخلادات إلى الراحة قلّما تبدو طويلة في يوم، وتعيش نسوة هنّ إلى حين بعد طائشات في أجواء التوبة. وغيارى كانوا يقصرّون في نومهم وفترة راحتهم بغية مراقبة من يحبّونها يدعونها، إذ يحسّون أن رغباتها هي والعالم الشديد الاتّساع البالغ السرية والزمن إنما تفوقهم قوّة، يدعونها تخرج بدونهم ثمّ تسافر ثمّ هم ينفصلون. وإنّما تبلغ الغيرة نهايتها على هذا النحو لفقدان الغذاء وهي لم تدم إلى هذا الحدّ إلا لأنّها طالبت به دون توقّف. وكنت بعيداً عن مثل هذه الحالة.

لاشكّ أن وقت "ألبيرتين" كان ملك يديّ بمساحات تفوق كثيراً مثيلاتها في "بالبيك". لقد أصبحت الآن حراً في القيام بنزهات برفقتها قدر ما أشاء. ولمّا لم ينقض الكثير حتّى قامت حول باريس عنابر للطيران، وهي للطائرات ما هي المرافىء للسفن، ومنذ اليوم الذي شكلّت فيه، بالقرب من"لاراسبليير" المصادفة التي تقرب أن تكون خرافية مع طيّار أدّى طيرانه إلى جموح حصاني، كأنما صورة للحريّة، كثيراً ما كان يحلو لي أن يكون هدف طلعاتنا في آخر النهار- والهدف يمتع "ألبيرتين" من جانب آخر، هي المغرمة بالرياضات جميعها- واحداً من تلك المطارات. كنّا نذهب إليه، هي وأنا، تستهوينا هذه الحياة التي تضجّ دون انقطاع بحركتي الإقلاع والوصول اللتين تضفيان الكثير من السحر على النزهات فوق الأرصفة أو الرمال فحسب بالنسبة إلى عاشقى البحر. وعلى التسكّع حول مركز طيران بالنسبة إلى من يحبّون السماء. كنّا نرى في كلّ لحظة، وسط استراحة الطائرات الجامدة وكأنما ألقت المرساة، كنّا نرى طائرة يجرّها بشقّ الأنفس عدّة ميكانيكيينّ مثلما يجرُّ فوق الرمال قارب طلبه سائح يبغي القيام بجولة في البحر. ثم يّدار المحرك وتجري الطائرة وتندفع بقوّة وفي النهاية ترتفع فجأة بزاوية قائمة، ترتفع الهوينى في ذهول متصلّب، وكأنّما تجمدّ، لسرعة أفقيّة تنقلب فجأة صعوداً عموديًا مهيباً. كانت "ألبيرتين" لا تقوى على كتم فرحها وتمضي تستوضح الميكانيكييّن العائدين الآن وقد أصبحت الطائرة "تمخر عباب الماء". وسرعان ما كان يقطع المسافر كيلومترات في حين لم يعد الزورق الذي ما انفككنا نحدّق إليه سوى نقطة في زرقة السماء تكاد لا تميّزها وسوف تستعيد على أيّ حال شيئاً فشيئاً ماديتها والقياس والحجم ساعة تقترب النزهة من نهايتها ويحين موعد الرجوع إلى المرفأ. وكنّا أنا و"ألبيرتين" ننظر تُداخلنا الغيرة إلى المتنزّه آن يقفز أرضاً، وكان مضى هكذا يتذوّق في "عرض اللجّة" وفي عزلة الآفاق تلك هدوء المساء وصفاءه. ثم كنّا نعود سويّة لطعام العشاء إمّا من المطار وإما من أحد المتاحف أو من كنسية ذهبنا لزيارتها. لكنّي لم أكن أعود مهدأ النفس كما كنته في "بالبيك" بفعل نزهات أكثر ندرة أفخر أن أراها تمتدّ على عصر يوم كامل وأتأمّلها فيما بعد تَبْرز كتلاً جميلة من الزهر على الباقي من حياة "ألبيرتين" وكأنّما على صفحة سماء خالية تحكم قبالتها أحلاماً هادئة والفكر معطّل. آنذاك لم يكن وقت "ألبيرتين" ملك يدي بكميّات تساوي حجمها اليوم. ولكنّما كان يبدو لي آنذاك أني أكثر امتلاكا له لأني ما كنت آخذ في اعتباري سوى الساعات

التي تقضيها برفقتي- إذ يغتبط بها حبيّ وكأنّما بمنّة أُعْطاهَا-:والآن مجرّد الساعات التي تقضيها بدوني- إذ تبحث غيرتي فيها قلقةً عن إمكان خيانة-. وهي بالفعل ربّما رغبت غداً أن يتّسع لها مثلها. فلابد من الاختيار بين التوقّف عن العذاب والإمساك عن الحبّ. فإنّه، مثلما يتشكل الحب في البداية من الشوق، لا يستمرّ بعدها إلا بالقلق المؤلم. كنت أحسّ أن قسماً من حياة "ألبيرتين" يفلت منّي. وإنّما الحبّ في القلق المؤلم وسعادة الشوق على السواء حاجة إلى الكلّ، وهو لاينشأ ولا يدوم إلاّ إن بقي ثمّة جزء علينا الاستيلاء عليه. فلسنا نحبّ إلاّ ما لانملكه بكليّته. كانت "ألبيرتين" تكذب علي إذ تقول إنّها لن تذهب دون شك لزيارة آل "فيردوران" كما كنت أكذب إذ أقول أنّي أبغي الذهاب إلى منزلهم. كانت تحاول فقط أن تمنعني من الخروج وإيّاها، أمّا أنا فلأصيب لديها، بالإعلان المفاجئ عن ذاك المشروع الذي ما كنت أنوي البتّة تنفيذه، النقطة التي أحسّها الأكثر حساسية، ولملاحقة الرغبة التي تكتمها وحملها عنوة على الإقرار بأنّ وجودي في الغد إلى جانبها سوف يحول دون تلبيتها. وقد فعلت ذلك بإجمال القول بتوقّفها المفاجئ عن تصميمها الذهاب إلى منزل آل "فيردوران".

وقلت لها: "إن كنت لا تبغين الذهاب إلى منزل آل "فيردوران" فثمّة في "التروكاديرو" مسرح رائع ذو طابع خيري". فأصغت إلى نصحي بالذهاب بهيئة شاكية. وأخذت من جديد أُبدي القسوة إزاءها كما في "بالبيك" في زمن غيرتي الأولى. كان وجهها يعبّر عن خيبة أمل وكنت أستخدم في لوم صديقتي الأسباب نفسها التي كثيراً ما قوبلت بها من جانب والديّ عندما كنت صغيراً وبدت غير ذكية وقاسية في نظر طفولتي غير المقدّرة حقّ قدرها. فكنت أقول لـ"ألبيرتين": "لا، لست أستطيع، على الرغم من مظهرك الحزين، أن أرثي لحالك، وكنت فعلت لو أنكِ مريضة، لوحلّت بك مصيبة، لو فقدت قريباً، الأمر الذي ربّما لم يخلّف لديك أي غم إمّا نظرنا إلى ما تقومين به من هدر في المشاعر الكاذبة التي لا طائل تحتها. وإنّي على أيّ حال لا أقدّر مشاعر الناس الذين ما أكثر ما يدّعون حبّنا دون أن يستطيعوا إسداء أقلّ خدمة إلينا والذين يجعلنا فكرهم المصروف إلينا ساهين إلى الحد الذي ينسون معه حمل الرسالة التي عهدنا بها إليهم والتي يرتبط بها مستقبلنا."

هذه الأقوال، وليس جزء كبير ممّا نقول سوى استظهار، كنت سمعتها كلها تنطق بها أمّي التي بلغ بها، (إذ تشرح لي من تلقاء ذاتها أنّه ينبغي أن لا نخلط بين الحساسيّة الحقيقيّة وما كان الألمان يدعونه- الألمان الذين كانت معجبة جداً بلغتهم على الرغم من الكره الذي يكنّه والدي لتلك الأمّة- Empfindung والحساسيّة الكاذبة Empfindelei) ذات مرّة كنت أبكي فيها، أن تقول لي إن "نيرون" ربّما كان سريع الانفعال ولم يكن لذاك السبب أفضل. والحقيقة، وكما هو حال تلك النباتات التي تتضاعف في نموّها، فقد كان الآن، في مقابل الولد الحسّاس الذي سبق أن كنته فحسب،رجل يناقضه، يفيض حسّاً سليماً وقسوة على حساسيةً الآخرين المرضيّة، رجل يشبه ما سبق أن كانه ذويّ، بالنسبة إليّ. وإذ يقع على كلّ منّا أن يجعل حياة ذويه تستمّر داخله فإن الرجل الرزين المتهكّم الذي لم يكن موجوداً داخلي في البداية قد لحق بالحسّاس وأضحى من الطبيعّي أن أكون بدوري مثلما سبق

أن كان ذويّ، أضف أن هذا الأنا الجديد كان يجد لحظة يتشكّل، لغته جاهزة تماماً في تذكّر اللغة الساخرة المؤنّبة التي وُجّهت إليّ بالأمس والتي يعود إليّ الآن أن أوجّهها إلى الآخرين وكانت تنطلق من فمي على نحو طبيعيّ تماماً سواء استذكرتها بداعي التقليد وتداعي الذكريات أو أنّ معشقات القدرة الانسالية الدقيقة والمبهمة قد رسمت في داخلي دون علم مني، وكأنّما على أوراق نبتة، ذات النبرات وذات الحركات وذات الوقفات التي كانت لمن تحدّرتُ منهم. فقد كان يبدو لي أحياناً، وأنا أقوم بدور الرجل الحكيم في حديثي إلى "ألبيرتين"، أني أسمع جدّتي. أفلم يتفق لوالدتي على أيّة حال (وما أكثر التيارات الغامضة اللاواعية التي كانت تعدّل داخلي في مسار حتّى أدنى حركات لأصابعي نفسها لتدفع بها في ذات أطوار ذويّ) أن تظن والدي هو الذي يدخل لكثرة ما استخدم في نقر الباب ذات طريقته. ثم إن اقتران العناصر المتضادّة قانون الحياة ومبدأ الإخصاب، وعلة الكثير من المصائب، كما سنرى. والمرء يمقت عادة ما كان شبيهاً له، ونقائصنا نفسها إمّا شوهدت من الخارج تثير سخطنا وكم يزداد كره النقائص نفسها لدى من تجاوز السنّ الذي يعبر فيه عنها بسذاجة ومن صنع لنفسه على سبيل المثال في الفترات اللاهية أكثر ما تكون وجهاً من جليد إن كان من يعبر عنها آخر غيره أكثر شباباً، أو أوفر سذاجة أو أشدّ حمقاً! فثمةَ حسّاسون يثير حنقهم مشهد الدموع في عيون الآخرين في حين يحتبسونها هم. وإنّما التشابه المفرط هو الذي يجعل الفرقة تسود الأسر على الرغم من الوداد وأحياناً كلمّا تعاظم الوداد. وربّما كان لديّ ولدى الكثيرين، ربّما كان الرجل الثاني الذي أضحيته مجرّد وجه من الأوّل، فهو مندفع سريع التأثر من جانبه هو ومرشد حكيم فيما يخصّ الآخرين. وربّما كان الأمر كذلك من جانب ذويّ حسبما ينظر إليهم بالنسبة إليّ أو في حدّ ذاتهم. وفيما يخصّ جدّتي وأمّي كان أكثر من جليّ أن قسوتهما عليّ مقصودة بل تصعب عليهما، ولكن ربّما كان الفتور لدى والدي محض جانب خارجيّ لحساسيته. فربّما كانت الحقيقة الإنسانية الكامنة في هذا المظهر المزدوج، المظهر الذي من جانب الحياة الباطنيّة والمظهر الذي من جانب العلاقات الإجتماعية، هي التي تعبّر عنها هذه الكلمات التي كانت تبدو لي فيما مضى زائفة في مضمونها بقدر ما تفيض تفاهة في شكلها حينما يقولون في حديثهم عن والدي: "إنّه يخفي خلف فتوره الذي يجمّدك حساسية فائقة. وما به على وجه الخصوص إن هو إلاّ استحياء من رقةّ شعوره." أفما كان يخفي في الأساس عواصف دفينة لا تنقطع ذاك الهدوء الذي يمتلئ لدى الاقتضاء بالأفكار الوقورة والسخرية من تجليّات الإحساس الخرقاء، والذي كان هدوءه لكنّي كنت أنا الآن أتصنّعه أيضاً إزاء الجميع وما كنت على وجه الخصوص أتخلّى عنه في بعض الظروف إزاء "البيرتين"؟.

أعتقد أنّي كنت بالحقيقة عازماً في ذلك اليوم على تقرير انفصالنا والذهاب إلى البندقيةّ. أمّا ماعاد فقيدني بعلاقتي فمردّه منطقة النورماندي، لا لأنها كشفت عن أيّة نية في الذهاب إلى تلك المنطقة التي سبق أن أحسست فيها بالغيرة عليها (إذ حالفني الحظ أن لم تلامس مشاريعها البتة النقاط المؤلمة في مجال تذكري)، بل لأنّها أجابت إذ قلت لها: "ذلك كما لو كنت أكلمك عن صديقه عمتّك التي تقطن "إنفرفيل"، أجابت بغضب وهي سعيدة سعادة أيّ شخص يجادل ويريد أن يخصّ نفسه بأكبر قدر ممكن من الحجج، بأن تبيّن لي أني أسير في الدرب الخاطئ وهي في الصحيح: "ولكنّ

عمّتي لم تعرف في يوم احداً في "أنفرفيل" ولا أنا ذهبت إلى هناك." وكانت قد نسيت الكذبة التي كذبتها عليّ ذات مساء بشأن السيدّة السريعة الغضب التي كان لابدّ من الذهاب حتماً إلى منزلها لتناول الشاي حتّى إن انبغى بذهابها للقاء تلك السيّدة أن تفقد صداقتي وتقتل نفسها. ولم أذكّرها بكذبتها ولكنّ الكذبة أثقلت عليّ: وأرجأت إلى مرّة أخرى أيضاً القطيعة بيننا. وليس من حاجة إلى الصدق ولا حتّى إلى الحذاقة في الكذب كيما تُحَبّ. وما أدعوه بالحبّ هنا هو عذاب متبادل. وما كنت أجد في ذلك المساء ما يستوجب اللوم في توجيه الكلام إليها مثلما سبق أن فعلت بي جَدتي، هي التي لا عيب فيها، ولا في أنّي تبنّيت، كيما أقول لها إني سوف أرافقها إلى منزل آل "فيردوران"، طريقة والدي المجافية، ولم يكن يبلّغنا في يوم قراراً إلاّ بالطريقة التي يمكن أن تسبّب لنا أقصى الاضطراب الذي لايتناسب في مستواه هذا وذلك القرار نفسه. وهكذا كان يسيراً عليه أن يجد أننا حمقى لأننا نبدي لأمر زهيد إلى هذا الحدّ مثل هذا الأسى الذي كان يتناسب بالفعل والصدمة التي سبّبها لنا. ولو أن مشيئات والدي المتردّدة الجزافية تلك- كما هي حال حكمة جدّتي التي لا تلين- لو أنّها جاءت تكمل لديّ الطبيعة الحسّاسة التي لبثت زمنا طويلاً خارج حدودها والتي ما أكثر ما عذّبتها طوال طفولتي كلها، فإن هذه الطبيعة الحسّاسة كانت تطلعها بصورة صحيحة تماماً على النقاط التي يجدر أن تصوّب إليها بشكل ناجع: فإنّه ليس من مخبر أفضل من سارق سابق أو من أحد رعايا الأمّة التي تقاتلها. وإن أخاً جاء، في بعض الأسر الكذّابة، ليلقى أخاه دونما سبب ظاهر ويسأله، بعبارة عارضة على عتبة بيته وهو يهتم بالانصراف، خبراً يبدو وكأنّه حتّى لا يصغي إليه إنّما يعني بذلك لأخيه أنّ ذاك الخبر كان يشكّل هدف زيارته، لأنّ الأخ يعرف تماماً هذه المظاهر اللامبالية، هذه الكلمات التي تقال كأنّما بين قوسين وفي الثانية الأخيرة إذ كثيراً ما لجأ إليها بدوره. والحقيقة أن هنالك أيضا. أسراً ذات أدواء وحساسيّات متقاربة وأمزجة متآخية دُربت على هذه اللغة المضمرة التي مؤدّاها أن يتفاهم الناس داخل الأسرة دون أن يتحادثوا. ومن ذا يستطيع تبعاً لذلك أن يثير الأعصاب أكثر من العصبّي؟ أضف أنّه ربّما كان لسلوكي في تلك الحالات سبب أكثر شيوعاً وأوفر عمقاً. ذلك أننّا في تلك الفترات القصيرة والمحتومة التي نمقت فيها فرداً نحبّه- تلك الفترات التي تدوم أحياناً طوال الحياة مع الناس الذين لا نحبّهم- لا نودّ أن نبدو طيبّين كي لا يرثى لحالنا بل الأكثر أذيةً والأشد سعادة كيما تكون سعادتنا حقاً موضع كراهية وتحزّ في نفس العدوّ العارض أو الدائم. فكم افتريت على نفسي كاذباً أمام كثيرين لمحض أن تبدو لهم "نجاحاتي" منافية للأخلاق وتزيد من حنقهم! أمّا ما يجدر فعله فاتّباع الخطّ المعاكس، وأن نُبدي دون اعتزاز أنّ مشاعرنا طيّبة بدلاً من التسترّ عليها بهذه القوّة. ولعلّ الأمر يسير لو عرفنا كيف لا نكره في يوم، كيف نحبّ على الدوام. ذلك أننّا نسعد آنذاك إلى أبعد حدّ أن لا نقول سوى الأمور التي يمكن أن تُسعد الآخرين وتثير عطفهم وتحملهم على حبّك!

كنت أشعر بالتأكيد بشيء من الندامة لما أستثير سخط "ألبيرتين" عليّ إلى هذا الحدّ وأقول في نفسي: "لو كنت لا أحبّها لأبدت لي امتناناً أعظم إذ ما كنت لأبدي قسوة عليها. ولكن لا، فالأمور ستتوازن لأنّي سوف أكون أقلّ لطفاً." ولعلّني كنت أستطيع، بغية تبرير نفسي أن أقول لها إني

أحبّها. ولكنّ الإقرار بهذا الحبّ، بالإضافة إلى أنّه ما كان أطلع "ألبيرتين" على شيء، ربّما كان أولاها فتوراً تجاهي أعظم من صنوف القسوة والمكر التي كان الحبّ بالضبط عذرها الوحيد. وكم هو طبيعيّ أن تكون قاسياً وماكراً تجاه من تحب! فإن لم يَحلُ الاهتمام الذي نظهره للآخرين دون أن نكون لطفاء معهم ومتساهلين مع ما يرغبون فيه فلأنّ ذاك الاهتمام كاذب. فالغير موضع لا مبالاتنا واللامبالاة لا تدعو إلى الإساءة.

كانت الأمسية تمرّ ولم يعد ثمّة، قبل أن تذهب "ألبيرتين" إلى النوم، وقت كثير نضيّعه إن كنّا نبغي إحلال السلام بيننا والعودة ثانية إلى العناق ولم يكن أيّ منّا اتّخذ بعد المبادرة إلى ذلك.

وإذ شعرت بأنّها مغتاظة كائنة ما كانت الحال فقد أفدت من ذلك كي أحدّثها عن "إيستير ليفي". "لقد قال لي "بلوك" (وما كان الأمر صحيحاً) أنّك عرفت تمام المعرفة ابنة عمّه "ايستير". فقالت "ألبيرتين" بلهجة مبهمة: "لعلّني حتّى لا أتعرّفها". فأضفت غاضباً: "لقد رأيت صورتها." وما كنت أنظر إلى "ألبيرتين" وأنا أقول ما أقول، وهكذا لم أبصر ملامح وجهها ولعلّها كانت جوابها الوحيد إذ لم تقل شيئاً.

ما كنت أشعر به بالقرب من "ألبيرتين" في تلك الأمسيات لم يعد الهدوء الذي كانت توليني إيّاه قبلة أمّي في "كومبريه"، بل على العكس قلق الأمسيات التي تكاد لا تقول لي فيها "طاب مساؤك" أو حتّى لا تصعد إلى غرفتي إمّا لأنّها غاضبة منّي أو لانشغالها بمدعوّين. ذلك القلق، لا صورته المنقولة إلى نطاق الحبّ، لا، بل ذلك القلق نفسه الذي اختصّ إلى حين بالحبّ وعندما وقع اقتسام الأهواء وقسمتها كان وقفا عليه وحده إنّما كان يبدو الآن من جديد وكأنّه يمتدّ إليها جميعها، وقد عاد فأضحى مشاعاً كحاله في طفولتي، كما لو أن مشاعري كلّها، وكانت ترتجف مخافة أن لا تستطيع الاحتفاظ بـ"ألبيرتين" بالقرب من سريري كعشيقة وأخت وابنة وكذلك كأمّ عدتُ أحسّ بالحاجة الصبيانيّة إلى تحيّتها المسائيّة اليوميّة، أخذتْ تتجمّع وتتوحّد في مساء حياتي المبكّر، حياتي التي بدا أنّها لابدّ ستكون قصيرة قصر يوم شتويّ. ولئن كنت أحسّ بقلق طفولتي فإن تبدّل الشخص الذي كان يُشعرني به واختلاف العاطفة التي يوحي بها والتحوّل في طباعي ذاتها كانت كلّها تجعل من المستحيل عليّ أن أطالب "ألبيرتين" بتهدئته كما أطالب والدتي بالأمس. ما عدت أعرف من بعد أن أقول: "إنيّ حزين". كنت أجتزئ، والغمّ يقتلني، بالحديث عن أمور لا شأن لها ولا تيسّر لي إحراز أيّ تقدّم باتّجاه حلّ سعيد. كنت أراوح مكاني في إطار تفاهات مؤلمة. وكنت، بتلك الأنانية الفكريّة التي إن تعلّقت حقيقة لا طائل تحتها أقلّ ما تتعلّق بحبّنا جعلتنا نكرم تكريماً عظيماً ذاك الذي وجدها ربما بمثل المصادفة التي اتّفقت لقارئة "الورق" التي أعلنت لنا عن أمر تافه تحقّق مذ ذاك، كنت قريب الاعتقاد بأن "فرانسواز" تفوق "بيرغوت" و"إيلستير" لأنّها سبق أن قالت لي في "بالبيك": "لن يصيبك من هذه الفتاة غير الغمّ."

كانت كلّ دقيقة تقرّبني من تحيّة "ألبيرتين" المسائيّة التي تلقيها عليّ في النهاية. لكنّ قبلتها هذا المساء، التي غابت هي عنها والتي لم تكن تلتقيني خلّفت لدي قلقاً شديداً إلى حدّ أني أخذت أنظر

إليها، خافق الفؤاد، وهي تمضي حتى الباب وأنا أفكرّ قائلاً: "إن شئت أن ألقى حجّة لاسترجاعها والإمساك بها ومصالحتها فلابدّ من العجلة، فليس إلا بضع خطوات بعدُ وتكون خرجت من الغرفة، ليس سوى خطوتين، سوى واحدة، إنّها تدير القبضة وتفتح، لقد فات الأوان وأغلقت الباب!". ومع ذلك، ربّما لم يفت الوقت بعد كثيراً. كنت أريد، كحالي بالأمس في "كومبريه" بعدما تفارقني أمي دون أن تكون هدّأت من روعي بقبلتها، الانطلاق في إثر "ألبيرتين"، وأحسّ أنْ لن يحالفني الهدوء من بعد قبل أن أعود فألتقيها، وأن هذا اللقاء الثاني سوف يضحي شيئاً مترامياً لم يسبق أن كانه بعد إلى اليوم وأنني، إن لم بمفردي في التخلص من هذا الحزن، ربّما اتخذت العادة المخزية في الذهاب لاستجداء "ألبيرتين". وقفزت من السرير حين كانت هي داخل غرفتها، وأخذت أذرع الممّر جيئة ورواحاً آملاً أن تخرج وتدعوني: وأظلّ لا حراك بي أمام بابها كي لا يتفّق لي أن لا أسمع نداء ضعيفاً، وأعود مقدار لحظة إلى غرفتي أتطلّع إن لم تكن صديقتي نسيت لحسن حظّي منديلاً، حقيبة، شيئاً ما يمكن أن يبدو أنّي أخشى أن تفتقده وكان وفّر لي حجّة الذهاب إلى غرفتها. لا، لا شيء. وأعود للوقوف أمام بابها. ولكن ليس في شق الباب نور من بعد، لقد أطفأت "ألبيرتين" الضوء ونامت: وأظلّ هناك لا حراك بي آملاً ما لست أدري من حظّ لا يُقبل إليّ: وأعود بعد فترة طويلة مجمّد الأطراف لأستلقي تحت أغطيتي وأبكي ما بقي لي من الليل.

لذلك لجأت أحياناً في مثل تلك المساءات إلى حيلة توفّر لي قبلة "ألبيرتين". فإذ كنت أعلم كم كان يعجّل عليها النعاس حالما تستلقي (وتعلم ذلك أيضاً إذ كانت تنزع غريزيّاً حالما تستلقي الخفّ الذي أعطيتها إيّاه وخاتمها الذي تضعه بالقرب منها مثلما تفعل في غرفتها قبلما تنام)، وإذ أعلم كم كان نومها عميقاً واستيقاظها رقيقا كنت أتّخذ حجة لأمضي في جلب حاجة ما وأحملها على الاستلقاء على سريري، فإذا هي نائمة حينما أعود، وأبصر أمامي هذه المرأة الثانية التي تنقلب إليها حالما تكون بمواجهتي تماماً. لكنّها سرعان ما تبدّل شخصيّتها! كنت أتمدّد بالقرب منها وأعود فأراها جانبياً. كان بوسعي أن أضع يدي في يدها وعلى كتفها وعلى وجنتها وتوالي "ألبيرتين" نومها. كان بوسعي أن أمسك برأسها وأقلبه وأطبع عليه شفتيّ وأطوّق عنقي بذراعيها، وتوالي النوم مثل ساعة لا تتوقفّ، مثل حيوان يستمرّ فى العيش أية كانت الوضعيةّ التي يعطاها وكنبتة عارشة، كدوديّة أرجوانية تستمرّ في دفع أغصانها أيّاً كان السند الذي تُسند إليه. وحدها أنفاسها كانت تبدّل فيها كلّ من ملامساتي كما لو أنها كانت آلة أعزف عليها فأجعلها تبعث تنغيمات إذ أستخلص بالنقر على هذا ثمّ على ذاك من أوتارها أنغاماً مختلفة. كانت غيرتي تهدأ إذ أحسّ أن "ألبيرتين" أضحت كائناً يتنفّس وليس شيئاً آخر كما كان تدلّ على ذلك الأنفاس المنتظمة التي هي التعبير عن هذه الوظيفة الفيزيولوجية البحتة التي لا تملك، وهي متهرّبة تماماً. لا سماكة الكلام ولا سماكة الصمت وكانت، في جهلها للشرّ أيّاً كان، وهي الأنفاس المستخلصة من قصب مجوّف أكثر منها من كائن بشري، ومن دنيا النعيم حقاً بالنسبة إليّ أنا الذي يحسّ "ألبيرتين" في تلك اللحظات في مأمن من كلّ شيء، لا على الصعيد الماديّ فحسب، بل على الصعيد الأخلاقي أيضاً، كانت نشيد الملائكة الخالص. وكنت أقول في نفسي فجأة إنّه لابدّ ربّما لأسماء بشريّة كثيرة تحملها الذاكرة من التردّد

داخل هذه الأنفاس.

وأحياناً كان ينضاف إلى تلك الموسيقا الصوت البشريّ. كانت "ألبيرتين" تتلفّظ ببضع كلمات. وكم وددت لو أدرك معناها! كان يتّفق أن يرد على شفتيها اسم شخص سبق أن تكلّمنا عنه وكان يثير غيرتي، ولكن دون أن يولّيني ذلك تعاسة لأن الذكرى التي تجيء به كانت تبدو وكأنها ليست سوى ذكرى الأحاديث التي سبق أن جرت بينها وبيني بهذا الشأن. لكنّها مع ذلك قالت ذات مساء كانت فيه نصف مستيقظة والعينان مطبقتان، قالت برقّة وهي تخاطبني: "أندريه." وكتمت انفعالي وقلت لها ضاحكاً: "أنت تحلمين، فلست "أندريه". وابتسمت بدورها: "ويحك، لا، أردت أن أسألك عمّا قالته لك "أندريه" منذ قليل."

- "عساني ظننت بالأحرى أنّك: كنت مستلقية على هذا النحو بالقرب منها." فقالت لي: "ويحك، لا، إطلاقاً." لكنّها كانت قبل أن تجيبني بذلك قد أخفت مقدار لحظة وجهها بين يديها. ما كانت فترات صمتها إذن سوى حجاب وضروب حنانها السطحيّة كانت مهمّتها أن تحجب في القعر ألفاً من الذكريات لعلّها كانت مزّقت فؤادي- وحياتها إذن كانت ملأى بتلك الواقعات التي تشكّل حكايتها الساخرة وأخبارها الضاحكة ثرثراتنا اليوميّة حول الآخرين، حول من لا نبالي بهم، ولكنّها تبدو لنا، ما دام ثمّة كائن لا يزال تائهاً في حنايا فؤادنا، توضيحاً ثميناً لحياته حتّى لننهب طوعا في سبيل معرفة هذا العالم الخفيّ حياتنا كلها. حينذاك كان نومها يبدو لي بمثابة عالم عجيب مسحور يرتفع فيه بين الحين والحين من أعماق المادّة، وتكادلا تستشف ما وراءها، الإقرار بسرّ لن نفهمه. لكنّ "ألبيرتين" كانت تبدو عادة حين هي نائمة وكأنّما استعادت براءتها. كانت تبدو، في الوضع الذي أعطيتها إيّاه والذي سرعان ما جعلت منه في نومها وضعها، وكأنّما تستودعني ذاتها. لقد فقد وجهها أيّ ملمح من ملامح الحيلة أو السوقيّة وبدا كأنّما بينها وبيني، أنا الذي ترفع صوبه ذراعها وتضع يدها عليه، تسليم كامل وعلاقة لا تنفصم عراها. لم يكن نومها على أيّ حال يفصلها عنّي وكان يبقي فيها فكرة توادّنا. كان من شأنه بالأحرى أن يزيل ما عداه. فكنت أعانقها وأقول إنّي أزمع القيام ببضع خطوات في الخارج فتنفرج عيناها وتقول لي بهيئة مُسْتَعْجِبَة- والليل كان فعلاً قد حلّ-: "ولكن أين أنت ذاهب هكذا يا حبيبي؟" تقول وهي تعلن عن اسمي، وتعود إلى النوم في الحال. وما كان نومها سوى ضرب من الانزواء عن باقي الحياة، سوى صمت مستوي الصفحة تقلع منه بين حين وآخر أقوال رقيقة مألوفة. ولعلّك كنت ألفت بتقريبها بعضها من بعض حديثاً لا مزيج فيه والمودّة الخفيةَ لحبّ خالص. كان هذا النوم الشديد الهدوء يفتنني كما يفتن الأمّ نوم طفلها الهنيّ فتجعل منه مزيّة له. وكان نومها بالفعل نوم طفل. واستيقاظها كان كذلك، طبيعياً رقيقاً، حتّي قبلما تكون عرفت أين هي، إلى حدّ أتساءل معه أحياناً، وقد تملكني الذعر، إن كانت تعوّدت قبل أن تقطن عندي أن لاتنام وحدها وأن تجد أحدهم إلى جانبها أن تفتح عينيها. لكنّ غنجها الطفوليّ كان أقوى. وكنت على غرار الأمّ أيضاً أنذهل من أنّها تستفيق دوماً صافية المزاج إلى هذا الحدّ. وكانت تستعيد وعيها بعد انقضاء بضع لحظات وترد على لسانها كلمات حلوة لا يرتبط بعضها ببعض وهي محض زقزقات.

لقد اتخذ عنقها، بنوع من التبديل، وقلّما تلاحظه عادة فإذا هو الآن مفرط الجمال أو يكاد، اتخذ الأهميّة الضخمة التي فقدتها عيناها اللتان أطبقهما النوم، عيناها، وهما مُحاوري المعتاد، ولا يسعني من بعد مخاطبتهما منذ انسدال الجفنين. ومثلما تهب العينان المغمضتان الوجه جمالاً بريئاً ورزيناً بحذفهما كلّ ما تبالغ النظرات في التعبير عنه، كان ثمّة في الأقوال التي ترد "ألبيرتين" في استيقاظها، وما كانت غير ذات دلالة ولكنّما تقطّعها فترات صمت، جمال خالص لا تشوبه في كلّ لحظة، كما هي حال الحديث، عادات كلاميّة ولا زمات تردّد وآثار عيوب. على أنّي حينما عقدت العزم على إيقاظ "ألبيرتين" إنّما وسعني أن أفعل ذلك دون تخوّف، إذ كنت أعلم أن استيقاظها لن تكون له إطلاقاً صلة بالأمسية التي قضيناها منذ قليل بل سيخرج من نومها مثلما الصبح من الليل. فما إن تتفتّح عيناها وهي تبتسم حتّى تمدّ لي فمها فإذا بي، قبل أن تكون قالت بعد شيئا، قد تذوّقت نداوته مهدِّئةً كما هي نداوة حديقة لا يزال يلفّها الصمت قبل مطلع النهار.

في غد تلك الأمسية التي قالت لي "ألبيرتين" فيها إنّها قد تذهب، ثمّ إنّها لن تذهب إلى منزل آل "فيردوران" استيقظت باكراً وأعلمني ابتهاجي، ولا أزال بعد نصف نائم، أنّ ثمة يوماً ربيعياً أقحم في الشتاء. فقد كان ثمّة فكرٌ شعبية سُطِرَتْ بذكاء لآلات متنوّعة، بدءاً من صور مرمّم البورسلين أو بوق مقشّش الكراسي وانتهاء بناي راعي الماعز الذي كان يبدو في يوم صاح وكأنّه راع من صقليّة، وكانت تنظم الأجواء الصباحيّة تنظيماً طفيفاً على هيئة "افتتاحية ليوم عيد". إن السمع، هذه الحاسّة الرائعة، إنّما يحمل إلينا زحام الشارع الذي يعرض لنا خطوطه جميعها ويرسم سائر الأشكال التي تمرّ عبره فيرينا ألوانها. كانت الستارات المعدنيّة لكلّ من الخبّاز واللبّان، وقد أُنزلت مساء البارحة على سائر احتمالات السعادة الأنثوية، كانت ترتفع الآن مثل البكرات الخفيفة في سفينة تقلع وسوف تنزلق مسرعة في اجتيازها البحر الشفيف على حلم مستخدمات في مقتبل العمر. ولعلّ صوت الستار المعدني ذاك الذي يرفعونه، لعلّه كان ألف متعتي الوحيدة في حيّ مختلف. لكنّما كان مئة غيره تثير بهجتي وما كان بودّي أن أضيّع واحداً منها جرّاء مبالغتي في التأخُّر في النوم. وإنّه لَسحْر الأحياء القديمة الأرستقراطيّة أن تكون إلى جانب صفتها هذه شعبيّة. ومثلما توافر للكاتدرائيات أحياناً في مكان غير بعيد عن بوّابتها (التي اتفق لها أن تحتظ حتّى بالاسم، كحال بوابة كاتدرائيّة "روان" التي دعوها بوّابة "الورّاقين" لأن هؤلاء كانوا يعرضون بضاعتهم في الهواء الطلق أمامها)، كان ثمّة أصحاب مهن صغيرة مختلفة، لكنّهم جوّالون، يمرّون أمام فندق آل "غيرمانت" الرفيع المظهر ويذكرونك بين الحين والحين بفرنسه الأمس الكنسيّة. ذلك لأن النداء الذي كانوا يطلقونه باتجاه البيوت الصغيرة المجاورة لم يكن فيه شيء من الأغنية فيما عدا استثناءات نادرة يسيرة. وكان يختلف عنها قدر اختلاف إنشاد "بوريس غودونوف" و"بيللياس"[(١)]- تلوّنه أو لا تكاد تبدّلات طفيفة جداً: - لكنّه كان يذكرُ من ناحية أخرى بتنغيم الكاهن الرتيب في أثناء طقوس دينيّة لا تشكّل مشاهد الشارع هذه سوى صورتها المقابلة الساذجة السوقية، مع أنّها نصف طقسيّة. ولم أُصِب منها في يوم هذا المقدار

(١) بوريس غودونوف أوبرا من أعمال الموسيقار "موسورغسكي Moussorgsky" وبيللياس وميليزاند من أعمال "دو بوسّي".

من المتعة إلاّ منذ سكنت "ألبيرتين" معي. وكانت تبدو لي بمثابة علامة سارّة لاستيقاظها وتوفّر لي، إذ تصرف اهتمامي إلى الحياة في الخارج، إحساساً أفضل بالميزة المهدِّئة لحضور عزيز عليّ ومستمرّ بقدر ما أشتهي. كانت بعض أصناف الطعام التي ينادون عليها في الشارع، والتي كنت شخصياً أكرهها، كانت محبّبة جداً لـِ"ألبيرتين" إلى حدّ أن "فرانسواز" كانت ترسل فتبتاع منها على يد خادمها الشابّ الذي ربّما أحسّ بشيء من الإذلال لاختلاطه بجمهور العامّة. وفي هذا الحيّ الشديد الهدوء (الذي لم تعد الأصوات فيه مبعث كآبة لـ"فرانسواز" وأصبحتْ فيما يخصّني من دواعي الاستعذاب) كانت تبلغ مسامعي، كلّ بتنغيمه المختلف، ضروب من الإلقاء المُنْشد من جانب عامّة الناس مثلما ربّما وقع ذلك في موسيقا "بوريس" الشديدة الرواج حيث النبرة الأوّلية تكاد لا تغيّر فيها عطفة علامة موسيقيّة تميل على أخرى غيرها، الموسيقا الجماهيرية هذه التي هي لغة أكثر منها موسيقا. كانت من قبيل: "آه! السندانيّة، السندانية بفلسين" التي تسبّب تدافعاً إلى القموع التي تباع فيها هذه المحارات الصغيرة المنفرّة التي كانت لولا وجود "ألبيرتين" أثارت اشمئزازي وما كانت فعلت على أيّة حال أقلّ من الحلزون الذي أسمعهم ينادون عليه في ذات الساعة.

ههنا أيضاً كان البائع إنّما يذكّر بالإلقاء الذي تكاد لا تلوّنه الغنائيّة لدى "موسورغسكي"، وليس بذاك الإلقاء فحسب. ذلك أن بائع الحلزون، بعدما "قال" على وجه التقريب: "الحلزون، إنه طازج، وجميل"، إنّما كان يضيف، بكآبة "ميترلنك" Maeterlinck وجوّه الغامض، وقد نقلهما "دو بوسّي" على الصعيد الموسيقيّ، يضيف في واحدة من تلك الخاتمات الحزينة التي يقترب فيها مؤلّف "بيللياس" من "رامـــو" (Rameau) ("إن انبغى أن أُقهر أفينبغي أن تكون أنت قاهري؟") وبتنغيم كئيب: "نبيعها بستّة فلوس للدزينة الواحدة.."

لقد أعسر دائما عليّ أن أدرك لماذا كانت تلك الكلمات البالغة الوضوح يُهْمَسُ بها بلهجة لا تلائمها إلى هذا الحدّ وغامضة كالسرّ الذي يُكسب الجميع مظهراً حزيناً في القصر القديم الذي لم تفلح "ميليزاند" في إشاعة الفرح في ربوعه، وعميقة كفكرة للعجوز "أركيل"(١) الذي يحاول أن يعلن بكلمات بسيطة جداً عن كامل الحكمة وعن القدر. كانت العلامات الموسيقيةّ نفسها التي يرتفع بها بعذوبة متعاظمة صوت ملك "ألْمُنْد" العجوز أو "غولو"(٢) ليعلن: "لسنا ندري ما هو قائم هنا. يمكن أن يبدو ذلك غريباً. فقد لا يكون ثمّة أحداث عديمة الجدوى"، أو "ينبغي أن لا نرتاع... لقد كان مخلوقاً صغيراً مسكيناً وغامضاً كسائر الناس"، كانت تلك التي يستخدمها بائع الحلزون ليعيد في غنوة لا تنتهي: "نبيعها بستّة فلوس للدزينة الواحدة..." لكنّما لم يكن يتّسع الوقت لذاك الانتخاب الماورائي ليلفظ أنفاسه على حافة اللانهاية إذ كان يقطعها بوق نزق. لم يكن الأمر في هذه المرّة أمر مآكل، إذ تلك كانت أقوال كرّاس المغناة: "جزَّ الكلاب واخصِ الهررة واقطع الأذناب والآذان."

---

(١) هو ملك "ألمند" في أوبرا "بيللياس وميليزاند" لـِ"دوبوسّي"

(٢) ابن "أركيل".

صحيح أن خيال وروح كلّ بائع أو بائعة كانا يُدخلان في الغالب بدائل في كلمات سائر هذه الألحان التي كنت أسمعها من سريري. لكنّ وقفة طقوسيّة تضع ساكناً في وسط كلمة ما ولا سيّما إن هي كُرِّرت مرّتين كانت تذكر باستمرار بالكنائس القديمة. كان بائع الثياب بسوطه الذي يحمله يرتل في عربته الصغيرة التي تجرّها حمارة يوقفها أمام كلّ منزل ليدخل إلى الباحات: "ثياب، بائع ثياب، ثيـ...ياب" معتمداً ذات الوقفة بين المقطعين الأخيرين لكلمة ثياب كما لو أنّه كان باشر في الترتيل الكنسي: "الآن في دهرالدا... هرين" أو "فلير... قد بسلام" على الرغم من أنّه لابدّ ما كان يؤمن بأزليّة ثيابه وما كان كذلك يهديها أكفاناً للراحة الكبرى بسلام. ولما كانت اللازمات الموسيقية آخذة في التداخل منذ هذه الساعة الباكرة، كذلك كانت بائعة الفصول الأربعة تدفع عربتها وتستخدم في لائحة "طلباتها" التقسيم الغريغوري[١]:

"إلى الغضاضة، إلى الخضرة

أرضي شوكي غضّ وحلو

أرضي شوكي"

مع أنّها كانت على الأرجح جاهلة بكتاب ألحان القدّاس وبالألحان السبعة التي يرمز أربعة منها إلى رباعية العلوم وثلاثة إلى ثلاثيتها[٢].

وثمة رجل بصدار يستنبط من ناي من قصب، من مزمار قرب ألحاناً من بلاده الجنوبيّة التي يتوافق نورها تماماً وأيّام الصحو، ويحمل بيده سوطاً ويعتمر طاقيّة جماعة الباسك، ويتوقّف أمام المنازل إنّه راعي الماعز يصحبه كلبان وأمامه قطيع الماعز. وكان إذ يجيء من مكان بعيد يمرّ في حيّنا متأخراً بعض الشيء. وتهرع النساء بقصعة لجمع الحليب الذي سيوفر القوّة لصغارهنّ. لكنمّا أخذ يمتزج مذذاك بألحان "جبال البيرينيه" التي يطلقها هذا الراعي المحسن إلينا صوت جرس المجلّخ الذي كان يصيح قائلاً: "سكاكين، مقصّات، أمواس". وما كان مشحّذ المناشير بقادر على مقارعته إذ كانت تعوزه الأداة فيكتفي بالنداء "هل لديكم مناشير بحاجة للشحذ، هو ذا الشحّاذ". فيما كان المبيض، وهو أشدّ مرحاً، وبعد عدّ القدور والطناجر وكلّ ما يبيّضه، كان يرفع صوته باللازمة:

تام، تام، تام

أنا أنا من يبيّض

حتّى حصباء الطرق المرصوفة

أنا من يضع قعوراً في كل مكان

---

(١) إشارة إلى الألحان السبعة في الموسيقا الغريغورية.

(٢) رباعيّة العلوم لدى القدماء هي علوم الحساب والفلك والهندسة والموسيقا. أمّا الثلاثية فالقواعد والبلاغة والجدليّة.

ويسدّ كلّ الثقوب

قوب، قوب، قوب:

وإيطاليون قصار يحملون علباً حديدية كبيرة مطليّة باللون الأحمر سُجلت عليها الأرقام الخاسرة والرابحة كانوا يعرضون قائلين وهم يهزّون مُخَشْخشات: "هيّا إلى اللهو سيّداتي، فها هي المتعة."

وجاءتني "فرانسواز" بصحيفة "الفيغارو". وسمحت لي نظرة واحدة خاطفة أن أتبيّن أن مقالتي لم تكن بعد مرّت. قالت لي إن "ألبيرتين" تسأل إن لم يكن باستطاعتها الدخول إلى غرفتي وقد أرسلت تقول لي إنّها في جميع الأحوال عدلت عن القيام بزيارة لأسرة "فيردوران" وإنّها تنوي الذهاب حسبما أشرت عليها إلى حفلة "التروكاديرو" المسائية "الاستثنائيّة" (وهي ما ربّما دعوناها اليوم، ولكن بقدر من الأهميّة أقلّ كثيراً، حفلة مسائية احتفاليّة) بعد نزهة قصيرة على ظهور الخيل ينبغي أن تقوم بها برفقة "أندريه". أمّا وقد عرفتُ الآن أنّها عدلت عن رغبتها الخبيثة ربّما في الذهاب للقاء السيدّة "فيردوران" فقد قلت ضاحكاً: "فلتأت"، وقلت في نفسي إنّها تستطيع الذهاب حيثما شاءت وإنّ الأمر واحد عندي. كنت أعلم أنيّ في أواخر بعد الظهر وحينما يحل الغسق سوف أصبح دون شك رجلاً آخر حزيناً يعلّق على أقلّ حركات "ألبيرتين: من جيئة ورواح أهميّة ما كانت تملكها في هذه الساعة الصباحيّة وحين الطقس جميل إلى هذا الحدّ. ذلك أنّ لا مبالاتي كانت تعقبها فكرة سببها الواضحة ولكن دون أن تفسدها. "لقد أكدت لي" "فرانسواز" أنّك مستيقظ وأنّي لن أكون مصدر إزعاج لك"، تقول "ألبيرتين" وهي داخلة. ولمّا كانت أعظم خشية لـ"ألبيرتين"، إلى جانب خشيتها أن تتسبب لي بالبرد بفتح نافذتها في فترة غير ملائمة، أن تدخل إلى غرفتي في أثناء نومي أضافت تقول: "آمل أني لم أكن مخطئة، فقد كنت أخشى أن تقول لي:

"أيّ امرئ وقح جاء يبحث عن حتفه؟"

وضحكت تلك الضحكة التي كانت تشيع فيّ اضطراباً عظيماً. وأجبتها باللهجة المازحة نفسها:

"وهل يعنيك أنت هذا الترتيب البالغ القسوة؟" وأضفت قولي، مخافة أن تخرقه ذات مرّة: "على أنّي ربّما استشطت غيظاً إن أنت أيقظتني." فقالت "ألبيرتين": "أدري، أدري، فلاتخف". وأضفت، بغية التلطيف، وأنا أوالي معها تمثيل مشهد "ايستير"، فيما تتوالى في الشارع الصيحات التي جعلها حديثنا مشوشة تماماً: "وما أجد إلاّ لديك ما لست أدري من سحر يفتنني على الدوام ولا أملّه في يوم"، (وكنت أفكّر في نفسي قائلاً: "بلى، إنّها كثيراً ما تورثني الملل"). وإذ تذكرت ما سبق أن قالته البارحة قلت وأنا أبالغ في شكرها أنْ تخلّت عن آل "فيردوران" وبغية أن تطيعني الطاعة نفسها في مرّة ثانية في هذا الأمر أو ذاك: "ترتابين منيّ يا "ألبيرتين" أنا الذي يحبّك وتثقين بأناس لا يحبّونك" (كما لو لم يكن طبيعياً أن ترتاب بمن يحبّونك والذين لهم وحدهم مصلحة في الكذب عليك ليعرفوا، ليحولوا دون أمر ما)، وأضفت هذه الأقوال الكاذبة: "لست تصدّقين في الأساس أنّي أحبّك، والأمر غريب. وإنّي بالفعل لا "أعبدك". وكذبت بدورها إذ قالت إنّها لا تثق إلاّبي، وكانت صادقة

بعدها إذ أكدّت أنّها تعلم أنّي أحبّها. لكنمّا لم يكن يبدو أن ذلك التوكيد يقتضي أنّها لا تصدّق أنّي كذّاب وأنّي أرقبها. وكان يبدو أنّها تغفر لي كما لو أنّها أبصرت في ذاك النتيجة التي لاتطاق لحبّ كبير أو كما لو أنها ألفت نفسها أقلّ طيبة.

"رجوتك يا صغيرتي العزيزة، لا بهلوانيات من مثل ما فعلت ذلك اليوم. فكري يا "ألبيرتين"، إن وقع ذلك مكروه!" وما كنت أتمنّى لها بالطبع أيّة أذيّة. ولكن يا لها متعة لو خطرت لها مع أحصنتها خاطرة طيبّة فتذهب إلى حيث لا أدري وحيث تكون أصابت متعة وأن لا تعود من بعد في يوم إلى المنزل! وكم لعلّ ذلك كان بسّط كلّ شيء، عنيت أن تمضي للعيش سعيدةً في مكان آخر، وما كنت أهتمّ حتّى أن أعلم أين! "آه! أعلم تمام العلم أنّك لن تعيش من بعدي ثمانية وأربعين ساعة وأنّك ربما قتلت نفسك."

وهكذا تبادلنا أقوالاً كاذبة. إلاّ أن حقيقة أكثر عمقاً من تلك التي ربّما جهرنا بها لو كنّا صادقين يمكن التعبير عنها والتنبؤ بها أحياناً بوسيلة أخرى غير وسيلة الصدق.

وسألتني قائلة: "أليست تزعجك كلّ هذه الأصوات في الخارج؟ أمّا أنا فأعشقها، ولكن أنت على ما أنت من نوم خفيف؟" كان نومي على العكس عميقا جداً أحياناً (مثلما سبق أن قلت، ولكن مثلما يضطرّني الحادث الذي سيلي إلى التذكير به) ولا سيّما حين كنت أغفي في الصباح فقط. ولما اتفق أن يكون مثل هذا النوم - وسطيّاً- أربع مرّات أوفر راحة فإنّه يبدو لمن نام تواً أنّه كان أربع مرّات أطول فيما هو أربع مرّات أقصر. فما أروعه خطأً لعمليّة ضرب بستّة عشر تولي الاستيقاظ هذا القدر من البهاء وتدخل في الحياة تجديداً حقيقياً يشبه تلك التغييرات الكبيرة في الإيقاع التي من شأنها في الموسيقا أن تحمّل ذات السنّ في الإيقاع المعتدل (أندانتيه) زمناً يساوي البيضاء في الإيقاع السريع جداً (بريستيسيمو)(١) والتي لا تعرفها اليقظة. فالحياة فيها تقرب أن تكون ذاتها على الدوام، ومن هنا تنجم خيبات السفر. مع أنّه يبدو تماما أن الحلم مصنوع أحياناً من مادّة الحياة الأكثر بدائية، ولكن هذه المادّة تعالج فيه وتعجن إلى حدّ أنّك، بالمطّ الناجم عن أنّه ليس يحول حدّ من الحدود الساعيّة في حال اليقظة دون أن تتسحب حتّى ارتفاعات شاهقة، لا تتعرّفها. وفي الصباحات التي حلّ بي فيها ذاك القدر، ومسح النوم فيها من دماغي علامات المشاغل اليوميّة المختطّة فيه وكأنّما على لوح أسود، كان لابدّ لي من إذكاء ذاكرتي: والمرء يستطيع بوتائر إراديّة عالية أن يتعلّم ما أنساه إيّاه غياب الذاكرة في النوم أو أيّة سكتة وما يعود فينبعث شيئاً فشيئاً كلما انفتحت العينان أو زال الشلل. وكنت قد عشت في غصون بضع دقائق عدداً كبيراً من الساعات إلى حدّ أنني حين أردت أن أوجّه إلى "فرانسواز"، وكنت أنادي عليها، كلاماً يتفق والواقع ويطابق الساعة كنت أراني مضطراً لاستخدام كامل طاقة الضغط الداخلية لديّ كي لا أقول: "ويحك يا "فرانسواز"، ها إننا في الساعة الخامسة مساء ولم أرك منذ عصر البارحة" وكيما أطرد أحلامي. وكنت أقول، بما يناقضها وأنا أكذب

(١) Andante, Prestissimo.

على نفسي، كنت أقول بوقاحة، وأنا أصمت نفسي بكامل قواي، أقوالاً مناقضة: "فرانسواز، إنّها العاشرة بالتأكيد!" وما كنت حتّى أقول العاشرة صباحاً، بل العاشرة فحسب كي يبدو أنّ هذه الساعة العاشرة الصعبة التصديق إنّما يتلفظ بها بلهجة أكثر تلقائية. على أن الإدلاء بهذه الأقوال بدلاً من تلك التي كان يوالي التفكير بها النائم الذي كنته بعد وكدت لم أستيقظ كان يقتضيني ذات الجهد في التوازن الواجب على من يقفز من القطار أثناء سيره فيجري لحظة على امتداد السكّة ويفلح مع ذلك في تفادي السقوط. إنّه يجري لحظة لأن الوسط الذي يغادره كان وسطاً تحركه سرعة كبيرة ويختلف اختلافاً عظيماً عن الأرض الساكنة التي تصادف قدماه بعض الصعوبة في تعوّدها. وليس ينجم عن أن عالم الحلم ليس عالم اليقظة أن يكون عالم اليقظة أقلّ حقيقة، بل على العكس. فإن إحساساتنا في عالم النوم مثقلة، كل يسمك بآخر فوقه يضاعفه ويعميه دونما طائل، إلى حدّ لا نعرف معه حتّى أن نميز ما يجري في ذهول الاستيقاظ: أتراها "فرانسواز" التي جاءت أم أنا من مضى إليها بعدما مللت مناداتها؟

والصمت في تلك اللحظة كان الوسيلة الوحيدة نكشف عن أي شيء مثلما هو الأمر حين يوقفك قاض أحيط علماً بظروف تتعلق بك ولكنك لم توضع أنت في سرّها. أهي "فرانسواز" التي جاءت أم أنا من نادى؟ بل أما كانت "فرانسواز" هي النائمة وأنا من أيقظها تواً؟ وأكثر من ذلك، ألم تكن "فرانسواز" مسجونة داخل صدري، بما أنه لا وجود تقريباً لتمييز الأشخاص وتفاعلهم في هذه العتمة المبهمة حيث الحقيقة،بمثل قلة شفافيتها في جسم الشيهم وحيث الإدراك الحسّي المعدوم تقريباً ربما استطاع تزويدنا بفكرة عن إدراك بعض الحيوانات؟ ولئن طفت، على أي حال، حتّى على صفحة الجنون الصافية التي تسبق النوم تلك الأكثر ثقلاً، لئن طفت بجلاء قطع من التعقّل، ولم يكن اسما "تين" (Taine) و"جورج إيليوت"(Geroge Elliot) مجهولين فيها فليس يقلل ذلك من تفوق عالم اليقظة بأنّه يمكن استمراره كل صباح ولا يستطيع الحلم ذلك كل مساء. ولكن ربما كان ثمة عوالم أخرى أكثر حقيقة من عالم اليقظة. ثم إننا رأينا، حتّى فيما يخص هذا الأخير،أن كلّ ثورة في الفنون إنّما تبدلّه ، أضف إلى ذلك في الوقت نفسه درجة الكفاءة أو الثقافة التي تميز الفنّان عن الأحمق الجاهل.

وغالباً ما تكون ساعة نوم زائدة نوبة شلل ينبغي بعدها أن نستعيد استخدام أعضائنا وأن نتعلّم الكلام ثانية. وقد لا تفلح الإرادة في ذلك؛ لقد بالغنا في النوم فما عاد لنا وجود. واليقظة نكاد لا نحسّها آلياً، ودونما وعي، مثلما يمكن أن يكون أمر إغلاق صنبور داخل قسطل. ويعقب ذلك حياة أقلّ وعياً من حياة المدوسة ربّما خيّل للمرء فيها أنّه يّستخرج من قاع البحار أو يعود من الأشغال الشاقة لوتيسّر له فقط أن يفكّر في شيء. ولكنّ إلهة الذاكرة تنحني إذاً من علياء سمائها وتمدّ لنا أمل القيامة على شكل "تعوّدَ المرء طلب القهوة بالحليب". ثم إنّ هبة الذاكرة المفاجئة ليست دائماً بمثل هذه البساطة. فكثيراً ما يتوفر للمرء بالقرب منه في هذه الدقائق الأولى التي ينزلق فيها في اليقظة تشكيلة من حقائق مختلفة يظنّ المرء أنّه قادر على الاختيار منها كما هو الحال في لعبة ورق. فالوقت

صباح الجمعة ونحن عائدون من نزهة، أو هي ساعة تناول الشاي على شاطئ البحر. ويغلب أن تكون فكرة النوم وأننا نرقد بقميص النوم آخر ما يوافيك. والانبعاث لا يجيء في الحال، فإنّه يخيّل إلينا أننّا قرعنا الجرس فيما لم نفعل، وتتنازعنا أقوال مجنونة. والحركة وحدها هي التي ترُجع لنا التفكير، وبعدما ضغطنا بالفعل على الإجّاصة الكهربائية أمكننا أن نقول ببطء، ولكن بوضوح: "إنّها العاشرة بالفعل، فإليّ بالقهوة بالحليب يا "فرانسواز"".

فيا لها أعجوبة! لم تستطع "فرانسواز" أن ترتاب بخضمّ الأوهام الذي كان يغمرني كلياً والذي توافر لي العزم لتمرير سؤالي الغريب عبره. فقد ردّت عليّ قائلة: "إنّها العاشرة وعشر دقائق"، الأمر الذي كان يُكسبني مظهراً معقولاً ويسمح لي بأن أحول دون تبيّن الأحاديث الغريبة التي أخذتني دوّامتها طويلاً جداً (في الأيّام التي لم يستلّ حياتي مني جبل من العدم). لقد عدت، بفرط العزيمة فانخرطت في الواقع. كنت لا أزال أتمتّع ببقايا النوم، وأعني بها الاختراع الوحيد والتجديد الوحيد الكائن في طريقة الرواية فإن صنوف السرد جميعاً في حال اليقظة، وإن جمّلتها الآداب، لا تتضمّن هذه الاختلافات الغامضة التي يُستمدّ منها الجمال. من اليسير التحدّث عن الجمال الذي ينشئه الأفيون. لكنّ ساعة هي متوقّعة من النوم الطبيعي سوف تكشف لرجل تعوّد أن لا ينام إلاّ بالعقاقير المساحة الصباحيّة الشاسعة لمنظر يتّسم بالغموض نفسه وأوفر برودة. وإنّنا بتغيير الساعة والمكان اللذين ننام فيهما وبإحداث النوم بصورة مصطنعة أو على العكس بالعودة يوماً واحداً إلى النوم الطبيعي- وهو الأوفر غرابة منها جميعاً بالنسبة لمن تعوّد النوم باللجوء إلى المنوّمات- نستطيع الحصول على أنواع من النوم ألف مرّة أكثر عدداً ممّا قد يتوافر لنا، بستانيّين، من أنواع القرنفل أو الورد. والبستانيونّ يحصلون على أزهار هي أحلام عذبة، وعلى أخرى غيرها أيضا تشبه الكوابيس. وحينما كنت أغفي بطريقة ما كنت أستفيق وأنا أرتجف برداً وأظنّ أني مريض بالحصبة أو أنّ جدّتي، والأمر أشدّ إيلاماً (جدتي التي ما عدت أفكّر بها البتّة)، كانت تتألم إذ سبق لي أن سخرت منها يوم أرادت في "بالبيك"، وتظنّ المنيّة وافتها، أن يكون لدي صورة شمسيّة لها. وسرعان ما كنت أودّ، مع أنّني مستيقظ، أن أمضي لأبيّن لها أنّها لم تفهمني. ولكنيّ كنت مذذاك أستعيد الدفء، وتخمين الحصبة قد استُبْعد، وأصبحت جدّتي بعيدة عنّي إلى حدّ لم تعد معه تبعث الألم في فؤادي.

وأحياناً تحلّ ظلمة مفاجئة على صنوف النوم المختلفة تلك. فكان يعتريني الخوف إذ أطيل في نزهتي في شارع عريض مظلم كلّه أسمع فيه خطى متسكّعين. ويرتفع على نحو مفاجيء صوت جدال بين شرطيّ وواحدة من تلك النساء اللاتي كثيراً ما كنّ يمارسن مهنة القيادة وتظنّهنّ من بعيد من الحوذيّين الشباب. وما كنت أبصرها فوق مقعدها الذي تحيق به العتمة، لكنّها كانت تتكلّم وكنت أقرأ في صوتها كمالات وجهها وصبا جسدها. وأمضي إليها في الظلام كي أستقلّ عربتها قبل أن تقلع ثانية. والمسافة بعيدة؛ لكن الجدال لحسن الحظّ كان يتطاول مع رجل الشرطة، فألحق بالسيّارة ولا تزال واقفة. ويضاء هذا القسم من الشارع بمصابيح، وتضحي السائقة واضحة للعين. لقد كانت بالضبط امرأة، ولكنّها عجوز مديدة القامة قويّة البنية ولها شعور بيضاء تندفع من تحت عمرتها

وبثور حمراء تحفر وجهها. وولّيت الأدبار وأنا أفكّر قائلاً: "أفهكذا هو أمر صبا النساء؟ واللواتي التقيناهنّ هل أضحين، إن نحن رغبنا فجأة في لقائهنّ ثانية، مسنّات؟ هل المرأة التي نشتهيها هي على غرار الأدوار المتشابهة في المسرح حيث يضطرّنا تغيّب واضعات الدور إلى أن نعهد به إلى نجمات جديدات؟ ولكنّها لم تعد ذاتها آنذاك"

ثمّ يجتاحني جوّ من الكآبة. وهكذا يتوافر لنا في النوم نماذج كثيرة من "الشفقة"، على غرار لوحات "المنتحبة" (Pietà)[1] في عصر النهضة، لكنّها ليست منفّذة مثلها في المرمر، بل هي على العكس لا قوام لها. لكنّما لها جدواها وهي حملنا على تذكّر رؤية للأشياء أكثر رقّة وأوفر إنسانية وكثيراً ما تسول لنا النفس أن ننساها في تعقّل اليقظة البارد الذي يفيض عداء في بعض الأحيان. من هذا القبيل كانت تردني ذكرى العهد الذي قطعته على نفسي في "بالبيك" بأن أحافظ دائماً على شفقة "فرانسواز". وسأعلم كيف أجهد على مدى كامل هذا الصباح أن لا أغتاظ من مشاحنات "فرانسواز" ورئيس الخدم وأن أكون رفيقاً بـ"فرانسواز" هي التي يخصّها الآخرون بالقليل القليل من الرفق. في هذا الصباح فقط؛ وينبغي لي أن أسعى إلى وضع نظام يكون أكثر استقراراً بعض الشيء. فإنّه مثلما لا تحكم الشعوب طويلاً سياسة قوامها العاطفة البحتة كذلك لا يُحْكَمُ الناس بذكرى أحلامهم. وحلمي الأخير أخذ مذذاك يتوارى، وكنت في سعيي إلى استرجاعه لأغراض الوصف أحمله على الهرب بسرعة أكبر. فلم يعد جفناي يُحكمان إغلاق عينيّ بتلك القوّة ذاتها، وإن حاولت استعادة حلمي فسوف تنفتحان تماماً. لابدّ في كلّ حين من الاختيار بين الصحّة والتعقّل من جهة والمتع الروحيّة من جهة أخرى. وقد جبنت دوماً فاخترت الجانب الأوّل. والسلطان الخطر الذي كنت أتخلّى عنه كان بعدُ على أيّة حال أكثر خطراً ممّا يظنّون. فصنوف الشفقة والأحلام لا تتلاشى وحدها فليست الأحلام وحدها، إمّا غيّرنا على هذا النحو الظروف التي يجرى النوم فيها، هي التي تتبدّد، بل كذلك، وعلى مدى أيّام طويلة وأحياناً على مدى سنوات، القدرة لا على الحلم فحسب بل على النوم أيضاً. إن النّوم إلهيّ ولكنّه قليل الاستقرار وأقلّ صدمة تجعله طيّاراً. وإذ هو صديق العادات فإنّها تمسك به كلّ مساء، إذ هي أكثر ثباتاً منه، في مكانه المكرّس، وتقيه أيّة صدمة. ولكنّما إن بُدّلت مكاناً ولم يعد هو تحت سيطرتها فإنّه يتبدّد كالدخان. إنّه يشبه الشباب والحبّ ولست تجده من بعد.

وإنّما تزايد أو تناقص الفواصل الزمنيّة هو الذي كان يخلق الجمال في أنواع النوم المختلفة هذه كما هي الحال في الموسيقا أيضاً. كنت أنعم بذاك الجمال بيد أني كنت فقدت في المقابل في هذا النوم، وإن يكّ قصيراً، جزءاً لا يستهان به من الأصوات التي تحمل إلينا الإحساس بحياة المهن الجوّالة والأغذية في باريس. لذلك كنت أجهد عادةً (دون أن أتوقّع للأسف المأساة التي لابدّ ستجرّها عليّ مثل هذه الإفاقات المتأخّرة والقوانين الصارمة الفارسيّة التي لأحشورش "الراسيني"[2] الذي كنته) في

---

(١) لوحات لرسّامين إيطاليين في عصر النهضة تمثّل انتحاب السيّدة العذراء على ولدها بعد إنزاله عن الصليب.

(٢) أحشورش ملك الفرس على نحو ماورد في رواية "إيستير" للمسرحيّ الفرنسي الكبير "جان راسين" لا في الرواية التاريخية.

الاستيقاظ باكراً كي لا اضيّع شيئاً من تلك الأصوات. فإني، إلى جانب متعة معرفتي بالميل الذي تبديه لها "ألبيرتين" وخروجي بنفسي خارجاً فيما أظلّ مستلقياً، كنت أسمع فيها ما يشبه رمز الجوّ في الخارج والحياة المضطربة الخطرة التي ما كنت أدع لها أن تطوف أرجاءها إلاّ تحت وصايتي، في امتداد خارجي للاحتجاز، والتي كنت أخرجها منها ساعة أشاء لأعيدها بالقرب منّي.

لذلك وسعني أن أجيب "ألبيرتين" أصدق ما تكون الإجابة: "إنّها على العكس تروقني لأنّي أعلم أنّك تحبّينها". "في القارب المحار، في القارب".- "آه! المحار، كم أشتهيه!" كانت "ألبيرتين" لحسن الحظ سرعان ما تنسى ما سبق أن اشتهته، فنصف جرّاء التقلّب والنصف لين عريكة، وقبلما يتسنّى لي الوقت لأقول لها إنّها قد تحصل على أفضل منه لدى "برونييه" كانت تريد على التوالي كلّ ما كانت تسمع بائعة السمك تنادي عليه: "إلى القريدس، إلى القريدس الطيّب، عندي شفنين بحري لا يزال حياً، هو حيّ بعد."- "غُبر للقلي، غبر للقلي."- "ها قد وصل الاسقمري، الاسقمري الطازج، الاسقمري الجديد. والطيّب، يا بلح البحر!" كان الإعلان التالي: "ها قد وصل الاسقمري يبعث الرعدة في أوصالي على الرغم منيّ[1]. ولكن لمّا كان هذا الإعلان لا يمكن فيما يبدو لي أن ينطبق على سائقي فما كنت أفكّر إلاّ في السمكة التي كنت أكرهها ولا يستمرّ قلقي. وقالت "ألبيرتين": "بلح البحر، كم أودّ أكل بلح البحر."- "يا حبيبتي، كان ذلك في "بالبيك" أمّا هنا فلا يساوي شيئا. وعلى أيّ حال تذكّري، رجوتك، ما قاله لك "كوتار" بخصوص بلح البحر." لكنّما كان يزيد من سوء وقع ملاحظتي أن بائعة الخضار الجوّالة التالية كانت تعلن عن شيء يحرّمه "كوتار" بعدُ أكثر:

"الخسّ البلدي، الخسّ البلدي!

لا نبيعه بل نجول به."

وتوافقني "ألبيرتين" مع ذلك على التضحية بالخسّ البلدي بشرط أن أعدها بالمبادرة بعد بضعة أيّام إلى الشراء من البائعة التي تعلن صائحة: "لديّ هليون "آرجنتوي" الظريف، لديّ الهليون الظريف". وكان صوت غامض، ربّما كان يُتَوقَّع منه عروض أكثر غرابة، يلمّح صائحاً: "براميل، براميل!" وكان لزاماً أن لا تبرح خيبة أملك من أن يقتصر الأمر على البراميل لأن هذه الكلمة كانت تغطيّها تغطية كاملة تقريباً الدعوة التالية: "بائع الزجاج، بائع ال ـزّجاج، هو ذا بائع الزجاج، بائع الزّجاج"، والتقسيم غريغوري[2] ذكّرني مع ذلك بالقدّاس أقلّ ممّا فعل نداء بائع الخرق وهو يقلّد دون علم منه واحداً من تلك الانقطاعات المفاجئة في التصويت في أثناء بعض الصلوات، وهي كثيرة الورود إلى حدّ ما في طقوس الكنيسة: "Praeceptis Solutoribus moniti et divina institutione formati audemus dicere" (بعدما تعلّمنا أوامره الخلاصيّة وتهذّبنا بتعاليمه الإلهيّة نتجرأ أن

(١) اسقمري في الفرنسيّة تعني كذلك القوّاد، وهو ما يثير مخاوفه.

(١) إشارة إلى قواعد الترتيل الكنسيّ التي وضعها البابا غريغوريوس الكبير الذي توليّ البابوية بين ٥٩٠ و٦٠٤. لكنّ الترتيل الغريغوري جاء في الحقيقة بعد هذه الفترة.

(٣) الكلمات التي تسبق الصلاة الرّبانية: "أبانا الذي في السماوات..."

نقــول)[٣]، يقول الكاهن وهو ينهي كلامه بنزق بكلمة "Dicere". ومثلما كان الشعب التقيّ في العصر الوسيط يمثّل في باحة الكنيسة نفسها مشاهد التهريج أو النقد اللاذع، فإنّما تذكرّ "Dicere" (قال) هذه، ودون مقصد وقح، ببائع الخِرقَ حينما يقول المقطع الأخير، بعدما تباطأ على الكلمات، بنزق خليق بالنبر الذي وضع قواعده البابا الكبير في القرن السابع: "خرق، حدائد للبيع (والكلّ مرتّل ببطء كما هو أمر المقاطع التالية، في حين يقطع الأخير بنزق أكثر من "dicere")، جلود أرا-نب". "بالانسيا، بالانسيا الظريفة، البرتقال الطازج"، والكرّاث المتواضع هو أيضاً: "إليكم الكرّاث الظريف"، والبصل: "البصل عندي بثمانية فلوس"، كلّها كانت تتلاطم بالنسبة إليّ تلاطم صدى لأمواج لعلّ "ألبيرتين" كان يمكن أن تضلّ فيها لو كانت طليقة، وتتّخذ بذلك عذوبة "Suave mari magno" (كم يحلو حين تهبّ الرياح على البحر الشاسع...).

"إليكم الجزر

والجزرة بفلسين"

وصاحت "البيرتين" قائلة: "آه! ملفوف وجزر وبرتقال. ليس ثمّة إلاّ أشياء أشتهي أن آكلها، فمر أن تشتريها "فرانسواز" سوف تحضّر الجزر بالكريما. ثمّ ما ألطف أن نأكل هذا كلّه معاً. وسيكون الطبق هذه الأصوات التي نسمعها وقد استحالت وجبة طيّبة. هيّا اسأل "فرانسواز"، رجوتك، أن تعدّ بالأحرى شفنين بحر بالزبدة المحروقة. فما ألذّه!" - "اتّفقنا يا حبيبتي الصغيرة. لا تمكثي هنا، وإلاّ طلبت كلّ ما يدفع به أمامهم باعة الخضار الجوّالون. - "وافقت: إني ذاهبة، لكنّما لا أريد من بعد البتّة لأعشيتنا إلاّ أموراً سمعنا من ينادي عليها. ما أعظمها تسلية. وتصوّر أنّه لابدّ من الانتظار بعدّ شهرين كي توافي أسماعنا: "فاصولياء خضراء، فاصولياء طريّة، إليكم الفاصوليا الخضراء." وما أحسن القول: فاصولياء طريّة! تعلم أني أريدها فاخرة رهيفة المذاق تقطر مرقة خلّ، يخيلّ لك أنّك لا تأكلها فإنّها غضّة كالندى. لكنّ شأنها للأسف شأن الجبنة بالكريما التي على شكل قلب، إنّها لا تزال بعيدة جداً. "الجبنة الطيبّة بالكريـ، الجبنة بالكريـ، طيبّة الجبنة!" وعنب "فونتينبلو" الأبيض: "عندي الأبيض الحلو." وكنت أفكّر برعدة بكلّ هذا الوقت الذي ينبغي لي أن ألبثه وإيّاها إلى حين العنب الأبيض. "اسمع، قلت إني لا أبغي من بعد سوى الأشياء التي نسمع من ينادي عليها. لكنيّ بالطبع أقوم باستثناءات. فليس يستحيل إطلاقاً أن أمّر بـ"روباتيه" لأوصي على مثلّجات لكلينا. ستقول لي إنّه لم يحن موسمها بعد ولكن كم أشتهيها!" وهزّني مشروع "روباتيه" الذي صار مؤكداً أكثر ومشبوهاً في نظري بسبب هذه الكلمات: "ليس يستحيل إطلاقاً." كان ذلك يوم استقبال آل "فيردوران" ومنذ أعلمهم "سوان" أنّه أفضل البيوتات فإنّهم كانوا يوصون على مثلّجاتهم ومحمّصاتهم لدى "روباتيه". "لست أعترض البتّة على المثلّجات ياعزيزتي "ألبيرتين"، ولكن دعيني أوصي لك عليها، ولست أعرف أنا إن كنت سأفعل لدى "بواريه بلانش" أو "روباتيه" أو في الـ" ريتز"، سأرى على أيّ حال". فقالت بلهجة محاذرة: "فأنت خارج إذن؟" كانت تزعم دائماً أنّه يغبطها أن أخرج أكثر مّا أفعل، ولكن إن استطاعت كلمة منّي أن تحملها على افتراض أنّي لن أمكث في المنزل فإن هيئتها

القلقة كانت تحمل على الظنّ بأنّ المسرّة التي تصيبها من مشاهدتي أخرج دون انقطاع ربّما لم تكن صادقة جداً. "ربّما خرجت وربّما لا، تعلمين تماماً أنيّ لا أعدّ قط مشروعات سلفاً. والمثلّجات في جميع الأحوال ليست شيئاً ينادى عليه ويدفع في الشوارع، فلماذا تبغينها؟" حينئذ ردّت عليّ بهذه الأقوال التي أرتني بالفعل كم تنامى لديها فجأة منذ "بالبيك" من ذكاء وذوق دفين، بهذه الأقوال التي من صنف تلك التي تزعم أنّها ناجمة فقط عن تأثيري ومساكنتها المستمرّة لي، هذه الكلمات التي ما كنت مع ذلك لأقولها البتّة، كما لو أن ثمّة حظراً فرضه عليّ مجهول أن أستخدم يوماً في حديثي صيغاً أدبيّة. ربّما لن يكون المستقبل واحداً بالنسبة إلى "ألبيرتين" وإليّ. لقد وافاني ما يشبه الشعور المسبّق بذلك إذ رأيتها تسارع إلى استخدام صور كتابيّة الصبغة إلى حدّ بعيد في حديثها وتبدو كأنّما خصّصت لاستعمال آخر أكثر قدسيّة ولا أزال أجهله. لقد قالت لي (ووجدتني ترقّ نفسي مع ذلك حدّ كبير إذ فكّرت قائلاً: "قد لا أتكلّم بالتأكيد كما تفعل، لكنّها ما كانت مع ذلك لتتكلّم على هذا النحو لولاي وقد تأثرّت بي تأثراً عميقاً ولا يسعها والحالة هذه أن لا تحبّنى فإنّها من صنيعي"): "ما أحبّه في الأطعمة المنادى عليها أن الشيء المسموع، كالرابسوديا[1] مثلاً، إنّما تتبدّل طبيعته على المائدة وبتوجّه إلى سقف فمي. أمّا المثلّجات (لأنيّ آمل أن لا توصي لي عليها إلاّ مشكّلة في تلك القوالب المتقادمة الزيّ التي اتخذت جميع الأشكال المعماريّة الممكنة) فإنّي في كلّ مرّة أتناولها معابد أو كنائس أو مسلات أو صخوراً إنّما أنظر أولاً إلى ما يشبه الجغرافيه الرائعة والتي أحوّل أوابدها التي من توت العلّيق أو الفانيليا، أحوّلها فيما بعد برودة في حلقي." ورأيت أنّها تجاوزت قليلاً جودة القول، ولكنّها أحسّت أنّي أجدها من جيّد القول وتابعت، وهي تتوقّف لحظة حينما تفلح في التشبيه لتضحك ضحكتها الحلوة التي كانت شديدة القسوة عليّ لأنّها تقطر شهوة: "يا إلهي، أخشى أنّك واجد في فندق "ريتز" أعمدة "فاندوم"[2] من المثلجات، من مثلجّات بالشوكولا أو توت العلّيق، وحينئذ ينبغي عدّة منها كي يبدو أنّها أعمدة نذور أو عُمد مرفوعة في ممّر تمجيداً "للبرودة". هم يصنعون أيضاً "مسلاّت من توت العلّيق ستنتصب بين مكان وآخر في صحراء عطشي الحارقة وسوف أذيب غرانيتها الورديّ في أعماق حلقي فترويه أفضل ممّا تفعل الواحات (وهنا انطلقت الضحكة العميقة إمّا اغتباطاً لكلام تحُسنه إلى هذا الحدّ، وإمّا هزءاً من نفسها لأنّها تتكلّم بصور متلاحقة إلى هذا الحدّ، وإمّا، للأسف بداعي التلذّذ الجسدي لما تحسّ داخل ذاتها شيئاً لذيذاً إلى هذا الحدّ ورطباً إلى هذا الحدّ يسبّب لها ما يساوي المتعة. إنّ جبال مثلّجات الريتز هذه تبدو أحياناً وكأنّها "الجبل الورديّ"، ولست أكره، حتّى لو كانت المثلّجات بالليمون، أن لايكون لها شكل مذهل وأن تكون غير منتظمة شديدة الانحدار كأحد جبال "إيلستير". وينبغي حينذاك أن لاتكون مفرطة البياض بل على قليل من الصفرة وبهذا المظهر الأبيض المتّسخ الشاحب الذي لجبال "إيلستير". ومع أنّ المثلّجة لا تبدو ضخمة، وليست سوى نصف مثلّجة إن شئت فإن هذه المثلجات بالليمون جبال مصغّرة مع ذلك، بمقياس صغير جداً، ولكن المخيّلة تصحّح النسب كما هو أمر تلك الأشجار اليابانية الصغيرة القزمة التي تحسّ

---

(١) Rhapsodie: مقطوعة موسيقية تتميّز بحريّة التأليف.

(٢) من طراز عمود ساحة فاندوم في باريس.

مع ذلك تماماً أنّها أشجار أرز وسنديان وأشجار سمّ حتّى أني إن جعلت بعضاً منها على امتداد "سويقية" في غرفتي توافر لديّ غابة مترامية تنحدر صوب النهر وقد يضيع فيها الأولاد الصغار. ومثلما أرى أفضل الرؤية على حضيض نصف مثلّجتي الصفراء باللّيمون حوذيين ومسافرين ومحفّات يتولّى لساني أن يدحرج فوقها هيارات ثلجيّة سوف تذهب بها (وأثارت غيرتي اللهجة الشهوانيّة القاسية التي قالت بها ما تقول)." وأضافت قولها: "كذلك أتولّى بشفتيّ أمر تهديم هذه الكنائس "البندقيانيّة" عموداً فعموداً، وهي من لون سماقيّ هو لون توت الأرض، وإلقاء ما أكون تركته جانباً على رؤوس المؤمنين. أجل، سوف تنتقل كلّ هذه الصروح من مقامها الحجري إلى صدري حيث تخفق منذ الآن برودتها الذائبة. لكن اسمع، ليس ما يهيج، حتى دون مثلّجات، وما يبعث الظمأ مثلما تفعل إعلانات المياه المعدنيّة. لم يكن في "مونجوفان"، في منزل الآنسة "فانتوي"، لم يكن من صانع مثلّجات معروف في الجوار، ولكنّنا كنّا نقوم في الحديقة بجولتنا في "لفرنسه" وذلك باحتسائنا كلّ يوم مياهاً معدنية غازيّة جديدة على غرار مياه "فيشيي" التي ما إن تسكبها حتىّ تبعث من أسفل الكأس سحابة بيضاء تُقبل ناعسة وتتلاشى إن لم تشرب بسرعة كافية." لكن سماع الحديث عن "مونجوفان" كان يشقّ عليّ كثيرا، فكنت أقاطعها. "إني أضجرك، فودائما يا عزيزي." أي تبدّل منذ "بالبيك" أتحدّى فيه "ايلستير" نفسه إن استطاع أن يستشفّ لدى "ألبيرتين" هذا الثراء الشعريّ، والشعر فيها أقلّ غرابة وأقلّ سمة شخصيّة من شعر "سيليست ألباريه"، على سبيل المثال، التي جاءت بالأمس للقائي ولمّا وجدتني أستلقي في سريري قالت لي: "يا عظمة السماء الملقاة على سرير!"- "ولماذا السماء يا "سيليست"؟- "آه! لأنّك لا تشبه أحداً وأنت على خطأ مبين إن ظننت فيك شيئاً ممّن يرتحلون فوق أرضنا الحقيرة".- "وفي جميع الأحوال لماذا "ملقى"؟- "لأنّه ليس فيك شيء من الرجل المستلقي، ولست فوق سرير، وإنّك لا تتحرّك، لكأنّما نزل ملائكة فألقوا بك هنا." ما كانت "ألبيرتين" لتجد ذلك في يوم، لكنّ الحبّ منحاز حتّى حينما يبدو على شفا أن ينتهي. كنت أفضل "جغرافيّة" الأشربة الطريفة التي كان يبدو لي تظرّفها السهل سبباً لحبّ "ألبيرتين" وبرهاناً على أنّ لي سلطاناً عليها وأنّها تحبّني.

وما إن خرجت "ألبيرتين" حتّى أحسست أيّ تعب كان يسبّبه لي هذا الحضور المستمرّ الذي به نهم إلى الحركة والحياة والذي كان يعكرّ نومي بتحركاته ويعيّشني في برد دائم جراء الأبواب التي تدعها مفتوحة ويضطرّني- بغية إيجاد حجج تبرّر عدولي عن مرافقتها دون أن أبدو مع ذلك شديد المرض، وبغية توفير من يرافقها من جانب آخر- أن أبذل كلّ يوم أكثر ما بذلت شهرزاد من حذق. ولئن كانت الرواية الفارسيّة بمقدار الحذق نفسه تؤخرّ موتها، فقد كنت لسوء حظي أعجّل في موتي. وهكذا فانّ في الحياة بعض المواقف، وليست كلّها ناجمة مثل ذاك عن الغيرة في الحب وصحّة واهنة لاتمكّن من مشاطرة شخص نشيط وفتيّ حياته، لكنّما تُطرح فيها مع ذلك على نحو يكاد يكون طبياً مسألة متابعة الحياة المشتركة أو العودة إلى العيش المنفصل الذي كان: فلأي من الراحتين ينبغي أن نكرّس النفس (بمتابعة الإرهاق اليومي أو بالعودة إلى قلق الغياب)- راحة الدماغ أم راحة القلب؟

كنت في جميع الأحوال راضياً تماماً أن ترافق "أندريه" "ألبيرتين" إلى التروكاديرو، ذلك لأنّ حوادث قريبة وهينّة من ناحية أخرى كان مؤدّاها أن يقظة السائق أو على الأقلّ ما بداخل يقظته من فطنة، لم تعد تبدو لي بمثل قوّتها فيما مضى، مع أن ثقتي بنزاهته ظلّت واحدة. من ذلك أنّ "ألبيرتين" منذ فترة قريبة جداً كنت أرسلتها فيها إلى "فيرساي" برفقته، قالت لي إنّها تناولت غداءها في "الخزّانات". ولما كان السائق كلمني عن مطعم "فاتيل" يوم لاحظت ذلك التناقض فقد اتخذت من ذلك حجّة للنزول والتحدّث إلى الميكانيكي (وهو نفسه دائماً ذاك الذي رأيناه في "بالبيك") في أثناء ما كانت "ألبيرتين" ترتدي ثيابها. "قلت لي إنّك تناولت غداءك في مطعم "فاتيل"، وتحدّثني "ألبيرتين" عن "الخزّانات"، فما عسى يعني ذلك؟" وأجابني الميكانيكّي: "آه! قلت إنّي تغدّيت في الـ"فاتيل"، لكنّما لا يسعني أن أعلم أين تغدّت الآنسة. لقد فارقتني لدى وصولها إلى "فيرساي" لتستقلّ عربة بحصان، وهذا ما تفضّله حين لا يتطلّب الأمر قطع المسافات." لقد أخذ الحنق مذ ذاك يتملكني وأنا أفكر أنّها كانت وحدها: لكنمّا لم يكن ذلك إلاّ وقت الغداء في النهاية. وقلت بمظهر الملاطف (إذ لا أريد أن أبدي بصورة أكيدة أنّي أكلّف من يراقب "ألبيرتين" فلعل ذلك كان بدا مذلاً لي وبصورة مضاعفة لأن الأمر ربّما عنى أنّها كانت تخفي عنيّ أعمالها): "كان بوسعك أن تتغدّى، لست أقول معها، بل في المطعم نفسه."- لكنّها كانت سألتني أن أكون في السادسة مساء فحسب في "ساحة السلاح". وما كان عليّ أن أذهب لاصطحابها لدى خروجها من الغداء."

- "آه!" قلت مستعجباً وأنا أحاول إخفاء وضعي المضني. وعدت إلى فوق. وهكذا لبثت "ألبيرتين" وحدها على مدى نيّف وسبع ساعات متتالية، وتُركت لنفسها. صحيح أني كنت أعلم أنّ العربة لم تكن مجرّد ذريعة للتخلّص من رقابة السائق. فقد كانت "ألبيرتين" في المدينة تفضّل التسكّع في عربة، فهي تقول إنّها ترى بصورة أفضل وإن الهواء أكثر عذوبة. لكنّها على الرغم من ذلك أمضت سبع ساعات لن أعلم شيئاً عنها في يوم. وما كنت أجرؤ على التفكير في الطريقة التي لابدّ تصرّفت بها أثناءها. ورأيت أن الميكانيكيّ كان غير بارع إلى حدّ بعيد ولكنّ ثقتي به أضحت مذذاك كاملة. فإنّه لو كان متواطئاً أقلّ ما يكون التواطؤ مع "ألبيرتين" لَماَ أقرّ لي البتّة بأنّه تركها حرّة من الحادية عشرة حتّى السادسة مساءً. وَلَمَا كان ثمة سوى تفسير آخر لإقرار السائق ذاك، ولكنّه يجانب المنطق، وقوامه أن يكون اختصام بينه وبين "ألبيرتين" بعث لديه الرغبة في أن يظهر لصديقتي، إذ يكشف لي أمراً زهيداً، أنّه من قوم يتكلّمون وإن لم تسر، بعد هذا التنبيه الأوّلي اليسير جداً، بالاستقامة التي يريدها فسوف يبوح بكل شيء. لكن هذا التفسير كان مستحيلاً، إذ كان ينبغي بادئ الأمر افتراض خصام لا وجود له بين "ألبيرتين" وبينه، ثمّ إكساب طبيعة المبتزّ لهذا الميكانيكيّ الجميل الذي بدا على الدوام كثير الدماثة وولداً طيباً جداً. ورأيت منذ بعد الغد على أيّ حال أنّه كان يعلم، أكثر مما ظننته مقدار لحظة في شكوكي المجنونة، كيف يمارس على "ألبيرتين" رقابة متكتمّة متبصّرة. ذلك أني إذ استطعت أن أنتحي به ناحية وأن أكلّمه حول ما قاله لي عن "فيرساي" كنت أقول له بلهجة ودودة طليقة: "هذه النزهة إلى "فيرساي" التي كنت تحدّثني عنها قبل البارحة، لقد كان أمرها عظيماً على نحو ما جرت، ولقد كنت عظيماً شأنك دائماً. لكن، وعلى سبيل الإلماح البسيط، وهو لا

أهمية له على أي حال، أرى لي، منذ أن وضعت السيدّة "بونتان" ابنة أخيها في حمايتي، مسؤولية عظيمة كما أن بي خشية من الحوادث وألوم نفسي أعظم اللوم على مرافقتي إيّاها إلى حدّ أفضّل معه أن تكون أنت، أنت الموثوق إلى أبعد حدّ، الحاذق إلى حدّ رائع والذي لا يمكن أن يقع له حادث، أن تكون أنت من يرافق الآنسة "ألبيرتين" إلى أيّ مكان. هكذا تراني لا أخشى شيئاً." وابتسم الميكانيكيّ الرسولي اللطيف ابتسامة رقيقة ويده موضوعة على مقوده الذي بشكل صليب التقديس. ثم قال لي هذه الكلمات التي بعثت في نفسي الرغبة (وقد طردت المخاوف من فؤادي فحلّ الفرح مكانها في الحال) في المسارعة إلى عناقه. وقال: "لا تخف. لا يمكن أن يصيبها شيء، فإن لم يرتحل بها مقودي فإن عيني تتعقبها في كلّ مكان. في "فيرساي"، ودون أن يبدو عليّ من ذلك شيء، زرت المدينة إن جاز القول برفقتها. فمن "الخزّانات" ذهبت إلى القصر، ومن القصر إلى مبنى "التريانون"، وأنا دوماً على إثرها دون أن يبدو أنيّ أراها، والأدهى من ذلك أنّها لم ترني. آه! لو أبصرتني لكانت مصيبة المصائب. كان من الطبيعي، وأنا لا شيء لديّ أفعله طوال النهار، أن أزور القصر بدوري. ولا سيمّا أن الآنسة لم يفتها بالتأكيد أن تلاحظ أنيّ على شيء من الثقافة وأنّي أهتمّ بكلّ التحف القديمة النادرة (كان ذلك صحيحاً، ولعلي كنت دهشت لو علمت أنّه صديق "موريل" لكثرة ما يفوق عازف الكمان رهافة وذوقاً). لكنّها لم تبصرني في نهاية المطاف."- "لابدّ من ناحية أخرى أنّها التقت صديقات لها، فإنّها تملك منهنّ في "فيرساي".- لا، كانت وحدها على الدوام."- "لابدّ حينذاك أن ينظروا إليها، إلى الفتاة الباهرة الجمال والوحيدة تماماً!"-"هم بالتأكيد ينظرون إليها، لكنّها تكاد لا تعلم شيئاً عن ذلك فعيناها منصرفتان طوال الوقت إلى دليلها ثمّ ترتفعان إلى اللوحات." وبدا لي أن رواية السائق صحيحة، يزيد من صحّتها أن "ألبيرتين" كانت أرسلت لي بالفعل في يوم نزهتها بطاقة تمثل القصر وأخرى تمثل مباني "التريانون". وقد تأثرت كثيراً للعناية التي تابع بها السائق اللطيف كلّ خطوة فيها. فكيف كنت سأفترض أن هذا التصويب- الذي جاء بصورة تتمّة وافيه لمقالته قبل البارحة- مردّه أنّ "ألبيرتين" وقد أقلقها أن يكون السائق كلّمني، أبدت بين هذين اليومين خضوعاً وتصالحت وإيّاه؟ ذلك الشكّ لم يراود حتى مخيّلتي.

والأكيد أن رواية الميكانيكي تلك، إذ نزعت منّي أيّ خشية من أن تكون "ألبيرتين" خانتني، إنّما هدّأت على نحو طبيعيّ تماماً من عاطفتي تجاه صديقتي وجعلت اليوم الذي قضته في "فيرساي" أقل إثارة لاهتمامي لكنّي أعتقد مع ذلك أن إيضاحات السائق التي كانت إذ تبرّئ "ألبيرتين" تجعلها بعدُ أكثر إزعاجاً لي ما كانت ربّما تكفي لتهدئتي بهذه السرعة. وربّما أفلحت بثرتان صغيرتان غشيتا على مدى بضعة أيّام جبين صديقتي، ربّما أفلحتا بعدُ أكثر في تغيير مشاعر فؤادي. وأخيراً انصرفت هذه المشاعر عنها إلى حدّ أني ما كنت أتذكّر وجودها إلا حينما أراها وذلك جرّاء السرّ الغريب الذي استودعتني إيّاه وصيفة "جيلبيرت" التي التقيتها مصادفة. فقد علمت أن "جيلبيرت" حينما كنت أذهب كلّ يوم إلى منزلها كانت تحب شاباً تلتقيه كثيراً أكثر منيّ. وقد راودني لفترة شك بذلك في تلك الآونة، بل ساءلت آنذاك الوصيفة نفسها. لكنّها لما كانت تعلم أنّي مغرم بـ"جيلبيرت" أنكرت وأقسمت أن الآنسة "سوان" ما رأت ذاك الشاب في يوم. أمّا الآن وقد علمتْ أن حبّي زال منذ زمن

طويل وأني منذ سنوات تركت رسائلها جميعاً دونما جواب- وربّما لأنّها لم تعد تخدم لدى الفتاة- فقد روت لي من تلقاء ذاتها الواقعة الغرامية التي لم أعرفها، روتها بحذافيرها. وكان الأمر يبدو لها طبيعياً تماماً. وظننت إذ تذكرت أيمانها آنذاك أنها لم تكن على اطّلاع. ولم يكن شيء من ذلك، فهي نفسها بأمر من السيّدة "سوان" كانت تمضي لتخطر الشابّ حالما تضحي من كنت أحبّ وحيدة؛ من كنت أحبّ آنذاك... ولكنّي تساءلت حيناً إن كان حبّي بالأمس قد مات بقدر ما كنت أظنّ لأنّ هذه الرواية شقت عليّ. وبما أنّي لا أعتقد أن الغيرة يمكن أن توقظ حباً ميتاً فقد افترضت أن انطباعي الحزين ناجم جزئياً على الأقلّ عن اعتزاز بالذات مجروح، ذلك لأن عدة أشخاص ما كنت أحبّهم وكانوا يقفون منّي في تلك الفترة، وحتّى بعد ذلك بقليل- والأمر تغيّر كثيراً مذذاك-، موقف المزدري، كانوا يعلمون تمام العلم في أثناء ما كنت مغرماً جداً بـ"جيلبيرت" أني كنت مخدوعاً. وحملني ذلك حتّى على التساؤل بالعودة إلى فترة ماضية إن لم يكن في حبيّ لـ"جيلبيرت" شيء من الاعتزاز بالذات بما أني أعاني الآن الكثير إذ أتبيّن أن ساعات التودّد جميعها التي سبق أن أولتني سعادة عظيمة كانت معروفة لدى أناس ما كنت أحبّهم على أنّها خداع تقوم به صديقتي تجاهي. كانت "جيلبيرت" في جميع الأحوال، أكان حباً أو اعتزاز بالنفس، قد ماتت تقريباً في داخلي، لا كلياً مع ذلك، وقد بلغ بهذا الهمّ أن يحول بيني وبين اهتمامي إلى حدّ بعيد بـ"ألبيرتين" التي كانت تشغل حيزاً ضيقاً جداً في فؤادي. ومع ذلك، وفي عودة إليها (بعد هذا الاستطراد الطويل جداً) وإلى نزهتها في "فيرساي"، فإن بطاقات "فيرساي" البريديّة (وهل يمكن أن يعتلج داخل فؤادك في ذات الوقت غيرتان متشابكتان تعود كلّ منهما إلى شخص مختلف؟) كانت تخلّف لديّ انطباعاً مزعجاً في كلّ مرّة تقع عليها عيناي وأنا أرتّب أوراقاً لي.وكنت أفكّر أنّه لو لم يكن الميكانيكيّ رجلاً طيبّ القلب إلى حدّ بعيد فإن تطابق روايته الثانية وبطاقات "ألبيرتين" ما كان ليعني الكثير، إذ ما الذي يرسله الناس باديء الأمر من "فيرساي" إن لم يكن القصر وأبنية "التريانون"، إلاّ إذا جرى اختيار البطاقة على يد ذوّاقة عاشق لتمثال ما، أو مخبول اختار بمثابة منظر موقف الحافلات التي تجرّها الخيول أو محطّة الورشات؟.

ثمّ إني مخطئ بقولي مخبول، إذ لم يجر شراء مثل تلك البطاقات البريديّة دائماً من جانب أحدهم مصادفة ولفائدة أنّها تجيء من "فيرساي". لقد وجد الأذكياء والفنانون على مدى سنتين "سيينّا" والبندقيّة وغرناطة من الأمور المملّة، فيما يقولون عن أقلّ عربة عامّة وعن سائر عربات القطار: "هاك شيئاً جميلاً." ثمّ زال هذا الميل مثلما زال غيره. ولست حتّى أعلم إن هم لم يعودوا إلى تدنيس المقدّسات" المتمثّل في "إتلاف أشياء الماضي الأصيلة". وفي جميع الأحوال فقد كفوا عن عدّ عربة قطار من الدرجة الأولى قبلياً على أنّها أجمل من القدّيس مرقص[1] في البندقيّة. ومع ذلك كانوا يقولون: "إنّما الحياة هنا والعودة إلى الوراء أمر مصطنع"، ولكن دون استخلاص نتيجة واضحة. وتحسباً لأي طارئ وفيما ظللت أولي السائق ثقتي الكاملة وبغية أن لا يسع "ألبيرتين" أن تتركه دون أن يجسر على الرفض مخافة أن يُعَدّ جاسوساً لم أدَعها تخرج من بعد إلاّ بدعم من "أندريه" في حين

(١) الكنيسة وساحتها من أجمل الآثار في البندقية.

سبق أن اكتفيت بالسائق لفترة. وكنت حتى تركتها آنذاك تغيب ثلاثة أيّام (وما كنت لأجرؤ على فعل شيء من هذا القبيل مذ ذاك) برفقة السائق وتذهب على مقربة من "بالبيك" لكثرة ما كانت ترغب في قطع المسافات على محض هيكل سيّارة بسرعة كبيرة. ثلاثة أيام كنت في أثنائها هادئ البال مع أنّ سيل البطاقات التي بعثتها إليّ لم تصلني بسبب سير البُرُد البريتانيّة المقيت (وهي جيّدة في الصيف ولكنّما يختلّ نظامها دون شكّ في الشتاء) إلا بعد انقضاء ثمانية أيّام على عودة "ألبيرتين" والسائق وهما على قدر من الشجاعة كبير إلى حدّ أنّهما عاودا في صباح عودتهما ذاته نزهتهما اليوميّة وكأنّ شيئاً لم يكن. لكنني تغيّرت منذ حادثة "فيرساي". فقد كانت غبطتي شديدة أن تمضي "ألبيرتين" اليوم إلى"التروكاديرو" إلى هذه الصباحيّة "الرائعة" ولكنّما يطمئنني على وجه الخصوص أنّ لها رفيقة هناك هي "أندريه".

أمّا وقد خرجت "ألبيرتين" الآن فقد تركتُ هذه الأفكار جانباً وذهبت لأقف لحظة إلى النافذة. وكان بادئ الأمر صمت دوّت فيه صافرة بائع الكروش وبوق الحافلة في الهواء بطبقتين مختلفتين وكأنّما مدوزن بيانو كفيف. ثمّ أخذت الفكَر الموسيقيّة المتشابكة تتميزّ واحدتها عن الأخرى وتنضاف إليها أخرى جديدة. كان ثمّة أيضاً صافرَة أخرى، نداء بائع ما عرفت في يوم أيّ شيء يبيع، صافرة كانت تشبه تماماً صافرة الحافلة، ولمّا لم تكن تدفعها السرعة فقد كان يخيّل إليك أنّها حافلة واحدة لا تتمتّع بالحركة أو هي معطلة مسمّرة تطلق على فترات قصيرة صيحات حيوان يلفظ أنفاسه.

وكان يبدو لي، إن انبغى في يوم أن أغادر هذا الحيّ الأرستقراطيّ- مالم يكن إلى آخر شعبي تماماً-، أنّ جادّات وشوارع المركز (حيث كانت محالّ الفاكهة والأسمالك الخ.. التي استقرّت في بيوتات كبيرة لتجارة الأغذية تجعل صيحات الباعة غير مجدية، وما كانوا أفلحوا على أيّة حال في إسماع أصواتهم) وسوف تبدو لي كئيبة جداً وغير قابلة للسكن وقد سلبت وجُرّدت من سائر ابتهالات المهن الصغيرة والأطعمة الجوّالة وحُرمت الأوركسترا التي فتنتني تواً منذ الصباح. ومرّت على الرصيف امرأة قليلة الأناقة (أو هي انصاعت لزيّ قبيح) ذات لون فاتح مفرط ومعطف على صورة كيس من شعر الماعز؛ ولكن لا، ما كانت امراة، بل سائق يعود سيراً على الأقدام إلى مرآبه، وقد تدثر بجلد الماعز. وكان صبية الفنادق المجنحّون ذوو الألوان المتبدّلة يسرعون هاربين من الفنادق الكبرى صوب المحطّات على صفحة درّاجاتهم للّحاق بالمسافرين في قطار الصباح. كان تهدار كمان ينجم أحياناً عن مرور سيّارة وأحياناً عن أنّي لم أضع ما يكفي من الماء في دفاءتي الكهربائية. ثمّ يرتفع نشازاً وسط السمفونية "لحن" متقادم العهد: فهذا بائع الدمى الذي حلّ محلّ بائعة السكاكر، وكان من عادتها أن ترفق بلحنها ناقوساً خشبياً، بائع الدمى الذي يعلقّ بزمّارته دمية يحركها في كل اتّجاه كان ينقّل دمى أخرى متحركة ويطلق بملء صوته، هو النصير المتأخّر للنغم الخالص، يطلق غير آبه بالإنشاد الطقسيّ الذي وضعه غريغوريوس الكبير[1] وبإنشاد "باليسترينا" المعدّل وإنشاد المحدثين الغنائيّ:

(١) البابا الذي وضع أسس الترتيل والترنيم الكنسيين في أوائل القرن السابع.

"هيّا أيها الآباء، هيّا أيتّها الأمّهات

ارضوا أولادكم الصغار؛

فأنا من يصنعها، وأنا من يبيعها

وأنا من يزدرد المال

ترالا لا لا ترالا لا لا لير

ترا لالالا لالالا

هيّا يا صغار!

كان ثمّة إيطاليّون صغار يعتمرون "البيريات" لا يحاولون منافسة هذا "اللحن السريع" فكانوا يعرضون تماثيل صغيرة دون أن يقولوا شيئاً. وفي أثناء ذلك كان عازف ناي صغير يرغم بائع الدمى إلى الابتعاد وإلى الإنشاد على نحو أكثر غموضاً وإن بنغمة سريعة: "هيّا أيّها الآباء، هيّا أيّتها الأمّهات." فهل كان عازف الناي الصغير واحداً من هؤلاء الجنود الخيّالة الذين كنت أسمعهم صباحاً في "دونسيير"؟ لا، لأنّ ما كان يلي إنّما هذه الكلمات: "هو ذا مصلح الخزف والبورسلين. أرمّم الزجاج والرخام والكريستال والعظم والعاج والقطع الأثريّة. هو ذا المصلّح." وفي ملحمة تعمر الجانب الأيسر منها هالة من نور الشمس والجانب الأيمن ثور عُلّق باكمله، كان أجير لحّام طويل جداً ونحيف جداً بشعور شقراء وعنق ينطلق من قبّة زرقاء وفاتحة يقوم بسرعة مدّوخة وإتقان رهبانيّ بوضع فتائل البقر اللذيذة في جانب وفي الجانب الآخر لحم أوراك من أردأ صنف ويصفّفها في موازين رائعة يعلوها صليب تتدلّى منه سلاسل جميلة، وكان يوليك في الحقيقة- مع أنّه ما كان يقوم بعدها إلاّ بترتيب الكلى والشرائح والضلعيّات وذلك لأغراض العرض- انطباعاً أقرب أن يكون إلى ملاك جميل يعدّ للّه في يوم الدينونة، طبقاً لنوعيّاتهم الفصل بين الصالحين والأشرار ووزنة النفوس، ثمّ ينطلق ثانية في الفضاء صوت المزمار المرتجف الحادّ يؤذن لا بالدمار الذي كانت"فرانسواز" تخشى منه في كل مرة يمّر فوج من الخيّالة،بل بالإصلاحات التي يعد بها "تاجر عاديات" ساذج أو مستهزئ وهو في جميع الأحوال اصطفائي إلى حدّ كبير، لكنمّا يتناول فنّه، بعيداً عن أيّ تخصّص، الموادّ الأكثر تنوّعاً. وكانت حاملات الخبز الصغيرات يسارعن إلى تكديس الأرغفة الطويلة المعدّة لطعام الغداء في سلالهنّ، وتنشط بائعات الحليب بتعليق زجاجات الحليب بكلاّب يحملنه. والنظرة المشتاقة التي احتفظ بها لتلك البنيّات أكان بوسعي أن أظنّها صحيحة تماماً؟ أما كانت بدت غَيْرها لو أمكنني أن أحتفظ بضع لحظات بالقرب مني، مجمّدة لا حراك بها، بواحدة من اللواتي ما كنت أبصرهن من نافذتي العالية إلاّ في الدكّان أو هاربات؟ ولعلّه كان انبغى، كي أخمن الخسارة التي تلحقها بي عزلتي المفروضة، يعني الثراء الذي يقدّمه لي النهار، أن أحتجز في السلسلة الطويلة للإفريز المتحرّك

بنيّة تحمل الغسيل أو الحليب وأن أمرّها لحظة، مثل طيف في زخارف متحركة، بين قائمتي بابي، في إطاره وأن أمسك بها تحت ناظريّ، ولا يفوتني أن آخذ عنها معلومات تمكنني من العثور عليها ذات يوم وتكون شبيهة بتلك البطاقة التوصيفية التي يربطها علماء الطير والسمك تحت بطون الطيور أو الأسماك التي يودّون أن يتمكنوا من التعرف إلى هجراتها قبل أن يطلقوا سراحها.

لذلك قلت لـ"فرانسواز" أن تتفضل وترسل إليّ. من أجل مشوار أودّ أن أرسل من يقوم به، هذه أو تلك من هاتيك الصغيرات، إن اتفّق أن تجيء واحدة منهنّ، وكنّ يجئن دون انقطاع لأخذ الغسيل أو الخبز أو زجاجات الحليب ثمّ يُعدنها، وكثيرا ما كانت تكلّفهنّ بخدمات. كنت في ذلك شبيهاً بـ"ايلستير" الذى كان يضطرّ أن يمكث سجين مشغله في بعض أيّام الربيع التي تثير لديه معرفتُه بأن الأحراج مليئة فيها بأزهار البنفسج رغبةً شديدة في النظر إليها فيرسل البوابة لتبتاع له باقة منها؛ حينئذ ما كان يخيل لـ"ايلستير" الذي رقّ قلبه وثارت هواجسه أنّه يبصر الطاولة التي وضع فوقها نموذجه النباتي بل كامل البساط الحراجي النباتي الذي سبق أن شاهد فيه فيما مضى بالآلاف السوق اللولبية التي تنوء بحمل منقارها الأزرق، يبصرها مثل منطقة خالية تحيط بها في مشغله الرائحة الصافية التي تنبعث من الزهرة المثيرة للذكريات.

أما الغسالة في يوم الأحد فما كان ينبغي الاعتقاد بأنها تجيء. وأما موزعة الخبز فقد كانت لسوء الحظ قرعت الباب حين لم تكن "فرانسواز" هناك فتركت أرغفتها المستطيلة في السلة على فسحة الدرج وهربت. ولن تأتي بائعة الفواكه إلا كثيراً بعد ذلك. وكنت دخلت ذات مرة لأوصي على قالب جبن لدى بائع الألبان ولاحظت بين العاملات الصغيرات واحدة هي شقراء غريبة حقاً مديدة القامة مع أنها طفولية القوام وكانت تبدو وسط البائعات الأخريات كأنما تحلم، في وقفة تتسم ببعض الاعتزاز. وما كنت رأيتها إلا من بعيد وفي مرة سريعة إلى حد ما كنت أستطيع معه أن أقول كيف كانت فيما عدا أنها لابد نمت بسرعة مفرطة وأن رأسها تكلله جزة توليك انطباعاً هو عن الميزات الشعرية أقل منه كثيراً عن نحت منمنم للتعرجات المعزولة لثلوج حبيبّية متوازية. كان ذلك كل ما ميزته إلى جانب أنف رسم بإتقان كبير (وهو أمر نادر لدى الأطفال) في وجه ناحل، وكان يُذكر بمنقار النسور. ولم يكن تجمع رفاقها من حولها، من جانب آخر، قد حال وحده دون أن أراها تماماً بل يضاف إليه التشكك في أمر المشاعر التي كان يمكن للوهلة الأولى وفيمابعد أن أوحي إليها بها سواء أكانت نابعة من اعتزاز نفور أو من استهزاء أو ازدراء أفصحت عنه فيما بعد لصديقاتها. كانت هذه الافتراضات المتناوبة التي خطرت لي بشأنها على مدى ثانية قد كثفت من حولها الجو المشوش الذي تتخفي داخله كحال إلهة في الغيمة التي تهزها الصاعقة. ذلك أن التشكك الفكري يؤلف سبباً لعسر في الإدراك البصري الصحيح أكبر مما هو أمر عيب مادي في العين.

كان فرط ما لعل آخر غيري كان دعاه مفاتن لدى هذه الفتاة المفرطة النحول التي كانت كذلك تثير الاهتمام بإفراط، كان بالضبط ما لا يروق لي ولكنما كان من شأنه أن يحول دون أن أرى شيئاً، ومن باب أولى أن لا أتذكر شيئاً عن بائعات الحليب الأخريات الصغيرات اللواتي أغرقهن أنفها المعقوف

جاز أن نقول "تذكر" بشأن وجه أسأنا النظر إليه إلى حد أن نطابق عشر مرات بين لا وجود الوجه وأنف مختلف)، لم أتذكر سوى الصغيرة التي لم تحسن في عيني. وذلك كاف لتوفير بداية للحب. ولعلني مع ذلك كنت نسيت الشقراء الغريبة وما تمنيت البتة لقاءها ثانية لو لم تقل لي "فرانسواز" إن هذه البنية، وإن تكن صغيرة السن تماماً، مثيرة وسوف تهجر "معلمتها" لأنها لفرط بهرجتها كانت تدين بمبالغ في الحي. لقد قيل إن الجمال وعد بالسعادة. أما المتعة الممكنة فبوسعها، عكسياً، أن تكون بداية جمال.

وأخذت أقرأ رسالة أمي. كنت أحس عبر استشهادات أمي بالسيدة "سيڤينييه" ("إن لم تكن أفكاري سوداء تماماً في "كومبريه" فإنها على الأقل رمادية داكنة، إني أفكر فيك في كل لحظة أتمناك، وصحتك وأشياؤك وبعدك، ما تظنين كل ذلك يفعل لدى حلول الظلام؟")، إن أمي كان يزعجها أن ترى مقام "ألبيرتين" في البيت يطول وأن مقاصدي في الزواج مع أنها لم يُصرح بها بعد للخطيبة، تتوطد. وما كانت تقول لي ذلك بصورة أكثر مباشرة لأنها تخشي أن أهمل رسائلها. ثم إنها كانت تلومني، مهما جاءت مستورة المعاني، على أني لا أخطرها في الحال بعد كل رسالة أني تسلمتها: "تعلم أحسن العلم أن السيدة "دو سڤينييه" كانت تقول: "حينما يكون المرء بعيداً فإنه لا يسخر من بعد من الرسائل التي تستهل بـ"تسلمت رسالتك." ودون أن تتكلم عما كان يشغل بالها أكثر ما يشغل كنت تقول إنها غاضبة من صنوف إنفاقي الكثيرة: "أين يمكن أن يذهب كل مالك؟ إنما يقلقني إلي حد بعيد أنك، على غرار "شارل دو سيڤينييه"، لا تعلم ما تريد وأنك "رجلان أو ثلاثة في الآن نفسه"، ولكن حاول علي الأقل أن لا تكون مثله في الإنفاق وأن لا يسعني أن أقول عنك: "لقد أفلح في الإنفاق دونما شهرة، وفي الخسارة دونما لعب وفي الدفع دونما وفاء." وكنت قد أنهيت قراءة كلمة والدتي حينما رجعت "فرانسواز" تقول لي إن لديها بالضبط هنا بائعة الحليب الصغيرة المفرطة الجرأة إلي حد ما والتي كانت حدثتني عنها. "سوف يسعها تماماً حمل رسالة سيدي والقيام بشراء الحاجات وإن لم يكن المكان بعيداً جداً. سوف يري سيدي إنها تبدو وكأنها فتاة الطاقية الحمراء الصغيرة". وذهبت "فرانسواز" لاصطحابها وسمعتها ترشدها إلى الطريق قائلة لها: "هيا ويحك، أنت خائفة لأن ثمة ممراً أيتها البلهاء. وكنت أظنك أقل ارتباكاً. أفينبغي أن أقودك بيدي؟" وكانت "فرانسواز" قدأحاطت نفسها، فعل الخادمة الجيدة والنزيهة العازمة على فرض احترام سيدها مثلما تحترمه هي، بذاك الجلال الذى يكسب القوادات نبلاً فى لوحات المعلمين القدامى حيث تكاد تطمس إلى جانبهن العشيقة والعشيق فى جو من انعدام الشأن.

لم يكن على "إيلستير" أن يهتم بما تفعل أزهار البنفسج حينما كان ينظر إليها. لكن دخول بائعة الحليب الصغيرة أفقدني فى الحال هدوء المتأمل، وما عدت أفكر إلا فى إضفاء ظاهر الحقيقة على حكاية الرسالة التى سأحملها إياها وشرعت أكتب بسرعة دون أن أجرؤ على النظر إليها إلا لماماً كى لا يبدو أني طلبت دخولها لهذه الغاية. لقد كان يزينها فى نظري سحر المجهول ذاك الذى ما كان لينضاف فيما يخصني إلى فتاة جميلة نلقاها فى تلك البيوت التى ينتظرنك فيها. لم تكن عارية ولا

متنكرة، بل بائعة حليب حقيقية، واحدة من اللائى نتخيلهن بالغات الجمال حين لا يسعف الوقت في الاقتراب منهن، لقد كانت بعضاً يسيراً مما يؤلف الرغبة الأزلية فى الحياة والأسف الأبدى عليها، الحياة التى يتحول تيارها المزدوج فى النهاية ويحمل بالقرب منا. وهو مزدوج لأنه إن كان الأمر أمر المجهول، أمر شخص يخمن أن ينبغي أن يكون إلهياً بناء على قوامه وتناسب جسمه ونظرته اللامبالية وهدوئه المستكبر، فإننا من جهة أخرى نبغي هذه المرأة المتخصصة تماماً فى مهنتها والتي تسمح لنا بالهرب إلى هذا العالم الذي تحملنا بزة خاصة على الظن توهماً بأنه مختلف. وإن نحن حاولنا إلى ذلك أن نضمن فى عبارة قانون غراباتنا الغرامية فينبغي البحث عنها في أقصى الفارق القائم بين امرأة نشاهدها وامرأة نقترب منها ونداعبها. ولئن كانت النساء في ما كان يدعى بالأمس مواخير، لئن كانت العاهرات أنفسهن (بشرط أن نعلم أنهن عاهرات) قليلات الاجتذاب لنا إلى هذا الحد فما ذلك لأنهن أقل جمالاً من غيرهن، بل لأنهن جاهزات تماماً وأنهن يقدمن لنا ما نحاول بالضبط بلوغه وأنهن لسن أمراً نفوز به. والفارق هنا في حده الأدنى. إن بغيّاً إنما تبتسم لنا فى الشارع مثلما ستفعل بالقرب منا. وأما نحن فنحاتون. إننا نبغى الحصول من المرأة على تمثال يختلف عن التمثال الذى قدمته لنا. لقد شاهدنا فتاة لامبالية وقحة على شاطئ البحر، وشاهدنا بائعة جدية نشيطة فى متجرها وتجيبنا بلهجة جافة إن لم يكن الأمر فلكي لا تكون موضع استهزاء رفيقاتها، وبائعة فواكه تكاد لا ترد علينا. حسن !إننا لا نبرح حتى يسعنا أن نتحقق إن لم تكن الفتاة المستكبرة على شاطئ البحر، والبائعة المتمسكة بالقيل والقال وبائعة الفاكهة الساهية قادرات، فى أعقاب خدع بارعة نقوم بها، على ثنى موقفهن المستقيم وعلى إحاطة عنقنا بتينك الذراعين اللتين كانتا تحملان الفواكه وعلى أن يملن إلى فمنا بابتسامة راضية عينين كانتا حتى ذاك باردتين أو ساهيتين - فيالجمال العينين الصارمتين فى ساعات العمل التي كانت العاملة تخشى فيها إلى حد بعيد نميمة رفيقاتها، عينين كانتا تتهربان من نظراتنا الملحاحة وهما الآن وقد التقيناها على انفراد تثنيان الأحداق تحت وطأة الضحكة المشرقة حينما نتحدث عن المضاجعة !إن الفارق فى حده الأقصى بين البائعة والغسالة المهتمة بكيها وبائعة الفواكه وبائعة الألبان - وهذه البنيّة نفسها التى ستصبح عشيقتنا قد بُلِغ إليه، ولا يزال مشدوداً إلى حدوده القصوى ومنوعاً، من جانب هذه الحركات المعتادة فى المهنة التى تجعل الذراعين على امتداد العمل شيئاً مختلفاً ما أمكن الاختلاف على صعيد الخطوط الزخرفية عن تلك الأغلال اللينة التى تتشابك كل مساء حول عنقنا فيما يستعد الفم للقبلة. لذلك ترانا نقضى كامل حياتنا فى مساعٍ مضطربة تتجدد دون انقطاع خلف الفتيات الجديات اللواتى يبدو أن مهنتهن تبعدهن عنا. وما إن يضحين بين ذراعينا حتى لا يعدن ما سبق أن كن والمسافة التى كنا نحلم باجتيازها أزيلت. لكننا نعيد الكرة مع نساء أخريات ونخص هذه المحاولات بكامل وقتنا وكامل مالنا وكل قوانا ونتفجر سخطاً على الحوذيّ البطيء جداً والذى ربما فوت علينا أول موعد، وتصيبنا الحمى. مع أننا نعلم أن هذا الموعد الأول سوف ينجز زوال الوهم. وما هم، فإننا نبغي، مادام الوهم قائماً، أن نرى إن كان يمكن أن نحيله واقعاً، وحينذاك نفكر بالغسالة التي لاحظنا فتورها. إن الفضول الغرامي شبيه بالفضول الذي تثيره فينا أسماء البلدان، فهو مخيب على الدوام لكنه يبعث من جديد.

لكن بائعة الحليب الشقراء ذات الخصل المحززة قصرت للأسف على ذاتها حالما أصبحت بالقرب مني وجردت من هذا الخيال الواسع والرغبات التى استيقظت في داخلي. فلم تعد سحابة افتراضاتي المرتعشة تغلفها بنشوة مدوخة. وأخذت تبدو شديدة الخجل أن لا يتوافر لها من بعد سوى أنف واحد (بدلاً من عشرة، من عشرين كنت أتذكرها تباعاً دون أن يمكنني تحديد تذكري)، أنف أكثر استدارة مما ظننت يخلف لديك فكرة الغباء وكان قد فقد في جميع الأحوال القدرة على التكاثر. وهذا التحليق المأسور الهامد المسحوق العاجز عن إضافة أي شيء إلى واقعه البائس لم يعد يحظى بخيالي ليتعاون وإياه. وحاولت وقد سقطت في الواقع اللامتحرك أن أرتد إلى فوق. وبدت لي الوجنتان اللتان لم أشاهدهما في الدكان جميلتين إلى حد تملكتني الرهبة فقلت، بغية أن أتمالك نفسي، لبائعة الألبان الصغيرة: "هل تتلطفين وتعطينني صحيفة "الفيغارو" الموجودة هنا، ينبغي أن أرى اسم المكان الذي أريد إرسالك إليه." وكشفت في الحال وهي تأخذ الصحيفة، كشفت إليّ المرفق كمّ جاكتتها الأحمر ومدت إليّ الصحيفة المحافظة بحركة بارعة لطيفة، راقتني سرعتها المألوفة ومظهرها الناعم ولونها القرمزيّ. وفيما كنت أفتح صحيفتي سألت الصغيرة كيما أقول شيئاً ودون أن أرفع ناظري: "ما اسم هذا الذي ترتدينه على شكل حبيكة حمراء؟ إنه لجميل جداً." فأجابت تقول لي: "إنه ثوب الرياضة." فإنما أصبحت الثياب والكلمات، بفعل انحطاط اعتيادي يصيب سائر الأزياء، وكانت تبدو لبضع سنوات خلت وكأنها وقف على العالم الأنيق نسبياً الذي تؤلفه صديقات "ألبيرتين"، أصبحت الآن من نصيب العاملات. وقلت وأنا أتظاهر بالبحث في صحيفة "الفيغارو": "ألن يزعجك حقاً أكثر من المتوقع أن أرسلك حتى بعيداً بعض الشيء؟" وحالما بدا هكذا أني أجد مشقة في الخدمة التى ستؤديها لي بقيامها بمهمة، بدأت في الحال ترى أن الأمر مصدر ضيق لها. "ذلك أن عليّ القيام عما قليل بنزهة على دراجتي، فليس لنا، ترى، سوى الأحد." - "ولكن ألا تبردين وأنت هكذا حاسرة الرأس؟" - "آه !لن أكون حاسرة الرأس، فسأكون بعمرة "البولو" وربما كنت في غنى عنها مع شعري هذا كله." ورفعت عينيّ إلى الخصل الذهبية الجعدة وأحسست بزوبعتها تحملني خافق الفؤاد في ضياء وعصفات إعصار من الجمال. وواليت النظر إلى صحيفتي ومع أن الأمر كان لمجرد أن أتمالك نفسي وأكسب متسعاً من الوقت، ومع أني أتظاهر بالقراءة فحسب فقد كنت أدرك مع ذلك معاني الكلمات الواقعة تحت ناظري وكانت تذهلني: "يجب أن نضيف إلى برنامج حفلة العصر التى أعلنا عنها والتى ستقام عصر هذا اليوم في قاعة الاحتفالات في "التروكاديرو" اسم الآنسة "ليا" التى وافقت على المشاركة فيها في مسرحية "مقالب نيرين". سوف تؤدى بالطبع دور "نيرين" حيث تبدو مدوخة في قريحتها ساحرة الفكاهة." وبدا ذلك كأنما ينزعون بفظاظة عن فؤادي الضماد الذي أخذ يلتئم تحته منذ رجوعي من "بالبيك". وأفلتت ضروب قلقي النفسي كدفق السيل. فـ "ليا" هي الممثلة صديقة الفتاتين اللتين كانت "ألبيرتين" قد نظرت إليهما في المرآة عصر أحد الأيام في الكازينو دون أن يبدو أنها تبصرهما. صحيح أن "ألبيرتين" كانت قد اتخذت في "بالبيك" لدى سماع اسم "ليا" لهجة مرصّنة خاصة لتقول لي، وقد صدمها تقريباً أن أمكن الاشتباه بعنوان للفضيلة مثلها: "لا، لا، ليست على الإطلاق امرأة من هذا القبيل، إنها امرأة من خيارهن." أما فيما يخصني لسوء الحظ فما كان الأمر، حين تصدر

"ألبيرتين" توكيداً من هذا النوع، ما كان البتة سوى المرحلة الأولى لتوكيدات مختلفة، إذ كان الثانى يجيئك بعد الأول بقليل: "لست أعرفها." ثالثاً، كانت "ألبيرتين"، بعدما حدثتنى عن مثل تلك المرأة "التى لا يرقى إليها الشك" والتى "لا تعرفها" (ثانياً)، كانت تنسى شيئاً فشيئاً أولاً أنها قالت لى إنها لا تعرفها فتروى، فى جملة تناقض فيها نفسها دون أن تدرى، أنها تعرفها. وما إن ينجز النسيان الأول ويكون التوكيد الثانى قد صدر حتى يبدأ نسيان ثان هو الذى كان الشخص بموجبه "لا يرقى الشك إليه". وسألت قائلاً: "أليس لمثل هذه مثل تلك الأخلاق؟" - "بالطبع ويحك، هذا أمر معروف تماماً!" وكانت اللهجة المرصنة تعود فى توكيد كان صدى غامضاً مخففاً للتوكيد الأول: "يجدر بى أن أقول إنها كانت معى دوماً لائقة تماماً. فقد كانت تعلم بالطبع أنى كنت زجرتها وبالطريقة التى تعجب. على أنه لا أهمية لذلك فى النهاية. وأنا مضطرة أن أكون ممتنة لها للاحترام الحقيقى الذى أبدته لى على الدوام. واضح أنها كانت تعلم من هى غريمتها." أنت تتذكر الحقيقة لأنها تملك اسماً وجذوراً قديمة، لكن الكذبة المرتجلة سرعان ما تنسى. كانت "ألبيرتين" تنسى هذه الكذبة الأخيرة، الرابعة، وذات يوم كانت راغبة فى كسب ثقتى بأسرار تبوح بها كانت تنساق إلى أن تقول لى عن المرأة ذاتها، وكانت فى البداية من أكثرهن لياقة ووداً. كانت تعرفها: "لقد أغرمت بى. وسألتنى ثلاث بل أربع مرات مرافقتها حتى منزلها والصعود للقائها. أما مرافقتها، فما كنت أرى فى الأمر سوءاً، أمام كل الناس، فى وضح النهار وفى الهواء الطلق، لكنى فور وصولى أمام بابها كنت أجد دوماً حجة ولم أصعد فى يوم." وبعد انقضاء بعض الوقت كانت "ألبيرتين" تلمح إلى جمال الحاجات التى تشاهدها فى منزل السيدة ذاتها. ولعلك كنت أفلحت دون شك بين تقريب وآخر فى حملها على قول الحقيقة، حقيقة ربما كانت أقل خطورة مما أميل إلى اعتقاده، فربما كانت، إذ هى سهلة مع النساء، تفضل عاشقاً، وما كانت، وأنا الآن عشيقها، لتفكر فى "ليا". وكان كفانى مذ ذاك، بالنسبة إلى كثير من النساء على أى حال، أن أجمع أمام صديقتي في نوع من التأليف توكيداتها المتناقضة لأثبت عليها أخطاءها (أخطاء هى، شأن القوانين الفلكية، أكثر يسراً فى استخلاصها بالعقل منها فى ملاحظتها، فى ضبطها فى الواقع). لكنها كانت بعد فضلت أن تقول إنها كذبت حين صدر عنها واحد من تلك التوكيدات (فإن سحبه والحالة هذه سوف يقوض كامل المنظومة التى وضعتها)، على أن تقر بأن كل ما سبق أن روت عنه منذ البداية كان محض سلسلة من الحكايات الكاذبة. وهنالك ما يشبهها فى ألف ليلة وليلة وإنها لتفتننا. فهى تعذبنا فى شخص نحبه وتمكننا بسبب ذلك أن نغوص أكثر قليلاً فى معرفة الطبيعة الإنسانية عوضاً عن أن نكتفى باللهو على صفحتها. إن الغم ينفذ فينا ويرغمنا بالفضول المؤلم أ، ننفذ بدورنا. وينجم عن ذلك حقائق لا حقَّ لنا فى إخفائها، حتى إن ملحداً على فراش الموت اكتشفها يقوم، وهو متحقق من العدم وغير مكترث بالمجد، يقوم مع ذلك باستخدام ساعاته الأخيرة فى محاولة التعرف بها.

ليس من شك أني كنت فقط في الأول من تلك التوكيدات بالنسبة إلى "ليا". كنت حتى أجهل إن كانت "ألبيرتين" تعرفها أم لا. وما هم فالأمر واحد. كان لابد من الحؤول دون أن يمكنها فى التروكاديرو التقاء تلك الصديقة أو التعرف إلى تلك المجهولة. قلت إنى لا أعلم إن كانت تعرف "ليا"

أم لا، مع أنه لابد سبق لى أن عرفت ذلك فى "بالبيك" ومن "ألبيرتين" نفسها. ذلك أن النسيان كان يقضي لديّ ولدى "ألبيرتين" على حد سواء على قسم كبير من الأمور التي سبق أن أكدتها لي. فإنما الذاكرة، بدلاً من أن تكون نسخة ثانية لمختلف وقائع حياتنا ماثلة دوماً أمام أعيننا، هى بالأحرى عدم يسمح لنا تماثل حالى، بين آن وآخر، أن نستخلص منه ذكريات ميتة وقد بعثت حية؛ على أن ثمة ألفاً من الوقائع الصغيرة لم تقع ضمن احتمالية الذاكرة هذه وسوف تمكث إلى الأبد خارج دائرة تحكمنا. فكل ما نجهل أنه يتعلق بالحياة الحقيقية العائدة للشخص الذى نحبه لا نعيره أى اهتمام وننسى فى الحال ما قاله لنا بشأن هذه الواقعة أو هؤلاء الناس الذين لا نعرفهم والمظهر الذى اتخذته وهى تقول لنا ذلك. لذلك حينما تستثار غيرتنا فيما بعد من جانب هؤلاء الناس أنفسهم فإن غيرتنا، بغية أن تعلم إن كانت غير مخطئة وإن كان ينبغى أن نرد إليهم بالضبط هذه العجلة التى تبديها عشيقتنا فى الخروج وذاك الاستياء من أننا حرمناها إياه بعودتنا المبكرة، وإذ هى تنقب فى الماضى لتستخلص منه استدلالات، لا تلقى فيه شيئاً. إنها دوماً استذكارية تشبه مؤرخاً يقع عليه أن يقدم تاريخاً لا يملك له أية وثيقة. وهى تنقض، إذ هى دائمة التأخير، انقضاض ثور هائج إلى حيث لا يوجد الشخص الفخور اللامع الذى يهيجها بوخزاته والذى يعجب الجمهور القاسى بجلاله وحيلته. الغيرة تتخبط فى الفراغ حائرة كما هى حالنا فى تلك الأحلام حيث نعانى من أننا لا نلقى شخصاً فى منزله الفارغ، وكنا عرفناه تمام المعرفة فى الحياة لكنه ربما كان آخر هنا واتخذ فحسب ملامح شخصية أخرى؛ وهى حائرة كما يتفق لنا أكثر من ذلك بعدما نستيقظ وحين نحاول التعرف إلى هذا أو ذاك من تفاصيل حلمنا. كيف كانت تبدو صديقتنا وهى تقول لنا ذلك؟ أما كانت تبدو سعيدة، أما كانت حتى تصفر، ولا تفعل ذلك إلا حينما يجول فى خاطرها فكرة غرامية ويزعجها وجودنا ويغضبها؟ ألم تقل لنا شيئاً يتناقض وما تؤكده لنا الآن من أنها تعرف أو لا تعرف فلاناً؟ لسنا نعرف ذلك ولن نعرفه فى يوم، وننصرف بضراوة إلى البحث عن بقايا حلم لا تماسك بينها، وتستمر فى أثناء ذلك حياتنا إلى جانب عشيقتنا، حياتنا الساهية عما نجهل أنه مهم لنا، المتنبهة لما ربما كان غير مهم، التى يسكنها هاجس كائنات لا صلات حقيقية لها بنا، حياتنا المليئة بالنسيان والثغرات والهموم الوهمية، حياتنا الشبيهة بالحلم.

وانتبهت إلى أن بائعة الألبان لا تزال هنا، فقلت لها إن المكان بالفعل بعيد جداً وإنى لست بحاجة إليها. ورأت كذلك فى الحال أن الأمر سيكون مزعجاً: "ثمة مباراة حلوة بعد قليل وبودى أن لا تفوتنى." وأحسست أنها لابد مذ ذاك أن تقول بحب الرياضة وأنها ستقول بعد بضع سنوات بالرغبة فى أن تحيا حياتها. وقلت لها إنى بالحقيقة لا حاجة لى بها ونقدتها خمسة فرنكات. وإذ كانت قليلاً ما تتوقع ذلك وتقول فى نفسها إنها إن نالت خمسة فرنكات فى مقابل القيام بلا شىء فسوف تنال الكثير فى مقابل مهمتى وأخذت تحكم أن مباراتها لم تكن مهمة. "لعلى كنت قمت بمهمتك إذ يمكن دوماً تدبر الأمور." لكنى دفعت بها إلى الباب إذ كنت بحاجة إلى البقاء وحيداً. كان لابد، مهما كلف الثمن، من الحؤول دون أن تستطيع "ألبيرتين" التقاء صديقات "ليا" فى التروكاديرو. كان لابد من ذلك ولابد من النجاح: ما كنت أعرف، والحق يقال، كيف سيتم ذلك وفى اللحظات الأولى كنت أفتح

يدىّ وأنظر إليهما وأفرقع مفاصل أصابعى، إما لأن الفكر الذى لا يستطيع العثور على ما يريد يفسح لذاته، وقد أخذ منه الكسل، أنيتوقف على مدى لحظة تبدو له فيها الأشياء الأقل إثارة بصورة مميزة واضحة كمثل رؤوس عشب التلاع التى تراها من العربة ترتجف فى هبة الريح حينما يتوقف القطار فى أرض مكشوفة - وهو انعدام حركة ليس دوماً أوفر خصوبة من انعدام حركة الحيوان الواقع فى قبضتك والذى ينظر دون حراك وقد شل من الخوف أو خلب لبه - وإما لأنى أمسكت بجسمى على أتم الاستعداد - إلى جانب عقلى فى الداخل، وضمن هذا الأخير وسائل التأثير على هذا الشخص أو ذاك - وكأنه لم يعد سوى سلاح سوف تنطلق منه الطلقة التى ستفصل "ألبيرتين" عن "ليا" وصديقتيها. أجل، لقد سبق أن قلت فى نفسى فى الصباح حينما جاءت "فرانسواز" تقول لى إن "ألبيرتين" سوف تذهب إلى التروكاديرو: "تستطيع "ألبيرتين" أن تفعل ما يحلو لها، وظننت أن أفعالها سوف تلبث حتى المساء فى هذا الطقس الرائع دون أهمية ملموسة بالنسبة إلىّ. لكنما لم تكن شمس الصباح وحدها، مثلما كنت ظننت، هى التى جعلتنى غير مبال إلى هذا الحد؛ بل لأنى كنت أعلم، بعدما أرغمت "ألبيرتين" على التخلى عن المشروعات التى ربما أمكن أن تباشرها أو حتى تنجزها فى منزل آل "فيردوران" واضطررتها أن تمضى إلى حفلة فى العصر كنت اخترتها بنفسى وما استطاعت بشأنها أن تعد لأى شىء، كنت أعلم أن ما ستفعله سوف يكون حتماً بريئاً. وإن كانت "ألبيرتين" كذلك قد قالت بعد بضع لحظات: "إنى إن قتلت فالأمر واحد عندى"، فذلك لأنها كانت متيقنة أنها لن تقتل نفسها. لقد توافر أمامى وأمام "ألبيرتين" فى هذا الصباح (أكثر كثيراً من إشماس النهار) هذا الوسط الذى لا نراه ولكننا كنا نبصر بوساطته الشفافة المتغيرة: أفعالها فيما يخصنى وأهمية حياتها فيما يخصها، يعنى تلك الظنون التى لا ندركها ولكنها لا يمكن تشبيهها بالفراغ الخالص أكثر مما ينطبق ذلك على الهواء الذى يحيط بنا. وهى إذ تؤلف من حولنا جواً متبدّلاً، ممتازاً أحياناً وأكثر الأحيان خانقاً، ربما كانت جديرة بأن تلحظ وتسجل بمقدار العناية التى تولى لتسجيل الحرارة والضغط الجوى والفصول لأن لأيامنا أصالتها المادية والمعنوية. إن الاعتقاد الذى لم يلحظ من جانبي والذي غمرني مع ذلك بجو من البهجة حتى اللحظة التي عدت ففتحت فيها صحيفة "الفيغارو" والذى مفاده أن "ألبيرتين" لن تفعل إلا ما كان غير مؤذ، إن الاعتقاد هذا زال منذ قليل. فلم أعد أعيش داخل النهار الجميل، بل فى نهار أنشأه داخل الأول خوفى أن تعيد "ألبيرتين" صلاتها بـ "ليا" وبسهولة أكبر بالفتاتين إن كن ذهبن، كما كان ذلك مرجحاً، ليصفقن للممثلة فى "التروكاديرو" حيث لن يصعب عليهن التقاء "ألبيرتين" فى فترة استراحة. لم أعد أفكر بالآنسة "فانتوى" فقد كان اسم "ليا" عاد، كيما يثير غيرتى، فأرانى صورة "ألبيرتين" فى الكازينو بالقرب من الفتاتين. ذلك أنى ما كنت أملك فى ذاكرتى سوى مجموعات لـ "ألبيرتين" مفصول بعضها عن بعض وغير تامة: صور جانبية ولقطات خاطفة. وكانت غيرتى لذلك تقتصر على تعبير متقطع، متهرب وثابت فى آن، وعلى الأشخاص الذين بعثوه على محيا "ألبيرتين". كنت أتذكره حينما كانت الفتاتان فى "بالبيك" تطيلان النظر إليها أو تفعل نسوة من هذا القبيل. كنت أتذكر العذاب الذى أعاينه من جراء رؤيتى نظرات نشطة، كما هى نظرات رسام يود أن يضع رسماً تخطيطياً، تجرى على

الوجه الذى تغطيه تماماً والذى كان، بسبب وجودى دونما شك، يخضع لتلك الملامسة دون أن يبدو أنه يلاحظها وبجمود ربما كان فى الخفاء شهوانياً. كان ثمة، قبل أن تستعيد "ألبيرتين" رباطة جأشها وتكلمنى، ثانية لا تتحرك فى أثنائها وتبتسم فى الفراغ بذات المظهر الطبيعى المتكلف واللذة المخفاة كما لو يجرى تصويرها شمسياً. بل كانت من أجل أن تختار أمام العدسة وقفة أكثر إثارة - تلك التى سبق أن اتخذتها فى "دونسيير" حينما كنا فى نزهة برفقة "سان لو": تضحك وتمر لسانها على شفتيها، كانت تتظاهر بأنها تستفز كلباً. صحيح أنها لم تكن فى تلك الفترات إطلاقاً ما كانت عليه حينما كانت هى مهتمة ببنيات عابرات. كانت نظرتها الضيقة المخملية فى هذه الحالة الأخيرة تتركز على عابرة السبيل وتلتصق بها دبقة فتاكة إلى حد تبدو معه وكأنما كان ينبغى أن تقتلع الجلد معها فى انسحابها. لكن هذه النظرة فى تلك الفترة، والتى كانت توليها على الأقل شيئاً من الجدية إلى حد تظهر معه متألمة، كانت بدت لى عذبة فى مقابل النظرة الباهتة السعيدة التى اتخذتها بالقرب من الفتاتين، ولعلنى كنت فضلت التعبير القاتم عن الرغبة التى ربما تحسها أحياناً على التعبير المشرق وليد الرغبة التى توحى بها. وعبثاً كانت تحاول حجب الشعور الذى يعتريها منها فقد كان يغمرها ويغلفها رقيقاً شهوانياً ويبرز محياها مورداً تماماً. على أن كل ما كانت "ألبيرتين" تمسك به معلقاً فى داخلها، وكان يشع من حولها ويسومنى عذاباً عظيماً، من ذا يعلم إن كانت ستوالى كتمه فى أثناء غيابى وإن كانت لن تستجيب بجرأة لمحاولات تودد الفتاتين إذ أنا الآن غائب؟ كانت تلك الذكريات تسبب لى بالتأكيد ألماً عظيماً. لكأنما هى إقرار كامل بميول "ألبيرتين" واعتراف شامل بخيانتها، وما كانت أيمان "ألبيرتين" الخاصة التى أود تصديقها والنتائج السلبية لتقصياتى الناقصة وتوكيدات "أندريه"، وربما جرت بالتواطؤ مع "ألبيرتين" ما كانت كلها لتقوى عليها. كان بوسع "ألبيرتين" أن تنكر أمامى خياناتها الخاصة، لكنها كانت، بكلمات تفلت منها، وهى أقوى من التصريحات المناقضة، كانت بتلك النظرات وحدها قد أقرت بما لعلها ودت أن تخفيه أكثر كثيراً من الواقعات الخاصة، بما لعلها كانت قتلت نفسها على أن تعترف به، عنيت ميلها. فإنه ليس من امرئ يود الكشف عن مكنونات نفسه. وعلى الرغم من الألم الذى تسببه لى هذه الذكريات، هل كان بوسعى أن أنكر أن برنامج حفلة التروكاديرو المسائية هو الذى أيقظ فى النفس حاجتى إلى "ألبيرتين"؟ لقد كانت من صنف تلك النساء اللواتى تستطيع ذنوبهن لدى الضرورة أن تقوم مقام المفاتن، وبمقدار ذنوبهن طيبتهن التى تعقبها وتعيد إلينا تلك الحلاوة التى نضطر دون انقطاع معهن، كما هى حال مريض لا يبدو البتة فى تمام العافية على مدى يومين متعاقبين، أن نستردها. بل ثمة من جانب آخر ما كان أكثر من ذنوبهن فى أثناء حبنا لهن، هى ذنوبهن قبل أن نعرفهن وأولها جميعها طبيعتهن. فإن ما يجعل صنوف الحب هذه مؤلمة أن نوعاً من الخطيئة الأصلية للمرأة يسبقها وجوداً، خطيئة تجعلنا نحبهن حتى إننا حين ننسى ذلك نضحى أقل حاجة إليها ولابد بغية معاودة الحب من معاودة الألم. كان ما يشغل بالي أكثر ما يشغله فى هذه الآونة أن لا تلتقى الفتاتين وأن أعلم إن كانت تعرف "ليا" أم لا، مع أنه ربما كان جديراً بالمرء أن لا يهتم فى الوقائع الخاصة بما كان غير دلالتها العامة وعلى الرغم من الصبيانية، التى بمثل حجم صبيانية السفر أو الرغبة فى التعرف إلى النساء، والتى قوامها تجزيء

فضولنا حول ما تبلور فجأة في فكرنا من سيل الحقائق القاسية اللامرئي، الحقائق التي ستبقى دوماً مجهولة لدينا. وإن نحن أفلحنا على أي حال في القضاء عليه فسرعان ما يحل آخر محله. كنت أخشى البارحة أن تذهب "ألبيرتين" إلى منزل السيدة "فيردوران"، والآن لم أعد مشغولاً إلا بـ "ليا". والغيرة المعصوبة العينين ليست عاجزة فحسب عن اكتشاف أي شيء في الظلمات التي تكتنفها بل هي إلى ذلك واحد من تلك العذابات التي لابد فيها من إعادة المهمة دون توقف، كما هي مهمة بنات "دوناووس"(١) أو "إيكسيون"(٢). وحتى إن لم تكن الفتاتان هناك، أي انطباع كان يمكن أن تخلف "ليا" في نفسها، وهي يزيد في بهائها لباسها التنكري ويجملها النجاح، وأية أحلام تطلق لها العنان لدى "ألبيرتين" وأية رغبات، وإن تم كبح جماحها عندي، تثير قرفها من عيشة لا يمكنها إشباعها فيها؟ ومن ذا يعلم على أية حال إن لم تكن "ليا" وأنها لن تذهب للقائها في مقصورتها، وحتى إن لم تكن "ليا" تعرفها، من ذا يؤكد لي أنها، وقد لمحتها في جميع الأحوال في "بالبيك". لن تتعرفها ولن توافيها من فوق خشبة المسرح بإشارة تجيز لـ "ألبيرتين" أن يوعز بفتح باب الكواليس لها؟ إن الخطر ليبدو سهلاً تجنبه إلى حد بعيد حينما نتحاشاه. ولم يكن بعد جرى تحاشيه. وكنت أخشى أن لا يكون ذلك ممكناً فيزداد بذاك المقدار هولاً في نظري. ومع ذلك فإن هذا الحب لـ "ألبيرتين" الذى كنت أحسه يتلاشى تقريباً حينما أحاول تحقيقه إنما بدا عنف ألمي في هذه الآونة وكأنما يقيم إلى حد ما البرهان عليه. فلم يعد لدى من هم سواه وما كنت أفكر إلا بالوسائل التى تحول دون بقائها في التروكاديرو وكنت قدمت أي مبلغ لـ "ليا" مقابل أن لا تذهب إليه. فإن كنا نبرهن عن تفضيلنا بالعمل الذى ننجزه أكثر منا بالفكرة التى نكونها فلعلي أحببت "ألبيرتين". لكن عودة عذابي هذه ما كانت تخلف فيّ تماسكاً أكبر لصورة "ألبيرتين". كانت تسبب أدوائي مثل إلهة تظل غير مرئية، فأجهد بألف من التخمينات في تدارك عذابي دون أن أحقق بذلك حبي.

كان لابد بادىء الأمر من التيقن بأن "ليا" ذاهبة حقاً إلى التروكاديرو. وبعدما صرفت بائعة الحليب ناقداً إياها فرنكين اتصلت هاتفياً بـ "بلوك"، وكان بدوره على ارتباط بـ "ليا" لأسأله عن ذلك. لم يكن يعلم عن الأمر شيئاً وبدا مستعجباً أن يستطيع إثارة اهتمامي. وفكرت أنه لابد لي من الإسراع وأن "فرانسواز" بكامل ثيابها أما أنا فلا، فسألت أمي أن تدعها لي طوال النهار، وحملتها فيما كنت أنهض من سريري على استئجار سيارة. كان عليها الذهاب إلى التروكاديرو وشراء بطاقة والبحث عن "ألبيرتين" في كل مكان في القاعة وتسليمها كلمة مني. كنت أقول لها في تلك الكلمة إنني مشوش البال جراء رسالة وصلتني تواً من ذات السيدة التى تعلم أني سبق لي أن كنت تعيساً جداً بسببها ذات ليلة في "بالبيك". وأخذت أذكرها بأنها لامتني في الغد على أنني لم أرسل في طلبها. ولذلك أذنت لنفسي، أقول لها، أن أسألها التضحية لي بصبيحتها والمجيء لاصطحابي لنقوم سوية بنزهة في الهواء الطلق كيما أحاول تهدئة روعي. ولما كان سيمضي وقت طويل إلى حد ما قبل أن أكون ارتديت ثيابي وجهزت فسوف يسعدني أن تغتنم وجود "فرانسواز" للذهاب إلى مخزن "تروا كارتييه" (الأحيان الثلاثة) - وكان هذا المخزن، بما هو أصغر، أقل إقلاقاً لي من مخزن "بون مارشيه" (الثمن الرخيص) - وشراء قميص التول الأبيض المطرز الذى كانت بحاجة إليه.

---

(١) هنّ بنات ملك "أرغوس" اللواتي قتلن أزواجهن فكان عقابهن في جهنم أن يملأن إلى الأبد برميلاً لا قعر له.
(٢) بطل يوناني أسطوري وملك "اللابيثيّين" أمر "زيوس" رئيس الآلهة أن يُربط إلى دولاب ملتهب يدور به إلى الأبد.

لم تكن رسالتى على الأرجح عديمة الجدوى. وحقيقة القول إنى ما كنت أعلم شيئاً فعلته "ألبيرتين" مذ عرفتها، بل حتى قبل ذلك. لكنما كان فى حديثها (وكان وسع "ألبيرتين" لو أننى كلمتها عنه أن تقول إنى أسأت السماع) بعض التناقضات، بعض اللمسات التى تبدو لى حاسمة بمقدار ما هو الجرم المشهود، ولكنها أقل صلاحية للاستخدام ضد "ألبيرتين" التى كانت، إذ تؤخذ فى التزوير كما يؤخذ الطفل، كانت فى الغالب، بفضل هذا التصحيح المفاجيء الاستراتيجى، قد أبطلت فى كل مرة حملاتى القاسية وأعادت الأمور إلى نصابها. فقد كانت تستخدم، لا بداعى التنميق الأسلوبى، بل لتصلح صنوف تهورها، هذه التبدلات القواعدية المفاجئة التى تشبه قليلاً ما يسميه علماء القواعد الفصل البلاغي أو ما لست أدري. فإذا انساقت فى حديثها عن النساء إلى القول: "أتذكر أننى فى الفترة الأخيرة" كانت "أننى" تضحى فجأة بعد "ربع رويحة" "أنها"، وكان أمراً أبصرته إبصار متنزهة بريئة، ولم تنجزه البتة. لم تكن هى فاعل الفعل. وددت لو أتذكر بالضبط بداية الجملة كي أستخلص بنفسى، بما أنها كانت تتهرب، ما عسى كانت الخاتمة. ولما كنت قد انتظرت تلك الخاتمة فقد كنت لا أحس تذكر البداية التى ربما جعلتها هيئتى المهتمة تحرفها عن مسارها فألبث قلقاً بشأن فكرتها الحقيقية وذكرها المطابق للواقع. وإنما أمر بدايات الكذبة لدى عشيقتنا يطابق لسوء الحظ بدايات حبنا ذاته أو بدايات نزعة ما لدينا. فإنها تتشكل وتتجمع وتمر دون أن يلاحظها انتباهنا. وحين نبغى تذكر الطريقة التى بدأنا بها أن نحب امرأة فإننا مذ ذاك قد أحببنا. أما الأحلام التى تسبقها فما كنا نقول فى نفسنا: إنها التمهيد للحب، فلنحذر؛ وكانت تتقدم على نحو مباغت ونكاد لا نلاحظها. وإنى إلى ذلك، فيما عدا حالات نادرة إلى حد ما نسبياً، كثيراً ما قابلت، لمحض إسلاس الرواية، بين قولة كاذبة لـ "ألبيرتين" وتوكيدها الأول (حول الموضوع نفسه). والتوكيد الأول هذا غالباً ما انسل لا يسترعى اهتمامي، إذ أنا لا أقرأ المستقبل ولا أخمّن أى توكيد مناقض يمكن أن يقابله، وقد طرق مسامعى بالتأكيد ولكن دون أن أفصله عن السلسلة المستمرة لأقوال "ألبيرتين". كان بودى بعد ذلك، فى مواجهة الكذب الواضح أو حينما يداخلنى شك مقلق، أن أتذكر: وعبثاً أفعل؛ إن ذاكرتى لم تخطر فى الوقت المناسب وظنت من غير المجدى أن تحتفظ بنسخة.

وأوصيت "فرانسواز" أن تقوم، بعدما تكون أخرجت "ألبيرتين" من القاعة، بإبلاغى الأمر هاتفياً وأن تعود بها، رضيت أم لم ترض. وأجابت "فرانسواز" تقول: "لا ينقصنا إلا أن لا تكون راضية بالمجيء للقاء سيدى." - "لكنى لا أدرى إن كانت إلى هذا الحد راغبة فى لقائى." فأردفت "فرانسواز" تقولّ، وقد بعثت "ألبيرتين" فى صدرها من جديد، بعد هذه السنوات الكثيرة، ذات عذاب الغيرة الحاسدة التى سبق أن أثارتها بالأمس "أولالي" فى جوار خالتى: "ينبغى أن تكون كافرة بالنعمة". وإذ كانت تجهل أن وضع "ألبيرتين" لدىّ لم تجد هى وراءه بل رغبت فيه أنا (وهو ما أود إخفاءه عنها يدفعنى الاعتزاز بالنفس وكيما أثير حنق "فرانسواز") فقد كانت معجبة بحذاقتها وكارهة لها وتدعوها حينما تحدث عنها الخدام الآخرين بـ "الممثلة" و"المخادعة" التى تفعل بى ما تشاء. ما كانت بعد تجرؤ على الدخول معها فى حرب وكانت تبش لها وتفخر لدىَ بالخدمات التى تؤديها لىّ فى علاقاتها بى ظناً منها بأن ليس يجديها أن تقول لى شيئاً وأنها لن تدرك شيئاً من ذلك، ولكنها تقف

بالمرصاد لأية فرصة؛ فإن كشفت مرة صدعاً فى وضع "ألبيرتين" فقد كانت عازمة على تكبيره وعلى الفصل بيننا فصلاً تاماً. - "كافرة بالنعمة إلى أبعد حد؟ لا، يا "فرانسواز"، فأنا من يلفى نفسه كافراً بالنعمة، فلست تعرفين كم هى طيبة معى. (فكم كان يحلو لى أن أبدو محبوباً!) هيا أسرعى فى الذهاب."

- "ها أنا ذا أطير، وبسرعة."

لقد شرع تأثير ابنة "فرانسواز" يفسد قليلاً مفرداتها. وعلى هذا النحو تفقد سائر اللغات نقاءها بإضافة مصطلحات جديدة إليها. وانحطاط لغة "فرانسواز" التى عرفتها فى عهودها الزاهية إنما كنت على أى حال أتحمل مسؤوليته غير المباشرة. فما كانت ابنة "فرانسواز" لتنحدر بلغة أمها الكلاسيكية إلى أسفل درجات الرطانة لو أنها اكتفت بالتحدث إليها بالدارجة المحلية. على أنها لم تمتنع عنها فى يوم، فحينما كانت الاثنتان على مقربة منى كانتا، إن اتفق لهما أمور سرية تقولانها، وبدلاً من المبادرة إلى الانزواء فى المطبخ، كانتا تقيمان لهما فى قلب غرفتى حاجزاً أكثر مناعة من أفضل الأبواب إغلاقاً بتحدثهما بالدارجة المحلية. كنت أفترض فقط أن الوالدة والابنة ما كانتا تعيشان دوماً إن حكمت على ذلك بالتواتر الذى تعود به الكلمة الوحيدة التى أمكننى تمييزها: "تفلقيننى" (ما لم أكن أنا موضوع ذاك الضيق). لكن اللغة المجهولة أكثر ما تكون إنما يجرى تعلمها فى نهاية المطاف حينما تسمع دوماً من يتحدث بها. وأسفت أن كانت تلك اللغة الدارجة المحلية إذ أفلحت فى معرفتها وما كان ليقل تعلمى لو أن "فرانسواز" تعودت التحدث بالفارسية. وعبثاً ضاعفت "فرانسواز"، حينما تبينت أوجه تقدمى، من سرعة كلامها وكذلك فعلت ابنتها، فلم تفلحا. واغتمت الأم من أنى أفهم المحلية الدارجة ثم ابتهجت لسماعها إياي أتحدث بها. كان ذلك الابتهاج والحق يقال من باب السخرية، فمع أنى قد بلغ بى فى نهاية المطاف أن انطق بها على نحو ما تفعل تقريباً كانت تجد بين طريقتينا فى التلفظ هاويات تخلب لبها، وأخذت تأسف أن لا تلتقى من بعد أناساً من بلدها لم يخطروا البتة فى بالها منذ سنوات كثيرة وربما تلووا فيما بعد من ضحكات، ودت لو أنها تسمعها، حينما يسمعوننى أتكلم الدارجة المحلية بهذا المقدار من السوء. كانت تلك الفكرة وحدها تملؤها حبوراً وأسفاً وكانت تعدد هذا أو ذاك من الفلاحين الذين ربما فاضت عيونهم بدموع مبعثها الضحك. ولم يخالط فى جميع الأحوال أى فرح الحزن الناجم عن أنى أفهمها تماماً وإن كنت أسيء لفظها. إن المفاتيح لا فائدة تجنى منها إن استطاع من نريد منعه من الدخول أن يستخدم مفتاحاً عمومياً أو كلابة لصوص. ولما أصبحت الدارجة المحلية حصناً لا قيمة له أخذت تتكلم مع ابنتها فرنسية سرعان ما أضحت فرنسية أحط العهود.

كنت على أتم الاستعداد، و"فرانسواز" لم تكن بعد هتفت. فهل كان ينبغى الذهاب دونما انتظار؟ ولكن من ذا يعلم إن كانت ستجد "ألبيرتين"؟ وإن لم تكن هذه فى الكواليس؟ بل إن كانت، وقد التقتها "فرانسواز"، ستسلم بالعودة؟ ودوى رنين الهاتف بعد نصف ساعة فيما يخفق الأمل والخشية فى فؤادى ويصطخبان. وكانت، بأمر من عامل الهاتف، كوكبة طيارة من الأصوات تحمل إلىّ بسرعة

آنية أقوال رجل الهاتف لا أقوال "فرانسواز" التى يحول وجل وكآبة مستمدان من الجدود، يحولان، إما ألصقا بحاجة لم يعرفها آباؤها، دون اقترابها من سماعة هاتف، فيما يحتمل أن تزور مصابين بعدوى. وكانت قد وجدت "ألبيرتين" وحدها فى الردهة وهى لحقت فى الحال بـ "فرانسواز" بعدما ذهبت فقط لتخطر "أندريه" بأنها لن تبقى. "ألم تكن غاضبة؟ آه !عفوك !اسأل هذه السيدة إن لم تكن الآنسة غاضبة." - "تقول لى هذه السيدة أن أقول لك أن لا، على الإطلاق، وأن الأمر نقيض ذلك تماماً. وفى جميع الأحوال ما كان يعرف إن لم تكن راضية. سوف تمضيان الآن إلى مخزن "الأحياء الثلاثة" وتكونان عادتا فى الساعة الثانية." وفهمت أن الساعة الثانية إنما تعنى الثالثة إذ الوقت جاوز الثانية. لكنما كان ذلك لدى "فرانسواز" واحداً من تلك العيوب الخاصة الدائمة التى لا شفاء منها والتى ندعوها مرضية وقوامه عجزها عن النظر نظرة صحيحة إلى الساعة فى يوم والإعلان عن الوقت بالضبط. وما استطعت قط أن أدرك ما كان يجول فى رأس "فرانسواز" حينما تقول، بعدما تنظر على ذاك النحو إلى الساعة، إن كانت الثانية: إنها الساعة الواحدة أو هى الثالثة، وما استطعت أن أدرك قط إن كانت الظاهرة الجارية آنذاك اتخذت مركزها فى بصر "فرانسواز" أو فكرها أو لغتها. أما الشىء المؤكد فإن تلك الظاهرة واقعة على الدوام. إن البشرية مغرقة فى القدم. وقد وفرت الوراثة وصنوف التزاوج قوة لا تقهر للعادات السيئة والارتكاسات العائبة. ثمة شخص يعطس ويحشرج لمروره على مقربة من شجرة ورد، وآخر يصيبه طفح من رائحة دهان قريب العهد، وكثيرون ضروب من القولنج إن انبغى أن يسافروا، وأحفاد لصوص أصحاب ملايين وكرماء لا يستطيعون حجب النفس عن سلبنا خمسين فرنكاً. فأما أن أعلم علام يقوم العجز الذى تعانى منه "فرانسواز" فى أن تقول كم هى الساعة بالضبط فما هى من وفرت لى فى يوم أى إيضاح بهذا الشأن. فلم تكن "فرانسواز" تحاول، على الرغم من الغيظ الذى تثيره لدىّ عادةً تلك الإجابات غير الصحيحة، لا الاعتذار عن خطئها ولا تفسيره. كانت تلبث ساكتة ويبدو كأنها لا تسمعنى، وهو ما كان يثير سخطى فى النهاية. كنت أود أن أسمع كلمة تبرير إن لم يكن لشىء فلأفتح على الأقل ثغرة، ولكن لا شىء، بل صمت اللامبالى. أما ما كان من أمر اليوم فليس فى جميع الأحوال شك، سوف تعود "ألبيرتين" برفقة "فرانسواز" فى الساعة الثالثة، ولن تلتقى "ألبيرتين" لا "ليا" ولا صديقاتها. ولما كان خطر أن ترتبط مجدداً بعلاقات صداقة معهن قد جرى تحاشيه، فقد فَقَدَ فى الحال من أهميته فى نظرى، وعجبت، وأنا أبصر بأية سهولة جرى ذلك، أن أكون ظننت أننى لن أفلح فى تحاشيه. وأحسست بميل إلى الامتنان شديد نحو "ألبيرتين" التى لم تذهب، كما كان واضحاً، إلى التروكاديرو من أجل صديقات "ليا"، والتى كانت تقيم لى البرهان، بتركها حفلة المساء وعودتها بإشارة منى، على أنها ملك يدىّ حتى مستقبلاً أكثر مما كنت أتصور. وتعاظم الميل أيضاً حينما حمل إلىّ دراج كلمة منها كى أتحلى بالصبر وفيها بعض من تلك العبارات اللطيفة التى كانت مألوفة لديها: "عزيزي الغالي "مارسيل"، إنى أقل سرعة فى سيرى من هذا الدراج الذى وددت أن آخذ دراجته لأبكر فى وجودى بالقرب منك. كيف يمكنك الظن بأنى أستطيع أن أغضب أو أن شيئاً يمكن أن يبهجنى بقدر ما يفعل وجودى معك؟ لطيف أن نخرج كلانا وألطف منه أن لا نخرج فى يوم إلا سوية. فأية أفكار

تعتمل فى رأسك إذن؟ ياله "مارسيل" !ياله "مارسيل" !أنا كلى لك، "ألبيرتين"."

إن الفساطين التى كنت أشتريها لها، واليخت الذى سبق أن حدثتها عنه ومباذل "فورتونى"، كل ذلك الذى يجد فى طاعة "ألبيرتين" هذه لا مقابله بل تتمته كان يبدو لى بمثابة عدد من الامتيازات أمارسه؛ ذلك لأن واجبات وأعباء السيد جزء من سيطرته وهى تحددها وتثبتها بقدر ما تفعل حقوقه. وهذه الحقوق التى تقر لى بها كانت تكسب أعبائى بالضبط طابعها الحقيقى؛ كانت لى امرأة تطلب، لدى أول كلمة أبعث بها إليها على نحو مفاجئ، أن يتصل بى هاتفياً من يقول لى باحترام إنها عائدة وإنها راضية أن يعودوا بها فى الحال. لقد كنت سيداً أكثر مما ظننت، سيداً أكثر يعنى عبداً أكثر. ولم يعد صبرى ينفد لرؤية "ألبيرتين". وإن يقينى بأنها تقوم بجولة فى الأسواق برفقة "فرانسواز" وأنها ستعود برفقتها فى وقت قريب، وكنت ربما أطلت في مدته راضياً كان ينير مثل نجم ساطع هادئ وقتاً كنت أصبت متعة أكبر فى قضائه وحدى. كان حبى لـ "ألبيرتين" قد أنهضنى وجعلنى أستعد للخروج ولكنه قد يحول دون تمتعى بالخروج. وكنت أعتقد أنه لابد فى يوم الأحد هذا أن تقوم عاملات صغيرات وفتيات طائشات وعاهرات بالتنزه فى الغابة. وكنت أصنع بكلمات الطائشات والعاملات الصغيرات هذه (مثلما سبق أن وقع لى ذلك كثيراً باسم علم، باسم فتاة قرأته فى محضر حفلة راقصة) وبصورة صدار أزرق وتنورة قصيرة، لأننى كنت أضع خلف كل هذا امرأة مجهولة يمكن أن تحبنى، كنت أصنع وحدى نساء مشتهيات وأقول فى نفسى: "كم ينبغى أن يكن حلوات!" ولكن ما عسى يفيدنى أن يكن كذلك بما أننى لن أخرج بمفردى؟

وأفدت من أننى كنت بعد وحدى وأرخيت الستائر إلى نصف مداها كى لا تمنعنى الشمس من قراءة النوطة وجلست إلى البيانو وفتحت كيفما تيسر سوناتا "فانتوى" التى كانت موضوعة فوقه وأخذت أعزف إذ كنت أنعم بمتسع من الوقت وبراحة البال بما أن مجئ "ألبيرتين" لايزال بعيداً ولكنه فى المقابل مؤكد تماماً. كان بوسعى، إذ تكتنفنى أجواء الانتظارالذى يفيض أماناً لعودتها بصحبة "فرانسواز" والثقة بطاعتها وكأنما أجواء الغبطة المنبعثة من نور داخلىّ بمثل دفء الضياء فى الخارج، كان بوسعى التصرف بتفكيرى وسلخه فترة عن "ألبيرتين" وصرفه إلى "السوناتا". ولم أحرص حتى فى هذه الأخيرة على أن ألاحظ كم كان تآلف الفكرة الشهوانية والفكرة المهمومة أكثر مطابقة الآن لحبى لـ "ألبيرتين" الذى غابت عنه الغيرة فترة طويلة إلى حد أنى استطعت أن أقر لـ "سوان" بجهلى لهذا الشعور. لا، فإنى إذ كنت آخذ السوناتا من وجهة نظر ثانية وأنظر إليها على أنها فى حد ذاتها من أعمال فنان كبير، كان يردنى دفق اللحن إلى أيام "كومبريه" - ولست أقصد "مونجوفان" وجانب "ميزيكليز"، بل النزهات فى جانب "غيرمانت" - التى داخلتنى فيها الرغبة فى أن أكون فناناً. فهل تخليت، بعدولى فى الواقع عن ذاك الطموح، عن شىء حقيقى؟ وهل كان بوسع الحياة أن تكون لى سلوى عن الفن، وهل فى الفن حقيقة أعمق تلقى فيها شخصيتنا الحقيقية تعبيراً لا تمنحها إياه أفعال الحياة؟ فإن كل فنان كبير يبدو شديد الاختلاف عن الآخرين ويخلف فينا إلى حد بعيد هذا الشعور بالتفرد الذى نبحث عنه عبثاً فى الحياة اليومية !وقد أثار انتباهى لحظة كنت أفكر فى ذلك فاصل

موسيقى من السوناتا، مع أنى كنت أعرفه تمام المعرفة، لكن الانتباه يلقى أحياناً ضوءاً مختلفاً على أشياء معروفة لدينا مع ذلك منذ زمن طويل ونلاحظ فيها ما لم يسبق أن رأيناه مرة فيها. ولم أملك وأنا أعزف ذاك الفاصل، ومع أن "فانتوى" كان يعبر عن حلم لعله كان لبث غريباً تماماً على "فاغنر"، لم أملك النفس عن أن أهمس قائلاً: "تريستان!" بالابتسامة التى توافى صديق الأسرة حين يلقى شيئاً من الجد فى نبرة، فى حركة من الحفيد الذى لم يعرفه. ومثلما يتطلع المرء حينذاك إلى صورة تسمح بإيضاح وجه الشبه فقد وضعت فوق سوناتا "فانتوى" على المقرأ موسيقا "تريستان" التى كان يقدم منها مقاطع فى هذا العصر بالضبط فى فرقة "لامورو". ولم يكن لدىّ فى ما أبدى من إعجاب بسيد "بايروت" أى من الوساوس التى تنتاب من يملى عليهم الواجب، مثل "نيتشه"، أن يتجنبوا فى الفن كما فى الحياة الجمال الذى يغريهم والذين يبتعدون عن "تريستان" مثلما ينكرون "بارسيفال" ويفلحون، عن طريق الزهد الروحى ومن إماتة إلى إماتة وبسلوك درب الصليب الأكثر دموية، فى الارتفاع حتى المعرفة المحضة والعبادة التامة لـ "حوذى لونجومو"(١). وأخذت أتبين كل ما تحمله أعمال "فاغنر" من حقيقة وأنا أرى من جديد هذه الفكرة الملحاحة المتهربة التى تخطر فى فصل ولا تبتعد إلا لتعود، وهى أحياناً بعيدة ناعسة ويقرب أن تكون متجردة، وفى فترات أخرى تبدو، فيما تظل مبهمة، شديدة الإلحاح شديدة القرب بالغة الجوانية بالغة العضوية شديدة العمق حتى لكأنها معاودة ألم عصبى أكثر منها معاودة فكرة موسيقية.

كانت الموسيقا، وهى فى ذلك مختلفة جداً عن مخالطة "ألبيرتين"، تساعدنى على النزول داخل ذاتى وعلى اكتشاف الجديد فيها: هذا التنوع الذى بحثت عنه عبثاً فى الحياة وفى السفر الذى يولينى الحنين إليه هذا الدفق الداوى الذى تحتضر بالقرب منى أمواجه المشمسة. والاختلاف مزدوج. فمثلما يبرز الطيف بالنسبة إلينا تركيب الضوء يمكننا تآلف الأنغام لدى "فاغنر" واللون لدى "ايلستير" من معرفة تلك الماهية النوعية لأحاسيس آخر لا يدخلنا فيها الحب الذى نكنه لآخر غيره. ثم "تنوع" داخل العمل ذاته بالوسيلة الوحيدة المتاحة ليكون المرء متنوعاً بالفعل: وهى جمع شخصيات مختلفة. فحيثما يدعى موسيقى هين أنه يصور مروض جياد وفارساً فى حين يحملهما على إنشاد الموسيقا نفسها فإن "فاغنر" يضع بالعكس خلف كل تسمية حقيقة مختلفة، وفى كل مرة يظهر فيها مروض الجياد نرى هيئة خاصة معقدة ومبسطة فى الآن نفسه تندرج، بتصادم بين السطور متهلل إقطاعى، فى اللحن المترامى الأطراف. من هنا جاءت صفة التمام فى موسيقا تملؤها بالفعل طائفة من صنوف الموسيقا الأخرى التى تشكل كل منها كياناً. كيان أو انطباع يخلفه فينا وجه مؤقت من وجوه الطبيعة. وإنما يحتفظ، حتى ما كان الأكثر استقلالاً عن الشعور الذى يثيره فينا، بحقيقته الخارجية المحددة تماماً، فغناء الطائر وصوت بوق الصياد واللحن الذى يعزفه راع على قصبته إنما تحفر فى الأفق خطوط إنشادها. أجل كان "فاغنر" سيقرب بينها ويضع يده عليها ويدخلها فى أوركسترا

(١) Longjumeau مدينة صغيرة شهدت في القرن السادس عشر اتفاقاً بين الكاثوليك والبروتستانت. و"حوذيّ لونجومو" من أعمال فاغنر.

ويخضعها لأرفع الفكر الموسيقية ولكنه سيحترم فى الوقت نفسه أصالتها الأولية مثلما يحترم صانع صناديق الخبز الألياف والجوهر الخاص للخشب الذى يحفره.

ولكن على الرغم من ثراء هذه الأعمال التى يحتل فيها تأمل الطبيعة مكانة إلى جانب العمل، إلى جانب أفراد ليسوا مجرد أسماء أشخاص، كنت أفكر إلى أى حد تشارك فيه هذه الأعمال مع ذلك بهذه الميزة - وما أروعها - التى قوامها أنها دوماً غير مكتملة، وهى السمة التى تميز سائر الأعمال الكبيرة فى القرن التاسع عشر، القرن التاسع عشر الذى أخفق فيه أعظم الكتاب فى كتبهم، ولكنهم إذ نظروا إلى ذواتهم فى طور العمل وكأنما هم العامل والقاضى فى آن فقد استخلصوا من هذا التأمل الذاتى جمالاً جديداً خارجاً عن العمل وأرفع منه يفرض فيه على نحو رجعى وحدة وعظمة لا يملكهما. ودون التوقف إزاء من رأى فى رواياته بعد الأوان "كوميديا إنسانية"، ولا إزاء الذين أطلقوا قصائد أو مقالات متباينة اسم "أسطورة القرون" و"كتاب الإنسانية المقدس"، ألا يسعنا مع ذلك أن نقول عن هذا الأخير إنه يجسد القرن التاسع عشر على أحسن وجه حتى لينبغى أن نبحث عن أعظم مواطن الجمال لدى "ميشليه" (Michelet) لا فى أعماله ذاتها بل فى المواقف التى يتخذها فى مواجهة أعماله، لا فى كتابه "تاريخ فرنسه" أو كتابه "تاريخ الثورة" بل فى مقدماته لهذين الكتابين؟ والمقدمات إنما تعنى صفحات كتبت بعدهما وهو ينظر عبرها إليهما ولابد أن نضيف إليها هنا وهناك بعض الجمل التى تستهل عادة بعبارة "أأقولها؟" وليست احتياط عالم بل إيقاع موسيقىّ. ولابد أن الموسيقىّ الآخر، ذاك الذى كان يفتننى فى هذه الفترة "فاغنر"، إذ يسحب من دروجه مقطوعة رائعة ليدخلها على أنها فكرة ضرورية من الناحية الاستعادية فى عمل لم يكن يفكر فيه لحظة ألفه، ثم إذ لابد أحسّ بعدما ألف أول "أوبرا" ميثولوجية ثم ثانية ثم غيرها أيضاً وتبين فجأة أنه قام بوضع رباعية، لابد أحس بشىء من النشوة التى أحسّ بها "بلزاك" حينما ألقى على مؤلفاته نظرة غريب ووالد وألفى فى هذا نقاء "رفائيل" وفى ذاك بساطة الإنجيل فتبين فجأة وهو يلقى عليها ضوءاً راجعاً أنها ربما أصبحت أكثر جمالاً إما جمعت فى حلقة واحدة يعود فيها الشخوص أنفسهم إلى الظهور وأضاف إلى أعماله فى هذه الوصلة ضربة ريشة كانت الأخيرة والأكثر عظمة. وحدة لاحقة غير مصطنعة، ولولا ذاك لكانت هباء منثوراً مثل كثير من المنهجيات قام بها كتاب ضحلون يتظاهرون، بوابل من العناوين والعناوين الفرعية، بأنهم لاحقوا مقصداً واحداً متعالياً على غيره. غير مصطنعة، بل ربما أكثر حقيقية بما هى لاحقة وأنها صادرة عن لحظة حماسة اكتشفت فيها بين قطع ليس لها من بعد سوى التلاقى، وحدة كانت تجهل ذاتها، فهى حيوية إذاً وليست منطقية، ولم تستبعد التنوع ولا أبردت التنفيذ. إنها (ولكنما تنطبق هذه المرة على الجموع) كمثل تلك المقطوعة التى ألفت بمعزل عن سواها وصدرت عن إلهام معين ولا يتطلبها العرض المصطنع لأطروحة ما، فتقبل لتتكامل مع الباقى. وإنما العمل نفسه الذى اجتذب إليه، قبل حركة الأوركسترا الكبيرة التى تسبق عودة "إيزولده"، نغم الشبابة نصف المنسى الذى يجود به راع. وليس من شك أنه، بقدر ما يفعل تدرج الأوركسترا لدى الاقتراب من صحن الكنيسة، حينما تضع يدها على نغمات الشبابة هذه وتحولها وتشركها بنشوتها وتحطم إيقاعها وتلقى الضوء على نغميتها وتسرع حركتها وتضاعف من آلات عزفها، بقدر ذلك دونما

شك سر "فاغنر" حينما عثر في ذاكرته على لحن الراعي فجمعه إلى عمله الفني وأولاه كامل دلالته. وذلك الفرح على أى حال لا يفارقه البتة. فأياً كان حزن الشاعر لديه فإنما يؤاسيه بل يتجاوزه – يعني يقضي عليه لسوء الحظ بعض الشيء – الصانع. لكنما كان يثير اضطرابي حينذاك هذه المهارة الفلكانوسية[1] بقدر ما يفعل التماثل الذى لاحظته منذ قليل بين جملة "فانتوى" وجملة "فاغنر". فهل هى التى توليك لدى كبار الفنانين وهم فرادة أساسية لا يمكن ردها إلى غيرها هى فى الظاهر انعكاس لواقع أكثر من إنسانى وفى الحقيقة نتاج كد ومهارة؟ فإن لم يكن الفن سوى هذا فليس أكثر حقيقة من الحياة ولم يكن عليّ أن آسف إلى هذا الحد. فكنت أوالى عزف "تريستان". وكنت إذ يفصلني عن "فاغنر" الحاجز الصوتى، كنت أسمعه يتهلل فرحاً ويدعونى لمشاطرته سروره، وأسمع ضحكة "زيغفريد" ذات الشباب الدائم تتضاعف وكذلك تفعل ضربات مطرقته التى ما كانت تفيد مهارة العامل التقنية فيها على أى حال، كلما ازدادت هذه الجمل وضوحاً رائعاً، إلا فى دفعها لمغادرة الأرض بصورة أكثر حرية، هذه الطيور الشبيهة لا بتمّ "لوها نغرين" بل بتلك الطائرة التى سبق لى أن رأيتها فى "بالبيك" تحيل طاقتها ارتفاعاً وتحلق فوق الماء وتغيب فى السماء. وكما أن الطيور التى ترتفع أقصى ما يكون الارتفاع وتطير أسرع ما يكون الطيران تملك الجناح الأكثر قوة، ربما انبغى أن يكون ثمة من هذه الأجهزة المادية حقاً لاكتشاف اللانهاية، من تلك المئة والعشرين حصاناً من ماركة "ميستير" (السرّ) حيث يمتنع عليك مع ذلك، مهما طرت عالياً، أن تتذوق صمت الأجواء العليا بسبب هدير المحرك الجبار!

لست أعلم لماذا انعطف مجرى أحلامى، الذى كان حتى ذاك سعى خلف ذكريات عن الموسيقا، إلى من كانوا فى عصرنا أفضل عازفيها وكنت أجعل بينهم "موريل" بعدما أغالى فى قدره قليلاً. وفى الحال قام فكرى بعطفة مفاجئة وشرعت أفكر بطبع "موريل" وببعض غرابات ذلك الطبع. كان من عادة "موريل" على أى حال – وهذا أمر يمكن أن يقترن بالوهن العصبى الذى يتأكله لا أن يختلط به – أن يتكلم عن حياته ولكنما يقدم عنها صورة شديدة الإظلام إلى حد يصعب معه جداً تمييز أى شيء. كان يضع نفسه على سبيل المثال بتصرف السيد "دو شارلوس" التام على أن يحتفظ بأمسياته لنفسه لأنه يرغب أن يسعه الذهاب بعد العشاء لمتابعة دروس فى الجبر. كان السيد "دو شارلوس" يأذن بها ولكنه يطلب لقاءه بعدها. "مستحيل، فهذا رسم إيطالى قديم" (والمزاح هذا لا يحمل أى معنى، منقولاً على هذا النحو، لكن السيد "دو شارلوس" كان أقرأ "موريل" كتاب "التربية العاطفية"[2] الذى يقول فيه "مورو" هذه الجملة فى الفصل ما قبل الأخير، وكان "موريل" لا ينطق البتة بكلمة "مستحيل" إلا ويتبعها بالكلمات التالية بداعى المزاح: "إنه رسم إيطالى قديم"، "فالدرس كثيراً ما يستمر حتى

---

(١) نسبة إلى "فولكانوس" (Vulcanus) إله النار الذي كان يصنع أفضل الأسلحة لأبطال الميثولوجيا اليونانية.

(٢) L'Education Sentimentale للكاتب الفرنسي الشهير "فلوبير" وفي قسمها الرابع، الفصل السادس تقول السيدة "آرنو" لـ "فريدريك مورو" عن لوحة معلقة على الجدار: "يبدو لي أني أعرف المرأة" فيجيب: "مستحيل، فالرسم إيطالي قديم".

ساعة متأخرة وذلك فى حد ذاته إزعاج كبير للأستاذ الذى ربما استاء..." ويجيب السيد "دو شارلوس": "لكنما لا حاجة حتى للدرس، فليس الجبر السباحة ولا حتى الإنكليزية ويجرى تعلمه بالمستوى نفسه فى كتاب"، يجيب وقد استشف فى الحال فى درس الجبر واحدة من تلك الصور التى لا يمكن أن يتضح له فيها أى شىء إطلاقاً. فربما كان الأمر أمر مضاجعة امرأة، أو غزوة مع عناصر أمنية إن سعى "موريل" إلى كسب المال بوسائل مشبوهة فانخرط فى الشرطة السرية، بل وأسوأ من ذلك، من ذا يعلم؟ انتظار شاب متعهد يمكن أن تدعو الحاجة إليه فى أحد بيوت الدعارة. وكان "موريل" يجيب السيد "دو شارلوس" قائلاً: "بل وأسهل من ذلك فى كتاب، فإنك لا تفهم شيئاً فى درس الجبر." ولعل السيد "دو شارلوس" كان يمكن أن يجيب: "فلماذا لا تدرسه إذاً فى بيتى حيث تتوافر أفضل سبل الراحة؟"، ولكنه كان يحترس تماماً من الأمر إذ هو يعلم أن درس الجبر المتخيل كان انقلب فى الحال، مع الاحتفاظ فقط بذات طابع الضرورة فى استبقاء ساعات المساء حرة، درساً إلزامياً فى الرقص أو الرسم. وقد وسع السيد "دو شارلوس" بهذا الشأن أن يتبين أنه مخطئ، جزئياً على الأقل: فغالباً ما كان ينصرف "موريل" فى منزل البارون إلى حل معادلات. لقد اعترض السيد "دو شارلوس" بالتأكيد بأن الجبر قلما يمكن أن يفيد عازف كمان، فرد "موريل" بأنها تسلية لقضاء الوقت ومقاومة الوهن العصبى. كان وسع السيد "دو شارلوس" دون شك أن يحاول الاستعلام ومعرفة ما كانت فى الحقيقة دروس الجبر الغامضة المحتومة تلك التى لا تعطى إلا ليلاً. لكن السيد "دو شارلوس" كان عميق الانخراط فى مشاغل العالم كيما يهتم بحل المتشابك من مشاغل "موريل". فالزيارات التى يستقبلها أو يقوم بها، والوقت الذى يقضيه فى الندوة والأعشية فى المدينة والأمسيات فى المسرح كانت تحول دون أن يفكر فى الأمر كما فى ذلك الخبث العنيف والماكر فى آن الذى سبق لـ "موريل" فيما يقال أن كان يدعه ينفجر ويخفيه فى الأوساط المتعاقبة والمدن المختلفة التى مر بها وحيث لا يتحدثون عنه إلا برعدة والصوت خفيض ودون أن يجرؤوا على رواية أى شىء. وكان لسوء الحظ واحد من انفجارات العصبية الشريرة تلك تسنى لى سماعه فى ذلك اليوم حينما انحدرت بعدما أقلعت عن البيانو إلى الباحة لأذهب لملاقاة "ألبيرتين" التى طال مجيئها. ولدى مرورى أمام دكان "جوبيان" حيث كان "موريل" ومن ظننتها تزمع أن تضحى قريباً زوجته وحدهما وكان "موريل" يصرخ بأعلى صوته فيبعث ذلك منه نبرة ما كنت أعرفها عنده، لهجة فلاحية يكبتها عادة وكانت غريبة بالغة الغرابة. وما كانت الأقوال بأقل منها وهى مغلوطة على صعيد الفرنسية، ولكنه كان يعرف كل شىء معرفة ناقصة. "هلا خرجت أيتها العاهرة المريعة، أيتها العاهرة المريعة"(١)، هكذا كان يكرر القول للصغيرة المسكينة التى لم تفهم بالتأكيد فى البداية ما كان يقصد قوله وتظل على الأثر مرتجفة عزيزة الجانب لا حراك بها أمامه. "قلت لك أن اخرجى أيتها العاهرة المريعة وهيا أحضرى خالك كى أقول له ما أنت، مومس." فى هذه اللحظة بالضبط تناهى إلى الباحة صوت "جوبيان" الذى كان عائداً يتحدث مع

(١) كلمة grue تعني طائر الكركي وفي معناها المجازي تعني المومس التي تقف في انتظار طويل لزبائنها كما يفعل الكركي الذي يقف على قائمة واحدة، ولذلك يقول لها pied - de - grue التي تعني الانتظار وليس ما يتوهم، وهذا ما يفسر أن الفتاة لم تفهم بداية.

أحد أصدقائه، ولما كنت أعرف أن "موريل" جبان إلى أبعد حد فقد وجدت من غير المجدى أن أقرن قواى بقوى "جوبيان" وصديقه اللذين سيصلان إلى الدكان بعد لحظة، وعدت إلى فوق لتجنب "موريل" الذى سارع، مع أنه كان رغب كثيراً (بغية إخافة الصغيرة والسيطرة عليها على الأرجح بابتزاز لا يرتكز ربما على شىء) فى إحضار "جوبيان"، سارع إلى الخروج ما إن سمعه فى الباحة. إن الأقوال المنقولة ليست شيئاً ولعلها لا تفسر خفقان القلب الذى عدت به إلى فوق. وإن هذه المشاهد التى نحضرها فى الحياة إنما تلقى عنصر قوة لا حصر لها فى ما يدعوه العسكريون على صعيد الهجوم المكسب الناجم عن المفاجأة، وعبثاً أحسّ بالجم من الهدوء العذب لعلمى أن "ألبيرتين" سوف تعود بالقرب منى بدلاً من المكوث فى التروكاديرو، فما كان ذلك يقلل من تواتر نبرة هذه الكلمات تردد عشر مرات فى أذنى: "أيتها العاهرة المريعة، أيتها العاهرة المريعة"، والتى بلبلت أفكارى.

وهدأ اضطرابى شيئاً فشيئاً، فـ "ألبيرتين" تزمع العودة. سوف أسمعها تقرع جرس الباب بعد لحظة. كنت أحسّ أن حياتى لم تعد حتى مثلما كان يمكن أن تكون، وأن وجود امرأة على هذا النحو ينبغى لى بالطبع الخروج وإياها بعدما تكون عادت وسوف يجرى أكثر فأكثر تحويل قوى ونشاط كيانى باتجاه تجميلها، كان يجعل منى كأنما ساقاً مزيدة ولكنها مثقلة بالثمرة المكتنزة التى تنتقل إليها جميع مدخراتها. كان الهدوء الذى يبعثه فى نفسى، بعكس القلق الذى كان لايزال بى منذ ساعة مضت، رجوع "ألبيرتين" أكثر اتساعاً من ذاك الذى سبق أن أحسست به فى الصباح قبل ذهابها. وفى استباق للمستقبل الذى كان خضوع صديقتى يجعله تقريباً ملك يدى، وفى وفرة مقاومة لدىّ وكأنما يملؤنى ويرسخنى الحضور الوشيك المزعج المحتم العذب، إذا بالهدوء (الذى يعفينا من البحث عن السعادة فى ذواتنا) والذى يصدر من شعور عائلى وسعادة بيتية. عائلى وبيتى: هكذا كان أيضاً الشعور الذى انتابنى فيما بعد وأنا أتنزه مع "ألبيرتين"، وليس يقل عن ذاك الذى حمل معه هذا القدر من السكينة فى نفسى فيما كنت أنتظرها. ونزعت مقدار لحظة قفازها، إما لتلمس يدى أو لتبهرنى حينما تفسح لى أن أشاهد فى إصبعها الصغير، إلى جانب الخاتم الذى أعطته السيدة "بونتان" خاتماً تمتد فوقه الطبقة الواسعة السائلة لورقة صافية من الياقوت الأحمر: "وهذا أيضاً خاتم جديد، يا "ألبيرتين"، فيالكرم خالتك!" فقالت ضاحكة: "لا، هذا ليس من خالتى، فإنى أنا اشتريته بما أنى بفضلك أستطيع توفير الكثير. ولست حتى أعلم من كان صاحبه. لقد تركه مسافر أعوزه المال لصاحب فندق كنت حللت فيه فى "مانس". وما كان يدرى ما عسى يفعل به وربما كان باعه دون قيمته بكثير. لكنه كان لايزال شديد الغلاء بالنسبة إلىّ. أما وقد أصبحت الآن بفضلك سيدة أنيقة فقد بعثت أسأله إن كان لايزال لديه. وهذا هو." - "هذا كثير من الخواتم يا "ألبيرتين"، فأين تضعين الخاتم الذى سأعطيك إياه؟ على أن هذا فى جميع الأحوال جميل جداً. لست أستطيع تمييز النقوش حول الياقوتة، لكأنما رأس رجل مكشر. لكنى لا أملك نظراً حاداً يكفينى." - "حتى لو ملكت أفضل منه لما أفدت الكثير، فإنى لا أميز بدورى."

كثيراً ما اتفق لى فيما مضى، لدى قراءة مذكرات أو رواية يخرج فيها رجل على الدوام بصحبة

امرأة ويتناول "العصرونية" معها، أن أتمنى إمكان القيام بمثل ذلك. وظننتنى أحياناً أفلح فى الأمر لدى اصطحابى على سبيل المثال عشيقة "سان لو"، وحين أمضى لتناول العشاء وإياها. لكنما عبثاً كنت أستعين بالفكرة التى قوامها أنى أجيد فى ذلك الحين تمثيل الشخصية التى رغبت فيها فى الرواية فإن تلك الفكرة كانت تقنعنى بأن لابد لى من أن أصيب متعة بالقرب من "راحيل" وما كانت تولينى إياها. ذلك لأننا فى كل مرة نبغى فيها تقليد شىء كان واقعياً حقاً إنما ننسى أن هذا الشىء انتجته، لا إرادة التقليد، بل قوة لا واعية وحقيقية بدورها. غير أن ذاك الانطباع الخاص الذى لم تستطع أن تولينى إياه كل رغبتى فى الإحساس بمتعة رقيقة فى التنزه برفقة "راحيل" أرانى الآن أحسّ به دون أن أكون بحثت عنه أقل ما يكون البحث وإنما لأسباب مختلفة تماماً وصادقة وعميقة - وكيما أذكر مثالاً - لهذا السبب الذى قوامه أن غيرتى كانت تمنعنى من البقاء بعيداً عن "ألبيرتين"، ومادمت أستطيع الخروج، أن أدعها تمضى فى نزهة بدونى. ما كنت أحسّ إلا الآن به لأن المعرفة تصدر لا من الأشياء الخارجية التى نبغى ملاحظتها بل من الأحاسيس اللاإرادية؛ فعبثاً كانت امرأة فيما مضى فى ذات السيارة التى أنا فيها لم تكن "فى الواقع" إلى جانبى مادامت لا تعيد خلقها فيها فى كل لحظة حاجة إليها كمثل التى بى إلى "ألبيرتين"، ومادامت مداعبة عينى المستمرة لا ترد إليها دون انقطاع هذه الظلال اللونية التى لابد من تجديدها باستمرار، ومادامت الحواسّ لا تضع، حتى إن هدأت ولكنها تتذكر، خلف هذه الألوان الطعم والقوام، ومادامت الغيرة المتحدة بالحواس والخيال الذى يهيجها لا تبقى تلك المرأة فى حالة توازن بالقرب منا بفعل جاذب مستعاض بمثل قوة قانون الجاذبية.

كانت سيارتنا تنحدر بسرعة فى الشوارع والجادات المشجرة التى كانت فنادقها المصفوفة، وهى تجمد وردى من شمس وبرد، تذكرنى بزياراتى فى منزل السيدة "سوان" التى كانت الأقاحى ترسل عليها نورها الهادئ بانتظار ساعة المصابيح. وكان الوقت يكاد لا يتسع لى لألمح بائعة فاكهة شابة، بائعة ألبان، يفصلنى عنهما خلف زجاج السيارة ما قد يفصلنى خلف نافذة غرفتى، وتقف واحدتهما أمام بابها ينورها الطقس الجميل مثل بطلة كانت رغبتى كافية لزجها فى مغامرات لذيذة على عتبة رواية لن أعرفها. فما كان بوسعى سؤال "ألبيرتين" أن توقفنى، ومذ ذاك كانت المرأتان الشابتان قد توارتا وما كادت عيناى ميزتا قسماتهما ونضارتهما عبر الأبخرة الشقراء التى تغمرهما. كان الانفعال الذى أحسه يطبق علىّ حين أبصر ابنة تاجر خمور خلف صندوقها أو غسالة تتحدث فى الشارع الانفعال الذى يصيبك فى التعرف إلى آلهات. فمنذ لم يعد "الأوليمبوس"(١) موجوداً أخذ ساكنوه يعيشون على الأرض. وحينما بادر الرسامون، فى تنفيذ لوحة ميثولوجية، إلى اتخاذ جليسات يمثلن "فينوس" أو "سيريس"(٢) من بنات العامة ممن يمارسن أكثر المهن سوقية فهيهات أن يكونوا دنسوا المقدسات وإن هم إلا أضافوا إليهن وأعادوا إليهن النوعية والصفات الإلهية التى جردن منها.

---

(١) الجبل الذي تسكنه الآلهة في الميثولوجيا اليونانية.

(٢) هما على التوالي إلهة الحب وإلهة الخصب لدى الرومان.

"وكيف بدا لك التروكاديرو أيتها المجنونة الصغيرة؟" - "إنى شديدة السرور أن غادرته للمجىء معك. إنه فيما أعتقد من أعمال "دافيود". - "لكم تتثقف صغيرتى "ألبيرتين" !إنه بالفعل من أعمال "دافيود" ولكنى كنت قد نسيته." - "إنى أقرأ كتبك أثناء ما تنام أيها الكسول الكبير. إنه قبيح على صعيد البناء، أليس كذلك؟" - "هاك أيتها الصغيرة، إنك تتغيرين بسرعة كبيرة وتضحين عظيمة الذكاء (كان الأمر صحيحاً، ولكنى إلى ذلك ما كان يغضبنى أن أصابت، فيما أصابت، سروراً من أن تقول فى ذاتها إن الوقت الذى كانت تقضيه لدىّ لم يكن على الأقل خسارة تامة فيما يخصها) إلى حد أنى سأقول لك لدى الحاجة أشياء ربما أخذت بعامة على أنها خاطئة وهى توافق حقيقة أبحث عنها. هل تعلمين ما عسى تكون الانطباعية؟" - "تمام العلم." - "حسن، هاك ما أبغى أن أقوله: تتذكرين كنيسة "مركوفيل المستكبرة" التى ما كان يحبها[١] لأنها جديدة؟ أفليس يناقض إلى حد ما انطباعيته ذاتها حينما يخرج هذه الأوابد من الانطباع العام الذى يحتويها ويحملها خارج الضياء الذى تنحل فيه ويتفحص تفحص عالم آثار قيمتها الذاتية؟ وحينما يرسم، أليس المستشفى والمدرسة والإعلان فوق جدار، أليست تملك كلها ذات قيمة الكاتدرائية التى لا تقدر بثمن والقائمة إلى جانبها فى صورة لا تتجزأ؟ تذكرى كيف كانت الواجهة تشويها أشعة الشمس وكيف كانت النقوش لقديسى "ماركوفيل" تسبح على صفحة الضياء. ما هم أن يكون الصرح جديداً إن بدا قديماً، وحتى إن لم يبد كذلك !إن ما تتضمنه الأحياء القديمة من شعر قد اعتصر حتى النقطة الأخيرة، ولكن ألا تمزق بعض البيوت المبنية حديثاً لصالح بورجوازيين صغار موسرين وفى أحياء جديدة يبدو فيها الحجر المفرط بياضاً حديث النشر، ألا تمزق جو الظهيرة اللاهبة فى تموز. ساعة يعود التجار لتناول الغداء فى الضاحية، بصرخة فجة كما هى رائحة ثمار الكرز وهى تنتظر تقديم الغداء فى قاعة الطعام المظلمة حيث تلقى المواشير الزجاجية التى توضع فوقها السكاكين أضواء متعددة الألوان بمثل جمال مزججات "شارتر"[٢]؟" - "شد ما أنت لطيف !إن أصبح ذكية فى يوم فالفضل يكون لك." - "لم نصرف النظر فى نهار جميل عن التروكاديرو الذى تذكر أبراجه التى كعنق الزرافة بمحبسه "بافيا"؟ - "لقد ذكرنى أيضاً، هو المشرف على هذا النحو من فوق تلته، بنسخة عن "مانتينيا" تملكها، أظن أنها "القديس سيبستيانوس"[٣] حيث تقوم فى الخلف مدينة بنيت على شكل مدرج وربما أقسمت أن التروكاديرو قائم هناك." - "ها إنك ترين !ولكن كيف رأيت نسخة لوحة "مانتينيا"؟ إنك لمذهلة."

وكنا وصلنا إلى أحياء أكثر شعبية، وكان انتصاب "فينوس" من فئة القيان خلف كل طاولة عرض يجعل منها كأنما هيكلاً فى ضاحية وددت لا أقضى حياتى على حضيضه. ومثلما نفعل عشية وفاة مبكرة أخذت أحصى المتع التى تحرمنى منها النقطة النهائية التى تنهى بها "ألبيرتين" حريتى. أما فى

---

(١) الكلام عن "إيلستير".

(٢) من الكنائس الذائعة الصيت في فرنسه.

(٣) لوحة "استشهاد القديس سيبستيانوس" للرسام الإيطالي "مانتينيا" من القرن الخامس عشر.

"باسى" فقد أذهلتنى ببسمتهن فتيات يتخاصرن على قارعة الطريق بسبب الازدحام. ولم يتسع لى الوقت لتمييزها تماماً لكنما لم يكن من المرجح كثيراً أننى أبالغ فيها، فليس يندر أن نصادف فى كل جمهور، فى كل جمهور فتى، نقش صورة جانبية تنضح نبلاً. وهكذا فإن هذه الجمهرات الشعبية فى أيام الأعياد تبدو ثمينة فى نظر الشهوانى كما هى فى نظر عالم الآثار الفوضى فى أرض يكشف فيها التنقيب عن ميداليات أثرية. ووصلنا إلى الغابة. كنت أفكر أننى ربما استطعت فى هذه اللحظة، لو لم تكن "ألبيرتين" خرجت برفقتى، أن أسمع فى مدرج "الشانزيليزيه" العاصفة "الفاغنرية" تطلق أنين سائر حبال الأوركسترا وتجتذب إليها على صورة زبد خفيف لحن المزمار الذى عزفته تواً وتطيره وتعجنه وتبدل شكله وتقسّمه وتجرفه فى زوبعة متعاظمة. أردت على أى حال أن تكون نزهتنا قصيرة وأن نعود باكراً فقد كنت قررت أن أذهب فى المساء إلى منزل آل "فيردوران" دون أن أحدث عن ذلك "ألبيرتين". وكانوا بعثوا إلىّ مؤخراً دعوة ألقيت بها فى السلة مع الأخريات جميعها. لكنى عدلت عن رأيى لهذا المساء لأننى أود أن أحاول معرفة الأشخاص الذين أمكن أن تتمنى "ألبيرتين" لقياهم بعد الظهر فى منزلهم. لقد بلغت فى أمرى مع "ألبيرتين"، والحق يقال، تلك اللحظة التى لا تفيدنا امرأة فيها من بعد (إن استمر كل شىء على ذات المنوال وتمت الأمور بصورة طبيعية) إلا بمثابة جسر ينقلنا إلى امرأة أخرى. إنها لاتزال تهمنا، ولكن أقل القليل، فنحن معجلون للمبادرة فى كل مساء إلى لقاء مجهولات، ولاسيما مجهولات معروفات لديها يستطعن أن يروين لنا حياتها. فإننا قد امتلكنا واستنفدنا فيما يخصها كل ما ارتضت أن تهبه لنا من ذاتها. وحياتها هى بعد ذاتها، لكنها بالضبط الجزء الذى لا نعرفه، الأشياء التى ساءلناها عبثاً عنها ويمكن أن نجمعها من شفاه جديدة.

وإن كانت حياتى إلى جانب "ألبيرتين" ستحول دون ذهابى إلى البندقية، دون سفرى، فلعلى على الأقل كنت استطعت منذ قليل، لو كنت وحدى، أن أتعرف البائعات الشابات المنتشرات فى إشماسة هذا الأحد الجميل واللواتى كنت أدخل فى جمالهن إلى حد كبير الحياة المجهولة التى تعتمل فى صدورهن، أليست العينان اللتان نراهما مشبعتين تماماً بنظرة لا نعرف الصور والذكريات والتوقعات والازدراءات التى تحملها والتى لا يمكن فصلها عنها؟ وهذه الحياة التى هى حياة الكائن الذى يعبر طريقه ألن تولى تقطيب الحاجبين وتوسع المنخرين، وفق ما هى عليه من حال، قيمة متغيرة؟ كان وجود "ألبيرتين" يحرمنى المضى إليهن وربما التوقف والحالة هذه عن اشتهائهن. ومن شاء أن يحافظ فى ذاته على رغبة الاستمرار فى الحياة والاعتقاد بشىء أكثر عذوبة من الأمور المعتادة فعليه أن يتنزه، لأن الجادات والشوارع مليئة بالآلهات. لكن الآلهات لا يسمحن بالاقتراب منهن. فههنا وهناك، بين الأشجار وعلى مداخل مقهى، تسهر خادمة كأنها حورية على أطراف غابة مقدسة، فيما تجلس فى المؤخر ثلاث فتيات إلى جانب القوس الهائل لدراجاتهن الموضوعة إلى جانبهن وكأنهن ثلاث إلهات يتكئن على الغيمة أو الجواد الخرافى اللذين يقمن على متنهما برحلاتهن الأسطورية. كنت ألاحظ أن "ألبيرتين" كانت فى كل مرة تنظر إلى تلك الفتيات جميعاً مقدار لحظة بانتباه عميق وتلتفت إلىّ فى الحال. لكنى ما كنت مفرط الاضطراب لا من جراء شدة ذاك التأمل ولا من جراء قصره الذى تعوضه الشدة. فإنه كثيراً ما كان يتفق، فيما يخص هذا التأمل، أن تنظر "ألبيرتين"، إما تعباً أو لطريقة فى

التطلع يتفرد بها الشخص المنتبه، أن تنظر هكذا بما يشبه التأمل حتى إلى والدى أو "فرانسواز": فأما سرعة التفاتها إلىّ فيمكن أن يكون الدافع إليها أن "ألبيرتين"، وهى عارفة بشكوكى، كان يمكن أن تبغى تجنب إلصاقها بها حتى إن لم يكن ثمة ما يبررها. ولعل ذاك الانتباه الذى كان بدا لى على أية حال إجرامياً من جانب "ألبيرتين" (وبالقدر نفسه لو كان موضوعه فتياناً) إنما كنت أصرفه إلى كافة الفتيات الطائشات دون أن أخالنى مذنباً مقدار لحظة - فيما أكاد أرى "ألبيرتين" مذنبة إذ يحول وجودها دون أن أتوقف وأنزل. فإننا نرى اشتهاءنا بريئاً واشتهاء سوانا فظيعاً. وهذا التناقض بين ما يخصنا نحن أو ما يخص التى نحبها لا يتعلق بالرغبة فحسب، بل بالكذب أيضاً. فأى أمر مألوف أكثر منه إن كان على سبيل المثال لحجب أوهان يومية لصحة نريد أن يظنها الناس قوية، أو لإخفاء عيب أو للمبادرة إلى ما نفضله دون أن نغضب سوانا؟ إنه وسيلة البقاء الأكثر ضرورة والأكثر استخداماً. ولكنه هو الذى نعقد العزم على استبعاده من حياة تلك التى نحبها، وهو الذى نترصده ونستشعره ونمقته أينما كان. إنه يبلبل أفكارنا ويكفى ليدفعنا إلى الهجران ويبدو لنا كأنه يخفى أعظم الذنوب، ما لم نحسن إخفاءها إلى حد لا نرتاب معه بأمرها. إنها لحالة غريبة تلك التى نجدنا نتأثر إلى هذا الحد بعامل مرضى يجعله تكاثره الشامل عديم الأذى للآخرين وشديد الخطورة على التعيس الذى يتفق له أن لا يملك من بعد الحصانة ضده !كانت حياة تلك البنات الجميلات، إذ يندر جداً أن أصادف بعضهن - بسبب فترات انحباسى الطويلة -، كانت تبدو لى، كما لسائر الذين لم تضعف لديهم سهولة الإنجازات القدرة على التصور، أمراً مختلفاً عما كنت أعرف، ومشتهى بقدر ما هى المدن الأكثر روعة والتى يبشر بها السفر.

وما كانت خيبة الأمل التى أصبتها لدى نساء سبق أن عرفتهن أو فى مدن ذهبت إليها لتحول دون وقوعى فى فخ جاذبية الجديدات وتصديقى حقيقتهن. وكما لم تكن رؤية البندقية - البندقية التى كان هذا الطقس الربيعى يبعث فىّ كذلك الحنين إليها والتى كان زواجى من "ألبيرتين" سيحول دون معرفتى إياها - رؤية البندقية فى منظر عام ربما كان "سكى" صرّح أنّه أجمل ألواناً من المدينة الحقيقية، لتحل لدىّ محل السفر إلى البندقية، سفر كان يبدو لى أن طوله المحدد، دون أن تكون لى يد فى ذلك، لابد من اجتيازه، كذلك ما كانت الفتاة الطائشة التى ربما وفرتها لى قوادة بصورة مصطنعة، ما كانت لتستطيع البتة، مهما بلغت من الجمال، أن تحل فى نظرى محل تلك المخلعة القامة التى كانت تمر فى هذه الفترة تحت الأشجار وهى تضحك مع صديقة لها. فتلك التى ربما لقيتها فى بيت دعارة ما كانت لتبدو الشىء نفسه، وإن كانت أجمل من ذلك، لأننا لا ننظر إلى عينى فتاة لا نعرفها كما ربما فعلنا برصيعة صغيرة من حجر عين الهر أو العقيق. فإننا نعلم أن الشعاع الصغير الذى يقزحهما وحبات الألماس التى تتلألآن بها هى كل ما نستطيع تبينه من فكر، من إرادة، من ذاكرة يقيم فيها البيت العائلى الذى لا نعرفه والأصدقاء الغالين الذين نحسدهم. وإن التمكن من الاستيلاء على كل ذلك، والأمر بالغ الصعوبة عسر القياد وهو ما يولى النظرة قيمتها بما يفوق كثيراً محض جمالها المادى (الذى يمكن أن نفسر به أن يوقظ الشاب نفسه رواية كاملة في مخيلة امرأة سمعت من يقول إنه أمير "غال" فلا تعيره اهتماماً من بعد حينما تعلم أنها أخطأت)، والعثور على الفتاة الطائشة فى بيت

للدعارة إنما يعنى العثور عليها وقد أفرغت من هذه الحياة المجهولة التى تداخلها والتى نطمع فى الظفر بها جانبها، وإنما يعنى اقترابنا من العيون التى أصبحت بالفعل مجرد حجارة كريمة، ومن أنف يخلو تغضنه من أى مدلول بقدر ما يخلو تغضن الزهرة. لا، بل هذه الفتاة المجهولة التى كانت تمر من هنا والتى كان يبدو من المحتم علىّ، إن أردت مواصلة الاعتقاد بحقيقتها، حتمية قطع مسافة طويلة فى السكة الحديدية إن ابتغت الاعتقاد بحقيقة رائعة "بيزا" التى سأشاهدها فلا تكون مجرد منظر فى معرض عام، أن أتحمل صنوف مقاومتها بملاءمة اتجاهاتى معها ومواجهة الإهانة وإعادة الكرة والحصول على موعد وانتظارها ساعة انصراف المشاغل ومعرفة ما يشكل حياة هذه الصغيرة حلقة فحلقة واجتياز ما كان يلف فى نظرها المتعة التى أبحث عنها وكذلك المسافة التى تقيمها عاداتها المختلفة وحياتها الخاصة بينى وبين الانتباه والمنة التى أريد أن أبلغهما وأحوزهما. لكن هذه التماثلات عينها بين الرغبة والسفر جعلتنى أعاهد النفس على أن أقترب ذات يوم أكثر قليلاً من طبيعة تلك القوة الخفية، لكنها بمثل قدرة المعتقدات أو الضغط الجوى فى عالم المادة، القوة التى كانت تعلى شأن المدن والنساء ما دمت لا أعرفهن وتروغ من تحتهن ما إن اقتربت منهن وتلقى بهن فى الحال فى المبتذل من أتفه صنوف الواقع. وفى مكان أبعد كانت بنية أخرى تجثو أمام دراجة لها تصلحها. وحالما تم الإصلاح امتطت الدارجة الشابة دراجتها ولكن دون أن تفرشح كما لعل رجلاً كان فعل. وترجحت الدراجة على مدى لحظة وبدا الجسد الشاب وكأنما تزايد شراعاً، جناحاً هائلاً ورأينا بعد قليل المخلوقة الفتية تبتعد بأقصى سرعة نصفها بشرى والنصف مجنح، توالى رحلتها ملاكاً أو جنية.

هذا ما كان وجود "ألبيرتين"، هذا ما كانت حياتى مع "ألبيرتين" تحرمنى إياه. تحرمنى إياه؟ أما كان خليقاً بى أن أفكر قائلاً: ما كانت تهبنى إياه بالعكس؟ فقد كنت تصورت وبحق، لو لم تعش "ألبيرتين" وإياى وكانت حرة، هاتيك النساء جميعاً على أنهن المطارح الممكنة، المحتملة، لرغبتها ومتعتها. وكن بَدَوْنَ لى مثل تلك الراقصات اللواتى يمثلن، فى رقصة "باليه" شيطانية، الإغراءات بالنسبة إلى شخص ويرسلن سهامهن إلى قلب شخص آخر. فالعاملات والفتيات والممثلات كم كنت كرهتهن !فإنهن، وهن موضع كراهية، كن استثنين عندى من جمال العالم. فإذا عبودية "ألبيرتين"، حين تفسح لى بأن لا أتعذب من بعد على يدهن، تردهن إلى جمال العالم. لقد أضحى من المباح لى، إذ هن مسالمات فقدن المهماز الذى يضع الغيرة فى القلب، أن أعجب بهن وأداعبهن بالنظرة وربما أفعل بحميمية أوفر فى يوم آخر. فإنى باحتجاز "ألبيرتين" قد رددت للعالم فى الآن ذاته سائر هذه الأجنحة البراقة التى تدوى فى النزهات، فى الحفلات الراقصة، فى المسارح والتى كانت تعود فتصبح موضع غواية لى لأنها لم يعد بمقدورها هى أن تقع ضحية إغرائها. كانت تؤلف جمال العالم وسبق أن ألفت فيما مضى جمال "ألبيرتين". فلأننى كنت رأيتها على هيئة عصفور غامض، ثم ممثلة عظيمة على الشاطئ، مشتهاة وربما ظُفِر بها، ألفيتها رائعة. وما إن احتُجِز لدى العصفور الذى رأيته ذات مساء يسير ببطء شديد فوق السد تحيط به جمهرة الفتيات الأخريات الشبيهات بنوارس جاءت من حيث لا ندرى، حتى فقدت "ألبيرتين" ألوانها كافة إلى جانب سائر فرص الآخرين فى أن يحوزوا عليها. لقد فقدت شيئاً فشيئاً جمالها. كان لابد من نزهات كهذه، أتخيلها فيها بدونى وقد دنت منها هذه المرأة

أو ذاك الشاب، كيما أعود فأراها في بهاء الشاطئ، مع أن غيرتي كانت قائمة على صعيد غير صعيد أفول متع خيالي. غير أني، على الرغم من هذه الانتفاضات المفاجئة التي كانت تعود، إذ يشتهيها آخرون، فتضحي بها جميلة، كنت أستطيع تماماً تقسيم إقامتي في منزلي إلى فترتين: الأولى التي كانت لا تزال فيها، وإن تناقصت في كل يوم، ممثلة الشاطئ المتلألئة، والثانية التي كان لابد لها فيها، وقد أصبحت السجينة الكئيبة التي رُدّت إلى الكامد من ذاتها، من هذه البروق التي أعود فأتذكر فيها الماضي لأعيد لها بعض الألوان.

كانت تعاودني أحياناً، في الساعات التي كنت فيها أكثر ما أكون غير مبال بها، ذكرى هنيهة بعيدة كانت فيها على الشاطئ حين لم أكن بعد أعرفها، وهي غير بعيدة عن سيدة كنت على أسوأ حال معها وأضحيت شبه متيقن الآن من أنها أقامت علاقات معها، كانت تنفجر ضاحكة وهي تنظر إليّ بصورة وقحة. كان البحر الصقيل الأزرق يضج من حولنا. وكانت "ألبيرتين"، وسط صديقاتها وتحت شمس الشاطئ، الأكثر جمالاً. كانت فتاة رائعة ألحقت بي، في ذاك الإطار المعتاد من المياه المترامية، هي العزيزة على فؤاد السيدة التي كانت تتأملها بإعجاب، تلك الإهانة. وكانت قاطعة، فالسيدة ربما كانت تعود إلى "بالبيك" وربما كانت تكتشف على الشاطئ المشرق المدمدم غياب "ألبيرتين". لكنها كانت تجهل أن الفتاة تعيش في بيتي ولي وحدي فقط. أما الأمواد المترامية الزرقاء ونسيان الإيثار الذي كانت تخص به تلك الفتاة وأخذ يتجه إلى سواها، فقد انصبت على الإهانة التي ألحقتها بي "ألبيرتين" محتجزة إياها في علبة باهرة لا يطاولها العطب. حينئذ كان الحقد على هذه المرأة يتأكّل فؤادي: وعلى "ألبيرتين" أيضاً، ولكنه حقد يمتزج بالإعجاب بالفتاة الجميلة المدللة ذات الشعر الرائع والتي كانت قهقهتها على الشاطئ إهانة. لقد عادت المهانة والغيرة وتذكر الأشواق الأولى والإطار البديع فأسبغت على "ألبيرتين" جمالها وقيمتها بالأمس. وهكذا كان ثمة تناوب بين هذا الضجر الثقيل إلى حد ما الذي أحسه بالقرب منها ورغبة راعشة تملؤها صور بديعة وضروب أسف حسبما تكون بالقرب مني في غرفتي أو أرد لها حريتها في ذاكرتي فوق السد وهي ترتدي بزات الشاطئ الزاهية، على صوت آلات البحر الموسيقية، هي "ألبيرتين" أخرجت تارة من هذا الوسط وامتلكت فإذا هي على قدر غير كبير، وطوراً أعيدت إليه فتفلت مني عبر ماض لن يسعني أن أعرفه وتهينني بالقرب من السيدة ومن صديقاتها بقدر ما يفعل رشاش الموجة أو دوار الشمس، "ألبيرتين" أعيدت إلى الشاطئ أو أدخلت غرفتي، في نوع من الغرام ذي الطبيعة المزدوجة.

كان ثمة في مكان آخر زمرة كبيرة تلعب الكرة. فقد ودت تلك البنيات جميعاً استغلال الشمس لأن نهارات شباط هذه، وإن كانت رائعة إلى هذا الحد، لا تدوم طويلاً ولا تؤخر روعة ضيائها ساعة أفولها. وقد تيسر لنا قبل قرب حلوله بعض فترة من بقايا ضياء لأننا، بعدما مضينا حتى نهر "السين" حيث تأملت "ألبيرتين"، وحالت بوجودها دون أن أتأمل، انعكاسات أشرعة حمراء على المياه الشتوية الزرقاء وبيتاً بسقف قرميدي يقبع في البعيد كزهرة خشخاش وحيدة في الأفق النير الذي كانت "سان كلو" تبدو على مسافة أبعد وكأنها تحجره المتشطر المتفتت المضلع، نزلنا من السيارة

وسرنا طويلاً. بل إنى تأبطت على مدى لحظات ذراعها وبدا لى أن هذه الحلقة التى تشكلها ذراعها تحت ذراعى كانت توحد فى كيان واحد شخصينا وتربط مصيرينا الواحد بالآخر. وكان ظلانا المتوازيان ثم المتقاربان فالمتلاصقان يخطان أمام أقدامنا رسماً بديعاً. وليس من شك أنى كنت مذ ذاك أجد روعة فى البيت أن تسكن "ألبيرتين" معى وأن تكون هى التى تتمدد فوق سريرى. لكن لكأنما ما يشبه نقلها إلى الخارج، إلى أحضان الطبيعة، أن كان، أمام بحيرة الغابة، وما أكثر ما أحبها، وعلى حضيض الأشجار، إذ كان بالضبط ظلها، الظل الخالص المبسط لساقها وصدرها هو الذى انبغى للشمس أن تخطه بالألوان المائية إلى جانب ظلى على رمل الممر المشجر. وكنت أرى لاتحاد ظلينا سحراً أكثر روحانية دون شك ولكنه لا يقل حميمية عن تقارب، عن اتحاد جسدينا. ثم صعدنا إلى السيارة ثانية، فسلكت للعودة ممرات صغيرة متعرجة تبدو فيها الأشجار الشتوية التى ألبست اللبلاب والعليق على غرار الخرائب وكأنها تقود إلى منزل ساحر. وما كدنا نخرج من الظلة القاتمة حتى التقينا مجدداً للخروج من الغابة ضياء النهار ولايزال شديداً حتى ليخيل إلىّ أن الوقت يتسع لى للقيام بكل ما أود فعله قبل العشاء حين اتفق لى بعد بضع لحظات فحسب، آن كانت سيارتنا تقترب من قوس النصر، أن أبصرت، بحركة مفاجئة من الاستغراب والذعر، تمام البدر المبكر فوق باريس وكأنه ميناء ساعة متوقفة تحملنا على الظن بأنا تأخرنا. وكنا قلنا للحوذيّ أن يعود أدراجه. أما بالنسبة إليها فكان ذلك يعنى أيضاً العودة إلى منزلى. إن وجود النساء، مهما يكن محبوبات، النساء اللواتى ينبغى لهن مفارقتنا للعودة إلى منازلهن، لا يولى ذلك الهدوء الذى كنت أنعم به بوجود "ألبيرتين" الجالسة إلى جانبى فى الركن القصى من السيارة، الوجود الذى كان يمضى بنا لا إلى فراغ الساعات التى نكون فيها منفصلين، بل إلى الاجتماع الأوفر استقراراً بعد والأفضل احتباساً فى منزلى الذى كان أيضاً منزلها، وهو الرمز المادى لامتلاكى لها. أجل، لابد كيما نمتلك أن نكون اشتهينا؛ وإننا لا نملك خطاً أو مساحة أو حجماً إلا إذا شغلها حبنا. لكن "ألبيرتين" لم تكن بالنسبة إلىّ فى أثناء نزهتنا مثلما سبق أن كانت "راحيل" بالأمس، هباء من لحم وقماش لا طائل تحته. فإن خيال عينى وشفتى ويدىّ كان فى "بالبيك" قد بنى جسمها بناء متيناً وصقله صقلاً رقيقاً إلى حد لم تكن لى معه الآن داخل هذه السيارة حاجة، كيما ألمس هذا الجسم، كيما أحتويه، إلى الالتصاق بـ "ألبيرتين" ولا حتى إلى رؤيتها، وكان يكفينى أن أسمعها، وإن صمتت أن أعلم أنها بالقرب منى. كانت حواسى، قد جدلت معاً، تحيط بها إحاطة تامة، وحينما وصلت أمام البيت ونزلت بصورة طبيعية تامة توقفت لحظة لأقول للسائق أن يعود ليأخذنى، لكن نظراتى كانت لاتزال تلفها فيما تختفى أمامى تحت القبة، ويحل بى على الدوام ذات الهدوء الساكن "البيتوتى" الذى يداخلنى إذ أبصرها على هذا النحو متثاقلة موردة مكتنزة أسيرة تعود كما هو طبيعى تماماً برفقتى وكأنها امرأة اتخذتها لى وتغيب، تحميها الجدران، فى بيتنا.

لكنما كان يبدو لسوء الحظ أنها داخله فى سجن وأنها ترى رأى هذه السيدة "دو لاروشفوكو" التى أجابت، فيما كانوا يسألونها إن لم يغبطها أن تكون فى مسكن بمثل جمال "ليانكور"، أن "ليس من سجن جميل"، إن حكمت فى ذلك من المظهر الحزين المتعب الذى اتخذته فى ذلك المساء فى أثناء

عشائنا الانفرادى فى غرفتها. ولم ألاحظ الأمر أولاً، بل أنا من كان يؤسيه التفكير بأنه لو لم تكن "ألبيرتين" موجودة (فلعلنى كنت برفقتها عانيت كثيراً من الغيرة فى فندق ربما تعرضت فيه طوال النهار للتماس مع الكثير من الناس)، لوسعنى فى هذا الوقت تناول العشاء فى البندقية فى واحدة من قاعات الطعام الصغيرة تلك المخفوضة السقف على غرار قعر سفينة ومن حيث تشاهد القناة الكبرى عبر نوافذ صغيرة مقوسة تؤطرها ناتئات عربية إسلامية.

ويجدر بى أن أضيف أن "ألبيرتين" كانت تعجب فيها كثيراً بإناء كبير من الشبه من أعمال "باربوديين" كان "بلوك" وبحق يجده غاية فى القبح. وربما كان أقل صواباً أن يعجب من أنى احتفظت به. ولم أكن حاولت البتة مثله اقتناء أثاث فنى وتنظيم قاعات، فقد كنت كثير الكسل لذلك وشديد اللامبلاة بما تعودت أن تقع عليه عينى. ولما كان ذوقى لا يهتم لذلك فقد كان من حقى أن لا أنوع فى أثاثى الداخلى. ومع ذلك ربما كان وسعنى نزع الإناء الذى من الشبه. لكن الحاجات القبيحة الفاخرة كبيرة الفائدة لأنها تكتسب لدى الأشخاص الذين لا يفهموننا وليس لهم ذوقنا ويمكن أن نغرم بهم مهابة قد لا تكتسبها حاجة مرموقة لا تكشف عن جمالها. والأشخاص الذين لا يفهموننا هم وحدهم الذين يمكن أن نفيد معهم من استخدام مهابة يبدو ذكاؤنا كافياً لتوفيرها لنا لدى أناس رفيعى المستوى. وعبثاً أخذت "ألبيرتين" تتمتع بجانب من الذوق إذ كانت لاتزال تكن شيئاً من الاحترام لهذا الإناء البرونزى، وكان هذا الاحترام ينعكس علىّ تقديراً كان، إذ يأتينى من "ألبيرتين"، يكتسب أهمية عندى (أكثر كثيراً مما يفعل احتفاظى بإناء برونزى يعيبنى إلى حد ما) بما أنى أحب "ألبيرتين".

لكن فكرة عبوديتى كانت تكف فجأة عن إزعاجى فأتمنى إطالتها بعد إذ كان يبدو لى أنى ألمح "ألبيرتين" فى معاناة قاسية لعبوديتها. صحيح أنها كانت تجيبنى دوماً، فى كل مرة سألتها إن لم تكن ضجرة فى بيتى، أنها لا تعرف أين يمكن أن تحوز سعادة أعظم. لكنما كان يكذب تلك الأقوال فى الغالب مسحة من الحنين وتوتر الأعصاب، والأكيد، إن كانت بها الميول التى ظننتها لديها، أن هذا الحؤول دون أن تشبعها فى يوم كان لابد يغيظها بقدر ما يبعث فىّ الهدوء، هدوءاً يبلغ حد أن افتراضى أن أكون اتهمتها زوراً ربما كان بدا الأقرب إلى الحقيقة لو لم أصادف فيه عنتاً كبيراً لتفسير هذا الاجتهاد الخارق الذى تبديه "ألبيرتين" فى الامتناع عن أن تكون وحيدة فى يوم. أن تكون حرة فى يوم، أن تتوقف لحظة أمام الباب حينما تعود، مثلما تعمل على أن يرافقها بصورة معلنة ظاهرة فى كل مرة تتوجه فيها إلى الهاتف واحد يكون بمقدوره أن يردد على مسامعى أقوالها، "فرانسواز" أو "أندريه"، وأن تدعنى دوماً وحدى مع هذه الأخيرة، بعدما تكونان خرجتا سوية كى يمكننى أن أطلب تقريراً مفصلاً عن نزهتهما. وكان يناقض هذا الانقياد الرائع بعض حركات لنفاد الصبر سرعان ما تُكْتَم وتجعلنى أتساءل إن لم تكن "ألبيرتين" عقدت العزم على كسر سلاسلها.

ثمة وقائع إضافية كانت تدعم افتراضى. من ذلك أننا فى يوم خرجت فيه وحدى والتقيت فيه "جيزيل" على مقربة من "باسى" تحدثنا عن أمور وأخرى. وقلت لها بعد قليل، وأنا شديد السعادة أن يمكننى إبلاغها أننى كنت ألتقى "ألبيرتين" باستمرار، وسألتنى "جيزيل" أين تستطيع لقاءها إذ كان

لديها "بالضبط" شيء تقوله لها. "وما عساه يكون؟" - "أمور تتعلق برفيقات صغيرات لها." - "أية رفيقات؟ ربما استطعت أن أفيدك، ولن يمنعك ذلك من رؤيتها." وأجابت "جيزيل": "آه !رفيقات لها بالأمس، لست أذكر الأسماء"، أجابت بلهجة غامضة وهي تعدل عن مقصدها. وفارقتني وفي ظنها أنها تكلمت بحذر كبير حتى لا يمكن أن يبدو لي أي شيء إلا شديد الوضوح. لكن الكذب قليل التشدد إلى حد بعيد وما أقل ما يحتاج من أمر لينكشف !فلو أن الأمر أمر رفيقات لها بالأمس ما كانت حتى تعرف أسماءهن فلماذا تكون بها "بالضبط" حاجة إلى التحدث عن ذلك لـ "ألبيرتين"؟ وهذا التركيب الظرفي، وهو شديد القربى من عبارة عزيزة على قلب السيدة "كوتار": "جاءت في الوقت المناسب"، ما كان لينطبق إلا على أمر خاص جاء في وقته وربما كان مستعجلاً ويتعلق بأشخاص محددين. وحدها، على أي حال، طريقة فتح فيها، على نحو ما نفعل حين نزمع التثاؤب، وهي تقول بهيئة غامضة (ويقرب أن تتراجع بجسمها مثلما كانت ترتد إلى الوراء منذ هذه اللحظة في حديثها): "آه !لست أدري، لست أذكر الأسماء"، كانت تجعل هيئتها، وبالتوافق معها من صوتها، هيئة كذب بقدر ما كانت لهجة "بالضبط"، وهي مختلفة تماماً مشدودة نشطة ماضية إلى الأمام، تدل على حقيقة. ولم أسائل "جيزيل"، فما عساني كنت أفدت من ذلك؟ صحيح أنها ما كانت تكذب بالطريقة نفسها التي تفعل بها "ألبيرتين". وصحيح أن كذبات "ألبيرتين" كانت أكثر إيلاماً لي. لكنما كان بينها بداية نقطة مشتركة هي واقعة الكذب نفسها، وهي في بعض الحالات أمر جلي. وليس ذلك أمر الحقيقة التي تختبيء خلف هذا الكذب. فإننا نعلم أن القتلة في النهاية يؤخذون على الدوام تقريباً مع أن كل قاتل بمفرده يتصور أنه دبر الأمور أحسن تدبير بما يكفل أنه لن يؤخذ. أما الكذابون فهم على العكس نادراً ما يؤخذون، ولاسيما النساء اللواتي نحبهن. إننا نجهل أين ذهبت، وما فعلت هناك، لكنما في ذات اللحظة التي تتحدث فيها، والتي تتحدث فيها عن أمر آخر يختفي خلفه هذا الذي لا تقوله، يتم في الحال إدراك الكذب، وتتضاعف الغيرة بما أننا نحس بالكذب ولا نفلح في معرفة الحقيقة. كان الإحساس بالكذب توليه، لدى "ألبيرتين"، خصائص سبق أن رأيناها في سياق هذه القصة، ولكنما بصورة رئيسية أن سردها، حينما تكذب، كان يشكو إما من النقص والإغفال واللامنطقية، وإما على العكس من الإفراط في وقائع صغيرة من شأنها أن تكسبه شكل الحقيقة. وشكل الحقيقة ليس الحقيقة مطلقاً على الرغم من الفكرة التي يكونها الكذاب. فما إن نسمع، ونحن نصغي إلى شيء حقيقي، شيئاً محتملاً فحسب، وربما كان أكثر احتمالاً من الحقيقي الذي ربما كان مفرطاً في حقيقته، حتى تشعر الأذن التي على شيء من الموسيقا أن ليس الأمر كذلك كما هو شأن بيت شعر مكسور أو كلمة قرئت بصوت جهوري مكان أخرى. إن الأذن تحس ذلك والقلب، إن كنا نحب، ليجزع. فما بنا لا نفكر حينئذ، يوم نغير كامل حياتنا لأننا لا ندري إن مرت امرأة في شارع "بيري" أو شارع "واشنطن"، ما بنا لا نفكر أن بضعة أمتار الفارق هذه والمرأة نفسها سوف يتناقصون إلى واحد من مئة مليون (يعني إلى حجم لا يمكننا إدراكه حسياً) إن توافرت لنا الفطنة فقط فلبثنا بضع سنوات دون التقاء تلك المرأة، وأن من كانت "غوليفير"، وبحجم يفوقه كثيراً، سوف تضحى واحدة من سكان "ليليبوت" لن يستطيع مجهر من بعد أن يكشفه - مجهر القلب على

الأقل، لأن مجهر الذاكرة اللامبالية أكثر قوة وأقل هشاشة - !ومهما يكن من أمر، ولئن كان ثمة نقطة مشتركة - هى الكذب ذاته - بين كذبات "ألبيرتين" و"جيزيل"، فما كانت "جيزيل" تكذب بذات طريقة "ألبيرتين"، ولا بذات طريقة "أندريه" كذلك، لكن كذبات كل واحدة منهن كانت تتداخل بعضها مع بعضها الآخر، فيما تبدى تنوعاً كبيراً، إلى حد أن الجماعة الصغيرة كانت تملك الصلابة التى لا يمكن اختراقها والتى تميز بعض بيوتات التجارة أو المكتبات أو الطباعة على سبيل المثال حيث لن يفلح المؤلف التعيس فى يوم، وعلى الرغم من تنوع الشخصيات التى تؤلفها، فى أن يعلم إن كان ضحية الغش أم لا. يكذب مدير الصحيفة أو المجلة بمظهر من الصدق يزداد أبهة بقدر ما يحتاج أن يخفى فى مناسبات عدة أنه يفعل بالضبط الشيء نفسه وينصرف إلى ذات الممارسات التجارية البشعة التى ندد بها لدى مديرى الصحف أو المسارح الآخرين ولدى الناشرين الآخرين حين اتخذ الصدق راية ورفع فى وجههم لواءه. فإن تكن أعلنت (بصفتك رئيساً لحزب سياسى، بصفتك أى شيء) أن الكذب أمر فظيع إنما يضطرك فى الكثير الغالب أن تكذب أكثر من الآخرين دون أن تهجر لذلك القناع الرسمى ودون أن تخلع تاج الصدق المهيب. أما شريك "الرجل الصادق" فيكذب بصورة أخرى وبطريقة أكثر براءة. فهو يخدع مؤلفه مثلما يخدع امرأته بحيل مأخوذة من المسرح الهزلى. وأما أمين التحرير، وهو رجل شريف وفظ، فيكذب بكل بساطة مثل مهندس يعدك بأن بيتك سيكون جاهزاً فى حين لا يكون بعد قد بوشر به. وأما رئيس التحرير، تلك الروح الملائكية، فيرفرف وسط الثلاثة الآخرين، ودون أن يعلم ما الأمر يسدى إليهم بدافع الاهتمام الأخوى والتضامن الرقيق العون الثمين الصادر عن عبارة لا يرقى إليها الشك. هؤلاء الأشخاص الأربعة يعيشون فى جو من الخلافات الدائمة التى يوقفها مجيء المؤلف. ويتذكر كل منهم، متجاوزاً بذلك النزاعات الخاصة، واجبه العسكرى الكبير بأن يهب لمساعدة "الهيئة" المهددة. وكنت منذ زمن طويل، ودون أن أتبين ذلك، قد نهضت بدور هذا المؤلف إزاء "المجموعة الصغيرة". فلو فكرت "جيزيل"، حينما قالت "بالضبط"، بهذه الرفيقة أو تلك لـ "ألبيرتين" ممن هن على استعداد للسفر معها حالما تكون صديقتى هجرتنى لهذا السبب أو ذاك ولإخطار "ألبيرتين" بأن الساعة أزفت أو هى قريبة الحلول لفضلت "جيزيل" أن تقطع أرباً على أن تقول لى ذلك. فما كان يجدى إذن أن أطرح عليها أسئلة.

واللقاءات التى من قبيل لقاءاتى و"جيزيل" لم تكن الوحيدة التى تزيد من شكوكى. فقد كنت على سبيل المثال معجباً برسوم "ألبيرتين" الزيتية. وقد كان لرسوم "ألبيرتين"، وهى تسليات مؤثرة لامرأة سجينة، تأثير عظيم علىّ إلى حد أنى هنأتها عليها. "لا، إنها سيئة جداً، ولكنى لم آخذ درساً واحداً فى الرسم." - "ولكنك أرسلت ذات مساء تقولين لى فى "بالبيك" إنك ظللت تتلقين درساً فى الرسم." وذكرتها باليوم وقلت لها إنى أدركت فى الحال تمام الإدراك أن دروس الرسم لا تعطى فى مثل تلك الساعة، فاحمرت "ألبيرتين" خجلاً وقالت: "صحيح، ما كنت آخذ درساً فى الرسم، لقد كذبتك القول كثيراً فى البداية. لكنى لا أكذبك البتة من بعد." لكم وددت أن أعلم أية كانت الكذبات الكثيرة فى البداية !لكنى كنت أعلم مسبقاً أن إقراراتها سوف تكون كذبات جديدة. واكتفيت لذلك بضمها وتقبيلها. وسألتها واحدة فقط من تلك الكذبات، فأجابت: "أجل، ويحك !أن هواء البحر مثلاً

كان يؤذينى." وكففت عن الإلحاح إزاء هذه النية السيئة.

كل شخص محبوب، بل كل شخص إلى حد ما، هو فيما يخصنا نظير "يانوس"[١]، فهو يعرض لنا الجبين الذى يروقنا إن يهجرنا هذا الشخص، والجبين الكئيب إن علمنا أنه بتصرفنا الدائم. أما فيما يخص "ألبيرتين" فقد كان يطبع الرفقة الدائمة معها شيء من المشقة على نحو مغاير لما يمكن أن أروى عنه فى هذه القصة. فإنه لفظيع أن ترتبط بحياة المرء حياة شخص آخر على غرار قنبلة يمسك بها دون أن يمكنه إفلاتها دون جريمة. لكن دعنا نأخذ على سبيل المقارنة حالات اليسر والعسر، والمخاطر والقلق والخشية من أن يجرى فيما بعد تصديق أمور كاذبة ومحتملة لن يسعنا تفسيرها فيما بعد، وهى مشاعر تنتابنا إن كنا فى عشرة مجنون. كنت على سبيل المثال أرثى لحال السيد "دو شارلوس" لعيشه مع "موريل" (وجعلنى تذكر ما جرى بعد الظهر من خصام أشعر فى الحال أن الجانب اليسارى من صدرى كان أشد ضخامة من الآخر): إن تركنا جانباً العلاقات التى قامت أو لم تقم بينهما، فلابد أن السيد "دو شارلوس" قد جهل فى البداية أن "موريل" مجنون. ولابد أن جمال "موريل" وخسته واعتزازه، لابد أنها صرفت البارون عن البحث بعيداً إلى هذا الحد، حتى أيام الكآبات التى كان "موريل" يتهم فيها السيد "دو شارلوس" بغمه دون أن يسعه تقديم تفسيرات، وينعى عليه سوء ظنه باللجوء إلى استدلالات زائفة ولكنها حاذقة جداً، ويهدده بمقاصد يائسة يقيم بينها على الدوام الاهتمام الأكثر مراوغة للمصلحة الأكثر مباشرة. وليس كل ذلك سوى مقارنة، فـ "ألبيرتين" لم تكن مجنونة.

وبدا لى من الحذاقة بمكان، بغية أن تبدو لها أصفادها أقل ثقلاً، أن أحملها على الظن بأننى أزمع شخصياً تحطيمها. وما كنت أستطيع فى جميع الأحوال أن أستودعها فى هذا الوقت ذاك المشروع الكاذب، فقد عادت تواً من التروكاديرو بفيض من اللطف؛ ما كان بوسعى أن أفعله، وما أبعد أن يكون إشاعة الحزن فى نفسها بالتهديد بالقطيعة، إنما كان على الأكثر كتم أحلام العيش المشترك الدائم التى كان يصوغها فؤادى المقر بالجميل. كنت أصادف مشقة، وأنا أنظر إليها، فى حجب النفس عن إيداعها إياها وربما كانت تتبين ذلك. لكن التعبير عنها ليس معدياً لسوء الحظ. أما حالة المرأة العجوز المتصنعة كما هو السيد "دو شارلوس" الذى يظن لكثرة ما لا يرى فى خياله سوى شاب جميل الطلعة، أنه أضحى هو شاباً جميل الطلعة ويتزايد الأمر بقدر ما يزداد تصنعاً ويزداد سخفاً، والحالة هذه أكثر شيوعاً، وإنه لمن سوء طالع العاشق المغرم أن لا يتبين أن عشيقته، فيما يرى هو وجهاً جميلاً أمامه، إنما ترى وجهه الذى لا يضحى أكثر جمالاً، بل العكس صحيح، حينما تشوهه المتعة الناجمة عن مرأى الجمال. والحب لا يستنفد حتى كامل شمولية هذه الحالة، فإننا لا نبصر جسمنا الذى يبصره الآخرون، و"نتابع" فكرنا، هذا الشيء الخفىّ على الآخرين، وهو أمامنا. وهذا الشيء يبرزه الفنان أحياناً فى آثاره. ومن هنا أن المعجبين بهذه الآثار إنما يخيب ظنهم بالمؤلف الذى انعكس ذاك الجمال الباطن على وجهه بصورة بعيدة الكمال.

(١) Janus: من آلهة روما، كان يمثل بوجهين متعاكسين وهو إله الأبواب ينظر إلى الأمام وخلف، ومعبده في روما مفتوح أبداً فيما عدا أيام السلم.

ولما لم أعد أحتفظ من حلمى بالبندقية إلا بما كان يمكن أن يتعلق بـ "ألبيرتين" ويهون عليها الوقت الذى تقضيه فى مسكنى فقد حدثتها عن فسطان لـ "فورتونى" كان لابد أن نبادر إلى التوصية عليه فى هذه الأيام. كنت أبحث عن المتع الجديدة التى يمكننى بها أن أروح عنها. وددت لو يتسع لى أن أوفر لها مفاجأة إعطائها قطعاً من الفضيات الفرنسية القديمة إن أمكن العثور على بعض منها. ذلك أننا حينما خططنا لمشروع اقتناء يخت، وهو مشروع حكمت "ألبيرتين" أنه غير قابل للتحقيق - وحكمت أنا فى كل مرة كنت أظنها فاضلة وأخذت الحياة معها تبدو لى فى الحال مجلبة للخراب بقدر ما يبدو الزواج منها مستحيلاً - كنا طلبنا النصح من "ايلستير" ولكن دون أن تصدق أنى سأبتاع واحدة منها.

لقد أعلمت أن وفاة وقعت فى ذلك اليوم شقت علىّ كثيراً، هى وفاة "بيرغوت". نعلم أن مرضه كان حل به منذ فترة طويلة، لا ذاك الذى كان ألم به فى البداية بالطبع، وكان من عمل الطبيعة. والطبيعة تكاد لا تبدو قادرة على نشر أمراض إلا قصيرة إلى حد. لكن الطب خص نفسه بفن إطالتها فالأدوية والهدوء الذى توفره والإزعاج الذى يبعثه من جديد التوقف عنها إنما تؤلف شبهاً للمرض يخلص تعود المريض إلى إكسابه الاستقرار والأسلوب مثلما يسعل الأطفال بانتظام بطريقة النوبات بعد مضى زمن طويل على شفائهم من السعال الديكى. ثم تصبح الأدوية أقل فاعلية فتزداد، ولا تأتى بأية فائدة من بعد، لكنها شرعت تسيء بفضل هذا الانزعاج الدائم. وما كانت الطبيعة لتوفر لها مدة طويلة إلى هذا الحد. وإنها لمعجزة عظيمة أن يستطيع الطب إذ يساوى الطبيعة تقريباً إرغام المرء على ملازمة سريره وعلى الاستمرار فى استعمال الدواء تحت طائلة الموت. لقد مد المرض المضاف اصطناعياً مذ ذاك جذوره وأصبح ثانوياً ولكنه حقيقى بفارق وحيد قوامه أن الأمراض الطبيعية تشفى، ولا تشفى البتة تلك التى يسببها الطب لأنه يجهل سر الشفاء.

لقد مضت سنوات و"بيرغوت" لا يغادر منزله من بعد. لم يكن على أى حال قد أحب الدنيا فى يوم، أو هو أحبها يوماً واحداً كى يزدريها شأن كل ما تبقى وبذات الطريقة التى كان ينتهجها ونعنى لا أن يزدرى المرء لأنه يعجز عن الحصول على أمر، بل حالما يكون حصل عليه. كان بسيط العيش إلى حد لا يرتابون معه كم كان غنياً، ولعلهم كانوا أخطأوا حتى لو عرفوا إذ يظنونه حينذاك بخيلاً فيما لم يكن أحد قط بمثل كرمه. كان كريماً على وجه الخصوص مع نساء، والأصح أن نقول مع بنيات يعتريهن الخجل من أن يحصلن على هذا المقدار فى مقابل ما كان زهيداً إلى هذا الحد. وكان يجد لنفسه العذر فى ذلك إذ يعلم أن ليس يستطيع فى يوم أن ينتج بمثل تلك الجودة إلا فى جو يحس فيه أنه عاشق. فالحب، وفى القول مبالغة، بل المتعة المنغرسة قليلاً فى الجسد تعين فى صناعة الأدب لأنها تقضى على المتع الأخرى، متع المخالطة التى هى واحدة لكل الناس. والحب هذا، وإن حمل معه الخيبات، إنما يحرك بهذه الطريقة أيضاً صفحة النفس التى ربما أصابها لولا ذاك الركود. فليست الرغبة إذن عديمة الجدوى للكاتب بغية إبعاده بادئ الأمر عن باقى الناس وعن التقيد بهم، وكيما تعيد فيما بعد بعض الحركة إلى آلة فكرية تنزع إلى الجمود بعد تجاوز سن معينة. والمرء لا يفلح فى

أن يكون سعيداً ولكنه يدلى بملاحظات حول الأسباب التى تحول دون أن يكون سعيداً والتى ربما ظلت خفية علينا لولا خروقات الخيبة المفاجئة تلك. والأحلام ليست بالطبع قابلة للتحقيق، ونحن نعلم ذلك؛ وما كنا ربما صغنا أحلاماً لولا الرغبة ومن المفيد أن نصوغها كى نشهد فشلها ونتعظ من ذلك الفشل. لذلك كان "بيرغوت" يقول فى نفسه: "إننى أنفق أكثر من أصحاب الملايين الكثيرة فى سبيل بنيات، لكن المتع أو الخيبات التى يوفرنها لى تدفعنى إلى تأليف كتاب يدر علىّ المال." كانت تلك المحاكمة منافية للمنطق من الناحية الاقتصادية، لكنه كان دون شك واجداً بعض المتعة فى قلب الذهب على هذا النحو مداعبات والمداعبات ذهباً. ثم إننا رأينا فى فترة وفاة جدتى أن شيخوخته المتعبة كانت تحب الإخلاد إلى الراحة. هذا، وليس فى المجتمع سوى المحادثة، وهى فيه تتسم بالغباء، ولكن لها سلطاناً على حذف النساء اللواتى لسن من بعد سوى أسئلة وأجوبة. أما خارج المجتمع فتضحى النساء من جديد ما هو مريح جداً فى نظر العجوز المتعب، عنينا موضوع تأمل.

وأما الآن فلم يعد أى شىء من كل ذلك وارداً فى جميع الأحوال. لقد قلت إن "بيرغوت" لم يعد يغادر منزله وحينما كان ينهض ساعة داخل غرفته فإنما وهو يلف نفسه كلياً بشالات وأغطية وبكل ما يدثر به المرء ساعة التعرض لبرد قاس والصعود إلى القطار. كان يعتذر عن ذلك للأصدقاء القلائل الذين يسمح لهم بالقرب منه ويقول جذلان وهو يدل على أقمشة الترتر والأغطية لديه: "ما فى اليد حيلة أيها العزيز، فالحياة رحلة كما قال "أنكزاكور"[1]. هكذا كان يمضى متبرداً بالتدرج، كوكباً صغيراً يقدم صورة مسبقة عن آخر أيام الكوكب الكبير حينما تنحسر الحرارة شيئاً فشيئاً عن الأرض، ثم تنحسر الحياة. حينئذ تكون القيامة قد انتهت، فإنه مهما ذهبت آثار الناس بعيداً فى بريقها عبر الأجيال القادمة فلابد فى جميع الأحوال أن يكون ثمة أناس. فإن قاومت بعض أصناف الحيوان غزوات البرد فترة أطول عندما لا يعود ثمة بشر وبافتراض أن يكون مجد "بيرغوت" قد امتد حتى ذاك فسوف ينطفئ فجأة إلى الأبد. فليست آخر الحيوانات هى التى ستقرؤه لأنه من غير المرجح أن تستطيع، كحال الرسل فى العنصرة[2]، فهم لغة مختلف شعوب البشر دون أن تكون تعلمتها.

كان "بيرغوت" فى الشهور التى سبقت وفاته يعانى من الأرق ومما كان أدهى من ذلك حينما ينام، من الكوابيس التى كانت تدفعه إن أفاق إلى تجنب معاودة النوم. وكان على مدى فترة طويلة قد أحب الأحلام، حتى الأحلام المزعجة لأنها تقدم لنا، بفضلها وبفضل التناقض الذى توفره مع الواقع الذى أمامنا فى حال اليقظة، منذ الاستيقاظ على أبعد حد إحساساً عميقاً بأننا نمنا. لكن كوابيس "بيرغوت" لم تكن من هذا القبيل. فحينما كان يتحدث عن الكوابيس كان فيما مضى يعنى أموراً مزعجة تجرى فى عقله. أما الآن فإنما كان يحس، وكأنما جاءت من خارج ذاته، يداً مزودة بممسحة مبللة تجهد، إذ تمررها على وجهه امرأة شريرة، أن توقظه، ومداعبات لا تطاق على الوركين وحنقاً

---

(١) فيلسوف يوناني من القرن الخامس قبل الميلاد. وكان حرياً به أن يذكر "سينيكا" الروماني، فهو أشهر منه على صعيد المواقف التجلدية.

(٢) ذكرى حلول الروح القدس على تلاميذ المسيح فأضحوا ينطقون بألسنة الأمم.

لحوذيّ - لأن "بيرغوت" كان قد همس فى نومه أنه سيئ القيادة - حوذيّ جن جنونه كان يرتمى على الكاتب ويعض أصابعه وينشرها. وكانت الطبيعة أخيراً، حالما يصبح الظلام فى نومه كافياً، كانت تقوم بنوع من التدريب بدون ألبسة مسرحية على النوبة القلبية التى ستودى به: فكان "بيرغوت" يدخل وهو فى العربة داخل بوابة فندق عائلة "سوان" الجديد ويهم بالنزول. فيسمره دوار صاعق على مقعده، ويحاول البواب مساعدته على النزول، فيظل جالساً لا يقوى على النهوض والانتصاب واقفاً على قدميه. كان يحاول التشبث بالعمود الحجرى القائم أمامه ولكنه لا يلقى فيه سنداً كافياً يعينه على الوقوف. واستشار الأطباء الذين أعجبهم استدعاؤه لهم فرأوا فى مزاياه ككادح كثير الشغل (وكان مضى عشرون عاماً لم يقم فيها بأى عمل) وفى إرهاقه سبباً لوعكاته. وأشاروا عليه أن لا يقرأ حكايات مرعبة (وما كان يقرأ شيئاً) وأن يفيد أكثر من الشمس "التى لا غنى عنها للحياة" (وما كان يدين ببضع سنوات من التحسن النسبى إلا لاحتجابه فى بيته) وأن يغتذى فوق ما يفعل (الأمر الذى أهزله وغذى على وجه الخصوص كوابيسه). ولما كان أحد أطباء "بيرغوت" يتمتع بموهبة المعارضة والتنكيد، فما إن كان يعرض عليه، إذ يلتقيه فى غياب الآخرين كى لا يغضبه، ما سبق أن أشار به الآخرون على أنه أفكار صادرة عنه حتى كان الطبيب المعارض، وفى ظنه أن "بيرغوت" يحاول أن يحصل على وصف حاجة تروق له، يمنعه عنها فى الحال ويفعل فى الغالب انطلاقاً من أسباب اصطنعت لحاجة فى نفس يعقوب وبسرعة كبيرة إلى حد أن الطبيب المعارض كان يضطر، فى مواجهة بداهة الاعتراضات المادية التى يقدمها "بيرغوت"، أن يعارض نفسه فى الجملة ذاتها ولكنه لأسباب جديدة كان يشدد المنع ذاته. وكان "بيرغوت" يعود إلى واحد من أوائل الأطباء، وهو رجل كان يباهى بالنباهة ولاسيما فى حضرة أحد أسياد القلم وكان، إن لمح "بيرغوت" قائلاً: "يبدو لى مع ذلك أن الدكتور س سبق أن قال لى - فيما مضى بالطبع - أن ذلك يمكن أن يسبب لى احتقاناً فى الكلية والدماغ..." كان يبتسم ابتسامة خبيثة ويرفع أصبعه ويلقى بهذه الكلمات: "لقد قلت بالاستعمال ولم أقل بالإفراط. فطبيعى أن كل دواء، إن نحن بالغنا، إنما يصبح سلاحاً ذا حدين." إن فى جسمنا ميلاً فطرياً إلى ما يلائمنا مثلما فى فؤادنا إلى ما هو الواجب الأخلاقى ولا يمكن لأى إجازة دكتور فى الطب أو اللاهوت أن تحل محله. نعلم أن الحمامات الباردة تلحق بنا الأذى ونحبها وسوف نلقى دوماً طبيباً ليشور بها علينا لا ليحول دون أن تلحق بنا الأذى. وأخذ "بيرغوت" من كل من أطبائه ما سبق أن منع النفس عنه منذ سنوات من قبيل التعقل. وعادت أعراض الأمس إلى الظهور فى ختام بضعة أسابيع، أما القريبة فقد ازدادت سوءاً. ولم يعمل "بيرغوت" من بعد، وقد ذهب عقله جراء ألم يمتد على كل دقيقة وينضاف إليه أرق تقطعه كوابيس قصيرة؛ لم يعمل من بعد على استحضار أى طبيب وجرب بنجاح، ولكن بإفراط، مخدرات مختلفة وهو يقرأ بثقة النشرة المرافقة لكل منها، النشرة التى تعلن ضرورة النوم ولكنها تلمح إلى أن جميع المنتجات التى تجىء به سامة (فيما عدا ذلك الكائن فى القارورة التى تغلفها والتى لا تؤدى البتة إلى التسمم) وتجعل الدواء بذلك أسوأ من المرض. وقد جربها "بيرغوت" جميعاً، وينتمى بعضها إلى فصيلة غير تلك التى تعودناها وهو مشتق مثلاً من الأميل والأيتيل. والمرء لا يبتلع المنتج الجديد الذى يختلف تركيبه كلياً إلا وتداخله عذوبة انتظار

المجهول. ويخفق القلب كما فى أول موعد. فإلى أية أنواع مجهولة من النوم والأحلام سوف يقودنا الوافد الجديد؟ إنه الآن فى داخلنا وقد تولى قيادة فكرنا. فبأية طريقة نزمع أن ننام؟ وحالما نكون نمنا، على أية دروب عجيبة، وفوق أية قمم، وفى أية هاويات غير مكتشفة سيقودنا المعلم الكلى الاقتدار؟ وأية مجموعة جديدة من الأحاسيس نزمع تعرفها فى هذه الرحلة؟ وهل تقودنا إلى الضيق؟ إلى الغبطة؟ إلى الموت؟ أما وفاة "بيرغوت" فقد وقعت عشية ذلك اليوم الذى كان استودع فيه نفسه واحداً من أولئك الأصدقاء (أهو صديق؟ أم عدو؟) فائق الاقتدار.

وقد توفى فى الظروف التالية: لقد أدت نوبة تسمم بولى طفيف إلى أن وصفوا له الراحة. ولما كان أحد النقاد قد كتب أن رقعة جدار صغيرة صفراء فى لوحة "منظر من مدينة ديلفت" من أعمال "فيرمير" (وقد أعارها متحف لاهاى لصالح معرض هولندى)، وهى لوحة كان يعشقها ويظن أنه يعرفها خير معرفة، أن تلك الرقعة (وما كان يتذكرها) قد أحسن رسمها إلى حد تبدو معه، إن نظرنا إليها وحدها، كأنها عمل فنى صينى رائع ذو جمال يكفى نفسه بنفسه، فقد أكل "بيرغوت" بضع حبات من البطاطا وخرج خارجاً ودخل المعرض. ومنذ الدرجات الأولى التى كان عليه أن يرتقيها أخذ منه الدوار. ومر أمام عدة لوحات وداخله انطباع بجفاف ولا جدوى فن مصطنع إلى هذا الحد وما كان ليساوى مجارى الهواء والشمس فى قصر من البندقية أو محض بيت على شاطئ البحر. ووقف أخيراً أمام لوحة "فيرمير" التى كان يذكرها أكثر ألقاً وأشد اختلافاً عن كل ما كان يعرفه، بيد أنه لاحظ فيها للمرة الأولى، بفضل مقالة الناقد، شخوصاً صغيرة بالأزرق وأن الرمل وردى، ولاحظ أخيراً المادة الثمينة التى لرقعة الجدار الصغيرة الصفراء. كانت صنوف دواره آخذة فى الازدياد وكان يثبّت نظره على رقعة الجدار الصغيرة الثمينة مثل طفل على فراشة صفراء يود الإمساك بها. وكان يقول: "هكذا كان جديراً بى أن أكتب، فإن كتبى الأخيرة بالغة الجفاف وكان انبغى لى وضع عدة طبقات لونية وجعل جملتى ثمينة فى حد ذاتها على غرار رقعة الجدار الصغيرة الصفراء هذه. بيد أن خطورة دواره ما كانت لتفوته. كان يتجلى أمامه فى ميزان سماوى حياته ذاتها تثقل إحدى كفتيه فيما تحتوى الثانية رقعة الجدار الصغيرة التى أحكم رسمها باللون الأصفر. كان يحس أنه وهب حياته غير محاذر فى مقابل الثانية. وقال فى نفسه: "لست أود مع ذلك أن أكون فى صحف المساء بنداً فى باب المتفرقات فى هذا المعرض." وكان يردد فى نفسه قائلاً: "رقعة جدار صغيرة صفراء بإفريز، رقعة جدار صغيرة صفراء." وانهار فى هذه الأثناء على أريكة دائرية. وكف بالصورة المفاجئة نفسها عن التفكير بأن حياته فى خطر وقال فى رجعة إلى تفاؤله: "إنه مجرد سوء هضم أولتنى إياه حبات البطاطا غير المستوية ولا بأس علىّ." وأسقطته نوبة ثانية فتدحرج عن الأريكة أرضاً حيث سارع الزوار والحراس جميعاً. وكان قد مات. مات دون رجعة؟ من يسعه قول ذلك؟ أجل، إن تجارب استحضار الأرواح لا تقيم البرهان، أكثر مما تفعل العقائد الدينية، على أن النفس باقية. ما يمكن أن نقوله إن كل شىء يجرى فى حياتنا كما لو أننا ندخلها تثقلنا التزامات عقدناها فى حياة سابقة. ليس من سبب فى ظروف حياتنا على هذه الأرض كى نعتقد أننا ملزمون بصنع الخير وأن نكون رقيقى المعاملة، بل أن نكون مهذبين، ولا سبب كذلك كى يظن الفنان الملحد أنه ملزم أن يعيد عشرين مرة مقطوعة سيكون

الإعجاب الذى تثيره قليل الجدوى لجسده الذى أكلته الديدان، كحال رقعة الجدار الصفراء التى رسمها بكثير من الدراية والرهافة فنان مجهول أبداً كدت لا تتعرفه باسم "فيرمير". هذه الالتزامات جميعها التى لا تلقى جزاءها فى الحياة الحاضرة تبدو كأنما تنتمى إلى عالم مختلف قائم على الطيبة ورقة الوجدان والتضحية، عالم يختلف تمام الاختلاف عن هذا ونصدر عنه لنولد على هذه الأرض لنعيش مجدداً، ربما قبل انثنائنا إليه، تحت سلطان تلك القوانين المجهولة التى أذعنا لها لأننا كنا نحمل تعاليمها فى ذواتنا دون أن نعلم من سبق أن خطها فينا، تلك القوانين التى يقربنا منها أى نشاط عميق للعقل وهى خفية - إن خفيت - !على البلهاء فحسب. وهكذا فإن الفكرة التى قوامها أن "بيرغوت" لم يمت ميتة لا رجعة فيها ليست من باب اللامحتمل.

وجرى دفنه، لكن كتبه كانت طوال الليلة المأتمية تسهر فى الواجهات المضادة، وقد صفت ثلاثة ثلاثة، تسهر كملائكة مبسوطة الأجنحة وتبدو بالنسبة إلى من فارق الدنيا كأنها رمز قيامته.

لقد أعلمت، كما قلت، أن "بيرغوت" قضى فى ذلك اليوم.وعجبت لانتفاء دقة الصحف التى تقول - وهذه وتلك تكرر ذات التعليق - إنه مات عشية ذلك اليوم. لكن "ألبيرتين" كانت قد التقته الليلة البارحة، كما روت لى فى المساء نفسه، بل هى تأخرت قليلاً جراء ذلك لأنه تحدث إليها طويلاً. وليس من شك أنه أجرى معها آخر حديث. لقد كانت تعرفه على يدى أنا الذى ما عاد يراه منذ فترة طويلة، على أنى لما دفعها الفضول إلى التعرف إليه بادرت فكتبت قبل عام إلى المعلم العجوز كى آتيه بها. وقد منحنى ما سبق أن سألته إياه فيما عانى قليلاً، باعتقادى، من أنى لم ألتقه ثانية إلا لأسعد بذلك شخصاً آخر، وهو ما كان يؤكد لامبالاتى تجاهه. تلك حالات كثيرة الحدوث. وأحياناً يرفض هذا أو تلك ممن نتوسل إليهم لا فى سبيل متعة التحدث وإياهم ثانية، بل من أجل شخص ثالث، يرفض بإصرار عظيم حتى لتظن التى تعيش فى كنفنا أننا فاخرنا بسلطان مزيف؛ وفى الكثير الغالب يقبل النابغة أو الجميلة المشهورة ولكنهما لا يحتفظان لنا من بعد، وقد أذلا فى كبرهما وجرحا فى ودهما، إلا بعاطفة مقلصة مؤلمة يلونها شىء من الازدراء. وتبينت فترة طويلة بعد ذلك أنى اتهمت الصحف زوراً بعدم الدقة لأن "ألبيرتين" لم تلتق "بيرغوت" البتة فى ذلك اليوم. لكننى لم أرتب بالأمر لحظة واحدة لشدة ما روت عنه بلهجة طبيعية ولم أعلم إلا بعد فترة طويلة الفن الرائع الذى تبديه فى الكذب ببساطة. فقد كان لما تقوله ولما تقر به ذات سمات أشكال البداهة - وهى ما نراه ونعلمه علماً لا يدحض - إلى حد أنها كانت هكذا تنشر فى أثناء الحياة وقائع حياة أخرى ما كنت أرتاب حينذاك بزيفها. وربما كان علينا، بأية حال، أن نناقش كثيراً كلمة الزيف هذه. فإن الكون صحيح بالنسبة إلينا جميعاً ومتباين بالنسبة إلى كل منا. ولعل شهادة حواسى كانت ربما أعلمتنى، لو كنت فى تلك الفترة خارجاً، أن السيدة لم تسر بضع خطوات برفقة "ألبيرتين". ولئن عرفت العكس فإنما بواحد من تسلسلات المحاكمة العقلية (حيث تدخل أقوال من نثق بهم حلقات قوية) لا بشهادة الحواس. وكان انبغى كيما أستند إلى شهادة الحواس هذه أن أكون خارجاً، وهذا لم يقع. يمكننا مع ذلك أن نتصور أن مثل هذه الفرضية لا تجافى المنطق؛ وكنت علمت حينذاك أن "ألبيرتين" كذبت. وهل

الأمر بعد مؤكد تماماً؟ فإن شهادة الحواس بدورها عملية فكرية تصنع القناعة فيها البداهة. لقد لاحظنا مرات كثيرة حاسة السمع تحمل لـ "فرانسواز" لا الكلمة التى قيلت، بل تلك التى كانت تظنها الحقيقية، وكان ذلك كافياً كى لا تسمع التصويب الضمنى الكائن فى تلفظ أفضل. لم يكن رئيس خدمنا على تقويم مختلف. فقد كان السيد "دو شارلوس" يرتدى فى ذلك الوقت - إذ يبدل كثيراً فى ملابسه - بناطيل فاتحة جداً تتعرفها بين ألف. وإن رئيس خدمنا، الذى كان يظن أن لفظة "مبولة" (وهى اللفظة التى تعنى ما سبق أن غضب له السيد "دورامبوتو" إذ سمع الدوق "دو غيرمانت" يدعوه ملحق "رامبوتو") كانت "مبيلة"، لم يسمع قط طوال حياته شخصاً واحداً يقول "مبولة" على الرغم من أنهم كانوا فى الكثير الغالب يلفظونها على تلك الصورة فى حضرته. لكن الخطأ أشد عناداً من الإيمان ولا يتقصى معتقداته. فقد كان رئيس الخدم يقول باستمرار: "إن السيد البارون "دو شارلوس" يعانى بالتأكيد من مرض كى يلبث كل هذا الوقت فى "المبيلة". فانظر ماذا يعنى أن يكون المرء زير نساء عتيق. وإن له بناطيلهن. لقد أرسلتنى سيدتى فى هذا الصباح للقيام بمشتريات فى "نويى". ورأيت السيد البارون "دو شارلوس" يدخل فى "مبيلة" شارع "بورغونيى". ولدى عودتى من "نويى"، بعد ساعة كاملة، رأيت بناطيله الصفراء فى "المبيلة" ذاتها وفى ذات المكان، فى الوسط، حيث يقف دوماً كى لا يُشَاهَد." ثم أنى ما كنت أعرف ما كان أجمل وأنبل وأوفر شباباً من ابنة أخ للسيدة ""دوغيرمانت". لكنى كنت أسمع بواب مطعم كنت أتردد عليه أحياناً يقول لدى مرورها: "هيا انظر إلى هذه العجوز المدعية، يا لها من هيئة، وهى على الأقل فى الثمانين من عمرها." أما بخصوص السن فيبدو لى من العسير أنه يصدقه. لكن المراسلين الفتيان المتجمعين حوله الذين قهقهوا فى كل مرة كانت تمر فيها أمام الفندق لتذهب للقاء شقيقتين لجدتها، السيدتين "دو فزنزاك" و"دو بالروا"، شاهدوا على وجه تلك الجميلة الشابة الثمانين عاماً التى وهبها البواب، ممازحاً أو غير ممازح، "للمدعية العجوز". ولعلك كنت أضحكتهم بقولك إنها أكثر أناقة من إحدى عاملتى الصندوق فى الفندق التى كانت تبدو لهم، والإكزيما تتأكلها وسمنتها تثير الاستهزاء، امرأة ذات جمال. وحدها الشهوة الجنسية كانت ربما استطاعت الحؤول دون تشكل خطئهم لو أنها عملت لدى مرور المدعية العجوز المزعومة ولو أن المراسلين اشتهوا الغانية الشابة. لكن تلك الرغبة لم تعمل لأسباب مجهولة لابد كانت على الأرجح من النوع الاجتماعى.

لكنما كان يمكن فى نهاية المطاف أن أكون خرجت وأن أمر فى الشارع ساعة تكون "ألبيرتين" قالت لى فى ذاك المساء (إذ هى لم تشاهدنى) إنها سارت والسيدة بضع خطوات. ولعل ظلاماً مقدساً كان استولى على فكرى وكنت شككت بأن أكون رأيتها وحيدة وكدت حتى لا أحاول أن أفهم بأية خدعة بصرية لم أبصر السيدة وما كنت لأعجب أكثر من ذلك أن أكون أخطأت. فإن عالم الكواكب أيسر معرفة من أعمال الأشخاص الحقيقية، ولاسيما الأشخاص الذين نحبهم إذ يستقوون على شكنا بحكايات أعدت لتحميهم. فكم سنة يمكنها أن تدع لحبنا اللامبالى أن يعتقد أن المرأة المحبوبة تملك فى الغربة شقيقة أو شقيقاً أو زوجة أخ ما كان لهم وجود فى يوم! ولو لم نكن فضلاً عن ذلك ملزمين من أجل تسلسل القصة بالاكتفاء بأسباب غير جدية، فكم من أسباب أكثر جدية ربما مكنتنا من إبراز

الهزالة الكاذبة لبداية هذا المجلد حيث أسمع من سريرى العالم يستفيق تارة فى طقس معين وطوراً فى آخر! أجل، لقد اضطررت أن أقلل الأمر وأنحو منحى الكذب، فليس عالم، بل ملايين، ما يساوى تقريباً ما يوجد من أحداق وعقول بشرية، هى التى تستيقظ كل صباح.

ولنعد إلى "ألبيرتين"، فإنى لم أعرف فى يوم نساء حبتهن الطبيعة أكثر منها قابليات مؤاتية للكذب الحىّ الذى بألوان الحياة نفسها، ما لم تكن واحدة من صديقاتها - واحدة من فتياتى اليانعات أيضاً، موردة مثل "ألبيرتين" ولكن هيئتها الجانبية غير المنتظمة، الغائرة، ثم البارزة، ثم الغائرة من جديد كانت تشبه تماماً بعض عناقيد أزهار وردية نسيت اسمها ولها على هذا النحو غوائر طويلة متعرجة. كانت تلك الفتاة، على صعيد الحكاية، تفوق "ألبيرتين" لأنها ما كانت تمزج بها أية من الفترات المؤلمة أو المضمرات الساخطة التى كانت كثيرة لدى صديقتى. بيد أنى قلت إنها كانت تفتنك حينما كانت تبتدع قصة لا تدع مجالاً للشك لأنك كنت حينذاك ترى أمامك الأمر الذى تقوله - مع أنه متخيل - باستخدام كلامها على أنه منظر. وكان ذلك إدراكى الحقيقى.

وأضفت قولى: "حينما كانت تقر"، وإليكم السبب، كانت بعض المقاربات الغريبة تولينى بشأنها أحياناً شكوكاً غيرى يظهر فيها بالقرب منها فى الماضى، فى المستقبل وا أسفى، شخص آخر، وكى يبدو أنى متيقن مما أقدم كنت أقول الاسم فتسارع "ألبيرتين" إلى القول: "أجل لقد التقيتها منذ ثمانية أيام على خطوات من البيت. ورددت تحيتها تأدباً. وقد خطوت معها خطوتين. لكنما لم يقع شىء البتة بيننا ولن يكون شىء البتة." ولم تكن "ألبيرتين" حتى التقت تلك المرأة لسبب بسيط قوامه أنها لم تجئ إلى باريس منذ عشرة أشهر. بيد أن صديقتى كانت ترى أن الإنكار التام كان قليل القرب من المنطق. فكان هذا اللقاء القصير الوهمى، ساقته ببساطة كبيرة حتى لأرى السيدة تتوقف وتسلم عليها وتقوم ببضع خطوات وإياها. كانت المعقولية وحدها هى التى ألهمت "ألبيرتين" وليس الرغبة فى إيقاظ غيرتى. فـ "ألبيرتين" كانت تود، ربما دون أن تسعى إلى ذلك، أن تحاط بالملاطفات. ولئن توافر وسيتوافر لي على مدى هذا الكتاب الكثير من الفرص لأبرز كيف تضاعف الغيرة الحب فإنما انطلقت من وجهة نظر العاشق. لكنما إن يتوافر له شىء من الأنفة فلن يرد على خيانة مفترضة، وإن انبغى أن يموت بفعل الهجران، بلفتة لطيفة، بل ينتحى جانباً أو يفرض على نفسه، دون أن يبتعد، التظاهر بالفتور. ولذلك فإن من باب الخسارة البحتة لعشيقته أن تعذبه هذا العذاب. فإن بددت بالعكس بكلمة حاذقة، بمداعبات رقيقة، الشكوك التى كانت تعذبه على الرغم مما زعم من لامبالاة فلاشك أن العاشق لا يعانى من هذا التنامى اليائس للحب الذى تدفعه الغيرة إلى قمته بل هو لا يعرف، وقد توقف فجأة عن العذاب سعيداً مرقق العاطفة منفرج النفس كحال المرء فى أعقاب عاصفة بعدما تساقط المطر وحين تكاد لا تحس بعد تحت أشجار الكستناء الضخمة بالقطرات المتأرجحة التى لونتها الشمس العائدة تقطر على فترات متباعدة، لا يعرف كيف يعبر عن امتنانه لتلك التى شفته. كانت "ألبيرتين" تعلم أنى أحب مكافأتها على ألطافها، وربما كان ذلك هو التفسير لاستنباطها، بغية

تبرئة نفسها، إقرارات خالية من الصنعة من مثل قصصها التى ما كنت أرتاب بها وكانت إحداها لقاء "بيرغوت" حين كان قد مات. وما كنت علمت حتى ذاك من كذبات "ألبيرتين" غير تلك التى نقلتها إلىّ "فرانسواز" على سبيل المثال فى "بالبيك" والتى فاتنى أن أقولها مع أنها آلمتنى أشد الألم: "لما كانت لا تود المجىء فقد قالت لى: "ألا يمكن أن تقولى للسيد أنك لم تلتقى بى وأننى كنت قد خرجت؟". لكن "الأدنين" الذى يحبوننا، كما كانت "فرانسواز" تحبنى، إنما يمتعهم أن يجرحونا فى اعتزازنا بنفسنا.

قلت لـ "ألبيرتين" بعد العشاء إنى راغب فى الإفادة من أنى نهضت من فراشى لأذهب للقاء أصدقاء، السيدة "دو فيلباريزيس"، السيدة "دو غيرمانت"، آل "كامبرمير"، لست أدرى بالتمام، من ربما وجدتهم لديهم. لقد كتمت فقط اسم الذين كنت عازماً على الذهاب إلى بيتهم، آل "فيردوران". وسألت "ألبيرتين" إن لم تكن تريد المجىء معى. فاحتجت بأن ليس لديها فسطان. "ثم إن شعرى مشعث فهل تحرص على أن ألبث على تصفيفة الشعر هذه؟" وكيما تودعنى مدت لى يدها بتلك الطريقة النزقة، ممدودة الذراع مرتدة المنكبين، الطريقة التى كانت تتبعها فيما مضى على شاطئ "بالبيك" وما عادت اعتمدتها مرة مذ ذاك. وجعلت تلك الحركة المنسية، جعلت ثانية من الجسم الذى بعثت فيه الحياة جسم "ألبيرتين" التى كانت بعد لا تعرفنى أو تكاد. لقد أعادت لـ "ألبيرتين"، وهى خلف مظهرها النزق كثيرة الاحتفاء، جدتها الأولى وطابعها المجهول وحتى الإطار الذى من حولها. فقد رأيت البحر خلف هذه الفتاة التى لم أكن أبصرتها قط تسلم علىّ بهذه الطريقة منذ أن لم أعد على شاطئ البحر. وأضافت متجهمة: "ترى عمتى أن ذلك يزيدنى سناً." وفكرت قائلاً: "ليت عمتها تقول الحقيقة! فأن تجعل "ألبيرتين" بما تبدو طفلة، أن تجعل السيدة "بونتان" تبدو أكثر شباباً، ذلك كل ما تتمناه هذه الأخيرة وأن لا تكلفها "ألبيرتين" شيئاً بانتظار اليوم الذى تعود عليها بالمال بزواجها منى." فأما أن تبدو "ألبيرتين" أقل شباباً وأقل جمالاً وأن تجعل الرؤوس أقل متابعة لها فى الشارع فذلك ما كنت بالعكس أتمناه أنا. لأن شيخوخة مربية عجوز لا تطمئن العاشق الغيران بقدر ما تفعل شيخوخة وجه التى يحبها. كنت أشكو فقط من إمكان أن تبدو التصفيفة التى سألت "ألبيرتين" أن تتبناها حجزاً إضافياً لحريتها. وكان هذا الشعور العائلى الجديد نفسه هو الذى لم ينفك يربطنى بـ "ألبيرتين" حتى وأنا بعيد عنها.

قلت لـ "ألبيرتين" وهى قليلة الاستعداد، قالت، لمرافقتى إلى منزل آل "غيرمانت" أو آل "كامبرمير"، إنى لا أدرى تماماً إلى أين أذهب، ومضيت إلى منزل آل "فيردوران". وآن كنت ماضياً للذهاب إلى منزل آل "فيردوران" وذكرتنى فكرة الحفل الموسيقى الذى سأستمع إليه هناك بمشهد خصام بعد الظهيرة: "أيتها العاهرة المريعة، أيتها العاهرة المريعة"، وهو مشهد للحب المخيب، للحب الغيران ربما، لكنه آنذاك بمثل بهيمية المشاحنة التى يمكن، بفارق الكلام أن تقع لـ "أورانغوتان"(١) مع امرأة

(١) نوع من القردة الضخمة، وهو قريب الشبه بالإنسان.

أغرم بها، إن جاز القول، آن كنت ماضياً فى الشارع لاستدعاء عربة، سمعت نحيباً يحاول رجل جالس على صخرة مغالبته، واقتربت، وكان الرجل الذى يضع رأسه بين يديه يبدو فتى شاباً وفوجئت أنه يبدو، وهو أنيق الملبس، جراء البياض الذى ينطلق من المعطف، أنه بلباس رسمى وربطة عنق بيضاء. وإذ سمعنى كشف عن وجهه الغارق فى الدموع ولكنه أدارد فى الحال بعدما تعرفنى. وكان "موريل". وأدرك أنى عرفته فقال لى وهو يجهد فى وقف دموعه إنه توقف لحظة لشدة ما كان يعانى. وقال لى: "لقد وجهت فى هذا اليوم ذاته إهانة فظة إلى امرأة حملت لها مشاعر عميقة جداً. وتلك فعلة جبان، فإنها تحبنى." وأجبت: "ربما نسيت مع مرور الزمن"، دون أن يخطر لى أنه يبدو من حديثى هذا أنى سمعت الخصام الذى كان بعد الظهر. لكنه كان مأخوذاً بغمة إلى الحد الذى لم يخطر له معه أن بوسعى أن أعلم شيئاً. فقال لى: "ربما نسيت، أما أنا فلن يمكننى أن أنسى. إن بى إحساساً بعارى وبى قرفاً من نفسى! لكن الأمر فى النهاية قيل وليس ما يمكن أن يجعله وكأنه ما قيل. حينما يثيرون غضبى لا أعلم من بعد ما أنا فاعل. والأمر ما أشد ضرره علىّ فأعصابى كلها متشابك بعضها مع بعض"، إذ هو شديد الاهتمام بصحته كمثل المصابين بالوهن العصبى جميعاً. ولئن كنت شاهدت بعد الظهر الغرام الغاضب لدى حيوان ثائر، فقد انقضت هذا المساء قرون فى بضع ساعات وأخذ إحساس جديد، إحساس بالعار والأسف والأسى، أخذ يُظهر للعيان أن مرحلة كبيرة قد اجتيزت فى تطور الحيوان الذى سينقلب مخلوقاً بشرياً. ومع ذلك كنت أسمع على الدوام "أيتها العاهرة المريعة" وأخشى عودة قريبة إلى حال التوحش. وكنت على أى حال لا أدرك تمام الإدراك ما جرى، والأمر طبيعى يزيد منه أن السيد "دو شارلوس" نفسه يجهل جهلاً تاماً أن "موريل" كان يعاوده الوهن العصبى منذ عدة أيام، وعلى وجه الخصوص فى ذلك اليوم، حتى قبل الواقعة المخجلة التى لم تكن تتعلق مباشرة بحالة عازف الكمان. فقد كان دفع فى الشهر الماضى بما أمكنه من السرعة، وببطء أكبر مما لعله كان رغب، عملية إغواء ابنة شقيق "جوبيان" التى كان يستطيع الخروج برفقتها على هواه بما هو خطيبها. ولكن ما إن مضى بعيداً بعض الشىء فى مساعيه إلى الاغتصاب، ولاسيما حين كلم خطيبته لتقوم بالارتباط بفتيات أخريات توفرهن له، حتى لاقى مقاومات أثارت حفيظته. وفى الحال تهاوت رغبته (إما لأنها كانت مفرطة فى عفافها أو لأنها بالعكس سلمت نفسها). وقرر قطع علاقته لكنه كان يخشى، إذ يحس البارون ألصق بالأخلاق مع أنه فاسق، أن يطرده السيد "دو شارلوس" فور القطيعة. لذلك كان قد قرر منذ خمسة عشر يوماً أن لا يلتقى الفتاة من بعد وأن يدع للسيد "دو شارلوس" و"جوبيان" أن يتدبرا أمورهما (وكان يستعمل لفظة أكثر غرابة) وأن يولى الأدبار إلى جهة مجهولة قبل إعلان القطيعة. والحب هذا كانت خاتمته تخلف فى نفسه شيئاً من الحزن. وهكذا، وعلى الرغم من أن المسلك الذى سلكه تجاه ابنة شقيق "جوبيان" كان يطابق تماماً فى أدق تفاصيله المسلك الذى سبق أن عرض فكرته فى حضرة البارون حينما كانا يتعشيان فى "سان مارس لوفيتو"، فالأرجح أن المسلكين كانا شديدى الاختلاف وأن مشاعر أقل شناعة، ولم يكن توقعها فى مسلكه النظرى، قد جملت مسلكه الحقيقى وجعلته عاطفياً. والنقطة الوحيدة التى كان فيها الواقع، على العكس، أسوأ من المشروع أنه ما كان يبدو له البقاء فى باريس ممكناً بعد مثل تلك الخيانة. أما الآن "فإطلاق ساقيه

للريح" كان يبدو له باهظاً في مقابل أمر بسيط إلى هذا الحد. فذلك يعني فراقه البارون، الذي ستثور ثائرته دون شك، وتحطيم مركزه. سوف يفقد كل المال الذي كان البارون يقدمه له. وكانت فكرة أن الأمر لا مفر منه تبعث لديه نوبات عصبية. كان يلبث ساعات يغالب دموعه، ويأخذ المورفين كي لا يفكر في الأمر، ولكن بحذر. ثم اتفق فجأة أن قامت في خاطره فكرة كانت دونما شك تكتسي فيه حياة وشكلاً منذ بعض الوقت، والفكرة قوامها أن الحل البديل، أن الخيار بين الانفصال والخصام التام مع السيد "دو شارلوس" ربما لم يكن اضطرارياً، وخسارة كل مال البارون أمر باهظ. وغرق "موريل" الحائر على مدى بضعة أيام في لج أفكار سوداء كتلك التي كانت تبعثها في صدره رؤية "بلوك". ثم قرر أن "جوبيان" وابنة أخيه حاولا إيقاعه في الفخ وأنه ينبغي أن يحسا بالسعادة لخلاصهما مقابل ثمن زهيد إلى هذا الحد. كان يرى بمجمل القول أن الفتاة أخطأت إذ كانت قليلة التدبير حتى أنها لم تفلح في الحفاظ عليه عن طريق الحواس. والتضحية بمركزه لدى السيد "دو شارلوس" كانت تبدو له لا معقولة، وليس ذلك فحسب، بل كان نادماً حتى على الأعشية الباهظة الثمن التي قدمها للفتاة منذ أن أصبحا مخطوبين، ولعله كان استطاع أن يقول عنها وهو ابن فراش كان يقبل كل شهر حاملاً إلى عمي "كتاب حسابه"، فالكتاب، الذي يعني بصيغة المفرد مؤلفاً طبع لعامة الناس، إنما يفقد هذا المعنى بالنسبة إلى أصحاب السمو والفراشين. فهو في نظر هؤلاء "دفتر الحساب" وفي نظر أولئك السجل الذي يدرج المرء اسمه فيه. (أوشكت في "بالبيك"، ذات يوم قالت لي فيه الأميرة "دو لوكسمبور" أنها لم تحمل معها "كتاباً"، أن أعيرها "صياد إيسلندا" و"ترتاران دو تراسكو" حينما أدركت ما ودت أن تقوله: فما ذلك لأنها ستكون أقل استمتاعاً بالوقت الذي ستقضيه، بل لأنني سأصادف صعوبة أكبر في إدراج اسمي لديها." وعلى الرغم من تبدل وجهة نظر "موريل" بخصوص نتائج سلوكه ومع أن هذا السلوك كان بدا له فظيعاً منذ شهرين حينما كان يحب ابنة شقيق "جوبيان" بشغف وأنه لم يكف منذ خمسة عشر يوماً يردد لنفسه أن ذاك السلوك نفسه كان طبيعياً وحميداً فإنه ما انفك يزيد عنده الحال العصبية التي أعلن أثناءها الانفصال منذ قليل. وكان على أتم الاستعداد لصب جام غضبه، إن لم يكن (فيما عدا أثناء نوبة مؤقتة) على الفتاة التي كان يحتفظ تجاهها ببقية الخوف هذه التي هي آخر أثر للحب، فعلى الأقل على البارون، لكنه احترس من أن يقول لها شيئاً قبل العشاء فقد كان يضع فوق كل شيء مهارته المهنية الخاصة فيتجنب، ساعة لديه مقطوعات يصعب عزفها (كحاله هذا المساء في منزل آل "فيردوران")، يتجنب (قدر المستطاع، فحتى المشاحنة بعد الظهر كانت أمراً تجاوز الحد) كل ما يمكن أن يولي حركاته شيئاً من التقطع، كذلك يتوقف جراح شغوف بالسيارات عن القيادة حين ينبغي له إجراء عمليات. وهذا ما أوضح لي أنه، فيما كان يحدثني، كان يحرك أصابعه الواحد تلو الآخر كي يتبين إن كانت استعادت مرونتها. ولاح تقطيب للحاجبين بدا يعني أنه لايزال هناك شيء من التصلب العصبي. وكان كي لا يزيد منه يبسط وجهه، مثلما يحول المرء دون أن تثور أعصابه من أنه لا ينام أو لا يمتلك امرأة بسهولة لخشيته أن يؤخر الخوف نفسه لحظة النوم أو اللذة، لذلك بدا له، إذ هو راغب في استعادة هدوئه كي ينصرف كلياً كعادته، إلى ما سيعزفه في منزل آل "فيرودران"، أثناء عزفه، كما هو راغب كذلك، مادمت أراه، أن

يمكننى من مشاهدة ألمه، بدا أن الأبسط لديه أن يتوسل إلىّ بالمغادرة فى الحال. وكان التوسل عديم الجدوى والمغادرة فرجاً. وكنت ارتعدت خوفاً أن يسألنى، وأنا ذاهب إلى البيت نفسه بفاصل بضع دقائق، أن أصطحبه وكنت أتذكر بوضوح مخاصمة بعد الظهر كى لا يداخلنى شىء من القرف بأن يكون "موريل" إلى جانبى طوال الطريق. من الممكن تماماً أن يكون حب "موريل" ثم لامبالاته أو كرهه لابنة شقيق "جوبيان" عواطف صادقة. بيد أنها لم تكن المرة الأولى (وقد لا تكون الأخيرة) التى يتصرف فيها هذا التصرف ويهجر فيها فجأة فتاة أقسم لها أن يحبها دوماً وبلغ به أن يريها مسدساً محشواً وهو يقول إنه سوف "يطير" دماغه إن بلغ به الجبن أن يهجرها. ولا يحول ذلك دون أن يهجرها فيما بعد ويحس بدلاً من عذاب الضمير نوعاً من الضغينة. لم تكن تلك المرة الأولى التى يتصرف فيها على هذه الصورة ولن تكون الأخيرة لا محالة، بحيث أن رؤوس فتيات كثيرة - فتيات أقل نسياناً له مما كان نسّاء لهن - عانت - كما عانت بعد طويلاً ابنة شقيق "جوبيان"، وهى باقية على حب "موريل" فيما تزدريه - عانت، وتوشك أن تنفجر بفعل اندفاعة ألم باطن - ففى كل واحد منها كان محتبساً فى دماغهن، وكأنما قطعة من منحوتة يونانية، جانب من وجه "موريل"، وبه صلابة المرمر وجمال القديم، بشعره المزهر وعينيه النبيهتين وأنفه المستقيم الذى يشكل نتوءاً بالنسبة إلى جمجمة غير معدة لاستقباله وما كان يمكن إجراء جراحة له. لكن هذه الأجزاء القاسية يبلغ بها على مر الأيام أن تنزلق أخيراً إلى مكان لا تتسبب فيه بالكثير من الانشقاقات ولا تبرحه من بعد ولا يشعر المرء من بعد بوجودها ويطويها النسيان أو التذكر اللامبالى.

كنت أحمل فى داخلى منتجين لنهارى. فمن جانب إمكانُ وبالتالى قرار الانفصال عنها بفضل الهدوء الذى جاءنى به انقياد "ألبيرتين". ومن جانب آخر الفكرة الناجمة عن تأملاتى فى أثناء الوقت الذى انتظرتها فيه، فكرة أن الفن الذى سأجهد فى تكريس حريتى المستعادة له، لم يكن شيئاً يساوى ما نضحى به من أجله، شيئاً من خارج الحياة لا يقاسمها بطلانها وعدمها، إذ إن ظاهر السمة الفردية الحقيقية المكتسبة فى المؤلفات إنما ينجم عن خدعة بصرية توفرها المهارة الفنية. ولئن خلفت فى فترة العصر بقايا أخرى أكثر عمقاً ربما، فما كانت لتدخل حيز معرفتى إلا بعد مضى فترة طويلة. أما البقيتان اللتان كنت أزورهما بوضوح فما كان سيطول بهما الأمد. فمنذ تلك الأمسية عينها كانت أفكارى حول الفن ستشهد نهوضاً من النقصان الذى عانته بعد الظهر، وفى المقابل كان الهدوء، وبالتالى الحرية التى ستمكننى من الانصراف إليه، سوف يؤخذ منى مجدداً.

فيما كانت سيارتى تقترب، وهى تحاذى رصيف النهر، من منزل آل "فيردوران" أمرت بإيقافها. ذلك أنى أبصرت تواً "بريشو" يغادر الحافلة فى زاوية شارع "بونابرت" ويمسح حذاءه بصحيفة قديمة ويضع قفازين بلون رمادى لؤلئى. ومضيت إليه. لقد كان زود منذ فترة، بعدما تفاقمت إصابته العينية - زُود بما يماثل ثراء مخبر تزوده - بنظارتين جديدتين تبدوان، وهما قويتان معقدتان كأدوات فلكية، وكأنما شدتا ببراغى إلى عينيه. وسدد إلىّ أضواءهما المفرطة وتعرفنى. كانتا على أحسن حال. لكننى أبصرت نظرة بعيدة زهيدة الحجم شاحبة مختلجة محتضرة، نظرة وضعت تحت هذا الجهاز

الجبار مثلما يضعون فى المخابر التى بولغ فى توفير دعم مفرط لها فى مقابل المشاغل التى تجرى فيها دويبة ضئيلة تحتضر خلف الأجهزة الأكثر إتقاناً. ومددت ذراعى إلى نصف الأعمى لأؤمن سيره. وقال لى: "لسنا نلتقى هذه المرة قرب "شيربور" الكبير[١] بل بالقرب من مخزن "دانكيرك" الصغير"، والجملة بدت لى شديدة الإضجار لأننى لم أفهم ما عساها تعنى؛ بيد أنى لم أجسر على سؤال "بريشو" عن الأمر مخافة إيضاحاته أكثر منى مخافة ازدرائه. وأجبته أن بى فضولاً أن أشاهد الصالة التى كان "سوان" فى غابر الأيام يلتقى فيها "أوديت" فى كل مساء. وقال لى: "عجباً، تعرف هذه الحكايات القديمة؟".

كان موت "سوان" فى ذلك الوقت قد بلبل أفكارى. موت "سوان"! و"سوان" لا ينهض فى هذه الجملة بدور محض مضاف إليه. فإنى أقصد بذلك الموت الخاص، الموت الذى أوفدته الأقدار لخدمة "سوان". ذلك أننا نقول الموت بغية التبسيط، ولكن ثمة منه بمقدار ما هنالك أفراد. ونحن لا نملك حساً يسمح لنا بأن نرى الميتات تجرى بأقصى سرعة وفى كل الاتجاهات، الميتات الناشطة التى توجهها الأقدار إلى هذا وذاك، وغالباً ما تكون ميتات لن تفرغ تماماً من مهمتها إلا بعد سنتين أو ثلاث. فهى تجرى سراعاً لتضع سرطاناً فى خاصرة أمثال "سوان"، ثم هى تمضى ثانية إلى مشاغل جديدة ولا تعود إلا حينما ينبغى، وقد أجريت عملية الجراحين، وضع السرطان مجدداً. ثم يحل الوقت الذى تقرأ فيه فى صحيفة "لو غولوا" أن صحة "سوان" أوحت بالمخاوف ولكن وعكته الصحية فى طريقها إلى شفاء تام. حينئذ يقبل الموت بضع دقائق قبل النفس الأخير، مثل راهبة تكون قد عنيت بك بدلاً من القضاء عليك، ليشهد آخر رمق لك ويتوج بهالة أخيرة رأس من سكنته البرودة أبداً وتوقف قلبه عن الخفقان. وإنما تنوع الميتات هذا وغموض مساراتها ولون وشاحها المشؤوم هى التى تكسب سطور الصحف مسحة مؤثرة إلى هذا الحد: "علمنا ببالغ الأسى أن السيد "شارل سوان" قضى البارحة فى فندقه فى باريس على أثر مرض أليم. وسوف يفتقده الجميع، هو الباريسى الذى كان ظرفه موضع تقدير الجميع وكذلك سداد علاقاته المنتقاة التى يطبعها الإخلاص مع ذلك، سواء أكان ذلك فى الأوساط الفنية والأدبية حيث كانت رهافة ذوقه المتبصرة تجعله منشرح الفؤاد يسعى إليه الجميع، أم فى نادى الفروسية الذى كان أحد أعضائه الأكثر قدماً والأكثر استحواذاً على مسامع الناس. كان ينتمى أيضاً إلى نادى الوحدة والنادى الزراعى. وكان قدم استقالته منذ فترة وجيزة من عضوية نادى شارع "روياك". كانت هيئته الذكية وشهرته البارزة على حد سواء لا تتوقفان عن إثارة فضول الجمهور فى كل تظاهرة كبيرة للموسيقى والرسم، ولاسيما حفلات تدشين المعارض الفنية التى سبق أن كان أحد روادها المخلصين حتى هذه السنوات الأخيرة التى لم يغادر فيها مسكنه من بعد إلا فيما ندر. ستقام مراسم الدفن، إلخ...".

---

(١) هو فندق "لاراسبليير" على الشاطئ النورماندي. أما "دانكيرك" وهي مدينة، فإنما تشير هنا إلى "مخزن" في باريس قريب من مسكن آل "فيردوران" وعنوانه التجاري "دانكيرك الصغير".

ومن وجهة النظر هذه، إن لم يكن المرء "شخصية مرموقة" فإن غياب اللقب المعروف إنما يسرع أيضاً الانحلال الناجم عن الوفاة. صحيح أن المرء إنما يلبث الدوق "دو زيس" بصورة مغفلة ودون تمييز لشخصية الفرد. لكن التاج الدوقى يجمع بعض الوقت عناصرها بعضها إلى بعض كعناصر هذه المثلجات ذات الأشكال المحددة الخطوط التى كانت "ألبيرتين" معجبة بها، فى حين تتفكك وتذوب وقد "فقدت قالبها" أسماء بورجوازيين من أسياد أسياد المجتمع حالما وافتهم المنية، لقد شاهدنا السيدة "دو غيرمانت" تتحدث عن "كارتييه" وكأنما عن أفضل صديق للدوق "دولاتريموای"، كأنما عن رجل مرغوب جداً فى الأوساط الارستقراطية. فأضحى "كارتييه" فى نظر الجيل التالى شيئاً عديم الشكل حتى لتكاد ترفع من قدره إن نسبته إلى الجواهرى "كارتييه"، ولعله كان ابتسم أن يستطيع جهال الخلط بينهما! أما "سوان" فكان على العكس شخصية فكرية وفنية مرموقة، وقد حالفه الحظ، مع أنه لم "ينتج" شيئاً، أن يدوم أكثر قليلاً. ومع ذلك، أيها العزيز "شارل سوان" الذى كانت معرفتى به هينة جداً حينما كنت لا أزال فى مقتبل شبابى وكنت أنت قريباً من القبر، فإنما يعودون إلى الحديث عنك وربما حييت لأن الذى كنت لابد تعتبره غبياً عظيم الغباء جعل منك بطل إحدى رواياته. ولئن يجر الحديث عنك إلى هذا الحد فى لوحة "تيسو" التى تمثل مقصورة نادى شارع "رويال" حيث تجلس بين "غاليفيه" و"ايدموت دو بولينياك" و"سان موريس" فلأنهم يرون بعض قسمات لك فى شخصية "سوان".

دعنا نعود إلى حقائق أكثر عمومية، فإنى سمعت "سوان" يتحدث بنفسه فى منزل السيدة "دو غيرمانت" فى المساء الذى أقيم فيه الاحتفال لدى ابنة عمها، عن وفاته هذه المتكهن بها واللامتوقعة مع ذلك. إنها ذات الوفاة التى عدت فلقيت غرابتها النوعية المذهلة ذات مساء تصفحت فيه الجريدة واستوقفنى فى الحال نبأها وكأنما خطت بسطور خفية دست فى غير مكانها. وكانت كافية لتجعل من أحد الأحياء شخصاً لا يستطيع الإجابة من بعد عما يقال له، اسماً، اسماً مكتوباً انتقل فجأة من العالم الحقيقى إلى مملكة الصمت. وهى التى كانت تولينى الآن أيضاً الرغبة فى معرفة أفضل للمسكن الذى سبق أن أقام فيه فيما مضى آل "فيردوران" وحيث سبق لـ "سوان"، الذى لم يكن حينئذ مجرد بضعة حروف خطت فى صحيفة، أن تناول عشاءه كثيراً برفقة "أوديت". وينبغى أن أضيف إلى ذلك أننى لم أذهب للقاء "جيلبيرت" مثلما وعدته فى منزل الأميرة "دو غيرمانت" (وقد جعل ذلك موت "سوان" أكثر إيلاماً من سواه فترة طويلة، مع أن هذه الأسباب لا علاقة لها بالطابع الفردى الغريب لموته)؛ وأنه لم يطلعنى على ذاك "السبب الآخر" الذى لمح إليه فى ذلك المساء والذى اختارنى لأجله مؤتمناً على سر حديثه مع الأمير، وأن ألفاً من الأسئلة كانت تتوارد إلى ذهنى (وكأنما فقاعات تتصاعد من قاع الماء) وكنت أبغى أن أطرحها عليه حول الموضوعات الأكثر تبايناً: حول "فيرمير"، حول السيد "دو موشى"، حوله هو، حول سجادة من أعمال "بوشيه"، حول "كومبريه"، وكلها أسئلة لا تلح كثيراً دون شك بما أننى أجلتها من يوم إلى يوم، ولكنها أخذت تبدو لى رئيسية منذ أن ختمت شفتاه ولن يوافينى الجواب من بعد. إن موت الآخرين شبيه برحلة تقوم بها بذاتك وتتذكر، وقد أصبحت على مئة كيلو متر من باريس، أنك نسيت دزينتى مناديل وأن تترك مفتاحاً للطباخة وأن

تودع عمك وتسأل عن اسم المدينة التى تضم عين الماء القديمة التى تود مشاهدتها. فى حين أن لسائر صنوف النسيان هذه التى تحاصرك والتى تقولها بصوت عال ولمحض الشكل فقط للصديق الذى يسافر وإياك رداً واحداً إن هو إلا الدفع بعدم القبول الذى يبديه المقعد واسم المحطة الذى يطلقه المستخدم والذى إنما يبعدك أكثر فأكثر عن منجزات أصبحت منذ الآن مستحيلة حتى إنك لتتخلى عن التفكير بالأمور التى تركت جانباً دون رجعة فتحل صرة زادك وتتبادل الصحف والمجلات المصورة.

وأردف "بريشو" يقول: "ويحك، لا، فما كان "سوان" يلتقى هنا زوجة المستقبل أو هو على الأقل لم يلتق بها هنا إلا فى الفترة الأخيرة تماماً، بعد الكارثة التى قضت جزئياً على مسكن السيدة "فيردوران" الأول."

وكنت لسوء الحظ، مخافة أن أكشف لناظرى "بريشو" عن بذخ يبدو لى فى غير محله بما أن الأستاذ الجامعى لا حصة له فيه، كنت نزلت بسرعة مفرطة من العربة ولم يفهم الحوذى ما ألقيت إليه بأقصى سرعة كى يتسع لى أن أبتعد عنه قبل أن يبصرني "بريشو". وكانت النتيجة أن جاء الحوذى ليقف بالقرب منا وسألنى إن انبغى له أن يجىء لينقلنى ثانية. فقلت على عجل أن نعم وضاعفت أكثر فأكثر من احترامى تجاه الجامعى الذى جاء فى الحافلة العامة. وقال لى بوقار: "آه! لقد كنت تستقل عربة." - "يا إلهى، بطريق الصدفة البحتة، والأمر لا يتفق لى مطلقاً، فإنى دائماً فى الحافلة العامة أو أسير على قدمى. لكن ذلك ربما أولانى عظيم السعادة فى اصطحابك لدى عودتك هذا المساء إن قبلت من أجلى الدخول فى هذه العربة القديمة؛ وسوف يضيق بنا المكان، لكنك شديد التسامح معى." بيد أنى لا أحرم نفسى شيئاً حين أعرض عليه الأمر، أقول فى نفسى، بما أننى سأضطر دوماً للعودة بسبب "ألبيرتين". إن وجودها فى منزلى فى ساعة لا يستطيع أحد المجىء فيها للقائها كان يدع لى حرية التصرف بوقتى بمقدار حريتى بعد الظهر حينما كنت أعلم أنها تزمع العودة من التروكاديرو وما كنت على عجلة من أمرى للقياها. لكنى فى نهاية المطاف كنت أحس، كحالى بعد الظهر أيضاً، أن لى امرأة ولن أعرف لدى عودتى الإثارة المنشطة التى توليها العزلة. وأجابنى "بريشو" قائلاً: "إنى أقبل بكل طيبة خاطر. لقد كان أصدقاؤنا فى الفترة التى تشير إليها يقطنون فى شارع "مونتاليفيه" طابقاً أرضياً رائعاً بنصيّة تطل على حديقة، وهو بالطبع أقل فخامة ولكنى أفضله على فندق "السفراء" فى البندقية." وأعلمنى "بريشو" أنه أقيم فى ذلك المساء فى "رصيف كونتى" (هكذا كان الخلص يقولون حينما يتكلمون عن صالون "فيردوران" منذ أن نقل إلى هنا) "همرجة" موسيقية كبرى نظمها السيد "دو شارلوس". وأضاف أن النواة الصغيرة كانت فى الزمن الغابر الذى كنت أتحدث عنه مختلفة تماماً والأسلوب غيره الآن، وما ذلك لمحض أن الخلص كانوا أكثر شباباً. وحكى لى عن "مقالب" "إيلستير" (وما كان يدعوه بالتهريج الصرف)، كحاله ذات يوم تظاهر فيه أنه مفارق فى آخر لحظة ثم عاد متنكراً بلباس رئيس خدم إضافى وهمس فيما يقدم الأطباق بعبارات سفيهة فى أذن البارونة "بوتبوس" الشديدة الاحتشام والتى احمرت هلعاً وحنقاً؛ ثم اختفى قبل نهاية العشاء وأمر أن يؤتى إلى الصالة بمغطس

ملىء بالماء طلع منه، بعدما غادروا طاولة الطعام، وهو فى عرى تام يجدف عالياً؛ وأعشية كذلك كانوا يرتادونها فى ثياب من الورق رسمها وقصها ولونها "إيلستير" وكانت من الروائع، وقد ارتدى "بريشو" ذات مرة لباس سيد عظيم من بلاط شارل السابع وحذاء حيزوميا، وفى مرة أخرى ثياب نابليون الأول وكان "ايلستير" قد وضع فوقها الوشاح الأكبر لجوقة الشرف مصنوعاً من شمع الأختام. وقصارى القول إن "بريشو" إذ عاد يرى فى فكره صالة ذلك الحين بنوافذها الكبيرة وكنباتها الواطية التى تأكلتها شمس الظهيرة واضطروا أن يغيروها، كان يعلن مع ذلك أنه يفضلها على صالة اليوم. أجل كنت أدرك تماماً أن "بريشو" إنما كان يقصد بالصالة - مثلما هى لفظة الكنيسة لا تعنى البناء الدينى فحسب بل مجموعة المؤمنين - لا النصية فحسب وإنما الناس الذين يرتادونها والمتع الخاصة التى كانوا يجيئون للبحث عنها هناك والتى أولتها تلك الكنبات فى ذاكرته شكلها، وكانوا ينتظرون فوقها، حينما يجيئون بعد الظهر للقاء السيدة "فيردوران"، أن تكون جهزت، فيما أزهار الكستناء الوردية فى الخارج، وأزهار القرنفل فى أصص فوق الموقد، كانت تبدو، فى لفتة من الود الرقيق تخص بها الزائر ويترجمها ترحيب ألوانها الوردية المتهللة، كأنما تترصد ثابتة النظرة مجىء سيدة البيت المتأخر. ولئن بدا له أن ذاك الصالون يفوق الحالى فذلك ربما لأن فكرنا هو "بروتيوس"[١] العتيق ولا يمكنه أن يلبث عبداً لأية صيغة وهو حتى فى نطاق المجتمع الراقى يتخلص فجأة من صالة بلغت ببطء وصعوبة قمة الكمال ليفضل عليها صالة أقل ألقاً. كالصور التى أدخلت عليها بعض اللمسات والتى كانت أوصت عليها "أوديت" لدى "أوتو" وكانت ترتدى فيها فسطاناً ضيقاً واسع الحاشية وقد موج شعرها "لانتيريك"، فإنها ما كانت تروق "سوان" بمقدار صورة صغيرة على هيئة بطاقة أخذت فى "نيس" وكانت تبدو فيها، بشالها الذى من القماش وشعرها السيّئ التصفيف الفالت من قبعة قش مطرزة بأزهار بنفسج الثالوث وعقدة من المخمل الأسود (والنساء يبدون بعامة أكبر سناً بقدر ما تكون الصور الشمسية أكثر قدماً)، تبدو، هى الأنيقة التى تصغرها عشرين عاماً، كأنها خادمة صغيرة تكبرها عشرين عاماً. وربما كان يحلو له أيضاً أن يباهى أمامى بما لن أعرفه وأن يرينى أنه تذوق متعاً لن يسعنى أن أنالها. وكان يفلح فى ذلك على أى حال، فإنى لمحض ذكره أسماء شخصين أو ثلاثة لم يعودوا على قيد الحياة وكان يولى سحرهم شيئاً من عالم الأسرار بالطريقة التى يتحدث بها عنهم وعن تلك الحميميات اللذيذة كنت أسائل النفس عما أمكن أن يكون وأحس أن كل ما روى لى عن آل "فيردوران" كان مفرطاً فى فظاظته. حتى "سوان" الذى عرفته كنت ألوم نفسى أن لم أعره انتباهاً كافياً، أن لم أهتم به بشىء من التجرد وأن لم أصغ إليه تماماً حينما كان يستقبلنى بانتظار أن تعود زوجته للغداء ويرينى أشياء جميلة، الآن وقد علمت أنه يمكن مقارنته بأحد أبرع محدثى الزمن الغابر.

لحظة وصولى إلى منزل السيدة "فيردوران" أبصرت السيد "دو شارلوس" يتهادى إلينا بكامل

(١) من آلهة قدماء اليونان ويرمز إلى الشخص المتقلب الذي لا يثبت على رأي وينهض بأدوار متباينة.

جثته الضخمة وهو يجر دونما قصد على إثره واحداً من هؤلاء الأوباش أو المتسولين الذين كانوا يطلعون الآن حتماً لدى مروره حتى من الزوايا الأكثر إقفاراً فى ظاهرها وكانوا يواكبون على الدوام هذا الوحش الجبار رغماً عنه، وإن على مسافة منه، مثلما سمكة القرش تواكبها سمكة "الريمورا"، ويختلف فى النهاية عن الغريب المتعالى فى السنة الأولى فى "بالبيك" بهيئته الصارمة وتصنعه الفحولة، إلى حد بدا لى معه أنى أكتشف كوكباً يواكبه تابعه، وفى فترة من دورته مغايرة تماماً، وقد شرع يبرز فى تمامه، أو مريضاً اجتاحه المرض الآن وما كان لسنوات خلت سوى بثرة طفيفة يخفيها بيسر ولا يرتاب أحد بخطورتها. ومع أن "بريشو" أجريت له عملية أعادت له شيئاً يسيراً من البصر الذى ظن أنه فقده إلى غير رجعة، فلست أدرى إن كان شاهد الوغد الذى كان يلاحق البارون على الأثر. والأمر بأية حال قليل الأهمية، فمنذ عهد "لاراسبليير" وعلى الرغم من الود الذى كان الجامعى يكنه للسيد "دو شارلوس"، كان وجود هذا الأخير يسبب له بعض الإزعاج. لا شك أن حياة الآخر أياً كان إنما تمد فى الظلام بالنسبة لأى إنسان دروباً لا نرتاب بوجودها. فإن الكذب، مع أنه كثيراً ما يضلل، إنما يخفى عاطفة عدائية أو نفعية، أو زيادة نود أن يبدو أننا لم نقم بها، أو مغامرة مع عشيقة يوم واحد ونود إخفاءها عن الزوجة، بصورة أقل إحكاماً مما تغطى السمعة الطيبة عادات سيئة حتى إنها لا تسمح بأن تستشف. وقد تظل مجهولة طوال الحياة فيكشفها مصادفة لقاء فى المساء فوق مكسر أمواج، ثم إنها كثيراً ما يساء فهمها ولابد من شخص ثالث مطلع ليزودك بالكلمة الهاربة التى يجهلها الجميع. لكنها تشيع الرعب، إما عرفت، بما تحس فيها من تدافع الجنون أكثر منها جراء إحساس خلقى. لم يكن لدى السيدة "دو سورجيس لو دوك" حس أخلاقى من أقلها تطوراً ولعلها كانت ارتضت من ولديها أى أمر تحط من قدره وتفسره المصلحة، وهو يسير الفهم على كل الناس. لكنها منعتهما من موالاة التردد على السيد "دو شارلوس" حينما علمت أنه كانت تدفعه حتماً فى كل زيارة ما يشبه آلة قياس متكررة إلى قرص ذقن كل منهما وإلى أن يقرص كل منهما ذقن الآخر. لقد عانت ذاك الشعور القلق حيال هذا السر الجسدى الذى يجعلك تتساءل إن كان الجار الذى تربطك به علاقات طيبة غير مصاب بآفة أكل لحوم البشر، وردت على أسئلة البارون المتكررة: "ألن ألقى الشابين عما قليل؟"، ردت وهى على علم بما تراكم عليها من الصواعق، أنهما مأخوذان إلى أبعد الحدود بدروسهما والإعداد لرحلة، إلخ... إن اللامسؤولية تفاقم الأخطاء وحتى الجرائم، مهما قيل فى ذلك. "لاندرو" (بافتراض أنه حقاً قتل نساء)، إن فعل ذلك ابتغاء لمنفعة، وهو ما يمكن مقاومته، يمكن أن يعفى عنه، ولا يتم ذلك إن فعل تدفعه سادية لا تقاوم. كانت مزحات "بريشو" الثقيلة فى بداية صداقته مع البارون قد أخلت المكان لديه. حالما تعلق الأمر لا بإلقاء الأمور المبتذلة بل بالإدراك، لشعور مرير يحجبه المرح. كان يطمئن النفس بإلقاء صفحات لأفلاطون وإنشاد أشعار لفيرجيليوس لأنه، وهو أعمى البصيرة أيضاً، ما كان يدرك أن عشق فتى آنذاك كان كالانفاق على راقصة فى يومنا وإتباعه بخطبة (ومزحات سقراط تبرز ذلك أفضل من نظريات أفلاطون). وما كان السيد "دو شارلوس" نفسه ليدرك الأمر، هو الذى كان يخلط بين هوسه والصداقة التى لا تشبهه فى شىء، بين أبطال

"براكسيتيليس"[1] وملاكمين لينى العريكة. ما كان بوده أن يتبين أن كامل اللواطية المعتادة - لواطية فتيان أفلاطون ورعاة فيرجيليوس على السواء - اختفت منذ تسعة عشر قرناً (قال "لابروبير"[2]: "لعل رجل البلاط التقى فى عهد أمير تقى كان ملحداً فى عهد أمير ملحد")، وأن الوحيدة التى تطفو على السطح وتتكاثر هى اللاإرادية، العصبية، تلك التى نخفيها عن الآخرين ونبدل لبوسها بالنسبة إلينا. ولعل السيد "دو شارلوس" كان أخطأ فى الامتناع عن أن ينكر صراحة النسابة الوثنية. ففى مقابل قليل من جمال الشكل كم من السمو الأخلاقى! إن راعى "ثيوكريتوس" الذى يتنهد فى عشق شاب لن يتوافر له فيما بعد أى سبب ليكون أقل قسوة قلب وأكثر رهافة فكر من الراعى الآخر الذى يصدح نايه لـ "أماريلليس"[3]. ذلك أن الأول غير مصاب بمرض وهو ينصاع لما درج فى زمانه. وإنما اللواطية التى بقيت على الرغم من العقبات، الذليلة المستهجنة، هى وحدها الحقيقية، وهى الوحيدة التى يمكن أن يقابلها لدى الشخص نفسه إرهاف للمزايا الروحية. ويرتعد المرء للصلة التى يمكن أن تكون للجسد مع هذه المزايا حينما نفكر بالانزياح الطفيف فى الذوق وهو محض مادى وبالعاهة اليسيرة فى أحد الحواس، وهما يوضحان كيف تنفتح دنيا الشعراء والموسيقيين للسيد "دو شارلوس" وهى منغلقة إلى هذا الحد على الدوق "دو غيرمانت". أما أن يكون لذاك ذوق فى منزله الخاص هو ذوق مدبرة منزل جامعة تحف فليس ذلك مستغرباً؛ ولكنها الثغرة الضيقة التى تفتح على "بيتهوفن" وعلى "فيرونيز"! بيد أن ذلك لا يعفى الأصحاء من الخوف حينما يخلص مجنون ألف قصيدة رائعة، بعدما أوضح لهم بالأدلة الأكثر سداداً أنه احتجز خطأ ولسوء طوية زوجته، وتوسل إليهم أن يتدخلوا لدى مدير مشفى المجانين وتأوه من المخالطات التى تفرض عليه، حينما يخلص قائلاً: "خذوا مثلاً، هذا الذى سيأتى للتحدث وإياى فى الباحة والذى أضطر لتحمل اتصاله بى يظن أنه يسوع المسيح. وهذا وحده كاف ليبرهن لى مع أى المجانين يحتجزوننى، فلا يمكن أن يكون يسوع المسيح بما أنى أنا يسوع المسيح!" كنت للحظة سبقت عازماً على المبادرة إلى التنديد بالخطأ أمام طبيب المجانين. لكنك فور الإدلاء بهذه الكلمات الأخيرة وحتى إن فكرت بالقصيدة الرائعة التى ينكب عليها الرجل نفسه فى كل يوم إنما تبتعد كما كان يبتعد ابنا السيدة "دو سورجيس" عن السيد "دو شارلوس"، لا لأنه ألحق بهما أى نوع من الأذى بل بسبب فيض الدعوات التى تنتهى بأن يقرص ذقنهما. وإنما يرثى لحال الشاعر، وهو لا يرشده أى من أمثال "فيرجيليوس"، لأنه يقع عليه اجتياز دوائر جهنم صنعت من كبريت وزفت والارتماء فى النار التى تنهمر من السماء ليستعيد منها بعضاً من سكان صادوم. إنه لا سحر فى مؤلفاته، وفى حياته ذات الصرامة التى للمتخلين عن ثوب الرهبنة الذين يلتزمون قاعدة العزوبة الأكثر طهارة كى لا يمكن أن نعزو إلى غير فقدان الإيمان أنهم خلعوا ثوب الرهبان. على أن الأمر ليس دوماً على هذه الشاكلة فيما يخص هؤلاء الكتاب. فأى طبيب للمجانين لم يعان، لكثرة

(١) أشهر نحاتي ومثالي اليونان القديمة في القرن الخامس قبل الميلاد. أفضل روائعه "رامي القرص".
(٢) كاتب من القرن السابع عشر اشتهر بكتاب "الطبائع" ويمتاز أسلوبه بالجزالة والإيجاز.
(٣) Amaryllis: هي راعية أنشد فيها الشعر شاعر الرومان الأكبر "فيرجيليوس".

مخالطتهم، نوبة جنون أصابته؟ ويا سعده إن استطاع أن يؤكد أن ما حكم عليه بالاهتمام بهم ليس جنوناً سابقاً وكافياً. إن موضوع دراسات الطبيب النفسانى غالباً ما ينعكس عليه. ولكن أى ميل غامض قبل ذلك، وأى رعب ساحر جعله يختار ذاك الموضوع؟

كان البارون يتظاهر بأنه لا يرى الشخص المريب الذى تعقب خطاه (وحينما كان يجازف بنفسه فى الشوارع الكبيرة أو يجتاز جيئة ورواحاً قاعة الانتظار فى محطة "سان لازار" كان متعقبوه يعدون بالدزينات ولا يبتعدون قيد أنملة أملاً فى الحصول على خمسة سنتيمات) وكان مخافة أن يتجرأ على التحدث إليه يخفض بورع رموشه المسودة التى تتعارض ووجنتيه المبودرتين فتجعلانه يشبه كبير مفتشين من رسم "إل غريكو". لكن هذا الكاهن كان مخيفاً ويظهر مظهر كاهن محروم، إذ كان من نتيجة مختلف الشبهات التى دفعته إليها ضرورة ممارسة ميله والحفاظ على سره أن دفعت بالضبط إلى صفحة وجه البارون ما كان يجهد فى إخفائه: حياة فاسقة يرويها الانحطاط الخلقى. وإنما يقرأ هذا بيسر وأياً تكن أسبابه لأنه لا يلبث أن يتجسد ويتكاثر فى الوجه، وبخاصة على الوجنتين وحول العينين وبالمقدار المادى الذى تتراكم به الألوان الصفراء الترابية فى أحد أمراض الكبد أو الاحمرار المقزز فى أحد أمراض الجلد. على أى حال لم يكن العيب الذى سبق أن دفع به السيد "دو شارلوس" بالأمس على نحو حميمى إلى أعمق أعماق ذاته، لم يكن الآن يطفو فحسب، وهو يمتد كبقعة الزيت، فى الوجنتين، أو أسفل الوجنتين بالأحرى فى هذا الوجه المخضب، وفى الصدر الأنثوى الضخم والعجز النافر فى هذا الجسم المتروك نهب الإهمال والذى يجتاحه الكرش. لقد كان يفيض الآن فى أقواله.

فقد قال وهو يقترب منا فيما كان الفاسق يبتعد مخيب الرجاء: "هكذا إذن يا "بريشو"، تتنزه ليلاً برفقة فتى جميل؟ شيء عظيم! سوف ننقل ذلك لتلاميذك الأعزاء فى الصوربون بأنك لست على درجة أعلى من الجدية. إن صحبة الشباب على أية حال توافقك يا سيادة الأستاذ، فإنك بمثل ندوة وردة صغيرة." وقال لى وهويقلع عن لهجة المزاح: "وأنت كيف حالك يا عزيزى؟ لسنا نراك كثيراً فى "رصيف كونتى" أيها الشاب الجميل. هات، وابنة عمك كيف حالها؟ إنها لم تصحبك، وإننا نأسف لذلك إذ هى فاتنة. فهل نرى ابنة عمك هذا المساء؟ آه! إنها بالغة الجمال. وربما ازدادت جمالاً لو أنها عنيت أكثر بهذا الفن الشديد الندرة الذى تملكه بطبيعتها، فن أناقة الملبس." لابد أن أقول هنا أن السيد "دو شارلوس" كان "يملك" موهبة الملاحظة الدقيقة وتمييز التفاصيل سواء فى الملبس أو فى لوحة، أى ما كان يجعل منه عكسى تماماً ويضعه منى على طرفى نقيض. ستقول بعض ألسنة السوء، أو بعض المنظرين ممن يبالغون فى الجزم فيما يخص الفساطين والقبعات، إن الميل لدى الرجل إلى مفاتن الرجولة إنما يلقى تعويضه فى الذوق الفطرى ودراسة وعلم الملبس النسائى. وإن ذلك ليتفق وقوعه أحياناً كما لو أن الجنس الآخر، بعدما احتكر الرجال كامل الرغبة الجسدية وكامل الحنان العميق لدى أمثال "شارلوس"، قد وهب فى المقابل كل ما كان من قبيل الذوق "الأفلاطونى" (والصفة فى غير موضعها إطلاقاً) أو باختصار القول كل ما كان من قبيل

الذوق إلى جانب الرهافات الأكثر براعة وسلامة. ولعل السيد "دو شارلوس" كان استحق بهذا الشأن اللقب الذى أطلق عليه فيما بعد، لقب "الخياطة". بيد أن ذوقه، حس الملاحظة لديه كان يشمل أشياء أخرى كثيرة. لقد رأينا فى المساء الذى مضيت فيه للقائه بعد عشاء فى منزل الدوقة "دو غيرمانت" أنى لم أنتبه للروائع التى كانت فى منزله إلا بعد ما دلنى عليها على التوالى. كان يتعرف فى الحال ما لم يكن أحد تنبه له فى يوم، وذلك فى الأعمال الفنية وفى أطباق عشاء يقام على حد سواء (ويشمل ذلك كل ما كان بين الرسم والطبخ). لقد أسفت دوماً أن لا يكون السيد "دو شارلوس"، بدلاً من قصر مواهبه الفنية على رسم مروحة يدوية هدية لزوجة أخيه (وقد رأينا الدوقة "دو غيرمانت" تمسك بها بيدها وتفتحها لتباهى بها أكثر منها للتهوية ولتعلن على الملأ وتفاخر بصداقة "بالاميد") وإتقان عزفه على البيانو لمرافقة "سحبات" كمان "موريل" دون الوقوع فى أخطاء، قلت إنى أسفت دوماً ولا يزال بى أسف أن لا يكون السيد "دو شارلوس" كتب شيئاً. لا أستطيع دون شك أن أستخلص من فصاحة حديثه وحتى من رسائله أنه ربما كان كاتباً موهوباً. فليست هذه الأهليات على ذات الخط؛ فقد رأينا قوالى تفاهات مملين يكتبون روائع الأعمال، وملوك الكلام أدنى من أكثرهم ضحالة حالما يحاولون الكتابة. بيد أنى أعتقد أن لو جرب السيد "دو شارلوس" النثر، وبداية حول تلك الموضوعات الفنية التى يعرفها تمام المعرفة لانطلقت النار والتمع البرق وأضحى رجل المجتمعات كاتباً مجلياً. وقد أفصحت له كثيراً عن ذلك فلم يشأ أن يجرب نفسه مرة فى هذا المضمار، ربما بداعى الكسل المحض، أو الوقت الموقوف على الحفلات الباهرة والتسليات الدنيئة، أو الحاجة التى تطبع آل "غيرمانت" إلى إطالة الثرثرة إلى ما لا حدود. ويزداد أسفى بقدر ما لم يكن الفكر، فى حديثه الأكثر تألقاً، لينفصل البتة عن الطبع، وألاقى الأول عن وقاحة الثانى. لو أنه وضع كتباً، فبدلاً من أن تكرهه وتعجب به فى آن مثلما كانوا يفعلون فى صالة كان فيها فى فتراته الأكثر غرابة على صعيد الذكاء يدوس الضعاف ويثأر ممن لم يشتمه ويقوم بمحاولات دنيئة لإشاعة الخلف بين الأصدقاء فى الآن نفسه - لو أنه وضع كتباً لأمكن الحصول على قيمته الروحية معزولة مصفاة من شوائب الشر وما كان لشىء أن يحول دون الإعجاب به وثمة الكثير من الملامح كانت عملت على بعث المودة.

ولعله فى جميع الأحوال، وإن كنت على ضلال حول ما أمكن أن يحققه فى أصغر صفحة عنده، لعله كان أدى خدمة نادرة فى الكتابة لأنه إن كان يميز كل شىء فقد كان يعرف اسم كل ما كان يميزه. أجل، إن لم أتعلم فى حديثى معه كيف أبصر (كان اتجاه فكرى وشعورى فى مكان آخر)، فقد أبصرت على الأقل أشياء كانت لبثت غير مرئية فيما يخصنى، لكن اسمها الذى كان أعاننى ربما على العثور على رسمها ولونها، اسمها ذاك نسيته دوماً بسرعة كبيرة. لو أنه وضع كتباً، وإن سيئة، وهى صفة لا أظنها كانت تكتسبها، فأى معجم رائع وأية ذخيرة لا نفاد لها! وبعد، من ذا يعلم؟ فربما كان، بدلاً من استخدام معرفته وذوقه وبفعل هذا الشيطان الذى يعاكس أقدارنا، ربما كان كتب روايات مسلسلة تافهة وقصص رحلات ومغامرات لا طائل تحتها.

وأردف السيد "دو شارلوس" يقول بشأن "ألبيرتين": "أجل، هي تعرف كيف ترتدى ملابسها أو بكلمة أدق كيف تختار أثوابها. وشكى الوحيد إن كانت تختار أثوابها بما يتفق وجمالها الخاص، وربما كنت على أى حال أحمل شيئاً من مسؤولية ذلك بفعل نصائح لا تتصف بالتعقل الكافى. إن ما قلته لها مرات كثيرة ونحن فى الطريق إلى قصر "لاراسبلييير"، والذى كان يمليه – وإنى نادم على ذلك – طابع المنطقة وقربها من الشواطئ أكثر منه الطابع الفردى للنمط الذى تمثله ابنة عمك، إنما جعلها تفرط قليلاً فى الانزلاق إلى النمط الخفيف. لقد رأيتها ترتدى، وأقر بذلك، أقمشة جميلة من الشاش الشفاف وشالات رائعة من الشف وقلنسوة وردية ما كانت تشوهها ريشة وردية صغيرة. بيد أنى أعتقد أن جمالها، وهو حقيقى مصمت الكتلة، يتطلب أكثر من هذه الخرق اللطيفة. وهل تناسب القلنسوة تماماً هذا الشعر الهائل الذى لن يسهم التاج الصغير إلا بمحض إبرازه؟ ثمة قلة من النساء تناسبها الفساطين القديمة التى توحى باللباس الرسمى والمرح. لكن جمال هذه الفتاة، وهى منذ الآن امرأة، يشكل استثناء وقد يستحق فسطاناً قديماً من مخمل "جنوى" (وفكرت فى الحال بـ "ايلستير" وبفساطين "فورتونى") لن أخشى إثقالها بتنزيلات أو بذوائب لأحجار رائعة متقادمة الزى (وهو أجمل مديح يمكن أن نقوله فيها) من نوع الزبرجد والمرقشيتا واللابرادور الذى لا مثيل له. ويبدو على أى حال أنها تملك بالسليقة المقابل الذى يستدعيه جمال على شىء من الثقالة. هيا تذكر كل تلك الأحمال من العلب الجميلة وحقائب اليد الثقيلة للذهاب لتناول العشاء فى "لاراسبلييير"، الحقائب التى سيسعها بعد أن تزوجت أن تضع فيها أكثر من بياض البودرة أو الحمرة القرمزية، بل تضع – ضمن صندوقة لازوردية غير مفرطة الزرقة – بياض وحمرة اللآلىء والياقوت التى لم يعد تركيبها فيما أظن إذ يمكن أن ترتبط بزوج ثرى."

وقطع "بريشو" عليه حديثه، وقد خشى أن أغتم لهذه الكلمات الأخيرة إذ كانت تساوره الشكوك حول براءة علاقاتى وصحة قرابتى مع "ألبيرتين": "عجباً أيها البارون! هكذا إذن تهتم بالآنسات!" فقهقه السيد "دو شارلوس" يقول: "هلا صمت فى حضرة هذا الصغير، أيها الجرب الشرير"، يقول، وهو يخفض، فى حركة من يفرض على "بريشو" أن يصمت، يداً لم يفته أن يستقر بها على كتفى.

"لقد أزعجتكما، وبدا أنكما كنتما تلهوان كمجنونتين صغيرتين وما كانت بكما حاجة إلى جدة عجوز تنكد صفوكما كحالى أنا. لن أمضى إلى كرسى الاعتراف لذلك بما أنكما كنتما قد وصلتما تقريباً." كان مزاج البارون يزداد مرحه بقدر ما كان يجهل جهلاً تاماً خصام بعد الظهر، إذ رأى "جوبيان" أن حماية ابنة أخيه من كرة هجومية أخرى أجدى من المبادرة إلى إخطار السيد "دو شارلوس". لذلك كان هذا الأخير ماضياً فى اعتقاده بالزواج ويبتهج للأمر. لكأنما ذلك عزاء لأولئك المتوحدين الكبار أن يولوا عزوبيتهم المأساوية الهدأة الناجمة عن أبوة وهمية. وأضاف وهو يتوجه إلينا ضاحكاً: "وشرفى يا "بريشو" إنى أتحير وأنا أراك بهذه الصحبة الرقيقة. تهيأ لى أنكما عاشقان. ويتأبط كل منكما ذراع الآخر، يا لك يا "بريشو"، تتصرف غير مبال بما تفعل!" أكان

ينبغي أن نعزو مثل تلك الأقوال إلى تشيخ فكر أقل تحكماً من الأمس برود فعله ويسمح في لحظات تتسم بالآلية بإفلات سر دفن بهذا القدر من العناية على مدى أربعين عاماً؟ أم إلى ذاك الازدراء لرأى العامة من الناس الذى يبديه فى الأساس آل "غيرمانت" جميعاً والذى كان الدوق، شقيق السيد "دو شارلوس"، يقدم شكلاً آخر منه حينما كان لا يأبه البتة بأن تستطيع أمى أن تراه فيهتم بحلاقة ذقنه أمام النافذة وقد حلت أزرار قميص نومه؟ هل اتخذ السيد "دو شارلوس" في أثناء المشاوير الخارقة من "دونسيير" إلى "دوفيل" العادة الخطرة التى قوامها أن يأخذ راحته وأن يخفف، مثلما كان يرد إلى الخلف قبعته التى من قش لترطيب جبهته الهائلة، من إحكام القناع، على مدى لحظات فحسب فى البداية، القناع الذى أحكم لصقه منذ فترة طويلة جداً على وجهه الحقيقى؟ ولعل تصرفات السيد "دو شارلوس" الزوجية مع "موريل" كانت أدهشت وبحق من علم أنه لم يعد يحبه. لكنما اتفق للسيد "دو شارلوس" أن أضجرته رتابة الملذات التى توفرها نزعته الشريرة. وقد بادر غريزياً إلى البحث عن مآثر جديدة، وبعد أن أعياه المجهولون الذين كان يصادفهم انتقل إلى القطب المعاكس وما كان ظن أنه كارهه أبداً، إلى تقليد "العائلة" أو "الأبوة". وما كان ذلك حتى يكفيه أحياناً فكان لابد من جديد يتوافر له، فإذا به يمضى لقضاء الليل مع امرأة، تماماً مثلما يمكن أن يكون ابتغى رجل طبيعى مرة فى حياته مضاجعة صبى، يدفعه فضول مماثل ومعاكس وفى كلا الحالين غير سليم ههنا وهناك. إن حياة البارون "مخلصاً" لا يعيش بسبب "شارلى"[(١)] إلا داخل العشيرة الصغيرة كان لها، لتحطيم الجهود التى بذلها زمناً طويلاً للحفاظ على مظاهر كاذبة، ذات التأثير الذى لرحلة استكشافية أو إقامة فى المستعمرات على بعض الأوروبيين الذين يفقدون فيها المبادئ الموجهة التى كانت تقود خطاهم فى فرنسه. ومع ذلك كانت الثورة الداخلية لفكر جهل فى البداية الشذوذ الذى يحمله فى ذاته، ثم ارتاع إزاءه بعدما تعرفه وألفه فى نهاية المطاف حتى لا يتبين من بعد أنه لا يسع المرء دون مخاطرة أن يقر للآخرين بما خلص إلى الإقرار به دون وجل لذاته، كانت بعدُ أكثر نجاعة لفصل السيد "دو شارلوس" عن آخر القيود الاجتماعية من الوقت الذى أمضاه لدى آل "فيردوران". ذلك أنه ليس من منفى فى القطب الجنوبى أو على قمة "الجبل الأبيض" (مونبلان" يبعدنا عن الآخرين بقدر ما تفعل إقامة مطولة داخل رذيلة جوانية، يعنى فكراً مختلفاً عن فكرهم، رذيلة (وتلك كانت الصفة التى كان السيد "دو شارلوس" ينعتها بها فيما مضى) كان البارون يلبسها الآن الهيئة الطيبة السمحة التى لعيب بسيط كثير الشيوع هو بالأحرى قريب من القلب ويكاد يكون ممتعاً، كالكسل أو اللهو أو الشراهة. كان السيد "دو شارلوس" إذ يحس بضروب الفضول التى تثيرها خصوصية شخصيته يشعر بشىء من المتعة فى إرضائها واستثارتها وتغذيتها. ومثلما ينصّب هذا الصحفى اليهودى من نفسه كل يوم مدافعاً عن الكاثوليكية دونما أمل منه على الأرجح فى أن يؤخذ على محمل الجد وإنما بغية أن لا يخيب آمال المتهكمين المتسامحين، كان السيد "دو شارلوس" يندد بصورة طريفة بمساوئ الأخلاق، داخل

---

(١) أي "شارل موريل".

العشيرة الصغيرة، كما لعله كان قلد الإنكليزية أو حاكى "مونيه سوللى"(١) دون انتظار من يرجوه فى ذلك وكيما يدلى بدلوه راضياً وهو يمارس فى المجتمع موهبة هاو؛ وهكذا كان السيد "دو شارلوس" يهدد "بريشو" بأن يبلغ الصوربون أنه يتجول الآن بصحبة شبان بالطريقة نفسها التى يتكلم بها مؤرخ اليوميات المختون فى كل لحظة عن "ابنة الكنيسة البكر"(٢) و"قلب يسوع المقدس"، أى دون ذرة من نفاق وإنما بشىء من التظارف. ثم إنه ليس من الطريف أن نبحث عن تفسير تبدل الكلمات ذاتها فحسب، وهى كبيرة الاختلاف عن تلك التى كان يجيزها لنفسه فيما مضى، بل كذلك التبدل الذى حل فى النبرات والحركات، وكانت هذه وتلك تشبه الآن إلى حد غريب ما كان السيد "دو شارلوس" يندد به أعنف التنديد فيما مضى. كان يطلق الآن لا إرادياً ما يقرب أن يكون الصيحات الصغيرة - وهى لا إرادية لديه - وتزداد عمقاً بذاك المقدار - التى يطلقها الشاذون، ويفعلون قاصدين فيما يخصهم، وهم يتنادون داعين بعضهم "يا عزيزى"؛ كما لو لم تكن هذه البهرجة المقصودة، التى سبق أن اتخذ السيد "دو شارلوس" على مدى فترة طويلة جداً النقيض منها، سوى محاكاة عبقرية أمينة للتصرفات التى يفلح فى اتخاذها أمثال السيد "دو شارلوس" بعدما يبلغون مرحلة معينة من عاهتهم مثلما يبلغ حتماً بالمصاب بشلل عام أو بالاختلاجى أن يبرز للعيان بعض الأعراض. وفى الواقع لم يكن بين "شارلوس" الصارم الذى يلتحف السواد والقصير الشعر الذى سبق أن عرفته، لم يكن بينه - وهو ما كانت تكشف عنه تلك البهرجة الداخلية البحتة - وبين الفتيان المخضبين المثقلين بالحلى سوى هذا الفارق الظاهرى الخالص الكائن بين شخص مضطرب يتحدث بسرعة ويتحرك طوال الوقت ومصاب بمرض عصبى يتحدث ببطء ويحافظ على برودة دائمة ولكنه مصاب بالوهن العصبى نفسه فى نظر الطبيب السريرى الذى يعلم أن هذا وذاك على السواء تتأكلهما الكروب نفسها ويعانيان من ذات العاهات. كان يبرز للعيان على أية حال أن السيد "دو شارلوس" قد شاخ من علامات مختلفة تمام الاختلاف، من مثل المساحة الغريبة التى شغلتها فى حديثه بعض العبارات التى تكاثرت وتتردد الآن فى كل لحظة ("تسلسل الظروف" على سبيل المثال) والتى كان كلام البارون يستند إليها من جملة إلى جملة كأنما إلى وصى لابد منه. وسأل "بريشو" السيد "دو شارلوس" فيما كنا نزمع أن نقرع جرس باب الفندق: "هل وصل "شارلى"؟" فقال البارون "آه! لست أدرى"، قال وهو يرفع يديه فى الهواء والعين منه نصف مطبقة بمظهر من لا يريد أن يتهم بالتطفل ولاسيما أنه وجهت إليه على الأرجح صنوف من اللوم من جانب "موريل" على أشياء كان البارون قالها (وكان "موريل"، وهو خواف بقدر ما هو مغرور، ومنكر للسيد "دو شارلوس" بمثل ما يبدى من رضى إذ يتباهى به، قد ظنها خطيرة - مع أنها تافهة). "تعلم أنى لا أعرف شيئاً مما يفعله. ولست أعلم مع من يخوننى، فإننى أكاد لا أراه." ولئن عجّت أحاديث شخصين يقيمان علاقة بينهما بالأكاذيب فإن هذه لا تنشأ بصورة أقل تلقائية فى الأحاديث

---

(١) Mounet - Sully ممثل فرنسي من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

(٢) اللقب الذي يطلقونه في الأوساط الكاثوليكية على "فرنسه".

التى يعقدها شخص ثالث مع عشيق حول الشخص الذى يحبه هذا الأخير، وأياً كان على أى حال جنس هذا الشخص.

وسألت السيد "دو شارلوس": "وهل رأيته منذ زمن طويل؟" كى يبدو أنى فى ذات الآن لا أخشى محادثته عن "موريل" ولا أعتقد أنه يعيش تماماً وإياه. "لقد جاء مصادفة هذا الصباح مدة خمس دقائق فيما كنت بعد نصف نائم، جاء ليجلس فى زاوية سريرى كما لو يبغى اغتصابى." وخطرت لى فى الحال فكرة قوامها أن السيد "دو شارلوس" قد التقى "شارلى" لساعة خلت، فإنك حين تسأل عشيقة متى رأت الرجل الذى، يعلم الناس - وتفترض هى ربما أنهم يعتقدون - أنه عشيقها تجيبك، إن هى تناولت العصرونية وإياه: "لقد التقيته لحظة قبل طعام الغداء." والفارق الوحيد بين هاتين الواقعتين أن الواحدة كاذبة والأخرى صحيحة، ولكن الواحدة بمقدار براءة، أو إن شئت، بمقدار ذنب تلك. وقد لا نفهم لذلك لماذا تختار العشيقة دوماً (والسيد "دو شارلوس" هنا) الواقعة الكاذبة إن لم نعلم أن هذه الإجابات إنما يحددها، دون علم الشخص الذى يقدمها، عدد من العوامل يبدو غير متناسب وضآلة الواقعة إلى حد أننا نعتذر عن ذكرها. لكن المكان الذى تشغله أصغر حبة بيلسان إنما يفسره فعل أو صراع أو توازن قوانين جذب ونبذ تحكم عوالم أكبر كثيراً. دعنا لا نشير هنا إلا بقصد التذكير إلى الرغبة فى الظهور مظهراً طبيعياً جسوراً، والمبادرة الغريزية إلى إخفاء موعد سرى، وخليط من الاحتشام والتباهى، والرغبة فى الإقرار بما يروقك إلى أبعد حد وأن تبدى أنك محبوب، واختراق ما يعلم أو يفترض - ولا يقول - محادثك، اختراق يتجاوز أو يقصر عن اختراقه فيرفع هيناً أو يحط من قدره، والتوق اللاإرادى إلى اللعب بالنار والعزم على خسارة شىء كى لا يضيع كل شىء. والمقدار نفسه من القوانين المختلفة التى تعمل فى اتجاه عكسى يملى الأجوبة الأكثر عمومية المتعلقة بالبراءة، بالأفلاطونية، أو خلافاً لذلك بالواقع الجسدى وبعلاقات نقيمها مع الشخص الذى نقول إنا رأيناه فى الصباح حينما نكون رأيناه فى المساء. ولكن فلنقل بشكل عام إن السيد "دو شارلوس"، على الرغم من تفاقم دائه، وكان يدفعه على الدوام إلى أن يكشف، أن يلمح وأحياناً أن يبتدع فحسب تفاصيل تعرضه للشبهات، كان يحاول فى هذه الفترة من حياته أن يؤكد أن "شارلى" لم يكن من ذات طينته، هو "شارلوس"، وأن لم يكن بينهما سوى الصداقة. وما كان ذلك يحول (ومع أن الأمر ربما كان صحيحاً) دون أن يناقض نفسه أحياناً (كما هو شأن الساعة التى التقاه فيها آخر مرة)، كأن يقول الحقيقة حينئذ وقد نسى نفسه، أو يطلع بكذبة للتبجح أو تصنعاً للعاطفة أو لأنه يرى الظرف أن يضيع محدثه. واستطرد البارون قائلاً: "تعلم أنه بالنسبة إلى رفيق طيب عزيز أكن له أعظم المودة مثلما أنا متيقن أنه يكن لى (فهل كان يخامره الشك حتى يحس بحاجة أن يقول إنه متيقن من ذلك؟)، ولكن ليس بيننا شىء آخر، لا شىء من ذلك، تفهمنى تماماً، لا شىء من ذلك"، يقول البارون بلهجة طبيعية كما لو أنه تحدث عن سيدة. "أجل لقد جاء هذا الصباح يجرنى من قدمىّ. مع أنه يعلم أنى أكره أن يرانى الناس مستلقياً. ألست تكره أنت؟ آه! يالفظاعة الأمر، ذلك مزعج، وإنك لقبيح حتى لتثير الرعب. أعلم أنى لم أعد فى الخامسة والعشرين ولست أتصنع موقف الفتاة

الفاضلة ولكن المرء يحتفظ مع ذلك بشيء من الغنج والدلال."

من الممكن أن يكون البارون صادقاً حينما كان يتكلم عن "موريل" وكأنما عن رفيق طيب عزيز، وأن يقول الحقيقة ربما وفي ظنه أنه يكذب حين كان يقول: "لست أعلم ما يفعل وإني جاهل بأمور حياته." وبالفعل هيا نقل (كيما نستبق بضعة أسابيع القصة التي سنعود إليها في الحال بعد هذا القوس الذي نفتحه في أثناء توجهنا أنا والسيد "دو شارلوس" والسيد "بريشو" صوب مسكن السيدة "فيردوران")، هيا نقل إن البارون غرق بعد هذه الأمسية بوقت قليل في بحر من الألم والذهول جراء رسالة فتحها خطأ وكانت موجهة إلى "موريل". كانت تلك الرسالة التي ستسبب لي بصورة غير مباشرة غموماً مريرة قد خطتها الممثلة "ليا" المشهورة بالميل الحصري الذي بها إلى النساء. على أن رسالتها إلى "موريل" (وما كان السيد "دو شارلوس" يرتاب حتى بمعرفتها) كانت مكتوبة باللهجة الأشد هياماً. هذا، وإن بذاءتها لتحول دون استعادتها هنا، ولكنما يسعنا أن نذكر أن "ليا" كانت تخاطبه بصيغة المؤنث حصراً فتقول له: "يا لك قذرة مريعة!"، "يا حبيبتي الجميلة، أنت منهن على الأقل، إلخ". كانت الرسالة تتناول عدة نساء أخريات ما كان يبدو أنهن أقل صداقة لـ "موريل" منهن لـ "ليا". ثم إن هزء "موريل" من السيد "دو شارلوس"، و"ليا" من ضابط كان ينفق عليها وتقول عنه: "إنه يتوسل إليّ في رسائله أن أكون متعقلة! صدق إن شئت! يا هري الأبيض العزيز"، لم يكن ليكشف للسيد "دو شارلوس" حقيقة هي أقل توقعاً لديه مما هي العلاقات الخاصة جداً بين "موريل" و"ليا". كان البارون مشوشاً على وجه الخصوص جراء هذه الكلمات: "كان من الجماعة". فبعدما جهل ذلك بادىء الأمر، بلغه في نهاية المطاف، منذ فترة أصبحت طويلة، أنه هو أيضاً "من الجماعة". وإذا بهذا المفهوم الذي اكتسبه يعاد النظر فيه. فإنه حينما اكتشف أنه "من الجماعة" ظن أنه يعلم بذلك أن ميله، كما يقول "سان سيمون"، لم يكن ميلاً إلى النساء. وإذا بعبارة "كان من الجماعة" تتخذ فيما يخص "موريل" مساحة لم يسبق أن عرفها السيد "دو شارلوس" إلى حد أن كان "موريل" وفقاً لهذه الرسالة يقيم البرهان على أنه "من الجماعة" وهو يحمل ذات الميل الذي للنساء إلى النساء. ولم يعد من داع، والحالة هذه، أن تقتصر غيرة السيد "دو شارلوس" على الرجال الذين يعرفهم "موريل"، بل هي ستشمل النساء أنفسهن. وهكذا لم يكن الأشخاص "الذين من الجماعة" أولئك الذين كانوا موضع اعتقاده فحسب، بل قسم كامل وضخم من الكوكب يضم على حد سواء نساء ورجالاً لا يحبون الرجال فحسب بل النساء، وأخذ البارون يحس، إزاء المدلول الجديد لكلمة كانت مألوفة جداً لديه، عذاباً يبعثه فيه العقل والقلب على حد سواء قبالة هذا السر المزدوج الذي يشتمل في ذات الوقت على تعاظم نطاق غيرته والقصور المفاجىء لأحد التعاريف.

لم يكن السيد "دو شارلوس" في الحياة يوماً إلا هاوياً. وذلك يعني أن حوادث من هذا القبيل ما كان يمكن أن تفيده في شيء البتة. فقد كان يحول الانطباع المكدر الذي يمكن أن يحس به جراءها إلى شجارات عنيفة يعرف كيف يكون بليغاً فيها، أو إلى دسائس ماكرة. ولعلها كان يمكن

أن تكون ثمينة فى نظر شخص له قدر "بيرغوت" على سبيل المثال، بل ربما كان ذلك ما يفسر جزئياً (بما أننا نتحرك على غير هدى ولكنما نختار على غرار الحيوانات النبات الذى يواتينا) أن يعيش أفراد مثل "بيرغوت". أن يعيشوا بعامة بصحبة نساء ضحلات زائفات وشريرات. فإن جمالهن يكفى خيال الكاتب ويستثير طيبته ولكنه لا يغير فى شىء طبيعة رفيقته التى تبرز بين الحين والآخر، كخطف بروق، حياتها الواقعة على آلاف الأمتار تحتها، وعلاقاتها العجيبة وأكاذيبها المتمادية إلى ما كان أبعد مما نعتقده، بل على وجه الخصوص فى غير الاتجاه الذى كان يمكن أن نعتقده. إن الكذب، الكذب الكامل حول الناس الذين نعرفهم والعلاقات التى أقمناها معهم، والدافع إلى هذا العمل أو ذاك والذى نعلن عنه بطريقة مختلفة تمام الاختلاف، الكذب حول ما نحن عليه وحول ما نحب وحول ما نحس به إزاء الشخص الذى يحبنا والذى يظن أنه صاغنا على مثاله لأنه يعانقنا طوال النهار، ذاك الكذب هو واحد من الأشياء الوحيدة فى العالم التى يمكن أن تفتح أمامنا آفاقاً على الجديد والمجهول، التى يمكن أن تفتح في داخلنا حواس غافية من أجل تأمل أكوان ما كنا لنعرفها فى يوم. ولابد أن نقول فيما يخص السيد "دو شارلوس" إنه إن أذهله أن يطلع بخصوص "موريل" على عدد من الأمور سبق أن أخفاها عنه بعناية فقد أخطأ فى استخلاصه منها أن من الضلال مصادقة جماعة من العامة وأن إفشاءات قاسية إلى هذا الحد(١) (وكان أقساها ذاك الذى كشف عن رحلة كان قام بها "موريل" بصحبة "ليا" فيما أكد للسيد "دو شارلوس" أنه كان فى ذلك الوقت يقوم بدراسة الموسيقا فى ألمانيه. وكان استخدم لبناء كذبته متطوعين أرسل لهم رسائله إلى ألمانيه فيعاد إرسالها من هناك إلى السيد "دو شارلوس" الذى كان على أشد اليقين بأن "موريل" كان هناك إلى حد أنه لم ينظر حتى إلى الطابع البريدى). وسوف نرى بالفعل فى آخر جزء من هذا المؤلف السيد "دو شارلوس" يقوم بأمور لعلها كانت أذهلت أفراد عائلته وأصدقاءه أكثر بعد مما أمكن أن تفعل به الحياة التى أماطت "ليا" اللثام عنها.

لكنما آن الأوان للحاق بالبارون الذى يتقدم مصحوباً بى وبـ "بريشو" باتجاه باب آل "فيردوران". وأردف يقول وهو يتوجه إليّ: "وما الذى حل بصديقك العبرانى الشاب الذى كنا نراه فى "دوفيل"؟ فقد خطر لى أنه ربما أمكن أن ندعوه ذات مساء إن سركم ذلك". فإنه ما كان السيد "دو شارلوس"، وهو يكتفى بطلب التجسس دون حياء على حركات وسكنات "موريل" من جانب وكالة بوليسية تماماً كما هو أمر زوج أو عشيق، ما كان ينفك ينتبه للشبان الآخرين. كانت الرقابة التى يكلف خادماً عجوزاً بطلب ممارستها من جانب إحدى الوكالات على "موريل" قليلة التكتم إلى حد يظن الندل معه أنهم متعقبون، ولا تعيش معه وصيفة من بعد ولا تجرؤ على الخروج من بعد فى الشارع إذ تظن دوماً أن شرطياً يتعقبها. وكان الخادم العجوز يصرخ بلهجة ساخرة: "بوسعها أن تفعل ما تشاء! وقد تضيع وقتك ومالك فى تعقبها! وكأنما يهمنا سلوكها فى كثير أو قليل!" إذ كان شديد الشغف فى تعلقه

---

(١) وردت الجملة ناقصة فى متن النص".

بسيده إلى حد أنه كان فى نهاية المطاف يتحدث عن ميول البارون وكأنما هى ميوله لكثرة ما يبدى من اندفاع حماسى فى خدمتها، مع أنه لا يشاطر البتة ميول البارون تلك. وكان السيد "دو شارلوس" يقول عن ذاك الخادم العجوز: "إنه زبدة الطيبين"، لأنك لا تقدر البتة شخصاً بقدر ما تفعل إزاء الذين يجمعون إلى فضائل عظيمة مزية أنهم يضعونها دون حساب فى تصرف معايبنا. كان بوسع السيد "دو شارلوس" على أية حال أن يحس بالغيرة من الرجال فحسب فيما يتعلق بـ "موريل". أما النساء فما كن يوحين بشىء منها. وتلك فى جميع الأحوال هى القاعدة العامة تقريباً بالنسبة إلى أمثال "شارلوس". إن حب الرجل الذى يحبونه لامرأة أمر مختلف، أمر يجرى فى جنس حيوانى آخر. (فالأسد يدع النمور وشأنها)، ولا يزعجهم بل يطمئنهم بالأحرى. صحيح أن هذا الحب يثير أحياناً قرف الذين يجعلون من الشذوذ كهنوتاً. حينذاك نراهم يحقدون على صديقهم لأنه انصرف إليه، لا بما هو خيانة، بل بما هو انحطاط خلقى. ولعل واحداً من أمثال "شارلوس" ومن غير نوعية البارون، لعله كان اغتاظ لرؤيته "موريل" يقيم علاقات مع امرأة كما لعله كان اغتاظ لقراءته فى إعلان أنه مقبل، هو مؤدى أعمال "باخ" و"هاندل"، على عزف أعمال "بوتشينى". ولهذا السبب على أية حال نرى الشبان الذين يتنازلون بداعى المصلحة لحب أمثال "شارلوس"، نراهم يؤكدون لهم أن الاتصالات الجنسية لا تثير فيهم سوى الاشمئزاز كما قد يقولون للطبيب إنهم لا يتعاطون الكحول إطلاقاً ولا يحبون سوى الماء القراح. على أن السيد "دو شارلوس" كان فى هذه النقطة يحيد قليلاً عن القاعدة المعتادة، كان معجباً بكل شىء لدى "موريل" فتبعث فى نفسه نجاحاته النسائية، إذ هى لا تقلقه، ذات المسرة التى تبعثها نجاحاته فى الأداء الجماعى أو العزف الانفرادى. "ولكن، تدرى يا عزيزى، إنه ينصرف إلى النساء"، يقول قول من يفشى، من يستنكر أمراً، قول حاسد ربما، ومعجب على وجه الخصوص. ويضيف قائلاً: "إنه عجيب. فهو فى كل مكان محط أنظار أبرز بنات الهوى، وهو يسترعى الانتباه فى كل مكان، فى "الميترو" والمسرح على السواء. وذلك مصدر إزعاج! فلست أستطيع مرافقته إلى المطعم دون أن يحمل إليه النادل وريقات غزلية من نسوة ثلاث على الأقل. ودوماً من الجميلات بعد. وليس الأمر خارقاً على أية حال. لقد كنت أنظر إليه بالأمس، وإنى أفهمهن، فقد أصبح عظيم الجمال، كأنى به ما كان من قبيل "برونزينو"[1]، حقاً إنه رائع." لكنما كان يحلو للسيد "دو شارلوس" أن يبدى أنه يحب "موريل" وأن يقنع الآخرين، وربما أن يقنع نفسه، بأنه موضع حبه. كان يبدى فى الاحتفاظ به طوال الوقت إلى جانبه، وعلى الرغم من الأذى الذى يمكن أن يلحقه هذا الفتى الصغير بمكانة البارون الاجتماعية، ما يشبه الاعتزاز بالنفس. ذلك أنه كان قد بلغ تلك النقطة (والحالة هذه كثيرة الحدوث، حالة أناس على رصانة كبيرة وحذلقة يحطمون من زهو كامل علاقاتهم كى يشاهدوا أنى كانوا برفقة عشيقة، هى داعرة أو سيدة عوهاء لا تلقى الترحاب ويبدو لهم مع ذلك أن الارتباط بصداقتها يرفع من شأنهم)، النقطة التى يضع فيها الاعتزاز بالنفس كل دأبه فى تهديم الأهداف التى بلغها. إما لأننا نلقى بفعل الحب سحراً ندرك وحدنا فى

---

(١) رسام من فلورانسه في بلاط آل "ميديتشي" في القرن السادس عشر.

علاقات متباهية مع من نحب، وإما لأن هذه العلاقات بفعل تراجع الطموحات المجتمعية التى بلغت مبتغاها وتصاعد موج صنوف الفضول الذى تثيره الخادمات، وهو يستحوذ عليك على نحو يتزايد بقدر ما هو أكثر أفلاطونية، لم تبلغ فحسب، بل هى تجاوزت المستوى الذى تصادف العلاقات الأخرى مشقة فى المكوث فيه.

أما بخصوص الفتيان الآخرين فقد كان السيد "دو شارلوس" يرى أن وجود "موريل" لم يكن عائقاً لميله إليهم، بل يمكن أن يشكل صيته الباهر كعازف كمان أو شهرته الوليدة كمؤلف وكصحفى طمعاً لهم فى بعض الأحوال. فإن قدموا للبارون مؤلفاً شاباً تروق هيئته فإنما كان يبحث فى نطاق مواهب "موريل" عن فرصة القيام بمجاملة للوافد الجديد. كان يقول له: "يجدر بك أن تأتينى بمقطوعاتك الموسيقية كى يعزفها "موريل" فى الحفل الموسيقى أو فى جولاته. فما أقل الموسيقا الممتعة التى كتبت من أجل الكمان! ومن حسن الحظ أن تلقى الجديد منها! وأن الأجانب يقدرون ذلك كثيراً. ثمة حتى خارج العاصمة دوائر موسيقية صغيرة يحبون فيها الموسيقا بحماسة ودراية رائعتين.". ودون أن يكون أكثر صدقاً (فما كان كل ذلك إلا بمثابة طعم ونادراً ما كان "موريل" يرتضى القيام بإنجازات) قال لى السيد "دو شارلوس"، بعدما قال "بلوك" إنه شاعر بعض الشىء وأضاف قوله "حسب التجليات"، بتلك الضحكة المتهكمة الجارحة التى يرفقها بقول تافه حين لا يستطيع العثور على كلمة طريفة: "هيا قل لهذا الفتى الإسرائيلى(١) إنه يجدر به، بما أنه يقرظ الشعر، أن يجيئنى بشىء منه لـ "موريل"، فتلك هى العقبة دوماً بالنسبة للمؤلف، أن يعثر على شىء جميل يضع موسيقاه. بل ربما أمكن التفكير بكراس موسيقى. وقد لا يكون ذلك خلواً من الإثارة وربما اكتسب بعض القيمة بسبب جدارة الشاعر وحمايتى وجملة من الظروف المساعدة المترابطة التى تشغل موهبة "موريل" الموقع الأول بينها. فإنه يؤلف كثيراً الآن ويكتب أيضاً وبأسلوب جميل جداً، وسأحدثك عن ذلك. فأما موهبته كعازف (وهنا تعلم أنه أصبح أستاذاً بالتمام والكمال) فسترى هذا المساء كيف يجيد هذا الصبى عزف موسيقا "فانتوى". إنه يذهلنى، فى سنه ويملك فهماً كهذا فيما يظل صغيراً إلى هذا الحد، تلميذاً إلى هذا الحد. آه! إنها فى هذا المساء محض تجربة صغيرة. أما الحفلة الكبرى فستقام بعد بضعة أيام. لكن الأمر سيكون أكثر أناقة اليوم. لذلك ترانا فى أشد الغبطة أن تكون أتيت"، يقول وهو يستعمل صيغة الجمع دونما شك لأن الملك يقول: نريد. "وبسبب هذا البرنامج الرائع أشرت على السيدة "فيردوران" أن تقيم احتفالين، أحدهما بعد بضعة أيام يكون فيه سائر معارفها، والآخر هذا المساء حيث "المعلمة" لم تعد "مكلفة" بالدعوى كما يقال فى لغة القضاء. أنا من وجه الدعوات وقد دعوت بعض أناس ظرفاء من وسط آخر يمكن أن يفيدوا "شارلى" ويروق لآل "فيردوران" أن يتعرفوا إليهم. أليس أنه من أحسن الأمور أن تعمل على عزف أجمل الأشياء على يد أعظم الفنانين، ولكن التظاهرة تبقى مكتومة الأنفاس وكأنما فى القطن إن كان الجمهور مؤلفاً من السمانة التى قبالتنا والبقال الذى فى الزاوية. تعلم ما هى فكرتى عن المستوى الفكرى لأهل

(١) بالمعنى الديني القديم.

المجتمع، لكن بوسعهم أن يلعبوا بعض أدوار على قدر من الأهمية، ومن بينها الدور المخصص للصحافة فيما يخص الأحداث العامة وهو أن تكون هيئة ذيوع وانتشار. أنت تدرك ما أود قوله، فقد دعوت مثلاً زوجة أخي "أوريان". ليس أكيداً أنها ستأتى، بيد أن الأكيد فى المقابل أنها لن تفهم شيئاً البتة إن هى أتت. لكنما لا يسألونها أن تفهم، فإن ذلك يفوق إمكاناتها، بل أن تتكلم، وذلك يناسبها بصورة رائعة ولن يفوتها أن تقوم به. والنتيجة: منذ الغد، وبدلاً من سكوت السمانة والبقال، تراه حديثاً حامياً فى منزل آل "مورتمار" حيث تحكى "أوريان" أنها سمعت أشياء رائعة وأن واحداً يدعى "موريل" إلخ...، ثم هو حنق لا يوصف يعترى غير المدعوين الذين سيقولون: "لقد حكم "بالاميد" دون شك أننا غير جديرين؛ وعلى أى حال، من عساهم يكونون، أولئك الناس الذين جرى ذلك فى منزلهم"؛ وهذا المقابل مفيد بقدر مدائح "أوريان" لأن اسم "موريل" يتكرر دون انقطاع وينحفر فى النهاية فى الذاكرة مثل درس تقرؤه عشر مرات على التوالى: كل ذلك يؤلف سلسلة من الظروف يمكن أن تكون ثمينة بالنسبة إلى الفنان وإلى سيدة البيت وأن تفيد على نحو ما كمضخم للصوت بالنسبة إلى تظاهرة سيمكن سماعها من جانب جمهور بعيد. الأمر جدير بأن تحضره، حقاً. وسترى ما أحرز من تقدم. لقد عثروا له على أية حال على موهبة جديدة يا عزيزى، فهو يكتب كالملاك، قلت لك كالملاك."

"أنت يا من تعرف "بيرغوت"، لقد ظننت أنه ربما وسعك، إذ تنشط ذاكرته حول مقطوعات هذا الشاب النثرية، أن تسهم معى فى النهاية، أن تعيننى على إنشاء ترابط ظروف قادرة على تشجيع موهبة مزدوجة، موهبة موسيقى وكاتب يمكن أن يكتسب ذات يوم مهابة ما تمتع به "برليوز". ترى تماماً ما يستحسن أن تقوله لـ "بيرغوت". تدرى، غالباً ما يتفق للمشاهير زمر آخر يفكرون فيه، فهم مدللون ويكادون لا يهتمون إلا بذواتهم. لكن "بيرغوت"، وهو حقاً بسيط وخدوم، لابد سيمرر هذه الأخبار الصغيرة، ونصفها لصاحب دعابة وموسيقا، وهى بالحقيقة حلوة جداً، فى صحيفة "لو غولوا" أو حيث لم أعد أدرى، وسوف يسرنى سروراً بالغاً أن يضيف "شارلى" إلى كمانه هذا النزر اليسير من هواية الكتابة لديه. أعلم تمام العلم أنى أستسهل المغالاة حينما يتعلق الأمر به على غرار سائر الأمهات المسنات المتساهلات فى المعهد الموسيقى. عجباً، أو ما كنت تعرف ذلك يا عزيزى؟ ذلك أنك لا تعرف الجانب الساذج لدىّ. إنى أنتظر طويلاً لا حراك بى على مدى ساعات على باب اللجان الفاحصة. إننى ألهو لهو الملكة. أما "بيرغوت" فقد أكد لى أن الأمر بالحقيقة على أحسن ما يرام."

كان السيد "دو شارلوس"، وهو يعرفه منذ فترة طويلة عن طريق "سوان"، قد ذهب بالفعل للقائه وليسأله أن يحصل لـ "موريل" على أن يدبجفى جريدة ما يشبه أخباراً صغيرة نصفها دعابى حول الموسيقا. وكان السيد "دو شارلوس" فى ذهابه يحس ببعض تبكيت الضمير إذ كان يتبين، وهو المعجب الكبير بـ "بيرغوت"، أنه ما كان قط يذهب للقائه من أجله هو، بل ليستطيع القيام بلفتة ذات بال تجاه "موريل" والسيدة "موليه" وأخريات من هذا القبيل بفضل التقدير الذى كان يكنه له "بيرغوت"، ونصفه فكرى والنصف اجتماعى. ما كان يصدم السيد "دو شارلوس" أن لا يستخدم المجتمع الراقى إلا لذاك الغرض، أما أن يستخدم "بيرغوت" فقد كان ذلك يبدو أكثر سوءاً إذ كان

يحس أن "بيرغوت" لم يكن نفعياً كما هم أهل المجتمع الراقى وكان يستحق أفضل من ذلك. لكنما كانت حياته كثيرة المشاغل فلا يجد متسعاً من الوقت إلا حينما تعصف به الرغبة فى أمر ما، إن كان مثلاً يتعلق بـ "موريل". ثم إنه، وهو شديد الذكاء، ما كان يأبه إلا قليلاً لحديث رجل ذكى، ولاسيما حديث "بيرغوت" الذى كان أديباً فوق ما ينبغى حسب رأيه ومن جماعة أخرى لا تقف موقفه. أما "بيرغوت" فقد كان يتبين تماماً تلك النفعية فى زيارات السيد "دو شارلوس" ولكنه لا يحقد عليه لذلك، فقد كان عاجزاً عن مولاة الطيبة ولكنه راغب فى إشاعة السرور، متفهم، عاجز عن أن يسعد بوعظ غيره. وأما بخصوص نقيصة السيد "دو شارلوس" فما كان يقاسمه إياها فى آية من درجاتها، لكنما يجد فيها بالأحرى عنصراً لونياً فى الشخصية إذ لا يقوم المشروع واللامشروع، فى نظر الفنان، فى أمثلة أخلاقية بل فى ذكريات من أفلاطون أو "صودوما"(١).

كان السيد "دو شارلوس" يفوته أن يقول إنه أخذ منذ حين يحمل "موريل"، شأن هؤلاء الأسياد الكبار فى القرن السابع عشر الذين كانوا يترفعون عن توقيع، بل عن كتابة أهاجيهم، على صياغة نبذ صغيرة كلها افتراء سافل وموجهة ضد الكونتيسة "موليه". وكم كانت، وهى تبدو مذ ذاك وقحة فى نظر من كانوا يقرؤونها، كم كانت أشد قسوة على المرأة الشابة التى كانت تلقى فيها مقاطع من رسائل لها دست بمهارة عظيمة إلى حد لا يفهم معه أحد غيرها شيئاً فيها، مقاطع نقلت بالحرف ولكنها أخذت بمعنى كان يمكن أن يثير جنونها كأقسى عملية انتقام، وقد ماتت المرأة الشابة من جراء ذلك. لكنما ينشأ كل يوم فى باريس، كما ربما قال "بلزاك"، ما يشبه الصحيفة الناطقة وهى أفظع من تلك. وسوف نرى فيما بعد أن هذه الصحافة الناطقة قد أودت بقوة "شارلوس" تقادم زيه وشادت فوقه على ارتفاع كبير "موريل" لا يساوى جزءاً من مليون من حاميه القديم. وهذا الطراز الفكرى ساذج على الأقل ويعتقد صادقاً بلا وجود "شارلوس" عبقرى وبسلطان أكيد لـ "موريل" أحمق. كان البارون أقل سذاجة فى صنوف ثأره التى لا ترحم. ومن هنا دون شك ذاك السم الزعاف فى الفم الذى يبدو طغيانه وكأنما يولى الوجنتين اليرقان حينما يجتاحه الغضب.

"وددت كثيراً لو جاء هذا المساء، فقد كان سمع "شارلى" فى الأشياء التى يعزفها حقاً أفضل ما يعزف. ولكنه لا يغادر المنزل فيما اعتقد، ولا يريد أن يزعجه الناس وإنه لمحق. ولكن أنت، أيها الشباب الرائع، لسنا نراك كثيراً فى منطقة رصيف "كونتى"، ولا تفرط فى الأمر!" فقلت إنى أخرج بوجه الخصوص وابنة عمى. وقال السيد "دو شارلوس" لـ "بريشو": "هلا رأيت! هم يخرجون وابنة عمهم، يا لطهر المسلك!" والتفت إلىّ من جديد: "ولكننا لا نسألك حساباً بشأن ما تفعل يا وولدى. فإنك حر فى القيام بما يحلو لك. إنما يؤسفنا فحسب أن لا يكون لنا نصيب فيه. ثم إنك على ذوق رفيع فهى فاتنة، ابنة عمك، إسأل "بريشو"، فقد امتلأ رأسه بها فى "دوفيل". سوف نفتقدها هذا المساء. لكنك ربما أحسنت أن لم تصطحبها. إن موسيقا "فانتوى" رائعة. لكنما أعلمنى "شارلى" هذا الصباح أن ابنة المؤلف وصديقتها ستحضران، وهما فتاتان لهما سمعة مخيفة، والأمر مزعج

(١) لقب الفنان الإيطالى "جوفانى أنطونيو بازى" من القرن السادس عشر، واللقب يذكّر بصادوم.

دائماً فيما يخص الفتاة، بل هو يسبب لى بعض الضيق بالنسبة إلى مدعويى. ولما كان جميعهم تقريباً قد بلغ السن القانونية(١) فلا عقبى لذلك عليهم. سوف تحضران، إلا إن لم تستطع هاتان الآنستان المجىء، فقد كان عليهما حتماً أن تكونا طوال العصر فى فترة تدريب على مقطوعات موسيقية تقيمها السيدة "فيردوران" بعد الظهر ولم تدع إليها إلا المبرمين، الأسرة والذين ينبغى أن لا يستضافوا فى هذا المساء. لكن "شارلى" قال لى تواً قبل العشاء "أن ما ندعوهما بالآنستين "فانتوى" المحتم حضورهما لم تجيئا." وحافظت، على الرغم من الألم المريع الذى انتابنى فى مقاربتى المفاجئة (وكأنما بين النتيجة المعروفة وحدها فى البداية وسببها المكتشف أخيراً) بين رغبة "ألبيرتين" فى المجىء بعد الظهر وما أعلن عنه (وكنت أجهله) من حضور الآنسة "فانتوى" وصديقتها، حافظت على طلاقة ذهن لاحظت بها أن السيد "دو شارلوس" الذى سبق أن قال لنا لدقائق خلت إنه لم ير "شارلى" منذ الصباح قد اعترف طائشاً بأنه التقاه قبل العشاء. لكن ألمى أخذ يظهر للعيان؛ وقال لى البارون: "ولكن ما الذى حل بك، فإنك كمد لونك؛ هيا ندخل، فأنت مقرور وقد ساءت حالك." ما كان ذلك أول ارتياب لى بخصوص عفة "ألبيرتين"، ذلك الذى أيقظته فى نفسى كلمات السيد "دو شارلوس"، فقد كان داخلنى كثير غيره من قبل. ويظن المرء لدى كل جديد أن الكيل قد طفح وأنه لن يطبق احتماله، ثم إنه يجد له مع ذلك مكاناً وما إن ندخله فى وسطنا الحيوى حتى يدخل فى منافسة مع رهط من رغبات التصديق وجوقة من أسباب النسيان كثيرة حتى لترتاح سريعاً إليه ويبلغ بك أن لا تهتم به من بعد. ويظل فقط ما يشبه ألماً شفى نصفه، محض إنذار بالألم هو قفا الرغبة ومن ذات طرازها وأضحى مثلها مركز أفكارنا فيشيع فيها على مسافات لا نهائية أحزاناً مثلما تشيع هى مسرات مجهولة المصدر حيثما يمكن أن يقترن شىء ما بفكرة تلك التى نحبها. لكن الألم يستيقظ حينما يداخلنا ارتياب جديد كامل غير منقسم؛ وعبثاً نقول فى الحال تقريباً: "سوف أتدبر الأمر، سيكون ثمة طريقة لتفادى العذاب، لابد أن الأمر غير صحيح". لكنما كان ثمة لحظة أولى عانينا فيها كما لو أننا كنا نصدق. ولو لم يكن لدينا سوى أعضاء من نوع الساقين والذراعين لكانت الحياة ممكنة الاحتمال. لكننا نحمل فى داخلنا لسوء الحظ هذا العضو الصغير الذى نسميه قلباً، وهو عرضة لبعض الأمراض التى يتأثر فى أثنائها إلى ما لا حدود بكل ما يتعلق بحياة شخص ما تصيب فيها كذبة - هذا الأمر غير المؤذى إلى حد بعيد والذى نعيش داخله بمرح عظيم، سواء صدر عنا أو عن الآخرين - صدرت عن هذا الشخص ذات القلب الصغير، الذى كان ينبغى أن يسعهم نزعه من صدرنا جراحياً، بنوبات لا تحتمل. ولندع الدماغ جانباً، فعبثاً يعمل فكرنا دون حدود فى أثناء هذه النوبات فإنه لا يبدل فيها أكثر مما يفعل انتباهنا بألم أسنان. صحيح أن هذه المرأة اقترفت ذنب الكذب علينا فقد كانت أقسمت لنا أن تقول الحقيقة دائماً. لكننا نعرف ما تساويه هذه الأيمان بالنسبة إلينا وبالنسبة إلى الآخرين. وعزمنا أ نصدقها حينما كانت تصدر عنها هى التى كان من مصلحتها أن تكذب علينا ولم نخترها من جهة أخرى لفضائلها. وصحيح أنه لن

(١) تجاوز الأربعين لمن يبغي الانخراط في سلك الخدمة الكنسية.

تكون بها حاجة تقريباً لتكذب علينا فيما بعد - حينما يكون القلب قد أضحى غير آبه للكذبة - لأننا لن نهتم من بعد بحياتها. إننا نعلم ذلك، ونضحى بحياتنا راضين مع ذلك، فإما أن نقتل نفسنا فى سبيل تلك المرأة، وإما أن نسعى إلى حكم بالإعدام باغتيالها، وإما أن ننفق فحسب على مدى سنوات كامل ثرواتنا من أجلها، وهو ما يضطرنا فيما بعد إلى قتل نفسنا لأنه لم يتبق لنا شىء. ومهما ظننا على أية حال أننا مطمئنو البال حينما نحب فإننا نحمل الحب دوماً فى فؤادنا فى توازن غير مستقر، ويكفيه نزر يسير ليضعه فى مقام السعادة فيشرق فينا الفرح ونغمر بصنوف الحنان لا تلك التى نحبها، بل أولئك الذين رفعوا من شأننا فى عينيها والذين حفظوها من كل تجربة شريرة؛ نظننا هادىء البال، وتكفى كلمة: "لن تجىء "جيلبيرت"، "الآنسة "فانتوى" مدعوة"، كى تنهار كل السعادة المعدة التى كنا نسرع إليها، كى تختفى الشمس، كى تتبدل دوارة الرياح وتثور العاصفة الداخلية التى لن نقوى ذات يوم على مقاومتها من بعد. وفى ذلك اليوم، اليوم الذى أضحى فيه الفؤاد واهناً جداً، يتألم أصدقاء يمحضوننا إعجابهم أن يستطيع معدمون مثلهم، أن يستطيع بعض الأفراد إلحاق الأذى بنا وإيرادنا حتفنا. ولكن ما عساهم يستطيعون إزاء ذلك؟ فإن يحتضر شاعر جراء التهاب رئة انتانى فهل نتصور أصدقاءه يوضحون للمكورة الرئوية أن هذا الشاعر موهوب ويجدر بها أن تدعه يشفى؟ لم يكن الشك بما هو مرتبط بالآنسة "فانتوى"، جديداً تماماً. على أن غيرتى التى بعثتها فى العصر "ليا" وأصدقاؤها قد قضت عليه حتى ضمن هذا المقياس. فقد شعرت وظننت، حالما انزاح خطر "التروكاديرو" ذاك، أننى استعدت نهائياً سكينة كاملة. لكن ما كان جديداً على وجه الخصوص فى نظرى إنما هو نزهة قالت لى "أندريه" فى أثنائها: "ذهبنا إلى هنا وهناك ولم نلتق أحداً"، فى حين كانت الآنسة "فانتوى" على العكس ضربت بالطبع موعداً لـ "ألبيرتين" فى منزل السيدة "فيردوران". ولعلى كنت تركت الآن "ألبيرتين" تخرج وحدها، بطيبة خاطر، وتذهب حيثما تشاء شرط أن يكون وسعنى احتجاز الآنسة "فانتوى" وصديقتها فى مكان ما والتيقن من أن "ألبيرتين" لن تراهما. ذلك أن الغيرة جزئية بعامة وذات تموضعات متقلبة إما لأنها امتداد أليم لحالة ضيق مبعثها تارة هذا الشخص وطوراً ذاك ممن قد تحبهم صديقتنا، وإما لضيق فكرنا الذى لا يستطيع أن يستوعب إلا ما يتصوره ويدع الباقى فى إبهام لا يمكننا نسبياً أن نعانى منه.

لحظة كنا نهم بدخول باحة الفندق لحق بنا "سانييت" الذى لم يكن قد تعرفنا فى الحال. فقال لنا بصوت لاهث: "مع أننى كنت أتفرس فى وجوهكم منذ حين. أما هو غريب أن أكون ترددت؟" ولعل "أليس غريباً" كانت بدت له مغلوطة وقد أخذ يبدى ألفة مغيظة مع صيغ اللغة القديمة. "فأنتم قوم يمكن أن يعلنكم المرء أصدقاء له." كان محياه الباهت كأنما ينورد التماع عاصفة رصاصتى. ولهاثه الذى ما كان يحدث فى هذا الصيف أيضاً إلا حينما يعنفه السيد "فيردوران" أصبح الآن دائماً. "أعلم أن عملاً لـ "فانتوى" لم يسبق نشره سوف يجرى تنفيذه على يد فنانين مجلين، و"بشكل غريب" على يد "موريل"." وسأل البارون: "لماذا بشكل غريب؟" وقد رأى فى هذه العبارة الظرفية نداً. فسارع "بريشو" الذى نهض بدور المفسر، سارع يوضح: "إن صديقنا "سانييت" يميل تلقائياً، بما هو مثقف ممتاز، إلى التحدث بلغة عصر تساوى فيه "بشكل غريب" عبارتنا نحن "على وجه الخصوص"."

وفيما كنا ندخل ردهة (السيدة "فيردوران") سألنى السيد "دو شارلوس" إن كنت أعمل، وإذ كنت أقول له أن لا ولكننى أهتم كثيراً فى هذه الفترة بأطقم الأوانى الفضية القديمة وأطقم البورسلان قال لى إنه لن يسعنى أن أرى ما كان أجمل مما هى لدى آل "فيردوران" وإننى يمكن أن أكون رأيتها على أية حال فى قصر "لاراسبلييير" بما أنهم كان يأخذ بهم الجنون فيحملون معهم، بحجة أن الأشياء أيضاً من الأصدقاء، يحملون معهم كل شيء، وإن إخراج كل شيء أمامى فى يوم أمسية ربما كان أقل يسراً ولكنه سوف يطلب إليهم أن يرونى ما أرغب فى رؤيته. ورجوته أن لا يفعل شيئاً من ذلك. وفك السيد "دو شارلوس" أزرار معطفه ونزع قبعته، فأبصرت أن قمة رأسه أخذت تكتسى شيباً فى بعض المواضع. لكن السيد "دو شارلوس"، مثله فى ذلك مثل شجيرة ثمينة لا يلونها الخريف فحسب بل تجرى المحافظة على بعض أوراقها بأغلفة من القطن أو طبقات من الجبس، ما كان يأخذ من بضع الشعرات البيض هذه القائمة فى قمة رأسه سوى ترقيش إضافى ينضاف إلى ترقيشات الوجه. على أن وجه السيد "دو شارلوس" كان يوالى، حتى خلف طبقات التعابير المخلفة والمساحيق والرياء التى كانت تموهه أسوأ تمويه، كتم السر الذى يبدو أنه يجهر به عالياً، على جميع الناس تقريباً. كنت أضيق تقريباً بعينيه اللتين كنت أخشى أن يفاجئنى بهما وأنا أقرأه فيهما قراءة الكتاب المفتوح، وبصوته الذى يبدو لى أنه يردده بجميع الوجود وبقلة احتشام لا تكل ولا تمل. لكن الأسرار إنما يحفظها الناس على أحسن وجه لأن سائر الذين يقربونهم صم وعميان. أما الذين كانوا يعلمون الحقيقة من هذا أو ذاك، من آل "فيردوران" على سبيل المثال، فقد كانوا يصدقونها، ولكن ماداموا لا يعرفون السيد "دو شارلوس". فقد كان وجهه يبدد شائعات السوء بدلاً من نشرها. ذلك لأننا نكون عن بعض الشخصيات فكرة عظيمة إلى حد أننا لا نستطيع مماثلتها بالقسمات المألوفة لشخص من معارفنا. وإنه ليصعب علينا أن نصدق عيوب شخص كنا البارحة أيضاً برفقته فى الأوبرا مثلما لن نصدق فى يوم نبوغه.

كان السيد "دو شارلوس" يهتم بتسليم معطفه ويرفق بذلك توصيات من تعود ارتياد المكان. لكن الخادم الخاص الذى كان يمده له كان جديداً وحديث السن. والحقيقة أن السيد "دو شارلوس" كثيراً ما كان الآن يضيع دليله كما يقال ولا يتبين من بعد ما يمكن فعله وما لا يمكن. والرغبة الحميدة التى كانت رغبته فى "بالبيك" فى إبداء أن بعض الموضوعات لا تخيفه، وفى أن لا يخشى الإعلان بشأن أحدهم فيقول: "إنه لفتى جميل"، فى أن يصرح، باختصار القول، بذات الأشياء التى كان يمكن أن يقولها من لم يكن مثله، إنما كان يتفق له الآن أن يترجم تلك الرغبة بقوله على عكس ذلك أشياء ما كان وسع من لم يكن مثله أن يقولها فى يوم، أشياء كان فكره دائم الانشغال إزاءها حتى لينسى أنها ليست جزءاً من الاهتمام المعتاد للناس جميعاً. لذلك رفع البارون، وهو ينظر إلى الخادم الخاص الجديد، سبابته فى الهواء بهيئة المتوعد وقال فى اعتقاده أنه يقوم بمزحة رائعة: "أما أنت فإنى أمنعك أن تغمز لى بعينك على هذا النحو"، ثم التفت إلى "بريشو" قائلاً: "هذا الصغير له وجه على شيء من الغرابة وله أنف طريق"؛ ثم أتم دعابته أو هو انصاع لرغبة فانحدر بسبابته أفقياً وتردد لحظة ثم دفع بها، إذ لا يستطيع من بعد تمالك نفسه، دفع بها على نحو لا يقاوم إلى الخادم

الخاص مباشرة ولمس طرف أنفه وهو يقول: "بيف!" ثم دخل الصالون يتبعه "بريشو" وأنا و"سانييت" الذى أعلمنا أن الأميرة "شيرباتوف" توفيت فى الساعة السادسة. وقال الخادم الخاص فى نفسه: "ما أغربه من بيت!"، وسأل رفاقه إن كان البارون صاحب فكاهة أو به بعض الجنون. وأجابه رئيس الخدم (الذى كان يظنه على قليل من الجنون، على قليل من البلاهة): "إنها تصرفات لديه من هذا القبيل ولكنه أحد أصدقاء سيدتى الأكثر تقديراً على الدوام عندى، إنه طيب القلب."

وفى هذه اللحظة جاء السيد "فيردوران" لملاقاتنا. وحده "سانييت" كان ينتظر بهيئة مستسلمة أن تؤخذ أشياؤه منه، دون أن تفارقه خشية أن يصاب ببرد لأن الباب الخارجى كان يفتح باستمرار. وسأله السيد "فيردوران": "ما الذى تفعله هنا فى وقفة الكلب الذليل هذه؟" - "إنى أنتظر أن يستطيع أحد الأشخاص الذين "يراقبون على الملابس" أن يأخذ معطفى ويعطينى رقماً." وسأل السيد "فيردوران" بلهجة صارمة: "ما الذى تقوله؟ "الذين يرابون الملابس". هل أصبحت خرفاً؟ يقولون: "راقب الملابس". لئن انبغى أن نعلمك الفرنسية من جديد كما نفعل بالذين أصيبوا بسكتة دماغية!" وهمس "سانييت" بصوت متقطع: "راقب على الشىء هى الصيغة الصحيحة، فإن الأب "لوباتو"(١)...". وصرخ السيد "فيردوران" بصوت رهيب: "إنك تغيظنى أنت. وكم ذا تلهث! هل قمت تواً بصعود ستة أدوار؟" ونتج عن فظاظة السيد "فيردوران" أن الرجال القائمين على قاعة الملابس أمروا أشخاصاً آخرين قبل "سانييت" وأجابوه حينما أراد أن يمد حاجاته: "كل بدوره يا سيد، فلا تكن معجلاً إلى هذا الحد." - "ذلكم رجال منظمون، وتلكم هى الكفاءات، حسن جداً يا رجالى الطيبين"، يقول السيد "فيردوران" بابتسامة تتسم بالعطف من أجل تشجيعهم فى اتجاههم إلى أن يمروا "سانييت" بعد كل الناس. وقال لنا: "هلموا، فذلكم الحيوان يود أن يوردنا حتفنا فى تيارد الهوائى العزيز. سنتدفأ قليلاً فى الصالة." وعاد يقول حينما أصبحنا فى الصالة: "راقب على الملابس! يا له من معتود!" وقال "بريشو": "إنه يميل إلى تكلف القول، وليس فتى شيئاً." ورد السيد "فيردوران" بحدة: "لم أقل إنه فتى سىء، بلقلت إنه معتود".

وسألنى "بريشو": "هل تعود فى هذا العام إلى "أنكرفيل"؟ فإنى أعتقد أن "المعلمة" قد استأجرت "لاراسبليير" مرة أخرى مع أنها وقعت فى منازعة مع مالكيه. لكن ذلك لا طائل تحته، فهى غيوم تتبدد"، يضيف قوله باللهجة المتفائلة نفسها التى تتخذها الصحف فى قولها: "ثمة أخطاء ارتكبت، ذلك مفهوم، ولكن من ذا لا يرتكب أخطاء؟" على أنى كنت أذكر بأى حال من العذاب غادرت "بالبيك" وما كنت راغباً البتة فى العودة إليها. كنت أرجىء دوماً إلى الغد مشروعاتى مع "ألبيرتين". وأعلن السيد "دو شارلوس" بأنانية التلطف المتسلطة اللامتفهمة: "سيعود بالتأكيد، فنحن نريد ذلك ولسنا فى غنى عنه".

أما السيد "فيردوران" الذى قدمنا له التعازى بالأميرة "شيرباتوف" فقد قال لنا: "أجل، أعلم أنها

---

(١) من الأكاديمية الفرنسية (١٧١٣- ١٧٨٠) وصاحب كتاب "في تدريس الآداب".

فى أسوأ حال". وصاح "سانييت" قائلاً: "لا، لقد فارقت فى الساعة السادسة". وقال السيد "فيردوران" بفظاظة لـ "سانييت": "أما أنت فتبالغ دائماً"، إذ كان يفضل، والأمسية لم تلغ، فرضية المرض. وفى تلك الأثناء كانت السيدة "فيردوران" فى مداولة كبيرة مع "كوتار" و"سكى". لقد رفض "موريل"، منذ قليل، دعوة للذهاب إلى منزل أصدقاء سبق أن وعدتهم بمشاركة عازف الكمان، لأن السيد "دو شارلوس" لا يستطيع الذهاب إلى هناك. كان يمكن لسبب رفض "موريل" العزف فى أمسية أصدقاء آل "فيردوران"، ذاك السبب الذى سنشهد بعد قليل أسباباً أخرى أشد خطراً تنضاف إليه، أن يستمد قوته من عادة تميز بعامة الأوساط العاطلة عن العمل، والنواة الصغيرة على وجه الخصوص. ولا جرم أن المعلمة، إن ضبطت السيدة "فيردوران" كلمة قيلت بصوت خفيض بين مدعو جديد وأحد الخلص ويمكن أن تحمل على افتراض أنهما إنما يعرف أحدهما الآخر، أو بهما رغبة فى التصادق ("إذاً إلى يوم الجمعة فى منزل آل كذا" أو: "تعال إلى المشغل فى أى يوم تبغيه، فإنى دائماً فيه حتى الساعة الخامسة، وسأغتبط حقاً بذلك")، لا جرم أنها، فى اضطرابها وافتراضها "مقاماً" للوافد الجديد يمكن أن يجعل منه منتسباً جديداً لامعاً بالنسبة إلى العشيرة الصغيرة، وفيما تتظاهر بأنها لم تسمع شيئاً وتحتفظ لنظرتها الجميلة، التى حوطها بالزرقة تعود "دوبوسى" أكثر مما كان فعل تعود الكوكايين، بالمسحة المضناة التى تكسبها إياها نشوات الموسيقا وحدها، كانت تتنازعها مع ذلك، خلف جبينها الجميل المحدب جراء الرباعيات الكثيرة وآلام الشقيقة المتعاقبة، أفكار لم تكن من قبيل تعدد الأصوات حصراً؛ فكانت، وقد عيل صبرها ولا تطيق من بعد انتظار حنتها ثانية واحدة، ترتمى على المتحاورين وتتنحى بهما جانباً وتقول للوافد الجديد وهى تشير إلى المخلص: "ألا تود المجىء لتناول العشاء بمعيته، يوم السبت مثلاً، أو فى اليوم الذى تريده، بصحبة أناس لطفاء؟ لا تتحدث فى ذلك بصوت عال لأننى لن أدعو كل هؤلاء الرعاع (واللفظة تعنى على مدى خمس دقائق النواة الصغيرة المزدراة مؤقتاً تجاه الجديد الذى تعقد عليه آمالاً عريضة).

لكنما كان لحاجة التولع تلك، كما للقيام بعمليات التقريب، مقابلها. فقد كانت المثابرة على أيام الأربعاء تبعث فى نفوس آل "فيردوران" ميلاً مضاداً. إن هو إلا الرغبة فى إفساد العلاقات والإبعاد. وكانت قد تعززت وجنت حنقاً تقريباً جراء الشهور التى قضوها فى "لاراسبلير" حيث يلتقى الناس من الصبح حتى المساء. فكان السيد "فيردوران" يتفنن فى ضبط الناس متلبسين، وفى مد نسج يمكنه أن ينقل بها إلى رفيقته العنكبوت ذبابة بريئة. وفى غياب التهم تستنبط السخريات. فما إن يكون أحد الخلص خرج نصف ساعة حتى يسخر منه أمام الآخرين ويتظاهرون بالدهشة أن لا يكونوا لاحظوا كم كانت أسنانه وسخة على الدوام، أو هو يفرشها على العكس عشرين مرة فى اليوم لهوس به. وإن أذن أحد لنفسه أن يفتح النافذة فقد كان التربية هذا يدفع المعلم والمعلمة إلى تبادل نظرة ناقمة. وبعد لحظة تطلب السيدة "فيردوران" شالاً، وهو ما يوفر للسيد "فيردوران" الحجة كى يقول بلهجة حانقة: "لا، لا، سأغلق النافذة، وأتساءل من ذا سمح لنفسه بفتحها"، أمام المذنب الذى تكسوه الحمرة حتى أذنيه. كانوا يعيبون عليك بصورة غير مباشرة كمية الخمرة التى شربتها. "أليس يضرك ذلك؟ إنه يصلح لأحد العمال." وكان ينجم عن النزهات المشتركة لاثنين من الخلص لم يلتمسا

سلفاً إذن المعلمة تعليقات لا تنتهى مهما كانت تلك النزهات بريئة. وما كانت نزهات السيد "دو شارلوس" فرفقة "موريل" كذلك. وحدها لا سكنى البارون فى "لاراسبليير" (بسبب حياة "موريل" فى الثكنة) أخرت فترة الامتلاء والقرف والتقيؤ، ولكنها كانت جاهزة للقدوم.

لقد كانت حانقة ومصممة على "تنوير" "موريل" حول الدور المثير للسخرية والمقيت الذى يدفعه السيد "دو شارلوس" إلى النهوض به. وأردفت السيدة "فيردوران" (التى كانت على أية حال حتى حينما تحس أنها تدين لأحدهم بمنة سوف تثقل عليها ولا تستطيع أن تقتله، كانت تبحث له، مقابل المشقة، عن نقيصة خطيرة تغنى بكل أمانة عن أن تقر له بها)، أردفت تقول: "أضيف إلى ذلك أنه يتخذ فى منزلى مظاهر متكلفة لا تروقنى." ذلك أن السيدة "فيردوران" كان لديها بالتأكيد سبب آخر أكثر خطورة من تخلى "موريل" عن أمسية أصدقائها لتحقد على السيد "دو شارلوس". فإن هذا الأخير كان قد أعلن، وهو مقتنع تماماً بالشرف الذى يوليه المعلمة باستقدام أناس إلى "رصيف كونتى" ما كانوا بالفعل قدموا إلى هناك من أجلها، أعلن، منذ أول أسماء اقترحتها السيدة "فيردوران" على أنها لأشخاص يمكن دعوتهم، استبعاداً جازماً كأكثر ما يكون وبلهجة قاطعة يمتزج فيها الحقد المستكبر الذى يعتمل فى صدر السيد العظيم الغريب الأطوار بدغماتية الفنان الخبير فى أمور الحفلات والذى ربما سحب مسرحيته ورفض مشاركته على أن ينجر إلى تنازلات تهدد حسبما يرى النتيجة الإجمالية. ولم يمنح السيد "دو شارلوس" موافقته، وقد أحاطها بتحفظات، إلا لـ "سانتين" الذى كانت السيدة "غيرمانت" قد انتقلت تجاهه، كى لا تربك نفسها بزوجته، من الألفة اليومية إلى إقلاع تام عن الصلات، ولكن السيد "دو شارلوس" كان يلتقيه دائماً إذ يراه ذكياً. أجل، إنما مضى "سانتين"، وهو بالأمس صفوة وسط آل "غيرمانت"، يبحث عن الثروة وعن سند له فيما يعتقد فى وسط بورجوازى مخلط بطبقة من صغار النبلاء فحسب حيث الجميع على ثراء عظيم وينتمى إلى ارستقراطية لا تعرفها الارستقراطية الكبيرة. لكن السيدة "فيردوران" ظنت، وهى تعرف الطموحات الأشرافية فى محيط المرأة ولا تتبين موقع الزوج، فإن ما كان مباشرة فوقنا تقريباً هو الذى يولينا الإحساس بالعلو لا ما كان تقريباً خافياً على أبصارنا لشدة ما يذهب بعيداً فى السماء، ظنت من واجبها تبرير دعوة "سانتين" بإبرازها أنه يعرف الكثير من الناس "لزواجه من الآنسة ***". وقد جعل الجهل الذى ينم عنه هذا التوكيد، وهو مناقض تماماً للواقع، لدى السيدة "فيردوران"، جعل شفتى البارون المصبوغتين تفتران عن ضحكة جبلت من ازدراء متسامح وسعة فهم. وأنف أن يجيب مباشرة، ولكنه قال، إذ كان يبنى بيسر على صعيد المجتمعات الراقية نظريات يلتقى فيها خصب ذكائه وارتفاع كبريائه بعبث مشاغله الموروث: "كان على "سانتين" أن يستشيرنى قبل الإقدام على الزواج، فثمة تحسين نسل اجتماعى مثلما هناك تحسين نسل فيزيولوجى وربما كنت طبيبه الوحيد، إن حالة "سانتين" ما كانت تثير أى نقاش، فقد كان واضحاً أنه بما أقدم عليه من زواج كان يتحزم بوزن نعطل ويجعل مصباحه تحت المكيال. لقد قضى على حياته الاجتماعية. ولعلنى كنت أوضحت له الأمر وكان فهمنى إذ هو ذكى. كان ثمة على عكس ذلك شخص يتمتع بكل ما ينبغى ليحصل على مكانة رفيعة غالبة عالمية، لكن حبلاً رهيباً يغله إلى الأرض. وقد وفرت له عوناً نصفه بالضغط

والنصف بالقوة لكسر أغلاله والآن فزت، تغمرني نشوة المنتصرين، بالحرية والاقتدار الكلي الذي يدين لي به. ربما انبغى له شيء من العزيمة، ولكن يا لها مكافأة حصل عليها! وهكذا يصبح المرء ذاته خالق قدره حين يعرف كيف يصغي إليّ." كان أكثر من بدهي أن السيد "دو شارلوس" لم يحسن التأثير على قدره، فالفعل أمر يغاير الكلام وإن جاء فصيحاً، والتفكير وإن كان مبتكراً. "لكني فيما يخصني فيلسوف يشهد بفضول الارتكاسات الاجتماعية التي تنبأ بها، غير أني لا أساعد فيها، لذلك واليت التردد على "سانتين" الذي أحاطني دوماً بالاحترام الودود اللائق؛ بل تناولت العشاء عنده في مسكنه الجديد حيث ترهق وسط أرفع أصناف البذخ بقدر ما كنت تجد سلوى فيما مضى حينما كان يجمع أفضل الجلساء في هري صغير فيما هو في أتعس حال. بإمكانكم دعوته إذن، إني أصرح بذلك. لكني اعترض على سائر الأسماء الأخرى التي تعرضونها عليّ. وسوف تشكرونني على ذلك، فإني إن كنت خبيراً في أمور الزواج فلست أقل خبرة في أمر الحفلات. إني عليم بالشخصيات النافذة التي ترفع من شأن اجتماع وتكسبه انطلاقاً وعلواً، مثلما أعلم الاسم الذي يعيدك أرضاً ويقود إلى فشل أكيد." ولم تكن صنوف الاستبعاد هذه من جانب السيد "دو شارلوس"، لم تكن قائمة على الدوام على ضغائن مختل أو تنميقات فنان، بل على مهارات ممثل. فحينما كان يقول في أحدهم، في أي شيء، مقطعاً ناجحاً بالتمام كان يرغب في إسماعه أكبر عدد ممكن من الناس، ولكنما يتحاشى أن يقبل في الدفعة الثانية مدعوين من الأولى ربما أمكنهم ملاحظة أن المقطوعة لم تتبدل. كان يعيد تكوين قاعته لأنه بالضبط لم يكن يجدد في عناوين مسرحه، ولعله كان نظم لدى الضرورة، يوم يصيب نجاحاً في الحديث، جولات في مقاطعات الريف وأقام عروضاً تمثيلية. ومهما يكن من أمر الدوافع المتنوعة لتلك، الاستبعادات،فإن استبعادات السيد "دو شارلوس" لم تكن تقتصر على إغاظة السيدة "فيردوران" التي تحس بانتقاص سلطتها كمعلمة بل كانت تلحق بها ضرراً عظيماً في دنيا المجتمعات وذلك لسببين اثنين. أولهما أن السيد "دو شارلوس"، وهو بعد أشد نزقاً من "جوبيان"، كان يختصم، دون أن يعلم أحد حتى السبب، مع الأشخاص الأفضل استعداداً ليكونوا في عداد أصدقائه. وطبيعي أن من أولى العقوبات التي يمكن أن تفرض عليهم أن يحال دون دعوتهم إلى حفلة يقيمها لدى آل "فيردوران". وغالباً ما كان هؤلاء المنبوذون أناساً يحتلون الصدارة ولكنهم في نظر السيد "دو شارلوس" توقفوا عن احتلالها منذ اليوم الذي اختصم فيه وإياهم. ذلك أن خياله كان بارعاً بذات المقدار في افتراض أخطاء للناس بغية الاختصام وإياهم وفي سلبهم أية أهمية حالما يكفون عن كونهم أصدقاءه. فإن كان المذنب مثلاً رجلاً من عائلة عريقة جداً ولكن دوقيتها لا تعود إلا إلى القرن التاسع عشر، كأسرة "مونتسكيو" على سبيل المثال، كان ما يحسب حسابه في نظر السيد "دو شارلوس" يضحى بين ليلة وضحاها عراقة الدوقية، أما الأسرة فما كانت شيئاً. وكان يصرخ قائلاً: "ليسوا حتى من الدوقة، فإن لقب الأب "دو مونتسكيو" هو الذي انتقل دون وجه حق إلى أحد ذويه منذ ما لا يبلغ حتى ثمانين عاماً. والدوق الحالي، إن ثبتت الدوقية، هو الثالث. ولكن هيا حدثني عن أناس من أمثال آل "أوزيس" وآل "لاتريموای" وآل "لوين"، وهم العاشر والرابع عشر في تسلسل الدوقية مثلما شقيقي هو دوق "غيرمانت" الثاني عشر وأمير "كوندوم" السابع عشر.

ينحدر آل "مونتسكيو" من أسرة قديمة، فما الذى يثبته ذلك، حتى إن كان ذلك مثبتاً؟ إنهم ينحدرون وينحدرون إلى حد أضحوا معه فى الطبقة الدنيا الرابعة عشرة." فإن كان، بعكس ذلك، على خصام مع واحد من النبلاء يملك دوقية قديمة يرتبط بألمع المصاهرات وينتمى إلى الأسرة المالكة ولكنما وافاه ذاك الألق العظيم بسرعة كبيرة جداً دون أن تكون الأسرة بعيدة الجذور فى الزمان، كواحد من آل "لوين" على سبيل المثال، تبدل كل شىء والأسرة وحدها تؤخذ فى الحسبان. "دعنى أسأل أنا، هذا السيد "ألبيرتى" الذى لا تزهو ثيابه إلا فى عهد لويس الثالث عشر، ما الذى يمكن أن يهمنا أن تكون بعض الخطوات فى البلاط قد مكنتهم من تكديس دوقيات ما كان لهم أى حق فيها؟" أضف أن السقوط لدى السيد "دو شارلوس" كان يعقب الحظوة على الأثر بسبب هذا الميل الذى يميز آل "غيرمانت" إلى مطالبة المحادثة، إلى مطالبة الصداقة بما لا يسعها أن تقدمه، إلى جانب خشية ذات دلالات من أن يكونوا موضع اغتياب. وكان السقوط يزداد عمقاً بقدر ما كانت الحظوة أعظم حجماً. والحقيقة أنه لم ينعم أحد لدى البارون بحظوة شبيهة بتلك التى خص بها علانية الكونتيسة "موليه". فبأى دليل لامبالاة أبرزت ذات يوم أنها لم تكن أهلاً لها؟ لقد صرحت الكونتيسة نفسها على الدوام أنها لم تفلح يوماً فى الكشف عنه، وأياً كان الأمر فإن مجرد اسمها كان يثير لدى البارون أعنف صنوف الغضب وأكثر الخطب بلاغة، بل أكثرها عنفاً. أما السيدة "فيردوران" التى سبق أن كانت السيدة "موليه" لطيفة جداً إزاءها والتى كانت تعقد، كما سوف نرى، آمالاً كبيرة عليها فقد اغتبطت سلفاً بفكرة أن الكونتيسة سوف تلتقى فى منزلها الأناس الأكرم محتداً "فى فرنسه وبلاد نافار"، كما كانت المعلمة تقول، فعرضت حالاً دعوة "السيدة دو موليه". فكان أن أجاب السيد "دو شارلوس" قائلاً: "آه! يا إلهى، الأذواق جميعها فى الطبيعة وإن كنت تميلين يا سيدتى إلى محادثة السيدة "بيبليه" والسيدة "جيبو" والسيدة "جوزيف برودوم" فلست أرى ما كان أفضل، ولكن ليكن ذلك ذات مساء لا أكون فيه هنا. فإنى أرى منذ كلماتنا الأولى أننا لا نتكلم اللغة نفسها، فقد كنت أتكلم عن أسماء من الطبقة الارستقراطية وتذكرين لى أحد الأسماء الأقل شهرة فى سلك القضاء ومن صغار العامة المكارين النمامين المسيئين ومن سيدات هينات يخلن أنهن من حماة الفنون الفنون لأنهن يستعدن فى مقام أدنى تصرفات زوجة شقيقى "الغيرمانتية" على غرار "أبى زريق" الذى يظن أنه يقلد الطاووس. وأضيف أنه قد يكون ثمة ضرب من الفجور أن ندخل فى حفلة شئت راضياً إقامتها فى منزل السيدة "فيردوران" امرأة أسقطتها عن علم ودراية من نطاق ألافى، بلهاء ينقصها كرم المحتد والأمانة والظرف وتجن فتعتقد أنها قادرة على التشبه بأمثال دوقية "غيرمانت" وأميرة "غيرمانت"، والجمع بينهما حماقة فى حد ذاتها بما أن الدوقة "دو غيرمانت" والأميرة "دو غيرمانت" هما بالضبط على طرفى نقيض. فأمرها أمر امرأة تنوى أن تكون "رايشنبيرغ" و"سارة بيرنار"(١) فى آن معاً. وفى كل الأحوال، وحتى إن لم يكن الأمر متناقضاً فسوف يكون مثار سخرية كبيرة. فأن يكون بوسعى أنا أن ابتسم أحياناً لمبالغات هذه وأغتم لمحدودية تلك فذلك حق لى. أما هذه الضفدعة البورجوازية

---

(١) ممثلتان شهيرتان من أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين مختلفتان أدوارا وأسلوبا.

الصغيرة التى تبغى الانتفاخ لتساوى تينك السيدتين العظيمتين اللتين تفسحان المجال دوماً على أية حال لبروز أناقة العرق التى لا تضاهى، فذلك ما يضحك الحجر كما يقولون. "مدام موليه"! ذلك اسم ينبغى أن لا ينطق به من بعد، أو لا مجال لى إلا بالانسحاب"، يضيف قوله بابتسامة وبلهجة طبيب يبغى الخير لمريضه على الرغم من هذا المريض نفسه وهو عازم أن لا يسمح بأن تفرض عليه مساعدة طبيب تجانسى. ثم إن بعض الأشخاص الذين حكم السيد "دو شارلوس" أنهم لا أهمية لهم كان يمكن بالفعل أن يكونوا كذلك فى نظره، لا فى نظر السيدة "فيردوران". كان بوسع السيد "دو شارلوس" أن يكون، من عالى كرم محتده، فى غنى عن القوم الأكثر أناقة الذين لعل تجمعهم كان جعل من صالون السيدة "فيردوران" واحداً من أوائل صالونات باريس. على أن هذه شرعت تجد أن القطار فاتها مرات كثيرة، هذا إن تركنا جانباً التأخر الكبير الذى أصابها جراء الخطأ المجتمعى الناجم عن مسألة "دريفوس"، مع أنها أدت لها خدمات أيضاً. وربما أمكننى أن أسأل القارئ كما نفعل بصديق لا نتذكر من بعد، فى أعقاب هذا العدد من الأحاديث، إن نحن فكرنا أو توافرت لنا فرصة إطلاعه على أمر ما: "لست أعلم إن كنت قلت لك إلى أى حد من الانزعاج شاهدت الدوقة "دو غيرمانت" جماعة من عالمها يقصون، وقد أخضعوا كل شىء للقضية، نساء أنيقات ويستقبلون من كن غير ذلك بداعى المطالبة بإعادة المحاكمة أو مناهضة المطالبة بالإعادة، فيما انتقدت هى بدورها من جانب أولئك السيدات أنفسهن على أنها فاترة غير سديدة الرأى وتخضع مصالح الوطن للمراسم الاجتماعية. وسواء فعلت ذلك أم لا فإن موقف الدوقة "دو غيرمانت" فى ذلك الحين يمكن تصوره بسهولة، بل يمكن أن يبدو، إن رجعنا فيما بعد إلى فترة لاحقة، صحيحاً تماماً من وجهة نظر المجتمع الراقى. فقد كان السيد "دو كامبرمير" يعتبر أن قضية "دريفوس" آلة أجنبية مهمتها تقويض دائرة الاستخبارات وتحطيم النظام وإضعاف الجيش وإشاعة الفرقة بين الفرنسيين والإعداد للغزو. ولما كان الأدب، باستثناء بعض أمثال لـ "لافونتين"، غريباً على المركيز فقد كان يدع لزوجته أن تثبت أن الأدب المنصرف بقسوة إلى الملاحظة قد قام، بإنشائه اللااحترام، بانقلاب مواز. كانت تقول: "السيد "ريناك" والسيد "إيرفيو"(١) ضالعان فى العمل نفسه". لن نتهم قضية "دريفوس" بأنها خططت لمقاصد بمثل هذا السواد ضد المجتمع الراقى؛ لكنها ههنا حطمت الأطر بالتأكيد. إن رجال المجتمع الذين لا يريدون أن يدعوا للسياسة أن تلج المجتمع الراقى يبدون ما يبدى من تبصر العسكريون الذين لا يريدون أن يسمحوا للسياسة بولوج الجيش. وأمر المجتمع الراقى كأمر الميل الجنسى حيث لا تعلم إلى أية صنوف من الفساد يمكن أن تصل حينما تركت مرة أسباباً جمالية تملى عليك خياراتك. لقد اكتسب حى "سان جيرمان" عادة استقبال سيدات من مجتمع آخر لسبب أنهن كنا قوميات النزعة، وزال السبب بزوال النزعة القومية وظلت العادة. كانت السيدة "فيردوران" قد أفادت من الحركة المناصرة لـ "دريفوس" فاجتذبت إليها كتاباً قيمين لم يوفروا لها مؤقتاً أى خدمة اجتماعية لكونهم من مناصرى "دريفوس". لكن الأهواء السياسية كغيرها، إنها لا تدوم. فإن أجيالاً

---

(١) Reinach و Hervieu: الأول من مناصرى "دريفوس" والآخر من مناهضيه.

جديدة تجيء ممن لا يفهمونها من بعد. حتى الجيل الذى خبرها يتغير وتعتمل فى صدره أهواء سياسية ترد، بما هى لم تنسخ بالضبط عن سابقتها، الاعتبار لقسم من المستبعدين إذ تغير سبب الاستبعاد. ولم يعد الملكيون يهتمون أثناء قضية "دريفوس" أن كان أحدهم جمهورياً، بل راديكالياً، بل مناهضاً لرجال الدين إن كان معادياً للسامية وقومى النزعة. وإن اتفق أن تقوم حرب فى يوم، اتخذت الوطنية شكلاً آخر وما عدت حتى تهتم، بشأن كاتب متطرف فى وطنيته، إن كان من أنصار "دريفوس" أم لا. وهكذا كانت السيدة "فيردوران" قد انتزعت، لدى كل أزمة سياسية وكل تجديد فنى، انتزعت شيئاً فشيئاً، مثلما يبنى العصفور عشه، النتف المتعاقبة، وهى غير قابلة للاستعمال مؤقتاً، لما سيضحى ذات يوم صالتها. لقد ذهبت قضية "دريفوس"، أما "أناتول فرانس" فقد بقى. وقوة السيدة "فيردوران" إنما كان قوامها الحب الصادق الذى تكنه للفن والمشقة التى تتكبدها فى سبيل الخلص والأعشية الرائعة التى كانت تقيمها من أجلهم وحدهم دون أن يكون ثمة مدعوون من جماعة المجتمع الراقى. لقد عومل كل منهم كما سبق أن عومل "بيرغوت" فى منزل السيدة "سوان". وحينما يصبح واحد من الآلاف من هذا القبيل، حينما يصبح ذات يوم شهيراً ويرغب المجتمع الراقى فى المجىء للقائه فإن وجوده لدى السيدة "فيردوران" لا يتسم بشىء من هذا الجانب المصطنع المذق الذى من قبيل أطباق المآدب الرسمية أو احتفال "شارلمانيى" التى تعدها "بوتيل" أو "شابو"، بل من الأطباق المألوفة اللذيذة التى ربما كنا ألفناها بمثل كمالها فى يوم لا يكون فيه جماعة من المجتمع الراقى. لقد كانت الفرقة لدى السيدة "فيردوران" ممتازة مدربة ومجموعتها المسرحية من الطراز الأول ولا ينقصها سوى الجمهور. ومنذ أن شرع ذوقه ينصرف عن الفن العقلانى الفرنسى لأمثال "بيرغوت" ويعشق على وجه الخصوص صنوفاً من الموسيقا الغريبة فإن السيدة "فيردوران"، وهى نوع من المراسل المعتمد فى باريس لسائر الفنانين الأجانب، تزمع أن تقوم بعد قليل، إلى جانب الأميرة الرائعة "يوربلتيييف"، مقام الجنية العجوز "كارابوس"، لكنها كلية الاقتدار، بالنسبة إلى الراقصين الروس. وقد حمل هذا الاجتياح الساحر الذى لم يحتج على إغراءاته سوى النقاد الذين يعوزهم الذوق، حمل معه إلى باريس، كما نعلم، حمى من الفضول أقل عنفاً وأقرب إلى الجمالية المحضة ولكنها ربما كانت تساوى فى الحماسة قضية "دريفوس". هنا أيضاً سوف تشغل السيدة "فيردوران" المقام الأول، إنما من جراء نتيجة مجتمعية مختلفة تماماً. فمثلما سبق أن رأوها إلى جانب السيدة "زولا" أمام قوس المحكمة فى جلسات محكمة الجنايات، كانوا، حينما تزاحمت البشرية الجديدة فى الأوبرا هاتفة للباليهات الروسية وقد تزينت بقنزعات مجهولة، كانوا يرون دوماً السيدة "فيردوران" إلى جانب الأميرة "يوربلتيييف" فى إحدى المقصورات الأولى. ومثلما راحوا فى المساء، فى أعقاب انفعالات قصر العدل، إلى منزل السيدة "فيردوران" ليشاهدوا عن كثب "بيكار" أو "لابورى"[1] وليستطلعوا على وجه الخصوص آخر الأنباء ويعلموا ما يمكن أن يأملوه من "زورليندن" و"لوبيه" ،اللواء "جوو" والنظام، كذلك كانوا يمضون، إذ هم غير مستعدين أن يبادروا إلى النوم فى أعقاب الحماسة التى

---

(١) العميد Picquort شهد فى صالح "دريفوس"، أما "Labori" فكان محامى الدفاع عن "دريفوس" و"إميل زولا".

آثارتها في النفوس "شهرزاد"(١) أو "رقصات الأمير إيغور"(٢)، يمضون إلى منزل السيدة "فيردوران" حيث تجمع في كل مساء، أعشية لذيذة تترأسها الأميرة "يوربلتييف" والمعلمة الراقصين الذين لم يتناولوا عشاءهم ليكونوا أكثر رشاقة ومديرهم والمشرفين على الديكورات والمؤلفين الكبيرين "إيغور سترافنسكي" و"ريشار شتراوس"، وهي نواة صغيرة لا تتبدل ولم يأنف من الاختلاط بها، كما كانت الحال في أعشية السيد والسيدة "هلفيسيوس"، كبريات سيدات باريس وأصحاب سمو أجانب. حتى من كانوا من بين الناس يفاخرون بأنهم أصحاب ذوق ويقيمون بين الباليهات الروسية ضروباً من الاختلاف لا طائل تحتها فيجدون أن إخراج "جنيات الهواء"(٣) شيء أكثر رقة من إخراج "شهرزاد"، وما كان يستبعد أن يردوه إلى الفن الزنجي، كانوا يغتبطون لرؤيتهم عن كثب هؤلاء المجددين العظام في الذوق والمسرح الذين قاموا في نطاق فن ربما كان أكثر اصطناعاً من الرسم الزيتي بثورة بمثل عمق الانطباعية.

نعود إلى السيد "دو شارلوس" لنقول إن السيدة "فيردوران" ما كانت عانت فوق ما تطيق لو أنه لم يلق الحرم إلا على السيدة "بونتان" التي لفتت انتباه السيدة "فيردوران" في منزل "أوديت" بسبب حبها للفنون والتي سبق لها، في أثناء قضية "دريفوس"، أن جاءت أحياناً لتناول العشاء برفقة زوجها الذي كانت السيدة "فيردوران" تدعوه بالفاتر لأنه لم يكن يطلب استئناف النظر في الدعوى ولكنه كان، وهو شديد الذكاء ويسعده أن ينشئ لنفسه صلات خفية بسائر الأحزاب، كان يغبطه أن يبرز استقلاليته بتناول العشاء مع "لابوري" الذي كان يصغي إليه دون أن يقول أي شيء محرج ولكنه يهمس في المكان المناسب بتحية إكبار لإخلاص "جوريس" الذي تقر به سائر الأحزاب. لكن البارون كان قد أقصى كذلك بعض سيدات من الارستقراطية كانت السيدة "فيردوران" قد ارتبطت معهن مؤخراً بعلاقات بمناسبة احتفالات موسيقية وعرض مجموعات وحفلات خيرية، ولعله كان من الممكن أن يصبحن، ومهما أمكن السيد "دو شارلوس" أن يعتقد بشأنهن، عناصر أساسية ليشكلن لدى السيدة "فيردوران" نواة جديدة، هي هذه المرة ارستقراطية. وكانت السيدة "فيردوران" قد اعتمدت بالضبط على هذه الحفلة التي سيأتيها فيها السيد "دو شارلوس" بسيدات من العالم نفسه لتضم إليهن صديقاتها الجديدات ونعمت سلفاً بالدهشة التي ستصيبهن جراء التقائهن في محلة رصيف "كونتي" صديقاتهن أو قريباتهن اللواتي دعاهن البارون. لقد كانت مخيبة الأمل حانقة للخطر الصادر عنه. بقي أن نعلم إن كانت الأمسية ستؤول في هذه الظروف إلى ربح أو إلى خسارة فيما يخصها. والخسارة هذه قد لا تكون مفرطة الخطورة إن أقبلت مدعوات السيد "دو شارلوس" على الأقل يحملن للسيدة "فيردوران" مشاعر كثيرة الود حتى ليضحين بالنسبة إليها صديقات المستقبل. ولن يكون ثمة في هذه الحال سوى نصف ضرر، وفي يوم قريب سوف يجمع نصفا علية القوم اللذان أراد البارون

---

(١) من أعمال "ريمسكي كورساكوف".

(٢) أوبرا من أعمال "بورودين".

(٣) باليه من إعداد "سترافنسكي".

أن يفصل بينهما، على أن لا يكون هو فى عداد الحاضرين فى ذلك المساء. كانت السيدة"فيردوران" إذن تنتظر مدعوات البارون بشىء من الانفعال. وما كان سيطول به الوقت لتعرف الذهنية التى يجئن بها والعلاقات التى يمكن أن تأمل المعلمة إقامتها معهن. وبانتظار ذلك كانت السيدة "فيردوران" تتشاور والخلص لديها، لكنها توقفت تماماً إذ أبصرت "شارلوس" يدخل برفقة "بريشو" ورفقتى.

وحينما آفصح لها "بريشو" عن أساه لعلمه بأن صديقتها الحميمة كانت سيئة الحال إلى هذا الحد، أجابت السيدة "فيردوران"، وكانت دهشتنا بذلك كبيرة: "اسمع، أرانى مضطرة أن أقر بأنى لا يداخلنى حزن البتة، فليس يجدى التظاهر بمشاعر لا تحس بها..." لا شك أنها كانت تقول ما تقول لفقدان الهمة لديها لأنها إنما كانت ترهقها فكرة أن تصطنع لذاتها وجهاً حزيناً طوال فترة استقبالها، واستكباراً كى لا يبدو أنها تبحث عن أعذار لأنها لم تلغه، واستحياء مع ذلك ولفتة بارعة لأن غياب الحزن الذى تبديه أحفظ للكرامة، إن انبغى أن ترده إلى نفور خاص من الأميرة برز فجأة،مما لو عزته إلى فقد شامل للإحساس، ولأنه لا يمكن للمرء أن يستسلم جراء صراحة لا سبيل إلى وضعها موضع شك: أفلعل السيدة "فيردوران"، لو لم تكن حقاً غير مبالية بموت الأميرة، ألعلها كانت راحت، بغية تفسير أن تكون أقامت استقبالاً، تتهم نفسها بذنب أكثر أكثر خطورة؟ لقد كنا ننسى بذلك أن السيدة "فيردوران" ربما كانت أقرت، إلى جانب حزنها، أن الشجاعة لم تحالفها فى التخلى عن إحدى المتع؛ على أن قسوة الصديقة أمر أشد حرجاً للمشاعر وأكثر لا أخلاقية، ولكنه أقل إذلالاً وبالتالى أيسر إقراراً من طيش سيدة البيت. وإنما المصلحة، على صعيد الجريمة وحيثما يكمن الخطر بالنسبة إلى المتهم، هى التى تملى الاعترافات. أما بالنسبة إلى الذنوب التى لا عقاب عليها فالكبرياء. بيد أن السيدة "فيردوران"، إما أن تكون وجدت دون شك على ابتذال شديد حجة الناس الذين يروحون، بغية أن لا يدعوا للأتراح أن توقف حياة الملذات لديهم، يرددون أن ليس يجديهم نفعاً، فيما يبدو، أن يبرزوا على الملأ حداداً يحملونه فى الفؤاد ففضلت تقليد هؤلاء الجناة الأذكياء الذين ينفرون من مكرورات البراءة ويقوم دفاعهم - وهو نصف إقرار دون أن يرتابوا للأمر - على الجهر بأنهم ما كانوا ليجدوا أى سوء فى اقتراف ما يتهمون به وما لم يؤتوا، بالمصادفة على أية حال، فرصة القيام به، وإما أنها وجدت، بعدما تبنت مقولة اللامبالاة سبيلاً لتفسير سلوكها وهوت على منحدر شعورها الشرير، أن ثمة شيئاً من الفرادة فى الإحساس به ونفاذ بصيرة نادراً فى الإفلاح فى تبينه وبعض الجسارة فى الجهر به على هذا النحو، السيدة "فيردوران" هذه حرصت على الإلحاح على غياب الحزن لديها، ولا تفعل دون شىء من الرضى المستكبر يحس به عالم نفس مفارق الرأى ومسرحى جسور. "أجل، تقول، هذا غريب جداً، لم أحس بشىء تقريباً. يا الله، لا أستطيع أن أقول إنى ما كنت فضلت أن تعيش، فما كانت امرأة سيئة." وقاطعها السيد "فيردوران" قائلاً: "بلى." - "آه! إنه لا يحبها فقد كان يجد أن استقبالها يلحق بى الأذى، وإنما ذلك يعميه." وقال السيد "فيردوران": "هيا انصفينى بأنى لم أقر فى يوم هذه العشرة. قلت لك دوماً إنها سيئة السمعة." واحتج "سانييت" قائلاً: "ولكنى لم أسمع البتة من يقول ذلك". فصاحت السيدة "فيردوران" قائلة: "كيف ذلك؟ كان الأمر معروفاً على أوسع نطاق، لم تكن سيئة، لكنما مخجلة، معيبة. لا، ليس بسبب ذلك. قد لا أفلح شخصياً فى

تفسير شعورى. ما كنت أمقتها، لكنها كانت لا تعنى لى شيئاً إلى حد أن زوجى نفسه، حينما علمنا أنها فى أسوأ حال، أخذته الدهشة وقال لى: "لكأنما الأمر لا يعنيك فى شىء". ولكن اسمع، لقد سبق أن عرض علىّ فى هذا المساء إلغاء الحفلة التجريبية وحرصت على العكس على إقامتها فقد كنت ألفيتها مهزلة أن أبدى حزناً لا أكابده." كانت تقول ذلك لأنها تراه من نوع "المسرح الحر" إلى حد غريب، وأنه ميسر إلى حد بعيد، ذلك لأن فقدان الشعور أو غياب الأخلاق المعلن إنما يولى الحياة بساطة بقدر ما تفعل الأخلاق السهلة، وهو يجعل من الأعمال الذميمة، والتى لا حاجة من بعد إلى البحث عن عذر لها، صراحة واجبة. وكان الخلص يصغون إلى أقوال السيدة "فيردوران" بهذا الخليط من الإعجاب وعدم الارتياح الذى كانت تسببه فيما مضى بعض المسرحيات القاسية فى واقعيتها والمؤلمة فى مشاهداتها. وكان كثير منهم، فيما يعجب بأن تقوم المعلمة العزيزة بإكساب استقامتها واستقلاليتها شكلاً جديداً، يفكر فى موته، فيما يقول فى نفسه إن الأمر فى نهاية المطاف لن يكون مثله الآن، ويتساءل إن كانوا سيبكون يوم تقع الواقعة أم هم سيقيمون حفلة فى رصيف "كونتى". وقال السيد "دو شارلوس": "إنى مسرور جداً أن لم تلغ الأمسية، وذلك بسبب مدعوى"، دون أن يتبين أنه يسىء إلى السيدة "فيردوران" بالتحدث على هذه الصورة.

فى تلك الأثناء كانت قد لفتت انتباهى، شأن كل من اقترب فى ذاك المساء من السيدة "فيردوران"، رائحة مطهر أنفى غير مستحبة إلى حد ما. وإليك مرد ذلك. نعلم أن السيدة "فيردوران" لم تكن تعبر عن انفعالاتها الفنية فى يوم بطريقة روحية بل مادية كى تبدو أكثر حتمية وأشد عمقاً، فإن اتفق أن حدثوها عن موسيقا "فانتوى"، وهى المفضلة لديها، كانت تلبث غير مبالية وكأنما لا تتوقع منها أى انفعال. لكنها كانت تجيبك، فى أعقاب بضع دقائق من نظرة ثابتة تكاد تكون ساهية، تجيبك بلهجة واضحة واقعية تكاد تكون قليلة التأدب، كما لو كانت قالت لك: "سيان عندى أن تدخن، ولكنما ذلك بسبب السجادة فهى جميلة جداً، ولعل الأمر بعد لا يهمنى، ولكنها سريعة الاشتعال وخشيتى من النار عظيمة ولست أود إحراقكم جميعاً بسبب عقب سيكارة غير مطفأة تماماً ربما أسقطتموها أرضاً." والأمر واحد بخصوص "فانتوى"؛ فإن جرى الحديث عنه لم تجهر بأى إعجاب ولكنها كانت تعبر بعد لحظة، عن أسفها أن تعزف موسيقاه فى هذا المساء، بلهجة فاترة: "لست أكن ل "فانتوى" أى عداء، وهو حسبما أرى أعظم موسيقى فى هذا القرن، ولكنى لا أستطيع سماع هذه الآلات دون أن أكف عن البكاء لحظة (وما كانت تنطق كلمة "البكاء" بلهجة مأساوية ولعلها كانت نطقت بذات اللهجة الطبيعية كلمة "النوم"، بل ربما زعمت بعض ألسنة السوء أن هذا المصدر الأخير ربما كان أكثر صحة، ذلك أنه لم يكن بمقدور أحد على أى حال أن يجزم فى الأمر فقد كانت تستمع إلى تلك الموسيقا ورأسها بين يديها وكان يمكن أن تبدو بعض أصوات الشخير فى نهاية المطاف وكأنها زفرات). والبكاء لا يؤذينى، قدر ما يشاؤون، لكنما يورثنى ذلك رشوحات "الله مولاها"، ويؤدى بى إلى احتقان الغشاء المخاطى وأبدو بعد ثمان وأربعين ساعة وكأنى عجوز سكيرة ولابد لى كيما تعمل حبالى الصوتية من قضاء أيام أنشق نشوقاً. ثم إن أحد تلاميذ "كوتار" فى النهاية..." - "أوه! ولكنى بهذه المناسبة لم أقدم لك تعازىّ، فما أسرع ما غيبه الموت، ذاك

الأستاذ المسكين!" - "أجل، وما باليد حيلة، لقد مات، مثله مثل الناس جميعاً، وكان قتل كفايته من الناس كيما يجيء دوره فيوجه ضرباته إلى نفسه. كنت أقول لك إذن إن أحد تلامذته، وهو أستاذ رائع، كان قد عالجنى بهذا الشأن. وهو يجهر بمسلمة طريفة إلى حد ما: "الوقاية خير من العلاج". ويدهن أنفى قبلما تبدأ الموسيقا. والأمر حاسم. بوسعى أن أبكى بقدر ما لست أدرى من أمهات فقدن أولادهن، ولا رشح البتة. شيء من التهاب الملتحمة أحياناً، هذا كل شيء. فالنجاعة مطلقة. ولولا ذلك لما أمكننى مواصلة سماع موسيقا "فانتوى". فما كنت أقوم إلا بالانتقال من نزلة شعبية إلى أخرى."

ولم يعد بوسعى أن أمسك عن التحدث عن الآنسة "فانتوى". فسألت السيدة "فيردوران": "أليست ابنة المؤلف هنا، وكذلك إحدى صديقاتها؟" فقالت لى السيدة "فيردوران" مراوغة: "لا، لقد تسلمت فى الحال برقية؛ وهما اضطرتا إلى البقاء فى الريف." وداخلنى على مدى لحظة أمل أن ربما لم تطرح حتى البتة مسألة مجيئهما وأن السيدة "فيردوران" لم تعلن عن ممثلتى المؤلف إلا للتأثير تأثيراً إيجابياً على المؤدين والجمهور. "عجباً، هما إذن لم تجيئا حتى إلى حفلة العرض الأول منذ قليل؟"، يقول باستغراب كاذب البارون الذى أراد أن يبدو وكأنه لم يبصر "شارلى". وأقبل هذا يسلم علىّ. وسألته همساً فيما يخص اعتذار الآنسة "فانتوى". وبدا أنه قليل الاطلاع إلى حد بعيد. وأشرت إليه أن لا يتحدث بصوت عال ونبهته إلى أننا سوف نعيد الكلام فى ذلك. وانحنى وهو يعدنى بأنه سيكون فى غاية السعادة أن يكون بتصرفى التام. ولاحظت أنه أشد أدباً وأكثر احتراماً بما يجاوز الأمس كثيراً. وأثنيت عليه - هو الذى ربما استطاع أن يجلو شكوكى - أمام السيد "دو شارلوس" الذى أجابنى قائلاً: "ليس يفعل إلا ما يجدر به أن يفعل، وقد لا تكون به حاجة للعيش بصحبة أناس من خيرة الناس كيما يكتسب عادات سيئة." فأما الجيدة،حسبمايرى السيد "دو شارلوس"، فالعادات الفرنسية القديمة التى لا ظل فيها لجفاء بريطانى. من ذلك أن البارون، حينما كان "شارلى" يلقى عصا الترحال، عائداً من جولة قام بها فى الأقاليم أو البلاد الأجنبية، فى منزل البارون وهو بحلة السفر، كان يقبله دون كلفة، إن لم يكن هنالك عدد كبير من الناس، على الوجنتين ربما ليبعد إلى حد ما، بهذا القدر من الرقة المعلنة على الملأ، أية فكرة من إمكان أن تكون آثمة، وربما كى لا يحرم نفسه متعة، ولكن فوق ذلك دون شك من منطلق أدبى وللمحافظة على العادات القديمة فى فرنسه وبغية إيضاحها، وكما لعله كان احتج على طراز "مونيخ" أو الطراز الحديث بالاحتفاظ بكنبات قديمة لجدة جدته، فيضع قبالة البرودة البريطانية حنان أب حساس من القرن الثامن عشر لا يخفى فرحه فى لقاء ابن له. وأخيراً هل كان ثمة، فى هذا الحنان الأبوى، ظل من علاقة المحارم؟ والأرجح أن الطريقة التى تعود السيد "دو شارلوس" أن يشبع بها عيبه والتى سيردنا لاحقاً بعض الإيضاحات بشأنها لم تكن لتكفى حاجاته العاطفية التى لبثت شاغرة منذ وفاة زوجته؛ ومهما يكن من أمر فقد كان يتنازعه الآن، بعدما راودته مرات عدة فكرة زواج ثان، ميل مهووس إلى التبنى وخشى نفر من حوله أن ينصب على "شارلى". وليس ذلك بالأمر الغريب. فإن الشاذ الذى لم يستطع تغذية هواه إلا بأدبيات كتبت من أجل الرجال الميالين إلى النساء، والذى كان يفكر بالرجال

وهو يقرأ "ليالى" الشاعر "دو موسيه"، إنما يحس بالحاجة إلى أن يباشر كذلك سائر الوظائف الاجتماعية للرجل غير الشاذ، وأن ينفق على أحدهم على غرار عشيق للراقصات وعجوز من رواد الأوبرا، وكذلك أن يعقل وأن يتزوج أو يلازم رجلاً وأن يصبح والداً.

وانتحى بعيداً بصحبة "موريل" بحجة أن يوضح له ما سوف يجرى عزفه فيرى على وجه الخصوص عذوبة كبيرة، فيما يعرض عليه "شارلى" موسيقاه، أن ينشر هكذا على الملأ ألفتهما الخفية. وفى هذه الأثناء كنت مفتوناً؛ فعلى الرغم من أن العشيرة الصغيرة كانت تحوى القليل من الفتيات كانوا يدعون عدداً لا بأس به على سبيل التعويض فى أيام الأمسيات الكبيرة. كان ثمة عدة منهن ومن أكثرهن جمالاً ممن أعرفهن. وكن يبعثن إلىّ من بعيد بابتسامة مرحبة. فكانت الأجواء تزدان هكذا بين الحين والحين بابتسامة فتاة جميلة، وتلك هى الزينة المتعددة المبثوثة فى الأماسى والأيام على حد سواء. والمرء يتذكر جواً من الأجواء لأن فتيات ابتسمن فيه.

ولعل المرء من جانب آخر كان دهش أشد الدهشة لو أنه لاحظ الأقوال المختلسة التى تبادلها السيد "دو شارلوس" وعدة رجال ذوى شأن فى هذه الأمسية. كان هؤلاء الرجال دوقين وجنرالاً بارزاً وكاتباً كبيراً وطبيباً كبيراً ومحامياً كبيراً. وكانت الأقوال هى الآتية: "بالمناسبة، هل رأيت إن كان الخادم الخاص، لا، إنى أتحدث عن الصغير الذى يصعد فوق العربة.... ولدى ابنة عمك "الغيرمانتية" ألست تعرف أحداً؟" - "فى الوقت الحاضر،لا." - "هيا قل لى، كان ثمة أمام باب المدخل، باب العربات، شخص فتى أشقر ببنطال قصير، وقد بدا لى خفيف الظل تماماً. لقد استدعى لى عربتى بصورة لطيفة جداً، وكنت بطيبة خاطر أطلت فى الحديث." - "أجل، ولكنى أظنه عدائياً تماماً، ثم إنه يتصنع الأمور، وأنت من يحب أن تنجح الأمور من أول مرة ربما وافاك قرف من ذلك. على أى حال لا سبيل إلى ذلك، فقد جرب واحد من أصدقائى." - "ذلك مؤسف، فإنى وجدت صورته الجانبية ناعمة جداً والشعر رائعاً." - "حقاً، ترى ذلك حسناً إلى هذا الحد؟ عندى أنك لو رأيته أكثر قليلاً لعدت عن أوهامك. لا، فإنما كنت رأيت فى المقصف منذ شهرين فقط شيئاً رائعاً حقاً، رجلاً قوياً يبلغ المترين، له بشرة مثالية، ثم إنه مغرم بذلك. ولكنه رحل إلى بولونيا." - "آه! المكان بعيد بعض الشىء." - "من ذا يدرى؟ ربما عاد، فالناس تتلاقى دوماً فى الحياة." ليس من أمسية مجتمعية كبيرة، إن عرفنا، بغية أخذ مقطع منها، كيف نأخذه على عمق كاف، لا تكون شبيهة بتلك الأمسيات التى يدعو الأطباء مرضاهم إليها فتجرى على ألسنتهم أقوال تفيض رصانة ويسلكون أحسن السلوك وربما لا يبدون أنهم مجانين لو لم يهمسوا فى أذنك وهم يدلونك على رجل عجوز يمر بطريقه: "هذه جان دارك".

وقالت السيدة "فيردوران" لـ "بريشو": "أرى أنه ربما كان من واجبنا أن ننوره. ما أفعله ليس موجهاً ضد "شارلوس"، على العكس. إنه لطيف المعشر، فأما سمعته فأقول لك إنها من صنف لا يمكن أن يلحق بى الأذى! حتى أنا التى تكره المغازلات من أجل عشيرتنا الصغيرة. من أجل أعشية لنا قائمة على تداول الحديث، إذ يقول الرجال سخافات لامرأة فى زاوية بدلاً من الخوض

فى موضوعات مفيدة. فما كان علىّ أن أخشى مع "شارلوس" ما وقع مع "سوان" و"ايلستير" وكثيرين سواهم. كنت مطمئنة معه فقد كان يفد إلى أعشيتى ويمكن أن يكون ثمة نساء العالم كافة فتراك متيقناً أن الحديث العام لا تعكره المغازلات والتهامسات. "شارلوس" نسيج وحده، والمرء معه فى طمأنينة، لكأنما الأمر أمر كاهن. بيد أنه ينبغى أن لا يسمح لنفسه بالتحكم بالشبان الذين يأتون إلى هنا وإشاعة الاضطراب فى نواتنا الصغيرة وإلا أصبح الأمر أسوأ مما هو أمر رجل زير نساء." وكانت السيدة "فيردوران" صادقة إذ تعلن على هذا النحو تسامحها إزاء نزعة "شارلوس". كانت تحكم، شأنها فى ذلك شأن كل سلطة كنسية، أن مظاهر الضعف البشرى أقل خطراً مما يمكن أن يضعف مبدأ السلطة ويلحق الأذى باستقامة الإيمان ويغير قانون الإيمان القديم فى كنيستها الصغيرة. "وإلا كشرت عن أنيابى أنا. هو ذا سيد منع "شارلى". من المجىء إلى عرض تجريبى لأنه لم يكن مدعواً إليه. وسينال لذلك إنذاراً جدياً وأملى أن هذا سيكفيه وإلا فما عليه سوى "استلام" الباب. إنه وشرفى يحتجزه." واستعملت بالضبط ذات التعابير مثلما ربما كان فعل الجميع تقريباً، إذ ثمة تعابير قليلة الشيوع يجعلها هذا الموضوع الخاص وذلك الظرف المحدد تتدفق بالضرورة تقريباً فى ذاكرة المتحدث الذى يخيل إليه أنه يعبر بحرية عن فكره وليس يفعل سوى ترداد آلى للدرس العام، فأضافت تقول: "لست تستطيع رؤيته من بعد دون أن يجرجر خلفه هذا "العتعيت" الضخم وما يشبه الحارس الشخصى." وعرض السيد "فيردوران" أن يصطحب "شارلى" لحظة ليكلمه بحجة سؤاله أمراً ما. وخشيت السيدة "فيردوران" أن يضطرب فيما بعد ويسوء عزفه. "قد يكون من الأفضل إرجاء تنفيذ ذلك إلى ما بعد تنفيذ المقطوعات، بل ربما إلى مرة أخرى." فعبثاً تحرص السيدة "فيردوران" على الانفعال اللذيذ الذى ستحس به حينما تعلم أن زوجها آخذ فى تنوير "شارلى" فى غرفة مجاورة، إلا أنها كانت تخشى، إن طاش السهم، أن يغضب ويتخلى عن يوم الـ ١٦.

ما فضح أمر السيد "دو شارلوس" فى ذلك المساء كان سوء التربية - وما أكثره فى هذا العالم - لدى اللواتى سبق أن دعاهن واللواتى أخذن بالتوافد. وإذ جئن تدفعهن المودة للسيد "دو شارلوس" والفضول لدخولهن إلى مكان كهذا، كانت كل دوقة تمضى رأساً إلى البارون كما لو كان هو صاحب الاستقبال، وتقول لى وهى على خطوة بالضبط من عائلة "فيردوران" التى كانت تسمع كل ما يقال: "دلنى أين هى الخالة "فيردوران"، وهل تظن أن لابد من أن يجرى التعريف بى؟ آمل على الأقل أنها لن تطلب إدراج اسمى فى صحيفة الغد ففى ذلك ما قد يوقعنى فى خصام مع ذوى كافة. عجباً، أهى هذه المرأة ذات الشعر الأبيض؟ لكنها لا تبدو سيئة المسلك إلى هذا الحد." وكثيرات كن يقلن إذ يسمعن من يتحدث عن الآنسة "فانتوى"، وهى غائبة على أى حال: "آه! ابنة السوناتا؟ دلنى عليها". وإذ يلتقين صديقات لهن كثيرات، كن ينتحين جانباً ويترصدن، متوقدات فضولاً ساخراً، وفود الخلص وأكثر ما يجدن أن يدل بعضهن بعضاً بالاصبع على تصفيفة غريبة بعض الشىء لامرأة سوف تجعل منها بعد بضع سنوات الزى الشائع فى أعلى طبقات المجتمع، ويأسفن بإجمال القول أن لا يلفين هذا الصالون على قدر ما أملن من اختلاف عن الصالونات التى يعرفنها ويشعرن بخيبة أرباب

المجتمع الذين يرون، بعد أن ذهبوا إلى حانة "برويان"(١). وأملهم أن يقذفهم القوال بالشتائم، أنهم استقبلوا لدى دخولهم بتحية لائقة بدلاً من اللازمة المنتظرة: "هيا انظروا إلى هذا الشدق، إلى هذا الوجه. هيا انظروا إلى هذا الشدق الذى لها.".

كان السيد "دو شارلوس" قد وجه فى "بالبيك" أمامى نقداً مرهقاً إلى السيدة "دو فوغوبير" التى سببت، على الرغم من ذكائها العظيم، زوالاً لا مرد له لحظوة زوجها فى أعقاب نجاح فاق الآمال. فإنه لما عاد العاهلان اللذان كان السيد "دو فوغوبير" معتمداً لديهما، عنينا الملك "تيودوز" والملكة "أودوكسى"، إلى باريس ولكن لإقامة طويلة بعض الشىء هذه المرة أقيمت احتفالات يومية على شرفهما بادرت الملكة فى أثنائها، وهى تربطها عرى الصداقة بالسيدة "دو فوغوبير" التى كانت تلقاها منذ عشر سنوات فى عاصمتها وإذ هى لا تعرف لا زوجة رئيس الجمهورية ولا زوجات الوزراء، بالانصراف عنهن منتحية بزوجة السفير جانباً. وإذ اعتقدت هذه الأخيرة أن مركزها فى مأمن من أى أذى، بما أن السيد "دو فوغوبير" هو صانع التحالف بين الملك "تيودوز" وفرنسه، فقد استخلصت من الإيثار الذى أبدته لها الملكة شعوراً بالرضى والكبرياء، ولكن دون أن تبالى مطلقاً بالخطر الذى كان يتهددها والذى تحقق بعد بضعة أشهر بالحدث الذى حكم الزوجان الواثقان بإفراط، فلم يصيبا، أنه مستحيل، حدث إحالة السيد "دو فوغوبير" الفظة على المعاش. وكان السيد"دو شارلوس" يعجب، وهو يعلق فى القطار الصغير على سقوط صديق طفولته، أن لا تكون امرأة ذكية وضعت فى مثل هذا الظرف كامل نفوذها لدى العاهلين فى أن تحصل منهما على أن تبدو وكأنها لا تملك أى نفوذ وأن تحملهما على أن يحيلا إلى زوجة رئيس الجمهورية وزوجات الوزراء لطفاً كن ازددن اعتزازاً به، أى كن ازددن به، فى غمرة بهجتهن، اقتراباً من الإقرار بجميل عائلة "فوغوبير"، بقدر ما كن اعتقدن أن ذاك اللطف تلقائى وغير مملى من جانبهما. لكن من يتبين خطأ الآخرين كثيراً ما يقع فيه لأقل ما ينتشى بالظروف. والسيد "دو شارلوس" لم يخطر بباله، فيما كان مدعووه يشقون طريقهم ليبادروا إلى تهنئته وإسداء الشكر له كما لو كان رب المنزل، أن يطلب إليهم توجيه بضع كلمات للسيدة "فيردوران". وحدها ملكة "نابولى"، وكان يملأ عروقها ذات الدم النبيل الذى يجرى فى عروق شقيقتيها الامبراطورة "اليزابيث" والدوقة "دارنسون"، أخذت تتحدث إلى السيدة "فيردوران" كما لو أنها جاءت لمتعة لقاء السيدة "فيردوران" أكثر منها للموسيقا والسيد "دو شارلوس"، وأسمعت "المعلمة" ألفاً من التصريحات، ولم ينضب معين كلامها عن التوق الذى اعتمل فى صدرها منذ فترة طويلة إلى التعرف بها، وأثنت على منزلها وكلمتها عن الموضوعات الأكثر اختلافاً كما لو كانت فى زيارة. لكم ودت أن تصطحب ابنة شقيقتها "اليزابيث"، تقول، "تلك التى كانت ستتزوج قليلاً بعد ذلك "ألبير" أمير بلجيكا)، وما أكثر ما ستأسف لذلك! وسكتت وهى تبصر

---

(١) Aristid Bruant أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين من القوالين الشهيرين الذين دأبوا على تشهير محبب برواد المقاهى أو المسارح (ولايزالون).

الموسيقيين يتخذون مقاعدهم على المنصة وطلبت أن يدلوها على "موريل". ولابد أنها ما كانت تساورها الأوهام حول الدوافع التي تحمل السيد "دو شارلوس" على ابتغاء إحاطة الموسيقار الشاب بهذا القدر من المجد. لكن فطنتها العريقة كعاهلة كان يجري في عروقها أحد الدماء الأكثر نبلاً في أوروبا والأثرى تجربة وارتياباً وكبراً كانت تحملها على محض اعتبار العاهات المحتومة لدى من تحبهم أكثر ما تحب من الناس، مثل ابن عمها "شارلوس" (وهو كحالها ابن إحدى دوقات "بافيير")، على أنها حظوظ عاثرة تجعل الدعم الذي يمكن أن يلقوه لديها أوفر ثمناً وتوفر لها بالتالي إحساساً بالمتعة أكبر بعد في توفيره لهم. كانت تعلم أن السيد "دو شارلوس" سوف يتأثر تأثيراً مزدوجاً من أن تكون كلفت نفسها في مثل هذه المناسبة. على أن هذه المرأة، وهي طيبة بقدر ما أبدت بالأمس شجاعة، هذه المرأة البطلة التي قامت بنفسها، هي الملكة الجندية، بإطلاق النار على أسوار "غاييت"[١]، وكانت دائمة الاستعداد للمبادرة إلى جانب الضعفاء بروح من الفروسية، حاولت إذ رأت السيدة "فيردوران" وحيدة مهملة وكانت تجهل على أي حال أنه ما كان لها أن تترك الملكة، حاولت أن تتظاهر بأن مركز هذه الأمسية بالنسبة إليها، هي، ملكة نابولي، بأن نقطة الجذب التي حملتها على المجيء إنما كانت السيدة "فيردوران". واعتذرت وأطالت عن أنها لن تستطيع البقاء حتى النهاية إذ ينبغي لها، مع أنها لا تخرج البتة، الذهاب إلى أمسية أخرى وتطالب على وجه الخصوص أن لا يكلفوا أنفسهم حينما تذهب فتعفيهم هكذا من صنوف تكريم ما كانت السيدة "فيردوران" على أية حال تعلم أنه يقع عليهم تأديتها لها.

على أنه لابد أن ننصف السيد "دو شارلوس" بقولنا إنه إن نسي السيدة "فيردوران" كلياً وجعل ناس "مجتمعه" الخاص به الذين دعاهم ينسونها بما يبلغ حد الفضيحة فقد أدرك في المقابل أنه يجدر به أن لا يدع لهم أن يحتفظوا إزاء "التظاهرة الموسيقية" ذاتها بالتصرفات السيئة التي كانوا يقومون بها تجاه المعلمة. كان "موريل" قد صعد مذ ذاك إلى المنصة والفنانون يتجمعون ولا تزال تسمع أحاديث وحتى ضحكات، من مثل "يبدو أنه لابد أن يكون المرء على اطلاع كي يفهم". واتخذ السيد "دو شارلوس" في الحال، وقد رد قامته إلى الوراء وكأنما دخل جسماً آخر غير ذاك الذي سبق أن رأيته منذ قليل يصل وهو يجرجر الخطو إلى منزل السيدة "فيردوران"، اتخذ هيئة نبوية ونظر إلى الحفل بجدية تعني أن الوقت لم يكن وقت ضحك وراح يحمر منها فجأة محياً أكثر من واحدة من المدعوات وقد أخذت متلبسة شأن طالب من جانب أستاذ في قلب الصف. كانت هيئة السيد "دو شارلوس" ترتدي في نظري، وهي من جانب آخر تنضح نبلاً، مسحة هزلية، فقد كان تارة يصعق مدعويه بلهيب نظراته، وطوراً، وبغية أن يدلهم، وكأنما في "دليل جيب" على الصمت الورع الذي يجدر بهم التزامه والتجرد عن أي اهتمام دنيوي، كان يقدم بنفسه، وهو يرفع إلى جبينه الجميل يديه بقفازيهما الأبيضين، نموذجاً (يجدر الالتزام به) من الرزانة، بل مما يقارب الانخطاف دون أن يرد على تحيات المتخلفين، وبهم شيء من اللااحتشام أن لا يدركوا أن الساعة الآن ساعة الفن الرفيع.

---

(١) موقع محصن شاركت فيه ملكة نابولي فعلاً في إطلاق النار عام ١٨٦٠ قبل ذهابها إلى المنفى في باريس.

فقد افتتن الجميع ولم يجرؤ أحد من بعد على إصدار صوت، على تحريك كرسى، فقد رسخ احترام الموسيقا فجأة - جراء المهابة التى يتمتع بها "بالاميد" - فى أذهان قوم يتساوى سوء تربيتهم وأناقتهم.

وظننت وأنا أبصر، لا "موريل" وعازف البيانو فحسب، بل عازفى آلات أخرى يصطفون على المنصة الصغيرة، أنهم يباشرون بعزف أعمال موسيقيين آخرين غير "فانتوى". فقد كنت اعتقد أنهم لا يملكون منه سوى "سوناتا" له للبيانو والكمان.

جلست السيدة "فيردوران" جانباً، ونصفا جبينها الأبيض المورد قليلاً يتحدبان تحدباً رائعاً، مفردة الشعر، فنصف تقليداً لرسم من القرن الثامن عشر، والنصف لحاجة إلى التبرد لدى محمومة يحول الخفر دون أن تبوح بحالتها، متوحدة، إلهة تشرف على الاحتفالات الموسيقية، ربة "الفاغنيرية" والشقيقة، وما يشبه "نورنا"(١) بقرب أن تكون مأساوية، استخطرتها العبقرية وسط هؤلاء المبرمين الذين ستأنف بعد أكثر من المعتاد أن تعرب أمامهم عن انطباعات تردها وهى تستمع إلى موسيقا كانت تعزفها أفضل منهم. وبدأت الحفلة الموسيقية، وما كنت أعلم ما كانوا يعزفون وكنت أجدنى فى بلاد مجهولة. فأين أحدد موقعها؟ وفى أعمال أى مؤلف كنت أقف؟ وددت لو أعرف، ولما لم يكن أحد بالقرب منى أسأله عن ذلك فقد وددت لو كنت واحداً من أشخاص ألف ليلة وليلة التى كنت أقرؤها دون انقطاع والتى يطلع فيها فجأة فى فترات الحيرة والشك جنى أو فتاة يافعة فاتنة الجمال تخفى على الآخرين لا على البطل المرتبك الذى تكشف له بالضبط ما يرغب فى معرفته. وقد حبيت فى تلك اللحظة بالضبط بمثل ذلك الظهور السحرى، وكما هى الحال حينما تجد نفسك فجأة، فى منطقة تظن أنك لا تعرفها وقد جئتها بالفعل من جانب جديد، تجد نفسك، بعدما انعطفت فى درب، تدخل فى درب آخر أقل زواياه مألوفة لديك ولكنما لم تكن تعودت الوصول من هناك، تقول فى نفسك فجأة: "عجباً، إنه الدرب الصغير الذى يقودك إلى باب حديقة أصدقائى الصغير، وأنا على بعد دقيقتين من منزلهم"؛ وابنتهم هنا بالفعل وقد جاءت تقرئك سلاماً عابراً، هكذا تعرفت نفسى فجأة وسط هذه الموسيقا الجديدة علىّ، فى قلب "سوناتا" "فانتوى"؛ والجملة الصغيرة أقبلت إلىّ أكثر روعة من فتاة يافعة، مغلفة مدثرة بالفضة تتدفق على جنباتها رنات متلألئة، خفيفة ناعمة كالشالات، أقبلت واضحة المعالم فى أثوابها الجديدة. كانت مسرتى بأن عدت فلقيتها تزداد بالنبرة المعروفة البالغة الود التى تتخذها لمخاطبتى شديدة الإقناع شديدة البساطة ولا يفوتها مع ذلك أن تسمح بأن يتفجر ذلك الجمال البراق الذى تشرق به. وما كان لها من دلالة هذه المرة على آية حال سوى أن تدلنى على الدرب، ولم يكن درب السوناتا إذ كانت عملاً لـ "فانتوى" لم يسبق نشره وقد تلهى فيه فحسب، بإلماحة تبررها فى هذا المكان كلمة فى البرنامج الذى كان ينبغى أن يكون فى الوقت نفسه أمام أعيننا، بأن يدفع الجملة الصغيرة إلى الظهور لحظة. وما كادت تستعاد على هذا النحو حتى اختفت وألفيتنى ثانية فى عالم مجهول،

(١) "النورنات" هن إلهات القدر فى الأساطير الاسكندنافية والجيرمانية.

ولكنى كنت أعلم الآن، ولم يكف كل شىء من بعد عن أن يثبت لى أن ذاك العالم كان واحداً من تلك التى لم يمكن حتى بمقدورى أن أتصور أن يكون "فانتوى" قد أبدعها، ذلك لأنى حينما كنت أحاول، وقد تعبت من السوناتا التى كانت عالماً مستنفداً بالنسبة إلىّ، أن أتخيل عوالم أخرى بمثل جماله ولكنها مختلفة فقد كنت أفعل فحسب فعل هؤلاء الشعراء الذين يملؤون جنتهم المزعومة بالمروج والأزهار والسواقى وهى نُقَلُ تلك الموجودة على الأرض. إن ما كان أمامى كان يولينى مقدار السرور الذى كانت أولتنى إياه السوناتا لو لم أعرفها، وكان بالتالى، إذ هو بمثل جمالها، مختلفاً عنها. ففيما كانت السوناتا تتفتح على فجر زنبقى ريفى يقسم بياضها الخفيف لكن ليتعلق بالمشبك الخفيف المتماسك مع ذلك لمعرّش قروى من زهر العسل على زهر الجيرانيوم الأبيض، كان العمل الجديد يبدأ فوق مساحات موحدة مستوية كسطوح البحر، فى صباح عاصف وسط صمت لاذع وفى فراغ لا متناه، وإنما كان هذا العالم المجهول يستخلص من الصمت والليل فى تورد الفجر كى يتشكل شيئاً فشيئاً أمامى. كانت تلك الحمرة الجديدة تماماً، الغائبة تماماً عن السوناتا الرقيقة الريفية الساذجة، تصبغ السماء كلها، مثلما الفجر، بأمل يزخر بالأسرار. وإذا شدو يخترق الجو، شدو من سبع نوطات، لكنه المجهول كأكثر ما يكون، المختلف كأكثر ما يكون عن كل ما كنت تصورت فى يوم، يمتنع على القول وصداح فى آن، ليس من هديل الحمام شأنه فى السوناتا بل يمزق الهواء، بمثل حدة المسحة القرمزية التى كانت البداية غارقة فيها، وما يشبه صياحاً صوفياً للديك ونداء للصبح الأبدى يمتنع على القول ولكنه زائد الحدة. كان الجو البارد الذى غسله المطر والحماسى - وهو من نوعية شديدة الاختلاف وضغوط غير الضغوط وفى عالم ما أبعده عن عالم السوناتا البتولى الذى تعمره النباتات - كان يتبدل فى كل لحظة طامساً وعد الفجرالذى بلون الأرجوان. بيد أنه كان يبدو فى الظهر، عبر إشماس حارق عابر، وكأنه يتحقق عبر سعادة ثقيلة قروية تكاد تكون فظة يبدو فيها ترنح أجراس صداحة هائجة (شبيهة بتلك التى كانت تحرق بحرارتها ساحة الكنيسة فى "كومبريه" والتى ربما سبق لـ "فانتوى"، الذى لابد سمعها كثيراً، أن وجدها فى تلك الفترة فى ذاكرته مثل لون يكون فى متناول يدك على ممزجة ألوان) وكأنه يجسد الفرح الأكثر كثافة. لم تكن لازمة الفرح تلك، والحق يقال، تروقنى على الصعيد الجمالى، وكنت أجدها قبيحة أو تكاد، وكان إيقاعها يجر الخطو بمشقة عظيمة حتى لوسعك أن تقلد ما كان أساسياً فيها تقريباً بمحض أصوات، كأن تضرب بطريقة ما أعواداً على طاولة. كان يبدو لى أن "فانتوى" قد خانه الإلهام هنا وخانتنى كذلك قليلاً آنها قوة التركيز.

ونظرت إلى المعلمة، وكان جمودها القاسى يبدو وكأنه يحتج على الحركات الإيقاعية التى تؤديها رؤوس سيدات "الحى" الجاهلة. ما كانت السيدة "فيردوران" تقول: "تدركون أنى عارفة قليلاً بهذه الموسيقا، وقليلاً بشق النفس! ولو انبغى أن أعرب عن كل ما أحسه لما كنتم تبلغون حدوده!" ما كانت تقول ذلك. لكن قامتها المنتصبة الجامدة وعيناها الخاليتان من أى تعبير وخصل شعرها المتهربة كانت تقوله عنها. كانت تروى إلى ذلك عن شجاعتها وأن العازفين يمكن أن يذهبوا قدماً وأن لا يراعوا أعصابها فلن تخور عزائمها فى حركة الـ "أندانتيه" ولن تصرخ فى حركة الـ

"أليغرو"(١). ونظرت إلى هؤلاء الموسيقيين. كان عازف "الفيولونسيل" يملك آلته التي يشد عليها بين ركبتيه وهو يحنى رأسه الذى توليه بعض القسمات العامية فى لحظات التصنع ملامح قرف لا إرادية، كان ينحنى فوق آلة الـ "كونترباس" ويجسها بذات التصبر المنزلى كما لو يقشر الملفوف، فيما عازفة "القيثار" بالقرب منه، ولاتزال طفلة بتنورة قصيرة تتجاوزها من كل الجوانب الأشعة الأفقية لرباعى الأضلاع الذهبى الذى يشبه تلك التى ربما مثلت الأثير جزافاً فى غرفة مسحورة لإحدى العرافات، طبق الأشكال المكرسة، كانت تبدو وكأنما تذهب باحثة فيه ههنا وهناك، وفى النقطة المعينة، عن نغمة عذبة بالطريقة نفسها التى ربما قامت بها، بصورة إلهة صغيرة رمزية تنصب أمام عريش القبة السماوية المذهب، بقطف الأنجم واحداً واحداً. فأما "موريل" فإن خصلة حتى ذاك غير مرئية وقد اختلطت بشعره انفصلت تواً وشكلت خصلة فوق جبينه.

وأدرت رأسى بصورة غير ملحوظة صوب الجمهور كى أتبين ما كان يبدو أن السيد "دو شارلوس" يفكر به حول هذه الخصلة. بيد أن عينى لم تلتقيا إلا وجه السيدة "فيردوران"، أو بالأحرى يديها لأن الوجه كان مدفوناً كله فيهما. فهل كانت المعلمة تبغى، من خلال هذه الوقفة الخاشعة، أن تبدى أنها تحسب نفسها كأنما فى الكنيسة ولا ترى هذه الموسيقا مختلفة عن أسمى الصلوات؛ وهل كانت تبغى كما هو شأن بعض الأفراد فى الكنيسة أن تبعد عن أعين الفضوليين إما احتشاماً ورعهم المفترض أو استحياءً لهوهم الأثيم أو نعاساً لا يقهر؟ كانت هذه الفرضية الأخيرة هى الفرضية التى دفعنى صوت منتظم لم يكن موسيقياً إلى الاعتقاد لحظة أنها هى الصحيحة، لكنى تبينت فيما بعد أنه ناجم عن شخير صادر لا عن السيدة "فيردوران" بل عن كلبتها.

ولكن سرعان ما تملكتنى تلك الموسيقا، ثانية بعدما أقصت وشُتّت لازمة الأجراس الظافرة من جانب لازمات أخرى. وأخذت أتبين أنه إن كان ثمة، داخل هذه السباعية، عناصر مختلفة تطلع بالتناوب لتأتلف فى النهاية، كذلك لم تكن "سوناتته"، وكما علمت فيما بعد أعماله الأخرى، لم تكن جميعها إما قيست بهذه السباعية سوى محاولات خجولة، عذبة ولكنها بالغة الهزال إذا ما قيست بالرائعة المظفرة المتكاملة التى كانت تنكشف لى فى هذه الساعة. وما كان بمقدورى أن أمنع نفسى عن أن أتذكر، بالمقارنة، أنى إلى ذلك كنت قد فكرت بالعوالم الأخرى التى أمكن أن يبدعها "فانتوى" وكأنما بعوالم مغلقة مثلما سبق أن كان كل واحد من صنوف عشقى. لكنما كان لابد فى الواقع أن أقر لنفسى أنى، مثلما هى داخل هذا الحب الأخير - حبى لـ "ألبيرتين" - نواياى الأولى فى أن أحبها (بادئ ذى بدء فى "بالبيك"، ثم فى أعقاب لعبة "التمريرة"، ثم فى الليلة التى أمضتها فى الفندق، ثم عشية عيد آل "غيرمانت"، وأخيراً فى باريس حيث ارتبطت حياتى بحياتها ارتباطاً وثيقاً)، إن أمعنت الآن النظر لا فى حبى لـ "ألبيرتين" بل فى حياتى كلها، فإن صنوف عشقى الأخرى ما كانت فيها كذلك سوى محاولات زهيدة خجولة تعد لهذا الحب الفسيح... حب "ألبيرتين"، ونوداءات تطالب به. وكففت عن متابعة الموسيقا لأسائل النفس ثانية إن كانت "ألبيرتين" التقت أم

---

(١) Andante و Allegro الحركتان: البطيئة والسريعة على التوالى.

لم تلتق الآنسة "فانتوى" هذه الأيام، مثلما نسائل من جديد آلماً باطنياً أنْسَانا إياه الشرود فترة. ذلك لأن أفعال "ألبيرتين" الممكنة كانت تنقضى فى داخلى، فإننا نملك لكل من الأشخاص الذين نعرفهم صنوه، لكنه، وهو الواقع عادة على تخوم خيالنا وذاكرتنا، إنما يبقى نسبياً خارجاً عنا، وليس يتضمن ما فعله أو أمكن أن يفعله عنصراً مؤلماً بالنسبة إلينا أكثر مما يفعل شىء موضوع على مسافة منا ولا يخلف فينا سوى أحاسيس الرؤية اللامؤلمة. إن ما يؤثر فى هؤلاء الأشخاص إنما ندركه بطريقة تأملية وبمقدورنا أن نأسف له بعبارات مناسبة تولى الآخرين فكرة عن قلبنا الطيب، لكننا لا نحس به، لكنما كان صنو "ألبيرتين"، منذ جرحى فى "بالبيك"، فى قلبى وعلى عمق كبير يصعب استخراجه منه، وما كنت أراه منها يؤذينى كحال مريض جرت مناقلة حواسه بصورة مزعجة إلى حد أن رؤية لون قد يحسها فى داخله إحساسه بشق فى لحمه الحى. لم أكن لحسن حظى قد استسلمت بعد لرغبة قطع علاقتى بـ "ألبيرتين". لقد كان انزعاجى بوجوب التقائها بعد قليل لقاء امرأة حبيبة حينما أعود إلى المنزل شيئاً زهيداً جداً فى مقابل الضيق الذى كنت أحسسته لو وقع الانفصال فى هذا الوقت الذى يخامرنى الشك فيه حولها وقبل أن يكون اتسع الوقت لتضحى غير ذات بال بالنسبة إلىّ. ولحظة كنت أتصورها هكذا تنتظرنى فى المنزل وترى الوقت طويلاً وربما أغفت قليلاً فى غرفتها داعبتنى آنذاك جملة عائلية بيتية رقيقة تنبعث من السباعية. فربما أوحى بها لـ "فانتوى" - لشدة ما يتشابك ويتناضد كل شىء فى حياتنا الداخلية - إغفاء ابنته - ابنته التى هى اليوم سبب صنوف اضطرابى جميعها - حينما كان يلف بعذوبته فى الأمسيات الهادئة عمل الموسيقى، تلك الجملة التى هدأتنى إلى حد كبير بخلفية الصمت الناعمة نفسها التى تهدىء بعض هواجس "شومان" التى يستشف فى أثنائها أن "الطفل يغفى" حتى حينما "يتكلم الشاعر"(١). سوف أعود فألقاها هذا المساء، غافية، مستيقظة، حينما يروقنى ذلك، "ألبيرتين"، طفلتى الصغيرة. وقلت فى نفسى: "كان يبدو مع ذلك أن شيئاً ما أكثر خفاء من حب "ألبيرتين" جرى الوعد به فى مستهل هذا العمل وفى صرخات الفجر الأولى هذه. وحاولت إقصاء فكرة صديقتى كى لا أفكر من بعد إلا بالموسيقى. وكان يبدو على أية حال أنه حاضر هنا. لكأنما كان المؤلف، بعدما تجسد ثانية، يعيش أبداً داخل موسيقاه؛ وكنت تحس الفرح الذى يختار به لون هذه الرنة أو تلك ويجانس بينه وبين الأخرى. ذلك أن "فانتوى" كان يجمع إلى مواهب أكثر عمقاً موهبة ملكتها قلة من الموسيقيين، بل قلة من الرسامين، فى استعمال ألوان ليست ثابتة جداً فحسب، بل هى شخصية جداً إلى حد أن التلامذة الذين يقلدون ذاك الذى وجدها والأساتذة أنفسهم الذين يفوقونه لا يلقون ظلالاً على طابع الأصالة فيها أكثر مما يفسد الزمان نضارتها. والثورة التى أحدثها ظهورها لا تشهد نتائجها تتماثل والعهود اللاحقة بصورة لا طابع لها؛ إنها تهتاج وتنفجر من جديد ولا يفعل إلا حينما يعاد عزف أعمال المجدد مدى الحياة فحسب. كانت كل رنة تبرز ذاتها بلون لا تقوى على محاكاته كل قواعد الدنيا التى تعلمها الموسيقيون الأرسخ علماً حتى إن "فانتوى" مع أنه جاء فى زمانه وحدد مكانه فى

(١) عنوانا مقطوعتين للبيانو للموسيقار "شومان".

التطور الموسيقى، سوف يغادره دوماً ليمضى إلى احتلال المكان الأول ما إن يجرى عزف أحد مؤفاته الذى يدين، بما يبدو من أنه صدر بعد نتاج موسيقيين أحدث عهداً، لهذا الطابع من الجدة الدائمة المتناقض فى الظاهر والمضلل بالفعل. إن صفحة سمفونية لـ "فانتوى" عرفت قبلاً على البيانو ويجرى سماعها من الأوركسترا كانت، على غرار شعاع يوم صيفى يحلله موشور النافذة قبل دخوله قاعة الطعام المظلمة، تكشف، وكأنما ذلك كنز غير متوقع ومتعدد الألوان، عن سائر الأحجار الكريمة فى "ألف ليلة وليلة". ولكن كيف نشبه بهذا التألق اللامتحرك للنور ما كان حياة وحركة دائمة سعيدة؟ لقد كان "فانتوى" هذا الذى عرفته شديد الخجل، شديد الكآبة، يبدى، إن انبغى اختيار رنة خاصة وأن يجمع إليها أخرى، صنوفاً من الجرأة وسعادة، بكل ما للكلمة من معنى، سعادة لا يدع الاستماع إلى أى عمل له أى شك حولها. إن الفرح الذى بعثته فى نفسه مثل تلك الأصوات الرنانة والقوى المتزايدة التى أولته إياها لاكتشاف أخرى غيرها كانت تنقل المستمع من لقيا إلى لقيا، بل كان المبدع بالأحرى هو الذى يقوده بنفسه، يستقى من الألوان التى وجدها تواً فرحاً غامراً يزوده بالقدرة على الاكتشاف وعلى أن ينقض على تلك التى بدت وكأنها تستدعيها، مفتوناً مرتعشاً وكأنما نفضته شرارة حين كان العنصر السامى يولد من ذاته من تلاقى النحاسيات، لاهثاً منتشياً ذاهلاً مدوخاً فيما يرسم جداريته الموسيقية الواسعة كمثل "ميكيلانجلو" المشدود إلى سلمه وهو يسدد، ورأسه إلى أسفل، ضربات صاخبة من فرشاته إلى سقف كنيسة "السيكستين". لقد قضى "فانتوى" منذ عدة سنوات، ولكنه أعطى بين هذه الآلات التى أحبها أن يتابع إلى زمن غير محدود قسماً على الأقل من حياته. من حياته البشرية فقط؟ وإن لم يكن الفن بالحقيقة سوى امتداد للحياة، أفكان يساوى أن يضحى بشىء فى سبيله، أوليس فى مثل لا حقيقتها؟ ما كان بوسعى أن اعتقد ذلك حين أحسن الاستماع إلى هذه السباعية. لا شك أن السباعية المتقدة كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن السوناتا البيضاء، والسؤال الخجول الذى تجيب عنه الجملة الصغيرة عن التوسل اللاهث للتوصل إلى إنجاز الوعد الغريب والذى دوى حاداً جداً، خارقاً جداً، مقتضباً جداً فتهتز به الحمرة التى لا حراك بها بعد، حمرة السماء الصباحية فوق البحر. مع أن تلك الجمل الشديدة الاختلاف إنما صنعت من العناصر نفسها، فإنه مثلما كان ثمة عالم يمكن لنا أن ندركه فى هذه الأجزاء المشتتة ههنا وهناك، فى هذه المساكن، فى هذه المتاحف، هو عالم "ايلستير"، ذاك الذى كان يراه والذى كان يعيش فيه، كذلك كانت موسيقا "فانتوى" تمد، علاقات فعلامات ولمسات فلمسات، التلوينات المجهولة التى لا تقدر بثمن لعالم لا نرتاب بوجوده تجزئه الثغرات التى تخلفها فيما بينها فترات الاستماع إلى أعماله؛ فذانك التساؤلان المتباينان جداً واللذان يتحكمان بالحركة الشديدة الاختلاف فى السوناتا والسباعية، إذ يقطع الأول خطاً مستمراً صافياً فيحيله نداءات قصيرة، ويعيد الثانى تجميع أجزاء متناثرة فى بنية لا انفصام فيها، ذاك الهادئ جداً الوجل المتجرد الذى يقرب أن يكون فلسفياً وهذا الملحاح المضطرب المتوسل، ذانك كانا مع ذلك الصلاة نفسها انطلقت أمام إشراقات داخلية مختلفة للشمس وتكسرت فحسب عبر الأوساط المتباينة لأفكار مختلفة وبحوث فنية فى تطور فى غضون سنوات عزم فيها على إبداع شىء جديد. وهى صلاة، هو رجاء كان فى الأساس

واحداً، تتعرفه خلف أقنعته فى أعمال "فانتوى" المختلفة ولا تجده من جانب آخر إلا فى أعمال "فانتوى". وتلك الجمل، ربما تمكن كتاب الموسيقا من العثور على انتمائها وتسلسل نسبها فى أعمال موسيقيين آخرين كبار، ولكن لأسباب ثانوية فحسب، لتشابهات خارجية، لتماثلات وجدت ببراعة من جانب المحاكمة العقلية أكثر مما جرى الإحساس بها بالانطباع المباشر. كان الانطباع الذى تخلفه جمل "فانتوى" تلك مختلفاً عن أى انطباع آخر كما لو أن الفردى كان موجوداً على الرغم من النتائج التى يبدو أنها تستخلص من العلم. وإنما كنت بالضبط، حينما كان يحاول بقوة أن يبدو جديداً، تتعرف خلف الاختلافات الظاهرة التماثلات العميقة والتشابهات المقصودة الكائنة داخل أحد الأعمال، حينما كان "فانتوى" يكرر مرات عدة ذات الجملة وينوع فيها ويتسلى بتغيير إيقاعها وإعادة إبرازها فى شكلها الأول، تلك التشابهات المقصودة، التى من عمل العقل، السطحية حكماً، ما كانت تفلح البتة فى أن تكون بمثل تأثير هذه التشابهات المخفاة اللاإرادية التى كانت تنطلق بألوان مختلفة بين الرائعتين المتميزتين؛ ذلك أن "فانتوى" كان حينئذ، وهو يحاول بقوة أن يكون جديداً، يسائل نفسه وبكامل طاقة جهده الخلاق كان يبلغ ماهيته ذاتها فى تلك الأعماق التى إنما ترد، أياً كان السؤال الذى يطرح عليها، بالنبرة نفسها، نبرتها الخاصة، نبرة، هى نبرة "فانتوى"، منفصلة عن نبرة الموسيقيين الآخرين باختلاف يتجاوز كثيراً الاختلاف الذى ندركه بين صوت شخصين، بل بين خوار وصوت جنسين من الحيوانات؛ اختلاف حقيقى، ذاك القائم بين فكر هذا أو ذاك من الموسيقيين وتقصيات "فانتوى" الدائمة، والسؤال الذى طرحه على نفسه بأشكال ما أكثرها، وتأمله المعتاد ولكنه مخلى من أشكال المحاكمة العقلية التحليلية بقدر ما لو جرت فى دنيا الملائكة بحيث يمكننا أن نقيس عمقه لكننا لا نقوى على ترجمته إلى لغة بشرية أكثر مما تستطيع أن تفعل الأرواح المفصولة عن أجسادنا حينما يستحضرها وسيط ويسألها عن أسرار الموت؛ وإنها لنبرة، إذ على الرغم من كل شىء، وحتى إن أخذنا فى اعتبارنا تلك الأصالة المكتسبة التى أدهشتنى بعد الظهر، تلك القرابة كذلك التى ربما استطاع أن يجدها مؤلفو الموسيقى بين الموسيقيين، إنها لنبرة وحيدة تلك التى يرقى إليها، التى يعود إليها على الرغم منهم أولئك المغنون العظام الذين هم الموسيقيون الأصليون، وإنها لبرهان على وجود النفس الفردى غير المنقوص. فإما حاول "فانتوى" أن يقدم ما كان أكثر أبهة وأوفر فخامة، أو أن يقدم ما يتسم بالحيوية والمرح، أن يقدم ما كان يراه ينعكس مظهراً جميلاً فى أذهان الجمهور، كان يغمر كل ذلك على الرغم منه فى موجة من الأعماق تجعل لحنه أبدياً ومعروفاً فى الحال. وهذا اللحن المختلف عن لحن الآخرين المماثل لسائر ألحانه، أين تعلمه "فانتوى"، أين سمعه؟ إن كل فنان إنما يبدو على هذه الصورة وكأنه مواطن فى وطن مجهول ومنسى لديه يختلف عن ذاك الذى سيجىء منه فى إقلاعه عن الأرض فنان كبير آخر. وكان "فانتوى" فى الأكثر يبدو وكأنه اقترب فى أعماله الأخيرة من ذلك الوطن. فلم يعد الجو فيها ما كان فى السوناتا، فقد أخذت الجمل الاستفهامية تبدو فيها أكثر إلحاحاً وأشد قلقاً، والأجوبة أوفر غموضاً؛ فيما يبدو فيها هواء الصباح والمساء المبلل كأنما يؤثر حتى على أوتار الآلات. فعبثاً كان "موريل" يعزف عزفاً رائعاً فقد بدت لى النغمات التى كان كمانه يطلقها حادة

بصورة غريبة ويقرب أن تكون صارخة. كانت تلك الحرافة تروق وتحس فيها، كما هو أمر بعض الأصوات، نوعاً من الجودة الخلقية والتفوق الفكرى. لكن ذلك كان يمكن أن يصدم. فإنه حين تتغير رؤية العالم وتتنقى وتضحى أكثر مطابقة لذكرى الوطن الداخلى يبدو طبيعياً جداً أن يترجم ذلك بتحول عام للنغمات لدى الموسيقى مثلما اللون لدى الرسام. وليس يخطئ فى ذلك الجمهور الأوفر ذكاء على أى حال إذ أعلن فيما بعد أن أعمال "فانتوى" الأخيرة هى الأكثر عمقاً. بيد أنه ما من برنامج وما من موضوع كان يحمل معه عنصراً فكرياً لرأى يصدر. كانوا يحزرون إذاً أن الأمر أمر نقل للعمق فى فئة الصوت.

ذاك الوطن المفقود لا يتذكره الموسيقيون، لكنما يبقى كل منهم فى حال "دوزنة" لا واعية من التناغم يجمعه وإياه. فهو يجن فرحاً حينما يشدو وفق وطنه ويخونه أحياناً حباً بالمجد، لكنه حين يبحث عن المجد يبتعد عنه ولا يجده إلا حينما يزدريه، وحينما يبدأ الموسيقى، وأياً كان الموضوع الذى يعالجه، هذا النشيد الفريد الذى تقيم رتابته البرهان - إذ أياً كان الموضوع المعالج فإنه يظل مماثلاً لذاته - على ثبات العناصر المكونة لنفس الموسيقى. ولكن، أليس أن تلك العناصر إذاً، كل هذه البقية الحقيقية التى نضطر إلى الاحتفاظ بها لأنفسنا والتى لا تستطيع المحادثة نقلها حتى من الصديق إلى الصديق، من الأستاذ إلى التلميذ، من العشيق إلى العشيقة، هذا الممتنع على القول الذى يميز نوعياً ما أحس به كل فرد وهو مضطر أن يدعه على عتبة الجمل التى لا يستطيع التواصل بها مع الآخرين إلا بالاقتصار على نقاط خارجية مشتركة بين الجميع ولا فائدة منها، أليس أن الفن، فن أمثال "فانتوى" وأمثال "ايلستير" هو الذى يبرزه مجسداً بألوان الطيف التركيبية الحميمة لهذه العوالم التى ندعوها بالأفراد والتى ما كنا بدون الفن لنعرفها فى يوم؟ وإن أجنحة وجهازاً تنفسياً آخر مما يمكننا من اجتياز المسافات الشاسعة قد لا تفيدنا فى شيء. فإننا إن ذهبنا إلى المريخ والزهرة واحتفظنا بالحواس ذاتها فسوف تُلبِس كل ما يمكن أن نراه ذات المظهر الذى ترتديه أشياء الأرض. إن السفر الحقيقى الوحيد، إن ينبوع الشباب الوحيد ليس فى الارتحال إلى مناظر ومشاهد جديدة بل فى امتلاك عينين غير عينينا، فى مشاهدة الكون بعينى آخر سوانا، بعيون مئة آخرين سوانا وبمشاهدة الأكوان المئة التى يشاهدها كل واحد منهم، التى يمثلها كل واحد منهم؛ وإنما نستطيع ذلك بمساعدة "ايلستير"، بمساعدة "فانتوى" وأمثالهما ونطير حقاً من نجمات إلى نجمات.

كانت الحركة المتباطئة قد انتهت بجملة تفيض من حنان كنت انصرفت إليه بكليتى. حينئذ كانت قبل الحركة التالية هنيهة استراحة وضع فيها العازفون آلاتهم جانباً وتبادل المستمعون بعضاً من انطباعاتهم. فأعلن دوق يقول، بغية أن يظهر أنه خبير بالأمر: "من الصعب جداً إجادة عزفها". وتحدث فترة إلى نفر أكثر إمتاعاً. ولكن ما عسى كانت تساوى أقوالهم التى خلفت لدىّ هذا القدر من اللامبالاة، شأن أى قول بشرى خارجى، فى مقابل الجملة الموسيقية السماوية التى تحادثت تواً وإياها؟ لقد كنت حقاً كملاك جرد من مسرات الفردوس وسقط فى الواقع الأكثر تفاهة. ومثلما يتفق أن تكون بعض الكائنات آخر الشهود على شكل من الحياة هجرته الطبيعة، أخذت أسائل النفس إن لم تكن الموسيقا هى المثال الوحيد لما كان يمكن أن يكون عليه التواصل بين النفوس لو لم يتم

اختراع اللغة وتشكل الكلمات وتحليل الأفكار. إنها ما يشبه الممكن الذى لم يخلف آثاراً، فقد سلكت البشرية سبلاً أخرى، سبيل اللغة المحلية والمكتوبة. لكن هذه العودة إلى الشيء اللامحلل كانت مسكرة إلى حد بدا لى معه الاتصال، لدى خروجى من هذه الجنة، بأشخاص هينى الذكاء يتسم بتفاهة عجيبة. أما الأشخاص فقد وسعنى أن أتذكرهم فى أثناء الموسيقا وأن أقرنهم بها؛ أو لعلنى بالأحرى لم أقرن بالموسيقا سوى ذكر شخص وحيد هو شخص "ألبيرتين". وكانت الجملة التى تختتم الحركة البطيئة تبدو لى على درجة من السمو أقول معها فى نفسى إنه من المحزن أن لا تعلم "ألبيرتين" - وإن علمت أن لا تكون أدركت - أى شرف ينالها أن تقرن بشيء عظيم إلى هذا الحد يجمعنا وبدا أنها تقتبس صوته المؤثر. لكن الأشخاص الحاضرين كانوا يجاوزون حد التفاهة حالما تتوقف الموسيقا. وقدموا بعض المرطبات. وكان السيد "دو شارلوس" ينادى بين الحين والحين على خادم قائلاً: "كيف حالك؟ هل وصلتك عجالتى؟ وهل ستأتى؟" كان فى تلك المساءلات دون شك حرية السيد الكبير الذى يعتقد أنه يلاطف وأنه أقرب إلى الشعب من البورجوازى، لكنما كان ثمة أيضاً مكر المذنب الذى يعتقد أن ما يجرى إبرازه على الملأ إنما يعد لهذا بالذات بريئاً. وكان يضيف قوله باللهجة "الغيرمانتية" التى للسيدة "دو فيلباريزيس": "إنه فتى طيب القلب، وهو مفطور على الطيبة، وإنى كثيراً ما استخدمه فى بيتى." لكن تحاذق البارون كان يرتد عليه إذ كانوا يرون صنوف رقته الحميمة البالغة هذه وعجالاته إلى خدمه الخاصين شديدة الغرابة. وكان هؤلاء على أى حال أقل مباهاة بذلك منهم ضيقاً به من أجل رفاقهم.

كانت السباعية إذ ذاك، وقد عادت فبدأت ثانية، تسير إلى نهايتها؛ وثمة جملة، هذه أو تلك من السوناتا، كانت تعود تكراراً، ولكنها مغيرة فى كل مرة، بإيقاع وتآلف مختلفين، فهى ذاتها ومختلفة مع ذلك، مثلما تعود الأشياء فى الحياة. وكانت واحدة من تلك الجمل التى، دون أن يمكننا أن ندرك أية صلة قربى تعين لها ماضى أحد الموسيقيين مسكناً وحيداً ولازماً، لا توجد إلا فى أعماله وتظهر باستمرار فى أعماله وهى جنياتها وحوريات غاباتها وآلهتها الألوفة. وكنت ميزت فى البداية فى السباعية اثنين أو ثلاثاً تذكرنى بالسوناتا. ولاحت لى بعد قليل جملة أخرى من السوناتا - غارقة فى الضباب البنفسجى الذى كان يتصاعد بوجه الخصوص من الفترة الأخيرة من أعمال "فانتوى" إلى حد أنه حتى حينما كان يدخل إحدى الرقصات فى مكان ما فقد كانت تلبث أسيرة داخل حجر كريم لبنى اللون - وقد لبثت بعد بعيدة جداً حتى كدت لا أتعرفها. واقتربت مترددة واختفت كأنما دب فيها الذعر، ثم عادت وتشابكت مع أخريات غيرها جاءت كما علمت بعد ذلك من أعمال أخرى، ونادت جملاً أخرى كانت تضحى بدورها جذابة قادرة على الإقناع حالما يتم تدجينها وتدخل دائرة الرقص، دائرة الرقص السماوية التى ظلت خافية على غالبية المستمعين الذين لم يكن أمامهم سوى ستار مبهم لا يبصرون من خلاله شيئاً فكانوا يبرزون جزافاً، بصرخات استعجاب، مللاً مستديماً يكاد يقتلهم. ثم ابتعدت ما عدا واحدة رأيتها تعود حتى خمس وست مرات دون أن أتمكن من تبين وجهها، ولكنها شديدة نعومة الملمس شديدة الاختلاف - كما هى دون شك حال الجملة الصغيرة فى السوناتا التى لـ "سوان" - عما لم تدفع امرأة فى يوم إلى اشتهائه إلى حد أن هذه الجملة التى كانت

تقدم لى بصوت ما أعذبه سعادة ربما كانت حقاً أهلاً لأن يحصل المرء عليها إنما هى ربما - ذاك المخلوق الخفى الذى ما كنت أعرف لغته وكنت أفهمه تماماً - المجهولة الوحيدة التى اتفق لى أن ألتقيها فى يوم. ثم تفككت هذه الجملة وتحولت، كما كانت تفعل الجملة الصغيرة فى السوناتا، فأضحت نداء البداية الغامض. وجابهته جملة ذات طابع أليم ولكنها من عمق وغموض وجوانية وتكاد تكون عضوية عميقة إلى حد لا تعلم معه فى كل من معاودتها إن كانت معاودات فكرة أو ألم عصبى. بعد قليل تصارعت الفكرتان فى التحام كانت إحداهما تختفى فيه تماماً فيما لا تبصر فيه بعد ذلك سوى قطعة من الأخرى. هو بالحقيقة التحام طاقات فحسب؛ فإنه إن تواجهت هذه الكائنات فإنما بعد أن تخلصت من جسمها المادى ومظهرها واسمها ووجدت لدىّ مشاهداً داخلياً - لا يهتم بدوره بالأسماء والإفرادى - كى ينصرف إلى اقتتالها اللامادى النشيط ويلاحق بشغف أحداثها الصوتية. وأخيراً ظلت الفكرة المرحة منتصرة، فلم تعد نداء أطلق خلف سماء خالية ويقرب أن يكون قلقاً، لقد كان فرحاً يمتنع على الوصف ويبدو كأنه يجىء من الفردوس، فرحاً مختلفاً عن فرح السوناتا بقدر ما يمكن أن يكون اختلاف رئيس ملائكة لـ "مانتينيا" يرتدى ثوباً قرمزياً وينفخ فى البوق عن ملاك رقيق وقور لـ "بيلليني" ينقر على الصنج. كنت أعلم أن هذا اللون الجديد من الفرح، هذه للدعوة إلى فرح فوق أرضى لن أنساها البتة. ولكن أتراه ممكن التحقيق يوماً فيما يخصنى؟ كانت هذه المسألة تبدو لى متزايدة الأهمية بقدر ما كانت تلك الجملة ما ربما استطاع أن يسم أفضل ما يكون هذه الانطباعات - بوصفها تختلف جذرياً عن كامل باقى حياتى، عن العالم المرئى - التى كنت أعود فألقاها على فترات متباعدة داخل حياتى نقاط استدلال وبدايات لبناء حياة حقيقية: الانطباع الذى وافانى أمام قباب أجراس "مارتنفيل"، وأمام صف من الأشجار بالقرب من "بالبيك". ومهما يكن من أمر، وكيما نعود إلى النبرة الخاصة بتلك الجملة، فكم كان غريباً أن يكون الشعور المسبق الأكثر اختلافاً عما تقدمه الحياة المبتذلة، والتخمين الأكثر جرأة لمباهج الآخرة قد تجسد بالضبط فى البورجوازى الصغير الحزين المتأدب الذى كنا نلتقيه فى الشهر المريمى[1] فى "كومبريه"! وكيف كان يتفق خصوصاً أن أكون استطعت أن أتسلم منه هذا الكشف عن نمط مجهول من الفرح، وهو الأغرب مما تسلمت حتى الآن بما أنه لم يخلف سوى سوناتته، فيما يقولون، بعدما مات، وأن الباقى لبث لا وجود له فى تدوينات موسيقية عصية رموزها؟ عصية رموزها، لكنما انتهى بها الأمر، بمزيد من الصبر والذكاء والاحترام، إلى أن تفك رموزها من جانب الشخص الوحيد الذى عاش بالقرب من "فانتوى" فترة كافية ليحيط إحاطة تامة بطريقة عمله ويستشف تعليماته للأوركسترا، عنينا صديقة الآنسة "فانتوى" فقد كانت اطلعت، ولا يزال الموسيقى الكبير على قيد الحياة، اطلعت من ابنته على الإجلال الذى كانت تحيط به أباها. وبسبب هذا الإجلال استطاعت الفتاتان، أثناء هذه اللحظات التى يمضى فيها المرء عكس ميوله الحقيقية، أن تلقيا متعة مجنونة فى انتهاك القدسيات التى جرى الحديث عنها. فقد كان إجلال الفتاة لوالدها الشرط الأكيد لرجس

(١) شهر مخصص لتكريم العذراء لدى بعض الطوائف المسيحية.

أفعالها. ولعله كان من الجدير بهما دون شك أن تحجبا النفس عن تلك الفعلة التدنيسية، لكن الفعلة تلك ما كانت تعبر عنهما تعبيراً كاملاً. وقد راحتا على أى حال تتناقصان حتى الزوال التام كلما أخلت هذه العلاقات الشهوانية المرضية، هذا الاضطراب العكر الغامض، المكان لدفء صداقة سامية طاهرة. فقد كان يمر فى خاطر صديقة الآنسة "فانتوى" أحياناً الفكرة المزعجة التى قوامها أنها ربما عجلت فى موت "فانتوى". إن صديقة الآنسة "فانتوى"، إذ قضت سنوات فى فك طلاسم التى لفها "فانتوى" وحددت الطريقة الأكيدة لقراءة تلك الحروف الهيروغليفية المجهولة، قد وجدت على أى حال العزاء فى ضمان مجد خالد ومعوض للموسيقى الذى عكرت صفو سنيه الأخيرة. وإنما تنتج عن علاقات لم تكرسها القوانين روابط قربى بمثل تعدد وتعقد تلك التى تنشأ عن الزواج ولكنها أمتن فقط. ألسنا نشهد فى كل يوم، حتى دون التوقف عند علاات ذات طبيعة خاصة إلى هذا الحد، أن الزنا حينما يبنى على الحب الحقيقى لا يزعزع المشاعر العائلية وواجبات القربى، بل هو ينشطها. فإن الزنا حينئذ يدخل الروح فى الحرف الذى غالباً ما كان الزواج خلاه ميتاً. وإن فتاة بارة ترتدى ثوب الحداد من باب اللياقة الصرفة على زوج أمها الثانى لن تستدر ما يكفى من دموع لتبكى الرجل الذى اختارته أمها بين الجميع عشيقاً لها. والآنسة "فانتوى" على أى حال لم تفعل ما فعلت إلا من باب السادية، وما كان ذلك ليعذرها، لكنما صادفت فيما بعد بعض العذوبة فى التفكير فى ذلك. لابد أنها كانت تتبين بالتأكيد، أقول فى نفسى، لحظة كانت تدنس وصديقتها صورة والدها، أن لم يكن كل ذلك سوى مرض وجنون ولم يكن الخبث الحقيقى المفرح الذى كانت تمنته. كانت الفكرة التى قوامها أن الأمر تظاهر بالخبث تفسد متعتها. ولكن إن أمكن أن تعاودها هذه الفكرة فيما بعد فلابد أنها أنقصت عذابها مثلما سبق أن أفسدت متعتها. ولابد أنها قالت فى نفسها: "ما كان ذاك أنا، لقد كنت مسلوبة العقل. فإنى أنا مازلت أستطيع أن أصلى لأجل والدى وأن لا أيأس من طيبته." لكنما يمكن أن لا تكون هذه الفكرة التى حضرتها بالتأكيد فى غضون المتعة قد حضرتها فى أثناء العذاب. ووددت لو أستطيع إدخالها فى خلدها. وإنى لعلى يقين أنى كنت أحسنت إليها وكنت استطعت أن أعيد بينها وبين ذكرى والدها تواصلاً على شىء من العذوبة.

كانت قد استخلصت"(١)، كما هى الحال فى المفكرات التى تستحيل قراءتها والتى دون فيها كيميائى عبقرى لا يعلم أن الموت قريب إلى هذا الحد اكتشافات ربما ظلت مجهولة أبداً، عن أوراق أعسر قراءة من مخطوطات بردى ترقطه كتابة مسمارية صيغة هذا الفرح المجهول الصحيحة أبداً، الخصبة أبداً، والأمل الروحانى لملاك الصبح الأرجوانى. أما أنا الذى كانت لى كذلك سبباً وربما أقل مما كانت ("فانتوى"، وهى كانت للحال فى هذا المساء نفسه أيضاً إذ أيقظت غيرتى على "ألبيرتين"، وسوف تكون مستقبلاً على وجه الخصوص، سبباً لعذابات ما أكثرها، فإنما أمكن بفضلها، ومن باب التعويض، أن يتناهى إلىّ النداء الذى لن أكف البتة من بعد عن سماعه - بما يشبه الوعد أن ثمة شيئاً آخر، يمكن تحقيقه بالفن دون شك، غير العدم الذى لقيته فى سائر الملذات

(١) يقصد صديقة الآنسة "ڤانتوى".

وفى الحب نفسه، وأن حياتى إن كانت تبدو لى باطلة إلى هذا الحد فإنها على الأقل لم تنجز كل شىء.

لقد كان ما سمحت بفضل كدها أن يعرف من "فانتوى"، كان فى الحقيقة كامل أعمال "فانتوى". كانت بعض جمل السوناتا التى لا يعرف الجمهور سواها، كانت، إلى هذه المقطوعة الموضوعة لعشر آلات، تبدو عادية جداً إلى حد لا يمكنك أن تدرك معه كيف وسعها أن تثير هذا القدر من الإعجاب. ومن ذلك أننا دهشون أن استطاعت مقطوعات مثل تفاهة "أنشودة النجمة" و"صلاة اليزابيث"[١] أن تستثير على مدى سنين فى الحفلات هواة متعصبين ينهكون أنفسهم فى التصفيق والصراخ "أعد" حينما يبلغ النهاية ما لم يكن مع ذلك إلا فقراً فاقد الطعم بالنسبة إلينا نحن الذين نعرف "تريستان" و"ذهب الراين" و"المبتزون". لابد أن نفترض أن تلك الألحان التى لا طابع لها كانت تحتوى مذ ذاك بمقادير متناهية الصغر، وربما كانت بذلك عينه أقرب للفهم، شيئاً من أصالة الروائع التى تحتفظ وحدها بقيمة فى نظرنا إما عدنا إلى الماضى، لكنما الكمال فيها ربما حال دون أن تفهم؛ وربما أعدت لها الطريق إلى القلوب. ومهما يكن من أمر، فإنها إن كانت تولى شعوراً مسبقاً غامضاً بجمالات آتية فقد كانت تدعها فى دائرة المجهول الكامل. والأمر سواء فيما يخص "فانتوى"، فلو لم يدع فى مماته - باستثناء بعض أجزاء السوناتا - إلا ما استطاع أن ينهيه فربما كان ما عرفنا منه، إما قيس بعظَمه الحقيقى، أمراً زهيداً مثلما هى الحال بالنسبة إلى "فيكتور هوغو" مثلاً لو أنه مات بعد "مشيَة الملك" جان "الحربية" و"خطيبة ضارب الدف" و"اغتسال سارة" دون أن يكون كتب "أسطورة القرون" و"التأملات": ولعل ما هو فى نظرنا آثاره الحقيقية كان لبث احتمالياً بحتاً ومجهولاً كما هى تلك العوالم التى لا يصل إليها إدراكنا والتى لن نكون عنها فكرة فى يوم.

كان ذاك التباين الظاهر وذاك الاتحاد العميق بين العبقرية (والموهبة، أيضاً وكذلك الفضيلة) ووعاء الرذائل الذى غالباً جداً ما تكون متضمنة فيه ومحفوظة، مثلما اتفق ذلك لـ "فانتوى"، كانا يستقرآن، وكأنما فى مرموزة مألوفة، فى اجتماع المدعوين الذين وجدتنى بينهم فى نهاية العزف الموسيقى. فقد كان ذاك الاجتماع، على الرغم من اقتصاره هذه المرة على صالون السيدة "فيردوران"، شبيهاً باجتماعات كثيرة غيره يجهل معظم روادها المكونات التى تدخل فيها والتى يدعوها الصحفيون الفلاسفة - إن كانوا على اطلاع يسير - باريسية أو "بنميه"[٢] أو "دريفوسية" دون أن يرتابوا بإمكان مشاهدتها فى "بطرسبورغ" وفى برلين ومدريد وفى جميع الأزمان على حد سواء. فلئن اجتمع هذا المساء فى منزل السيدة "فيردوران" أمين الدولة المساعد للفنون الجميلة، وهو رجل فنان رفيع التربية وسنوبى، وبعض الدوقات وثلاثة سفراء بصحبة زوجاتهم فالسبب القريب والمباشر لهذا الحضور إنما كان جوهره العلاقات القائمة بين السيد "دو شارلوس" و"موريل"، وهى العلاقات التى كانت تبعث فى صدر البارون الرغبة فى إعطاء نجاحات معبوده الشاب أوسع الأصداء

---

(١) من أوبرا "تأنهويزر" من أعمال "ڤاغنر".

(٢) للتذكير بالفضيحة السياسية المالية التى وقعت فى أمور ذلك البلد عام ١٨٩٢.

وفى الحصول له على صليب جوقة الشرف. أما السبب الأبعد الذى جعل هذا الاجتماع ممكناً فأن فتاة تقيم مع الآنسة "فانتوى" علاقات موازية لتلك التى بين "شارلى" والبارون قد وضعت فى دائرة الضوء سلسلة من الأعمال العبقرية والتى شكلت كشفاً عظيماً إلى حد لن يلبثوا معه أن يعلنوا عن اكتتاب تحت رعاية وزير التعليم العام من أجل إقامة تمثال لـ "فانتوى". وقد كانت علاقات البارون بـ "شارلى" على أية حال مفيدة لتلك الأعمال بقدر ما كانت علاقات الآنسة "فانتوى" بصديقتها، والأولى ضرب من الطريق العرضى، من "القادومية" التى كان العالم بفضلها سيدرك تلك الأعمال دون أن يلتف لبلوغها، إن لم يكن عن طريق لا فهم يدوم فترة طويلة فعلى الأقل عن طريق جهل كامل كان يمكن أن يستمر سنوات. ففى كل مرة تقع فيها حادثة فى متناول الفكر العامى الذى للصحفى الفيلسوف، يعنى بعامة حادثة سياسية، يوقن الصحفيون الفلاسفة أن ثمة شيئاً تغير فى فرنسه وأن الناس لن يشهدوا ثانية بعد مثل هذه الأمسيات، ولن يعجبوا من بعد بـ "إبسن" و"رونان" و"دوستويفسكى" و"أنونزيو" و"تولستوى" و"فاغنر" و"شتراوس". ذلك أن الصحفيين الفلاسفة يتخذون من الخلفيات المشبوهة لتلك التظاهرات الرسمية حجة ليجدوا شيئاً من الانحطاط فى الفن الذى تمجده والذى غالباً ما يكون من أكثرها جميعها تزمتاً. فإنه ما من اسم من بين أكثرها تجلة من جانب الصحفى الفيلسوف لم يفسح فى المجال لمثل هذه الاحتفالات الغريبة بصورة طبيعية تماماً وإن تكن غرابتها أقل جلاء وأفضل تخفية. أما بالنسبة لهذه الحفلة فقد كانت العناصر الفاسدة التى تتضافر فيها تثيرنى من وجهة نظر أخرى. كنت بالتأكيد أيضاً قادراً أكثر من أىّ آخر على التفريق بينها إذ تعلمت كيف أعرف كلاً منها بمفرده، ولاسيما أن بعضها، تلك التى تتعلق بالآنسة "فانتوى" وصديقتها، كانت حينما تحدثنى عن "كومبريه" إنما تحدثنى أيضاً عن "ألبيرتين" يعنى عن "بالبيك" بما أننى أزمع، لأنى سبق لى أن رأيت فيما مضى الآنسة "فانتوى" فى "مونجوفان" وعرفت علاقة صديقتى الحميمة مع "ألبيرتين"، أن أجد عما قليل، فى عودتى إلى مسكنى، بدلاً من العزلة، "ألبيرتين" فى انتظارى؛ وتلك التى تتعلق بـ "موريل" والسيد "دو شارلوس"، وكانت إذ تحدثنى عن "بالبيك" حيث رأيت علاقاتهما تبدأ على رصيف "دونسيير"، تحدثنى عن "كومبريه" وعن جانبيها، ذلك لأن السيد "دو شارلوس" كان واحداً من أولئك "الغيرمانتيين" كونتات(١) "كومبريه" الذين يسكنون "كومبريه" دون أن يكون لهم مسكن فيها، ما بين سماء وأرض، على غرار "جيلبير لوموفيه" فى زجاجيته، وكان "موريل" ابن ذاك الخادم العجوز الذى عرفنى بالسيدة ذات الأثواب الوردية وسمح لى بعد سنوات كثيرة أن أتعرف فيها السيدة "سوان".

وسأل السيد "فيردوران" "سانييت" قائلاً: "لقد ردت على أحسن وجه، أليس كذلك؟" فأجاب متلعثماً: "أخشى فقط أن تسىء براعة "موريل" ذاتها قليلاً إلى الشعور العام للعمل الفنى." - "تسىء؟ وما عساك تقصد بذلك؟" يقول السيد "فيردوران" بأعلى صوته فيما يسارع مدعوون، وهم كما الأسود على استعداد لافتراس الرجل المجندل أرضاً: "آه! لست أرمى إليه فقط..." - "ولكنه لم

(١) جمع "كونت" وهو لقب فى سلم النبلاء.

يعد يعلم ما يقول. يرمي إلي؟" - "لا...بد ... من الاستماع... مرة أخرى كي أصدر حكماً بالإحكام." وقال السيد "فيردوران" وقد أخذ رأسه بين يديه: "بالإحكام! إنه مجنون! ويجدر أن يحمل بعيداً." - "ذلك يعني: بالدقة، وتقول أنت بنفسك بدقة محكمة. وأقول إني لا أستطيع إصدار حكم بالإحكام." - "وأنا أقول لك بدوري أن اغرب عن وجهي"، يقول السيد "فيردوران" بأعلى صوته وقد انتشى بغيظه وهو يدله على الباب بإصبعه والعين منه متطايرة الشرر، "فلست أسمح أن يجرى الحديث على هذا النحو في بيتي!" ومضى "سانييت" وهو يخط دوائر بجسمه كما يفعل رجل مخمور. وظن بعض الناس أنه لم يكن مدعواً كيما يلقى به خارجاً بهذه الصورة. وإن سيدة وثيقة الصداقة معه حتى ذاك، وسبق له بالأمس أن أعارها كتاباً قيماً، ردته له في الغد دونما كلمة ويكاد لا يغلفه غلاف ورقي جعلت عليه عنوان "سانييت"، ولا شيء غيره، بيد رئيس خدمها، فما كانت تريد "أن تدين بشيء لمن بدا واضحاً أنه بعيد عن أن يحسن في عين النواة الصغيرة. وقد لبث "سانييت" على أي حال في جهل دائم لهذه الوقاحة، فإنه لم تكن انقضت خمس دقائق على المشادة مع السيد "فيردوران" حتى أقبل خادم خاص يعلم المعلم أن "سانييت" صريع أزمة قلبية في باحة الفندق. لكن الأمسية لم تكن بلغت نهايتها. وقال: "اعملوا على إعادته إلى منزله"، قال المعلم الذي شبه فندقه "الخاص"، كما لعل مدير فندق "بالبيك" كان قال، شبه والحالة هذه بتلك الفنادق الكبرى التي يسارعون فيها إلى إخفاء الوفيات المفاجئة كي لا يدب الرعب في قلوب الزبائن، والتي يخفون فيها المتوفى في خزانة الأطعمة مؤقتاً إلى حين يعمدون، وإن كان في حياته من ألمع الشخصيات وأكرمها، إلى إخراجه خفية من الباب المخصص لـ "لجلائين" ومحضري المرق. وما كان "سانييت" قد مات على أي حال. فقد عاش بضعة أسابيع بعد، ولكن دون أن يستعيد وعيه إلا بصورة عابرة.

كرر السيد "دو شارلوس"، ساعة استأذنه مدعووه بالانصراف بعدما انتهت الموسيقا، ذات الخطأ الذي ارتكبه لدى مجيئهم. فلم يسألهم التوجه إلى المعلمة وإشراكهم هي وزوجها بعرفان الجميل الذي يبدونه له. وكان موكب طويل ولكنه موكب أمام البارون وحده، وما كان ذلك دون أن ينتبه هو للأمر، فإنه مثلما قال لي ذلك بعد بضع دقائق: "قد ارتدى شكل التظاهرة الفنية ذاته بعد ذلك جانباً تقوياً مضحكاً إلى حد ما". كانوا حتى يطيلون في عبارات الشكر بأقوال مختلفة كانت تخولهم البقاء لحظة إضافية بالقرب من البارون فيما كان الذين لم يهنئوه بعد على نجاح حفلته يتوقفون ويراوحون مكانهم. (وكم من زوج رغب في الانصراف، لكن زوجته، وهي سنوبية مع أنها دوقة، كانت تحتج قائلة: "لا، لا، ينبغي أن لا نذهب، حتى إن اضطررنا إلى الانتظار ساعة، دون أن نكون شكرنا "بالاميد" الذي كلف نفسه كل هذا العناء. فليس يستطيع سواه في الوقت الراهن أن يقدم حفلات كهذه." ولعل أحداً ما كان فكر أن يعرفوا به السيدة "فيردوران" أكثر مما يفعلون بعاملة مسرح اصطحبت إليه سيدة كبيرة لمساء واحد كامل الأرستقراطية.) "هل كنت البارحة عند "إيليان دو مونمورانسي" يا ابن عمي؟" تقول السيدة "دو مورتمار" وبها رغبة في تطويل الحديث" - "آه! يا إلهي، لا. إني أحب "إيليان" ولكني لا أفهم معنى دعواتها. لا شك أني بليد الذهن"، يضيف قوله بابتسامة عريضة مشرقة فيما كانت السيدة "دو مورتمار" تحس أنها ستحصل على باكورة طرفة من

"بالاميد" مثلما كان لها فى الغالب من "أوريان". - "لقد تسلمت فعلاً منذ خمسة عشر يوماً بطاقة من "إيليان" الظريفة. وكان فوق اسم "مونمورانسى" المشكوك فيه هذه الدعوة اللطيفة: يا ابن العم، كن ذا فضل علىّ وفكر بى يوم الجمعة المقبل فى التاسعة والنصف. وكانت قد خطت تحتها هاتان الكلمتان الأقل ظرفاً: الرباعى التشيكى. وبدوتا متعذرتى الفهم ودون أية علاقة فى جميع الأحوال بالجملة السابقة أكثر مما هى تلك الرسائل التى نرى أن كاتب الرسالة قد خط على ظهرها رسالة أخرى بدأها بالكلمتين التاليتين: "صديقى العزيز" دونما تتمة ولم يتخذ ورقة أخرى، إما سهواً وإما اقتصاداً فى الورق. إنى أحب "إيليان" بالتأكيد، ولذلك لم أحقد عليها واكتفيت بأن لا أحسب حساباً للكلمتين الغريبتين اللتين فى غير موقعهما، أى الرباعى التشيكى؛ ولما كنت رجلاً منظماً فقد وضعت فوق مدخنتى الدعوة إلى التفكير بالسيدة "دو مونمورانسى" نهار الجمعة فى الساعة التاسعة والنصف. ومع أننى مشهور بطبعى المطيع الدقيق اللين العريكة، كما يقول "بوفون" عن الجمل - وأشرق الضحك واتسعت دائرته من حول السيد "دو شارلوس" الذى كان يعلم أنهم يعدونه بالعكس الرجل الأصعب مراساً - فقد تأخرت بضع دقائق (الوقت اللازم لنزع ملابسى النهارية) ودون أن يوافينى إحساس مفرط بتأنيب الضمير ظناً منى أن التاسعة والنصف وضعت مكان العاشرة. وفى تمام العاشرة اتخذت مكانى، وأنا أرتدى مبذلاً جيداً وأضع رجلى فى خفين سميكين، قرب نار الموقد وأخذت أفكر بـ "إيليان"، مثلما سبق أن طلبت منى ذلك، وبشدة لم تأخذ بالتناقص إلا فى العاشرة والنصف. قولى لها، رجوتك، أنى امتثلت امتثالاً دقيقاً لمطلبها الجرىء. وفى اعتقادى أنها ستكون مسرورة.".

وضحكت السيدة "دو مورتمار" حتى بلغت حد الإغماء، وكذلك فعل السيد "دو شارلوس" و"هل تذهب غداً إلى منزل أبناء عمومتنا "لاروشفوكو؟" تضيف قولها دون أن يخطر لها أنها تجاوزت وأفرطت فى الوقت الذى يمكن أن تخص به. - "أوه! ذلك مستحيل، لقد دعونى مثلك فيما أرى إلى الأمر الذى يستحيل تصوره وتحقيقه كأكثر ما يكون والذى يدعى، إن صدقت بطاقة الدعوة: "حفلة شاى راقصة". كانوا يعدوننى ماهراً جداً حينما كنت شاباً، ولكنى أشك أن كان باستطاعتى، دون أن أخل باللياقة، تناول الشاى وأنا أرقص. وإنى ما أحببت فى يوم أن آكل أو أشرب بطريقة قذرة. ستقولين لى إنه لم يعد علىّ اليوم أن أرقص، لكننى ربما خشيت، حتى إن كنت جالساً جلسة مريحة أتناول فيها الشاى - الذى أرتاب على أى حال من نوعيته بما أنه يدعى راقصاً -، أن يسكب مدعوون أكثر شباباً منى وربما أقل مهارة مما كنت فى سنهم أكوابهم على ثوبى، مما يقطع علىّ متعة إفراغ كوبى". ولم يكن السيد "دو شارلوس" حتى يكتفى بأن يغفل السيدة "فيردوران" فى حديثه وأن يتكلم عن موضوعات من كل صنف (كان يبدو أنه يجد متعة فى التوسع فيها وتنويعها فى سبيل المتعة القاسية التى كانت على الدوام متعته فى أن يلبث فى وقفة لا تنتهى الأصدقاء الذين كانوا ينتظرون بصبر منهك أن يحين دورهم). كان يوجه حتى انتقادات حول كامل القسم الذى كانت السيدة "فيردوران" مسؤولة عنه: "ولكن مادمنا بهذا الصدد، ما عسى تكون أنصاف القصعات هذه التى تشبه تلك التى كنا نجىء فيها حينما كنت شاباً بأشربة من محل "بواريه بلانش"؟ لقد قال

لى أحدهم منذ قليل إنها للقهوة المثلجة". لكنى لم أبصر فيما يخص القهوة المثلجة لا قهوة ولا مثلجات. فيالها حاجات صغيرة غريبة غير واضحة الغاية!" كان السيد "دو شارلوس"، بغية أن يقول ما يقول، قد وضع بصورة عامودية على فمه يديه اللتين بقفازين أبيضين ودور بحذر نظرته الفاحصة كما لو خشى أن يسمعه وحتى أن يراه أرباب المنزل، لكنما ذلك كان مجرد خدعة، فهو سيوجه بعد لحظات ذات الانتقادات للمعلمة نفسها ويأمرها بوقاحة بعد ذلك بقليل: "خصوصاً لا أكواب قهوة مثلجة بعد الآن! قدميها لمن ترغبين من بين صديقاتك أن تقبحى بيتها. ولكن حاذرى على وجه الخصوص أن لا تضعها فى الصالة فقد يختلط عليك الأمر وتعتقد أنك أخطأت القاعة، بما أنها بالضبط مباول.".

"ولكن، يا ابن العم، إنها ربما لا تعرف بعد كل شيء على أفضل وجه..."، تقول المدعوة وهى تخفض بدورها الصوت وتنظر إلى السيد "دو شارلوس" نظرة المستفهم، لا مخافة إغضاب السيدة "فيردوران"، بل مخافة إغضابه هو. - "نعلمها ذلك." وتضحك المدعوة قائلة: "لا يمكن أن تجد أستاذاً أفضل! إنها محظوظة! فالأكيد معك أن لن يكون ثمة نشاز". - "وفى كل الأحوال لم يكن شيء من ذلك فى الموسيقا." - "أوه! كانت رائعة. إنها من تلك المسرات التى لا تنسى. وبخصوص عازف الكمان العبقرى ذاك"، تضيف قولها وتظن فى سذاجتها أن السيد "دو شارلوس" يهتم بالكمان "فى حد ذاته"، "هل تعرف واحداً سمعته ذاك اليوم يعزف سوناتا لـ "فوريه" عزفاً رائعاً، إنه يدعى "فرانك"." - "أجل، يا للقباحة"، يجيب السيد "دو شارلوس" دون أن يهتم لفظاظة تكذيب مؤداه أن ابنة عمه تخلو من أى ذوق؛ "أنصحك فى ما كان من أمر عازف الكمان أن تقتصرى على عازفى أنا." كانت النظرات تزمع أن تعود سيرتها فى التبادل بين السيد "دو شارلوس" وابنة عمه، وهى مخفوضة مترصدة فى آن، فإن السيدة "مورتمار" كانت تزمع أن تقترح على السيد "دو شارلوس"، وهى تحمر خجلاً وتحاول باندفاعها تدارك هفوتها، أن يقيم أمسية لسماع "موريل". لكنما لم يكن هدف تلك الأمسية فيما يخصها إبراز موهبة، ذلك الهدف الذى ستزعم مع ذلك أنه هدفها والذى كان - فى الواقع - هدف السيد "دو شارلوس"، وما كانت ترى ثمة سوى فرصة لإقامة أمسية تتسم بأناقة خاصة وكانت تحصى مذ ذاك من عساها تدعو ومن تدع جانباً. وهذا الانتقاء، وهو الانشغال الرئيسى لدى الذين يقيمون احتفالات (أولئك الذين تبلغ الوقاحة أو الغباء بالصحف المجتمعية أن تدعوهم "بالنخبة")، إنما تفسد فى الحال النظرة - والكتابة - بصورة أشد عمقاً مما ربما فعل إيحاء أحد المنومين. كانت السيدة "دو مورتمار"، حتى قبلما فكرت بما سيعزفه "موريل" (والاهتمام يعدونه ثانوياً وبحق، فإنه حتى لو أبدى الجميع بسبب السيد "دو شارلوس" تأدباً فصمت فى أثناء الموسيقا، ما كان ليخطر لأحد فى المقابل أن يستمع إليه)، وبعدما قررت السيدة "دو فالكور" لن تكون فى عداد "المختارات"، قد اتخذت لهذا السبب نفسه هيئة التآمر والدسيسة التى تحط إلى حد بعيد من قدر نساء المجتمع أنفسهن اللواتى ربما وسعهن بأعظم اليسر أن يسخرن من القيل والقال. "أليس من سبيل إلى أن أقيم أمسية لنمكن من سماع صديقك؟" تقول السيدة "دو مورتمار" بصوت خفيض، ولا تستطيع، فيما تخاطب السيد "دو شارلوس" وحده، أن تمتنع عن إلقاء نظرة، وكأنما

خلب لبها، على السيدة "دو فالكور" (المستبعدة) كي تتأكد أن هذه الأخيرة على مسافة كافية كي لا تسمع. وقالت السيدة "دو مورتمار": "لا، لا يمكنها أن تميز ما أقول"، مستخلصة ذلك فى فكرها وقد طمأنتها للأمر نظرتها نفسها التى كان لها فى المقابل على السيدة "دو فالكور" تأثير مختلف تماماً عن التأثير الذى كانت تهدف إليه. وقالت السيدة "دو فالكور" وهى تبصر تلك النظرة: "ويحي، إن "مارى تيريز" تعد مع "بالاميد" شيئاً لابد أنى لا أشارك فيه." وصحح السيد "دو شارلوس" الذى لم يكن أكثر إشفاقاً على معارف ابنة عمه القواعدية منه على مواهبها الموسيقية قائلاً: "قصدك أن تقولى من ينعم بحمايتى". ثم قال بصوت قوى يمكن أن يسمعه كل من فى الصالة غير عابئ بتوسلاتها الصامتة: "بلى... مع أن ثمة خطراً دائماً فى نقل من هذا القبيل لشخصية أخاذة إلى إطار يلحق بها حكماً ضياعاً لسلطانه المتعالى ويظل علينا فى كل الأحوال أن نكيفه." وقالت السيدة "دو مورتمار" إن الصوت الخافت الناعم جداً الذى ورد به سؤالها كان جهداً ضائعاً بعد "المضخم" الذى نقل الجواب. وكانت مخطئة. فالسيدة "دو فالكور" لم تسمع شيئاً لأنها لم تفهم كلمة واحدة. وتناقصت مخاوفها وسرعان ما كانت خمدت لو لم تعمد السيدة "دو مورتمار"، خشية منها أن ترى خطتها أحبطت ومخافة أن تضطر إلى دعوة السيدة "دو فالكور"، وهى وثيقة العلاقة بها كى تهملها إن هى عرفت "قبل ذلك"، إلى الارتفاع بجفنيها باتجاه "إيديت" وكأنما ابتغاء أن لا يغيب عن ناظريها خطر داهم، دون أن تغفل خفضهما بسرعة كى لا تتمادى فى المضى فى الأمر قدماً. كانت تنوى فى اليوم الذى يلى الحفلة أن تكتب إليها واحدة من تلك الرسائل تتمة للنظرة الكاشفة، وهى رسائل نظنها حاذقة وأشبه ما تكون بإقرار لا تحفّظ فيه ويحمل توقيعاً. مثال ذلك: "عزيزتى "إيديت"، إنى افتقدك، وما كنت أتوقع كثيراً حضورك مساء البارحة (ولعل "إيديت" كانت قالت: وكيف تنتظرنى وهى لم يسبق أن دعتنى؟) لأنى أعلم أنك لا تحبين حباً شديداً هذا النوع من الاجتماعات التى تزعجك فى الغالب. وما كنا إلا لنزداد شرفاً بوجودك بيننا (لم تكن السيدة "دو مورتمار" تستخدم البتة لفظة "تشرفنا" إلا فى الرسائل التى تحاول فيها أن تكسب كذبة مظهر الحقيقة). تعلمين أنك دوماً فى بيتك عندنا. لقد أحسنت فعلاً على أى حال لأن الحفلة فشلت تماماً كسائر الأمور التى ترتجل فى ساعتين، إلخ...". لكن النظرة الجديدة المختلسة التى رُميتْ بها كانت قد أفهمت "إيديت" مذ ذاك كل ما كان يخفيه كلام السيد "دو شارلوس" المعقد. بل كانت تلك النظرة قوية إلى حد أن السر الواضح ومقصد التكتم الكامنين فيها ارتدا، بعدما صدما السيدة "دو فالكور"، على شاب من "البيرو" كانت السيدة "دو مورتمار" تنوى بالعكس دعوته. لكنه لما كان ظنوناً ورأى إلى حد البداهة صنوف التكتم التى يلجؤون إليها دون أن ينتبه أنها لم تكن موجهة إليه فقد داخله فى الحال حقد فظيع على السيدة "دو مورتمار" وأقسم أن سيذيقها ألف "مقلب"، كأن يأمر بإرسال خمسين كوباً من القهوة المثلجة إلى منزلها فى اليوم الذى لا تستقبل فيه وأن ينشر فى اليوم الذى تستقبل فيه إشعاراً فى الصحف مفاده أن الحفلة أجلت، وبيانات كاذبة عن الحفلات التالية تتضمن أسماء يعرفها الجميع عائدة لأشخاص يحرص الناس لأسباب مختلفة على استبعاد استقبالهم، وحتى التعرف إليهم.

كانت السيدة "دو مورتمار" مخطئة بانشغالها بالسيدة "دو فالكور". فقد كان السيد "دو شارلوس" عازماً على أن يأخذ على عاتقه إفساد الحفلة المقررة بما يجاوز كثيراً ما كان فعل حضور هذه الأخيرة. وقالت جواباً عن جملة "الإطار" التى مكنها حال الحساسية المفرطة المؤقتة لديها من أن تحزر معناها: "لكننا يا ابن العم سوف نجنبك أية مشقة، فإنى آخذ على نفسى تماماً أن أسأل "جيلبير" الاهتمام بكل شىء." - "لا، بالطبع لا، ولاسيما أنه لن يدعى. لن يتم شىء إلا عن يدى. فالأمر قبل كل شىء استبعاد الأشخاص الذين يملكون آذاناً كى لا يسمعوا." وتحولت ابنة عم السيد "دو شارلوس" التى كانت اتكلت على جاذبية "موريل" لتقديم أمسية يمكنها أن تقول فيها إنها خلافاً للكثير من القريبات "ظفرت بحضور بالاميد"، تحولت فجأة فكرها عن هيبة السيد "دو شارلوس" إلى الأشخاص الكثيرين الذين سيوقعها فى خصام معهم إن تدخل فى الاستبعاد والدعوة. كانت فكرة أن لن يكون الأمير "دو غيرمانت" (الذى كانت ترغب بسببه جزئياً استبعاد السيدة "دو فالكور" التى لا يستقبلها) مدعواً تبعث فيها الهلع. واتخذت عيناها مظهراً قلقاً. وسأل السيد "دو شارلوس" بجدية ظاهرة لم يدرك طابع السخرية الأساسى فيها: "هل يؤذيك النور القوى إلى حد ما؟" - "لا، إطلاقاً، كنت أفكر فى الحرج الذى يمكن أن يسببه ذلك، لا بسببى بالطبع بل بسبب ذوىّ، إن علم "جيلبير" أنى أقمت أمسية دون أن أدعوه، هو الذى لا يستقبل أربعة قطط دون أن..." - "لكننا سنبدأ بالضبط بإلغاء القطط الأربعة التى لن تتمكن إلا من المواء، وأظن أن ضجيج الأحاديث قد حال دون أن تدركى أن الأمر ليس أمر القيام بمجاملات بفضل أمسية تقام بل مباشرة الطقوس الشائعة فى كل احتفال حقيقى. ثم إن السيد "دو شارلوس" إذ حكم، لا أن الشخص التالى طال انتظاره، بل أنه من غير اللائق أن يبالغ فى صنوف الإكرام التى خص بها تلك التى فكرت بـ "موريل" أقل كثيراً مما فعلت بلوائح دعواتها الخاصة، أوعز لابنة عمه، مثل طبيب يوقف استشارته حين يحكم أنه صرف الوقت الكافى، أن تنسحب، لا بتوديعها بل بالاتجاه إلى الشخص الذى يلى مباشرة. "مساء الخير سيدة "مونتسكيو". كان ذلك رائعاً، أليس كذلك؟ لم أشاهد "هيلينا"، فقولى لها إن كل امتناع عام، حتى الأكثر نبلاً، كما هو امتناعها، إنما يحتمل استثناءات، إن كانت هذه باهرة كما كان حالها فى هذا المساء. فأن يكون ظهورك نادراً أمر جيد، أما أن تقدم على النادر، وهو سلبى فحسب الثمين فذلك أفضل بعد. وفيما يخص شقيقتك التى أقدر أكثر من أى شخص آخر "غيابها" المنتظم حيث لا يرقى ما ينتظرها إلى مستواها فإن حضورها فى تظاهرة مشهورة كهذه ربما كان على العكس امتيازاً وكان أولى شقيقتك، وهى بالغة المهابة، مهابة إضافية." ثم انتقل إلى شخص ثالث.

ودهشت أيما دهشة أن أرى هنا السيد "دارجنكور"، لطيفاً ممالئاً للسيد "دو شارلوس" بقدر ما كان بالأمس مجافياً له ويطلب أن يعرفوه بـ "شارلى" ويقول إنه يأمل أن يجىء للقياه، ذاك الرجل الرهيب جداً بالنسبة إلى صنف الرجال الذين ينتمى إليهم السيد "دو شارلوس". لكنه كان يعيش الآن محاطاً بهم. وليس يعنى ذلك بالتأكيد أنه أصبح من أشباه السيد "دو شارلوس". لكنه كان منذ بعض الوقت قد هجر زوجته إلى امرأة شابة من المجتمع الراقى كان يعبدها. وكانت، إذ هى ذكية، تشركه فى ميلها إلى الناس الأذكياء وتتمنى كثيراً أن تستقبل السيد "دو شارلوس" فى بيتها. لكن السيد

"دارجنكور" بالأخص، وهو شديد الغيرة وبه شيء من العجز وإذ يحس أنه لا يرضى تماماً المرأة التى أغراها ويود المحافظة عليها وسلواها فى آن واحد، ما كان بوسعه أن يفعل ذلك دون خطر إلا بإحاطتها برجال لا ضرر منهم كان يجعلهم هكذا يقومون بدور حراس الحريم. وقد أخذ هؤلاء يجدون أنه أصبح غاية فى اللطف ويعلنون أنه أشد ذكاءً مما ظنوا، وكان هو وعشيقته يسعدان جداً بذلك.

وذهبت مدعوات السيد "دو شارلوس" بشيء من السرعة. وكثيرات كن يقلن: "لست أود الذهاب إلى السكرستيا[1] (وهى الصالة الصغيرة التى كان البارون يتقبل فيها التهانى وإلى جانبه "شارلى")، ولابد مع ذلك أن يشاهدنى "بالاميد" كى يعلم أنى مكثت حتى النهاية." ولم تكن واحدة تهتم بالسيدة "فيردوران". وتظاهرت جملة منهن بأنهن لم يتعرفنها وأن يستودعن السيدة "كوتار" خطأ فيما يقلن لى عن زوجة الدكتور: "هى بالتأكيد السيدة "فيردوران"، أليس كذلك؟" وسألتنى السيدة "دارباجون" على مسامع ربة المنزل: "هل كان ثمة فى يوم رجل يدعى السيد "فيردوران"؟" وكانت الدوقات اللواتى كن يتريثن، كن إذ لا يجدن شيئاً من الأمور الغريبة التى توقعنها فى هذا المكان الذى أملنه مختلفاً عما كن يعرفن يستدركن أمورهن، لعدم توافر الأفضل، وذلك بكتم ضحكات لا تقاوم أمام لوحات "إيلستير"؛ أما بخصوص الباقى الذى كن يرينه أكثر مطابقة مما ظنن لما سبق أن عرفنه فقد كن يرددن الفضل فيه للسيد "دو شارلوس" بقولهن: "كم يحسن "بالاميد" تدبير الأمور! فقد يخرج غرائبية داخل مستودع أو مستراح فلا تكون لذلك أقل روعة." وأكرمهن نسباً كن أولئك اللائى يهنئن السيد "دو شارلوس" على نجاح أمسية ما كان بعضهن يجهل الدافع السرى إليها دون أن يربكهن ذلك على أية حال إذ تذهب هذه الجماعة - ربما فى تذكرها لبعض أزمنة فى التاريخ كانت أسرتها قد أدركت فيها مذ ذاك هوية واعية تماماً - فى ازدرائها لتحسبات الضمير مذهبها فى التقيد باللياقة. ودعت عدة منهن "شارلى" فى المكان نفسه إلى أمسيات يجيء فيها لعزف سباعية "فانتوى"، لكنما لم يخطر لأى منهن أن تدعو إليها السيدة "فيردوران". وكانت هذه قد بلغت أقصى درجات الحنق حينما أراد السيد "دو شارلوس"، وما كان بوسعه وهو محمول على متن سحابة أن يتبين الأمر، أن يدعو المعلمة تأدباً إلى مشاطرته فرحه. وإنما قال أستاذ مذاهب احتفالات الفن، ربما استسلاماً لميله إلى صنعة الأدب أكثر منه إلى فورة كبرياء، قال للسيدة "فيردوران": "هيا، هل أنت راضية؟ أظن أن المرء ربما رضى بأقل من ذلك؛ ترين أنى حينما أهتم بإقامة احتفال فليس ما أبلغ نصف نجاح. وما أدرى إن كانت معلوماتك فى دنيا الشعارات تمكنك من تقدير أهمية التظاهرة تقديراً صحيحاً وكذلك الوزن الذى رفعته وحجم الهواء الذى أزحته من أجلك. فقد ضم منزلك ملكة نابولى، وشقيق ملك "بافيير" والأعيان الثلاثة الأكثر قدماً. إن كان "فانتوى" محمداً فيمكننا أن نقول إنا أزحنا من أجله الجبال الأكثر رسوخاً. فكرى أن ملكة نابولى جاءت لحضور حفلتك من "بويى"، وذلك أصعب عليها من مغادرة الصقليتين"، يقول وفى القول مقصد استهانة على الرغم من إعجابه بالملكة "إنه حدث تاريخى. فكرى أنها لم تخرج ربما فى يوم

(١) قاعة ملحقة بالكنيسة تحتوى الملابس والأدوات والأوانى المستخدمة فى الطقوس الدينية.

منذ احتلال "غاييت"(١). ومن المرجح أنهم سيضعون فى القواميس يوم احتلال "غاييت" ويوم أمسية آل "فيردوران" على أنها من تواريخ احتلت الأوج. وإن المروحة التى طرحتها جانباً لتحسن التصفيق لـ "فانتوى" لتستحق أن تلبث أكثر شهرة من المروحة التى حطمتها السيدة "دو ميترنيخ" لأن هناك من كان يندد بـ "فاغنر" بالتصغير." - "وهى حتى نسيتها، مروحتها تلك"، تقول السيدة "فيردوران" وقد هدأت مؤقتاً جراء تذكر الود الذى أبدته لها الملكة؛ وأرت السيد "دو شارلوس" المروحة فوق الكنبة. فصاح السيد "دو شارلوس" وهو يقترب بإجلال من الذخيرة الثمينة: "آه! كم هى مؤثرة! وهى تزداد تأثيراً فى النفس بقدر ما هى شنيعة، والبنفسجة الصغيرة شىء لا يصدق!" وتهزه تشنجات من انفعال وسخرية بالتناوب: "يا إلهى، لست أدرى إن كنت تحسين هذه الأمور كما هى حالى. ولعل "سوان" كان بكل بساطة قضى تشنجاً لو أنه رأى ذلك. أعلم تمام العلم أنى سأشترى تلك المروحة فى السوق التى تقيمها الملكة مهما عظم الثمن. فإنها سوف تباع بما أنها لا تملك شروى نقير"، يضيف قوله إذ لا ينى الاغتياب المرير لدى البارون يختلط بأصدق عاطفة الإجلال مع أنهما ينطلقان من طبيعتين مختلفتين لكنهما تجتمعان لديه.

بل كان يمكن أن ينطبق كل منهما بالتناوب على الواقعة نفسها. ذلك أن السيد "دو شارلوس" الذى كان يسخر من إملاق الملكة من أعماق رفاهه بوصفه رجلاً غنياً كان هو نفسه الذى غالباً ما يمجد الفقر ويجيب حينما يجرى الحديث عن الأميرة "مورا" ملكة الصقليتين بقوله: "لست أعلم عمن تبغون التحدث. فليس سوى ملكة واحدة لنابولى وهى عظيمة هذه، ولا تملك عربة. لكنها من الحافلة العامة التى تستقلها تحطم الطواقم جميعاً وقد تجثو فى التراب على ركبتيك إن رأيتها تمر طريقها.

"سوف أوصى بها لأحد المتاحف. ولابد حتى ذاك من إعادتها إليها كى لا تضطر إلى استئجار عربة لترسل فى طلبها. ولعل ما كان الأوفر ذكاء، بالنظر إلى الأهمية التاريخية لمثل هذه الحاجة، أن تُسرق هذه المروحة. لكن ذلك سوف يزعجها - إذ من المرجح أنها لا تملك غيرها!" يضيف قوله وهو ينفجر ضاحكاً. "على أى حال ترين أنها جاءت كرمى لى، وليست هذه المعجزة الوحيدة التى صنعتها. ولست اعتقد أن ثمة من يستطيع فى الوقت الراهن تحريك القوم الذين جئت بهم. لابد بأية حال من إعطاء كل واحد قسطه، فإن "شارلى" والموسيقيين الآخرين قد عزفوا عزف الآلهة. ثم أنت أيتها المعلمة العزيزة، يضيف قوله متنازلاً، كان لك نصيبك فى الدور الذى تم فى هذا الاحتفال، ولن يغيب اسمك عنه. لقد احتفظ التاريخ باسم الغلام الذى سلح جان دارك حينما ذهبت؛ وكنت أنت بوجيز العبارة صلة الوصل ومكنت من الانصهار بين موسيقا "فانتوى" ومنفذها العبقرى، وقد أسعفك ذكاؤك فى إدراك الأهمية الأساسية لكامل ترابط الظروف الذى قد يمكن المنفذ من الإفادة من كامل وزن شخصية ضخمة (لو لم يتعلق الأمر بى لقلت: وفرتها العناية الربانية) خطر لك أن تسألها ضمان هيبة الاجتماع وأن يوفر لكمان "موريل" الآذان المولعة مباشرة باللغات الأكثر ذيوعاً. لا، لا، ليس ذلك بالشىء القليل. وليس من شىء زهيد فى إنجاز متكامل كهذا. كل شىء يصب فى هذا المنحى.

---

(١) مرفأ على المتوسّط فى إيطاليا أدّى استسلامه عام ١٨٦١ إلى القضاء على مملكة الصقليين.

فقد كانت "دوراس" رائعة، وكان كل شيء فى نهاية المطاف". وإذ هو يحب التأنيب ختم قائلاً: "لهذا السبب عارضت أن تدعى من أولئك الأشخاص المفرقين الذين كانوا قاموا فى حضرة الأشخاص المتفوقين الذين كنت أجيئك بهم بدور الفواصل فى عدد ما. فيما يقتصر الآخرون على أن يكونوا مجرد أعشار. إنى أحس تماماً هذه الأمور. تدركين أنه لابد من تفادى الأخطاء حينما نقيم احتفالاً ينبغى أن يكون خليقاً بـ "فانتوى" وبمؤديه العبقرى وبك، وبى (وتحالفنى الجرأة فى قول ذلك). فلو أنك دعوت السيدة "موليه" لخاب كل شيء. ولكانت تلك النقطة المضادة المحيدة التى تجعل الشراب دون مفعول. وكانت انطفأت الكهرباء وما وصلت المحمصات فى الوقت المحدد وأصاب شراب البرتقال بالمغص الناس جميعاً. فهى الشخص الذى ما كان ينبغى استقباله. فما كان صوت انطلق من النحاسيات، كما هى الحال فى مسرحية غرائبية، لدى مجرد ذكر اسمها، وكان ارتج فجأة على الناى والمزمار. و"موريل" نفسه، حتى إن هو استطاع إصدار بعض النغمات، ما كان ليسعه ذلك من بعد وكنت حصلت بدلاً من سباعية "فانتوى" على محاكاة لها ساخرة على يد "بيكميسير"(١) تنتهى بين صيحات الاستهزاء. لقد أحسست تماماً، أنا الذى يؤمن كثيراً بتأثير الأشخاص، أحسست فى تفتح الحركة البطيئة الواسعة التى تنفتح حتى الأعماق على غرار زهرة، وفى فيض الانشراح فى الحركة الختامية التى لم تكن سريعة فحسب بل خفيفة مرحة مرحاً لا يضاهى، أن غياب المدعوة "موليه" كان يلهم الموسيقيين وتتوسع به فرحاً حتى الآلات الموسيقية نفسها. والمرء على أية حال لا يدعو البوابة يوم يستقبل الملوك جميعهم." كان السيد "دو شارلوس"، حينما يسميها المرأة "موليه" (مثلما كان يقول، بلهجة محببة تماماً على أى حال، المرأة "دوراس") إنما ينصفها. ذلك أن كل تلك النساء كن ممثلات فى العالم، والصحيح أن الكونتيسة "موليه" حتى إن نظرنا إليها من وجهة النظر هذه لم تكن فى مستوى سمعة الذكاء الخارقة التى يشيعونها عنها والتى كانت توفر مادة للتفكير لهؤلاء الممثلين أو الروائيين الضحلين الذى يحوزون فى بعض الأزمنة مكانة يطبعها النبوغ إما بسبب ضحالة زملائهم الذين ليس من فنان رفيع المستوى بينهم يستطيع أن يظهر ما هى الموهبة الحقيقية، وإما بسبب ضحالة الجمهور الذى وإن توفرت شخصية خارقة سوف يعجز عن فهمها. والأفضل، فى حالة السيدة "موليه"، إن لم يكن من الصحيح تماماً، أن نقتصر على التفسير الأول. ولما كانت الدنيا مملكة العدم فليس بين مزايا مختلف نساء العالم سوى درجات زهيدة تستطيع أحقاد أو خيال السيد "دو شارلوس" وحدها أن تضخمها إلى حد غير معقول. ولئن تحدث مثلما فعل منذ قليل بهذه اللغة التى هى مزيج ثمين من أشياء الفن والعالم فذلك بالتأكيد لأن غضبات المرأة العجوز لديه وثقافة رجل المجتمع ما كانت توفر للبلاغة الحقيقية لديه إلا موضوعات تافهة. ولما كان عالم الفوارق لا وجود له على وجه البسيطة بين جميع البلدان التى يسوى إدراكنا بينها فلا وجود له بالأحرى فى دنيا المجتمعات. وهل له وجود فى مكان ما على أى حال؟ لقد بدا أن سباعية "فانتوى" قالت لى أن نعم. ولكن أين؟

---

(١) Backmesser: أحد شخوص أوبرا لـ"ڤاغنر" يثير السخرية لتكلفه ما لا يستطيع من غناء.

ولما كان السيد "دو شارلوس" يحب كذلك أن يكرر ويعيد من واحد إلى آخر ويزرع الخصام ويفرق ليسود فقد أضاف قوله: "لقد حرمت السيدة "موليه" حين لم توجهى الدعوة لها فرصة أن تقول: "لست أدرى لماذا دعتنى السيدة "فيردوران" هذه، ولست أعلم من عسى يكون هؤلاء الناس، فإنى لا أعرفهم." لقد سبق أن قالت السنة الماضية إنك ترهقينها بصنوف توددك. إنها حمقاء فلا توجهى لها دعوة من بعد. وهى بالإجمال ليست شخصية خارقة إلى هذا الحد. وبوسعها بالطبع المجىء إلى منزلكم دون أن تبدى تكلفاً بما أنى أجىء أنا." وخلص إلى القول: "يبدو لى بوجه الإجمال أنك تستطيعين أن تشكرينى، إذ الأمر بالمسيرة التى سارها قد بلغ الكمال. لم نجئ دوقة "غيرمانت"، لكننا لسنا نعلم فربما كان الأمر أفضل هكذا. لن نحقد عليها وسوف نتذكرها لمرة أخرى ولا يمكننا على أية حال أن لا نتذكرها فإن عينيها إنما تقولان لنا: "لا تنسنى" بما أنهما زهرتا حب(١)." (وكنت أفكر فى داخلى كم كان ينبغى أن تكون الروح "الغيرمانتية" - التصميم على الذهاب هنا وليس هناك - قوية كيما يتغلب لدى الدوقة على خشية "بالاميد"). "يغريك، إزاء نجاح كامل إلى هذا الحد، أن تبصر فى كل مكان على غرار "بيرناردان دو سانبيير"(٢) يد العناية الإلهية. لقد افتتنت الدوقة "دو دوراس" وهى حتى كلفتنى أن أقول لك ذلك"، يضيف السيد "دو شارلوس" وهو يشدد على الكلمات كما لو انبغى للسيدة "فيردوران" أن تعد ذلك شرفاً كافياً. كافياً بل يكاد لا يصدق إذ رأى من الضرورى أن يقول كيما يصدق: "أجل"، وقد عصف بع جنون من يريد "جوبيتير" أن يهلكه. "لقد دعت "موريل" إلى بيتها حيث سيقدم البرنامج ذاته، وأفكر حتى فى طلب دعوة للسيد "فيردوران". كانت هذه المجاملة الموجهة للزوج وحده، ودون أن تكون الفكرة حتى راودت السيد "دو شارلوس"، الإهانة الأكثر إيلاماً للزوجة التى كانت عازمة تماماً، إذ تظن لها الحق إزاء العازف، بمقتضى نوع من مرسوم موسكوبى مطبق فى العشيرة الصغيرة، أن تمنعه من العزف خارجاً دون إذنها الصريح، على أن تحول دون مشاركته فى أمسية السيدة "دو دوراس".

كان السيد "دو شارلوس" لمحض تكلّمه بهذه الطلاقة يثير حنق السيدة "فيردوران" التى ما كانت تحب أن يشق أحد عصا الطاعة فى العشيرة الصغيرة. فكم مرة، ومنذ فترة "لاراسبلبير"، لم تصح، وهى تسمع البارون لا ينى يكلم "شارلى" بدلاً من أن يكتفى بتنفيذ دوره فى العزف الجماعى داخل النواة الصغيرة، ولم تصح وهى تدل على البارون: "يا له لسان يملكه، وأى ثرثار هو؛ آه! إن عد الثرثارون فهو ثرثار مرموق!" لكن الأمر كان أشد سوءاً هذه المرة. فلم يكن السيد "دو شارلوس" يدرك، وقد انتشى بأقواله، أنه بإقراره بدور السيدة "فيردوران" ويرسم حدود ضيقة له إنما يهيج ذاك الشعور الحاقد الذى لم يكن عندها سوى شكل خاص، سوى شكل اجتماعى للغيرة. كانت السيدة "فيردوران" تحب حقاً رواد المنزل والمخلصين للعشيرة الصغيرة وتريدهم لمعلمتهم كلياً. وإذ كانت

---

(١) هى زهرة الـMyosotis فى اليونانية وتعنى آذان الفأر أو "لا تنسنى" Vergissmeinicht ، Nemóuliez pas

(٢) Bernardin de Saint-Pierre صاحب "بول وڤرچينى".

تضحي بشيء كي لا تخسر كل شيء، كهؤلاء الغياري الذين يسمحون بأن تجرى خيانتهم، ولكن تحت سقف بيتهم، بل تحت أنظارهم، يعني أنهم لا يكونون ضحية الخيانة، فقد كانت توافق للرجال على عشيقة، على عشيق بشرط أن لا يكون لكل هذا أية ذيول اجتماعية خارج بيتها وأن تنعقد العلاقة وتستمر في ظل أيام الأربعاء. لقد سبق أن نهشت فؤادها ضحكة، أية ضحكة خفية لـ "أوديت" بالقرب من "سوان"، ومنذ بعض الوقت أي حديث على انفراد بين "موريل" والبارون كانت تلقى لغمومها عزاء وحيداً قوامه تخريب سعادة الآخرين. فما كانت لتتحمل طويلاً سعادة البارون. وها أن هذا المتهور يسرع الكارثة إذ يبدو أنه يقلص مكانة المعلمة داخل عشيرتها الصغيرة ذاتها. وأخذت ترى "موريل" يطوف مذ ذاك في المجتمع الراقي بدونها في ظل البارون. ما كان ثمة سوى دواء واحد: أن تخير "موريل" بينها وبين البارون وتفيد من السلطان الذي تهيأ لها على "موريل" إذ تبدى لناظريه نفاذ بصيرة خارقاً بفضل تقارير تستكتبها وكذبات تبتدعها وتقدمها له، هذه وتلك، على أنها تؤيد ما كان يميل هو إلى اعتقاده وما سوف يراه في الواقع بفضل الأحابيل التي تعدها والتي يروح البسطاء يسقطون فيها، تفيد من ذاك السلطان فتحمله على اختيارها هي، مؤثراً إياها على البارون. فأما نساء المجتمع اللواتي حضرن ولم يطلبن حتى التعرف بها فقد قالت حالما تبينت ترددهن أو لا مراعاتهن اللياقة: "آه! ها إني أرى ما الأمر، إنهن صنف من العجائز البلهاوات لا يناسبنا، وهن يشهدن هذه الصالة لآخر مرة." فلعلها كانت فضلت أن تقضي نحبها على أن تقول أنهم كانوا أقل تودداً لها مما أملت.

وصاح السيد "دو شارلوس" فجأة: "آه! أيها الجنرال العزيز"، صاح وهو يفارق السيدة "فيردوران" إذ كان يبصر الجنرال "ديلتور" أمين رئاسة الجمهورية الذي يمكن أن يكون عظيم الأهمية فيما يتعلق بوسام "شارلي"، وبعدما طلب النصح من "كوتار" توارى بسرعة. "مساء الخير أيها الصديق العزيز الرائع. ويحك، أهكذا تنسل هارباً دون أن تودعني؟" يقول البارون بابتسامة تطبعها السذاجة والغرور إذ كان يعلم تمام العلم أنهم يسرون دوماً بالتحدث إليه زمناً أطول. ولما كان في حال الحميا التي تملكته بصوغ بمفرده وبصوت زائد الحدة الأسئلة والأجوبة: "هيا، هل أنت راضٍ؟ ألم يكن ذلك غاية في الجمال؟ الحركة البطيئة، أليس كذلك؟ إنها أكثر ما كتب في يوم تأثيراً في النفس، وأتحدى أن يسمعها أحد حتى النهاية دون أن يترقرق الدمع في عينيه. رائع أن تكون أتيت. قل لي، لقد تسلمت هذا الصباح برقية ممتازة من "فروبيرفيل" يعلمني أن الصعوبات مهدت من جانب المستشارية الكبرى كما يقولون." كان صوت السيد "دو شارلوس" يوالي ارتفاعه ونبرته الحادة، صوت يختلف عن صوته المعتاد اختلاف صوت محام يرافع بنبرة تفخيمية عن إلقائه المعتاد، وهي ظاهرة تضخيم صوتي لفرط هياج وحالة اغتباط عصبي شبيه بذاك الذي كان يرفع إلى سويّة عالية جداً صوت السيدة "دو غيرمانت" ونظرتها على حد سواء في الأعشية التي كانت تقيمها. وقال الجنرال: "كنت أنوي أن أبعث إليك في صباح الغد بكلمة على يد أحد الحراس لأقول لك عن مدى حماستي بانتظار أن يسعني التعبير عن ذلك حضورياً ولكنما كان يحيط بك نفر كثير! إن مساندة "فيروبيرفيل" أمر ما أبعد أن يستهان به، لكني حصلت من جانبي على وعد من الوزير." - "حسن جداً. وقد رأيت على أي

حال أن هذا ما تستحقه موهبة من هذا القبيل. لقد كان "هويوس"(١) فى غاية الغبطة، ولم أتمكن من لقاء زوجة السفير، فهل كانت راضية؟ ومن عساه لم يكن كذلك، باستثناء من لهم آذان كى لا يسمعوا، والأمر لا أهمية له ما داموا يملكون ألسنة يتحدثون بها.".

أفادت السيدة "فيردوران" من أن البارون كان قد ابتعد للتحدث إلى الجنرال فأشارت بيدها لـ "بريشو". وابتغى هذا، وما كان يعلم ما ستقول له السيدة "فيردوران"، إبهاجها فقال للمعلمة دون أن يرتاب إلى أى حد كان يعذبنى: "لقد ابتهج البارون أيما ابتهاج أن لم تجئ الآنسة "فانتوى" وصديقتها، فإنهما تثيران أشد الاستنكار لديه. وقد أعلن أن أخلاقهما تثير الفزع. ولست تتصورين كم البارون محتشم ومتشدد فى باب الأخلاق." ولم تطرب السيدة "فيردوران" لذلك فأجابت قائلة: "إنه مقزز. هيا اعرض عليه أن يجىء فيدخن برفقتك سيكارة كى يتمكن زوجى من اصطحاب "محبوبته"، دون أن ينتبه لذلك "شارلوس" هذا، واطلاعه على الهاوية التى ينساق إليها." وبدا على "بريشو" شىء من التردد؛ فأردفت السيدة "فيردوران" تقول لتنزع آخر الوساوس من صدر "بريشو": "دعنى أقول لك إنى لا أحسنى فى أمان مع أمر كهذا فى بيتى. فإنى أعلم أن أموراً قذرة جرت معه وأن الشرطة تترصده". ولما كانت السيدة "فيردوران" تتمتع بموهبة الارتجال حينما تستلهم أذية الناس فإنها لم تتوقف عند هذا الحد: "يبدو أنه زار السجون. بلى، بلى، قال لى ذلك أشخاص على اطلاع تام. وأعلم، من ناحية أخرى، من واحد يسكن فى الشارع الذى يسكنه أنه لا يخطر لك نوع قطاع الطرق الذين يستقدمهم إلى بيته." ولما كان "بريشو" يحتج، وكثيراً ما كان يتردد على منزل البارون، صاحت السيدة "فيردوران" وقد هزتها الحمية: "ولكنى ضامنة لذلك! فأنا من تقوله"، وهى عبارة كانت تحاول أن تدعم بها عادة توكيداً ألقت به كيفما اتفق "سوف يقضى اغتيالاً ذات يوم، كحال أشباهه جميعاً على أى حال. بل ربما لم يبلغ هذا الحد لأنه واقع بين مخالب "جوبيان" هذا الذى تجرأ وبعث به إلىّ وهو محكوم قديم بالأشغال الشاقة، إنى أعرف ذلك كما تعلم، أجل، وبصورة إيجابية. إنه يمسك على "دو شارلوس" رسائل هى شىء مريع فيما يبدو. لقد أخبرنى بذلك شخص رآها وقال لى: "قد يغمى عليك إن شاهدت ذلك." هكذا يسوقه "جوبيان" هذا بالعصا وينتزع منه كل ما يبغى من مال. إنى أفضل الموت ألف مرة على أن أعيش فى الهلع الذى يعيش فيه "شارلوس". وفى جميع الأحوال، إن قررت أسرة "موريل" أن تشكوه للقضاء فلست أرغب أن أتهم بالتواطؤ. فإن استمر تحمل التبعات، لكنى أكون قد أديت واجبى. ما عساك تريد؟ ليس الأمر مسلياً على الدوام." وقالت لى السيدة "فيردوران" وقد هزتها حماسة لذيذة من توقع الحديث الذى سيجريه زوجها عما قليل مع عازف الكمان: "هيا اسأل "بريشو" إن لم أكن صديقة شجاعة وإن كنت لا أعرف التضحية بنفسى لإنقاذ الرفاق." (كانت تلمح إلى المناسبات التى أوقعته فيها فى الوقت المناسب فى خصام مع غسالته بادىء الأمر، والسيدة "دو كامبرمير" بعد ذلك، وهى المخاصمات التى أضحى "بريشو" فى أعقابها كفيفاً تماماً تقريباً ومدمناً على المورفين كما كانوا يقولون.) وأجاب الجامعى بتأثر

---

(١) الكونت "هويوس" كان سفير النمسا فى فرنسه فى أواخر القرن التاسع عشر.

ساذج: "صديقة لا مثيل لها نافذة البصيرة شجاعة." وقال لي "بريشو": "لقد حالت السيدة "فيردوران" دون أن ارتكب حماقة جسيمة"، قال بعدما ابتعدت هذه الأخيرة. "إنها لا تتردد في اتخاذ التدابير الجازمة. إن لديها نزعة إلى التدخل، كما ربما قال صديقنا "كوتار". على أني أقر أن فكرة جهل البارون المسكين بعد للضربة التي ستحل به إنما تبعث في صدري غماً عظيماً. إنه مجنون تماماً بهذا الغلام. فإن أفلحت السيدة "فيردوران" فذاك رجل سيكون تعيساً جداً. وليس من المؤكد على أية حال أنها لن تفشل. فإني أخشى أن لا تفلح إلا في زرع سوء تفاهم بينهما لن يقود في نهاية المطاف إلا إلى اختصامهما معها دون أن تفصل بينهما." وكثيراً ما اتفق ذلك للسيدة "فيردوران" مع الخلص. لكنما كان بارزاً للعيان أن الحاجة لديها إلى الحفاظ على صداقتهم أخذت تسودها أكثر فأكثر الحاجة إلى أن تحبط تلك الصداقة في يوم جراء الصداقة التي يمكن أن يكنها بعضهم لبعض. وما كان الشذوذ الجنسي يسوء في عينيها مادام لا يمس المعتقد القويم. لكنها كانت تفضل كالكنيسة التضحيات جميعاً على تساهل واحد بشأن استقامة العقيدة. وشرعت أخاف أن يكون اغتياظها مني ناجماً عن علمها أني منعت "ألبيرتين" من الذهاب إلى هناك (منزل آل فيردوران) في بحر النهار وأن تباشر لديها، إن لم تكن بعد فعلت، ذات العمل الآيل إلى فصلها عني والذي كان زوجها يعتزم القيام به لدى عازف الكمان إزاء "شارلوس". وقالت السيدة "فيردوران": "هيا، بادر فابحث عن "شارلوس" وأوجدْ لك صحبة، فقد آن الأوان، واجهد خصوصاً أن لا تدعه يعود قبل أن أبعث في طلبكما. آه! يا لها أمسية!" تضيف السيدة "فيردوران" كاشفة هكذا عن السبب الحقيقي لحنقها، "أن تطلب عزف هذه الروائع أمام هؤلاء الحمقى! لست أتكلم عن ملكة نابولي، فإنها ذكية، وهي امرأة ظريفة (تعني: كانت لطيفة جداً معي)؛ بل عن الآخرين! آه! شيء يثير أشد حنقك. ما عساك تريد، لم أعد في العشرين أنا. حينما كنت صغيرة السن كانوا يقولون لي إنه ينبغي أن يعرف المرء كيف يتضجر، وكنت أتكلف الأمر، أما الآن فلا، فالأمر فوق طاقتي وأصبحت في سن أفعل فيه ما أشاء، وإن الحياة لقصيرة، والتضجر والتردد على البلهاء والتصنع والتظاهر بأنا نجدهم أذكياء، لا، لست أستطيع. هيا، يا لك يا "برشو"، لا وقت لدينا نضيعه". وقال "بريشو" في نهاية المطاف فيما كان الجنرال "ديلتور" يبتعد: "ها أنا ذاهب يا سيدتي، ها أنا ذاهب". لكن الجامعي قبل ذلك انتحى بي جانباً زهاء لحظة وقال لي: "إن الواجب الأخلاقي أقل وضوحاً في إلزاميته مما تعلمنا إياه علومنا الأخلاقية. ألا فلتسلم بذلك المقاهي التنويرية وأمكنة الشراب الكانطية: إننا نجهل بصورة مؤسية طبيعة الخير". فإني أنا، وقد فسرت، ولا فخر، فلسفة المدعو "إيمانوئيل كانط" لتلاميذي ببراءة تامة، لا أرى أية إشارة واضحة إلى الحالة الضميرية المجتمعية التي أراني في مواجهتها في هذا "النقد للعقل العملي" الذي تحدث ونظر فيه الهاجر الكبير للبروتستنتية، نظر أفلاطونياً على الطريقة الجرمانية لألمانيه عاطفية ومحاكمته منذ القدم، حول صوفية "بوميرانية"(١) تستخدم لدى الاقتضاء. وهي "الوليمة" أيضاً(٢)، لكنها معدة هذه المرة في "كونيكسبيرغ"، وعلى

(١) نسبة إلى منطقة بوميرانيا في شمال شرق ألمانيه.

(٢) Le Banquet من حوارات أفلاطون وفيه يناقش أفلاطون من بين أنماط الحب حب الرجال للفتيان.

طريقتهم هناك، عسيرة الهضم مطهرة، بالشوكروت ودون صبيان أنيقين. ومن البديهى أنى لا أستطيع من جهة أن أرفض لمضيفتنا الممتازة الخدمة الزهيدة التى تسألنى إياها وبما يتفق تماماً فى استقامة العقيدة مع علم الأخلاق التقليدى. فلابد أن يتجنب المرء قبل كل شىء أن تخدعه الكلمات إذ ليس ثمة الكثير منها مما كان أكثر دفعاً إلى قول الحماقات. لكن لا نترددن فى الإقرار بأن البارون، لو كان لربات الأسر حصة فى القرار، ربما استبعد كأستاذ للفضيلة بشكل يدعو للرثاء. لكنه لسوء الحظ إنما يتابع مهمته كمرب بطبع الرجل الماكر. لاحظ أنى لا أتناول البارون بالسوء، فهذا الرجل اللطيف الذى يجيد تقطيع شواء كما لا يفعل أحد غيره يملك إلى جانب عبقرية اللعنة كنوزاً من الطيبة. فيمكن أن يكون مسلياً كمهرج رفيع المستوى فى حين أرانى مع هذا أو ذاك من زملائى، وعضو أكاديمية من فضلك، نهب السأم بمئة دراخماً فى الساعة، كما ربما قال "كزينوفون"(١). لكنى أخشى أن ينفق إزاء "موريل" أكثر قليلاً مما تأمر به الأخلاق السوية، وإنه، دون أن نعلم إلى أى حد يبدى التائب الشاب خضوعاً أو نفوراً من التمارين الخاصة التى يفرضها عليه أستاذه فى الدين على صعيد الإماتة الجسدية، لا حاجة لأن يكون المرء عالماً كبيراً كى يتأكد أننا قد نفرط كما يقولون فى التسامح تجاه هذا المتصوف الذى يبدو كأنما يجيئنا من "بيترون"(٢) بعد مروره عن طريق "سان سيمون" إن نحن منحناه، مغمضى العينين، إذناً أصولياً بأن يلبس لبوس الشيطان. ولا يسعنى مع ذلك، إذ أشغل هذا الرجل فيما تبادر السيدة "فيردوران"، من أجل خير الخاطىء وقد استهواها بالضبط مثل هذا العلاج، إلى التحدث مع الفتى الطائش دون مواربة، لا يسعنى أن أقول إن سلبه كل ما يحب وربما توجيه ضربة قاضية له لا يثيران اهتمامى، فإنه يبدو لى أنى استدرجه كأنما إلى كمين، وترانى أتراجع كأنما إزاء ما يشبه النذالة." وبعد أن قال ما قال لم يتردد فى اقترافها وأخذ بذراعى مضيفاً: "هيا أيها البارون، ليتنا نمضى لتدخين سيكارة، فهذا الشاب لا يعرف بعد كل روائع الفندق." واعتذرت قائلاً إنى مضطر أن أعود أدراجى، فقال "بريشو": "انتظر قليلاً بعد، فأنت تعلم أن عليك أن تعيدنى ولست أنسى وعدك." وقال لى السيد "دو شارلوس": "ألا تريد حقاً أن أطلب لك عرض الفضيات؟ فليس ما كان أبسط من ذلك. وكما وعدتنى، لا كلمة لـ "موريل" عن مسألة الوسام. فمرادى أن أفاجئه بأن أعلن له عن ذلك عما قليل حينما نكون قاربنا الانصراف. مع أنه يقول إن الأمر لا أهمية له فى عين الفنان، ولكن عمه راغب فيه" (واحمر وجهى خجلاً لأن آل "فيردوران" كانوا يعلمون من جدى من عسى كان عم "موريل"). "هيا، ألا تود أن أطلب لك عرض أجمل القطع؟ ولكنك تعرفها، فقد رأيتها عشر مرات فى "لاراسبلييز"." وخانتنى الجرأة فى أن أقول له أن ليس ما كان يمكن أن يثير اهتمامى أوانى تافهة من فضيات بورجوازية، حتى ما كان منها الأكثر ثراء، بل أية عينة، وإن تكن مجرد صورة جميلة، لأوان للسيدة "دو بارى". لقد كنت شديد الانشغال وكنت دوماً - حتى لو لم يكن شغلنى ذاك الإعلان عن مجىء الآنسة "فانتوى" - بالغ الشرود والاضطراب بين الناس كى أصرف انتباهى إلى حاجات ليست على جمال كبير. وما كان

---

(١) Xenophon فيلسوف وكاتب يونانى من القرن الخامس قبل الميلاد ومن أتباع سقراط.

(٢) Pétrone: كاتب رومانى من القرن الأول بعد الميلاد.

يمكن تركيزه إلا بدعوة صادرة عن واقع يخاطب خيالى كما كان أمكن أن يفعل فى هذا المساء مشهد من مدينة البندقية هذه التى ما أكثر ما فكرت فيها بعد الظهر، أو عنصر عام أياً كان، واحد فى مظاهر عدة وأكثر حقيقة منها، كان يوقظ فىّ دائماً من تلقاء ذاته روحاً داخلياً راقداً عادة، ولكن عودته إلى سطح الوعى لدىّ كانت تولينى فرحاً عظيماً. ففيما كنت خارجاً من الصالة المدعوة قاعة المسرح وكنت أجتاز برفقة "بريشو" والسيد "دو شارلوس" الصالات الأخرى أدركت، إذ عدت فلقيت قطع أثاث رأيتها فى قصر "لاراسبليير" وقد نقلت بين قطع أخرى، وما كنت أعرتها أى انتباه، أدركت بين ترتيب الفندق وترتيب القصر نوعاً من المظهر العائلى وتماثلاً دائماً وفهمت "بريشو" حينما قال لى وهو يبتسم: "هيا انظر، هل ترى مؤخر الصالة هذا، إنه يمكن على الأقل أن يزودك بفكرة عن شارع "مونتاليفيه" منذ خمسة وعشرين عاماً، "عن قسم كبير من حياة الإنسان"(١)." وأدركت من الابتسامة التى أهداها للصالة العتيقة التى يراها من جديد أن ما كان "بريشو" يفضله، ربما دون أن يتبين ذلك، فى الصالة القديمة إنما كان، أكثر من النوافذ الكبيرة وأكثر من الشباب المرح للمعلمين وأتباعهما المخلصين، ذلك الجزء الخيالى (الذى كنت استخلصه بنفسى من بعض التشابهات بين "لاراسبليير" و"رصيف كونتى"(٢)) والذى لا يشكل الجزء الخارجى منها، الجزء الراهن القابل للمراقبة من جانب كل الناس، سواء فى الصالة أو أى شىء آخر، سوى امتداد له، كان ذلك الجزء الذى أضحى فكرياً بحتاً وبلون لم يعد موجوداً إلا بالنسبة لمحدثى العجوز ولا يستطيع أن يرينى إياه، ذلك الجزء الذى انفصل عن العالم الخارجى ليغور فى النفس التى يعطيها قيمة مضافة وحيث يماثل ماهيتها المعتادة فيستحيل فيها - البيوت المهدمة وناس الأمس وأطباق الفواكه فى الأعشية التى نتذكرها - ذاك المرمر الشفانى الذى تؤلفه ذكرياتنا والذى نعجز عن إبراز لونه الذى لا يعرفه أحد سوانا، وهذا ما يسمح لنا بأن نقول للآخرين بصدق، حول هذه الأمور الماضية، إنهم لا يستطيعون أن يكونوا فكرة عنها وإنها لا تشبه ما سبق أن رأوه، وأننا لا نستطيع أن نتأملها داخل ذواتنا دونما انفعال يهزنا ونحن نفكر أن بقاءها إنما يرتبط بعض الوقت بعد بوجود فكرنا، بريق المصابيح التى انطفأت ورائحة الخمائل التى لن تزهر من بعد. وليس من شك أن صالة شارع "مونتاليفيه" كانت بذلك، فيما يخص "بريشو"، تضر بمسكن آل "فيردوران" الحالى. لكنها كانت من جهة أخرى تضيف إليه، فى عينى الأستاذ، جمالاً ما كان ليملكه فى نظر أحد الرواد الجدد. إن بعض قطع أثاثه القديم التى أعيد وضعها ههنا وترتيباً واحداً احتفظ به أحياناً وكنت ألقاه بنفسى، هو ترتيب "لاراسبليير"، كانت تدخل فى الصالة الحالية أجزاء من القديمة تذكر بها بين الحين والحين إلى حد الهلوسة ثم هى تبدو وهمية تقريباً بما تذكر فى صميم الواقع المحيط بأجزاء من عالم باد وكنت تظن أنك تراه فى مكان آخر. فكنبه طلعت من الحلم بين المقاعد الجديدة والحقيقية تماماً، وكراس صغيرة غلفت بحرير وردى اللون وسجادة طاولة لعب مقصية رفعت إلى مرتبة إنسان منذ أن أضحى لها على غرار الإنسان ماضٍ وذاكرة وظلت تحتفظ فى الظلال الباردة لصالة رصيف "كونتى"

(١) وردت باللاتينية فى النص "grande mortalis aevi spatium" "من" حياة أغريكولا" للكاتب تاكيتوس.

(٢ ضفة النهر حيث يقوم منزل آل "فيردوران".

بتلويحة الشمس عبر نوافذ شارع "مونتاليفيه" (ويعرف ساعتها كالسيدة "فيردوران" نفسها تماماً) وعبر أبواب "دوفيل" المزججة حيث كانوا اصطحبوه وحيث كان يتأمل طوال النهار، خلف حديقة الأزهار، بالوادي العميق بانتظار الساعة التي يقوم فيها "كوتار" وعازف الكمان بلعبتهما سوية، وباقة بنفسج وأزهار ثالوث مرسومة بالباستيل، وهي هدية من فنان كبير صديق قضى منذ ذلك الحين والقطعة الوحيدة الباقية من حياة زالت غير مخلفة أي أثر تختصر موهبة كبيرة وصداقة مديدة وتذكر بنظريه المهتمة العذبة ويده الجميلة السمينة والحزينة أثناء ما يرسم؛ ازدحام حلو، فوضى لهدايا مخلصين لحقت في كل مكان بربة المنزل واتخذت في نهاية المطاف بصمة وثبات سمة في الطبع وخط للقدر؛ إفراط في باقات الزهر وعلب الشوكولا كان ينظم، هنا وهناك على حد سواء، ازدهاره وفق صيغة إزهار متماثلة هي إقحام غريب للأشياء الغريبة والنافلة التي لا تزال تبدو خارجة من العلبة التي قدمت فيها والتي تلبث الحياة كلها ما كانته بادئ ذي بدء: هدايا الأول من كانون الثاني؛ وأخيراً سائر هذه الأشياء التي لا يمكن عزلها عن الأخرى ولكنما كان لها في نظر "بريشو"، وهو من قدامى رواد حفلات آل "فيردوران"، تلك الطبقة الرقيقة، ذلك الملمس الناعم للأشياء التي يقبل فينضاف إليها صنوها الروحي مزوداً إياها بنوع من العمق؛ كل ذلك مبدداً كانت تصدح به أمامه كأنما مقادير من المضارب الرنانة توقظ في فؤاده تشابهات محبوبة وتذكرات غائمة كانت تقطع وتحدد، مباشرة في الصالة ذات الطابع الراهن تماماً والتي كانت ترقشها ههنا وهناك، تحدد مثلما يفعل في يوم صحو إطار شمسي يقطع الجو المحيط، الأثاث والسجاد، تلاحق من مسند إلى حامل باقات، ومن مقعد إلى بقية من عطر، ومن طريقة إضاءة إلى تسيد ألوان، وتنحت وتذكّر وتضفي روحانية وتبعث الحياة في شكل كان كأنما الوجه المثالي المحايث لمساكن آل "فيردوران" المتتالية الذي اتخذته صالتهم.

وقال لي "بريشو" همساً في أذني: "سوف نجهد في توجيه البارون وجهة موضوعه المفضل، فإنه هائل فيه." كنت راغباً من جهة أن يكون بوسعي محاولة الحصول من السيد "دو شارلوس" على المعلومات المتعلقة بمجيء الآنسة "فانتوي" وصديقتها، وهي المعلومات التي كنت صممت من أجلها على فراق "ألبيرتين". ثم إني ما كنت أود من جهة أخرى أن أدعها وحيدة فترة طويلة لا لأنها تستطيع (وهي غير متيقنة من لحظة عودتي وفي ساعات كهذه على أية حال ربما كانت زيارة تجيئها أو مغادرة لها أكثر بروزاً للعيان) أن تسيء استخدام غيابي، بل بغية أن لا تراه دام فوق ما تتوقع. لذلك قلت لـ "بريشو" وللسيد "دو شارلوس" إني لن أتبعهما فترة طويلة. وقال لي البارون "تعال مع ذلك"، قال وقد أخذ هياجه الاجتماعي يخمد، لكنه كان يعاني تلك الحاجة إلى تطويل، إلى دوام الحديث الذي سبق أن لاحظته لدى الدوقة "دو غيرمانت" ولديه على حد سواء والذي إذ يميز خصوصاً هذه العائلة إنما يتسع ليشمل بعامة سائر الذين لا يقدمون لعقولهم إنجازاً سوى المحادثة، يعني إنجازاً غير مكتمل، فيظلون يعانون الظمأ حتى بعد ساعات قضوها سوية ويتعلقون بلهفة متزايدة بمحدثهم المضني الذي يطالبونه خطأ بإشباع تعجز المتع الاجتماعية عن توفيره. وأردف يقول: "تعال، أليس كذلك، ها هو ذا الوقت الممتع في الحفلات، الوقت الذي يكون فيه المدعوون قد مضوا

جميعاً، ساعة "دونياسول"(١)، وأملنا أن تلقى هذه نهاية أقل أسى. وإنك لسوء الحظ معجل، ومعجل على الأرجح لتمضى وتقوم بأمور من الخير لك أن لا تقوم بها. الناس جميعهم معجلون على الدوام وهم يمضون فى الوقت الذى يجدر بهم أن يصلوا فيه. نحن هنا كفلاسفة "كوتور" (Couture)(٢)، وربما آن أن نستعيد مواد الأمسية ونقوم بما يسمونه فى اللغة العسكرية نقد العمليات. ثم نسأل السيدة "فيردوران" أن تأمر بجلب عشاء صغير لنا نحتاط أن لا تدعى إليه، ونرجو "شارلى" - هى "هيرنانى" على الدوام - أن يعيد من أجلنا وحدنا عزف الحركة المتمهلة الرائعة. أليس أن الحركة هذه على جمال! ولكن أين هو عازف الكمان الشاب؟ أود مع ذلك أن أهنئه فإنه وقت التحنان والعناق. هيا اعترف يا "بريشو" بأنهم عزفوا عزفاً إلهياً، ولاسيما "موريل". هل لاحظت الوقت الذى تنفصل فيه الخصلة؟ آه! فأنت إذاً يا عزيزى لم تر شيئاً. لقد أتحفنا بـ "فا" مرفوعة يمكن أن تودى بـ "اينيسكو" و"كابيه" و"تيبو"(٣) غيرةً؛ وعبثاً أرانى شديد الهدوء فإنى أقر لك أنى كنت لدى سماعى نغمة كهذه منقبض الصدر حتى كنت أحتبس دموعى. والقاعة كانت تتواتر أنفاسها." ثم صاح البارون وهو يهز الجامعى من ذراعه هزاً عنيفاً: "بريشو"، أيها العزيز، كان ذلك رائعاً. وحده "شارلى" الشاب كان جامداً جمود الحجر، وكنت حتى لا تراه يتنفس فيبدو كتلك الأشياء فى عالم الجماد التى يتكلم عنها "تيودور روسو" والتى تحمل على التفكير ولكنها لا تفكر. حينذاك وبصورة مفاجئة تماماً"، يقول السيد "دو شارلوس" صائحاً بلهجة مفخمة وهو يقلد ما يشبه الانقلاب المسرحى المفاجىء، "حينذاك... كانت الخصلة! وفى أثناء ذلك رقصة "الكدريل" الصغيرة المغناجة على نغمة "الخفيف الحماسى". تدرى، تلك الخصلة كانت علامة الاكتشاف حتى لأكثرهم بلادة. إن الأميرة "تاورمينا"، وهى صماء حتى ذاك، إذ ليس من صماوات أسوأ من اللواتى لهن آذان فلا يردن الاستماع، الأميرة "تاورمينا" هذه أدركت أمام بداهة الخصلة العجائبية أن تلك موسيقا وأنهم لن يلعبوا "البوكر". آه! لقد كانت لحظة احتفالية تماماً." وقلت للسيد "دو شارلوس" بغية رفعه إلى الموضوع الذى يهمنى: "عذرى إليك يا سيدى أن أقاطعك، فقد كنت تقول لى إن ابنة المؤلف تزمع المجىء. ولعل ذلك كان شاقنى كثيراً. أفأنت على يقين أنهم كانوا يقدرون أنها ستحضر؟" - "آه! لست أدرى." كان السيد "دو شارلوس" ينصاع هكذا، ربما دون صد منه، لهذا الالتزام العام الذى لدى المرء بأن لا يطلع الغيارى، إما ليظهر بصورة غير معقولة مظهر "الرفيق الأمين" انتخاءً لتلك التى تثيرها وإن كان يمقتها، وإما سعياً لإيذائها متوقعاً أن الغيرة لن تؤدى إلا إلى مضاعفة الحب؛ وإما لحاجة به لإزعاج الآخرين بأن يقول الحقيقة لغالبية الناس أما للغيارى فبكتمها عنهم إذ يزيد جهل الأمور من عذابهم، حسبما يتراءى لهم على الأقل؛ وبغية إشاعة الغم فى صدور الناس يسترشد

---

(١) Dona Sol: هى بطلة مسرحية "هيرنانى" لفيكتور هوغو. فبعد أن تم الزواج وذهب المدعوون جميعاً ارتفع صوت البوق فتذكر هيرنانى الوعد الذى قطعه لـ"دون روى غوميز" بالموت فى الحال.

(٢) فنان ورسام فرنسى من القرن التاسع عشر صاحب لوحة تمثل حفلة سكر وعربدة وفى مقدمة اللوحة فيلسوفان يبدو أنهما ينددان بالحفلة.

(٣) ثلاثة موسيقيين من أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين.

المرء بما يظنون هم أنه الأكثر إيلاماً، وربما كان الظن خاطئاً. وعاد يقول: "تدرى، ههنا بيت المبالغات إلى حد ما،إنهم لأناس ظرفاء، لكنما يروق المرء أن يبلغ عن مشاهير من هذا الصنف أو ذاك. على أنى لا أراك على ما يرام وسوف يصيبك البرد فى هذه القاعة البالغة الرطوبة"، يقول وهو يدفع إلىّ بكرسى، "لابد أن تحاذر بما أنك مريض، وسأمضى لأجلب لك معطفك. لا، لا تذهب بنفسك فسوف تضيع ويصيبك البرد. ها أنت ترى كيف يجازف المرء بنفسه مع أنك لست ابن أربع، وربما انبغى لك خادمة عجوز مثلى كى تسهر عليك." - "لا تزعج نفسك أيها البارون فأنا ذاهب"، قال "بريشو" وابتعد فى الحال؛ فإنه إذ لم يتبين ربما بالضبط الصداقة الحقيقية تماماً التى كان السيد "دو شارلوس" يكنها لى والانفراجات الرائعة من بساطة وتفان والتى كانت تتضمنها نوباته المجنونة، نوبات العظمة والاضطهاد، قد خشى أن يكون السيد "دو شارلوس"، الذى عهدت به السيدة "فيردوران" كما السجين لعنايته، حاول فقط، بحجة طلب معطفى، اللحاق بـ "موريل" وإفشال خطة المعلمة بذلك.

كان "سكى" قد جلس فى أثناء ذلك إلى البيانو حيث لم يطلب أحد إليه أن يجلس وأخذ وهو يكوّن، بتقطيبة لحاجبيه تلونها ابتسامة، نظرة بعيدة والتواءة خفيفة للفم - وهو ما كان يظن أنه مظهر الفنان -، أخذ يلح على "موريل" كى يعزف شيئاً لـ "بيزيه". "عجباً، لست تحب ذلك، هذا الجانب الطفولى فى موسيقا "بيزيه"؟ ولكن أيها العزيز، يقول بغنة فى الصوت تميزه، كان ذلك رائعاً." أما "موريل"، وما كان يحب "بيزيه"، فقد صرح بذلك وغلا، وشرع "سكى" (إذ كانوا يعدونه داخل العشيرة الصغيرة صاحب نكتة، والأمر حقاً لا يصدق) وهو يتظاهر بأخذ مذمات عازف الكمان على أنها من المفارقات، شرع يضحك. ولم تكن ضحكته اختناقة مدخن كما كانت ضحكة السيد "فيردوران". فقد كان "سكى" يتخذ بادىء الأمر مظهراً ذكياً ثم يطلق وكأنما على الرغم منه نغمة ضاحكة واحدة، كأنها أول نداء للأجراس، يعقبها صمت تبدو فيه النظرة الذكية كأنما تتفحص تفحص عارف بالأمر طرافة ما كان يقال، ثم تندفع ضحكة مجلجلة فإذا هى بعد قليل تهليل أجراس البشارة.

وأعربت للسيد "دو شارلوس" عن أسفى أن يكون السيد "بريشو" كلف نفسه. "لا عليك، إنه فى غاية السرور ويحبك كثيراً، الجميع يحبونك كثيراً. كانوا يقولون ذلك اليوم: لكننا لم نعد نراه، إنه يعتزل الناس!" وأردف السيد "دو شارلوس" يقول: "وعلى أى حال فهو طيب القلب أيما طيبة "بريشو"،" يقول ولا يشك دونما ريب، وهو يبصر الطريقة الودية والصريحة التى كان الأستاذ يحدثه بها فى الأخلاق، أنه ما كان يلقى حرجاً فى غيابه فى الهزء منه: "إنه رجل عظيم القدر يعرف الكثير الكثير ولم يخشن لذلك ولم يصبح فأر مكتبات مثل كثيرين غيره تفوح منهم رائحة الحبر فقد حافظ على رحابة صدر وتسامح نادرين لدى أمثاله. والمرء يتساءل أحياناً، وهو يرى كيف يفهم الحياة وكيف يستطيع أن يعيد بكل لطافة لكل ذى حق حقه، أين أمكن أن يتعلم كل ذلك مجرد أستاذ صغير فى الصوربون ومدير ثانوية سابق. إنى أنا أستغرب ذلك." وكنت أكثر دهشة وأنا أرى أن حديث "بريشو" هذا الذى كان عده أقل مدعوى السيدة "دو غيرمانت" رهافة غبياً جداً وبليداً جداً

يروق أكثرهم جميعاً تشدداً، السيد "دو شارلوس". لكنما كان قد ساعد فى هذه النتيجة، من بين صنوف التأثير الأخرى، تلك التى كان "سوان" بموجبها، وهى واضحة على أى حال، قد أنس زمناً طويلاً إلى هذا الحد بالعشيرة الصغيرة حينما كان عاشقاً لـ "أوديت"، وكان من جهة أخرى، منذ أن تزوج، يجد السيدة "بونتان" لطيفة وهى التى كانت تتظاهر بحب الزوجين "سوان" حباً جماً وتجىء على الدوام للقاء المرأة وتلتذ بحكايات الزوج وتتكلم عنهما بازدراء. ومثلما الكاتب يعطى قصب السبق فى الذكاء لا للرجل الأوفر ذكاء بل لرجل الملذات الذى كان يطرح فكرة جريئة متسامحة حول عشق رجل لامرأة، الفكرة التى كان من شأنها أن تتفق عشيقة الكاتب المتحذلقة وإياه لتجد أن الأقل غباء من بين سائر الناس الذى يجيئون إلى بيتها إنما كان ذاك المتصابى الذى كان على دراية بأمور الحب، كذلك كان السيد "دو شارلوس" يجد "بريشو" الأوفر ذكاء من بين أصدقائه الآخرين، فهو لم يكن لطيفاً فحسب مع "موريل" ولكنه كان يقتطف فى الوقت المناسب من الفلاسفة اليونانيين والشعراء اللاتين والقصاصين الشرقيين نصوصاً كانت تزين ذوق البارون بمقتطفات غريبة وساحرة. كان السيد "دو شارلوس" قد بلغ ذاك العمر الذى يحلو فيه لأمثال "فيكتور هوغو" أن يحيطوا أنفسهم بوجه خاص بأمثال "فاكرى" و"موريس"(١). وكان يفضل على الجميع أولئك الذين يقبلون وجهة نظره حول الحياة. وأضاف يقول: "إنى ألتقيه كثيراً،" يقول بصوت صاءٍ موزون دون أن تحرك حركة احدة، باستثناء الشفتين، قناعة الرزين المغطى بالطحين وقد أرخى فوقه نصف إرخاءة جفنى رجل دين. "إنى أرتاد دروسه، فإن جو الحى اللاتينى هذا يغيرنى وفيه فتيان ذوو جد وتفكير وبورجوازيون شبان أكثر علماً مما كان رفاقى فى وسط آخر. إنه أمر آخر تعرفه على الأرجح أفضل منى، هم بورجوازيون شباب"، قال وهو يبرز الكلمة التى جعل قبلها عدة حروف "ب" ويشدد عليها بنوع من عادة إلقاء الكلام التى تقابل ميلاً إلى تلوينات فى التفكير كان يميزه، وربما كذلك كى لا يقاوم متعة أن يبدى لى بعض الوقاحة. ولم تقلل هذه شيئاً من الإشفاق العظيم والودى الذى يثيره لدى السيد "دو شارلوس" (منذ أن كشفت السيدة "فيردوران" عن مقصدها أمامى)، لكنها أضحكتنى فحسب، بل لعلها ما كانت ساءت عندى فى ظرف ما كنت شعرت فيه بهذا القدر من التعاطف معه. فقد ورثت عن جدتى أن كنت مجرداً من الاعتزاز بالنفس إلى حد ربما أدى بيسر إلى الافتقار إلى الكرامة. وليس من شك أنى كدت لا أنتبه للأمر، ولكثرة ما سمعت منذ المدرسة الثانوية أكثر رفاقى تقديراً عندى لا يطيقون أن يقصر أحد تجاههم ولا يفصحون عن تصرف سيئ أخذت أبدى فى نهاية المطاف فى أقوالى وأفعالى طبيعة ثانية على شىء من الاعتزاز. بل كانوا يعدونها بالغة الاعتزاز لأنى لما لم أكن متخوفاً كنت أخوض بيسر مبارزات أقلل مع ذلك من وزنها النفسى بالاستهزاء بها. وهو ما كان يستهل الاقتناع بأنها تثير السخرية. بيد أن الطبيعة التى نكبتها ساكنة مع ذلك فينا. من ذلك أننا إن قرأنا رائعة جديدة لرجل عبقرى وجدنا فيها أحياناً، ويمتعنا ذلك، جميع ما سبق أن ازدريناه من أفكارنا وما احتسبناه من أفراحنا وأتراحنا، وإنها لعالم كامل من العواطف ازدريناه

---

(١) Vacquerie وMeurice: كاتبان وأديبان فرنسيان من القرن التاسع عشر مقربان من "هوغو" وقد تزوج شقيق الأول ابنة "هوغو" (ليوپولدين) التى قضت غرقاً فى "ڤيلكييه" على نهر السين.

ويطلعنا الكتاب الذى نتعرفها فيها فجأة على قيمتها. لقد بلغ بى فى النهاية أن أتعلم من تجارب الحياة أنه لا يحسن بى أن ابتسم ابتسامة تودد حينما يسخر منى أحدهم وأن لا أحقد عليه. لكنما غياب الاعتزاز بالنفس والحقد، إن كنت توقفت عن الإعراب عنه حتى بلغ بى أن أجهل تماماً على وجه التقريب أنه كائن فى داخلى، فقد لبث الوسط الحيوى البدئى الذى كنت منغمساً فيه. وما كان الغضب وحب الأذية يحلان بى إلا على صورة مختلفة أتم الاختلاف، على هيئة نوبات جامحة. أضف أن الشعور بالعدالة، إلى حد الغياب التام للحس الأخلاقى، كان مجهولاً لدىّ. فقد كنت فى أعماق فؤادى منحازاً تماماً إلى من كان الأكثر ضعفاً وكان تعيساً. وما كنت أملك أى رأى حول الحد الذى كان يمكن أن يدخل فيه الخير والشر فى العلاقات بين "موريل" والسيد "دو شارلوس"، لكن فكرة العذاب الذى كان يعد للسيد "دو شارلوس" كانت لا تطاق عندى. وددت لو أحذره ولا أعلم كيف أفعل. - "إن منظر كل هؤلاء العوام المجدين طريف جداً فى نظر عجوز مثلى." وأضاف يقول: "لست أعرفهم"، يقول وهو يرفع يده بهيئة المتحفظ كى لا يبدو أنه يتباهى وكى يثبت طهارته ولا يدفع بأى شك حول براءة الطلبة، "لكنهم مهذبون جداً وكثيراً ما يبلغ بهم أن يحجزوا لى مقعداً بما أننى رجل طاعن فى السن، بلى أيها العزيز، لا تحتج، فقد جاوزت الأربعين"، يقول البارون الذى جاوز الستين: "إن الجو حار قليلاً فى هذا المدرج الذى يحاضر فيه "بريشو"، لكن الأمور دوماً مشوقة." ومع أن البارون كان يفضل الاختلاط بشباب المدارس وحتى التدافع وإياهم فقد كان "بريشو" يدخله أحياناً معه كى يجنبه طول الانتظار. وعبثاً يحس "بريشو" فى الصوربون أنه فى بيته فما كان يستطيع، لحظة يسبقه حاجب الكلية مثقلاً بالسلاسل ويتقدم الأستاذ الذى يثير إعجاب الشباب، أن يكتم بعض الوجل، وكان فيما هو راغب أن يفيد من هذه اللحظة التى يحس فيها أنه عظيم القدر كى يبدى شيئاً من التودد لـ "شارلوس"، كان يشعر مع ذلك بشىء من الضيق. وكيما يسمح له الحاجب بالمرور كان يقول له بصوت مصطنع وهيئة المتشاغل: "اتبعنى أيها البارون، وسوف يهيئون لك مكاناً"، ثم يتقدم وحده بخطى مرحة فى الممر، دون أن يهتم به من بعد، كى يعد دخوله. كان ثمة صف مزدوج من الأساتذة الشباب يحييه فى كل جانب. وكان "بريشو"، وهو راغب أن لا يبدو وكأنه يتكلف وقفته أمام هؤلاء الشبان الذين يعلم أنه فى نظرهم من الأساطين الكبار، كان يرسل إليهم ألفاً من الغمزات وألفاً من هزات الرأس المتواطئة التى يوليها همه أن يلبث حربى المظهر وفرنسياً صالحاً مظهراً من مظاهر التشجيع الودى، ومن "لنرفع قلوبنا"(١) ترد على لسان جندى عتيق يقول: "يا للعنة، سنعرف كيف نقاتل". ثم كان يدوى تصفيق التلاميذ. وكان "بريشو" يستخلص أحياناً من حضور السيد "دو شارلوس" إلى دروسه فرصة يرضى بها أحدهم ويكاد يرد مجاملات. فقد كان يقول لقريب أو لأحد أصدقائه البورجوازيين: "أعلمك أن البارون "دو شارلوس" أمير "أغريجانت" وسليل آل "كونديه"، إن أمكن ذلك أن يسلى زوجتك أو ابنتك، سوف يحضر درسى. وإنها، بالنسبة إلى طفل، لذكرى يحتفظ بها أن يكون شاهد أحد آخر أحفاد أرستقراطيتنا ممن يملكون شخصية مميزة. فإن جاءتا تعرفتاه بأن

---

(١) من الأدعية التى ترد فى صلاة القداس لدى المسيحيين:
"لنرفع قلوبنا إلى العلاء".

يكون اتخذ مكانه بالقرب من منبرى. وسيكون الوحيد على أية حال، رجل قوى البنية بشعر أبيض وشارب أسود ويحمل الوسام العسكرى." وكان الوالد يقول: "آه! إنى أشكرك." وعلى الرغم من إنشغال زوجته فقد كان يلزمها بالذهاب إلى ذاك الدرس كى لا يكدر "بريشو"، فيما كانت الفتاة التى أزعجها الحر والجمهور تلتهم مع ذلك بعينيها بصورة غريبة سليل آل "كونديه" وهى تعجب أن لا يرتدى ياقة منفخة وأنه يشبه الرجال فى يومنا. أما هو فما كان منشغلاً بها، لكن عدداً من الطلاب، ولا يعلمون من عساه كان، يأخذ منهم العجب للطفه فينتقلون إلى استكبار وجفاء ويخرج البارون غارقاً فى الأحلام كئيباً. وقلت باستعجال للسيد "دو شارلوس" وفى أذنى وقع خطى "بريشو": "عذرى لك أن أعود إلى ما يشغلنى، فهل يمكنك أن تخطرنى برسالة مستعجلة إن علمت أن الآنسة "فانتوى" أو صديقتها عازمتان على المجىء إلى باريس وتقول لى بالضبط مدة إقامتهما ودون أن تخبر أحداً بأنى سألتك ذلك؟" كدت لا أعتقد من بعد أن قد تزمع المجىء لكننى كنت أريد هكذا أن أقى نفسى مستقبلاً. "أجل، سأفعل ذلك من أجلك. أولاً لأنى أدين لك بامتنان عظيم. فإنك حين لم تقبل بالأمس ما عرضت عليك أديت لى على حسابك خدمة لا حدود لها فقد تركت لى حريتى. صحيح أنى تخليت عنها بطريقة أخرى"، يضيف قوله بلهجة كئيبة تشتم فيها رغبة فى المسارات؛ "إن ثمة ما أعتبر دوماً أنه الأمر الأهم، إنه تجمع كامل من الظروف التى فاتك أن تجعلها تدور فى صالحك، ربما لأن القدر أخطرك فى هذه الدقيقة بالذات بأن لا تعترض سبيلى. إنها المقولة الدائمة "الإنسان يضطرب والله يقوده." فمن ذا يدرى لو أنك قبلت فى ذلك اليوم الذى خرجنا فيه سوية من منزل السيدة "دو فيلباريزيس" فربما ما كان وقع فى يوم الكثير من الأمور التى جرت مذ ذاك." وإذ أصابنى الإرباك حرفت الحديث بأن قبضت على اسم السيدة "دو فيلباريزيس" وقلت عن الحزن الذى ألم بى لموتها. وهمس السيد "دو شارلوس" بنبرة خشنة: "آه! أجل"، وباللهجة الأكثر وقاحة آخذاً علماً بتعازىّ دن أن يبدو أنه يعتقد لحظة واحدة بصدقها. وإذ تبينت أن موضوع السيدة "دو فيلباريزيس" لم يكن فى جميع الأحوال مصدر ألم له أردت أن أعلم منه، هو الكفء من أى جانب جئته، لأية أسباب استبعدت السيدة "دو فيلباريزيس" إلى هذا الحد من جانب العالم الارستقراطى. لكنه لم يقدم لى حلاً لهذه المشكلة المجتمعية الصغيرة، وليس ذلك فحسب، بل لم يبد لى حتى أنه يعرفه. وأدركت حينذاك أن مكانة السيدة "دو فيلباريزيس"، إن كانت لابد ستبدو بعد عظيمة فى نظر الأجيال القادمة، وفى نظر العامة الجاهلة حتى والمركيزة على قيد الحياة، فإنها لم تبد أقل عظمة فى الطرف الآخر القصى من المجتمع، الذى كان على قربى بالسيدة "دو فيلباريزيس"، عنينا آل "غيرمانت". فقد كانت عمتهم، وكانوا يبصرون خصوصاً المولد والنسب والأهمية التى يولونها فى أسرتهم للنفوذ الذى يرتفع بهم فوق زوجة الأخ هذه أو أخت الزوج تلك. كانوا يرون ذلك من جانب المجتمع أقل مما من جانب الأسرة. وكان الجانب هذا أكثر تألقاً، فيما يخص السيدة "دو فيلباريزيس"، مما كنت ظننت فقد سبق أن دهشت ساعة علمت أن اسم "فيلباريزيس" كان مزيفاً. لكن ثمة أمثلة أخرى لسيدات كبيرات أتممن زواجاً غير متكافىء وحافظن على موقع متفوق. وبدأ السيد "دو شارلوس" فأعلمنى أن السيدة "دو فيلباريزيس" كانت ابنة شقيقة الدوقة الشهيرة، وهى الشخصية

الأكثر شهرة بين الارستقراطيين الكبار في ظل نظام تموز (يوليو) الملكي لكنها لم تقبل مخالطة الملك المواطن وعائلته. وشد ما رغبت في الحصول على حكايات حول تلك الدوقة! والسيدة "دو فيلباريزيس"، السيدة "دو فيلباريزيس" الطيبة ذات الوجنتين اللتين كانتا تمثلان في نظري وجنتي بورجوازية، السيدة "دو فيلباريزيس" التي كانت تبعث إليّ بهدايا ما أكثرها والتي كان وسعني بسهولة كبيرة أن التقيها كل يوم، السيدة "دو فيلباريزيس" كانت ابنة شقيقتها وقد ربتها في منزلها، في فندق. وقال السيد "دو شارلوس" وهو يحدثني عن الشقيقات الثلاث: "كانت تسأل الدوق "دو دودوفيل": من تفضل من الشقيقات الثلاث؟" ولما قال "دودوفيل": السيدة "دو فيلباريزيس"، أجابته الدوقة : "يا للخنزير!" - "ذلك أن الدوقة كانت بالغة الظرف"، يقول السيد "دو شارلوس" وهو يعطي الكلمة الأهمية والتلفظ المتعارف عليه لدى آل "غيرمانت". ولم يدهشني أن يرى أن الكلمة كانت بالغة "الظرف" إذ سبق لي أن لاحظت في مناسبات أخرى كثيرة النزعة النابذة الموضوعية لدى الرجال والتي تدفعهم حين يعجبون بظرف الآخرين أن يتخلوا عن صنوف التشدد الذي قد يداخلهم حول ظرفهم وأن يلاحظوا ويدونوا باهتمام بالغ ما قد يأنفون عن إبداعه.

"ولكن ما الذي دهاه؟ إنه معطفي الذي يجيء به"، يقول وهو يلاحظ أن "بريشو" قد بحث بحثاً طويلاً جداً في سبيل نتيجة كهذه. "كنت فضلت أن أذهب بنفسي في هذا المسعى. على أي حال ستضعه على كتفيك. أو تعلم أن ذلك مثير جداً للشبهات أيها العزيز؟ لكأن ذلك من قبيل الشرب من الكأس نفسها ولسوف أعرف أفكارك. لا، ليس هكذا، ويحك، دعني أفعل أنا"، وكان فيما يلبسني معطفه يلصقه بكتفي ويرفعه لي حول عنقي ويرفع ياقته ويلامس بيده ذقني وهو يعتذر. "في مثل سنه ولا يعرف أن يدثر بدثار وينبغي أن تبالغ في عنايتك به؛ لقد فوت عليّ ما كان مقدراً لي يا "بريشو"، فقد ولدت كي أكون مربية أطفال." كنت أود الذهاب، بيد أن "بريشو"، بعدما أعلن السيد "دو شارلوس" عن نيته الذهاب في طلب "موريل"، احتجزنا كلينا وإن يقيني على أي حال أنني ملاق "ألبيرتين" في البيت، واليقين مساو لذلك الذي داخلني بعد الظهر بأن "ألبيرتين" تعود من التروكاديرو، كان يوليني في هذه اللحظة مقداراً من اللهفة إلى لقائها قليلاً قلة تلك التي داخلتني في اليوم نفسه فيما كنت أجلس إلى البيانو بعدما كلمتني "فرانسواز" بالهاتف، ذاك الهدوء هو الذي سمح لي في كل مرة ابتغيت القيام في أثناء هذه المحادثة أن أنصاع لأمر "بريشو" الذي كان يخشى أن يحول رحيلي دون مكوث "شارلوس" إلى اللحظة التي تجيء فيها السيدة "فيردوران" لتنادي علينا. وقال للبارون: "هيا فالبث قليلاً وإيانا، وسوف تعانقه عما قليل". يضيف "بريشو" قوله فيما يثبت على عينه الميتة تقريباً التي أعادت إليها العمليات الكثيرة التي أجريت لها شيئاً من الحياة ولكنما لم تعد تتمتع مع ذلك بالحركية اللازمة للتعبير الملتوي عن الخبث. وصاح البارون بنبرة حادة مفتونة: "أعانقه، يا له غبي! أقول لك أيها العزيز إنه يخال نفسه دوماً فيحفل توزيع جوائز، وهو يحلم بتلاميذه الصغار. وأتساءل إن لم يكن يضاجعهم." وقال لي "بريشو"، وكان قد سمع آخر حديثنا: "إنك راغب في لقاء الآنسة "فانتوي"، وإني أعدك بإخطارك إن جاءت وسوف أعلم ذلك من السيدة "فيردوران"، يقول لي "بريشو" الذي

كان دون شك يتوقع إمكان أن يقصى البارون فى العاجل عن العشيرة الصغيرة. وقال السيد "دو شارلوس": "عجباً، تظننى إذن على علاقة أقل منك بالسيدة "فيردوران" كى تعلم بمجىء هاتين المرأتين بسمعتهما الرهيبة؟ تعلم أن الأمر مكشوف تماماً، والسيدة "فيردوران" مخطئة فى السماح لهما بالمجىء، فذلك صالح للأوساط المشبوهة. إنهما صديقتان لزمرة كاملة فظيعة، ولابد أن هذا كله يتجمع فى أماكن مريعة." كان عذابى لدى كل من هذه الأقوال يزداد عذاباً جديداً ويبدل من شكله. وإذ تذكرت فجأة بعض حركات نفاد الصبر الصادرة عن "ألبيرتين" والتى كانت تكبتها فى الحال راعنى أن تكون صممت أن تهجرنى. كان هذا الشك يزيد لدىّ من ضرورة العمل على دوام حياتنا المشتركة إلى زمن أكون قد استعدت فيه هدوئى. وكيما أنزع من "ألبيرتين" فكرة استباق مشروعى فى الانفصال، إن توافرت لديها، وكيما أجعل قيدها، إلى أن يمكننى تحقيق ذاك المشروع دون أن أسقيها العذاب، أكثر خفة فى عينيها، بدا لى أن الأكثر براعة (وربما أصابتنى عدوى جراء وجود السيد "دو شارلوس" وجراء التذكر اللاواعى للمسرحيات التى كان يحلو له أن يمثلها) إنما يكمن فى حمل "ألبيرتين" على الاعتقاد بأنى أنا أنوى هجرها، وسوف أبادر حال عودتى إلى تصنع الوداع والانفصال. وأعلن "بريشو" وهو يشدد على كلماته: "لا، بالتأكيد، لا أخالنى أفضل منك علاقة بالسيدة "فيردوران"،" إذ كان يخشى أن يكون أثار شكوك البارون. ولما رأى أنى أريد الانصراف وشاء أن يستبقينى بطعم اللهو الموعود قال: "ثمة أمر يبدو لى أن البارون لم يفكر فيه حينما يتحدث عن سمعة هاتين السيدتين، وهو أن السمعة يمكن أن تكون فظيعة وغير مستحقة فى الآن نفسه. من ذلك، على سبيل المثال، وفى المجموعة الأكثر شهرة التى سأدعوها بالموازية، أنه من الأكيد أن الأخطاء القضائية كثيرة وأن التاريخ سجل إدانات باللواطة تفضح رجالاً مشهورين كانوا أبرياء تماماً من تلك التهمة. وإن الاكتشاف الأخير لحب كبير كنه "ميكيل انجلو" لإحدى النساء لأمر جديد يعطى صديق البابا "ليون" العاشر(١) الحق فى الإفادة من دعوى إعادة نظر فى القضية بعد الوفاة. وتبدو لى قضية "ميكيل انجلو" مناسبة تماماً لإثارة حماسة السنوبيين وتعبئة العوام بعدما يكون مضى عهد قضية أخرى جرى فيها التباهى بالفوضوية وأصبحت الخطيئة الشائعة لدى هواتنا الطيبين لكنما من غير المصرح به النطق باسمها مخافة المخاصمات." ومنذ أن بدأ "بريشو" بالحديث عن أمور تخص سمعة الذكور أبرز السيد "دو شارلوس" على كامل صفحة وجهه نوع نفاد الصبر الخاص الذى تراه لدى خبير فى شؤون الطب أو الجيش حينما يأخذ نفر من دنيا المجتمع لا يفقهون شيئاً منها فى الإدلاء بحماقات حول أمور تتعلق بالعلاج أو الاستراتيجية. وبلغ به فى النهاية أن قال لـ "بريشو": "إنك لا تعلم مبادئ الأشياء التى تتكلم عنها. هيا اذكر لى سمعة واحدة غير مستحقة. هات أسماء. أجل، أعرف كل شىء"، يقول السيد "دو شارلوس" فى رد عنيف على مقاطعة خجولة لـ "بريشو"، "الذين فعلوا ذلك فيما مضى عن فضول أو عن حب وحيد لصديق توفى، وذاك الذى يخشى أن

(١) بابا من أوائل القرن السادس عشر كلف "ميكيل أنجلو" الكثير من الأعمال الفنية.

يكون مضى أبعد كثيراً مما ينبغى فإن حدثته عن جمال رجل أجابك أن ذلك من لغة غريبة لا يفهمها وأنه لا يقوى على التمييز بين رجل جميل وآخر قبيح أكثر مما يفعل بين محركى سيارة بما أن الميكانيك ليست من اختصاصه. كل ذلك من باب المزاح. لاحظ، رجوتك، ليس مرادى أن أقول إن السمعة (أو ما اصطلح على تسميته هكذا) واللامبررة أمر مستحيل تماماً. لكن ذلك استثنائى جداً ونادر جداً إلى حد أنه لا وجود له عملياً.بيد أنى أنا عرفت شيئاً منه، أنا الفضولى المنقب، وما كانت خرافات. أجل، لقد شاهدت فى غضون حياتى (وأقصد أنى شاهدت علمياً، فلست اكتفى بكلمات فارغة) سمعتين غير مبررتين. وإنها لتتأسس عادة على تماثل فى الأسماء أو تبعاً لبعض العلامات الخارجية، كوفرة الخواتم على سبيل المثال، والتى يتخيل الناس غير الأكفياء أنها بصورة مطلقة صفات مميزة لما تقوله، مثلما يعتقدون أن الفلاح لا يقول كلمتين دون أن يتبعهما بعبارة "جارنيغييه" والإنكليزى بعبارة "غودام"(١). إن ذاك اصطلاح للمسرح غير الجاد."

وقد أدهشنى السيد "دو شارلوس" كثيراً وهو يذكر لى من بين الشاذين "صديق الممثلة" الذى سبق أن رأيته فى "بالبيك" والذى كان رئيس جمعية الأصدقاء الأربعة الصغيرة(٢). "وتلك الممثلة حينذاك؟" - "إنها تفيده بوصفها ستارة، ثم إن له من جانب آخر صلات معها ربما أكثر مما له مع الرجال الذين يكاد لا يقيم صلات معهم." - "وهل له صلات مع الثلاثة الآخرين؟" - "لا، لا، على الإطلاق! فإنهم أصدقاء لا لهذا الأمر إطلاقاً! فاثنان منهم يتجهان حصراً إلى النساء. وواحد من الجماعة، بيد أنه ليس مضموناً بالنسبة إلى صديقه، وهم فى جميع الأحوال يختبئون واحدهم عن الآخر. ما سوف يدهشك أن تلك السمعات غير المبررة هى الأكثر رسوخاً فى نظر الجمهور. أنت ذاتك يا "بريشو"، وقد تسلم يدك للقطع دفاعاً عن فضيلة هذا أو ذاك ممن يأتون إلى هنا ويعرفهم المطلعون كما يعرف الذئب الأبيض، لابد أنك تؤمن، كما يفعل الجميع، بما يقال عن هذا الرجل البارز الذى يجسد تلك الميول فى نظر العامة فيما لا أظنه من الجماعة بفلسين. أقول بفلسين، لأننا لو وضعنا فى هذا السبيل خمسة وعشرين فرنكاً لرأينا أن عدد القديسين الصغار سوف يتناقص إلى الصفر. فإن لم يكن فإن نسبة القديسين، إن بدا أن فى هذا الأمر قداسية، تتحدد كقاعدة عامة بين ثلاثة وأربعة على عشرة." ولئن نقل "بريشو" إلى الذكورة مسألة السمعات السيئة فقد كنت بدورى أرد أقول السيد "دو شارلوس" بالعكس إلى جنس النساء وأنا أصرف فكرى إلى "ألبيرتين". لقد داخلنى الهلع جراء إحصائيته حتى إن أخذت فى الحسبان أنه لابد يضخم الأرقام وفق ما كان يشتهى وكذلك تبعاً لتقارير من أفراد ثرثارين، وربما كاذبين، وفى جميع الأحوال مخدوعين وقعوا فريسة رغبتهم الخاصة التى كانت إذ تنضاف إلى رغبة السيد "دو شارلوس"تفسد دون شك حسابات البارون. وصاح "بريشو" قائلاً: "ثلاثة من عشرة! لربما كان علىّ

---

(١) Jarniguié أى Jerenie Dieu (إنى أنكر الله) وgaddam وترد بالمعنى نفسه، والعباراتان من صنوف التجديف.

(٢) سبق ذكر هذه الجماعة فى القسم الثانى من "فى ظلال ربيع الفتيات" وهى مؤلفة من ثلاثة رجال وممثلة.

إلى ذلك، إن قلبت النسبة، أن أضرب بمئة عدد المذنبين. وإن كان العدد ما تقول أيها البارون، وإن كنت غير مخطئ، فعلينا أن نقر حينذاك بأنك واحد من هؤلاء الكاشفين النادرين لحقيقة لا يرتاب بها أحد من حولهم. فمن ذلك أن "باريس" (Barrès) قام باكتشافات حول فساد البرلمانيين جرى التحقق منها بعد ذلك، كما كان شأن كوكب "لوفيرييه" (Leverrier)(١). وربما فضلت السيدة "فيردوران" أن تذكر رجالاً أرى من الأفضل أن لا أسميهم وقد كشفوا في مكتب الاستخبارات في الأركان العامة تصرفات أوحت بها حمية وطنية زائدة، ولكني ما كنت في النهاية أتصورها. وهذا "ليون دوديه" (Léon Daudet) يكتب كيفما تيسر حكاية جنيات هائلة يتفق أن تكون الحقيقة بعينها." وأردف "بريشو" يقول مشدوهاً: "ثلاثة من عشرة!" والصحيح أن نقول إن السيد "دو شارلوس" كان يرمي بالشذوذ الغالبية العظمى من معاصريه، لكنما يستثني الرجال الذين سبق أن أقام علاقات معهم كان يبدو له حالها، إن خالطها نزر يسير من الخيال، أكثر تعقيداً. من ذلك أنك ترى محبين للحياة لا يؤمنون بشرف النساء يكسبون بعضاً منه لهذه أو تلك ممن كنا عشيقات لهم ويؤكدون بصدق وبلهجة تكتنفها الأسرار: "لا، لا، أنت على خطأ فليست عاهرة." وإنما يملي هذا التقدير اللامتوقع عليهم في جزء منه اعتزازهم بنفسهم الذي يرى أن تخصيصهم وحدهم بمثل تلم المنن أكثر دغدغة لمشاعرهم، وفي جزء منه سذاجتهم التي تبتلع بيسر كل ما شاءت عشيقتهم أن تحملهم على تصديقه، وفي جزء هذا الشعور بالحياة الذي يجعل العناوين والخانات المقررة سلفاً شديدة التبسيط حالما نقترب من الأشخاص ومن صنوف العيش. "ثلاثة من عشرة! لكن حذار، فإنك أقل حظاً من أولئك المؤرخين الذي سيقرهم المستقبل أيها البارون إن أردت أن تقدم للأجيال القادمة اللوحة التي تحدثنا عنها فقد يمكن أن تجدها سيئة. فهي لا تحكم إلا على الأمور الواقعة وتود الاطلاع على ملفك. وبما أنه ليس من وثيقة في اليد لتصدق هذا النوع من الظاهرات الجماعية التي يهم المطلعين وحدهم أكثر ما يهتمهم أن يدعوها في العتمة، فربما ثاروا ثورة شديدة في معسكر السذج واحتسبت فوراً مفترياً أو مجنوناً. وبعدما حصلت في سباق الأناقة على الحد الأقصى وعلى الأمارة على هذه الأرض، ربما خبرت مآسي استبعاد في الآخرة. والأمر، كما يقول، عفوك اللهم، صديقنا "بوسويه" (Bossuet)(٢)، لا يستحق المغامرة." فأجاب السيد "دو شارلوس" قائلاً: "لست أعمل من أجل التاريخ، فالحياة تكفيني وهي ممتعة جداً، كما كان يقول "سوان" المسكين". - "يا عجبي! لقد عرفت "سوان" أيها البارون، ولكني ما كنت عالماً بذلك. أفكان على تلك الميول؟" يقول "بريشو" بادي القلق. وقال "شارلوس": "ولكن يا لها فظاظة! تظن إذاً أني لا أعرف إلا أناساً من هذه الطينة؟ لا، لا، لا اعتقد"، قال وهو يخفض عينيه ويحاول أن يوازن بين الشيء وعكسه. وإذ اعتقد البارون، بما أن الأمر يدور حول "سوان" الذي سبق أن كانت ميوله المغايرة تماماً معروفة على الدوام، أن نصف

(١) فلكي فرنسي من القرن التاسع عشر استخلص وجود الكوكب "نبتون" بعد حسابات أجراها على مدار "أورانوس".

(٢) أحد كبار الأساقفة في القرن السابع عشر وكان خطيباً مفوهاً.

إقرار ما كان يمكن إلا أن يكون غير مؤذٍ بالنسبة إلى من يعنيه ومدغدغاً لمشاعر من يدعه يفلت فى إلماحة ما، قال كأنما على الرغم منه وكأنى به يفكر بصوت عالٍ: "لا أقول، فيما مضى، فى المدرسة، ذات مرة بالمصادفة" ثم يستدرك قائلاً: "لكنما انقضى على ذلك مئتا عام فكيف تريدنى أن أتذكر؟" واختتم ضاحكاً: "إنك تزعجنى". قال "بريشو": "وفى جميع الأحوال لم يكن عنوان الجمال"، إذ كان يظن نفسه، هو الدميم، جميلاً ويرى الآخرين على قبح. وقال البارون: "اخرس، لست تعرف ما تقول، لقد كان لونه فى ذلك الوقت لون الدراق"، وأضاف يقول، وهو يضع كل مقطع على نغمة مختلفة، لقد كان جميلاً كملائكة الحب. لقد لبث فاتناً على أى حال. لقد أحبته النساء حتى الجنون." – "ولكن هل عرفت امرأته؟" – "ويحك، لقد عرفها عن طريقى. لقد ألفيتها رائعة فى أثوابها نصف التنكرية ذات مساء كانت تمثل فيه دور الآنسة "ساكريبان". كنت بصحبة رفاق من النادى وكنا جميعاً قد اصطحبنا امرأة، ومع أنى لم تداخلنى إلا الرغبة فى النوم فقد زعمت ألسنة السوء، إذ من المريع كم هو العالم شرير، أننى ضاجعت "أوديت". لكنها استغلت الأمر لتبادر إلى إزعاجى وخلتنى أتخلص منها بتعريفها بـ "سوان". ولم تكف منذ ذلك اليوم عن إزعاجى، فما كانت تعرف حرفاً فى الإملاء وأنا من كان يسطر الرسائل. وأنا من كلف فيما بعد بإخراجها فى نزهات. فانظر يا ولدى ما عسى يكون أمر من حسنت سمعته، كما ترى. وما كنت أستحقها على أية حال إلا جزئياً. كانت ترغمنى على أن أقيم لها حفلات لهو مريعة يشترك فيها خمسة وستة." أما العشاق الذين اتخذتهم "أوديت" على التوالى (فقد اتخذت هذا، ثم ذاك – من هؤلاء الرجال الذين لم يعرف "سوان" المسكين شيئاً عن أى منهم، وقد أعمته الغيرة وأعماه الحب، يتوقع فرص النجاح تارة وطوراً يصدق العهود وهى أكثر إثباتاً من تناقض يفلت من المذنبة، تناقض أعسر إدراكاً بما لا يقاس مع أنه أكثر دلالة إلى حد بعيد وربما استطاع الغيران أن يفيد منه إفادة تتجاوز فى منطقيتها المعلومات التى يزعم زوراً أنه حصل عليها من أجل إثارة مخاوف عشيقته)، هؤلاء العشاق، طفق السيد "دو شارلوس" يعددهم بمقدار ما يبدى من يقين لو أنه تلا قائمة ملوك فرنسه. والغيران بالفعل، كما هى حال المعاصرين، مفرط القرب فلا يعلم شيئاً، وإنما تتخذ أخبار الزنى دقة التاريخ فى نظر الغرباء فتستطيل قوائم غير ذات بال على أية حال ولا تضحى حزينة إلا فى نظر غيران آخر، من مثل ما كنت، لا يستطيع الحؤول دون أن يقارن بين حالته والحالة التى يجرى الحديث عنها ويتساءل إن لم يكن ثمة قائمة معروفة بالنسبة إلى المرأة التى يرتاب بأمرها. لكنما لا يسعه أن يعلم شيئاً منها، لكأنما هى مؤامرة شاملة وتنكيد يشارك فيه الجميع بقسوة وقوامه أن يجعل على عينيه، فيما تمضى صديقته من واحد إلى آخر، عصابة يجهد أبداً فى نزعها دون أن يفلح فى ذلك لأن الجميع يعمونه، المسكين، فالطيبون عن طيبة بهم، والخبثاء من خبث، والفظون لميل إلى "المقالب" البشعة، والحسنو التربية لأدب وحسن تربية، والكل لواحد من تلك التوافقات التى يدعونها مبادئ. – "ولكن هل علم "سوان" فى يوم أنك نعمت بمنن حبها؟" – "ويحك، أية فظاعة تلك! أروى عن ذلك لـ "شارل"! إنما تقشعر لذلك الأبدان. لعله كان بكل بساطة قتلنى أيها العزيز، فإنه غيور كالنمرة. كما أنى لم أقر لـ "أوديت"،

ولعل الأمر كان عندها سواء على كل حال، بأنه... هيا، لا تدعني إلى قول الحماقات، والأنكى أنها هي التي رمته بطلقات مسدس أوشكت أن تصيبني. آه! لقد أصبت متعة مع هذين الزوجين؛ وأنا بالطبع من اضطر أن يكون شاهده ضد "دو سمون" الذي لم يغتفر لي ذلك البتة. كان "دو سمون" قد اختطف "أوديت" فاتخذ "سوان"، بحثاً عن العزاء، اتخذ من شقيقة "أوديت" عشيقة، أو عشيقة كاذبة. لست تنوي في النهاية دفعي إلى رواية قصة "سوان"، فقد يقضينا ذلك عشر سنين، فهمت، فإني أعرف ذلك كما لا يعرف أحد. لقد كنت أنا من كان يصطحب "أوديت" حينما لا تبغي لقاء "شارل". كان يزيد من إنزعاجي أن لي واحداً من أقرب أقاربي يحمل اسم "دو كريسي" دون أن يملك بالطبع أي حق في ذلك، ولكن ذاك الأمر ما كان آخر الأمر يروقه. فإنها كانت تسمي نفسها "أوديت دو كريسي" وبوسعها أن تفعل تماماً إذ هي انفصلت فقط عن واحد من آل "كريسي" كانت زوجة له، وهو حقيقي فيما يخصه وسيد من أخيارهم كانت قد "نظفته" حتى آخر فلس. لكنما ذلك، ويحك، كيما تدفعني إلى الحديث، فإني رأيتك برفقته في القطار الصغير، وكنت تقدم له الأعشية في "بالبيك". ولابد لهذا المسكين أن يكون بحاجة إليها، فقد كان يعيش من نفقة زهيدة جداً يوفرها له "سوان" ولديّ شك قوي بأن هذا الإيراد لابد توقف دفعه تماماً منذ وفاة صديقي. ما لا أفهمه، يقول السيد "دو شارلوس"، أنك لم ترغب منذ قليل، إذ كثيراً ما ذهبت إلى منزل "شارل"، أن أقدمك لملكة "نابولي". وأرى باختصار القول أنك لا تهتم "بالأشخاص" بما هم نوادر غريبة ويدهشني هذا الأمر دوماً من شخص عرف "سوان" الذي كان هذا الاهتمام كبيراً لديه إلى الحد الذي لا يسعنا معه أن نقول إن كنت أنا معلمه في هذا الشأن أو هو معلمي ذلك يدهشني بقدر ما لو أرى شخصاً سبق أن عرف "ويستلر" ولا يعلم أي شيء هو الذوق. يا إلهي، إنما كان من المهم بالنسبة إلى "موريل" خصوصاً أن يعرفها. لقد كان يتوق إلى ذلك توقاً شديداً على أية حال فهو من أكثرهم ذكاء. من المزعج أن تكون ذهبت. لكني سأقوم بترتيب الالتقاء في هذه الأيام. سوف يتعرف إليها لا محالة. ربما كانت العقبة الوحيدة الممكنة إن هي ماتت في الغد. والأمل أملي أن لن يحدث ذلك." ولما كان "بريشو" لا يزال متأثراً بنسبة "الثلاثة من عشرة" التي سبق أن أطلعه عليها السيد "دو شارلوس"، ولم يكن انفك عن ملاحقة فكرته، فقد سأل فجأة السيد "دو شارلوس" متجهم الوجه وبجفاء يذكر بجفاء قاضي تحقيق يبغي الحصول على اعتراف من المتهم، لكنه ناجم في الحقيقة عن رغبة الأستاذ في أن يبدو ثاقب الذهن وعن الاضطراب الذي به لتوجيه اتهام خطير إلى هذا الحد: "أليس "سكي" على هذه الشاكلة؟" وكان، بغية استثارة الإعجاب بمواهب الحدي المزعومة لديه، قد اختار "سكي" انئلاً في نفسه إنه لما لم يكن ثمة سوى ثلاثة أبرياء من عشرة فإن احتمال الخطأ لديه قليل حينما يسمي "سكي" الذي كان يبدو له غريب الأطوار إلى حد ويعاني من الأرق ويتعطر، وكان بوجيز العابرة خارج الحد الطبيعي. وصاح البارون بسخرية تتسم بالمرارة والحسم والسخط: "لا، على الإطلاق. ما تقوله بادي الزيف وغير معقول وبعيد عن الموضوع! "سكي هو ما تقول بالضبط بالنسبة إلى الذين لا يفقهون شيئاً من ذلك. ولو كان هذا أمره لما كان بدا عليه ذلك إلى هذا الحد، ونقولها دون أية نية للنقد لأني أرى عنده سحراً

بل أجد لديه ما يشدك إليه كثيراً." وعاد "بريشو" يقول بإلحاح: "هيا قل لنا إذن بعض الأسماء." فاعتدل السيد "دو شارلوس" فى جلسته وأجاب بهيئة ملؤها العجرفة: "آه! أيها العزيز، تعلم أنى أنا أعيش فى المجردات، فكل ذلك لا يهمنى إلا من وجهة نظر عقلية صرفة"، أجاب بنفور الاعتزاز بالذات الذى يميز أمثاله وتصنع الكلام الطنان الذى يسم حديثه. "ليس فيما يخصنى، ترى ذلك، سوى العموميات التى تثير اهتمامى، وإنى أكلمك عن ذلك كما أفعل عن قانون الجاذبية." لكن فترات ردة الفعل المتململة التى يجهد البارون فيها فى إخفاء حياته الحقيقية كانت تدوم قليلاً جداً فى مقابل ساعات المسيرة الصاعدة المستمرة التى يزيح فيها الستار عنها ويبسطها برضى عن النفس يبعث الضيق فى صدرك، إذ كانت الحاجة إلى المسارة أقوى لديه من الخشية من فضح الأسرار. فأردف يقول: "ما كنت أبغى قوله أن ثمة فى مقابل سمعة سيئة غير مبررة، مئات من السمعات الطيبة التى لا تقل عنها فى سمة اللاتبرير تلك. والبديهى أن عدد الذين لا يستحقونها إنما يتغير حسبما تستند فى ذلك إلى أقوال أشباههم أو الآخرين. والصحيح أنه، إن كان سوء النية لدى هؤلاء الآخرين محدوداً جراء ما قد يواجهون من صعوبة كبيرة فى الاعتقاد بأن عيباً، هو فى نظرهم بمثل فظاعة السرقة أو القتل، يمارسه أناس يعرفون رقتهم وقلبهم، فإن سوء نية الأولين إنما تستثيرها إلى حد الغلو الرغبة فى أن يحسبوا، ما عساى أقول، فى متناولهم أناساً يروقونهم بفضل معلومات زودهم بها أناس خدعتهم رغبة مشابهة، وتستثيرها فى نهاية المطاف العزلة التى تفرض بعامة عليهم. لقد رأيت رجلاً ساء قدره إلى حد ما بسبب ذاك الميل يقول إنه يفترض أن واحداً من علية القوم يعانى الميل نفسه. وصحبته الوحيدة فى ما ذهب إليه أن رجل المجتمعات ذاك كان لطيفاً معه! وكلها أسباب تدعو إلى التفاؤل، يقول البارون بسذاجة، فى تقدير العدد. لكن السبب الحقيقى للفارق الكائن بين هذا العدد المحسوب على يد غير المطلعين وذاك المحسوب على يد المطلعين مرده جو الأسرار الذى يحيطون به تصرفاتهم بغية حجبها عن أعين الآخرين الذين ربما طار لبهم حرفياً، وقد حرموا أية وسيلة اطلاع، إن أحيطوا علماً بربع الحقيقة فحسب." وقال "بريشو": "فالأمور إذاً فى عصرنا كما كانت لدى اليونانيين." - "ولكن كيف ذلك، كما كانت لدى اليونانيين؟ أتتصور أن ذلك لم يستمر مذ ذاك؟ فانظر، فى عهد لويس الرابع عشر، "سيدنا"، و"الفيرماندى" الصغير، و"موليير" و"الأمير لويس دو بادن" و"برونسويك" و"شارولبه" و"بوفلر" و"كونديه الكبير" والدوق "دو بريساك". - "سأوقفك، "سيدنا" كنت أعرفه و"بريساك" كنت أعرفه بريشة "سان سيمون"(١)، و"فاندوم" بالطبع وكثيرون غيرهم على أى حال لكن هذا الطاعون العتيق الذى اسمه "سان سيمون" كثيراً ما يذكر "كونديه الكبير" والأمير "لويس دو بادن" ولا يقول ذلك البتة." - "مؤسف فى جميع الأحوال أن يقع علىّ أنا أن أعلم أستاذاً فى الصوربون تاريخه." - "إنك قاس أيها البارون ولكنك عادل. خذ هذه، فسوف أسرك بها. إنى أتذكر الآن أغنية من ذاك العصر كتبت بلاتينية المطابخ حول عاصفة

---

(١) مذكرات "سان سيمون".

فاجأت "كونديه الكبير" حينما كان ينحدر فوق مياه "الرون" برفقة صديقه المركيز "دولا موسيه"، فيقول "كونديه":

"صديقى العزيز "دولا موسيه"

آه! يا إلهى! أى طقس هو هذا!

لاندرنييت

سوف نهلك من المطر."

ويطمئنه "دولا موسيه" قائلاً له:

"إن حياتنا فى أمان

لأننا لواطيان

ولا يقدر أن نموت إلا بالنار

لاندريري".

وقال "شارلوس" بصوت حاد متكلف: "إنى أسحب ما قلته، فإنك بحر من العلم، ستكتب لى هذا، أليس كذلك، فإنى أريد أن أحفظه فى محفوظات أسرتى لأن أم جدتى من الدرجة الثالثة كانت شقيقة السيد الأمير." - "أجل، ولكننى أيها البارون لا أرى شيئاً حول الأمير "لويس دو بادن". على أى حال أعتقد أن فنون الحرب بعامة..." - "يا للغباء!فى ذلك العصر "فاندوم" و"فيلار" والأمير "أوجين" والأمير "دوكونتى"، ولو حدثتكم عن جميع أبطالنا فى "تونكين" وفى المغرب، وإنى أتحدث عن الرائعين حقاً والأتقياء و"الجيل الجديد" فقد أدهشكم كثيراً. آه! ما أكثر ما قد أعلمه للذين يقومون بتقصيات حول الجيل الجديد الذى رفض التعقيدات التى لا طائل تحتها التى من صنع الأجداد، كما يقول السيد "بورجيه"![1] إن لى صديقاً حميماً هناك يتحدثون كثيراً عنه وقد قام بأشياء رائعة. لكننى فى النهاية لا أود أن أكون خبيثاً. فهيا نعود إلى القرن السابع عشر، تعلم أن "سان سيمون" يقول عن المارشال "دوكسل" - من بين كثيرين غيره: "... شهوانى فى مجونه اليونانى[2] الذى ما كان يكلف نفسه التستر عليه، وكان يستدرج ضباطاً شباناً يروضهم، بالإضافة إلى خدم حديثى السن حسنى التكوين، وذلك دونما ستر، فى الجيش وفى "ستراسبورغ"." لابد أنك قرأت رسائل "ستنا" وما كان الرجال يدعونها بغير "فاجرتنا". وهى تتحدث عن ذلك حديثاً واضحاً إلى حد." - "وكانت موثوقة المصادر لتعلم،

---

(١) الكاتب "پول بورجيه".

(٢) يعنى اللواطة.

مع زوجها". وقال السيد "دوشارلوس": "إنها لشخصية مثيرة". فربما وسعنا بالرجوع إليها وضع الخلاصة الوجدانية لـ "امرأة واحد من جنس العمات". هى قبل كل شىء مسترجلة: وزوجة صنف العمات رجل بعامّة، وهذا ما يسهِّل لها إلى هذا الحد أن تهبه أطفالاً. ثم إن "ستنا" "لا تحكى عن عيوب "سيدنا"، لكنها تتكلم دون انقطاع عن هذا العيب ذاته لدى الآخرين كلام العارف بالأمور وجراء هذه العادة التى فينا وقوامها أنه يروق لنا أن نعثر فى عائلات الآخرين على العيوب نفسها التى نعانى منها فى عائلتنا كى نبرهن لذواتنا أن ليس فى الأمر ما كان خارقاً أو مشيناً. كنت أقول لك إن الأمر كان كذلك على مر الزمن. لكن زماننا يتميز بصورة خاصة ضمن هذا المفهوم. وعلى الرغم من الأمثلة التى اقتبستها من القرن السابع عشر فلو أن جدى الأول "فرانسوا دو لاروشفوكو" كان يعيش فى زماننا لاستطاع أن يقول عنه وبصحة بعدُ أكبر مما يقول عن زمانه، هيا ساعدنى يا "بريشو": "الرذائل من كل الأزمنة، ولكن لو أنه سبق لأشخاص يعرفهم كل الناس أن يظهروا فى الأزمنة الأولى أكنا تحدثنا الآن عن صنوف الدعارة لدى "هيليو غابال"[١]. إن عبارة "يعرفهم كل الناس" تروقنى كثيراً. وأرى أن قريبى الألمعى كان يعرف "الكلام المعسول" لدى أكثر معاصريه شهرة مثلما أعرف ما يجود به معاصرىّ. أما الناس الذين من هذا القبيل، فليس ثمة كثرة منهم فحسب فى يومنا، بل لديهم كذلك ما يميزهم".

وحسبت أن السيد "دوشارلوس" يزمع أن يقول لنا كيف تطور هذا الصنف من العادات الخلقية. ولم تغب عن مخيلتى لحظة واحدة فيما كان يتكلم، فيما كان "بريشو" يتكلم، الصورة الواعية إلى حد ما لمنزلى الذى كانت "ألبيرتين" تنتظرنى فيه، صورة مقرونة بفكرة "فانتوى" الموسيقية الدافئة الحميمة.

كنت لا أنفك أعود إلى "ألبيرتين"، مثلما لابد أن أعود بالفعل بالقرب منها بعد قليل وكأنما إلى كرة كنت بشكل أو بآخر مشدوداً إليها وكانت تحول بينى وبين أن أغادر باريس كما كانت فى هذه اللحظة، وفيما أتذكر من داخل صالة آل "فيردوران" منزلى، تشعرنى به لا على أنه مكان فارغ يستثير حماسة الفرد ويشوبه شىء من الحزن، بل بوصفه مليئاً - وهو بذلك شبيه بفندق "بالبيك" ذات مساء - بذاك الحضور الذى لا يبرحه والذى يدوم هنالك من أجلى وأنا متيقن أنى سأعود فألقاه فى اللحظة التى أريدها. وكان للإلحاح الذى يعود به السيد "دو شارلوس" على الدوام إلى الموضوع - الذى يتمتع عقله إزاءه على أى حال، عقله المصروف دوماً فى الاتجاه نفسه، بشىء من النفاذ - كان له شىء من الطابع المكدر الذى ينطوى على بعض التعقيد. كان مملاً كعالم لا يرى شيئاً خلف حدود اختصاصه، مزعجاً كمطلع يتباهى بالأسرار التى بين يديه ويتحرق شوقاً إلى إفشائها، ثقيلاً كالذين ما إن تعلق الأمر بعيوبهم حتى ينفرجوا دون أن يتبينوا أنهم يزعجون، مُسْتَبْعَدَاً كذى هوس، متهوراً كمذنب. كانت تلك السمات التى تضحى فى بعض الأوقات لافتة كتلك التى تميز مجنوناً أو مجرماً تحمل إليّ من جانب آخر بعض الهدوء. ذلك لأنى إذ كنت أُدخل عليها المناقلة اللازمة ليمكننى أن

(١) Héliogabale: امبراطور رومانى (٢١٨-٢٢٢) تميّز عصره بصنوف الفوضى فى كل المجالات.

استخلص منها استنتاجات فيما يخص "ألبيرتين" وأتذكر موقف هذه الأخيرة من "سان لو" ومنى، كنت أقول فى نفسى، مهما كانت إحدى هاتين الذكريين أليمة فى نظرى والأخرى حزينة، كنت أقول فى نفسى إنهما يبدوان وكأنما يستبعدان نوع التشويه البارز جداً والتخصص الحصرى حكماً فيما يبدو والذى كان ينبعث بهذا القدر من القوة من حديث وشخص السيد "دو شارلوس" على السواء. لكن هذا الأخير سارع لسوء الحظ إلى تضييع أسباب الأمل هذه بالطريقة نفسها التى سبق أن وفرها لى، أى دون علم منه. وقال: "أجل، لم أعد فى الخامسة والعشرين وقد شهدت الكثير من الأشياء تتغير من حولى وما عدت أتعرف لا المجتمع الذى تحطمت فيه الحواجز وحيث يرقص حشد غفير عديم الأناقة والاحتشام التانغو حتى داخل أسرتى، ولا الموضات ولا السياسة ولا الفنون ولا الدين ولا أى شىء. على أنى اعترف أن ما تغير أكثر ما تغير هو ما يسميه الألمان اللوطية. يالله، فى أيام صباى، إن وضعنا جانباً الرجال الذين يكرهون النساء والذين لا يحبون سوى النساء فلا يفعلون أمراً آخر إلا من قبيل المصلحة، كان اللواطيون آباء أسر صالحين يكادون لا يتخذون عشيقات إلا فى سبيل التغطية. ولو كان لى ابنة أزوجها فما كنت لأبحث إلا بينهم عن صهرى إن أردت أن اطمئن إلى أنها لن تكون تعيسة. لقد تغير كل شىء، وا أسفى! أما الآن فإنك ملاقيهم كذلك بين أكثر الرجال شغفاً بالنساء. كنت أظن لى شيئاً من حاسة الاستبصار وأن لا يسعنى أن أكون أخطأت بعدما قلت فى نفسى: "لا بالتأكيد". حسن، ها إنى أقر بعجزى. كان لواحد من أصدقائى معروف تماماً فى هذا المجال حوذى سبق أن وفرته له زوجة شقيقى "أوريان"، وهو شاب من "كومبريه" قد مارس تقريباً سائر المهن ولاسيما مهنة "زير نساء"، ولعلنى كنت أقسمت أنه ينفر قدر ما يستطيع من هذه الأمور. وكان مصدر تعاسة لعشيقته إذ كان يخونها مع امرأتين كان يعبدهما، ناهيك عن الأخريات، عن ممثلة وعن نادلة فى مشرب. لقد قال لى ابن عمى الأمير "دوغيرمانت"، وهو يتمتع بالضبط بالذكاء المزعج الذى لأولئك الذين يصدقون كل شىء بسهولة مفرطة، قال لى ذات يوم: "ولكن لم لا يواقع السيد س حوذيه؟ فمن ذا يعلم إن كان ذلك لا يمتعه، "ثيودور" هذا (وهو اسم الحوذى)، بل إن لم يكن مستاء جداً أن يرى أن معلمه لا يراوده عن نفسه؟" ولم أستطع أن أملك نفسى من إسكات "جيلبير"، فقد أثار أعصابى نفاذ البصيرة المزعوم هذا الذى يصبح حينما يؤخذ به عشوائياً غياباً للبصيرة، كما أثارنى على السواء الخبث الواضح تماماً لدى ابن عمى الذى ربما ابتغى أن يحاول صديقنا س أن يجازف بنفسه على الخشبة من أجل أن يبادر إليها بدوره إن ثبتت صلاحيتها. وسأل "بريشو" قائلاً بمزيج من الدهشة والضيق: "فللأمير "دوغيرمانت" إذن مثل هذه الميول؟" فأجاب السيد "دو شارلوس" بفرح بالغ: "يا الله، الأمر معروف إلى حد لا أعتقد معه أنى أفشى سراً إن أجبتك بنعم. حسن، لقد ذهبت فى السنة التالية إلى "بالبيك" وعلمت هناك على يد بحار كان يصطحبنى أحياناً إلى صيد السمك أن "ثيودور" هذا الذى يملك شقيقة هى بين قوسين وصيفة صديقة للسيدة "فيرودوران" تدعى البارونة "بوتبوس"، كان يجىء إلى المرفأ ليأخذ هذا البحار تارة وآخر طوراً بوقاحة جهنمية ليقوم بجولة فى قارب و"بأمور أخرى أيضاً"." وجاء دورى لأسأل إن كان المعلم الذى تعرفت فى شخصه السيد الذى كان يلعب الورق طوال النهار مع عشيقته على شاكلة الأمير "دوغيرمانت". - "ويحك، الجميع يعرف ذلك، وهو حتى لا

يتستر على ذلك." - "لكنما كانت عشيقته برفقته." - "حسن، وما عسى يغير ذلك؟ يالهم سذج هؤلاء الأولاد"، يقول بلهجة أبوية دون أن يرتاب بالعذاب الذى استخلصه من أقواله وأنا أفكر بـ "ألبيرتين". "وإنها لفاتنة، عشيقته". - "وأصدقاؤه الثلاثة إذن هم على شاكلته؟" فصاح يقول: "لا، لا، على الإطلاق"، يقول وهو يسد أذنيه كما لو أنى أصدرت علامة موسيقية ناشزة وأنا أعزف على إحدى الآلات، "أراه الآن فى الطرف الأقصى الآخر. إذاً لم يعد يحق للمرء أن يتخذ له أصدقاء؟ آه للشباب! إنهم يخلطون كل شىء، ولابد من إعادة تنشئتك يا ولدى". وأردف يقول: "وإنى أقر أن هذه الحالة، وأعرف غيرها الكثير، إنما تربكنى مهما جهدت فى أن أبقى فكرى مفتوحاً على كل صنوف الجرأة. إنى من طراز قديم جداً، لكنى لا أفهم، يقول بلهجة غاليكانى[1] عتيق يتحدث عن بعض أشكال البابوية المتطرفة، أو ملكى ليبرالى يتحدث عن "العمل الفرنسى"، أو تلميذ لـ "كلود مونيه" عن التكعيبيين. لست ألوم هؤلاء المجددين، إنى أحسدهم بالأحرى وأحاول أن أفهمهم لكنى لا أفلح فى ذلك. فإن كانوا يحبون المرأة إلى هذا الحد فلماذا، ولاسيما فى دنيا العمال هذه حيث الأمر غير مقبول وحيث يتخفون من باب الاعتزاز بالذات، لماذا نراهم بحاجة إلى ما يسمونه "عجياً"؟ ذلك أن الأمر يمثل فى نظرهم شيئاً آخر، "ويحك". وكنت أفكر فى نفسى: "ماذا يمكن أن تمثل المرأة من أمر آخر فى نظر "ألبيرتين"؟" وهنا كان يكمن بالفعل عذابى. وقال "بريشو": "بالحقيقة أيها البارون، إن اقترح مجلس الكليات فى يوم إحداث كرسى للشذوذ الجنسى فسأعمل على اقتراحك فى المكان الأول. أو بالأحرى لا: فربما وافقك أكثر معهد للسيكوفيزيولوجيا الخاصة. وأراك على وجه الخصوص مكلفاً بكرسى فى "الكوليج دو فرانس" يمكنك من الانصراف إلى دراسات شخصية تقدم نتائجها مثلما يفعل أستاذ لغة التاميل أو الصنصكريتية أمام عدد قليل من الناس الذين يهتمون بذلك. ويكون لديك مستمعان وحاجب، ونقول ذلك دون مقصد منا فى زرع أدنى الشكوك حول هيئة الحجّاب التى أظنها فوق الشبهات." ورد البارون بلهجة قاسية حاسمة: "لست تدرى شيئاً من ذلك. وإنك مخطئ على أية حال إذ تظن أن ذلك يهم عدداً هيناً جداً من الأشخاص. والأمر عكس ذلك تماماً." ثم قال، دون أن، يتبين التناقض القائم بين الاتجاه الذى يتخذه حديثه بصورة لا تتبدل واللوم الذى يزمع توجيهه للآخرين، قال لـ "بريشو" بلهجة يطبعها الاستنكار والأسف: "الأمر مخيف بالعكس، فإنهم لا يتحدثون من بعد إلا عنه. ذلك خزى وعار، ولكن الأمر بصورة ما أقول لك أيها العزيز! ويبدو أنهم قبل البارحة لم يتحدثوا فى منزل الدوقة "دايين" عن غير ذلك على مدى ساعتين. تصور، إن شرعت النساء الآن فى الحديث عن ذلك، إنها لفضيحة حقيقية. وإن ما كان الأكثر سفالة أنهن مطلعات"، يضيف قوله بحماسة وقوة خارقتين، "على يد سفلة ولئام حقيقيين على شاكلة الفتى "شاتيلرو" يمكن تناولهم بالحديث أكثر من أى شخص آخر ويرددون لهن قصص الآخرين. وقد نقلوا إلىّ أنه يروى عنى ما يستحق أكثر من الشنق، لكنى لا أهتم للأمر وأعتقد أن الأوحال والأقذار التى يلقى بها شخص كاد أن يطرد من نادى الفروسية لأنه زور لعبة ورق لا يمكن أن تسقط إلا على رأسه. أعرف تماماً أننى

(١) الغاليكانية: هى حركة أنصار تحرر كنيسة فرنسه إدارياً تجاه البابوية.

لو كنت "جين دايين" لاحترمت بالقدر الكافى صالتى كى لا يخوضوا فيها بمثل هذه الموضوعات ولا يجرروا فى الحمأة ذَوىّ داخل منزلى. لكنما لم يبق ثمة مجتمع ولا قواعد ولا لياقات سواء فى ذلك ما اتصل بالحديث أو بالأزياء. آه! يا عزيزى، إنها نهاية العالم. لقد أضحى الناس جميعاً على مقدار عظيم من الأذية. فقصب السبق لمن تناول بالسوء الآخرين أكثر من سواه. ياللفظاعة!".

لم يبق لى، وأنا جبان كما سبق أن كنت أيام طفولتى فى "كومبريه" حينما كنت أهرب كى لا أشهدهم يقدمون الكونياك لجدى وجهود جدتى العقيمة وهى تتوسل إليه أن لا يشرب، لم يبق لى سوى فكرة واحدة، مغادرة منزل آل "فيردوران" قبل أن يتم إعدام "شارلوس". وقلت لـ "بريشو": "لابد لى حكماً أن أرحل." فقال لى: "اتبعك على الأثر، ولكن لا يمكننا الرحيل دون استئذان. فهيا نودع السيدة "فيردوران"، هكذا قال الأستاذ فى النهاية واتجه إلى الصالة فِعْلَ من يذهب ليتأكد، فى الألعاب المجتمعية، "إن كانت العودة ممكنة".

وفيما كنا نتحدث كان السيد "فيردوران" قد بادر بإشارة من امرأته إلى اصطحاب "موريل". ولعل السيدة "فيردوران"، لو وجدت بعد طول تفكير أن تأجيل إفشاء الأسرار لـ "موريل" أكثر حكمة، ما كانت استطاعت ذلك من بعد. فثمة بعض الرغبات، وهى محصورة أحياناً فى الفم، تضطرك، إما تركتها تتعاظم، إلى إشباعها أية كانت النتائج. فليس يمكنك من بعد مقاومة تقبيل كتف عارية تنظر إليها منذ فترة طويلة جداً وتهوى عليها الشفتان مثلما الطير على حية، وأكل حلوى بأسنان يحددها الجوع الشديد، وحجب النفس عن الدهشة أو الاضطراب أو الألم أو المرح الذى ستثيره فى نفس أحدهم بأقوال غير متوقعة. كذلك كانت السيدة "فيردوران"، وقد انتشت بجو ميلودرامى، قد أوعزت لزوجها باصطحاب "موريل" والتحدث إلى عازف الكمان أياً كان الثمن. وقد بدأ هذا الأخير فأسف أن تكون ملكة نابولى ذهبت دون أن تكون ثمة إمكانية لتعريفها به. وكان السيد "دز شارلوس" قد أكثر من الترداد أمامه أنها شقيقة الامبراطورة "اليزابيث" والدوقة "دالنصون" إلى حد اتخذت فيه العاهلة أهمية بالغة فى نظر "موريل". لكن المعلم كان قد أوضح له أنهما ما كانا هنا للتحدث عن ملكة نابولى وكان أن دخل فى صلب الموضوع. وقد خلص بعد وقت إلى القول: "خذ، إن شئت، سوف نستشير زوجتى. أقسم بشرفى أني لم أقل لها شيئاً بهذا الخصوص. وسنرى كيف تحكم فى هذا الأمر. ربما لم يكن رأيى هو الصائب، لكنك تعلم أى حكم صائب هو حكمها، ثم إنها تكن لك وداداً عظيماً فهيا بنا نعرض عليها القضية." وفيما كانت السيدة "فيردوران" تنتظر بفارغ الصبر الانفعالات التى سوف تتلذذ بها فى حديثها إلى العازف المُجلّى، ثم فى الاستماع، بعدما يكون ذهب، إلى عرض دقيق يؤدىً لها عن الحوار الذى قام بينه وبين زوجها، ولا تنفك تردد بانتظار ذلك: "ولكن ما الذى يمكن أن يفعلاه؟ أملى على الأقل أن "أوغست"، حين يستوقفه مثل هذا الوقت، يكون قد عرف كيف يدربه"، كان السيد "فيردوران" قد عاد برفقة "موريل" الذى كان يبدى انفعالاً شديداً. "إنه يود أن يطلب مشورتك"، يقول السيد "فيردوران" لزوجته، ويفعل كمن لا يعلم إن كان سيستجاب لمطلبه. وبدلاً من إجابة السيد "فيردوران" توجهت السيدة "فيردوران" بحديثها، ونار الوجد تكويها،

إلى "موريل": "إنى أشاطر زوجى الرأى تماماً وأرى أنه لا يمكنك التغاضى عن ذلك وقتاً أطول!"، تقول صائحة بلهجة عنيفة وتنسى، وكأنما ذلك وهم تافه، أنه سبق أن اتفقت وزوجها على افتراض أنها لا تعلم شيئاً عما قاله لعازف الكمان. وتمتم السيد "فيردوران": "عم يتغاضى؟ويحك!" وهو يحاول تصنع الدهشة ويجهد بارتباك يفسره اضطرابه فى الدفاع عن كذبته. وأجابت السيدة "فيردوران" دون أن يربكها قُرْبُ أو بُعْدُ التفسير عن الواقع المحتمل، وهى قليلة الاهتمام بما يمكن أن يخطر لعازف الكمان حول صدق معلمته حينما يتذكر هذا المشهد: "لقد حزرت ما قلته له". وأردفت السيدة "فيردوران" تقول: "لا، أرى أنه ينبغى أن لا تتحمل أكثر من هذا تلك المخالطة المخزية لشخص مفضوح لا يلقى ترحاباً فى أى مكان"، تضيف قولها دون أن تهتم بأن ليس الأمر صحيحاً وتنسى أنها تستقبله كل يوم تقريباً. وأردفت ولديها إحساس بأنها ستكون الحجة الأوقع فى نفسه: "غدوت أضحوكة المعهد الموسيقى. زد شهراً من هذه الحياة ويتحطم مستقبلك الفنى، فيما يفترض أن تكسب، بدون "شارلوس" هذا، أكثر من مئة ألف فرنك فى العام." وتمتم "موريل" والدموع تملأ عينيه: "لكننى لم يسبق أن سمعت من يقول شيئاً، إنى مندهش وشديد الامتنان لك." لكنه بدا، فى اضطراره إلى تصنع الدهشة وإخفاء الخجل على السواء، أكثر احمراراً وأخذ يتعرق أكثر مما لو عزف "سوناتات" بيتهوفن جميعها تباعاً وفى عينيه تتدافع دموع ما كان سيد "بون" بالتأكيد لينتزعها من عينيه. وابتسم النحات وقد أثارت هذه الدموع اهتمامه ودلنى على "شارلى" من طرف عينه. "إن لم تسمع من يقول شيئاً فإنك الوحيد. فهذا سيد وسخ السمعة كان له قصص بشعة. أنا أعلم أن الشرطة تراقبه وذلك على أى حال أسعد ما يمكن أن يحل به كى لا ينتهى مثل شائر أشباهه مقتولاً على يد متشردين"، تضيف قولها، فإنها وهى تفكر بـ "شارلوس" كانت ذكرى السيدة "دوراس" تعود إليها فتحاول فى الغيظ الذى كانت تنتشى به أن تزيد بعد من خطورة الجراح التى تلحقها بـ "شارلى" المسكين وأن تثأر لتلك التى لحقت بها هذا المساء. "هو على أى حال لا يستطيع أن يفيدك فى شىء حتى على الصعيد المادى، فإنه مفلس كلياً منذ أصبح فريسة أناس يبتزونه ولن يسعهم حتى استخلاص نفقات موسيقاهم منه ونفقات موسيقاك أقل بعد، لأن كل شىء مرتهن: الفندق والقصر إلخ.." وصدق "موريل" هذه الكذبة بيسر متزايد بمقدار ما كان السيد "دو شارلوس" يحب أن يتخذ منه نجيه حول علاقاته بمتسكعين، وهم صنف يجهر تجاهه ابن خادم خاص، مهما كان وغداً فيما يخصه، بشعور بالكراهية يساوى تعلقه بالأفكار البونابرتية.

وقد نشأ مذ ذاك فى فكره الماكر تركيبة شبيهة بما سمى فى القرن الثامن عشر انقلاب التحالفات. سوف يعود، وقد صمم أن لا يكلم ثانية السيد "دو شارلوس" فى يوم، سوف يعود فى مساء الغد بالقرب من ابنة شقيق "جوبيان" ويأخذ على نفسه أن يتدبر كل شىء. لكن هذا المشروع سوف يفشل لسوء حظه، إذ كان السيد "دو شارلوس" على موعد فى المساء نفسه مع "جوبيان" ولم يتجرأ صانع الصدارى السابق على تفويته على الرغم من الأحداث. وإذ توالت أحداث أخرى سوف نراها على رأس "موريل" فإن البارون، حينما روى له "جوبيان" باكياً المصائب التى حلت به، صرح لهذا الأخير دون أن يقل عنه تعاسة أنه يتبنى الصغيرة المهجورة وسوف تحمل أحد الألقاب التى فى حوزته، لقب الآنسة

"دولورون" على الأرجح، وسوف يعمل على توفير إكمال علمها على أتم وجه وتزويجها زوجاً ثرياً. وأثلجت هذه الوعود صدر "جوبيان" وخلفت اللامبالاة لدى ابنة أخيه لأنها لا تزال على حب "موريل" الذى كان يدخل ممازحاً إما عن حماقة أو عن صفاقة إلى الدكان فى أثناء غياب "جوبيان" ويقول متضاحكاً: "ما الذى ألمّ بك بهاتين العينين الغائرتين فى الزرقة؟ أهى اغتمامات حب؟ يا الله، السنون تتوالى ولا تتشابه. والمرء حر فى نهاية المطاف أن يجرب حذاء، وكم بالأحرى امرأة، فإن لم تكن على مقاس قدمه..."ولم يغضب إلا مرة واحدة لأنها بكت، وذلك ما ألفاه جبناً وطريقة معيبة. فليس يتحمل المرء دوماً على أتم وجه الدموع التى يتسبب فى ذرفها.

لكننا بالغنا فى استباق الأمور لأن كل هذا لم يجر إلا بعد أمسية آل "فيردوران" التى قطعناها ولابد من العودة إليها حيث كنا وصلنا. وتنهد "موريل" فى رده على السيد "فيردوران": "ما كان راودنى شك فى ذلك يوماً." وعادت السيدة "فيردوران" تقول بخبث وبودها أن تثبت لـ "موريل" أن الأمر لا يتعلق بالسيد "دو شارلوس" وحده، بل به أيضاً: "بالطبع لا يقولون لك ذلك وجاهياً، لكن هذا لا يمنع أن تكون أضحوكة المعهد الموسيقى. أعتقد جازمة أنك تجهل الأمر، ومع ذلك تراهم لا يتحرجون. هيا اسأل "سكى" عما كان يقال فى ذلك اليوم فى منزل "شوفيبار"، وهو على خطوتين من منزلنا، حينما دخلت مقصورتى. يعنى أنهم يدلون عليك بالبنان. سأقول لك إنى فيما يخصنى لا أعير الأمر أى انتباه، وما أراده على وجه الخصوص أنه يجعل المرء مثاراً لسخرية عظيمة ويضحى أضحوكة الجميع على مدى كامل حياته." - "لست أدرى كيف أزجيك شكرى"، يقول "شارلى" باللهجة التى تقولها بها لطبيب أسنان أقدم تواً على إيلامك ألماً رهيباً دون أن تكون وددت إظهار ذلك، أو لشاهد مفرط الدموية اضطرك إلى مبارزة بسبب كلمة تافهة قال لك بشأنها: "لا يمكنك أن تنام عليها". وأجابت السيدة "فيردوران": "عندى أنك قوى الشكيمة وأنك رجل وأنك ستعرف كيف تتكلم بصوت عال وواضح مع أنه يقول للجميع أنك لن تجرؤ وأنك طوع بنانه." وبحث "شارلى" عن كرامة مستعارة يغطى بها مزق كرامته فوجد فى ذاكرته، لأنه سبق أن قرأها أو سمع من يقولها وأعلن فى الحال: "لم أنشأ على تناول مثل هذه الأطباق. سوف أقطع صلتى بالسيد "دو شارلوس" منذ هذا المساء. لقد غادرت ملكة نابولى، أليس كذلك؟ وإلا لكنت طلبت إليها قبل أن أقطع صلتى به.." - "ليس ضرورياً أن، تقطع صلتك به بالكامل"، تقول السيدة "فيردوران" وهى راغبة أن لا تشيع الفوضى داخل النواة الصغيرة، "فلا ضرر من أن، تلتقيه هنا، داخل مجموعتنا الصغيرة، حيث أنت موضع تقدير وحيث لن يتناولك أحد بالسوء. ولكن طالب بحريتك، ثم لا تسمح أن يجررك إلى منازل كل أولئك البلهاوات اللواتى تراهن لطيفات فى حضرتك: لكن وددت لو تسمع ما يقلن فى القفا. ولا تأسف لذلك على أية حال، فأنت لا تنزع عنك فحسب لطخة ربما لازمتك طوال حياتك، لكنما دعنى أقول لك إنك، على الصعيد الفنى، وإن لم يكن ثمة هذا التقديم المخزى من جانب "دو شارلوس"، إنما يوليك تضييع نفسك هكذا فى هذا الوسط الذى قوامه مجتمع راق زائف مظهراً غير جدى وسمعة هاو وموسيقى منتديات صغير هى رهيبة فى مثل سنك. إنى أدرك أنه من المناسب تماماً بالنسبة إلى كل هذه السيدات الجميلات رد الجمائل لصديقاتهن باستقدامك مجاناً لوجه الله، لكن مستقبلك الفنى هو

الذى سيدفع الثمن: لست أعارض لدى واحدة أو اثنتين. كنت تتحدث عن ملكة نابولى التى غادرت بالفعل، هذه كان لديها أمسية، وهى امرأة طيبة القلب ودعنى أقول لك إنى اعتقد أنها لا تقيم وزناً كبيراً لـ "شارلوس" هذا. دعنى أقول لك إنى اعتقد أنها كانت تجيىء على وجه الخصوص من أجلى. أجل، أجل، أعلم أنها كانت تتوق إلى التعرف بالسيد "فيردوران" وبى. وهذا مكان يمكنك العزف فيه. ثم إنى سأقول لك إن الأمر مختلف تماماً حينما آتى بك أنا، أنا التى يعرفها الفنانون، كما تعلم، والتى كانوا على الدوام لطفاء جداً إزاءها ويعتبرونها إلى حد ما كأنما واحدة منهم، كأنما معلمتهم. ولكن احذر على وجه الخصوص، كأنما من النار، من الذهاب إلى منزل السيدة "دو دوراس"! فلا تبادر إلى ارتكاب هفوة من هذا القبيل! إنى أعرف فنانين جاؤوا يستودعوننى أسرارهم حولها. تدرى، هم يعلمون أنهم يستطيعون الوثوق بى"، تقول بالنبرة العذبة البسيطة التى تعرف اتخاذها فُجاءةً فيما تضفى على قسماتها مسحة من التواضع وعلى عينيها سحراً مناسباً. "إنهم يجيئون هكذا فيروون لى قصصهم الصغيرة. وأولئك الذين يزعمون أنهم الأكثر صمتاً تراهم يثرثرون أحياناً ساعات معى ولا أستطيع أن أقول لك كم هم شيقون. كان "شابرييه" المسكين يقول دائماً: "ليس سوى السيدة "فيردوران" من يفلح فى دفعهم إلى الكلام." حسن! تدرى، لقد رأيتهم جميعاً، أقول جميعهم دون استثناء، يبكون من أنهم مضوا للعزف فى منزل السيدة "دو دوراس". والأمر لا يقتصر على صنوف الإذلال التى تتلهى بإلحاقها بهم على يد خدمها، ولكنهم ما كانوا يستطيعون من بعد العثور على عقد فى أى مكان. كان المديرون يقولون: "آه! أجل، هذا الذى يعزف لدى السيدة "دو دوراس". وكانت القاضية، فليس ثمة ما ينهى مستقبلاً مثل هذا. تعلم أن جماعة المجتمع الراقى لا تكسبك مظهر الجد، ويمكنك أن تتمتع بما تشاء من موهبة، ويؤسفنا أن نقول ذلك، إذ يكفى أن يكون ثمة أمثال مدام "دو دوراس" كى يسبغوا عليك سمعة هاو. وفيما يخص الفنانين، تدرى، أنت تدرك أنى أعرفهم أنا فأنى فى عشرتهم منذ أربعين عاماً وفى الترويج لهم والاهتمام بهم. حسن! تعلم أنه فيما يخصهم حينما يقولون "هاو" فقد قالوا كل شىء. وقد أخذوا فى الأساس يقولون ذلك عنك. وكم مرة اضطررت أن أغضب وأن أؤكد أنك لن تعزف فى هذه الصالة السخيفة أو تلك! أفتعلم ما كانوا يجيبوننى به: "ولكنه سوف يضطر إلى ذلك، و"شارلوس" لن يستشيره، وهو لا يسأله رأيه". وظن أحدهم أنه يوليه سروراً بقوله: "إننا معجَبون كثيراً بصديقك "موريل". فهل تعلم بما أجابه بهذه اللهجة الوقحة التى تعرفها: "ولكن كيف تريده أن يكون صديقى؟ فلسنا من الطبقة نفسها، قل إنه صنيعتى ومن هو فى حمايتى"." فى هذه اللحظة كان يضطرب خلف جبين آلهة الموسيقا المحدب الشىء الوحيد الذى لا يقوى بعض الأشخاص على الاحتفاظ به لأنفسهم، كلمة ليس من الخسة فحسب تردادها، بل من التهور أيضاً. لكن الحاجة إلى تردادها أقوى من الشرف، ومن الحذر: ولهذه الحاجة استسلمت المعلمة بعد بضعة تشنجات خفيفة توالت على الجبين المكور الحزين: "بل هم كرروا أمام زوجى أنه قال: "خادمى"، وأضافت تقول: "لكنى لا أستطيع تأكيد ذلك." وإنها لحاجة مشابهة تلك التى اضطرت السيد "دو شارلوس"، بعدما أقسم لـ "موريل" أن لن يعرف أحد فى يوم منبته، إلى أن يقول للسيدة "فيردروان": "إنه ابن خادم خاص". ولعل حاجة مماثلة سوف تنقله، الآن وقد أطلقت كلمة السر، من

قوم إلى قوم آخرين يستودعونهم الأمر بمثابة سر يعدون به ولا يحفظونه، مثلما سبق أن فعلوا هم. وكانت هذه الأسرار ينتهى بها المطاف، كما هو الحال فى لعبة النقلة[1]، إلى السيدة "فيردوران" موقعاً بينها وبين المعنى الذى عرف الأمر فى النهاية. كانت تعرف ذلك لكنها لا تستطيع الاحتفاظ بالسر الذى يحرق لسانها. وما كانت كلمة "خادم" على أية حال إلا لتكدر "موريل"، ومع ذلك نطقت بلفظة "خادم"، ولئن أضافت أنه لا يسعها تأكيد الأمر فإنما كان ذلك لتبدو، بفضل هذا الفارق الطفيف، أكيدة من الباقى وبغية إبداء بعض اللاتحيز فى الآن نفسه. وقد أثر فيها ما تبدى من لا تحيز تأثيراً عميقاً إلى حد أنها شرعت تكلم "شارلى" برقة وقالت: "ذلك أنى، ترى، لا أوجه إليه ملامة، إنه يجرك إلى الهاوية التى هو فيها، وليس الذنب ذنبه بما أنه هو يتمرغ فيها: بما أنه يتمرغ فيها"، تكرر قولها وقد فتنتها صحة الصورة التى انطلقت منها انطلاقة أسرع من انتباهها الذى لا يلحق بها إلا الآن فيما يحاول إبرازها. "لا، ما ألومه عليه"، تقول بصوت رقيق قول امرأة تنتشى بنجاحها، "أنه إنما تعوزه الرقة تجاهك. ثمة أشياء لا نقولها لكل الناس. من ذلك أنه راهن منذ قليل أن سيجعلك تحمرين سروراً بإعلانه أنك ستحصلين على وسام صليب جوقة الشرف (على سبيل المزاح بالطبع لأن توصيته بك كافية لحجبه عنك). والأمر يمكن تحمله بعد مع أنى ما أحببت كثيراً فى يوم"، تضيف قولها بلهجة لطيفة رزينة، "أن يخدع المرء أصدقاءه، لكنك تعلم أن أقل الأشياء تغمنا. من ذلك على سبيل المثال حين يحكى لنا وهو يتلوى ضحكاً أنك إن رغبت فى الوسام فمن أجل عمك، وعمك كان خادماً. وصاح "شارلى": "أو قال لك ذلك!" وهو يعتقد، تبعاً لهذه الكلمات المنقولة بصورة حاذقة، بصحة كل ما قالته السيدة "فيردوران". وغمر السيدة "فيردوران" الفرح الذى يداخل عشيقة مسنة تفلح، وهى على شفا أن يهجرها عشيقها الشاب، فى فسخ زواجه. وربما لم تقدر كذبتها، بل هى حتى لم تكذب عن قصد. كان ثمة ضرب من المنطق العاطفى، وربما ضرب من المنعكس العصبى، وهو بعد أكثر بدائية، يدفعها، بغية إدخال البهجة فى حياتها وصون سعادتها، إلى "خلط الأوراق" داخل العشيرة الصغيرة، يحمل إلى شفتيها بنوع من القوة الدافعة هذه الادعاءات المفيدة بصورة شيطانية، إن لم تكن صحيحة بالغة الدقة، فلا يتسع لها الوقت لمراقبة حقيقتها. ثم أردفت المعلمة تقول: "لو كان قال ذلك لنا وحدنا لما اهتممنا للأمر، فإننا نعلم أنه ينبغى أن نأخذ مما يقول شيئاً ونترك أشياء. ثم إنه ليس ثمة مهنة غبية، فإن لك قيمتك وإنما أنت ما تساويه. فأما أن تبادر إلى إثارة سخرية السيدة "دو بورتفان" من ذلك (وتذكرها السيدة "فيردوران" متعمدة لأنها تعلم أن "شارلى" كان يحب السيدة "دو بورتفان") فذلك ما يسبب تعاستنا. كان زوجى يقول لى وهو يسمعها: "كنت فضلت أن أتناول صفعة". فإنه يحبك، تدرى، بقدر ما أفعل، "غوستاف" هذا (وعرفنا بذلك أن السيد "فيردوران" كان يدعى "غوستاف"). إنه حساس فى الأساس." وتمتم السيد "فيردوران" وهو يتكلف الظهور مظهر فاعل الخير الفظ فى فعله: "لكنى لم أقل لك يوماً إننى أحبه: فـ "شارلوس" هو الذى يحبه". فصاح "شارلى" بلهجة صادقة: "آه! لا، الآن أرانى أدرك الفارق، لقد تم الغدر بى على

---

(١) النقلة: لعبة اجتماعية يتحلق فيها اللاعبون ويمررون فيما بينهم غرضاً ما وعلى لاعب يحتل وسط الدائرة أن يحزر ما

يد رجل حقير، أما أنت فإنك طيبة." وهمست السيدة "فيردوران" قائلة: "لا، لا" كيما تحتفظ بانتصارها (إذ تحس أنها أنقذت أربعاءات استقبالها) دون أن تفرط فيه، "غلوت بقولك حقير: إنه مؤذ، كثير الأذى، دون وعى منه: تدرى، قصة جوقة الشرف هذه لم تدم طويلاً جداً. وربما ساءنى أن أردد كل ما قاله عن أسرتك"، تقول السيدة "فيردوران"، ولعله كان أربكها أن تفعل. وصاح "موريل" يقول: "أوه! عبثاً نقول إن ذلك لم يدم إلا لحظة فإنما يدل ذلك على أنه غدار".

واتفق فى هذه اللحظة عينها أن عدنا إلى الصالون. وصرخ السيد "دو شارلوس" إذ رأى أن "موريل" هناك، وقال وهو يمشى إلى الموسيقى بنوع الحبور الذى يطبع أناساً نظموا كامل أمسيتهم تنظيماً بارعاً فى سبيل موعد مع امرأة ولا يشكون وقد انتشوا تماماً أنهم هم أنفسهم نصبوا الفخ الذى سيقبض عليهم فيه وينهال عليهم ضرباً أمام الجميع رجال أقامهم الزوج هناك: "آه! حسن، لم تبكر كثيراً، فهل أنت مسرور يا مجداً فتياً وعما قريب فتى جوقة الشرف من رتبة فارس؟ فعما قليل يمكنك إبراز صليبك"، يضيف السيد "دو شارلوس" لـ "موريل" بلهجة رقيقة ظافرة لكنها تؤكد، بكلمات الوسام تلك، أكاذيب السيدة "فيردوران" التى بدت لـ "موريل" حقيقة لا جدال فيها، فصاح فى وجه البارون: "دعنى، فإنى أمنعك من الاقتراب منى. لابد أنك لست فى بداية الطريق وأنى لست أول من تحاول إفساده!" كان عزائى الوحيد أنى سأشهد تحطيم "موريل" وآل "فيردوران" على يد السيد "دو شارلوس". فقد كنت هدفاً لغضبه المجنون لما قل عن ذلك ألف مرة، وما كان أحد فى مأمن من ذاك الغضب، وما كان ملك ليخيفه. لكنما حدث هذا الشيء الغريب. فقد شهدنا السيد "دو شارلوس" أبكم ذاهلاً يقيس مدى المصيبة التى تحل به دون أن يدرك سببها، ولا ينبس ببنت شفة وينقل عينيه على التوالى على الحاضرين كافة بهيئة المتسائل الحانق المتوسل والذى كان يبدو أقل سؤالاً عما جرى منه عما ينبغى أن يجيب به. فربما كان العذاب الحالى والخشية على وجه الخصوص من العذابات المقبلة هو ما كان يحبس الكلام فى صدره (وهو يرى أن السيد والسيدة "فيردوران" يشيحان بعينيهما عنه وأن لن ينجده أحد): أو هم، لما لم يجمح به الخيال ويصطنع لنفسه غيظاً، ولم يتفق له حنق جاهز بين يديه (فقد كان، هو المفرط الحساسية العصبى المصاب بالهيستيريا، صاحب نزق حقيقى لكنه أخ شجاعة كاذبة، بل شرير زائف، مثلما سبق أن اعتقدت على الدوام وما كان يجعله فى نظرى محبباً إلى حد ما، ولم يكن يملك الردود الطبيعية التى لأخ شرف لحقت به إهانة)، أمسكوا به وأوسعوه ضرباً مفاجئاً لحظة هو أعزل من السلاح: أو كان يحس أنه فى وسط غير وسطه، أقل ارتياحاً وأقل شجاعة مما لعله كان فى الضاحية. ومهما يكن من أمر فإن هذا السيد العظيم، فى هذه الصالة التى كان يزدريها، هذا السيد العظيم (وما كان التفوق على العوام أكثر ملازمة له فى الأساس مما كان لدى أحد أجداده الممتلئ قلقاً أمام المحكمة الثورية) لم يفلح، وقد شلت أعضاؤه جميعها ولسانه، إلا فى إلقاء نظرات مذعورة فى كل جانب، ساخطة جراء العنف الذى يكيلونه له، متوسلة بقدر ما هى متسائلة. مع أن السيد "دو شارلوس" كان يملك كل الإمكانات لا على صعيد البلاغة فحسب، بل على صعيد الجرأة أيضاً حينما يتملكه حنق كان يغتلى منذ فترة طويلة فى صدره على أحدهم فيسمره من يأس جراء أكثر الكلمات دموية فى حضرة النخبة من الناس وقد ثارت ثائرتهم وما ظنوا يوماً أنه يمكن

بلوغ هذا الحد. كان السيد "دو شارلوس" فى هذه الحالات مستثار الفؤاد يتوثب اهتياجاً بنوبات عصبية حقيقية يرتجف الجميع رعدة منها. لكنما كان يملك فى تلك الحالات زمام المبادرة ويهاجم ويقول ما يحلو له (مثلما كان "بلوك" يعرف كيف يهزأ من اليهود ويحمر خجلاً إن ذكروا اسمهم فى حضرته). وهؤلاء الناس الذين كان يكرههم إنما كان يكرههم لأنه يظنهم يزدرونه. ولعله، لو كانوا لطفاء تجاهه، لعله كان عانقهم بدلاً من انتشائه سخطاً عليهم. ولم يسع هذا الخطيب المهذار، فى ظرف شديد القسوة إلى هذا الحد فى فجائيته، إلا أن يتمتم: "ماذا يعنى ذلك؟ وما الذى يجرى؟" وكادوا لا يسمعون صوته. هذا وإن إيمائية الذعر الأزلية قد كانت قليلة التغير إلى حد أن هذا السيد العجوز الذى تقع له حادثة مكدرة فى صالة باريسية كان يكرر دون علم منه بضعة المظاهر البشعة التى كان فن النحت اليونانى فى العصور الأولى يخط فيه بأناقة رعب حوريات الغاب اللواتى يطاردهن الإله "بان"(١).

إن السفير الفاقد الحظوة ورئيس المكتب المحال على المعاش ورجل المجتمعات المعامل بجفاء والعاشق المبعد إنما يتفحصون على مدى شهور أحياناً الحادثة التى حطمت آمالهم، فهم يقلبونها ويعيدون مثل قذيفة أطلقت ولا تعلم من أين ولا من أطلقها ولولا القليل لكانت نيزكاً. ربما ودوا أن يعرفوا العناصر المكونة لهذا المقذوف الغريب الذى انقض عليهم، وأن يعلموا أية رغبات شريرة يمكن تعرفها فيها. الكيميائيون يملكون التحليل على الأقل، والمرضى الذين يعانون مرضاً لا يعرفون منشأه يمكن أن يستقدموا الطبيب. والشؤون الجرمية تكشف ملابساتها إلى حد ما على يد قاضى التحقيق. لكن أعمال أبناء جنسنا نادراً ما نكتشف دوافعها. وهكذا لم يبصر السيد "دو شارلوس"، كيما نستبق الأيام التى تلت هذه الأمسية التى سنعود إليها، لم يبصر فى موقف "شارلى" إلا شيئاً واحداً جلياً. ولابد أن "شارلى" هذا، الذى غالباً ما هدد البارون برواية الهوى الذى كان يبعثه فى نفسه، استغل فى سبيل أن يفعل ذلك ظنه أنه نجح الآن نجاحاً كافياً ليستطيع التحليق بجناحيه. ولابد أنه روى عن كل شىء للسيدة "فيردوران" يدفعه العقوق المحض. ولكن كيف أفسحت هذه الأخيرة فى المجال لخداعها (فإن البارون، وقد عزم على الانكار، كان مقتنعاً مذ ذاك أن المشاعر التى ربما أخذت عليه كانت من نسج الخيال؟) وقد قام أصدقاء للسيدة "فيردوران"، ربما شغفوا هم أيضاً بـ "شارلى"، بتهيئة الأرضية. وسطر السيد "دو شارلوس" نتيجة لذلك فى الأيام التالية رسائل مريعة لعدد من "الخلص" الأبرياء تماماً والذين ظنوا أنه جن جنونه. ثم مضى يقص على السيدة "فيردوران" قصة طويلة مؤثرة لم يكن لها على أية حال الأثر الذى كان يتوخاه. فإن السيدة "فيردوران" كانت من جهة تردد على مسامع البارون: "ما عليك إلا أن لا تهتم به من بعد، احتقره فإنه طفل." وما كان البارون يلهث إلا خلف مصالحه. وبغية إحلالها، فيما يحجب عن "شارلى" كل ما ظن أنه مضمون له، كان يطالب السيدة "فيردوران" من جهة أخرى أن لا تستقبله من بعد، وهو ما واجهته برفض حَمَلَ إليها رسائل غاضبة تهكمية لاذعة خطها السيد "دو شارلوس". ولم يقم السيد "دو شارلوس"، وهو ينتقل من

(١) بان Pan: إله الرعاة فى الميثولوجيا اليونانية، ينفخ فى نايه بصفته هذه، وصورة الأقدمون بساقىْ وقرنىْ وشعر تيس.

افتراض إلى آخر، بالافتراض الصحيح فى يوم وقوامه أن الضربة لم تجىء على الإطلاق من يد "موريل". ولعله كان استطاع فى الحقيقة معرفة الأمر بأن يطلب من "موريل" حديثاً على مدى بضع دقائق. لكنه كان يحكم أن ذلك ينافى كرامته ومصالح حبه. فقد أهين وهو ينتظر تفسيراً لذلك. ثم إن هناك على الدوام تقريباً فكرة أخرى ترتبط بفكرة الحديث الذى ربما أمكن أن يجلو سوء التفاهم، فكرة تحول لسبب، أى سبب، دون أن نرتضى ذاك الحديث. فإن من هان وأظهر ضعفه فى عشرين مناسبة سوف يبدى اعتزازاً فى المرة الحادية والعشرين، المرة الوحيدة التى قد يكون من المفيد أن لا يكابر فى وقفة متغطرسة وأن يبدد خطأ ستمتد جذوره أكثر فأكثر لدى الخصم لغياب التكذيب. أما فيما يخص الجانب المجتمعى للحادثة، فقد شاع أن السيد "دو شارلوس" طرد من منزل آل "فيردوران" فيما كان يحاول اغتصاب موسيقى شاب. وكان من شأن هذا الخبر إن لم يدهش القوم من أن السيد "دو شارلوس" لم يعد يرتاد منزل آل "فيردوران"، فإن التقى مصادفة فى مكان ما أحد الخلص الذين سبق له أن ارتاب بهم وشتمهم، ولما كان هذا الأخير يحقد على البارون الذى لم يكن يحييه بدوره، فإن الناس ما كانوا يعجبون إذ يدركون أن ليس من يعتزم فى العشيرة تحية البارون من بعد.

وفيما كان السيد "دو شارلوس" يتخذ، وقد صعقته على الفور الكلمات التى تفوه بها "موريل" وموقف المعلمة منه، وقفة الحورية تحت وطأة الرعب الشديد، كان السيد والسيدة "فيردوران" قد اختليا فى الصالون الأول، وكأنما تلك علامة قطيعة دبلوماسية، مخلفين السيد "دو شارلوس" وحيداً فيما كان "موريل" يلف كمانه فوق المنصة. وقالت السيدة "فيردوران" لزوجها بلهجة نهمة: "هيا، قص علينا كيف وقع ذلك؟" فقال "سكى": "لست أعلم ما قلت له فقد بدا عليه التأثر الشديد وكانت الدموع تجول فى عينيه." وتظاهرت السيدة "فيردوران" بأنها لم تفهم وقالت: "أظن أن ما قلته كان غير ذى بال على الإطلاق فيما يخصه"، قالت بواحدة من تلك الحيل التى لا تخدع كل الناس على أية حال، وكيما ترغم النحات على تكرار أن "شارلى" كان يبكى، وهى دموع كانت تنتشى بها المعلمة بقدر من الكبرياء أكبر من أن تعتزم المجازفة بأن يجهلها هذا أو ذاك من الخلص ممن أساء السمع. "لا، لا، بالعكس، كنت أبصر دموعاً سخية تلتمع فى عينيه"، يقول النحات بلهجة خفيضة باشة لمناجاة يبطنها السوء فيما ينظر جانباً ليتأكد أن "موريل" لا يزال على المنصة ولا يمكنه أن يسمع الحديث. لكنما كان ثمة شخص يسمعه وسوف يرد وجوده ما إن يتنبه له، سوف يرد لـ "موريل" واحداً من الآمال التى فقدها. إنها ملكة نابولى التى نسيت مروحتها فرأت زيادة فى اللطف، وهى تغادر أمسية أخرى كانت ذهبت إليها، أن تجىء لتبحث عنها بنفسها. وكانت قد دخلت بهدوء تام وكأنها خجلى وعلى أهبة الاعتذار والقيام بزيارة قصيرة الآن إذ لم يبق أحد هناك. إلا أنهم لم يحسوا بدخولها فى غمرة الحادثة التى فهمتها فى الحال وأشعلت فى صدرها نار الغضب. "يقول "سكى" إن الدمع كان يجول فى عينيه، فهل لاحظت ذلك؟ إنى لم أبصر دمعاً. لكن بلى، ها إنى أتذكر"، تقول مصححة مخافة أن، يصدقوا إنكارها. "أما "دو شارلوس" هذا فإنه فى وضع محرج ويجدر به أن يتناول مقعداً، فهو متقصف الساقين ويوشك أن يسقط أرضاً"، تقول بقهقهة لا شفقة فيها. وفى هذه اللحظة سارع "موريل" صوبها. وسأل "موريل": "أليست هذه السيدة ملكة نابولى؟" (مع أنه يعلم أنها هى) وهو

يدل على العاهلة التى كانت ماضية باتجاه "دو شارلوس". "بعد هذا الذى جرى، لا أملك من بعد، وا أسفى، أن أسأل البارون تعريفها بى." فقالت السيدة "فيردوران": "انتظر، سأفعل ذلك". وتقدمت باتجاه الملكة التى كانت تتحدث والسيد "دو شارلوس"، يتبعها بعض الخلص، فيما عداى وعدا "بريشو" إذ سارعنا فى الذهاب لطلب حاجاتنا والمضى خارجاً. وكان السيد "دو شارلوس" قد ظن بأن تحقيق رغبته الكبيرة فى أن يجرى تقديم "موريل" لملكة نابولى ما كان يمكن أن يحول دونه سوى موت الملكة اللا محتمل. لكننا إنما نتمثل المستقبل على أنه انعكاس للحاضر يسقط فى فضاء خال فيما هو النتيجة القريبة جداً فى الغالب لأسباب تخفى علينا فى أكثرها. وما كانت انقضت ساعة على ذلك فإذا السيد "دو شارلوس" كان تخلى عن كل شىء فى سبيل أن لا يجرى تعريف الملكة بـ "موريل". وقامت السيدة "فيردوران" بانحناءة أمام الملكة. وإذ رأت أن الملكة بدت كأنها لا تتعرفها: "أنا السيدة "فيردوران"، إن جلالتك لا تتعرفنى." وتقول الملكة: "تماماً"، وهى ماضية فى التحدث إلى السيد "دو شارلوس" بصورة طبيعية وبمظهر ساه تماماً إلى حد شكت معه السيدة "فيردوران" إن كانت "تماماً" هذه موجهة إليها وقد قيلت بنبرة رائعة فى شرودها انتزعت من السيد "دو شارلوس" وهو فى غمرة ألم العاشق ابتسامة امتنان خبيرة نهمة فى مجال الوقاحة. كان "موريل" يبصر من بعيد الاعدادات القائمة للتعريف به فاقترب. ومدت الملكة ذراعها للسيد "دو شارلوس". لقد كانت غاضبة منه كذلك، ولكن لمجرد أنه لا يواجه بحزم أكبر الحقراء من شاتميه، وكست حمرة الخجل من أجله وجهها لتجرؤ عائلة "فيردوران" على معاملته على هذه الصورة. كان ما أبدت لهما من عطف زاخر بالبساطة منذ بعض ساعات والاعتزاز الوقح الذى تنتصب به أمامهم يصدران من ذات النقطة فى فؤادها. كانت الملكة امرأة تفيض طيبة، لكنها تفهم الطيبة أول ما تفهم فى صورة التعلق الذى لا يتزعزع بالناس الذين تحبهم، بذويها، بسائر أمراء عائلتها، ومن بينهم السيد "دو شارلوس"، ثم بسائر ناس البورجوازية أو الشعب الأكثر اتضاعاً ممن يعرفون كيف يجلون من كانت تحبهم ويحملون تجاههم مشاعر طيبة. وإنما أبدت تعاطفاً مع السيدة "فيردوران" بما هى امرأة تحمل هذه الميول الفطرية الجيدة. وليس من شك أن هذا تصور ضيق محافظ بعض الشىء وأكثر فأكثر تقادماً فى مجال الطيبة. لكن ذلك لا يعنى أن الطيبة كانت أقل صدقاً لديها وأقل حرارة. والقدماء ما كان حبهم للتجمع البشرى الذى كانوا يبذلون النفس فى سبيله، لأنه لم يكن يتجاوز حدود المدينة، ولا أناس اليوم للوطن، أقل من الذين سيحبون الولايات المتحدة للأرض جمعاء، قريباً جداً منى، مثال والدتى التى لم تفلح السيدة "دو كامبرمير" والسيدة "دو غيرمانت" قط فى حملها على المشاركة فى أى عمل خيرى، فى أى مشغل وطنى، على أن تكون فى يوم بائعة أو مشرفة على أعمال خيرية. ما أبعدنى عن أن أقول إنها كانت على حق أن لا تباشر عملاً إلا بعدما تكلم قلبها أولاً، وأن تخص أسرتها وخدمها والمساكين الذين وضعتهم المصادفة على دربها بكنوز الحب والكرم، لكنى أعرف أن هذه الكنوز ومثلها كنوز جدتى كانت لا تنضب وقد تجاوزت كثيراً كل ما استطاعت وفعلت السيدتان "دو غيرمانت" أو "دو كامبرمير" فى يوم. إن حالة ملكة نابولى مختلفة تماماً، لكنما لابد من الإقرار بأن الأشخاص المحببين إلى النفس لم تكن تتصورهم على الإطلاق كالذى هم عليه فى روايات دوستويفسكى التى

سبق أن أخذتها "ألبيرتين" فى مكتبتى واحتكرتها، وأعنى بثياب طفيليين متزلفين لصوص سكيرين تافهين تارة وطوراً وقحين فاسقين، وقتلة إن دعت الحاجة. والأضداد على أية حال تتلاقى، بما أن الرجل النبيل القريب المقرب المهان الذى تبغى الملكة الدفاع عنه كان السيد "دو شارلوس"، عنينا، على الرغم من كرم المحتد وسائر القرابات التى كانت تربطه بالملكة، رجلاً يحيط بفضيلته الكثير من الرذائل. وقالت للسيد "دو شارلوس": "لست فيما يبدو على ما يرام يا ابن العم العزيز، فهيا استند إلى ذراعى، وكن على يقين أنها ستكون لك سنداً دائماً، وهى فى هذا السبيل متينة إلى حد كاف." ثم رفعت باعتزاز عينيها أمامها (وكان فى مواجهتها، كما روى لى "سكى"، السيدة "فيردوران" و"موريل") "تعلم أنها أوقفت فيما مضى الأوغاد عند حدهم فى "غاييت"(١) وسوف تكون سوراً لك." هكذا خرجت الشقيقة المظفرة للامبراطورة "اليزابيث" تسحب خلف ذراعها البارون ودون أن تدعهم يعرفونها بـ "موريل".

ربما أمكننا الظن، مع الطبع المريع الذى يميز السيد "دو شارلوس" وصنوف الاضطهاد التى كان يرهب بها حتى أقارب له، أنه يزمع فى أعقاب هذه الأمسية أن يطلق غيظه من عقاله ويقوم بعمليات انتقامية ضد آل "فيردوران". ولم يكن شىء من ذلك، وكان السبب الرئيسى بالتأكيد أن البارون أصيب بالبرد بعد بضعة أيام وألم به واحد من تلك الالتهابات الرئوية الإنتانية التى كانت كثيرة الحدوث آنذاك فحكم أطباؤه طويلاً وحكم هو نفسه أنه قاب قوسين أو أدنى من الموت ثم مكث عدة شهور معلقاً بين الحياة والموت. فهل كان ثمة مجرد انتقال فيزيائى وإحلال داء مختلف محل العصاب الذى جعله حتى ذاك ينسى نفسه حتى فى عربدات الغضب؟ فإنما نفرط فى التبسيط إن ظننا أنه لم يأخذ قط على محمل الجد آل "فيردوران" على الصعيد الاجتماعى ما كان بمقدوره أن يحقد عليهم كما يحقد على نظرائه، مثلما نفرط فى التبسيط أيضاً إن ذكرنا بأن العصبيين الذين يثورون فى كل مناسبة على أعداء وهميين غير مسيئين يضحون على عكس ذلك غير مؤذين ما إن يباشر أحدهم الهجوم عليهم وأنك تهدئهم بإلقائك الماء البارد على وجوههم أفضل مما تفعل بمحاولتك إقامة البرهان على بطلان شكاواهم. لكنما ينبغى على الأرجح أن لا نبحث فى ظاهرة الانتقال عن تفسير لغياب الحقد هذا، بل بالأحرى فى الداء عينه، فقد كان يسبب للبارون صنوفاً من التعب عظيمة إلى حد لا يلبث لديه معه إلا القليل من الوقت للتفكير بآل "فيردوران". لقد كان نصف مائت. كنا نتحدث عن الهجوم، فحتى تلك التى لن يكون لها سوى آثار بعد الممات إنما تقتضى، إن ابتغيت إعدادها إعداداً لائقاً، التضحية بقسم من قواك. وقد بقى أقل القليل منها للسيد "دو شارلوس" للقيام بنشاط الإعداد. كثيراً ما يتحدثون عن أعداء ألداء يعودون فيفتحون عيونهم ليبصر أحدهم الآخر عند دنو الأجل ثم يطبقونها من جديد تغمرهم السعادة. لابد أن هذه الحالة نادرة ما عدا حينما يفاجئنا الموت فى ذروة الحياة. فإنما ترانا على العكس لا نهتم، حين لا يظل لدينا ما نخسره، بمخاطر لعلنا فى فورة الحياة كنا ركبناها بصورة طائشة. إن روح الانتقام جزء لا يتجزأ من الحياة، وإنه ليهجرنا فى الكثير الغالب - على الرغم من استثناءات هى، فى صميم الطبع عينه كما سنرى، تناقضات بشرية - على عتبة الموت. كان السيد "دو شارلوس"، بعدما يفكر حيناً بآل "فيردوران"، يحس أن التعب بلغ منه

(١) Gaéte: (أو غاييتا) الإيطالية، حاصرها "غاريبالدي" وشاركت في الدفاع عنها ملكة نابولي.

مبلغاً عظيماً فيستدير صوب الجدار ولا يفكر بشيء من بعد. وليس يعنى ذلك أن يكون فقد بلاغته، لكنها كانت تقتضيه جهوداً أقل. كانت لا تزال تجرى كانسياب الماء ولكنها تغيرت. فهى ليست من بعد، وقد جردت من مظاهر العنف التى زوقتها كثيراً، سوى بلاغة يقرب أن تكون صوفية تزينها أقوال وادعة، وأمثال من الانجيل، وتسليم ظاهرى بالموت. كان يتكلم على وجه الخصوص فى الأيام التى يظن أ،ه نجا فيها فيما تردد الانتكاسة إلى الصمت. تلك الوداعة المسيحية التى انتقل إليها عنفه الرائع (مثلما انتقلت إلى "ايستير" عبقرية "أندروماك"[١]، وما أشد اختلافها عنها) كانت تثير إعجاب من يحيطون به. ولعلها كانت أثارت إعجاب آل "فيردوران" أنفسهم الذين ما كان وسعهم حجب النفس عن عشق رجل جعلتهم عيوبه يمقتونه. صحيح أن ثمة أفكاراً كانت تطفو على السطح وليس فيها من المسيحية سوى المظهر. فقد كان يتوسل إلى رئيس الملائكة جبرائيل أن يجىء ويبشره، مثلما فعل بالنبى[٢]، متى يجىء المسيح. ثم يقطع القول بابتسامة عذبة موجعة ويضيف: "لكنما ينبغى أن لا يطالبنى رئيس الملائكة كما فعل بدانيال بأن أصبر "سبعة أسابيع واثنين وستين أسبوعاً" إذ أكون قضيت قبلها." وكان من ينتظره هكذا "موريل"، وكان، إذ يجمع وسائل أكثر إنسانية (كحال البابوات المرضى الذين لا يفوتهم، فيما يطلبون إقامة القداديس، أن يرسلوا فى طلب طبيبهم)، كان يلمح لزواره أنه، إن رد له "بريشو" طوبيا الشاب على جناح السرعة، فربما ارتضى رئيس الملائكة روفائيل أن يعيد له بصره كما فعل لوالد طوبيا أو فى بركة الغنم فى "بيت سايدا"[٣]. لكن النقاء الأخلاقى فى أقوال السيد "دو شارلوس" أضحى، على الرغم من هذه الردات الإنسانية، لا يقل عذوبة لذلك. فالغرور والنميمة وجنون الأذية والكبرياء، كل ذلك كان قد زال. كان السيد "دو شارلوس" قد ارتفع أخلاقياً إلى ما يتجاوز كثيراً المستوى الذى كان يعيش فيه فى الماضى. لكن هذا التحسن الأخلاقى، الذى كان فنه الخطابى قادراً على أية حال أن يضلل إلى حد ما مستمعيه الذين رق قلبهم حول حقيقته، هذا التحسن زال مع المرض الذى عمل فى سبيله. وكرّ السيد "دو شارلوس" على منحدره بسرعة سوف نراها متدرجة فى تناميها. لكن موقف عائلة "فيردوران" منه لم يعد من بعد سوى ذكرى متباعدة إلى حد ما وقد حالت غضبات أكثر قرباً دون إذكائها.

وكيما نعود إلى الوراء، إلى أمسية آل "فيردوران"، فإن السيد "فيردوران" قال لزوجته فى ذلك المساء حينما لبث أصحاب المنزل وحدهم: "تعلمين لماذا لم يأت "كوتار"؟ إنه بالقرب من "سانييت" الذى فشلت عمليته فى البورصة لاستدراك خسارته. لقد أصيب "سانييت" بأزمة قلبية حين علم أنه لم يعد يملك فرنكاً واحداً وأن ديونه قاربت المليون." - "ولكن ما الذى دفعه إلى اللعب؟ ياللحماقة! إنه أقل من خلق لذلك. وإنه لم يسلم من الضرر من كان أكثر دهاء منه وهو كان متهيأً ليخدعه الجميع."

---

(١) Andromaque و Esther: مسرحيتان لكبير المسرحيين الفرنسيين فى القرن السابع عشر "جان راسين". الثانية مقتبسة من التاريخ اليونانى، والأولى من قصص الكتاب المقدس.

(٢) المقصود هو النبى دانيال من العهد القديم.

(٣) البركة التى تشفى فيها المسيح الأعمى (بركة سلوان فى الإنجيل).

وقال السيد "فيردوران": "هذا أمر مفروغ منه، فإننا نعلم منذ زمن طويل أنه معتوه. لكن النتيجة ماثلة أمامنا. فهذا رجل سوف يلقى به غداً خارجاً على يد مؤجره وسوف يلفى نفسه فى أقصى درجات البؤس، وهو لا يحبه والداد، ليس "فورشفيل" من سيفعل شيئاً من أجله. وفكرت حينذاك، وليس بودى أن أفعل شيئاً لا يروقك، لكننا ربما أمكن أن نهيئ له إيراداً صغيراً كى لا ينتبه كثيراً لما حل به من دمار وأن يتمكن من علاج نفسه فى بيته." - "أوافقك الرأى تماماً، حسن جداً أنك فكرت فى ذلك. لكنك تقول "فى بيته"، وهذا المعتوه قد احتفظ بشقة مرتفعة الإيجار، الأمر ليس ممكناً بعد ولابد من أن نستأجر له شيئاً بحجرتين. أعتقد أنه لايزال يحتفظ الآن بشقة من ستة إلى سبعة آلاف فرنك." - "ستة آلاف وخمس مئة. لكنه متمسك جداً بمنزله. لقد أصيب باختصار القول بأزمة قلبية أولى، وربما لن يمكنه البقاء على قيد الحياة أكثر من سنتين أو ثلاث سنوات. لنفرض أننا سنصرف له عشرة آلاف فرنك على مدى ثلاث سنوات، يبدو لى أن بمقدورنا القيام بذلك. ربما استطعنا مثلاً فى هذا العام، بدلاً من استئجار "لاراسبلبير" ثانية، أن، نأخذ شيئاً أكثر تواضعاً. ويبدو لى، بالنظر إلى دخولنا، أن إطفاء عشرة آلاف فرنك على مدى ثلاث سنوات ليس بالأمر المستحيل." - " وليكن، بيد أن المزعج فى ذلك أن الأمر سيعرف ويضطرنا إلى فعل الشىء نفسه لآخرين." - "بوسعك الاعتقاد أنى فكرت فى الأمر. لن أقدم عليه إلا بشرط صريح قوامه أن لا يعرف أحد ذلك. لا، شكراً، لست راغباً أن نضطر لأن نصبح أولياء نعمة الجنس البشرى. بعيداً عنا مؤسسة الإحسان! ما أمكن ربما فعله أن نقول له إن هذا قد خلفته له الأميرة "شيرباتوف". - "وهل يصدق؟ فإنها استشارت "كوتار" فى أمر وصيتها." - "يمكن لدى الاقتضاء المطلق أن نستودع "كوتار" هذا السر، فهو تعوّد سر المهنة ويكسب أموالاً طائلة ولن يكون البتة من أصحاب الخدمات الذين تضطر أن تدفع لهم: بل ربما ابتغى أن يأخذ على عاتقه الجهر بأن الأميرة إنما اتخذته هو وسيطاً. وهكذا يبلغ بنا حتى أن لا نظهر. وسوف يجنبنا ذلك نكد مشاهد التشكرات والتظاهرات والجمل." وأضاف السيد "فيردوران" كلمة كانت تعنى بالتأكيد هذا النوع من المشاهد المؤثرة والجمل التى يودون تجنبها، لكنما لم يستطيعوا نقلها إلىّ نقلاً صحيحاً إذ لم تكن كلمة فرنسية بل واحدة من تلك الكلمات مثلما يتفق منها فى العائلات للدلالة على بعض الأشياء، ولاسيما الأشياء المزعجة، لأنهم يريدون على الأرجح أن يكون بوسعهم ذكرها أمام المعنيين دون أن يفهم قولهم. وإنما هذا النوع من التعابير بعامة بقية باقية معاصرة لحالة سابقة فى العائلة، فتكون فى عائلة يهودية مثلاً لفظة طقسية حُرفت عن معناها، وربما كانت الكلمة العبرية الوحيدة التى لاتزال العائلة، وقد "تفرنست" الآن، تعرفها: وتكون فى عائلة متأصلة فى ريفيتها كلمة من اللغة الإقليمية، مع أن العائلة لا تتكلم، بل لا تفهم من بعد اللغة الإقليمية: وفى عائلة جاءت من أمريكا الجنوبية ولا تتكلم من بعد سوى الفرنسية، كلمة إسبانية. ولن تبقى الكلمة فى الجيل التالى إلا بصفتها واحدة من ذكريات الطفولة. سوف نتذكر تماماً أن ذوينا كانوا على مائدة الطعام يشيرون إلى الخدم الذين يقومون بالخدمة بقولهم هذه الكلمة أو تلك دون أن يفهم الخدم، لكن الأولاد يجهلون ما تعنى هذه الكلمة بالضبط، وإن كانت إسبانية أو عبرية أو ألمانية أو من اللغة الإقليمية، بل حتى إن هى انتمت فى يوم إلى لغة، أى لغة، ولم تكن اسماً علماً أو كلمة مختلقة تماماً. ولا يمكن

جلاء الشك إلا إن اتفق لك شقيق جداً أو ابن عم عجوز لايزال على قيد الحياة ولابد أنه استخدم اللفظة نفسها. ولما لم أعرف أى قريب لآل "فيردوران" فلم يسعنى أن أرد الكلمة بصورة صحيحة. ومهما يكن من أمر فقد حملت السيدة"فيردوران" بالتأكيد على الابتسام لأن استخدتم هذه اللغة الأقل شيوعاً والأكثر فردية والأعمق سراً من اللغة المعتادة إنما تولى الذين يستخدمونها شعوراً أنانياً لا يخلو البتة من بعض الارتياح. وبعدما انقضت فترة الجذل هذه اعترضت السيدة "فيردوران" قائلة: "فإن تكلم "كوتار" عن ذلك؟" - "لن يتكلم." وتكلم، إلىّ على الأقل، فإنى عرفت منه هذه الواقعة بضع سنوات بعد ذلك يوم دفن "سانييت" نفسه.وأسفت أن لم أعرف ذلك من قبل. فلعل ذلك كان قادنى بصورة أسرع إلى الفكرة القائلة بأنه ينبغى لنا أن لا نحقد فى يوم على الناس وأن لا نحكم عليهم تبعاً لذكر أذية ما لأننا لا نعرف كل ما استطاعت روحهم فى فترات أخرى أن تبتغيه بصدق وأن تحقق من خير. وهكذا ترانا نخطىء حتى على صعيد التوقع. ذلك أن الصيغة السيئة التى لاحظناها مرة فقط سوف تعود دون شك. لكن الروح أوفر ثراء من ذاك وتملك صيغاً سوف تعود هى الأخرى لدى هذا الرجل الذى نرفض ما يبدى من لطف بسبب الأسلوب السيئ الذى لجأ إليه.ولعل كشف السر هذا، من وجهة نظر أكثر فردية، ما كان ليكون دون تأثير فىّ. ذلك أن كشف السر هذا من جانب "كوتار"، لو أنه أقدم عليه قبل ذلك، كان بدد، إذ هو يغير رأيى حول "فيردوران" الذى كنت أظنه يوماً بعد يوم أكثر القوم أذية. الشكوك التى تساورنى حول الدور الذى يمكن أن تقوم به عائلة "فيردوران" بين "ألبيرتين" وبينى. كان بددها ربما خطأ على أى حال، فلئن توافرت فضائل للسيد "فيرودان"، غير أنه لم يكن لذلك أقل تنكيداً إلى حد الاضطهاد الأشد شراسة، وشديد التمسك بالسيطرة داخل العشيرة الصغيرة إلى حد لا يتراجع معه عن أسوأ الأكاذيب وعن إثارة الأحقاد التى يتعذر تبريرها أكثر ما يتعذر بغية فصم روابط بين الخلص ما كان هدفها الحصرى تقوية المجموعة الصغيرة. كان رجلاً قادراً على التجرد وعلى صنوف من الجود لا يشوبها التباهى، وليس يعنى ذلك اضطراراً رجلاً حساساً أو رجلاً محبباً أو متشدداً فى محاسبة النفس أو صادقاً أو طيباً على الدوام. كان لديه على الأرجح طيبة جزئية - ربما لا يزال فيها شىء من الأسرة الصديقة على شقيقة جدتى - قبل أن أتعرفها فى هذه الواقعة، كما هو حال أميركا أو القطب الشمالى قبل "كولومبوس" أو "بيرى". لكن طبيعة السيد "فيردوران" أبرزت لى مع ذلك، حين اكتشافى، جانباً جديداً غير متوقع. وقد خلصت من ذلك إلى صعوبة تقديم صورة ثابتة عن الطباع والمجتمعات والأهواء سواء بسواء. فالطبع لا يتغير أقل منها وإن أردنا أن نضع صورة لما فيه من أمر ثابت نراه يقدم للعدسة المربكة، يقدم على التوالى وجوهاً مختلفة (تفترض ضمناً أنه لا يفلح فى الحفاظ على سكونه بل هو يتحرك).

ولما رأيت الساعة وخشيت أن تحس "ألبيرتين" بالسأم سألت "بريشو" وأنا خارج من أمسية آل "فيردوران" أن يتفضل بادئ الأمر بإيصالى إلى المنزل، وتعود به عربتى فيما بعد. وهنأنى أن أعود هكذا إلى البيت مباشرة، وهو لا يعلم أن فتاة كانت تنتظرنى فى المنزل، وأن أنهى فى وقت مبكر إلى هذا الحد وبهذا القدر من التعقل أمسية ما كنت على العكس تماماً إلا أخرت فى الواقع بدايتها الحقيقية. ثم كلمنى عن السيد "دو شارلوس". ولعل هذا الأخير كان دهش دون شك وهو يسمع الأستاذ،

وما ألطفه معه. الأستاذ الذى كان يقول له دوماً: "لا أردد أى شىء البتة"، يتحدث عنه وعن حياته دون أى تحفظ. ولعل دهشة "بريشو" الغاضبة ما كانت ربما لتبدو أقل صدقاً لو أن السيد "دو شارلوس" قال له: "لقد أكدوا لى أنك تتناولنى بالسوء". فقد كان "بريشو" بالفعل ميالاً إلى السيد "دو شارلوس" ولو انبغى له أن يعود إلى محادثة تجرى حوله لتذكر مشاعر الوداد التى داخلته تجاه البارون، فيما كان يقول عنه ذات الأشياء التى يقولها الجميع عنه، أكثر منه هذه الأشياء عينها. وما كان ظن أنه يكذب إذ يقول: "أنا الذى يتحدث عنك بهذا القدر من الود"، بما أنه كان يحس بعض الود فى أثناء حديثه عن السيد "دو شارلوس". كان هذا الأخير يحمل على وجه الخصوص بالنسبة إلى "بريشو" السحر الذى كان الجامعى يطلبه قبل أى شىء آخر فى حياة المجتمعات وقوامه أنه يقدم له نماذج حقيقية لما أمكن قبلاً أن يظنه من ابتداع الشعراء. كان "بريشو"، الذى كثيراً ما فسر "الحوارية الريفية" الثانية لـ "فيرجيليوس" دون أن يعلم كثيراً إن كان لهذا التصور الخيالى أساس، فى الواقع، كان يجد بعد الأوان فى التحدث إلى السيد "دو شارلوس" شيئاً من المتعة التى يعلم أن أساتذته السيد "ميريميه" والسيد "رونان" وزميله السيد "ماسبيرو"(١) سبق أن أحسوا بها، أثناء رحلاتهم فى إسبانيا وفلسطين ومصر، فى أن يتعرفوا عبر المناظر والسكان الحاليين فى كل من إسبانيا وفلسطين ومصر الإطار والممثلين الذين لا يحولون والماثلون فى المشاهد القديمة التى درسوها فى الكتب. وصرح لى "بريشو" فى العربة التى كانت تقلنا فى عودتنا: "هيا نقل"، دونما إهانة نوجهها إلى هذا الشهم الكريم المحتد، إنه ببساطة كلية هائل حينما يعلق على تعاليمه الشيطانية بقريحة يلونها بعض الجنون وبعناد، كدت أقول بطهارة هى لبيض إسبانيا والمهاجرين(٢). أؤكد لك، إن حالفتنى الجرأة وقلت مقالة سيادة المطران "دولست"(٣)، أنى لا يداخلنى السأم حينما أحظى بزيارة هذا الاقطاعى الذى شاء أن يدافع عن "أدونيس" ضد عصر الكفرة الذى نمثله فانساق خلف غرائز جنسه وتهجن ببراءة اللواطى التامة." كنت أصغى إلى "بريشو" ولم أكن وحدى معه. فقد كنت أحس، كما كان أمرى على أية حال دون انقطاع منذ أن غادرت المنزل، كنت أحسنى، مهما كان الإحساس غامضاً، مرتبطاً بالفتاة التى كانت فى هذه الفترة فى غرفتها. كنت أحسها، حتى حينما كنت أتحدث إلى هذا أو ذاك فى منزل آل "فيردوران"، إحساساً غامضاً إلى جانبى، وأحمل عنها تلك الفكرة الغامضة التى لنا عن أعضائنا ذاتها، وإن اتفق لى أن أفكر فيها فإنما مثلما نفكر بجسدنا ذاته مع ما يعترينا من ضيق لأننا مرتبطون به بعبودية كاملة. وأردف "بريشو" يقول: "يا له "مهذرة" حديث ذاك الرسول حتى ليغذى كل ملحقات "أحاديث الاثنين"(٤)! تصور أنى علمت منه أن مبحث علم الأخلاق الذى كرمت فيه على الدوام البناء الأخلاقى الأوفر أبهة فى عصرنا إنما أوحى به إلى زميلنا

---

(١) Gaston Maspéro: عالم فرنسى من أوائل القرن العشرين مختص بالآثار المصرية.

(٢) الفرع الإسبانى لعائلة "بوربون" الفرنسية وكان شعارها الزنبق الأبيض، وقد هاجرت إلى إسبانيا بعد القضاء على الملكية فى فرنسه.

(٣) مطران وفيلسوف وواعظ شهير من أواخر القرن التاسع عشر.

(٤) الزاوية التى كان يحررها "سانت بوف" فى كل يوم اثنين.

المحترم "س" ناقل برقيات فتى. ولا نترددن فى الإقرار بأن صديقى اللامع فاته أن يزودنا باسم هذا الفتى فى أثناء عروض براهينه. وقد برهن فى ذلك عن قدر أكبر من الحياء البشرى، أو إن فضلت عن قدر من الامتنان أقل مما أبدى "فيدياس" الذى نقش اسم البطل الرياضى الذى كان يحبه على قاعدة تمثال "جوبيتير الأولمبى". كان البارون يجهل هذه القصة الأخيرة. وغنى عن القول إنها فتنت إيمانه القويم. يسير عليك أن تتصور أننى فى كل مرة أحاج زميلى فى أطروحة "دكتوراه" أجد فى جدليته، وهى شديدة الارهاف على أية حال، هذا المزيد من النكهة التى أضافتها صنوف من الكشف المثير فى نظر "سانت بوف" إلى أعمال "شاتوبريان" غير المكتملة السرية. ومن يدى زميلنا الذى تقطر حكمته ذهباً لكنه قليل المال انتقل عامل البرقيات إلى يدى البارون ("والشرف والأخلاق مصونة"، ويجب أن تسمع اللهجة التى يقولها بها). ولما كان هذا الإبليس أكثر الناس مروءة فقد حصل لمحميه مركزاً فى المستعمرات يرسل له هذا الأخير منها، وهو مطبوع على الامتنان، يرسل بين الحين والحين فاكهة ممتازة. ويقدم البارون منها لمعارفه الرفيعى المستوى: واعتلت فى وقت مضى قريب جداً ثمار أناناس بعث بها الشاب مائدة رصيف "كونتى"، فيدفع ذلك السيدة "فيردوران" إلى أن تقول، ولا تضمن القول أى خبث: "إن لك إذاً عماً أو ابن شقيق فى أميركا يا سيد "دو شارلوس" كى تصلك ثمار أناناس كهذه!" أقر أنى أكلتها بشىء من المرح وأنا أنشد لنفسى بين الضلوع نشيد لـ "هوراس" كان "ديدرو" شغوفاً بالتذكير به. وإنى آخذ باختصار القول، شأن زميلى "بواسييه" فى تنقله بين "بالاتينو" و"تيبور"، من حديث البارون فكرة أكثر حيوية إلى حد بعيد وأفضل مذاقاً عن كتاب عصر "أغسطس". دعنا حتى لا نتحدث عن كتاب عصر الانحطاط ولا نعودن إلى الوراء حتى اليونانيين مع أنى قلت ذات مرة لهذا السيد الفاضل "دو شارلوس" إنى أحس نفسى بالقرب منه كأنما أفلاطون فى منزل "أسبازيا"(١). وكنت، والحق يقال، قد رفعت إلى حد كبير مستوى الشخصيتين وكان مثالى، كما يقول "لافونتين"، مأخوذاً "من حيوانات أصغر حجماً"(٢). ومهما يكن من أمر فلست تفترض، كما أتصور، أن البارون استاء لذلك. فلم أشهده فى يوم بمثل تلك السعادة البريئة. وحملته نشوة طفولية إلى الخروج عن هدوئه الارستقراطى، فإذا هو يصيح مبتهجاً: "يا لهم من متملقين جماعة الصوربون أولئك جميعاً! يا عجبى أن انبغى أن أنتظر بلوغى هذا السن كيما أشبه بـ "أسبازيا"! لوحة قديمة على شاكلتى أنا! إلىّ يا شبابى!" وددت لو أنك رأيته يقول ذلك، وقد "تبودر" فأفرط كعادته، متصنعاً فى مثل سنه كمتأنق شاب. وهو فضلاً عن ذلك أفضل إنسان فى العالم خلف هواجسه الأنسابية. ولكل هذه الأسباب ربما أسفت أشد الأسف أن تكون قطيعة هذا المساء نهائية. كان ما أدهشنى هى الطريقة التى ثار بها الشاب، مع أنه سبق أن سلك إزاء البارون منذ بعض الوقت سلوك متعصب له، سلوك تابع يكاد لا ينبىء بذلك التمرد. أملى فى كل حال، حتى إن انبغى أن لا يعود البارون إلى رصيف "كونتى" من بعد، (أبعدت الآلهة نذير الشؤم هذا!) أن لن يبلغ إلى هذا الانشقاق. فإنه يتفق لكلينا فائدة جمة فى المبادلة التى نقوم بها بين معرفتى الهينة

---

(١) Palatino وTibur: هضبة من هضاب روما، والثانية مدينة قريبة في منطقة اللاكسيوم.

(٢) امرأة ذات نفوذ ومشورة عاشت في عهد "بيريكليس" وكانت رفيقته، وقد ارتاد بيتها عدد كبير من الأدباء يستوحونها بعض ما يقولون.

وخبرته. (وسوف نرى بالفعل أن مودة السيد "دو شارلوس" لـ "بريشو"، إن هو لم يبد حقداً شديداً على الجامعي، فإنها قد تراجعت تراجعاً شبه كامل لتمكنه من الحكم عليه دون أي تساهل.) وإنى أقسم لك أن المبادلة تفتقر إلى المساواة إلى حد أنى، حينما يضع البارون بين يدى ما علمته إياه الحياة، لا يسعنى موافقة "سيلفستر بونار" على أن المكتبة لاتزال المكان الأفضل الذى يصنع فيه المرء حلم الحياة."

وكنا وصلنا أمام بابى. ونزلت من العربة كى أزود الحوذى بعنوان "بريشو". كنت أبصر من الرصيف نافذة غرفة "ألبيرتين"، هذه النافذة التى كانت فيما مضى دائمة السواد حين لم تكن تقطن البيت، وقد حززتها أنوار الكهرباء الداخلية التى تقطعها مصمتات المصاريع، حززتها من عاليها إلى أسفلها بمتوازيات ذهبية. تلك الطلاسم السحرية، بقدر ما كانت واضحة فيما يخصنى وتخط أمام فكرى الهادئ صوراً محددة شديدة القرب وسوف تكون عما قليل ملك يدى، كانت خفية على "بريشو" الذى ظل فى العربة فاقد البصر أو يكاد، ولعلها كانت ظلت على أى حال غير مفهومة لديه بما أن الأستاذ، شأنه فى ذلك شأن الأصدقاء الذين كانوا يجيئون للقائى قبل العشاء حينما تكون "ألبيرتين" قد عادت من نزهتها، كان يجهل أن فتاة، هى ملكى وحدى، تنتظرنى فى غرفة تجاور غرفتى. وانطلقت العربة. وبقيت مدى لحظة وحيداً على الرصيف. أجل، تلك التحزيزات المضيئة التى كنت أبصرها من تحت، والتى كانت بدت لآخر غيرى سطحية كلها، كنت أضفى عليها تماسكاً وامتلاء وصلابة بالغة بسبب كامل الدلالة التى كنت أضعها من ورائها فى كنز إن شئت، كنز لا يرتاب به الآخرون، كنت خبأته هنا وكانت هذه الأشعة الأفقية تنبعث منه، لكنه كنز تخليت فى مقابله عن حريتى والعزلة والفكر. فلو لم تكن "ألبيرتين" فوق، بل حتى لو لم أبغ إلا توفير المتعة لى لبادرت فى طلبها إلى نساء مجهولات ربما كنت حاولت النفاذ إلى حياتهن، ربما فى البندقية، أو على الأقل فى زاوية من زوايا ليل باريس. أما الآن فإن ما كان ينبغى أن أفعله حينما تحل بالنسبة إلىّ ساعة الملاطفات لم يكن الذهاب فى رحلة، بل حتى لم يكن فى الخروج وإنما فى العودة. والعودة لا بغية أن يلفى المرء نفسه على الأقل وحيداً، أن يجد نفسه على الأقل، بعدما غادرت الآخرين الذين كانوا يزودونك من الخارج بغذاء فكرك، مرغماً على البحث عنه فى ذاته، لكنما على العكس أقل وحدة مما كنتا فى منزل آل "فيردوران" إذ كان سيستقبلنى الشخص الذى كنت أتخلى بين يديه عن شخصى وأسلمه إياه أتم ما يكون التسليم دون أن يتسنى لى لحظة متسع من الوقت للتفكير بى، حتى دون أن أكلف نفسى التفكير بها بما أنها ستكون إلى جانبى. وهكذا بدا لى، وأنا ارتفع مرة أخيرة بعينى من الخارج صوب نافذة الغرفة التى سأكون فيها عما قليل، أنى أرى الشبيكة المضيئة التى تزمع أن تطبق على والتى صنعت بنفسى قضبانها الذهبية التى لا ترحم من أجل عبودية أبدية.

لم يسبق أن قالت لى "ألبيرتين" فى يوم إنها ترتاب بأنى أغار عليها وأهتم بكل ما تفعل، والكلمات الوحيدة، وهى قديمة بعض الشيء فى الحقيقة، المتبادلة فيما بيننا بخصوص الغيرة كانت تبدو كأنما تثبت العكس. كنت أذكر أنى، ذات مساء جميل مقمر، فى بداية علاقتنا، وفى إحدى المرات الأولى التى اصطحبتها فيها إلى بيتها، ولعلى كنت رغبت بالقدر نفسه أن لا أفعل وأن

أفارقها للجرى خلف أخريات، قلت لها: "تدرين إن كنت أقترح عليك أن أصحبك إلى البيت فما ذلك لغيرة فى النفس، وإن كان لديك ما تفعلينه ابتعدت دون إثارة الانتباه"، وأجابتنى قائلة: "آه! أدرى تماماً أنك لست غيوراً وأن الأمر واحد فى نظرك، ولكن ليس لدى ما أعمله إلا البقاء معك." وفى مرة ثانية، وكان ذلك فى "لاراسبليير" حيث جاهر السيد "دو شارلوس"، فيما يلقى على "موريل" نظرة مختلسة، بشىء من التلطف الرقيق تجاه "ألبيرتين"، قلت لها: "حسن، آمل أنه ضمك وقرب إلى حد ما." ولما أضفت بلهجة نصف ساخرة: "لقد كابدت صنوف عذاب الغيرة جميعاً"، قالت "ألبيرتين" وهى تستخدم اللغة الخاصة إما بالوسط السوقى الذى طلعت منه، وإما بالأكثر سوقية بعد والذى كانت تتردد عليه: "يا لطف الله على السخرية! أعلم تماماً أنك غير غيور. وأنت بادىء الأمر قلت لى ذلك، ثم إن الأمر باد للعيان ويحك!" ولم تقل مذ ذاك فى يوم أنها غيرت رأيها، لكنما لابد تشكلت لديها بهذا الشأن أفكار جديدة كثيرة كانت تخفيها عنى، إنما كان بوسع أية مصادفة أن تكشفها على الرغم منها، ذلك أنى فى ذلك المساء كاد لا يتسع لى الوقت، حينما قلت لها، بعدما عدت وبعدما مضيت فاصطحبتها من غرفتها وجئت بها إلى غرفتى، قلت لها (بشىء من الضيق لم أدركه بنفسى، إذ كنت قد أعلنت لـ "ألبيرتين" أنى سأمضى إلى عالم المجتمعات وقلت لها إنى لا أعلم إلى أين، ربما إلى منزل السيدة "دو فيلباريزيس" وربما إلى منزل السيدة "دو غيرمانت" وربما إلى منزل السيدة "دو كامبرمير"، وصحيح أنى بالتأكيد لم أسم آل "فيردوران")، "احزرى من أين أجىء؟ من منزل آل "فيردوران"، وما كاد يتسع لى زمن النطق بهذه الكلمات حتى أجابتنى "ألبيرتين"، وقد تكدر وجهها، أجابتنى بهذه الكلمات التى بدا لى أنها تنفجر من تلقاء ذاتها بقوة لم تستطع احتواءها: "كنت أتوقع ذلك". - "ما كنت أدرى أنك ستنزعجين من ذهابى إلى منزل آل "فيردوران". (صحيح أنها ما كانت تقول لى إن الأمر يزعجها، لكن ذلك كان بادياً للعيان. وصحيح أيضاً أنى لم أقل فى نفسى إن الأمر سوف يزعجها، لكنما بدا لى أمام تفجر غضبها وأمام هذه الأحداث التى يظهرها لنا نوع من الرؤية المزدوجة الاستذكارية وكأنما سبق أن كانت معروفة لدينا فى الماضى، بدا لى أنه لم يسعنى فى يوم توقع غير ذلك.) - "أنزعج؟ وما عسى يهمنى ذلك؟ الأمر واحد عندى. أما كان ينبغى أن تكون عندهم الآنسة "فانتوى"؟ فقلت لها وقد خرجت عن طورى لدى سماع هذه الكلمات: "لم تقولى لى إنك التقيت السيدة "فيردوران" فى ذلك اليوم"، لأبدى لها أننى أكثر اطلاعاً مما تظن. وسألت تقول: "أتراني التقيتها؟"، تقول بلهجة حالمة، لنفسها كما لو تحاول تجميع ذكرياتها، ولى كما لو كنت أنا من يستطيع أن يعلمها بذلك: ودونما شك كيما أقول ما أعرفه، وربما كذلك لكسب الوقت قبل أن تعطى جواباً صعباً. لكنى أقل انشغالاً بالآنسة "فانتوى" منى بخشية سبق أن لامست فؤادى ولكنها كانت تتملكنى بقوة أكبر. كنت أظن حتى لدى عودتى أن السيدة "فيردوران" قد ابتدعت بالتمام والكمال مجىء الآنسة "فانتوى" وصديقتها زهواً وغروراً وهكذا كنت هادئ البال وأنا عائد إلى البيت. وحدها "ألبيرتين" أبرزت لى، إذ تقول: "أما كان ينبغى أن تكون الآنسة "فانتوى" هنا؟"، أننى لم أخطئ فى ارتيابى الأول، لكننى فى النهاية كنت مطمئناً للمستقبل حول هذا الشأن بما أن "ألبيرتين" قد ضحت من أجلى بالآنسة "فانتوى" حين عدلت عن الذهاب إلى منزل آل "فيردوران".

قلت لها غاضباً: "على أى حال هناك أمور أخرى كثيرة تخفينها عنى، حتى التى من أكثرها تفاهة، كرحلة الأيام الثلاثة التى قمت بها إلى "بالبيك" على سبيل المثال، وأقول ذلك فى معرض حديثى." وقد أضفت الكلمات التالية: "أقول ذلك فى معرض حديثى" وكأنما تتمة للكلمات "حتى التى من أكثرها تفاهة"، وهكذا إن قالت لى "ألبيرتين": "وما كان الخطأ فى مشوارى إلى "بالبيك"؟ كان بوسعى أن أجيب: "ولكنى حتى لا أتذكر من بعد؛ إن ما يقال لى يختلط فى رأسى، فما أقل ما أعلق عليه من أهمية!" ولئن كنت بالفعل أكلمها عن ذاك المشوار ذى الأيام الثلاثة الذى قامت به مع الميكانيكى إلى "بالبيك" التى وصلتنى بطاقاتها البريدية منها متأخرة إلى حد أنى كنت أتكلم عنها بالمصادفة المحضة وآسف أنى أسأت اختيار مثالى إلى هذا الحد وذلك بالحقيقة لأنها كانت بالتأكيد، إذ كاد لا يتوافر الوقت للذهاب والإياب، واحدة من نزهاتهما التى لم يتسع فيها الوقت كيما يتخللها حتى لقاء مطول بعض الشىء مع أى كان. لكن "ألبيرتين" صدقت، حسبما قلت لها منذ قليل، أن الحقيقة الحقة إنما كنت أعرفها وحجبت عنها فقط أنى كنت أعرفها. لقد لبثت إذن منذ بعض الوقت على اقتناع بأنى كنت، بوسيلة أو بأخرى، بوضع من يتعقبها، أو فى النهاية بطريقة ما، كنت، كما سبق أن قالت فى الأسبوع السابق لـ "أندريه"، "أكثر اطلاعاً منها ذاتها" على حياتها هى. ولذلك قاطعتنى باقرار غير مجد إلى حد كبير لأنى ما كنت بالتأكيد أرتاب بأى شىء مما قالته لى وثقل علىّ فى المقابل بشدة، فما أعظم ما تكون الفجوة بين الحقيقة التى شوهتها كاذبة والفكرة التى كونها، تبعاً لهذه الأكاذيب، ذاك الذى يحب الكاذبة عن تلك الحقيقة. فما إن نطقت بهذه الكلمات: "رحلتك على مدى ثلاثة أيام إلى "بالبيك"، وأقول ذلك فى معرض حديثى"، حتى قاطعتنى "ألبيرتين" وصرحت أمامى وكأنما عن أمر طبيعى تماماً: "قصدك أن تقول إن هذه الرحلة إلى "بالبيك" لم تحصل فى يوم؟ بالتأكيد! وقد تساءلت دوماً لماذا ظهرت بمظهر من يصدق ذلك. مع أن الأمر لا سوء فيه إطلاقاً. فقد كان على الميكانيكى أن يعمل فى أمر يخصه مدة ثلاثة أيام، وما كان يجرؤ أن يفضى لك بذلك، حينئذ اصطنعت رحلة مزعومة إلى "بالبيك" رأفة به "هذه أنا تماماً وعلىّ دوماً ترتد هذه الأمور جميعاً). فقد أوصلنى فحسب إلى "أوتوى" لدى صديقتى التى فى شارع "أصومبسيون" حيث أمضيت الأيام الثلاثة أتضجر بمئة فلس فى الساعة. ترى أن الأمر ليس خطيراً، فما من مصيبة حلت. لقد بدأت أفترض أنك كنت ربما تعلم كل شىء حينما رأيت أنك أخذت تضحك لدى وصول البطاقات البريدية بعدما تأخرت ثمانية أيام. إنى اعترف بأن الأمر مضحك ولعله كان من الأفضل أن لا تكون بطاقات على الإطلاق. لكنما ليس الذنب ذنبى، فقد كنت ابتعتها سلفاً وأعطيتها للميكانيكى قبل أن ينزلنى فى "أوتوى"، ثم إن هذا الثور نسيها فى جيوبه عوضاً عن أن يرسلها فى مغلف إلى صديق له قرب "بالبيك" كان عليه أن يبعث بها إليك. وكنت أحسب دائماً أنها قريبة الوصول. أما هو فقد تذكرها فقط بعد خمسة أيام وبدلاً من أن ينقل إلىّ الأمر أرسلها الغبى فى الحال إلى "بالبيك". وحينما قال لى ذلك أوسعته شتماً وتقريعاً، يا لك! أن يشغل بالك بقلق لا طائل تحته ذاك الأهبل كمكافأة لى لأنى حبست نفسى على مدى ثلاثة أيام كى يتمكن من الذهاب لتسوية شؤونه العائلية الصغيرة! ما كنت حتى أجرؤ على الخروج فى "أوتوى" مخافة أن يرانى الناس. المرة

الوحيدة التى خرجت فيها إنما فعلت متنكرة بزى رجل، على سبيل المزاح بالأحرى. وشاء حظى الذى يلاحقنى فى كل مكان أن يكون أول شخص وقعت بين يديه صديقك اليهودى "بلوك". لكننى لا أظن أنك علمت منه أن رحلة "بالبيك" ما كانت فى يوم إلا فى مخيلتى فقد بدا عليه أنه لا يتعرفنى."

لم أكن أدرى ما أقول وأنا لا أريد أن أبدو مستغرباً يسحقنى هذا الكم من الأكاذيب. فإلى شعور بالفظاعة ما كان يبعث فىّ الرغبة فى طرد "ألبيرتين"، بل العكس، كانت تنضاف رغبة جامحة فى البكاء. والرغبة كان مبعثها لا الكذبة نفسها وتلاشى كل ما كنت ظننته صحيحاً - إلى حد كنت أحسنى معه كأنما فى مدينة دكت دكاً ولم يبق فيها بيت واحد ولا يحدب أرضها الخالية سوى الأنقاض - بل الكآبة التى قوامها أن "ألبيرتين"، على مدى هذه الأيام الثلاثة التى قضتها تتضجر لدى صديقتها فى "أوتوى"، لم تداخلها الرغبة مرة واحدة، وربما حتى الفكرة، فكرة المجىء لقضاء يوم فى منزلى فى الخفاء، أو أن تسألنى فى عجالة صغيرة المجىء للقائها فى "أوتوى". لكنما لم تكن لدىّ فسحة من الوقت للانصراف إلى هذه الأفكار. كنت لا أود على وجه الخصوص أن أبدى دهشة. وابتسمت ابتسامة من يعرف أكثر مما يقول: "لكن هذه واحدة من ألف. إليك مثلاً، فى هذه الأمسية القريبة فى منزل آل "فيردوران" علمت أن ما سبق أن قلته لى عن الآنسة "فانتوى"..." كانت "ألبيرتين" تنظر إلىّ جامدة اللحظ بهيئة معذبة تحاول أن تقرأ فى عينى ما كنت أعرف. وما كنت أعرفه وأزمع أن أقوله لها هو ما كانت عليه الآنسة "فانتوى". وصحيح أنى لم أعلم بذلك فى منزل آل "فيردوران"، بل فى "مونجوفان" فى ماضى الزمان. بيد أنى، لما لم أكلم "ألبيرتين" عن ذلك البتة، كان يمكن أن أبدو وقد علمت به فى هذا المساء فحسب. وانتابنى ما يقارب الفرح - بعد أن داخلنى منه فى القطار الصغير الكثير من العذاب - من أنى أحمل هذه الذكرى عن "مونجوفان" والتى قد أضع لها تاريخاً متأخراً، لكن ذلك لن يقلل من أنها برهان دامغ ومصيبة طارئة تحل على رأس "ألبيرتين". فى هذه المرة على الأقل لم أكن بحاجة إلى "أن أبدو كمن يعرف" و"يحمل ألبيرتين على الكلام". كنت أعلم وقد رأيت من النافذة المضاءة فى "مونجوفان". وعبثاً كانت "ألبيرتين" تقول لى إن علاقاتها بالآنسة "فانتوى" وصديقتها كانت طاهرة جداً، فكيف يكون بمقدورها، حينما أقسم لها (وأفعل غير كاذب) أنى أعرف أخلاق هاتين المرأتين، كيف يكون بمقدورها التأكيد بأنها، بعدما عاشت فى جو حميمى يومى وإياهما، يوم تدعوهما "شقيقتى الكبريين"، لم تكن من جانبهما موضع عروض كانت دفعتها لمقاطعتهما لو أنها على العكس لم تقبل بها؟ لكنما لم يتسع لى الوقت لأقول الحقيقة. فإن "ألبيرتين" إذ ظنت، كما كان حال الرحلة الكاذبة إلى "بالبيك"، أنى أعرفها إما من الآنسة "فانتوى" إن سبق لها أن جاءت إلى منزل آل "فيردوران"، وإما من السيدة "فيردوران" دون سواها وقد أمكن أن تكلم عنها الآنسة "فانتوى". ألبيرتين هذه لم تفسح لى فى مجال الحديث وقامت أمامى بإقرار يناقض بالتمام ذاك الذى ظننته، لكنه، إذ أوضح لى أنها لم تنفك البتة عن الكذب علىّ ربما بالمقدار نفسه (ولا سيما لأننى لم أعد كما قلت منذ قليل أغار من الآنسة "فانتوى"). وأخذت "ألبيرتين" إذاً زمام المبادرة فكلمتنى هكذا: "قصدك أن تقول إنك علمت هذا المساء أنى كذبتك القول حينما زعمت أنى تربيت نصف تربيتى على يد صديقة الآنسة "فانتوى". صحيح أنى كذبت عليك بعض الشىء، لكنى

كنت أحسنى مزدراة فى نظرك إلى حد بعيد، وأراك إلى ذلك مضطرم الفؤاد إزاء موسيقا "فانتوى" هذا إلى حد أننى ظننت، ربما أن واحدة من رفيقاتى - وهذا صحيح، أقسمت على ذلك - كانت صديقة صديقة الآنسة "فانتوى"، ظننت ببلاهة أننى أصبح موضع اهتمام لديك باختلاقى أنى عرفت هاتيك الفتيات معرفة واسعة. كنت أحس أنى أزعجك وأنك تجدنى بلهاء. ظننت أنى حين أقول لك إن هؤلاء الناس ترددوا علىّ وإنى إنما يمكننى تزويدك بتفاصيل حول أعمال "فانتوى" فسوف أحسن إلى حد ما فى عينيك وأن ذلك سوف يقربنا. وحينما أكذب عليك فإنما أفعل على الدوام من منطلق الود لك. وكان لابد من هذه الأمسية المشئومة لدى آل "فيردوران" كيما تعلم الحقيقة التى ربما بولغ بها على أية حال. أراهن أن صديقة الآنسة "فانتوى" لابد قالت لك إنها لا تعرفنى. لقد رأتنى مرتين على الأقل لدى رفيقتى. لكننى لست بالطبع على أناقة كافية فى نظر أناس أضحوا بمثل شهرتهم. ويفضلون أن يقولوا إنهم ما رأونى فى يوم." مسكينة "ألبيرتين"، حينما ظنت أن قولها بعلاقة لها وثيقة بصديقة الآنسة "فانتوى" إنما يؤخر هجرها ويقربها منى، فقد بلغت الحقيقة، مثلما يتفق ذلك كثيراً، بطريق آخر غير ذاك الذى كانت تود سلوكه. فأن تبدو أكثر اطلاعاً على الموسيقا فما كنت ظننت ما كان ليحول مطلقاً دون قطع علاقتى بها فى ذاك المساء فى القطار الصغير. ومع ذلك فقد كانت تلك الجملة بعينها التى نطقت بها لهذه الغاية هى التى جاءت فى الحال بأكثر كثيراً من استحالة قطع علاقتنا. لكنها كانت ترتكب خطأ فى التفسير لا بشأن الأثر الذى لابد سيكون لهذه الجملة، بل بشأن السبب الذى كان لابد بموجبه أن تنتج ذاك الأثر، سبب قوامه لا أن نطلع على ثقافتها الموسيقية، بل على علاقاتها السيئة. ما قربنى فجأة منها، أكثر من ذلك، ما صهرنى فيها لم يكن توقعى للذة ما - واللذة بعد غلو فى القول، لمتعة طفيفة - بل ضمة ألم.

لم يكن يتوافر لى، فى هذه المرة أيضاً، وقت للسكوت طويلاً، سكوت كان يمكن أن يحملها على افتراض الدهشة. لذلك قلت لها، وقد أثر فىّ أن تكون شديدة الاتضاع وتعتقد أنها محتقرة فى وسط آل "فيردوران"، قلت برقة: "ولكن يا حبيبتى، ها إنى أفكر، ربما أعطيتك بكل سرور بضع مئات من الفرنكات كى تمضى وتظهرى حيثما شئت بمظهر المرأة الأنيقة وتدعى إلى عشاء فخم السيد والسيدة "فيردوران". لكن "ألبيرتين" كانت، وا أسفى، عدة أشخاص، بدا الأكثر غموضاً بينهم، والأكثر بساطة والأشد فظاعة فى الجواب الذى وجهته إلىّ بمظهر القرف والذى لم أميز فيه تماماً، والحق يقال، كلماته (وحتى كلمات البداية بما أنها لم تنه كلامها. ولم أعدها إلى محلها إلا قليلاً بعد ذلك حينما حزرت فكرتها. فإنك تسمع بصورة ارتجاعية بعد ما فهمت. "يا لعظيم شكرى! أنفق فلساً واحداً فى سبيل هذين العجوزين، إنى أفضل كثيراً أن تدع لى مرة أن أكون حرة كى أمضى وأشق..." وما إن قالت حتى اكتسى محياها لون الأرجوان وبدت مغتمة ووضعت يدها أمام فيها كما لو استطاعت أن ترد الكلمات التى تفوهت بها تواً والتى لم أكن أفهمها مطلقاً. "ما الذى تقولين يا "ألبيرتين"؟ - "لا، لا شىء، كنت نصف نائمة" - "لا، لا، إنك مستيقظة تماماً." - "كنت أفكر فى عشاء آل "فيردوران". ذلك منك لطيف جداً." - لا، إنى أتكلم عما قلت." وقدمت لى ألف صيغة، لكنها ما كانت توافق على الإطلاق، لا أقول حتى كلماتها التى لبثت، وقد قطعتها، غامضة، بل ذاك التوقف نفسه والحمرة

المفاجئة التى رافقتها. "هيا يا عزيزتي، ليس هذا ما كنت تبغين قوله، وإلا لماذا توقفت؟" - "لأنني كنت أرى مطلبي فاضحاً." - "أي مطلب؟" - "أن أقيم عشاء." - "ويحك، لا، ما هذا هو الأمر، فليس من أستار نقيمها بيننا." - "بلى، على العكس، يجب أن لا نفرط في استغلال من نحبهم. وفي جميع الأحوال أقسم أن الأمر كذلك." كان يستحيل دائماً عليّ من جهة أن أشك في قسم لها، فيما لا ترضى إيضاحاتها من جهة أخرى عقلي. ولم أكف عن الإلحاح. "فلتحالفك الجرأة على الأقل في إنهاء جملتك، لقد وقفت منها على كلمة "أشق..." - "آه! لا، دعني وشأني!" - "لكن لماذا؟" - "لأنها سوقية بصورة فظيعة وقد تخجلني خجلاً مفرطاً أن أقول ذلك في حضرتك. لست أدرى بما كنت أفكر، وهذه الكلمات التي لا أعرف حتى معناها والتي سبق أن سمعتها ذات يوم في الشارع يقولها أناس شديدو البذاءة وردت على لساني بصورة لا تتفق والمنطق. وهي لا تتصل بي أو بأي كان، لقد كنت أحلم بصوت عال." وشعرت أني لن أستخلص من "ألبيرتين" أكثر من ذلك. فقد كذبتني القول حين أقسمت لي منذ قليل أن ما أوقفها إنما خشية مجتمعية من فضح للأمور أضحى الآن خجلاً من التلفظ في حضرتي بقول مفرط في سوقيته. وكانت تلك كذبة ثانية، فإنا حين كنا سوية، "ألبيرتين" وأنا، لم يكن قول فاسق وكلمات بذيئة إلى حد يحول دون أن نقولها أثناء مداعباتنا. وفي جميع الأحوال لم يكن ثمة فائدة من الإلحاح في هذا الوقت. لكن ذاكرتي ظل يسكنها هاجس هذه العبارة "أشق". كانت "ألبيرتين" غالباً ما تقول: "شق عليه العصا" و"شق عليه الجيب" أو تقول فقط: "آه! ما أكثر ما شققت عليه!" كقولك "ما أشد حزني عليه!" لكنها كانت تقول ذلك عادة في حضرتي، ولئن كان ذلك ما قصدت أن تقوله فلماذا صمتت فجأة، ولماذا كست وجهها حمرة شديدة إلى ذاك الحد ووضعت يديها على فيها وأعادت صياغة جملتها بشكل آخر وأعطت تفسيراً كاذباً حينما تبينت أني سمعت تماماً "أشق"؟ لكنما كان من الأفضل، بما أنني عدلت عن موالاة استنطاق لن يبلغني منه جواب، أن أظهر بمظهر من لا يفكر فيه من بعد، وقلت لـ "ألبيرتين" وأنا أعود بالفكر إلى العتاب الذي سبق أن وجهته لي لأني ذهبت إلى منزل المعلمة، قلت بطريقة خرقاء تماماً، وكان ذلك نوعاً من العذر الغبي: "أردت بالضبط أن أسألك المجيء ذاك المساء إلى أمسية آل "فيردوران":" والجملة مزدوجة الغباء، فلو كنت أريد ذلك لِمَ لم أعرض عليها الأمر وأنا ألتقيها طوال الوقت؟ فقالت لي، وقد أغضبتها كذبتي وزاد من جرأتها خجلي: "لعلك كنت سألتني ذلك ألف عام فما كنت قبلت. فأولئك أناس وقفوا دوماً ضدي، وفعلوا كل شيء ليعاكسوني. ما كان لطف إلا وأبديته للسيدة "فيردوران" في "بالبيك"، ويا لحسنها مكافأة أصبتها. ولو أنها أرسلت في طلبي على فراش موتها لما ذهبت. ثمة أمور لا صفح عنها. أما أنت، فهذا أول تصرف غير لبق تخصني به. حينما قالت لي "فرانسواز" إنك خرجت (وكانت مسرورة، ويحك، لقولها ذلك) كنت فضلت أن يشق رأسي فلقتين. حاولت أن لا يلاحظ أحد شيئاً، لكني لم أحس في حياتي إهانة كهذه."

لكنما كان يتوالى في داخلي، بينا هي تكلمني، وفي غفوة الوعي الزاخرة بالحياة والخلاقة (الغفوة التي تتم فيها الأشياء التي لامستنا فحسب انغراسها فينا والتي تمسك فيها اليدان الغافيتان بالمفتاح الذي يفتح، وعبثاً جرى البحث عنه حتى ذاك) البحث عما كانت تريد قوله بالجملة الموقوفة التي

وددت لو أعلم ما كان ختامها. وفجأة هبطت عليّ كلمة فظيعة لم تراود مخيلتي: "البطارية". لا يمكنني أن أقول إنها وردتني دفعة واحدة كما هي الحال حينما نظل، في رضوخ طويل جامد لذكرى غير كاملة، فيما نحاول برفق وحذر أن نوسعها، نظل خاضعين لها ملتصقين بها. لا، كان ثمة، خلافاً لطريقتي المعتادة في التذكر، كان ثمة فيما أعتقد طريقان متوازيان للبحث: أحدهما كان يأخذ في الحسبان لا جملة "ألبيرتين" فحسب، بل نظرتها الغاضبة حينما عرضت عليها هبة نقدية لتقيم مأدبة عشاء كبيرة، نظرتها التي بدا أنها تقول: "شكراً، أنفق مالاً في سبيل أشياء تزعجني حين يمكنني دون مال أن أفعل أشياء تفرحني!" وربما كان تذكر تلك النظرة التي رمتني بها هو الذي جعلني أغير الطريقة لأعثر على ختام ما قصدت أن تقوله. كنت حتى ذاك قد ركزت كامل اهتمامي على آخر كلمة: "أشق"، لقد قصدت أن تقول "أشق ماذا"؟ أشق العصا؟ لا. الجيب؟ لا. أشق، أشق، أشق وفجأة جعلتني العودة إلى النظرة المقرونة برفع المنكبين التي أبدتها ساعة اقترحت عليها أن تقيم عشاء أعود القهقرى كذلك في كلمات جملتها. وهكذا تبين لي أنها لم تقل "أشق" بل "تُشَق". يا للهول! هذا ما لعلها كانت تفضل. ويا للهول المزدوج! فحتى آخر العاهرات، من تقبل ذلك أو ترغب فيه، لا تستخدم مع الرجل الذي يستجيب للأمر هذه العبارة الشنيعة. فربما تحس أن ذلك يحط كثيراً من قدرها. تقول ذلك لامرأة فقط، إن كانت تحبهن، بغية الاعتذار لاستسلامها بعد قليل لرجل. ما كانت "ألبيرتين" قد كذبت حينما قالت إنها كانت نصف حالمة. فقد اتفق لها، وهي ساهية ثائرة الأعصاب ولا يخطر ببالها أنها برفقتي، رفعة المنكبين وشرعت تتكلم كما لعلها كانت فعلت مع واحدة من هاتيك النسوة، ربما مع واحدة من فتياتي اللواتي في مقتبل العمر. وفجأة استعادها الواقع وقد احمرت خجلاً تغيب في فيها ما كانت تنوى قوله ويلفها اليأس، فلم تشأ أن تنبس بكلمة واحدة من بعد. لم يكن لدى ثانية واحدة أضيعها إن أردت أن لا تتبين اليأس الذى كنت فيه. لكن الدموع، بعد انتفاضة خانقة، أخذت تجول في عينيّ. كان لابد لي، كحالي في "بالبيك" في الليلة التي تلت كشفها عن صداقتها لآل "فانتوى"، من أن أختلق في الحال لغمي سبباً مقبولاً وقادراً في الوقت عينه على إحداث تأثير عميق في "ألبيرتين" إلى حد يوفر لي مهلة بضعة أيام قبل اتخاذي قراراً. لذلك، وفي الوقت الذي كانت تقول لي فيه إنها لم يسبق لها أن لحقت بها إهانة شبيهة بتلك التي وجهتها إليها بخروجي، وإنها كانت فضلت الموت على أن تسمع ذلك على لسان "فرانسواز"، ولما كنت أزمع أن أقول لها، وبي ضيق من حساسيتها المضحكة، إن ما قمت به كان عديم الشأن وإنه ما كان على شيء من الإساءة أن أكون خرجت، - ولما كان بحثي اللاواعي عما قصدت أن تقوله بعد كلمة "تشق" قد أفلح، بالتوازي، في تلك الأثناء ولم يعد بالإمكان إخفاء اليأس الذي يدفعني إليه اكتشافي، فقد اتهمت نفسي بدلاً من الدفاع عنها، وقلت لها بصوت رقيق كانت تجتاحه أولى دموعي: "يا صغيرتي "ألبيرتين"، بوسعي أن أقول لك إنك مخطئة وإن ما فعلت أمر زهيد، لكنني أكون كاذباً. فأنت من هي على حق. لقد أدركت الحقيقة، يا عزيزتي الصغيرة، ذلك أني ما كنت لأفعل ذلك البتة منذ ستة أشهر، منذ ثلاثة أشهر، حينما كنت بعد على مودة عظيمة لك. هو شيء زهيد وهو شيء هائل بسبب التغير الشاسع داخل فؤادي والذي هو علامته. وبما أنك كشفت هذا التغير الذي كنت آمل إخفاءه

عنك فإنما يقودنى ذلك إلى أن أقول لك: يا عزيزتى "ألبيرتين" - هكذا قلت لها برقة وحزن عميقين - إن الحياة التى تقضينها هنا، كما ترين، مصدر إزعاج لك وخير لنا أن نفترق ولما كانت أفضل صنوف الانفصال تلك التى تتم كأسرع ما تكون فإنى أسألك، بغية اختصار الغم العظيم الذى سيصيبنى، أن تودعينى هذا المساء وأن تذهبى فى صباح الغد دون أن أكون رأيتك، فى أثناء نومى." وبدت ذاهلة، غير مصدقة بعد وشديدة الأسف مذ ذاك: "كيف ذلك فى الغد؟ أو تريد ذلك؟" وعلى الرغم من العذاب الذى كنت أعانيه فى التحدث عن انفصالنا وكأنما دخل حيز الماضى - ربما فى جزء منه بسبب هذا العذاب عينه - أخذت أوجه لـ "ألبيرتين" أكثر النصائح دقة بخصوص بعض الأشياء التى سيقع عليها القيام بها بعد رحيلها من البيت. ومن توصيات إلى أخرى بلغ بى بعد قليل أن أدخل فى تفصيلات بالغة الدقة. وقلت بحزن لا حد له: "كونى لطيفة وأعيدى إلىّ كتاب "بيرغوت" الذى هو الآن فى بيت عمتك. ليس فى الأمر عجلة، بعد ثلاثة أيام، بعد ثمانية أيام، حينما تشائين، ولكن خليه فى البال كى لا اضطر أن أرسل فى طلبه منك فقد يولينى ذلك ألماً مفرطاً. لقد كنا سعيدين ونحس الآن أننا قد نضحى تعيسين." وقالت "ألبيرتين" مقاطعة: "لا تقل إننا نحس أننا ربما أضحينا تعيسين، لا تقل "نحن"، فأنت وحدك من يرى ذلك!" - "أجل، أنت أو أنا، كما تشائين، ولهذا السبب أو ذاك - لكنها ساعة غير معقولة، ويجب أن تنامى - قررنا أن نفترق هذا المساء." - "عفوك، أنت قررت وأنا أطيعك لأننى لا أريد أن أغمك." - "وليكن، أنا من قرر، لكن ذلك لا يقلل من إيلامه الشديد لى. لست أقول إن ذلك سيكون أليماً فترة طويلة، فأنت تعلمين أن لا قدرة لى على التذكر طويلاً، لكنى سأعانى فى الأيام الأولى من السأم الشديد لغيابك! لذلك أرى أن ليس يجدى إحياء الذكريات بالرسائل، ولابد من إنهاء كل شىء دفعة واحدة." فقالت بلهجة تقطر أسى تزيد بعد منها قسماتها التى لواها تعب الساعة المتأخرة: "أجل، أنت على حق، فإنى أفضل أن أجود برأسى فى الحال بدلاً من أن يقطعوا لك إصبعاً ثم آخر." - "يا إلهى، أصاب بالهلع لدى تفكيرى بالساعة التى أحملك إلى النوم فيها، ذلك جنون. ولكن، بالنسبة إلى آخر مساء! سوف يتسع لك الوقت للنوم طوال باقى الحياة." وهكذا كنت بقولى لها إنه ينبغى أن يقول واحدنا للآخر طابت ليلتك أحاول تأخير الوقت الذى فيه تقول لى ذلك. "أو تريدين أن أقول لـ "بلوك"، بغية إيناسك فى الأيام الأولى، أن يرسل لك ابنة عمه "إستير" إلى المكان الذى تكونين فيه؟ سوف يفعل ذلك من أجلى." - لست أدرى لماذا تقول ذلك (وكنت أقول ما أقول فى محاولة لانتزاع إقرار من "ألبيرتين")، فأنا لا يهمنى إلا شخص واحد هو أنت"، تقول لى "ألبيرتين" التى ملأتنى أقوالها رقة ولطفاً. لكنما أى ألم خافته لدىّ فى الحال: "أتذكر تماماً أنى أعطيت صورتى لـ "إستير" هذه لأنها ألحت فى ذلك كثيراً" وكنت أرى أن الأمر سيسرها، فأما أن يكون داخلنى وداد لها أو شوق للقياها فلا على الإطلاق!" بيد أن "ألبيرتين" كانت طائشة فى طبعها إلى حد أنها أضافت تقول: "إن أرادت أن ترانى فالأمر واحد عندى، فإنها على لطف عظيم، لكنى لا أحرص على ذلك مطلقاً." وهكذا أدركت صديقتى، حينما حدثتها عن صورة "إستير" التى سبق أن أرسلها لى "بلوك"، (وما كنت حتى تسلمتها بعد حينما كلمت "ألبيرتين" عنها)، أن "بلوك" قد أرانى صورة لها أعطتها لـ "إستير". وما كنت فى أسوأ افتراضاتى تصورت فى

يوم أن استطاعت حالة حميمية كهذه أن تقوم بين "ألبيرتين" و"إستير". ولم تجد "ألبيرتين" ما تجيبنى به حينما تكلمت عن الصورة. والآن رأت، وهى تظن خطأ أنى على اطلاع، أن الإقرار أفضل حيلة. ورأيتنى مضنى. "ثم إنى يا "ألبيرتين" أسألك أن تمنى علىّ بأمر، وهو أن لا تحاولى البتة لقائى ثانية. وإن اتفق فى يوم، بعد عام، بعد عامين، بعد ثلاثة أعوام، أن كنا كلانا فى المدينة عينها، وهو أمر ممكن الحدوث، فتجنبينى." وإذ رأيتها لا ترد بالإيجاب على سؤالى: "عزيزتى "ألبيرتين"، لا تفعلى ذلك. لا تعودى إلى لقائى البتة فى هذه الحياة، فقد يغمنى ذلك كثيراً. ذلك أنى كنت أكن لك صداقة حقة، تعلمين. إنى أعرف تماماً أنك ظننت، حينما رويت لك فى ذلك اليوم أننى أبغى لقاء الصديقة التى تكلمنا عنها فى "بالبيك"، أن الأمر كان مدبراً. لا، لا، أؤكد لك أن الأمر كان عندى سواء. أنت واثقة أنى صممت على هجرك منذ زمن طويل وأن رقتى كانت مسرحية." فقالت بصوت حزين: "ويحك، أنت مجنون، فإنى ما ظننت ذلك." - "أنت على حق، ينبغى أن لا تعتقدى ذلك، كنت حقاً أحبك، لا بدافع الحب ربما، بل بدافع صداقة عظيمة، عظيمة جداً، أكثر مما يمكن أن تظنى." - "بلى، أعتقد ذلك. فإن تصورت أنت أننى لا أحبك، أنا!" - "فراقك يولينى غماً عظيماً." فأجابتنى "ألبيرتين" قائلة: "وهو أعظم ألف مرة فيما يخصنى". ثم إنى منذ هنيهة أخذت أحس أنى ما عدت أستطيع احتباس الدموع التى تتصاعد إلى عينى. ولم تكن تلك الدموع تنبع من ذات نوع الكآبة التى كنت أحسها بالأمس حينما أقول لـ "جيلبيرت": "خير لنا أن لا يلقى أحدنا الآخر من بعد، فالحياة تفصل بيننا." وليس من شك أننى حينما كنت أكتب ذلك لـ "جيلبيرت" كنت أقول فى نفسى إننى حينما سأحب، لا هى، بل غيرها فإن فرط حبى سوف يقلص ذاك الذى ربما أمكن أن أستثيره لديها كما لو كان ثمة بالضرورة كمية من الحب تتوافر بين كائنين فيسحب فيها فائض ما أخذه أحدهما من الآخر، وسوف يكون محكوماً علىّ أن أعزله عن الأخرى أيضاً كما عزلته عن "جيلبيرت". لكن الحالة كانت تختلف كل الاختلاف لأسباب كثيرة، أولها، وهو الذى بدوره أنتج الأخرى، أن فقدان الإرادة الذى خشيت علىّ منه جدتى وأمى فى "كومبريه"، والذى استسلمت له هذه وتلك لشدة ما يتوافر للمريض من عزيمة ليفرض ضعفه، فقدان الإرادة هذا راح يتفاقم بصورة متزايدة السرعة. كان يتفق لى، بعدما أكون أحسست أن وجودى يتعب "جيلبيرت"، ما يكفى من عزائم للتخلى عنها، ولا يظل شىء منها بعدما أكون لاحظت الشىء نفسه فيما يخص "ألبيرتين"، ولا أفكر إلا باستبقائها عنوة. من ذلك أنى، حينما كنت أكتب لـ "جيلبيرت" أنى لن أراها من بعد، ومقصدى أن لا أراها من بعد بالفعل، ما كنت أقول ذلك لـ "ألبيرتين" إلا لمحض الكذب وكيما أستجر مصالحة. وهكذا كان يقدم واحدنا للآخر مظهراً مختلفاً تمام الاختلاف عن الواقع. والأمر لا شك دوماً على هذه الشاكلة حينما يقف شخصان كل فى مواجهة الآخر، بما أن كلاً منهما يجهل جزءاً مما هو كائن فى الآخر، وأنه لا يستطيع، حتى فى هذا الذى يعرفه، أن يفهمه فى جزء منه، وأن كليهما يظهران ما كان الأقل التصاقاً بشخصيتهما إما لأنهما لم يتبينا خيوطه ويحكمان أنه غير ذى بال، وإما لأن مكاسب عديمة الشأن لا تصدر عنهما إنما تبدو لهما أكثر أهمية وأشد إثارة للزهو، وأنهما يتظاهران من جهة أخرى، فى بعض الأمور التى يتمسكان بها دفعاً لزراية تلحق بهما، يتظاهران إذ هما لا يملكانها بأنهما لا يتمسكان بها، وذلك

بالضبط الشيء الذى يبدو أنهما يزدريانه فوق كل ما يزدريان، بل يمقتان. لكن سوء التفاهم هذا إنما يبلغ فى الحب أقصى درجاته لأننا نحاول، ربما باستثناء زمن الطفولة، أن يكون المظهر الذى نتخذه، بدلاً من أن يعكس فكرنا بالضبط، هو ما يحكم هذا الفكر أنه الأنسب ليمكننا من الحصول على ما نشتهى. وكان، بالنسبة إلىّ منذ عودتى إلى المنزل، أن يمكننى الاحتفاظ بـ "ألبيرتين" طيعة كحالها فى الماضى وأن لا تسألنى فى اغتياظها حرية أكبر كنت راغباً فى توفيرها لها ذات يوم ولكنها ربما جعلتنى مفرط الغيرة فى هذه الفترة التى كنت أخشى فيها من مقاصدها الاستقلالية. فانطلاقاً من سن معينة يبدو أننا لا نتمسك، انتصاراً لكرامتنا وتبصراً، بالأشياء التى نرغب فيها أكثر ما تكون الرغبة. لكن مجرد التبصر - وهو على الأرجح ليس على أى حال الحكمة الحقة - إنما يضطرنا سريعاً، فى نطاق الحب، إلى عبقرية النفاق هذه. فكل ما سبق لى، طفلاً، أن حلمت به على أنه أرق ما فى الحب وكان يبدو لى أنه من ذات جوهره إنما كان أن أفصح بحرية فى حضرة من أحب عن حنانى وامتنانى إزاء عطف علىّ، ورغبتى فى حياة مشتركة دائمة. لكنى كنت قد تبينت تماماً، بتجربتى الخاصة وتبعاً لتجربة أصدقائى، أن التعبير عن مثل هذه المشاعر يصعب أن يكون معدياً. إن حالة امرأة عجوز متصنعة كما كان شأن السيد "دو شارلوس" الذى يظن، لكثرة ما لا يرى فى خياله سوى شاب جميل، أنه يضحى هو شاباً جميلاً، ويكشف أكثر فأكثر عن خنوثته فى صنوف تكلفه المضحك للرجولة، إن هذه الحالة تندرج فى قانون يطبق فى حيز أبعد كثيراً من أشباه "دو شارلوس"، قانون شائع حتى ليعجز الحب نفسه عن استنفاده بكامله. إننا لا نبصر جسمنا الذى يبصره الآخرون و"نلاحق" فكرنا، هذا الشيء الماثل أمامنا ولا يراه الآخرون (وقد جعله الفنان أحياناً مرئياً فى واحد من الأعمال، ومن هنا تنجم لدى معجبيه خيبات كثيرة جداً حينما يسمح لهم بالدخول لدى المؤلف الذى انعكس الجمال الداخلى فى وجهه انعكاساً غير صحيح إلى حد بعيد). فما إن يلاحظ المرء ذلك حتى لا يدع الأمور من بعد تمضى على سجيتها، وكنت حاذرت بعد الظهر أن أعرب لـ "ألبيرتين" عن كامل الامتنان الذى يداخلنى لأنها لم تبق فى "التروكاديرو". وقد تظاهرت فى هذا المساء، من خشيتى أن، تفارقنى، بالرغبة فى مفارقتها، ولم يكن التظاهر على أى حال قد أملته علىّ فحسب، كما سنرى ذلك بعد قليل، العبر التى ظننتنى جمعتها من حالات حبى السابقة والتى كنت أحاول أن يفيد هذا الأخير منها. هذه الخشية من أن "ألبيرتين" تزمع ربما أن تقول لى: "أبغى ساعات معينة أخرج فيها وحدى، وأن يسعنى الغياب أربعاً وعشرين ساعة" وما لست أدرى من طلب للحرية ما كنت أحاول تحديده لكنه كان يرعبنى، هذه الفكرة مرت بى لماماً على مدى لحظة فى أثناء أمسية آل "فيردوران". لكنها تبددت وقد دحضها على أى حال تذكر كل ما كانت "ألبيرتين" لا تنفك تقوله لى عن سعادتها فى المنزل. ونية هجرانى، إن وجدت لدى "ألبيرتين" ما كانت تتجلى إلا بصورة غامضة فى بعض نظرات حزينة، فى بعض تجليات نفاد الصبر، بعض جمل لم تكن تعنى ذلك، لكنها، إن أعمل المرء العقل فيها (وما كان حتى بحاجة إلى إعمال العقل لأنه يدرك مباشرة لغة الهوى هذه، والعامة أنفسهم يدركون هذه الجمل التى لا يمكن أن تفسر إلا أنها من باب الغرور، باب الضغينة، باب الغيرة، وهى غير معلنة على أى حال، لكنما تتأثر فى الحال لدى المتحاور حاسة حدسية هى، كما هو

شأن هذا "الحس السليم" الذى يتكلم عنه "ديكارت"، "الشيء الأكثر شيوعاً فى العالم")، ما كان يمكن تفسيرها إلا بوجود شعور فى داخلها كانت تخفيه وكان بوسعه أن يقودها إلى وضع خطط لحياة أخرى بمعزل عنىَ. ومثلما لم يكن الإعراب عن ذاك المقصد فى أقوالها واضح المنطق، كذلك كان حدس هذا المقصد الذى يداخلنى منذ هذا المساء لايزال بمثل ذاك الغموض فى داخلى. وظللت أعيش على الفرضية التى كانت تضع موضع الحقيقة كل ما كانت تقوله لى "ألبيرتين". لكنما يمكن أن لم تفارقنى فى تلك الأثناء فرضية فى داخلى مناقضة تماماً ولا أريد أن أفكر فيها. والأمر محتمل، يزيد من احتماله أني لولا ذاك ما كان أحرجنى إطلاقاً أن أقول لـ "ألبيرتين" إنى ذهبت إلى منزل آل "فيردوران"، وأن الدهشة القليلة التى سببها لى غضبها ما كانت لولا ذاك لتبدو مفهومة. وهكذا فإن ما كان على الأرجح يعيش فى داخلى إنما كان فكرة عن "ألبيرتين" تناقض ما كان يرسمه عقلى عنها، كما تناقض تلك التى كانت أقوالها ترسمها، مع أنها "ألبيرتين" لم تختلق تماماً بما أنها كانت ما يقارب المرآة الداخلية لبعض حركات كانت تجرى لديها، كغضبها من أنى ذهبت إلى منزل آل "فيردوران". وقد كانت صنوف الضيق التى كثيراً ما تنتابنى، وخوفى أن أقول لـ "ألبيرتين" إنى أحبها، كان كل ذلك من جانب آخر يتوافق وفرضية أخرى تفسر مقداراً أكبر من الاشياء وتمتاز فيما يخصها بأنك إن تبنيت الأولى أصبحت الثانية أكثر احتمالاً لأننى، إذ استسلم لبعض دفعات الحنان مع "ألبيرتين"، ما كنت أنال منها إلا اغتياظاً (كانت تعزوه على أية حال إلى سبب آخر).

يجدر بى أن أقول إن ما بدا لى الأكثر خطورة وكان له أعظم الأثر فى نفسى بوصفه دليلاً على أنها ماضية على درب اتهامى قولها لى: "أعتقد أنهم يستقبلون الآنسة "فانتوى" هذا المساء"، وقد رددت عليه بأقسى ما يمكن أن يكون الرد: "لم تقولى لى إنك التقيت السيدة "فيردوران"." فقد كنت حالما لا أجد "ألبيرتين" لطيفة أضحى قاسياً بدلاً من أن أقول لها إنى حزين. وإن قمت بالتحليل وفقاً لذلك، وفقاً للنظام الثابت للردود التى تصف بالضبط نقيض ما كنت أحس به أمكننى أن أتأكد أننى إن قلت لها هذا المساء إنى أنوى هجرها فإنما لأننى – حتى قبلما تبينت ذلك – كنت أخشى أن تبغى حرية ما (ولعلنى ما استطعت كثيراً أن أقول ما عسى كانت هذه الحرية التى كنت أرتجف منها، لكنها فى نهاية المطاف حرية يمكن معها أن تخوننى أو على الأقل لا يمكننى معها من بعد التيقن من أنها لا تخوننى) وأننى كنت أبغى أن أبدى لها، من باب التكبر، من باب المكر، أنى ما كنت لأخشى ذلك مثلما سبق أن كان حالى فى "بالبيك" حينما كنت أود أن تكون عنى فكرة رفيعة وحينما كنت أود فيما بعد أن لا يتوافر وقت لديها للملل بصحبتى.

وأخيراً فيما يخص الاعتراض الذى يمكن رفعه فى وجه هذه الفرضية الثانية – غير المعرب عنها – التى قوامها أن كل ما كانت "ألبيرتين" تقوله لى على الدوام إنما كان يعنى بالعكس أن حياتها المفضلة كانت الحياة فى بيتى والراحة والقراءة والعزلة وبعض الحب السحاقى، إلخ.، يبدو من غير المفيد أن نتوقف عند هذا الاعتراض. فإن "ألبيرتين" لو شاءت من جانبها أن تتصور ما كنت أحس به انطلاقاً مما كنت أقوله لها لكانت عرفت بالضبط نقيض الحقيقة لأننى ما كنت أعرب فى يوم عن

رغبتى فى هجرها إلا حينما لا أطيق بعدها عنى، وأننى اعترفت لها مرتين فى "بالبيك" أنى أحب امرأة أخرى، مرة "أندريه" ومرة أخرى امرأة مجهولة فى المرتين اللتين ردت لى الغيرة بعض الحب لـ "ألبيرتين". لم تكن أقوالى إذاً تعكس البتة مشاعرى. وإن لم يتفق للقارىء منها سوى انطباع ضعيف إلى حد ما فلأنى لما كنت راوياً، إنما أعرض أمامه مشاعرى فى الوقت الذى أردد له فيه أقوالى. لكنى لو أخفيت عنه تلك وعرف هذه فحسب لأولته أفعالى، وهى قليلة الصلة بها، الانطباع بأن ثمة تبدلات غريبة وكثيرة إلى حد ربما ظننى معه قريب الجنون. والطريقة قد لا تكون من جانب آخر أكثر زيفاً من تلك التى انتهجتها لأن الصور التى كانت تحملنى على العمل، وهى تعارض إلى حد بعيد تلك التى كانت ترتسم فى أقوالى، إنما كانت فى تلك الفترة غامضة جداً، فما كنت أعرف إلا معرفة غير تامة الطبيعة التى كنت أعمل وفقاً لها: واليوم أعرف بوضوح حقيقتها الذاتية. أما حقيقتها الموضوعية، يعنى إن كانت صنوف حدس هذه الطبيعة تدرك بصورة أكثر دقة من محاكمتى العقلية مقاصد "ألبيرتين" الحقيقية، وإن كنت على حق فى ثقتى بتلك الطبيعة وإن هى لم تشوه بالعكس مقاصد "ألبيرتين" بدلاً من استجلائها، فذلك ما يصعب علىّ قوله.

تلك الخشية الغامضة التى أحسست بها فى منزل آل "فيردوران" من أن تهجرنى "ألبيرتين" تبددت بادىء الأمر. وحينما عدت فإنما فعلت وبى شعور بأنى سجين، وليس بأنى ألتقى سجينة. لكن الخشية المبددة عادت فتملكتنى بقوة أكبر حينما رأيت، لحظة أعلمت "ألبيرتين" بأنى ذهبت إلى منزل آل "فيردوران"، رأيت أثراً لحنق غامض يعلو محياها، وما كان يبرز فوقه على أية حال للمرة الأولى. كنت أعلم تمام العلم أنه لم يكن سوى بلورة فى الجسد لمآخذ مدروسة، لأفكار واضحة بالنسبة للشخص الذى يصوغها ويكتمها، وهو تأليف أضحى بارزاً للعيان لكنه لم يعد عقلانياً ويحاول من يجمع بقاياه الثمينة على وجه المحبوب، يحاول بدوره، بغية إدراك ما يجرى داخله، أن يرده بالتحليل إلى عناصره الفكرية. إن المعادلة التقريبية لهذا المجهول الذى كان يشكله فى نظرى فكر "ألبيرتين" كان قد وفر لى على وجه التقريب ما يلى: "كنت أعرف شكوكه، وكنت متيقنة من أنه سيسعى إلى التحقق منها وقد أنجز كامل عمله الدنىء خفية كى لا يمكننى أن أضايقه". ولكن إن كانت "ألبيرتين" تعيش بمثل هذه الأفكار التى لم تفصح لى عنها فى يوم، أما كان جديراً بها أن تشمئز وأن لا تقوى من بعد على قضاء حياة، أما كان بوسعها أن تقرر بين ليلة وضحاها التوقف عن حياة تعيشها كانت تحس فيها أنها، إن كانت مذنبة على صعيد الاشتهاء، على الأقل، مكشوفة ملاحقة ممنوعة من الاستسلام فى يوم لميولها ودون أن تتهاوى لذلك غيرتى؛ حياة كان لها فيها الحق منذ بعض الوقت، إن كانت بريئة فى نواياها والواقع، أن تحس بالقنوط حين ترى أنها لم تفلح، منذ "بالبيك" حيث أبدت قسطاً وافراً من المثابرة على تجنب المكوث وحيدة فى يوم برفقة "أندريه"، وحتى يومنا الذى عدلت فيه عن الذهاب إلى منزل آل "فيردوران" والبقاء فى "التروكاديرو"، لم تفلح فى استرداد ثقتى؟ ولاسيما أنى لم يكن بمقدورى أن أقول إن سلوكها لم يكن خالياً من العيوب. ولئن اتفق لها فى "بالبيك"، حينما كان يجرى الحديث عن فتيات سيئات المسلك، أن تطلق فى الغالب ضحكات وتثنيات لجسدها ومحاكاة لطريقتهن كانت تعذبنى بسبب ما كنت أفترض أن ذلك يعنى لصديقاتها، فإنها منذ أن

عرفت رأيي بهذا الشأن أخذت تكف، حالما تجرى الإشارة إلى هذا النوع من الأمور، عن المشاركة فى الحديث، لا بالقول فحسب بل فى تعابير الوجه. فإنه، إما بغية أن لا تسهم فى الإساءات التى يتناولون بها هذه أو تلك أو لأى سبب آخر، كان الشيء الملفت حينئذ فى قسماتها الشديدة التحول أنها منذ اللحظة التى يقربون فيها هذا الموضوع كانت تدلل على سهوتها فى حفاظها بالضبط على التعابير التى كانت لها قبل لحظة. وكان لجمود التعابير هذا وإن خفيفاً وقع الصمت. ولعله كان من المستحيل أن تقول إن هى تذم أو تؤيد أو تعرف أو لا تعرف هذه الأمور. ولم تعد لأى من قسماتها صلة إلا بأخرى من قسماتها. كان أنفها وفمها وعيناها جميعاً تتآلف فى انسجام تام بمعزل عن الباقى، وكانت تبدو كأنها عجينة "باستيل"، كأنها لم تسمع ما قيل منذ لحظة أكثر مما هى الحال لو قيل أمام رسم للبرج.

كانت عبوديتى، ولا أزال أحس بها حينما أبصرت، وأنا أزود الحوذى بعنوان "بريشو" نور النافذة، قد كفت عن إثقال كاهلى بعد ذلك بقليل حينما رأيت أن "ألبيرتين" كانت تبدو كأنما تحس عبوديتها إحساساً أليماً. وكيما تبدو لها أقل ثقلاً وأن لا يخطر لها أن تكسر قيدها بنفسها بدا لي أن أكثر البراعة يمكن في إيلائها انطباعاً بأنّها غير نهائيةٍ وأني فيما يخصنّي راغب في أن تنتهي. كان يمكن، وأنا أشهد نجاح خدعتي، أن أجدني سعيداً، أوّلاً لأنّ ما سبق أن خشيت منه كثيراً، العزم الذي كنت أفترضه لـ"ألبيرتين" على الرحيل، أصبح مستبعداً، ثمّ لأن نجاح خدعتي في حدّ ذاته، وفي معزل حتّي عن النتيجة المتوخّاة، كان يعود، فيما هو يثبت أني لم أكن على الاطلاق في نظر "ألبيرتين" عاشقاً محتقراً وغيّاراً مهاناً تُكتشف سلفاً سائر حيله، كان يعود فيضفي على حبنّا نوعاً من البكارة ويعيد له الزمن الذي كانت لا تزال تستطيع فيه في "بالبيك" الاعتقاد بسهولة أني كنت عاشقاً لأخرى. ما كانت دون شكّ لتصدّق ذلك من بعد، لكنّها كانت تصدّق ما أتصنّعه من عزم على افتراقنا هذا المساء دون رجعة.

كانت تبدو كأنّما يخامرها شك بأن السبب في ذلك يمكن أن يكون في منزل آل"فيردوران". وقلت لها إنّه سبق لي أن التقيت مؤلفاً مسرحياً يدعى "بلوك"، وهو صديق كبير لـ"ليا"، وقد قالت له أموراً غريبة (وفي ظنّي أني أحملها بذلك على الاعتقاد بأني أعرف بنات عمّ "بلوك" أكثر ممّا أقول). لكنيّ قلت لها تدفعني حاجة بي إلى تهدئة الاضطراب الذي يزجّني فيه تصنّعي القطيعة: "ألبيرتين" هل يمكنك أن تقسمي لي أنّك لم تكذبي عليّ في يوم؟" فنظرتْ ثابتة العين في الفراغ ثم أجابتني تقول: "أجل، أعني لا. لقد أخطأت بقولي لك إن "أندريه" قد افتتنت بـ"بلوك"، فما كنّا رأيناه."- "فلأيّ سبب إذاً؟"- "لأنيّ خفت أن تظنّ منها أموراً أخرى."-"أهذا كلّ شيء؟" فنظرت أيضاً وقالت: "أخطأت أن أخفيت عنك رحلة على مدى ثلاثة أسابيع قمت بها برفقة "ليا". لكنّي كنت هينّة المعرفة بك"-"كان ذلك قبل "بالبيك"؟-"قبل الثانية، أجل." وكانت قالت لي في الصباح نفسه إنّها لا تعرف "ليا"! كنت أنظر إلى هبّة نار تحرق دفعة واحدة رواية أمضيت ملايين الدقائق في كتابتها. وما نفع ذلك؟ ما نفع ذلك؟ أجل، كنت أدرك تماماً أن هاتين الواقعتين إنما كانت "ألبيرتين" تزيح النقاب عنهما لأنّها تظنّ

أني عرفتهما من "ليا" بصورة غير مباشرة وأنْ ليس ثمّة سبب، أيّ سبب، أن لا يكون هناك مئة من أمثالهما. كنت أدرك أيضاً أن أقوال "ألبيرتين"، حين يسألونها، ما كانت تحوي البتة ذرّة حقيقة وأنّها ما كانت تبوح بالحقيقة إلا رغماً عنها وكأنّما خليط مفاجىء كان يتمّ داخلها بين الأحداث التي كانت حتّى ذاك مصمّمة على إخفائها واعتقادها أن الناس عرفوا بأمرها. وقلت لـ"ألبيرتين": "أمران، هذا قليل، فلنذهب إلى أربعة كي تخلّي لي ذكريات فما الذي يمكن أن تكشفي عنه بعد؟" فنظرت مرّة أخرى في الفراغ. فمع أيّ اعتقادات بالحياة الآتية كانت تكيفّ الكذبة ومع أيّ آلهة أقلّ تساهلاً ممّا ظنّت كانت تحاول تدبّر أمرها؟ لابّد أن ذلك لم يكن سهلاً فقد دام صمتها وجمود نظرتها فترة طويلة إلى حدّ ما، وخلصت إلى قولها: "لا، لا شيء غير ذلك". وعلى الرغم من إلحاحي تشبثتْ بـ" لا شيء غير ذلك" وبيسر تفعل الآن. ويالها كذبة، فكم من مرّة، مادامت على هذه الميول، كم من مرّة إلى اليوم الذي سُجنت فيه في منزلي، وفي أيّة منازل وأيّة نزهات لابّد أشبعتها! إن السحاقيّات نادرات إلى حدّ في الآن نفسه كي لا تخفى إحداهنّ على الأخرى في أي جمهور كان. والالتقاء مذ ذاك سهل. تذكرّت بهول ذات مساء بدا لي في تلك الفترة موضع سخرية فحسب. فقد كان دعاني واحد من أصدقائي للعشاء مع عشيقته وآخر من أصدقائه كان يصطحب عشيقته أيضاً ولم يظل بهما الوقت لتفهم إحداهما الأخرى، لكنّهما كانتا شديدتي التلهف للتضاجع إلى حدّ أن القدمين أخذتا ما إن قدّم الحساء تتلاحقان وكثيراً ما تصادفان قدمي. وبعد قليل تشابكت السيقان. وما كان صاحباي يبصران شيئاً، وكنت أنا فريسة العذاب. ونزلت إحدى المرأتين، وقد نفذ صبرها، تحت الطاولة قائلة إنّها أسقطت شيئاً. ثمّ ألمّ بإحداهن الصداع وطلبت الذهاب إلى المغاسل. وتذكُرت الأخرى أن الوقت قد حان لتلحق بصديقة لها في المسرح. وظللت في النهاية وحدي برفقة صديقيّ اللذين ما كانا يشكّان في أيّ أمر. وعادت صاحبة الصداع، لكنّها طلبت العودة وحيدة لانتظار عشيقها في بيته كي تتناول قليلاً من خافضات الحرارة وأصبحتا صديقتين حميمتين تتنزّهان سويّة، إحدهما بأثواب رجل تتصيّد بنيّات وتعود بهنّ إلى الأخرى وتدربّهن. أمّا الثانية فكان لديها صبيّ صغير تتظاهر بالاستياء منه فتعمد إلى إصلاحه على يد صديقتها التي ما كانت توفرّ جهداً في ذلك. ويمكن أن نقول أنْ ليس من مكان مهما كان عاماً، لم تفعلا فيه ما كان الأكثر خفاءً. "لكن "ليا"كانت على امتداد هذه الرحلة لائقة تماماً معي، تقول "ألبيرتين". بل هي كانت أكثر تحفّظاً بعد من كثيرات من سيّدات المجتمع الراقي."- "وهل ثمّة من نساء المجتمع الراقي من كنّ غير متحفظّات إزاءك يا "ألبيرتين"؟- "لا إطلاقاً".- "فما الذي تقصدين قوله إذاً؟"- "حسن! لقد كانت أقلّ انطلاقاً في عباراتها".- "مثال ذلك؟"-"ما كانت لتستخدم، على غرار الكثيرات من النساء اللواتي تستقبلهنّ، كلمة "يُطَقّق" أو كلمة: "يضحك على ذقون الناس." وبدا لي أن جزءاً من الرواية لم يكن بعدُ احترق أخذ أخيراً يستحيل رماداً. لابدّ أنّ فتور عزيمتي قد امتدّ فترة من الزمن. وكانت أقوال "ألبيرتين" حينما أفكرّ فيها تخلّف وراءها غضباً عاتياً. لكنّه تهاوى أمام نوع من الحنان والرقّة. فإني منذ عدت وأعلنت عزمي على قطع صلتي بها كنت أكذب بدوري. وإن عزمي هذا على الانفصال الذي كنت أتصنّعه دون كلل كان يحمل إليّ شيئاً فشيئاً بعضاً من الحزن الذي كنت عانيته لو كنت عازماً بالحقيقة على فراق "ألبيرتين".

كنت في جميع الأحوال، حتىّ حينما أعود للتفكير بطفرات من فكري، بوخزات كما يقولون بشأن الآلام الجسديةّ الأخرى، في تلك الحياة المتهتّكة التي قضتها "ألبيرتين" قبل أن تعرفني، كنت أكثر إعجاباً بلين عريكة سجينتي وكففت عن الحقد عليها. على أنيّ ما كففت البتّة دون شك مدّة حياتنا المشتركة عن إسماع "ألبيرتين" أن هذه الحياة لن تكون على الأرجح إلاّ مؤقتّة كي تستمّر "ألبيرتين" في الإحساس ببعض الفتنة فيها. لكنّي ذهبت في هذا المساء إلى أبعد من ذلك وقد خشيت أن لن تكون التهديدات الغامضة بالانفصال كافية من بعد إذ هي قد تناقضها دون شكّ في فكر "ألبيرتين" فكرتها عن حبّ كبير غيور عليها يكون قد حدا بي، فيما يبدو أنّها تقول، إلى الذهاب لتقصّي الحقيقة في منزل آل "فيردوران". وفكّرت في ذلك المساء أنّ من بين الأسباب الأخرى التي أمكن أن تحملني فجأة، ودون أن أتبينّ الأمر إلاّ شيئاً فشيئاً، على تمثيل مسرحية 'القطيعة هذه كان ثمّة على وجه الخصوص أنيّ حينما كنت، في واحدة من تلك النزوات مما كان يتفقّ لوالدي، أهدّد شخصاً في أمنه وطمأنينته ولمّا كنت مثله لا أملك الشجاعة لتنفيذ التهديد كنت أوغل بعيداً في مظاهر التنفيذ، بغية أن لا يُعتقد أنّه مجرّد كلام في الهواء، ولا أنني عائداً إلاّ بعدما يكون الخصم ارتعد خوفاً وقد توهّم حقًّا أني كنت صادقاً.

وإننا على أيّ حال نحسّ تماماً أن ثمّة شيئاً من الحقيقة في هذه الكذبات وأنّه إن لم تحمل الحياة تغيّرات في تجليّات حبنّا فسنبغي نحن حملها أو "التظاهر بها والتحدث عن الانفصال لشدّة ما نشعر بأن كلّ مظاهر حبّنا وسائر الأشياء تتطوّر تطوّراً سريعاً باتّجاه الوداع. والمرء يبغي أن يذرف الدموع التي سيجلبها هذا الوداع قبل وقوعه بفترة طويلة. ليس من شك أنّه كان ثمّة هذه المرّة سبب نفعيّ في المسرحية التي مثّلتها. فقد حرصت فجأة على الاحتفاظ بها لأني كنت أحسّها مشتّتة في أشخاص آخرين ما كان بمقدوري الحؤول دون أن تلحق بهم. لكنّها حتّى لو كانت تخلّت نهائياً عن الجميع من أجلي لكنت ربمّا حرصت حرصاً أشدّ بعد على أن لا أفارقها في يوم لأن الانفصال إنّما يصبح جرّاء الغيرة قاسياً، لكنّه جرّاء الامتنان يصبح مستحيلاً. كنت أحسّ في جميع الأحوال أنني أخوض المعركة الكبرى التي لابدّ لي من الانتصار فيها أو الهلاك. وكنت قدّمت لـ"ألبيرتين" على مدى ساعة كلّ ما كنت أملك لأنني كنت أقول في نفسي: "كلّ شيء رهن بهذه المعركة". لكنّ هذه المعارك أقلّ شبهاً بمعارك الأمس التي كانت تمتدّ عدّة ساعات منها بمعركة معاصرة لا تنتهي لا في الغد ولا ما بعده ولا في الأسبوع التالي. والمرء يصرف قواه كلّها لأنّه يظنّ دوماً أنّها آخر ما سيكون بحاجة إليه. وينقضي أكثر من عام دون أن يجيء بالقرار".

ربّما كان ينضاف إلى ذلك تذكر لاواع لمشاهد خادعة قام بها السيّد "دوشارلوس" الذي كنت بالقرب منه حينما تملكتني خشية أن تهجرني "ألبيرتين". لكنّي سمعت فيما بعد أميّ تروي لي ما يلي، وكنت أجهله آنذاك وهو يحملني على الاعتقاد بأني وجدت سائر عناصر هذا المشهد في ذاتي، في واحدة من محميّات الوراثة الغامضة التي تجعلها بعض الانفعالات، وتأثيرها في هذا الشأن كتأثير بعض الأدوية المماثلة للكحول والقهوة في مدّخَر قوانا المختزنة، تجعلها في متناولنا: حينما

كانت عمتّي "أوكتاف" تعلم من "أولالي"أنّ "فرانسواز" قد دبّرت سراً، وقد تيقّنت أن سيدّتها لن تخرج بعد البتّة، نزهة ينبغي أن تخفى على عمّتي كانت هذه تتظاهر عشية ذلك اليوم بالعزم على محاولة الخروج في الغد في نزهة. كانت تطلب من "فرانسواز"، وهي في البداية نهب الشكوك لا أن تعدّ سلفاً فحسب أغراضها وتعرّض للهواء تلك التي خُزنت منذ فترة طويلة، بل توصي حتىّ على العربة وأن تنظّم كلّ دقائق يومها بما لا يزيد عن ربع الساعة تحديداً. وما كانت تعدل جهاراً عن مشروعاتها إلاّ حينما تكون "فرانسواز" أرغمت، وقد أُقنعت أو تزعزع موقفها، على الإقرار لعمتي بالمشروعات التي أعدّتها، كي لا تعرقل، تقول، مشروعات "فرانسواز". وعلى هذا المنوال، وكي لا يسع "ألبيرتين" الظنّ بأنّني أبالغ وكيما أدفعها إلى أبعد ما يمكن في الفكرة التي مفادها أنّنا نفترق، وإذ استخلصت بنفسي نتائج ما أقدمت على قوله توّاً، أخذت أستبق الوقت الذي يزمع أن يبدأ في الغد وسيدوم أبداً، الوقت الذي نكون انفصلنا فيه، وأوجّه لـ"ألبيرتين" ذات التوصيات كما لو أننا لا نزمع أن نتصالح عمّا قليل. وكما الجنرالات، الذين يحكمون أنّه لابدّ لتفلح خدعة في تضليل العدوّ من دفعها إلى أقصى حدودها، كنت قد صرفت في خدعتي من قواي العاطفيةّ ما يقارب مقدارها لو أنّها كانت حقيقيّة. كانت تمثيليّة الانفصال الوهميّ هذه توليني من الغمّ ما يقارب مقدارها غماً لو أنّها كانت واقعة، ربّما لأنّ أحد الممثلّين، وأقصد "ألبيرتين"، كانت، إذ تظنّها كذلك، تضيف إلى وهم الآخر. كنا نعيش نظام "لكلّ يوم همّه"، وهو وإن شقّ يظلّ محتملاً يستبقيه في مجال العاميّ ثقل العادة وهذا اليقين بأن الغد وإن انبغى أن يكون قاسياً سوف يستوعب وجود الكائن الذي نتمسّك به. فإذا بي أدمّر بجنون كلّ هذه الحياة الثقيلة. ما كنت أدمّرها، والحق يقال، إلاّ بصورة وهميّة، لكنمّا كان ذلك كافياً ليغمنّي، ربّما لأنّ الأقوال الحزينة التي ننطق بها، وإن كذباً، إنّما تحمل حزنها في ذاتها وتحقنه في أعماقنا: وربّما لأننا نعمل أننّا بتصنّعنا الوداع إنّما نذكّر سلفاً بساعة سوف تأتي حتماً فيما بعد. ثمّ إننّا لسنا واثقين من أنّنا لم نقدم توّاً على إطلاق الآليّة التي ستطلق دقّاتها. هناك في كلّ خدعة شيء من التشكّك، مهما يكن طفيفاً، حول ما سيقدم عليه من نضلّله. إن كانت تمثيلية الانفصال هذه ستفضي إلى انفصال! فليس يسعك ارتقاب إمكان حدوثه، وإن غير معقول، دون انقباض في الصدر. ويكون ضيقك مزدوجاً لأن الانفصال سيحدث آنذاك في الوقت الذي لا يمكن فيه أن نطيق احتماله، والذى أصابنا فيه عذاب على يد المرأة التي تهجرك قبلما تكون شفتك، أو هدّأت روعك على الأقلّ. ثمّ إننا لم يعد لدينا حتّى نقطة استناد العادة التي نعتمد عليها حتّى أوانَ الحزن. لقد حرمنا ذاتنا توّاً منها وبملء إرادتنا وأولينا النهار الحاضر أهميّة استثنائية وفصلناه عن النهارات الملاصقة له فإذا هو يخفق دون جذور كمثل يوم رحيل، وخيالنا استيقظ إذ لم تعد تشلّه العادة، وضَمَنّاَ فجأة إلى حبّنا اليوميّ تصوّرات عاطفيّة تضخمّه إلى أبعد حدّ فإذا بنا لا غنى لنا عن حضور لم يعد بالضبط على يقين تامّ من إمكان اعتمادنا عليه. وليس من شك أننّا بغية أن نضمن بالضبط هذا الحضور للمستقبل انصرفنا إلى لعبة إمكان استغنائنا عنه. لكنّ هذه اللعبة إنّما أُخذنْا نحن بها وشرعنا نتعذّب ثانية لأننا فعلنا شيئاً جديداً غير مألوف ويتفق أنّه يشبه بذلك هذه المعالجات التي ينبغي لها أن تشفي فيما بعد الداء الذي نعاني منه، لكنّ مفاعيلها الأولى إنّما تزيده استفحالاً.

كانت الدموع تجول في عينيّ كحال الذين إذهم وحيدون في غرفتهم ويتخيّلون تبعاً لانعطافات وتقلّبات حلمهم موت شخص يحبّونه فيتصوّرون ما قد يصيبهم من ألم تصوّراً دقيقا إلى حدّ أنّهم يخلصون إلى معاناته. وهكذا كان يبدو لي، وأنا أكثر من توصياتي لـ"ألبيرتين" حول السلوك الذي ينبغي أن تسلكه حيالي حينما نكون افترقنا، أنّ بي مقدار ما يصيبنا من غمّ تقريباً لو أنّه لم ينبغ لنا أن نتصالح في الحال. ثمّ هل كنت متيقّناً إلى الحدّ أنني أستطيع ذلك وأن أردّ "ألبيرتين" إلى فكرة الحياة المشتركة، وإن أنا أفلحت في ذلك هذا المساء، أنّ الذهنيّة التي بدّدها هذا الذي جرى لن تُبعث من جديد؟ كنت أحسّني، لكنما لا أخالني، سيّد المستقبل لأنني كنت أدرك أن هذا الإحساس ناجم عن أنّه لم يكن بعد موجوداً وما كنت والحالة هذه أرزح تحت ضرورته. وأخيراً ربّما كنت أضمّن أقوالي، فيما أنا أكذب، مقداراً من الحقيقة أكثر ممّا كنت أظنّه. وقد تيسّر لي منذ قليل مثال على ذلك حينما قلت لـ"ألبيرتين" إنني سأنساها سريعاً. كان ذلك ما وقع لي بالفعل مع "جيلبيرت" التي كنت أحجم الآن عن المبادرة إلى لقائها لا تجنّباً للعذاب بل للمشقة والأكيد أني كابدت العذاب وأنا أكتب لـ"جيلبيرت"، وكلّ ساعات "ألبيرتين" كانت ملك يدي. والأيسر في الحبّ أن يتخلّى المرء عن عاطفة منه عن عادة. لكنّ هذا القدر من الأقوال المؤلمة المتعلّقة بانفصالنا، إن كنتُ أعطيت القوّة على النطق بها لأنني أعلم أنّها كاذبة فقد كانت بالعكس صادقة في فم "ألبيرتين" حينما سمعتها تهتف قائلة: "آه! هذا وعد مني، لن ألتقيك البتة. أفضلّ كلّ شيء على أن أراك تبكي على هذه الصورة يا حبيبي. لا أودّ أن أبعث الغمّ في صدرك. فان كان لابدّ، فلن نلتقي من بعد". لقد كانت صادقة، وما كان وَسعَها أن تكون كذلك من جانبي، فإنّه لما كانت "ألبيرتين" لا تحمل لي إلاّ المودّة فإنّ التخلّي الذي كانت تنبىء به كان من جهة أقلّ عبئاً عليها. ولّما كانت دموعي تبدو لها، من جهة أخرى، ولعلّها كانت بدت أمراً زهيداً في حبّ كبير، خارقة تقريباً وتهزّها في الأعماق إمّا وُضعتْ في نطاق هذه المودّة التي كانت تلبث مقيمة فيها، هذه المودّة التي تفوق مودّتي قياساً على ما قالت منذ قليل لأن الذي لا ينطلق في حبّه من العشق هو الذي يقول الأشياء الرقيقة في عملية 'الفراق إذ الحبّ لا يعرب عن ذاته بصورة مباشرة، قياساً على ما قالت منذ قليل وما ربّما لم يكن غير صحيح تماماً لأن صنوف اللطف الكثيرة في الحبّ يمكن أن توقظ في نهاية المطاف لدى الشخص الذي يدفع إليه ولا يكابده مودة وامتناناً أقلّ أنانية من العاطفة التي أطلقتهما وربّما لبثا، بعد سنوات من الفراق وحينما لا يظلّ منه شيء لدى العاشق السابق، ربّما لبثا على الدوام لدى المعشوقة.

لم تكن هناك سوى فترة شعرت فيها بنوع من الضغينة حيالها، ضغينة ما كان منها إلاّ أن ضاعفت من حاجتي إلى استبقائها. ولّما كنت، وبي في ذلك المساء غيرة من الآنسة "فانتوي" فحسب، لمّا كنت أفكّر بأعظم قدر من اللامبالاة في "التروكاديرو"، لا لأنّه سبق لي أن أرسلتها إليه لتجنّب آل "فيردوران" فحسب، بل حتّى وأنا أشاهد فيه "ليا" هذه التي كنت بسببها قد أعدت "ألبيرتين" وبغية أن لا تعرفها، نطقت باسم "ليا" دون أن أفكّر فيها فإذا هي تبادر محاذرة، وظنّاً منها أنّه ربّما قيل لي عنها أكثر من ذلك، وتقول بلسان طلق، ولا تفعل دون أن تخفي بعض الشيء جبينها: "إني أعرفها تمام المعرفة، فقد ذهبنا السنة الماضية برفقة صديقات لنشهد تمثيلها وصعدنا بعد

التمثيلية إلى مقصورتها وارتدت ملابسها أمامنا، وكان الأمر مثيراً جداً." حينئذ اضطرّ فكري إلى التخلّي عن الآنسة "فانتوي" وانصرف في جهد يائس، في هذه الانطلاقة إلى هاوية الاسترجاعات المستحيلة، وانصرف إلى الممثّلة، إلى تلك الأمسية التي صعدت فيها "ألبيرتين" إلى مقصورتها. فكيف نعتقد من جهة، بعد كلّ الأيمان التي أقسمتها وبلهجة صادقة إلى هذا الحدّ، وبعد تضحيتها الكاملة إلى هذا الحدّ بحريتها، كيف نعتقد أن يكون ثمّة سوء في كلّ ذلك؟ ولكن ألم تكن شكوكي هوائيّات موجّهة صوب الحقيقة بما أنّها إن كانت ضحّت لي بآل "فيردوران" لتذهب إلى "التروكاديرو" فلابدّ مع ذلك أن كان ثمّة، في منزل آل "فيردوران" الآنسة "فانتوي"، وبما أنّه كان في "التروكاديرو"، الذي سبق أن ضحّت لي به كي تتنزّه برفقتي، أن كان هناك، بمثابة سبب لإخراجها منه، "ليا" تلك التي يبدو لي أنّها كانت تقلقني بغير وجه حقّ والتي صرّحتْ عنها مع ذلك في جملة لم أطالبها بها أنّها عرفتها على نطاق أوسع ممّا أمكن أن تذهب إليه خشيتي وفي ظروف مريبة جداً، إذ ما الذي أمكن أن يدفعها هكذا إلى الصعود إلى تلك المقصورة؟ ولئن كنت أكفّ عن المعاناة على يد الآنسة "فانتوي" حينما كنت أعاني على يد "ليا"، وهما الجلاّدان سحابة نهاري، فذلك إمّا جرّاء عجز فكري عن تخيل كمٍ مفرط من المشاهد في الآن نفسه، وإمّا جرّاء تداخل انفعالاتي العصبيّة التي لم تكن غيرتي سوى صدى لها. كان يمكن أن أستدلّ من ذلك أنّها لم تكن لـ"ليا" أكثر ممّا كانت للآنسة "فانتوي" وأني ما كنت أعتقد بـ"ليا" إلاّ لأني كنت لا أزال أعاني منها. ولكنّ القول بأن وجوه غيرتي كانت تتلاشى- لتستفيق أحياناً الواحد بعد الآخر- ما كان ليعني بدوره أن تلك الوجوه ما كان كلّ منها يقابل بالعكس حقيقة مستشعَرَة وأنّي من بين تلك النسوة ما كان ينبغي أن أقول ما من واحدة منهنّ، بل جميعهنّ. قلت مستشعرة لأنّه لم يكن بوسعي أن أشغل جميع النقاط التي كان يفترض أن أشغلها في المكان والزمان، ثمّ أيّة غريزة كانت ستزوّدني بالتوافق بين هؤلاء وأولئك لتمكّنني من مفاجأة "ألبيرتين" هنا وفي ساعة معينّة مع "ليا" أو مع فتيات "بالبيك" أو مع صديقة السيدّة "بونتان" التي مسّتها مساً خفيفاً أو مع فتاة كرة المضرب التي لكزتها بمرفقها أو مع الآنسة "فانتوي"؟

"يا عزيزتي "ألبيرتين" لطف عظيم منك أن تعديني بذلك. سوف أتجنبّ على أيّة حال، في السنوات الأولى على الأقلّ، الأمكنة التي تكونين فيها. ألا تعلمين إن كنت ستذهبين هذا الصيف إلى "بالبيك"؟ لأنني في مثل هذه الحالة سأتدبرّ أمري كي لا أذهب إليها." ولئن كنت أوالي الآن التقدم على هذه الصورة أستبق الأزمنة في اختلاقي الكاذب فإنّما لأؤذي نفسي أكثر لأخيف "ألبيرتين". ومثلما ينتشي رجل لم يتوافر له بادئ الأمر سوى أسباب قليلة الأهميّة ليغضب، مثلما تراه ينتشي كلياً بضجيج صوته ويستسلم لجنون غيظه الناجم لا عن مآخذه بل عن غضبه المتنامي نفسه، هكذا كنت أمضي بسرعة متزايدة على سفوح حزني صوب يأس يتزايد عمقاً وبخمول رجل يحسّ البرد يتملكّه ولا يحاول أن يقاوم بل يلقى نوعاً من المتعة في الارتعاش. وإن تيسّر لي عمّا قليل في نهاية المطاف، كما كنت أتوقّع، من القوّة ما أتمالك به نفسي وأعارض وأتراجع فإنما مردّ ذلك، وبما يفوق كثيراً الغمّ الذي ولدته "ألبيرتين" في صدري بسوء ترحيبها بعودتي، الغمّ الذي انتابني لدى تصوري إجراءات افتراق وهميّ بغية التظاهر بتنظيمها، ولدى تنبئيّ بعواقبه، الغمّ الذي سيقع على قبله

"ألبيرتين" اليوم، حين تتمنّى لي مساءً سعيداً، أن تبدّده. والمساء السعيد هذا ما كان ينبغي في كلّ الأحوال أن تكون هي من تبادر إلى قوله من تلقاء ذاتها، فلعلّ ذلك كان جعل الانقلاب الذي سأقترح عليها بموجبه أن تعدل عن فرقتنا أكثر مشقّة عليّ. لذلك أنفكّ أذكرّها بأن ساعة التحيّة المسائيّة قد حلّت منذ زمن طويل، الأمر الذي كان يمكّنني، آن يدع المبادرة بين يديّ، من تأخيرها فترة بعد. وهكذا كنت أزرع بالتلميحات إلى تقدّم الليل تقدّماً كبيراً وإلى تعبنا الأسئلة التي أطرحها على "ألبيرتين". وأجابت عن سؤالي الأخير بادية الاهتمام: "لست أدري إلى أين أذهب. ربّما ذهبت إلى منطقة "تورين" عند عمتيّ." هذا المشروع الأوّل الذي رسمت خطوطه الأولى جمدّ الدم في عروقي كما لو شرع يحققّ فعلاً فُرقتنا النهائية. وجالت بنظرها على الغرفة والبيانولا والكنبات التي من الساتين الأزرق. "لست أستطيع التكيف بعد مع الفكرة التى مفادها أننى لن أرى من بعد كل ذلك لا فى الغد ولا بعده ولا فى أى يوم. يا للغرفة العزيزة المسكينة! يبدو لى أن ذلك مستحيل ولا يمكن أن، يدور فى خلدى." - "كان لابد من ذلك، فقد كنت تعيسة هنا." - "ولكننى لم أكن تعيسة، ولا أن سوف أضحى تعيسة." - "لا، لا، أؤكد لك، ذلك خير لك." - "خير لك ربما." وشرعت أحدق فى الفراغ كما لو كنت أتخبط، وأنا نهب حيرة كبيرة، داخل فكرة خطرت فى بالى. وأخيراً قلت دفعة واحدة: "هيا يا "ألبيرتين"، تقولين إنك أكثر سعادة هنا وإنك ستضحين تعيسة." - "بالتأكيد." - "ذلك يبلبل أفكارى. أتودين أن نحاول التمديد بضعة أسابيع؟ من يدرى؟ ربما أمكن المضى بعيداً جداً أسبوعاً فأسبوعاً، تعلمين أن ثمة أموراً مؤقتة يمكن فى النهاية أن تدوم وتدوم." - "أوه! شد ما ستكون لطيفاً!" - "لكنما يبدو من قبل الجنون آنذاك أن يكون واحدنا عذب الآخر على هذه الصورة طوال ساعات دون طائل، لكأنما تلك رحلة أعد لها المرء ثم لم يقم بها. لقد أضنانى الغم." وأجلستها على ركبتى وأخذت مخطوطة "بيرغوت" التى طالما تاقت إليها وسطرت على الغلاف: "إلى حبيبتى "ألبيرتين"، ذكرى تجديد الإيجار." وقلت لها: "والآن بادرى إلى النوم حتى مساء الغد يا حبيبتى، فأنت لابد منهكة." - "إنى على وجه الخصوص مسرورة." - "وهل تحبيننى قليلاً؟" - "مئة مرة بعد أكثر من ذى قبل."

لعلنى كنت أخطأت لو سعدت بالمسرحية الصغيرة حتى لو لم تبلغ هذا الشكل من الإخراج الحقيقى الذى دفعت بها إليه. وحتى لو لم نقم بغير الكلام عن الانفصال لكان الأمر مذ ذاك خطيراً. هذه المحادثات التى نباشرها هكذا، إنما نظن أننا نفعل لا دون صدق فحسب، وذلك واقع فعلاً، بل بصورة حرة. لكنها بعامة وعلى غير علم منا التمتمة الأولى المهموسة على الرغم منا لعاصفة لا نرتاب بها. إن ما نعبر عنه فى الواقع حينذاك هو عكس رغبتنا (التى هى العيش الدائم إلى جانب من نحب)، لكنه أيضاً تلك الاستحالة فى العيش سوية والتى تشكل عذابنا اليومى، العذاب الذى نفضله على عذاب الفراق لكنه سيؤدى فى النهاية على الرغم منا إلى تفريقنا. عادة، وليس دفعة واحدة مع ذلك. ويتفق فى الكثير الغالب - ولم يكن ذلك حالى مع "ألبيرتين" كما سنرى - أن ننفذ، بعد مضى وقت على الأقوال التى ما كنا نؤمن بها، تجربة أولية لفراق مقصود غير مؤلم ومؤقت. فإننا نسأل المرأة، كيما تتذوق فيما بعد متعة أفضل معنا وكيما ننجو مؤقتاً، من جهة أخرى، من أحزان ومتاعب

مستمرة، أن تبادر بمعزل عنا، أو تدعنا نبادر بمعزل عنها، إلى القيام برحلة تمتد بضعة أيام هي الأولى - منذ زمن بعيد - نقضيها بدونها - ولعل ذلك كان بدا لنا مستحيلاً. وسرعان ما تعود لتتخذ مكانها في بيتنا. لكن هذا الفراق، وهو قصير لكنه محقق، لم يتم تقريره جزافاً وليس بالتأكيد الوحيد الذي نتصوره. وتعود الغموم نفسها ثانية وتتزايد ذات الصعوبة في العيش سوية، والفراق وحده يكف عن كونه صعباً إلى هذا الحد. لقد بدأنا بالتحدث عنه ثم إننا نفذناه بعد ذلك بشكل محبب. لكنها ليست سوى نذر لم نتعرفها. وبعد قليل إذا بالفراق المؤقت البائن يعقبه الفراق الرهيب النهائي الذي أعددنا له دون علم منا.

"تعال إلى غرفتي بعد خمس دقائق كي يسعني أن أراك قليلاً أيها العزيز الحبيب. ولتفض رقة. لكني سرعان ما سأنام بعد ذلك، فإنني أشبه بالأموات." وقد رأيت بالفعل ميتة حينما دخلت بعدها إلى غرفتها. فقد أغفت حالما استلقت في سريرها، واتخذت ملاءات السرير، وقد التفت مثل كفن حول جسمها، اتخذت بثنياتها الجميلة صلابة الحجر. لكأنما الرأس وحده، كما في بعض لوحات يوم الدينونة في العصر الوسيط، كان يطلع من الضريح وهو ينتظر في رقاده بوق رئيس الملائكة. هذا الرأس أخذه النوم على حين غرة وقد انقلب تقريباً مشعث الشعر. كنت أتساءل، وأنا أرى هذا الجسم العديم الشأن، أي جدول لوغارتمي كان يؤلفه كي تستطيع سائر الأعمال التي أمكن أن يشرك فيها بدءاً بنكزة بالمرفق إلى ملامسة فسطان أن تسبب لي، وقد مدت إلى لا نهاية من النقاط التي شغلها في المكان والزمان وعادت فجأة بين حين وآخر فانتعشت في ذاكرتي، صنوفاً من القلق أليمة إلى هذا الحد مع أني أعلم أنها إنما تسببها حركات ورغبات لها لعلها كانت بدت لي، لدى أخرى غيرها، بل لديها هي قبل خمس سنوات، بعيدة عن أن تثير الاهتمام. لقد كانت كذبة، لكنما لم تتوافر لي إزاءها الشجاعة للبحث عن حلول أخرى غير موتي. وهكذا كنت ألبث، في الفراء التي لم أكن بعد نزعتها عني منذ عودتي من منزل آل "فيردوران"، أمام هذا الجسد الملوي، هذا الشكل الذي هو رمز لماذا؟ لموتي؟ لحبي؟ وشرعت أسمع بعد قليل تواتر أنفاسها المتساوي. فمضيت وجلست على حافة سريرها لأقوم بهذا العلاج المهدىء الذي من نسيم وتأمل. ثم انصرفت على مهل شديد كي لا أوقظها.

كان الوقت متأخراً إلى حد أني أوصيت "فرانسواز" منذ الصباح بالسير بخطى رفيقة حينما يقع عليها أن تمر أمام غرفتها. و"فرانسواز" أوصت، وفي يقينها أننا قضينا الليل في ما كانت تدعوه حفلات فاجرة، أوصت الخدم الباقين بلهجة ساخرة أن لا "يوقظوا الأميرة". وكان ذلك أحد الأمور التي كنت أخشاها كأن لا تستطيع "فرانسواز" ذات يوم أن تتمالك نفسها من بعد وأن تكون وقحة مع "ألبيرتين" وأن يجر عليّ ذلك تعقيدات في حياتنا. ذلك أن "فرانسواز" ما عادت حينئذ، كحالها في الفترة التي كانت تعاني فيها من حسن معاملة عمتي لـ "أولالي"، في سن يسمح لها بتحمل غيرتها بقلب صامد. فقد كانت تلك الغيرة تفسد، بل تشل وجه خادمتنا إلى حد أني كنت أتساءل بين الحين والحين إن كانت لم تصبها، في أعقاب نوبة غضب، أزمة قلبية خفيفة دون أن أكون لاحظت ذلك. وبعدما طلبت هكذا أن يصان نوم "ألبيرتين" لم أستطع فيما يخصني أن أظفر بشيء منه. كنت أحاول

أن أفهم ما كانت عليه عقلية "ألبيرتين" الحقيقية. فهل اتقيت خطراً حقيقياً بالمسرحية المشؤومة التى مثلتها، وهل خطرت لها حقاً بين الحين والحين فكرة التوق إلى الحرية على الرغم من زعمها أنها تحس سعادة كبيرة فى المنزل، أم كان ينبغى على العكس أن أصدق أقوالها؟ فأى الفرضيتين كانت هى الصحيحة؟ ولئن كان يتفق لى فى الغالب، لئن انبغى أن، يتفق لى على وجه الخصوص أن أوسع حالة من حياتى الماضية إلى حدود أبعاد التاريخ حينما أود محاولة إدراك حدث سياسى، فإنى على عكس ذلك لم أنفك هذا الصباح أماثل بين أهمية ما جرى بيننا الليلة البارحة وبين حادثة دبلوماسية وقعت منذ وقت قريب، على الرغم من الفوارق الكثيرة وفى محاولة لفهم ذاك الذى جرى.

ربما كان لى الحق فى التفكير على هذه الصورة. فقد كان من المرجح جداً أن يكون مثال السيد "دو شارلوس" قد قاد خطاى دون علم منى فى هذا المشهد الكاذب الذى كثيراً ما رأيته يمثله بقدر كبير من الثقة: من جهة أخرى هل كان من جانبه غير إدخال لا واع فى نطاق حياته الخاصة للنزعة العميقة الكائنة فى سلالته الألمانية المفطورة على الاستفزاز تحايلاً والنزاعة إلى الحرب استكباراً إن انبغى ذلك؟

فإنه لما أوحت شخصيات مختلفة من بينها أمير "موناكو" للحكومة الفرنسية بأنها إن لم تتخل عن السيد "ديلكاسيه" فستشن ألمانيا المتوعدة الحرب فعلاً، فقد طلب إلى وزير الخارجية أن يستقيل. لقد قبلت الحكومة الفرنسية إذن بفرضية شن الحرب علينا إن لم نرضخ. لكن ثمة أشخاصاً آخرين كانوا يظنون أن الأمر محض خدعة وأن ألمانيا ما كانت لتشهر السيف لو أن فرنسه صمدت. لا شك أن لم يكن السيناريو مختلفاً فحسب بل هو قارب أن يكون العكس بما أن، التهديد بقطع العلاقة بى لم يصدر قط عن "ألبيرتين"، لكن جملة من الانطباعات حملت إلىّ الاعتقاد بأنها كانت تفكر فيه، مثلما توافر ذلك الاعتقاد للحكومة الفرنسية حيال ألمانيا. وإن كانت ألمانيا من جهة أخرى راغبة فى السلام فإن بعث الفكرة التى مفادها أنها تبغى الحرب لدى الحكومة الفرنسية إنما كان تحاذقاً مشكوكاً فيه وخطيراً. صحيح أن تصرفى كان حاذقاً إلى حد كاف إن كانت الفكرة التى مفادها أنى لن أعقد العزم فى يوم على قطع علاقتى بها هى التى كانت تبعث فى صدر "ألبيرتين" أشواقاً مفاجئة إلى الاستقلال. ثم أما كان عسيراً أن أعتقد أنه لم يكن لديها شىء من ذلك وأن أأبى أن أبصر فيها حياة خفية كاملة مصروفة إلى إشباع هوايتها الشريرة لمحض ملاحظة الغيظ الذى علمت به أنى ذهبت إلى منزل آل "فيردوران" فصرخت قائلة: "كنت متيقنة من ذلك"، وأكملت تميط اللثام عن كل شىء بقولها: "كان لابد أن تكون الآنسة "فانتوى" عندهم"؟ والكل يؤكده لقاء "ألبيرتين" والسيدة "فيردوران" الذى أماطت "أندريه" النقاب عنه. لكن هذا التوق المفاجئ إلى الاستقلال، كما كنت أقول فى نفسى حينما أحاول المضى بعكس غريزتى، ربما سببته - بافتراض أنه موجود -، أو انتهى به الحال إلى أن تسببه الفكرة المعاكسة وأعنى بها أنه لم يخطر لى فى يوم أن أتزوجها وأنى إنما كنت أقول الحقيقة حينما كنت ألمح وكأنما غير متعمد إلى انفصالنا القريب، وأنى سوف أهجرها فى جميع الأحوال فى هذا اليوم أو ذاك، وهو اعتقاد لم يستطع ما جرى بيننا فى هذا المساء إلا أن يعززه حينذاك لكنما كان بوسعه

فى نهاية المطاف أن يولد لديها هذا القرار: "إن كان ذلك سيقع حتماً فى هذا اليوم أو ذاك فالأحرى أن ننتهى منه فى الحال. إن الإعدادات للحرب التى ينادى بها أكثر الأقوال المأثورة بعداً عن الحقيقة لضمان انتصار إرادة السلام إنما تنشىء بادىء الأمر على العكس الاعتقاد لدى كل من الخصمين بأن الآخر راغب فى القطيعة، هذا الاعتقاد الذى يجلب القطيعة، وبعد أن وقعت، الاعتقاد الآخر لدى كل من الاثنين بأن الآخر هو الذى ابتغاها. إن نجاح التهديد، وإن لم يكن التهديد صادقاً، إنما يحملك على الأخذ به مجدداً. لكن النقطة الدقيقة التى يمكن للخدعة أن تنجح فى حدودها صعبة التحديد: فإن ذهب أحدهما أبعد مما يجب فإن الآخر الذى كان رضخ حتى ذاك يتقدم بدوره: أما الأول فيستمر، إذ لا يعلم من بعد كيف يغير طريقته وقد تعود الفكرة القائلة بأن الظهور مظهر من لا يخشى القطيعة هو أفضل طريقة لتجنبها (وهو ما أقدمت عليه هذا المساء مع "ألبيرتين")، وتعود من جانب آخر أن يفضل الموت على الاستسلام، يستمر فى دأبه على التهديد إلى الوقت الذى لا يقوى فيه أحد من بعد على التراجع. من الممكن كذلك أن يختلط الخداع بالصدق، أن يتناوب وإياه وأن يصبح ما كان لعباً بالأمس واقعاً فى الغد. وأخيراً يمكن كذلك أن يحدث أن يكون أحد الخصمين مصمماً على الحرب تصميماً حقيقياً، أن تعقد "ألبيرتين" مثلاً العزم عاجلاً أم آجلاً على رفض الاستمرار فى هذه الحياة من بعد أو أن لا تكون خطرت لها البتة فكرته وأن يكون خيالى قد اختلقها كلياً. تلك كانت الفرضيات المختلفة التى فكرت فيها فيما كانت نائمة فى ذاك الصباح. بيد أنه يمكننى أن أقول، فيما يخص الفرضية الأخيرة، إنى لم أهدد البتة فى الفترات التالية "ألبيرتين" بالهجران إلا رداً على فكرة لديها عن حرية فاسدة، فكرة ما كانت تعرب لى عنها لكنها كانت تبدو لى متضمنة فى بعض وجوه الاستياء الغامضة، فى بعض الأقوال وبعض الحركات التى كانت تلك الفكرة التفسير الوحيد الممكن لها والتى كانت تأبى أن تقدم لى بشأنها أى تفسير. وكثيراً ما كنت أعاينها دون أن أقوم بأى تلميح إلى انفصال ممكن آملاً أن تكون ناجمة عن مزاج معكر سيزول فى ذلك اليوم. لكن هذا المزاج كان يمتد أحياناً أسابيع كاملة دون انقطاع، أسابيع كان يبدو أن "ألبيرتين" تبغى فيها إثارة نزاع، كما لو كان ثمة فى تلك الفترة، وفى منطقة كثيرة أو قليلة البعد، متع تعرفها ويحرمها إياها احتجازها فى بيتى، وكانت تؤثر فيها إلى أن تكون انتهت كتلك التغيرات الجوية التى تؤثر فى أعصابنا حتى فى ركن نارنا وإن هى تشكلت فى مكان بعيد بعد جزر "الباليار".

فى ذاك الصباح وبينما كانت "ألبيرتين" نائمة وكنت أحاول أن أستشف مكنونات صدرها وردتنى رسالة من أمى تعرب لى فيها عن قلقها من أنها لا تعرف شيئاً عن قراراتى بهذه الجملة للسيدة "دو سيفينيى": "إنى على يقين فيما يخصنى أنه لن يتزوج: فلم إشاعة القلق إذاً فى صدر هذه الفتاة التى لن يتزوجها فى يوم؟ ولم المجازفة بحملها على رفض أزواج لن تنظر إليهم من بعد إلا بازدراء؟ ولم نشيع القلق فى صدر شخص ما أيسر أن نتجنبه؟" وأعادتنى رسالة أمى تلك إلى الأرض، وقلت فى نفسى: لم أروح أبحث عن نفس غامضة وأفسر وجهاً وأحسنى مطوقاً بهواجس لا أجرؤ على التعمق فيها؟ لقد كنت أحلم، والأمر فى غاية البساطة. فأنا شاب متردد والمسألة تتعلق بواحدة من تلك الزيجات التى تستغرق بعض الوقت لنعلم إن كانت ستتم أم لا. وليس ثمة ما كان فى الأمر خاصاً ب

"ألبيرتين". وأولتني هذه الفكرة ارتياحاً عميقاً ولكنه قصير. فسرعان ما قلت في نفسي: "بإمكاننا أن نرد كل شيء بالفعل، إن نحن أخذنا في الاعتبار الجانب الاجتماعي، إلى الأحداث العادية الأكثر شيوعاً: فربما رأيت الأمر على هذه الصورة من الخارج. لكني أعلم تماماً أن الصحيح، ما هو على الأقل صحيح بدوره، هو كل ما خطر لي، هو كل ما قرأته في عيني "ألبيرتين"، وهي المخاوف التي تعذبني، هي المسألة التي أطرحها على نفسي دون انقطاع بخصوص "ألبيرتين"." وقصة الخطيب المتردد والزواج المفسوخ يمكن أن تقابل ذلك مثلما يمكن لتقرير مسرحي حرره مراسل يتسم بالحس السليم، أن يعطينا موضوع مسرحية لـ "إيبسن". لكنما ثمة شيء آخر غير هذه الأحداث التي يروون عنها. وصحيح أن هذا الشيء الآخر ربما كان موجوداً إن عرفنا كيف نراه لدى كل الخاطبين المترددين وفي سائر الزيجات التي يتباطؤون في إتمامها إذ ربما كان ثمة خفايا في حياة كل يوم. كان يمكنني أن لا أكترث بها فيما يخص حياة الآخرين، أما حياة "ألبيرتين" وحياتي فقد كنت أحياها من الداخل.

منذ تلك الأمسية لم تقل لي "ألبيرتين" أكثر مما فعلت في الماضي: "أعرف أنك لا تثق بي وسأحاول تبديد شكوكك." لكن هذه الفكرة التي لم تعرب عنها البتة ربما كان أمكن أن تكون بمثابة تفسير لأقل أفعالها. فإنها لم تكن تتدبر أمرها فحسب بغية أن لا تلبث وحدها لحظة واحدة بحيث لا يمكنني أن أجهل ما قد قامت به إن لم أصدق تصريحاتها الخاصة، بل هي كانت تزعم، حينما يقع عليها أن تهتف لـ "أندريه" أو المرآب أو ميدان الخيول أو أي مكان آخر، أن، بقاءها وحيدة بغية الاتصال إنما يبعث على الملل الشديد نظراً للزمن الذي كانت تصرفه الآنسات ليوفرن لك الاتصال، وكانت تتدبر أمرها كي أكون بالقرب منها في تلك اللحظة، وإن لم أكن فـ "فرانسواز" كما لو أنها خشيت أن أتخيل اتصالات هاتفية تلام عليها وتفيد في تحديد مواعيد خفية. كل ذلك لم يكن يوفر لي الطمأنينة، وا أسفي! وكان "إيميه" قد رد لي صورة "إستير" قائلاً إنها لم تكن هي. إذاً ثمة أخريات أيضاً؟ ومن يكن؟ وأعدت هذه الصورة إلى "بلوك". أما الصورة التي وددت أن أراها فهي تلك التي أعطتها "ألبيرتين" لـ "إستير". كيف كانت فيها؟ مكشوفة العنق والكتفين ربما: ومن ذا يعلم إن هما لم تتصورا سوية؟ لكني لم أكن أجرؤ على التحدث عن ذلك لـ "ألبيرتين" فربما بدا عليَّ أني لم أشاهد الصورة، ولا لـ "بلوك" الذي ما كنت أود أن أبدو حياله وكأنما أهتم بـ "ألبيرتين". تلك الحياة التي كان أقر أنها بالغة القسوة عليّ وعلى "ألبيرتين" كل من كان على بينة من شكوكي وعبوديتها كانت تعتبر من الخارج في نظر "فرانسواز" حياة ملذات غير مستحقة كانت حاذقة في توفيرها لنفسها تلك "الساحرة" وتلك "الكراكوزة"، كما تقول "فرانسواز" التي كانت تستخدم هذا المؤنث بما يجاوز كثيراً استخدامها للمذكر لأنها أكثر حسداً للنساء. بل هي كانت تقول (إذ كانت "فرانسواز" قد أغنت مفرداتها في قربها مني بكلمات جديدة ولكنما ترتبها بطريقتها الخاصة)، كانت تقول عن "ألبيرتين" إنها لم يسبق أن عرفت إنساناً بهذا "الغدران" وإنها كانت تعرف كيف "تسحب مني فلوسي" بالإجادة في تمثيل الكوميديا (التي كانت "فرانسواز"، وهي تحسب الخاص عاماً بذات السهولة التي تحسب فيها العام خاصاً، ولا تملك سوى أفكار غامضة إلى حد ما حول التمييز بين أجناس الفن المسرحي، كانت تدعوها "الإجادة في تمثيل الإيمائيات"). ذلك الخطأ حول حياتنا الحقيقية،

أنا و"ألبيرتين"، ربما كنت أنا نفسى مسؤولاً عنها إلى حد ما جراء التأكيدات الغامضة التى كنت أسر بها عنها بمهارة فى أثناء حديثى مع "فرانسواز" رغبة منى إما فى مضايقتها وإما فى أن أبدو على الأقل سعيداً إن لم أكن محبوباً. أما غيرتى والرقابة التى كنت أمارسها على "ألبيرتين"، وشد ما وددت أن لا ترتاب "فرانسواز" بأمرهما، فلم تلبث هذه الأخيرة أن كشفتهما، وقد أرشدها إلى ذلك، كحال مناجى الأرواح الذى يلقى حاجة وهو معصوب العينين، ذاك الحدس الذى لديها حيال الأشياء التى يمكن أن تشق عليّ، ولا تدع للأكاذيب التى يمكن أن أقولها لتضليلها أن تصرفها عن غايتها، إلى جانب تلك الكراهية لـ "ألبيرتين" التى كانت تدفع "فرانسواز" إلى اكتشاف ما يمكن أن يودى بعدواتها ويعجل فى سقوطهن - أكثر منها بعد إلى الظن بأنهن أكثر سعادة وأوفر حيلة فى تمثيلهن مما هن عليه. و"فرانسواز" بالتأكيد لم تعنف "ألبيرتين" فى يوم. وتساءلت إن كانت "ألبيرتين"، فى إحساسها أنها مراقبة، لن تحقق بنفسها هذا الانفصال الذى سبق أن هددتها به، فإن الحياة فى تغيرها إنما تصنع حقائق من اختلاقات خيالنا. ففى كل مرة كنت أسمع باباً يفتح كنت أرتعش ذات ارتعاش جدتى فى أثناء احتضارها كل مرة أقرع فيها الجرس. ما كنت أظنها تخرج دون أن تكون أنبأتنى بذلك، لكن لا وعيى هو الذى كان يظن ذلك كما كان لا وعى جدتى هو الذى كان يختلج لدقات الجرس فى حين كانت فاقدة الوعى. بل اتفق لى فجأة ذات صباح اضطراب مفاجىء من أن تكون خرجت فحسب بل رحلت. فقد سمعت منذ قليل باباً بدا لى حقاً أنه باب غرفتها. وذهبت خفيف الخطى حتى غرفتها ودخلت ومكثت فى العتبة. كانت الملاءات فى العتمة منفخة بصورة نصف دائرية، وكان لابد أنها "ألبيرتين" تنام مقوسة الجسم ورجلاها ورأسها إلى الجدار. وحده شعر هذا الرأس الذى يتجاوز السرير أسود كثيفاً أفهمنى أنها هى وأنها لم تفتح بابها ولم تتحرك، وأحسست نصف الدائرة هذا لا حراك به وزاخراً بالحياة، وفيه تقوم حياة بشرية كاملة كانت الشىء الوحيد الذى أقيم له وزناً: لقد شعرت أنه هنا، ملك يدى المسيطرة.

لكنى كنت أعرف فن الإلماح لدى "فرانسواز" والفائدة التى تجيد جنيها من إخراج للأمور ذى مغزى، ولست أستطيع أن أصدق أن تكون صبرت على إفهام "ألبيرتين" يومياً ما كان الدور الذى تنهض به فى المنزل، وإثارة جنونها بوصف الحجز الذى تخضع له صديقتى وصفاً بولغ فى رسمه بصورة علمية. لقد لقيت "فرانسواز" ذات مرة تبحث فى أوراقى، وقد ركزت نظارتين ضخمتين، وتضع واحدة بينها كنت سجلت فيها قصة تتعلق بـ "سوان" واستحالة أن يكون فى غنى عن "أوديت". أفكانت تركتها هنا مرمية دون قصد فى غرفة "ألبيرتين"؟ وإنه لمن المحتمل على أى حال أنه لابد ارتفع فوق سائر مضمرات "فرانسواز"، ارتفع إلى ميتوى أعلى وأوضح وأكثر إلحاحاً الصوت المتهم المفترى لآل "فيردوران" وقد أوغر صدرهم أن يروا "ألبيرتين" تمسك بى دون قصد، وأمسك أنا بها متعمداً بعيداً عن العشيرة الصغيرة، وما كانت "فرانسواز" من ذلك الصوت سوى الصدى الهامس الغادر فى الطبقة الدنيا.

فأما المال الذى كنت أنفقه من أجل "ألبيرتين" فقد كان يستحيل عليّ تقريباً إخفاؤه عن

"فرانسواز" إذ لم يكن بمقدورى إخفاء أية نفقة عنها. كانت "فرانسواز" قليلة العيوب، لكن هذه العيوب جعلت لها لتخدمها مواهب حقيقية كانت فى الأغلب تفتقر إليها خارج عمل هذه العيوب. كان الرئيسى منها هو الفضول المطبق على المال الذى ننفقه على آخرين غيرها. فإن كان لدىّ حساب أسدده أو إكرامية أعطيها فعبثاً انتحى جانباً إذ كانت تجد طبقاً ترتبه، منشفة تأخذها، أى شىء يسمح لها بالاقتراب. كانت تلك المرأة، مهما قل الوقت الذى أدعه لها إذ أصرفها غاضباً، تلك المرأة التى لم تعد ترى بوضوح تقريباً وتكاد لا تعرف العد، "فرانسواز" تلك، يقودها ذاك الذوق نفسه الذى يجعل خياطاً يخمن بالغريزة إذ يراك قماش ردائك وهو حتى لا يتمالك أن يجسه أو يجعل رساماً يتحسس جواً لونياً معيناً، كانت ترى خلسة وتعد فى الحال ما كنت أعطى. فإن كنت أستبق الأمور وأقول معتذراً عن الإكرامية كى لا يمكنها أن تقول لـ "ألبيرتين" إنى أرشو سائقها: "لقد شئت أن أكون لطيفاً مع السائق ونقدته عشرة فرنكات"، كانت "فرانسواز"، وهى لا شفقة عندها وكانت نظرة النسر العتيق الأعمى كافية لديها، كانت تجيب قائلة: "لا، لقد أعطاه سيدى ثلاثة وأربعين فرنكاً إكرامية. لقد قال لسيدى إن ثمة خمسة وأربعين فرنكاً معه وأعطاه سيدى مئة فرنك فلم يرد له سوى اثنى عشر فرنكاً." لقد توافر لها الوقت لترى دتحسب مبلغ الإكرامية الذى كنت أجهله أنا.

لئن كان هدف "ألبيرتين" أن ترد لى شيئاً من الهدوء فقد أفلحت جزئياً فى ذلك، فما كان عقلى يطلب على أية حال سوى أن يقيم البرهان على أنى أخطأت حول مقاصد "ألبيرتين" الشريرة مثلما ربما مخطئاً حول غرائزها الفاسدة. كنت آخذ فى اعتبارى دونما شك، فى تقييم الحجج التى يزودنى عقلى بها، الرغبة التى بى فى أن أجدها صائبة. لكن أما كان ينبغى، كى أكون منصفاً ويحالفنى الحظ فى رؤية الحقيقة، ما لم أسلم بأنها لن تعرف البتة إلا بالحدس، بانبعاث تخاطرى، أما كان ينبغى أن أقول فى نفسى إنه إن كان عقلى فى محاولته توفير شفائى يدع لرغبتى أن تقوده، فإن غريزتى فى المقابل، فيما كان يتعلق بالآنسة "فانتوى" وعيوب "ألبيرتين" ومقصدها بأن تكون لها حياة أخرى وعزمها على الانفصال، وكانت جميعها النتائج الطبيعية لعيوبها، إن غريزتى كان يمكن فيما يخصها، وسعياً منها فى إمراضى، أن تضللها غيرتى؟ وإن احتجاز "ألبيرتين" من جانب آخر، وكانت تتدبر أمره ببراعة عظيمة كى تجعله مطلقاً، قد نزع منى شيئاً فشيئاً الريبة إذ نزع منى العذاب وأمكننى حينما كان المساء يعيد صنوف قلقى أن أعود فألقى فى وجود "ألبيرتين" سكينة الأيام الأولى. كانت تحدثنى وهى جالسة قرب سريرى عن واحد من تلك الأزياء أو تلك الحاجات التى كنت لا أكف عن إعطائها إياها فى محاولة لجعل حياتها أكثر لطفاً وسجنها أوفر جمالاً، فيما أخشى أحياناً أن توافق السيدة "لاروشفوكو" رأيها، تلك التى أجابت شخصاً كان يسألها إن لم تكن مسرورة لوجودها فى مسكن جميل كما هو "ليانكور" بأنها لا تعرف سجناً جميلاً.

وهكذا، إن كنت سألت السيد "دو شارلوس" حول الفضيات الفرنسية القديمة فلأننا، حينما عقدنا العزم على امتلاك يخت، وهو مشروع حكمت "ألبيرتين" أنه غير قابل للتحقيق - وحكمت أنا فى كل مرة عدت فآمنت فيها بفضيلتها فلا تكبت غيرتى المتناقضة من بعد رغبات أخرى لا مكان لها فيها

وتتطلب بدورها مالاً لإشباعها - قمنا تحسباً لأى طارئ، ودون اعتقاد منها على أى حال بإمكان أن يتوافر لنا واحد فى يوم، بسؤال "إيلستير" النصح. وإنما كان ذوق الرسام مرهفاً ومتشدداً بشأن تأثيث اليخوت بقدر ما كان بشأن ملابس النساء. فما كان يسلم فيها إلا بالأثاث الإنكليزى والفضيات القديمة. لم تفكر "ألبيرتين" بادئ الأمر إلا بالأثواب والأثاث. والآن أخذت الفضيات تثير اهتمامها وقد حملها ذلك منذ أن عدنا من "بالبيك" إلى قراءة مؤلفات حول فن الفضيات ومناقش قدماء النقاشين. بيد أن الفضيات القديمة شديدة الندرة إذ هى صهرت مرتين، فى حين معاهدات "أوتريخت"، يوم بادر الملك نفسه وتبعه فى ذلك كبار القوم إلى إعطاء آنيته الفضية، وفى عام ١٧٨٩. ثم إن الصياغ الحديثين قاموا عبثاً بتقليد كل هذه الآنية الفضية وفقاً لرسوم منطقة "بونتوشو" فقد كان "إيلستير" يرى هذا القديم الجديد غير أهل لدخول مسكن امرأة ذواقة، وإن يكن مسكناً عائماً. كنت أعلم أن "ألبيرتين" قرأت وصف الروائع التى سبق أن صنعها "روتييه"[١] للسيدة "دو باري". كانت تذوب شوقاً، إن كان لا يزال ثمة بعض قطع منها، إلى رؤيتها، وأنا إلى إعطائها إياها. بل هى كانت باشرت مجموعات جميلة كانت تضعها بذوق بديع فى خزانة زجاجية وما كنت أقوى على النظر إليها دون أن يرق لها قلبى ودون أن يعترينى الخوف لأن الفن الذى كانت ترتبها به كان ذاك الذى كله طول أناة وبراعة وحنين وحاجة إلى النسيان، ذاك الذى ينصرف إليه الأسرى.

أما بخصوص الملابس النسائية فقد كان ما يروقها على وجه الخصوص فى تلك الفترة هو كل ما يصنعه "فورتونى". وفساطين "فورتونى" تلك التى سبق أن شاهدت أحدها على السيدة "دو غيرمانت" إنما كانت تلك التى بشرنا "إيلستير"، حينما كان يحدثنا عن أثواب معاصرات "كارباتشيو" و"تينيسيان" الرائعة، بقرب ظهورها تنبعث من رمادها الباذخ لأن كل شىء ينبغى أن يعود مثلما هو مدون فى قباب القديس مرقص[٢] وكما تعلن عن ذلك الطيور التى تشرب فى أجران تيجان الأعمدة البيزنطية التى من مرمر ويشب، الطيور التى تعنى الموت والقيامة فى آن معاً. وحالما شرعت النساء فى ارتدائها تذكرت "ألبيرتين" وعود "إيلستير" وهاجها الشوق إليها وكان لابد لنا أن نمضى لاختيار إحداها. على أن تلك الفساطين، إن لم تكن من تلك القديمة الحقيقية التى تبدو فيها نساء اليوم مسرفات بعض الشىء فى التنكر والأجمل أن يحتفظ بها كقطعة فى مجموعة (وكنت على أى حال أبحث بدورى عن مثلها لـ "ألبيرتين")، لم تكن تتسم كذلك ببرودة تقليد القديم المزيف. لقد كانت بالأحرى من قبيل زخارف "سير" و"باكست" و"بونوا"[٣] الذين كانوا يذكرون فى هذه الفترة فى مسرح الباليه الروسى بعصور الفن الأقرب إلى الفؤاد بوساطة أعمال فنية مشبعة بروحهم ومبتكرة مع ذلك: هكذا كانت فساطين "فورتونى"، وهى أمينة على قديمها لكنها مبتكرة إلى حد بعيد، كانت تبرز، على

---

(١) Roettiers: أحد صاغة بلاط لويس الخامس عشر.

(٢) كنيسة ذائعة الصيت فى البندقية.

(٣) Sert وBakst و Benois من أعظم صناع الديكور في مسرح الباليه الروسي آنئذ.

هيئة زخارف، بل إن قدرتها على الإيحاء أقوى من الزخارف بما أن الزخارف لا تزال تقتضى التخيل، البندقية المزدحمة بالشرق التى ربما ارتديت فيها وكانت منها، وهى تذكر أفضل مما تفعل ذخيرة فى مذخرة القديس مرقص بشمسها والعمائم المحيطة، اللون المتكسر المبهم المتكامل. كل شىء من ذلك العصر كان قد زال، لكن كل شىء كان يولد من جديد تستذكره، بغية الربط بينهما بروعة المشهد وضجيج الحياة، بالطلوع المفاجئ المجزأ الباقى على الزمن لأقمشة زوجات الدوجات[١].

أردت مرة أو اثنتين أن أطلب بهذا الشأن نصيحة السيدة "دو غيرمانت". لكن الدوقة ما كانت تحب الأثواب التى هى أقرب إلى البزة الرسمية. وهى نفسها ما كانت ترتاح إلا بارتداء المخمل الأسود تزينه ماسات. ولم تكن مشورتها كبيرة الفائدة بالنسبة لفساطين كتلك التى لـ "فورتونى". وكانت بى على أية حال خشية، وأنا أطالبها بذلك، من أن يبدو أنى لا أذهب للقائها إلا عندما أكون بالمصادفة بحاجة إليها فى حين كنت أرفض لها منذ زمن طويل عدة دعوات فى الأسبوع. وما كنت على أية حال أتلقى دعوات منها وحدها بهذه الكثرة. صحيح أنها وكثيرات غيرها من النساء كن على الدوام شديدات اللطف حيالى. لكن انحباسى كان بالتأكيد قد ضاعف من ذاك اللطف. ويبدو فى دنيا المجتمع الراقى، وهى صورة باهتة لما يجرى فى دنيا الحب، يبدو أن أفضل طريقة كى يسعى إليك هى أن تحتجب. إن رجلاً ليحسب كل ما يمكن أن يستشهد به من أعمال ترفع من شأنه كيما يحسن فى عينى امرأة، ولا ينى ينوع فى ملبسه ويعتنى بمحياه، فلا تبدى له واحداً فحسب من الألطاف التى تبديها له هذه الأخرى التى جعلها تتعلق أبداً به فى خيانته لها وعلى الرغم مما يبدو أمامها وسخاً وعديم الحيلة ليحسن فى عينها. كذلك إن أسف أحد أن لا يسعى إليه الناس بالقدر الكافى فلن أقول له أن يزيد بعد من زياراته وأن يقتنى وسائل نقل أرفع مستوى، بل أنصحه أن لا يلبى أية دعوة وأن يعيش حبيس غرفته وأن، لا يدع أحداً يدخلها وحينئذ يزدحم الناس حول بابه. أولا أقول له ذلك بالأحرى: فإنها طريقة مؤكدة لسعى الناس إليك لا تنجح إلا على غرار الطريقة التى تكون فيها موضع حب، يعنى إن نحن لم نتخذها لذاك الغرض، بل إن نحن على سبيل المثال لازمنا بالفعل غرفتنا على الدوام لأننا نعانى مرضاً خطيراً أو تظن أننا كذلك، أو لأننا نحتبس فيها عشيقة نفضلها على الناس جميعاً (أو الثلاثة مجتمعة فى الآن نفسه)، الناس الذين سيتخذون من ذلك سبباً، ودون أن يدروا بوجود تلك المرأة ولمجرد أنك تتمنع عليهم، ليفضلوك على سائر الذين يعرضون أنفسهم ويتعلقوا بك.

وقلت لـ "ألبيرتين": "لابد إذ نحن بصدد الغرفة أن نهتم عما قريب بمبذلك الذى لـ "فورتونى"." سوف يكون ذلك بالنسبة إليها بالتأكيد، وهى التى تاقت إليها طويلاً، والتى ستتصرف وقتاً طويلاً فى اختيارها برفقتى، والتى خصصت لها سلفاً مكانها لا فى خزائنها فحسب بل فى مخيلتها والتى ستطيل فى حب كل تفصيل فيها كيما يقر قرارها بين الكثير منها، سوف يكون ذلك أمراً يفوق ما هو عليه بالنسبة إلى امرأة مفرطة الثراء تقتنى من الفساطين أكثر مما تشتهى وتكاد لا تنظر إليها. على

(١) Doge الدوج: رئيس منتخب كان يشارك مع زملائه في قيادة الحكم في البندقية وجنوا.

أنى لاحظت، على الرغم من الابتسامة التى شكرتنى بها "ألبيرتين" وهى تقول لى: "هذا لطف زائد منك"، إلى أى حد بدت متعبة وحتى حزينة. بل كنت أبادر أحياناً، بانتظار أن تستكمل تلك التى كانت راغبة فيها، إلى استعارة بعضها، وأحياناً حتى مجرد أقمشة، وكنت ألبسها لـ "ألبيرتين"، كنت ألفها بها، وتتخطر فى غرفتى بجلال زوجة "دوج" وعارضة أزياء. لكن عبوديتى فى باريس إنما كانت رؤية هذه الفساطين تجعلها أشد ثقلاً علىّ إذ هى تذكرنى بالبندقية. كانت "ألبيرتين" بالتأكيد سجينة بما يجاوز سجنى كثيراً. ولقد كان أمراً غريباً كيف أن القدر الذى يحول الكائنات، كيف استطاع المرور عبر جدران سجنها وتغييرها فى جوهرها ذاته وأن يجعل من فتاة "بالبيك" سجينة مبرمة وسهلة القياد. أجل، لم تحل جدران السجن دون اجتياز هذا التأثير؛ بل ربما هى التى انتجته. فهى لم تعد "ألبيرتين" ذاتها، لأنها لم تكن، كحالها فى "بالبيك"، فى هروب لا ينقطع على دراجتها، ولا يمكن العثور عليها بسبب كثرة الشواطئ الصغيرة التى تمضى إليها لتنام عند صديقات لها وحيث كانت كذباتها من جانب آخر تجعل الوصول إليها أكثر صعوبة. فإنها لم تعد، وهى سجينة لدىّ مطواعة وحيدة، ما سبق أن كانت فى "بالبيك" على الشاطئ، حتى حين كان باستطاعتى العثور عليها، ذلك الكائن الهروب المحاذر المخاتل الذى كان وجوده يتطاول بالكثير من المواعيد التى كانت بارعة فى التستر عليها، والتى كانت تجعلها محببة لأنها تعذب الآخرين، إلى حد كنت تحس معه، خلف فتورها مع الآخرين وأجوبتها السخيفة، موعد البارحة وموعد الغد، ذلك الكائن المطوق فى نظرى بالازدراء والخداع. لقد كفت، لأن ريح البحر لم تعد تنفخ أثوابها ولأنى كنت على وجه الخصوص قد قصصت جناحيها، كفت عن كونها تمثال النصر المجنح، لقد أضحت عبدة متثاقلة وددت لو أتخلص منها.

حينئذ كنت، بغية تغيير مجرى أفكارى، كنت أسأل "ألبيرتين" أن تعزف لى شيئاً من الموسيقا بدلاً من أن أبدأ معها لعبة ورق أو لعبة "داما". فكنت أمكث فى سريرى وتمضى هى فتجلس فى ركن الغرفة أمام "البيانولا" بين دعامتى المكتبة. كانت تختار مقطوعات إما جديدة كلياً أو هى لم تعزفها بعد فى حضرتى سوى مرة أو اثنتين لأنها بدأت تعرفنى وتعلم أنى لا أحب صرف انتباهى إلا إلى ما كان بعد غامضاً علىّ، وأن يسعنى فى أثناء أعمال العزف المتتالية هذه أن أضم بعضها إلى بعضها الآخر، بفضل الضوء المتنامى، لكنه، وا أسفى، مشوه غريب، هذا الذى يطرحه عقلى عليها، خطوط البناء المجزأة المتقطعة، والبناء كان بادئ الأمر مغيباً تقريباً فى الضباب. كانت تعرف وتدرك فيما أعتقد الفرح الذى تقدمه فى المرات الأولى لفكرى عملية التشكيل هذه لسديم لا شكل له بعد. وفيما كانت تعزف لم يكن بوسعى أن أبصر من شعر "ألبيرتين" الكثيف سوى نفاخة من الشعر الأسود على شكل قلب ألصقت على طول الأذن مثل عقدة ابنة الملك لدى "فيلاسكيز"[1]. ومثلما كان حجم هذا الملاك الموسيقى مشكلاً من المشاوير المتعددة بين نقاط الماضى المختلفة التى كانت تشغلها ذكراه فى داخلى ومن المراكز المختلفة لتلك الذكرى، من الرؤية حتى الأحاسيس الأكثر جوانية فى كيانى والتى كانت تعيننى على الانحدار حتى صميم كيانها، كان للموسيقا التى تعزفها حجمها أيضاً تصنعه

(١) لوحة ابنة الملك للرسام Velasquez.

إمكانية الرؤية اللامتساوية لمختلف الجمل حسبما أفلحت فى كثير أو قليل فى أن أبعث فيها النور وفى أن أضم بعضها إلى بعض خطوط بناء كان بدا لى أول الأمر وكأنما كله تقريباً غارق فى الضباب. كانت "ألبيرتين" تعلم أنها تسرنى حين لا تضع نصب فكرى إلا أشياء لا تزال مبهمة وإلا تشكيل هذه السدم. كانت تحس أن عقلى، فى العزف الثالث أو الرابع، وبعدما يكون بلغ أجزاءه كلها ووضعها بالتالى على ذات المسافة، ولم يعد عليه من نشاط يبذله حيالها، قد نشرها وجمدها والعكس بالعكس على مستوى متساو. لكنها لم تكن تنتقل بعد إلى مقطوعة جديدة، ذلك لأنها كانت تعلم، ربما دون أن تتبين تماماً النشاط الذى يجرى فى داخلى، أنه من النادر جداً، فى الوقت الذى استطاع فيه نشاط عقلى أن يبدد غموض العمل الفنى، أن لا يكون فى أثناء مهمته المشؤومة قد وضع اليد من باب التعويض على هذه الفكرة المفيدة أو تلك. ويوم كانت "ألبيرتين" تقول: "هذه لفيفة سنعطيها لـ "فرانسواز" كى تعمل على أن تبدلها لنا بأخرى"، كانت الدنيا فى الغالب تتناقص دون شك مقطوعة موسيقية بالنسبة إلىّ ولكنها تزيدنى حقيقة بالمقابل.

كنت تبينت تماماً أنه من السخف أن أغار من الآنسة "فانتوى" وصديقتها بما أن "ألبيرتين" لم تكن تسعى البتة إلى لقائهما وهى استبعدت من تلقاء ذاتها من سائر مشروعات الاصطياف التى رسمناها "كومبريه"، وما أقربها من "مونجوفان"، إلى حد أن ما كنت أطلب فى الغالب أن تعزفه لى "ألبيرتين" إنما كان من موسيقا "فانتوى" ودون أن يعذبنى ذلك. مرة واحدة كانت موسيقا "فانتوى" هذه سبباً غير مباشر فى إثارة غيرتى. فإن "ألبيرتين" التى كانت تعلم أنه سبق لى أن سمعتها تعزف فى منزل السيدة "فيردوران" على يد "موريل" كلمتنى ذات مساء عنه معربة عن رغبة حارة فى المبادرة إلى سماعه والتعرف إليه. كان ذلك بالضبط بعد يومين من إطلاعى على رسالة "ليا" إلى "موريل" وكان السيد "دو شارلوس" وضع يده عليها عن غير قصد. وتساءلت إن لم تكن "ليا" كلمت "ألبيرتين" عنه. وعادت فخطرت لى بما يثير الاشمئزاز كلمات ""أيتها القذرة الشنيعة، أيتها الفاسقة المريعة". ولكن، لأن موسيقا "فانتوى" بالضبط ارتبطت هكذا بـ "ليا" برباط الألم - وليس بالآنسة "فانتوى" وصديقتها - فقد استطعت، حينما هدأ العذاب الذى سببته لى "ليا"، سماع هذه الموسيقا دون عذاب. لقد شفانى داء من احتمال الأدواء الأخرى. كان ثمة فى الموسيقا التى سمعتها فى منزل السيدة "فيردوران" جمل خفيت على الأبصار، أطياف مبهمة غير واضحة المعالم آنذاك، أضحت هندسات رائعة. وبعضها كانت تضحى صديقة، وكدت سابقاً لا أميزها وكانت فى أحسن الأحوال بدت قبيحة فى عينى وما كنت لأصدق فى يوم، كما هى حال أولئك الناس الثقال الظل فى البداية، أنها تماماً كما نكتشفها ما إن نعرفها معرفة جيدة. كان بين الحالتين تحول حقيقى. ثم إنى كنت من جانب آخر أماهى الآن بين جمل واضحة فى المرة الأولى، لكننى لم أكن تعرفتها آنذاك هناك، وبين جمل فى المؤلفات الأخرى، كهذه الجملة فى "التنويع الدينى" لآلة الأرغن التى خفيت علىّ فى منزل السيدة "فيردوران" فى السباعية مع أنها، هى القديسة التى انحدرت على درجات المعبد، كانت تختلط بجنيات الموسيقى المألوفة. ثم إن الجمل التى كانت بدت لى قليلة التطريب إلى حد بعيد ومبالغاً جداً فى إيقاعها الآلى والمرتبطة بفرح أجراس الظهيرة المتعثرة كانت الآن هى ما أفضلها أكثر ما أفضل إما لأنى تعودت

قبحها وإما لأنى اكتشفت جمالها. إن ردة الفعل هذه على الخيبة التى توليها الروائع بادئ الأمر إنما يمكن أن نعزوها إلى ضعف الانطباع الأولى أو إلى الجهد اللازم لاستخلاص الحقيقة. تلكما فرضيتان تبرزان فى سائر المسائل الهامة، مسائل حقيقة الفن والواقع وخلود النفس: وهو خيار لابد منه بينهما: وكان هذا الخيار فيما يخص موسيقا "فانتوى" يعود فيبرز فى كل لحظة بأشكال كثيرة. كانت تلك الموسيقا، مثلاً، تبدو لى شيئاً أكثر حقيقة من سائر الكتب المعروفة. كنت أفكر بين الحين والحين أن الأمر مرده أنه لما كان ما نحسه فى الحياة لا يكون إحساسنا به بصورة أفكار فإن ترجمته الأدبية، يعنى الفكرية، تبينه وتفسره وتحلله، لكنها لا تعيد تشكيله كالموسيقا التى تبدو فيها الأصوات وكأنها تتخذ انعطافة الكائن، كأنها ترسم هذا الطعم الداخلى القصى للأحاسيس الذى يشكل القسم الذى يولينا هذه النشوة الخاصة التى نعود فنلقاها بين آن وآخر والتى، حينما نقول: "يا للطقس الجميل! يا للشمس الجميلة!" لا نطلع عليها البتة من حولنا فإن الشمس ذاتها والطقس ذاته إنما يثيران فى نفسه رعشات مختلفة كل الاختلاف. فى موسيقا "فانتوى" كان من هذا القبيل رؤى يستحيل الإعراب عنها ويحظر تقريباً تأملها بما أننا حينما تبلغنا، آن يوافينا النوم، دغدغة سحرها الخيالى. ، فى هذه اللحظة ذاتها التى قد هجرنا فيها عقلنا تغتمض العينان وقبل أن يتسنى لنا أن نعرف لا ما يمتنع على القول فحسب بل ما لا يرى يأخذنا النوم. كان يبدو لى، يوم استسلم لهذه الفرضية التى يكون فيها الفن حقيقياً، أن الموسيقا يمكن أن ترسم لنا حتى أكثر من مجرد الاغتباط العصبى الناجم عن طقس جميل أو ليلة أفيون، فإنها إنما ترسم لنا نشوة أكثر حقيقية وأوفر خصباً، حسبما كنت أتوقع على الأقل. لكنما يستحيل أن لا يوافق نحت، أن لا توافق موسيقا توليك انفعالاً تحسه أكثر سمواً وأكثر حقيقية، واقعاً روحياً معيناً، أو هى الحياة لا معنى لها من بعد. وهكذا لم يكن شىء يشبه أكثر من جملة جميلة لـ "فانتوى" تلك المتعة الخاصة التى أحسستها أحياناً فى حياتى أمام أجراس "مارتنفيل" مثلاً أو بعض أشجار على طريق "بالبيك" أو ببساطة أكثر وأنا أحتسى، فى بداية هذا المؤلف، كوباً معيناً من الشاى. وكمثل كوب الشاى هذا، كان كم من أحاسيس الضياء والنغمات المشرقة وضجيج الألوان التى كان "فانتوى" يبعث بها من العالم الذى يؤلف فيه يمرر أمام مخيلتى شيئاً ربما وسعنى أن أشبهه بحرير جيرانيوم معطر، تمرره بإلحاح ولكنما بسرعة أكبر أن يسعها الإمساك به. إلا أنه بينما يمكن لهذا الإبهام فى الذكرى أن يتوضح، إن لم يعمق، بفضل الكشف عن ظروف توضح لماذا استطاع طعم معين أن يذكرك ببعض أحاسيس مشرقة فإن الأحاسيس المبهمة التى يقدمها "فانتوى"، إذ هى لا تنجم عن ذكرى بل عن انطباع (كالانطباع الذى خلفته أجراس "مارتنفيل")، كان لابد أن نعثر لا على تفسير مادى لعرف الجيرانيوم فى موسيقاه بل على المقابل العميق، العيد المجهول الملون (الذى كانت أعماله تبدو وكأنها أجزاؤه المفككة وشظاياه ذات الكسور القرمزية)، وهى الصيغة التى كان "يسمع" بها الكون ويسقطه خارج ذاته. تلك الصفة المجهولة لعالم فريد لم يستطع أى موسيقى آخر أن يكشفه لها فى يوم، ربما كان يقوم فى ذلك البرهان، فيما أقول لـ "ألبيرتين" البرهان الأكثر صدقاً على العبقرية، أكثر مما هو فى مضمون العمل نفسه. وتسألنى "ألبيرتين" قائلة: "حتى فى الأدب؟" - "حتى فى الأدب." كنت فيما أعيد التفكير فى رتابة أعمال

"فانتوى" أوضح لـ "ألبيرتين" أن الأدباء الكبار لم يضعوا قط سوى عمل واحد، أو هم بالأحرى عكسوا عبر أوساط مختلفة جمالاً واحداً يحملونه للعالم. كنت أقول لها: "لو لم يكن الوقت متأخراً يا صغيرتى لأريتك ذلك لدى كل الكتاب الذين تقرئين لهم فيما أنام، لأريتك ذات التماثل الذى نجده لدى "فانتوى". هذه الجمل النماذج التى بدأت تتعرفينها مثلى يا عزيزتى "ألبيرتين"، هى نفسها فى السوناتا والسباعية والأعمال الأخرى، ولعلها على سبيل المثال، إن شئت، عند "باربى دوريفيبى"، حقيقة مخبأة يكشفها أثر مادى: الحمرة الفيزيزلزجية فى المسحورة وفى "إيميه دو سبانس" و"لا كلوت واليد فى "الستارة القرمزية"" والعادات القديمة والأعراف السالفة والكلمات العتيقة والمهن القديمة الفريدة التى يقف وراءها "الماضى"، التاريخ الشفوى الذى يرويه الرعاة فى المرآة[1] والمدن النورماندية الكريمة المعطرة بعطر إنكلتره والجميلة كما هى قرية فى اسكتلنده، والقاذفون باللعنات التى لا حول للمرء إزاءها، والمرأة "فيللينى" والراعى، وذات الإحساس بالضيق أمام منظر طبيعى، سواء أكانت المرأة التى تبحث عن زوجها فى "العشيقة العجوز"، أو الزوج فى "المسحورة" يضرب فى الأرض البور والمسحورة ذاتها وهى خارجة من القداس. وهى كذلك من قبيل الجمل النماذج لدى "فانتوى" هندسة نحات الأحجار تلك التى فى روايات "توماس هاردى".

ذكرتنى جمل "فانتوى" بالجملة الصغيرة وقلت لـ "ألبيرتين" إنها كانت كأنما النشيد الوطنى لحب "سوان" و"أوديت" و"هما والدا "جيلبيرت" التى تعرفينها فيما أعتقد. لقد قلت لى إنها كانت قليلة اللياقة. أفلم تحاول أن تقيم علاقات معك؟ لقد حدثتنى عنك." - "أجل، لما كان ذووها يرسلون من ينقلها فى عربة من الدرس حينما يكون الطقس رديئاً جداً ففى ظنى أنها أعادتنى ذات مرة وقبلتنى"، تقول بعد لحظة ضاحكة وكأنما تلك مسارة مسلية. "وسألتنى فجأة إن كنت أحب النساء." (ولكن إن هى لم يتبادر لها سوى الظن فحسب بأنها تتذكر أن "جيلبيرت" قد أعادتها معها كيف كان بوسعها أن تقول بهذا القدر من الدقة إن "جيلبيرت" طرحت عليها هذا السؤال الغريب؟) "بل لست أدرى أية فكرة غريبة أخذتنى فى أن أضللها فأجبتها أن نعم." (لكأنما خشيت "ألبيرتين" أن تكون "جيلبيرت" روت لى عن ذلك وهى لا تريد أن ألاحظ أنها كانت تكذبنى القول.) "لكننا لم نفعل شيئاً البتة." (والغريب، إن هما تبادلتا هذه المسارات، أن لا تكونا فعلتا شيئاً ولاسيما أنهما بادرتا قبل هذا إلى عناق فى العربة، على حد قول "ألبيرتين".) "لقد أعادتنى هكذا إلى المنزل أربع أو خمس مرات، وربما أكثر قليلاً، ولا شىء غير ذلك." وصادفت مشقة كبيرة فى الامتناع عن طرح أى سؤال،لكنى تمالكت نفسى كى يبدو أنى لا أعير أية أهمية لكل هذا الأمر، وعدت إلى نحاتى الحجارة لدى "توماس هاردى".

"تتذكرين إلى حدّ ما في "جود الغامض"، وهل رأيت في "المحبوبة"، كتل الحجارة التي يستخرجها الأب من الجزيرة وتُقبل في المراكب لتتكوم في محترف الابن حيث تضحي تماثيل: وفي "العينين

(١) كل هذه الأمور واردة فى كتاب باربيه دورفيبى، (Barbez d'Ourevilly) الذى عنوانه المسحورة (L'Ensorcelée).

(٢) ثلاث روايات لـ "توماس هاردى" (Thomas Hardy) هى: "جود الغامض" (Jude L'obscur)، و"المحبوبة" (La bien-aimú) و"العينان الزرقاوان" (Les yeus blus).

الزرقـاوين"[٢] توازي القبور، وكذلك خطّ المركب الموازي والعربتين المتلاصقتين حيث نجد العاشقين والميتة، والتوازي بين "المحبوبة" حيث يحبّ الرجل ثلاث نساء و "العينين الزرقاوين" حيث تحبّ المرأة ثلاثة رجال، الخ... وسائر هذه الروايات التي يمكن نضدها الواحدة فوق الأخرى كالبيوت المراكمة عمودياً على أرض الجزيرة الحجرة؟ لست أستطيع أن أكلمّك هكذا على مدى دقيقة عن أكثرهم خطراً، لكنكِ قد تجدين لدى "ستاندال" شعوراً ما بالارتفاع يرتبط بالحياة الروحيّة، فالمكان العالي الذي سُجن فيه "جوليان سوريل"[١] والبرج الذي اعتقل في أعلاه "فابريس"، وقبّة الجرس التي ينصرف فيها الأب "بلانيس" إلى علم التنجيم والتي يتسنّى منها لـ"فابريس" إطلالة ما أجملها. قلت لي إنّه سبق أن رأيت بعض لوحات لـ"فيرمير"، وتلاحظين تماماً أنّها قِطَع من عالم واحد، أنّها دوماً، وأيّاً كان النبوغ الذي تُبدع فيه ثانيةً، الطاولة نفسها والسجادة نفسها والمرأة نفسها والجمال الجديد الفريد نفسه، وهو لغز في تلك الحقبة التي لا شيء فيها يشبهه أو يفسّره إن لم نحاول إقامة صلة القربى فيه بالموضوعات بل استخلاص الانطباع الخاصّ الذي يورثه اللون. وإنّه، ذلك الجمال الجديد، ليلبث متماثلاً في سائر أعمال "دوستويفسكي": أفليست المرأة لدى "دوستويفسكي" (وهي بمثل تفرّد المرأة لدى "رامبرانت")[٢]، بوجهها الغامض الذي ينقلب جماله الجذّاب فجأة، وكأنّما هي مثّلت مسرحيّة الطيبة، وقاحة فظيعة (مع ما يبدو في الأساس أنّها طيبّة بالأحرى)، أليست دوماً واحدة لا تتغيرّ، سواء أكانت "نستازيا فيليبوفنا" إذ تحررّ رسائل حبّ لـ"أغلاييه" وتقرّ لها أنّها تبغضها، أم "غروشنكا" في زيارة مماثلة كلياً لهذه- وكذلك لتلك التي تشتم فيها "نستازيا فيليبوفنا. والدي "غانيه")، وهي لطيفة لدى "كاترينا إيفا نوفنا" بقدر ما حسبتها هذه مريعة، ثم هي تكشف فجأة عن خبثها فتشتم "كاترينا إيفانوفنا" (مع أن "غروشنكا" في جوهرها طيبّة)؟ "غروشنكا" و"نستازيا"، وهما صورتان بمثل تفرّد وغموض لا غانيات "كارباتشيو" فحسب، بل "بتشابع"[٣] التي لـ"رامبرانت" كذلك. لاحظي أنّه عرف بالتأكيد غير هذا الوجه الزاهي المزدوج بانفراجات كبريائه المفاجئة التي تظهر المرأة على غيرما هي ("لست على هذه الشاكلة"، يقول "مويشكين" أن يقول ذلك لـ"غروشنكا" في زيارته لـ"كاترينا إيفانوفنا"). لكنّه في المقابل حينما يريد أن يحظى بـ"أفكار للوحات" فإنّها سخيفة على الدوام وربمّا ولّدت في أحسن الأحوال لوحات يودّ "مونكاكسي" أن يُمثَلَّ فيها محكوم بالاعدام في اللحظة التي...الخ، والقديسة العذراء في اللحظة التى...الخ، ولكن هيّا نعد إلى الجمال الجديد الذي جاء به "دوستويوفسكى" للعالم، فإن ثمة، كما هو الأمر لدى "فيرمير"، ابتداعاً لروح معين، للون معيّن، للأقمشة والأمكنة، وليس ثمّة إبداع لأشخاص فحسب، بل لمساكن أيضاً لدى "دوستويوفسكى"، وليس بيت الاغتيال في "الجريمة والعقاب"، ليس مع بوآبه بديعاً كما هي رائعة بيت الاغتيال عند "دوستويوفسكي"، ذاك البيت العاتم، وما أطوله وأشدّ ارتفاعه وأوسعه، بيت "روغوجين" الذي يَقْتُل فيه "نستازيا فيليبوفنا". هذا الجمال

---

(١) بطل رواية الأحمر والأسود (Le Rouge et Le Noire)، لـ "Stendhal".

(٢) بطل رواية "محبس بارما" (La Charteruse de Parme) للكاتب نفسه.

(٣) بتشابع هى زوجة أوريا الحثي وقد فتن النبى داود بجمالها فأرسل بأوريا إلى التهلكة وتزوجها من بعده.

الجديد المخيف لبيت من البيوت، وهذا الجمال الجديد المختلط في وجه امرأة، ذلك ما جاء به "دوستويوفسكي" للعالم من أمر فريد، والمقاربات التي يمكن أن يقوم به نقّاد أدبيّون وبين "غوغول" أو بينه وبين "بوك دوكوك" لا أهميّة لها بما أنّها تقع خارج هذا الجمال الخفيّ. وإن قلت لك على أيّ حال إنّه المشهد نفسه من رواية إلى أخرى فإنما تستعاد داخل الرواية نفسها المشاهد ذاتها والأشخاص عينهم إن كانت الرواية طويلة، وباستطاعتي أن أريك ذلك بسهولة كبيرة في "الحرب والسلام"، وفي مشهد معين يجري في عربة..."- "لم أشأ أن أقاطعك، ولكن بما أني أراك تدع "دوستويوفسكي" جانباً فاني أخشى أن أنسى. فما الذي قصدت قوله يا عزيزي حينما قلت ذلك اليوم: "ذلك يشبه الجانب الدوستويوفسكي" لدى السيّدة "دوسيفينييه". ها إني أقرّ بأني لم أفهم، فإن ذلك يبدو لي مختلفاً ما أكثر اختلافه."- "إليّ أيّتها البنيّة كي أقبلّك لأشكرك لما تتذكّرين تماماً ما أقوله لك، وتعودين بعدها إلى البيانولا. وإني أقرّ بأن ما قلته بهذا الصدد كان غبياً إلى حد ما. لكنيّ قلته لسببين. السبب الأوّل خاص. فقد اتفق أن ترينا السيدة "دوسيفينييه"، ومثلها "ايلستير" ومثلها "دوستويوفسكي"، بدلاً من تقديم الأمور وفق تسلسلها المنطقي، يعني البدء بالسبب، ترينا بادئ الأمر النتيجة، الوهم الذي يدهشنا. هكذا يقدّم "دوستويوفسكي" شخصياته. فإن أعمالهم تبدو لنا خدّاعة مثل تأثيرات "ايلستير" التي يبدو البحر فيها كأنّه في السماء. وندهش كلّ الدهشة بعد ذلك أن نعلم أن هذا الرجل الماكر هو ممتاز في الأساس أو العكس."- "أجل، ولكن هات مثلاً عن السيدّة "دوسيفينييه". وأجبتها ضاحكاً: "أعترف أن الأمر مبالغ في كلفته وهيّن في منطقه، لكنّما بإمكاني في النهاية أن ألقى أمثلة. فإليك وصفاً."

-"ولكن هل اغتال "دوستويوفسكي" أحدهم في يوم؟ إن الروايات التي أعرفها له يمكن أن تدعى جميعها: قصة جريمة. إنّها هوس لديه، وليس طبيعياً أن يتكلمّ دوماً عن ذلك."- "لا أعتقد يا صغيرتي "ألبيرتين"، فقلّما أعرف حياته. والأكيد أنّه، شأنه في ذلك شأن الجميع، عرف الإثم بهذا الشكل أو ذاك، والأرجح بالشكل الذي تحرمه القوانين. ولابدّ أنّه كان بهذا المعنى مجرماً بعض الشيء على غرار أبطاله الذين ليسوا مجرمين تماماً والذين نصدر عليهم أحكاماً بظروف مخفّفة. بل ربّما لا داعي لأن يكون مجرماً. لست روائياً، ومن الممكن أن تغري المبدعين بعض أشكال حياتية لم يألفوها شخصياً. إن رافقتك إلى "فيرساي" كما سبق أن اتّفقنا فسوف أريك رسم الرجل الفاضل بامتياز وأفضل الأزواج "شودرلوس دو لاكلو" الذي كتب أحد أفظع الكتب فسقاً، وقبالته تماماً رسم السيدّة "دوجانليس" التي كتبت قصصاً أخلاقية ولم تكتفِ بخداع دوقة "أورليان" بل أذاقتها العذاب بصرف أولادها عنها. على أني أقرّ مع ذلك أن هذا الانشغال بالقتل لدى "دوستويوفسكي" يتّسم بشيء من الغرابة ويجعله غريباً جداً عنيّ. وإني يذهلني أن أسمع "بودلير" يقول:

إن كان الاغتصاب والسمّ والخنجر والحريق...

فذلك لأنّ نفوسنا لا تملك للأسف الجرأة الكافية.

لكنّما يمكنني الاعتقاد على الأقلّ بأن "بودلير" ليس صادقاً، فيما "دوستويوفسكي"... كلّ ذلك

يبدو لي أبعد ما يكون عنيّ ما لم يكن في داخلي أجزاء أجهلها، فإن المرء لا يدرك نفسه إلاّ على مراحل متعاقبة. وإني واجد لدى "دوستويوفسكي" أعماقاً سحيقة، لكنما في بضع نقاط متفرقة من النفس البشريّة. بيد أنّه مبدع كبير فالعالم الذي يرسمه يبدو حقاً، بادىء الأمر، وكأنه خُلق لأجله. فهؤلاء المهرّجون جميعاً الذين يعودون دون انقطاع، أمثال "ليبيديف" و"كرامازوف" و"ايفولغين" و"سيغريف" جميعاً، هذا الموكب الذي لا يصدّق، وإنّما تلك إنسانيّة أكثر غرابة من تلك التي تعمر لوحة "الدوريّة الليليّة" لِ"رامبرانت". وربّما لم تكن غريبة مع ذلك إلاّ بالطريقة ذاتها، بالإضاءة والملابس، وهي في الأساس مألوفة. وهي في جميع الأحوال تفيض حقائق، هي عميقة وفريدة وملك "دوستويوفسكي" وحده. ويكاد يبدو ذلك، أولئك المهرّجون، وظيفة لم تعد موجودة، كما هو شأن بعض شخوص الملهاة القديمة، ولكن كم هم يكشفون عن جوانب حقيقيّة من النفس الانسانيّة! ما أضيق به ذراعاً هي الأبهة التي يتكلمون بها ويكتبون بها عن "دوستويوفسكي". هل لاحظت الدور الذي يقوم به الاعتزاز بالنفس والاستكبار لدى شخوصه؟ لكأنّما الحبّ وأشدّ البغض، والطيبة والغدر، والخجل والوقاحة ليست جميعها في نظره سوى حالتين لطبيعة واحدة، الاعتزاز بالنفس والكبرياء اللذان يمنعان "أغلاييه" و"نستازيا" والنقيب الذي يشّد "ميتيا" لحيته، "كراسّوتكين" العدوّ الصديق لِ"أليوشا" أن يظهروا "كما هم" في الواقع. بيد أن ثمّة الكثير من الأمجاد الأخرى. إني قليل العهد بكتبه. ولكن أليست جريمة الوالد "كرامازوف" موضوعاً زخرفياً وبسيطاً جديراً بالفنّ الأكثر قدماً، أليست إفريزاً يتوقفّ وينطلق مجدداً وعليه يتجلىّ ويتعاقب الثأر والتكفير عن الذنوب، جريمة الوالد "كرامازوف" الذي حبل المجنونة المسكينة، كما التحرك الغامض الحيواني الذي لا تفسير له والذي تبادر به الأم، وهي دون علم منها أداة ثارات القدر وتخضع بالغموض نفسه لغريزة الأمومة لديها، وربمّا لمزيج من الحقد والامتنان الجسدي تجاه المغتصب، إلى وضع طفلها في منزل "الوالد "كرامازوف"؟ وإنّما هذا يؤلف الحلقة الأولى الغامضة العظيمة السامية كمثل خلق المرأة في منحوتات "أورفييتو"(١). وفي نسخة مطابقة بالمقابل، الحلقة الثانية، بعد أكثر من عشرين عاماً، مقتل الوالد "كرامازوف"، والخزي الذي يلحق بأسرة "كرامازوف" من ابن المجنونة "سميردياكوف" تعقبه بعد قليل الفعلة نفسها زخرفيّة بمقدار الغموض نفسه ولا تفسير لها، ذات جمال يماثل في غموضه وفطريتّه الولادة في حديقة الوالد "كرامازوف": "سميردياكوف" يطلّ بعد انجاز جريمته. أمّا "دوستوييفسكي" فما كنت أعرض عنه بالقدر الذي تظنينه وأنا أتحدّث عن "تولستوي" الذي قلده كثيراً. إنّ لدى "دوستوييفسكي" الكثير، مركزّاً وبعد منكمشاً متأففاً، الكثير مما سيزدهر لدى "تولستوي". إنّ لدى "دوستوييفسكي" العبوس السابق لأوانه الذي للفنّانين البدائيّين والذي سيوضحه التلاميذ.- "ياما يزعجني، أيهّا العزيز، أن تكون كسلان إلى هذا الحدّ. فانظر كيف ترى الأدب رؤية أكثر تشويقاً مما كانوا يدرّسوننا إيّاه: والوظائف التي كانوا يحملوننا على تسطيرها حول "إستير": تتذكّر يا سيّد"، تقول لي ضاحكة، أقلّ منها لتسخر من معلّميها ومن نفسها ممّا لمتعة أن تلقى في ذاكرتها، في

---

(١) منحوتات كنيسة "أورڤييتو" من القرنين الثالث عشر والرابع عشر تمثل آدم وحواء.

ذاكرتنا المشتركة، ذكرى على شيء من القدم مذ ذاك.

ولكن فيما كانت تكلّمني وكنت أفكرّ في "فانتوي"، كانت الفرضيّة الأخرى، الفرضيّة الماديّة، فرضيّة العدم، هي التي تطلع في خاطري، وكنت أعود فأشرع أشكّ وأقول في نفسي إنّه ربمّا أمكن في النهاية أن ليس من شيء، إن بدت لي جمل "فانتوي" وكأنّها التعبير عن بعض الحالات النفسيّة- وهي مماثلة للحالة التي أحسستها وأنا أذوق الكعكة المغموسة في كوب الشاي-، ليس من شيء يؤكّد لي أن إبهام مثل هذه الحالات إنّما هو دلالة على عمقها، بل على أننا لم نستطع بعد فحسب أن نحللّها وأنّه ربّما لم يكن ثمّة فيها ما كان أكثر حقيقة ممّا هو في غيرها. لكنّما هذه السعادة، وحسّ اليقين هذا داخل السعادة فيما كنت أحتسي كوب الشاي وأتنشق في "الشانزيليزيه" رائحة حرج عتيق، لم تكن وهماً. ومهما يكن من أمر، هكذا كان يقول لي روح الشكّ، فإن سحر بعض جمل "فانتوي"، حتىّ إن كانت تلك الأحوال في الحياة أكثر عمقاً من أخرى غيرها وكانت تمتنع على الحلّ بسبب ذلك عينه لأنّها تطرح الكثير الكثير من القوى التي لم نتبيّنها بعد، إن سحر بعض جمل "فانتوي" يذكّر بها لأنه بدوره يمتنع على الحلّ، لكنّ ذلك لايقيم الدليل على أنّه يتسم بالعمق نفسه. وإن جمال جملة من الموسيقا الخالصة إنّما يبدو بيسر أنّه صورة، أو هو على الأقلّ مماثل لا نطباع غير فكريّ اتفق لنا، ولكن لمجرّد أنّه غير فكريّ. فلم تظنّ، والحالة هذه، أن هذه الجمل الغامضة التي تلازم بعض "رباعيّات" "فانتوي"، وهذه الحفلة الموسيقيّة، ذات عمق متميّز؟ وما كان على أية حال ما تعزفه لي "ألبيرتين" من موسيقاه فحسب، فقد ألفت البيانولا بالنسبة إلينا بين حين وآخر كأنمّا فانوساً سحريّاً علمياً (تاريخيّاً وجغرافياً)، وعلى جدران غرفة باريس هذه المزوّدة بمخترعات أكثر حداثة من غرفة "كومبريه" كنت أرى، حسبما تعزف "ألبيرتين" لـ"رامو" أولـ"بورودين"، تارة اندياح سجّادة جدار من القرن الثامن عشر مفروشة برموز الحبّ على خلفيّة من الورود، وطوراً السهوب الشرقية التي تتخمّد الأصوات فيها في ترامي المسافات وصمت الثلوج. وكانت تلك الزخارف الهروبة على أي حال الوحيدة في غرفتي فإنّه، إن كنت منيّت النفس في الوقت الذي ورثت فيه عن عمتيّ "ليوني" بأن تتوافر لي مجموعات على غرار "سوان" وأن أبتاع لوحات وتماثيل، كان كلّ مالي يذهب في اقتناء جياد وسيّارة وثياب لـ"ألبيرتين". ولكن أما كانت غرفتي تحوي عملاً فنياً أثمن من هذه كلّها؟ إنّها "ألبيرتين" ذاتها. كنت أنظر إليها، وكان من باب الغرابة في نظري أن أفكر أنّها هي، هي التي خلت مدّة ما أطولها أنّه يستحيل حتّى التعرّف بها والتي كانت اليوم تجلس، حيواناً برياً مدجّناً وشجيرة ورد وفّرتُ لها الدعامة والمحيط والتعريشة لحياتها، تجلس كلّ يوم في بيتها وبالقرب منيّ وأمام البيانولا وتستند إلى مكتبتي. وكتفاها اللتان سبق أن رأيتهما مخفوضتين ماكرتين حينما كانت تعود بعصىّ الغولف كانتا تستندان إلى مكتبي. وساقاها الجميلتان، اللتان تصورت بحقّ أنّهما حركتا على مدى كامل يفاعتها دوّاستي درّاجة، كانتا تتواليان صعوداً ونزولاً على دوّاستي البيانولا حيث كانت "ألبيرتين"، وقد أضحت على أناقة تزيد من إحساسي أنّها ملك يدي لأنّها إنما كانت تأتيها منّي، تضع حذاءها الذي من قماش ذهبيّ. وأصابعها، وهي ألفت المقود بالأمس، كانت تحطّ الآن على المضارب مثل أصابع القدّيسة "سيسيليا". وجيدها، واستدارته، إذ أبصرها من سريري، ملآنة ضخمة.

كان من تلك المسافة وفي ضوء المصباح يبدو أكثر تورّداً، وهو مع ذلك أقلّ تورّداً من وجهها المحنيّ جانبياً الذي كانت نظراتي الآتية من أعماق ذاتي، مثقلة بالذكريات لا هبة الشوق، تضيف إليه ألقاً ساطعاً وزخماً حياتياً عظيماً إلى حدّ يبدو معه رونقه ينطلق ويدور بذات القوة التي تقرب أن تكون سحريةً والتي بدا منها في اليوم الذي كانت فيه نظراتي في فندق "بالبيك" مشوشة جرّاء فرط رغبتي في تقبيلها: كنت أمدّ كلّ سطح منه خلف حدود ما يمكن أن أبصر منه وتحت السطح الذى يحجبه عنّي ويوليني إحساساً أفضل بخطوط هذه السطوح المتراكبة- من جفون تطبق العينين نصف إطباقة وشعر يحجب أعلى الوجنتين: والعينان، مثلما، في فلز عين الهر الذي لا يزال يحتضنه، الصفيحتان المصقولتان بعد وحدهما، كانت العينان، وقد أضحتا أشدّ التماعاً من المعدن فيما تلبثان أكثر مقاومة من النور، تبرزان في وسط المادّة العمياء التي تطلّ عليهما كأنّما جناحين من حرير بنفسجي لفراشة وضعت تحت الزجاج؛ والشعر الأسود الجعد، إذ يكشف عن مجموعات أخرى حسبما كانت تستدير صوبي لتسألني عمّا ينبغي أن تعزفه لي، فتارة جناح رائع دقيق الرأس واسع القاعدة أسود مريش مثلثي، وطوراً يجمع تضاريس خصلة في سلسلة غزيرة منوّعة ملأى بالقمم والخطوط الفاصلة والمهاوي، بعطفاته الشديدة الثراء الوافرة العدد التي تبدو كأنها تتجاوز التنوّع الذي تحققّه الطبيعة عادة وتستجيب بالأحرى لرغبة نحّات يراكم المصاعب كي يرفع من شأن الرشاقة والاندفاع والتمازج والحيويّة في عمله المنفّذ، كان يبُرز أكثر فأكثر الانحناءة الزاخرة بالحياة وكأنما دوران الوجه الأملس المورّد فيما يوقعه ليغطّيه بالطلاء الكامد لخشب مدهون. كانت البيانولا التي تحجبها إلى النصف على غرار قفص أرغن خشبي. والمكتبة وكامل زاوية الغرفة هذه، كانت كلها تبدو، بصورة تضادّ هذا البروز الكبير وبالتناغم الذي يجمعها وإيّاها، هي التي كيّفت وقفتها مع شكلها ووجود استعمالها، كانت تبدو وكأنّها اخْتزِلَت فما هي من بعد إلا المعبد المضاء، وإلا مهد هذا الملاك الموسيقي، هذا الأثر الفنّي الذي سينفصل عمّا قليل، بفعل عمليّة سحريّة حلوة، عن مشكاته ويقدّم لقبلاتي مادتّه الثمينة المورّدة. ولكن لا، فـ"ألبيرتين" ما كانت البتّة في نظري أثراً فنياً. لقد كنت أعلم أيّ شيء هي نظرة الإعجاب إلى امرأة بطريقة فنيّة- إذ سبق لي أن عرفت "سوان". كنت على أية حال عاجزاً عن أفعل ذلك من تلقاء نفسي أيّة كانت المرأة المقصودة، إذ لا أملك أيّ نوع من روح الملاحظة الخارجيّة، ولا أعرف البتّة أي شيء هو ما كنت أراه ويأخذني الذهول شخصياً حينما كان "سوان" يضيف من أجلي بصورة لاحقة وقاراً فنياً إلى امرأة بدت لي غير ذات بال- إذ يشبّهها من أجلي، مثلما يروقه أن يفعل في حضرتها هي بظرف وأناقة، بأحد رسوم "لويني" ويعثر في ما ترتدي على فسطان أو مجوهرات إحدى لوحات "جورجونه". وما كان لديّ شيء من ذاك، حتّى إنّي، والحقّ يقال، حينما أخذت أنظر إلى "ألبيرتين" وكأنّما إلى ملاك موسيقيّ لوّحه الزمن بصورة رائعة وأغبط نفسي على امتلاكها ما كان يطول عهدي بها حتّى تضحي غير ذات شأن في نظري ويتملكني الضجر بعد قليل في صبحتها، لكنّ هذه الفترات لم تكن تدوم طويلاً. فإنّك لا تحبّ إلاّ ما تلاحق فيه شيئاً يمتنع عليك نواله، لست تحبّ إلاّ ما لا تملكه وسرعان ما كنت أعود فأتبيّنّ أنيّ لا أملك "ألبيرتين". كنت أبصر في عينيها عبور الأمل تارة وطوراً التذكّر وربّما الأسف على مسرات ما كنت أكشف أمرها وكانت تفضّل في هذه الحال

التخلّي عنها على أن تفصح لي عنها وما كنت، وأنا لا أدرك منها سوى ذلك البريق في عينيها، ما كنت أتبيّنها أكثر ممّا يفعل المشاهد الذي لم يفسحوا له في الدخول إلى القاعة وهو لا يستطيع، وقد ألصق وجهه بزجاج الباب، أن يشاهد شيئاً ممّا يجري على المسرح. (لست أدري إن كانت تلك حالها، لكنمّا هذه المثابرة في الكذب التي يتصف بها سائر الذين يخدعوننا إنما هي أمر غريب غرابة الدليل يقدّمه أكثرهم كفراً على اعتقادهم بالخير. فعبثاً تراك تقول لهم إن كذبهم يشق عليك أكثر من الإقرار وعبثاً يتبيّنون هذا الأمر فإنّهم يوالون الكذب في اللحظة التالية ليلبثوا مطابقين لما قالوا لنا إنّهم عليه، أو لما قالوا لنا إنّنا عليه في نظرهم. وهكذا فإن ملحداً متشبّثاً بالحياة يُقبل على الموت كي لا يكذّب الفكرة التي يحملها الناس عن بسالته.) وفي أثناء تلك الساعات كنت أبصر أحياناً، خفّاقاً من حولها، في نظراتها، في مطّ شفتيها، في ابتسامتها وهج هذه المناظر الداخلية التي كان تأملها يجعلها في تلك العشيات مختلفة وبعيدة عني أنا الذي كان محروماً منها. "بم تفكرّين يا عزيزتي؟"-"بلا شيء إطلاقاً." كانت أحياناً، للإجابة عمّا ألومها عليه أنّها لا تقول لي شيئاً، كانت تارة تقول لي أشياء لا تجهل أنّي أعرفها بقدر ما يعرفها الجميع (كمثل رجال الدولة الذين قد لا ينقلون إليك أقلّ الأخبار لكنهّم يحدّثونك في المقابل عن الخبر الذي وسعك أن تقرأه في صحف العشيّة)، وطوراً تروي لي، بدون أيّ إيضاح وبنوع من المسارّات الكاذبة، نزهات على الدّراجات كانت تقوم بها في "بالبيك" في العام السابق لتعرّفها بي. وكما لو صحّ تخميني بالأمس إذا استنتج منها[1] أنّها لابد كانت فتاة مطلقة الحريّة تحيي حفلات طويلة جداً فإن تذكرها تلك النزهات كان يزلق بين شفتي "ألبيرتين" تلك الابتسامة الغامضة نفسها التي سبق أن فتنتني في الأيّام الأولى على سدّ "بالبيك". كانت تكلّمني كذلك عن تلك النزهات التى قامت بها برفقة صديقات لها فى الريف الهولندى، وعن رجعاتها فى المساء إلى امستردام فى ساعات متأخرة حينما كان هناك جمهور كثيف مرح يؤلفه أناس تعرفهم جميعاً تقريباً يملأ الشوارع وضفاف الأقنية التى كنت أظننى أبصر فى عينى "ألبيرتين" المتلألئتين، وكأنما فى مرايا مترجرجة لسيارة سريعة، انعكاس أضوائها الهاربة التى لا تحصى. ما أحرى أن يطلق على الفضول الجمالي المزعوم اسم اللامبالاة فى مقابل الفضول الأليم الذى لا يعرف الكلل والذى كان يداخلنى إزاء الأمكنة التى سبق أن عاشت فيها "ألبيرتين" وما أمكن أن تفعله فى هذه العشية أو تلك، والابتسامات والنظرات التى أطلقتها والكلمات التى نطقت بها والقبلات التى غنمتها! لا، ما كانت الغيرة التى داخلتنى ذات يوم إزاء "سان لو"، لو أنها دامت، ما كانت لتولينى فى يوم هذا القلق الهائل. فقد كان هذا الحب بين النساء أمراً مجهولاً تماماً وليس ثمة ما يمكن المرء من أن يتصور، تصور اليقين والصواب، متعه ونوعيته. فكم من الناس، كم من الأمكنة (حتى تلك التى ما كانت تعنيها مباشرة، أمكنة لهو غامضة كان بمقدورها أن تتذوقه فيها، الأمكنة التى يكثر فيها الناس وتقع فيها الملامسات) أدخلت "ألبيرتين" - على غرار امرأة تدفع بحاشيتها، بجماعة كاملة، إلى التفتيش أمامها، وتدخلها المسرح - من عتبة خيالى أو ذكرياتى حيث لم أكن

---

(١) :من ابتسامتها.

أكثرث بهم - داخل فؤادى! والآن كانت معرفتى بهم باطنية مباشرة تشنجية مؤلمة. فإنما الحب المكان والزمان وقد أدخلا نطاق إحساس القلب.

ولعلنى مع ذلك، لو كنت على إخلاص تام، ما كنت تألمت جراء خيانات كنت عجزت عن تصورها. لكن ما كان يعذبنى تخيله لدى "ألبيرتين" إنما كان توقى الدائم إلى حيازة إعجاب نساء جديدات والتخطيط لمغامرات جديدة؛ كان أن أفترض لها تلك النظرة التى لم أستطع ذاك اليوم، حتى وأنا بجانبها، أن أحجب النفس عن إلقائها على الفتيات الدراجات الجالسات إلى طاولات غابة بولونيا. ومثلما لا معرفة إلا وتأتى من الذات، يمكن القول تقريباً أن لا غيرة إلا آتية من الذات. إن الملاحظة قليلة الأهمية، وليس يستطيع المرء استخلاص المعرفة والألم إلا من المتعة التى يحسها بذاته.

كنت أحس أحياناً فى عينى "ألبيرتين"، فى التهاب لون وجهها المفاجئ، كأنما بارق دفء يمر خلسة فى مناطق أكثر امتناعاً علىّ من بلوغ السماء، وحيث كانت تخطر ذكريات مجهولة لدىّ لـ "ألبيرتين". حينئذ كان ذاك الجمال الذى ألفيته منذ قليل لديها وأنا أفكر بالسنوات المتعاقبة التى عرفت فيها "ألبيرتين" إما على شاطئ "بالبيك" وإما فى باريس، كان ذاك الجمال، وقوامه أن صديقتى كانت تنمو على صعد كثيرة وتحوى الكثير من الأيام الغابرة، يتخذ فى نظرى طابعاً مؤلماً. حينئذ كنت أحس خلف هذا المحيا المتورد المساحة الشاسعة للمساءات التى لم أكن عرفت فيها "ألبيرتين" تحتجب كأنما الهاوية. كان بإمكانى أن أجلس "ألبيرتين" على ركبتىّ وآخذ رأسها بين يدىّ، كان بإمكانى مداعبتها وأن أمرر يدىّ طويلاً عليها، لكننى كنت أحس، كما لعلنى كنت حركت حجراً يحوى ملوحة المحيطات الضاربة فى القدم أو شعاعاً ينبعث من نجمة، أحس أنى ألمس فحسب الغلاف المختوم لكائن يبلغ فى داخله تخوم اللامتناهى. كم كنت أتألم من هذه الحال التى دفعنا إليها سهو الطبيعة التى لم تفكر، وهى تؤسس لتجزئة الأجساد، أن تجعل تداخل النفوس ممكناً! وأخذت أتبين أن "ألبيرتين" لم تكن حتى فيما يخصنى (فلئن كان جسدها خاضعاً لسلطان جسدى فقد كان فكرها فى منجى من قبضة فكرى)، لم تكن الأسيرة الرائعة التى ظننتنى أثرى بها منزلى فيما أخفى فيه وجودها حتى عن أعين الذين يجيئون للقائى ولا يشكون أنها فى الغرفة المجاورة فى آخر الممر، إخفاء يضاهى فى إحكامه إخفاء ذاك الشخص الذى كان سائر الناس يجهلون أنه يحتجز أميرة الصين فى قارورة: لقد كانت بالأحرى، وهى تدعونى بصورة ملحة قاسية لا خلاص منها إلى البحث عن الماضى، نوعاً من الهة عظيمة للزمان. ولئن انبغى أن أضيع فى سبيلها سنوات، إلى ثروتى، وشرط أن يسعنى أن أقول فى نفسى، وليس ذلك للأسف أكيداً، أنها هى لم تخسر فى ذلك، فليس ثمة ما آسف له. لعل الوحدة كانت لا شك أفضل، وهى أكثر خصباً وأقل ألماً. لكن حياة هاوى المجموعات التى كان ينصحنى بها "سوان" ويلومنى السيد "دو شارلوس" على جهلى بها حينما كان يقول لى بمزيج من الظرف والوقاحة والذوق: "ما أقبح مسكنك!"، أية تماثيل وأية لوحات طاردتها طويلاً وامتلكتها أخيراً، بل تأملتها بتجرد فى أحسن الأحوال. أى منها كان أفضى بى، كما هو الجرح الصغير الذى كان يندمل بسرعة مقبولة ولكن الرعونة اللاواعية التى تبديها "ألبيرتين" أو اللامبالاة أو أفكارى الخاصة لا تلبث أن تعيد فتحه، إلى

ذاك المخرج الذى هو خارج الذات، إلى درب التواصل الخاص هذا لكنما هو يفضى إلى الطريق الواسع الذى يمر فيه ما لا نعرفه إلا منذ اليوم الذى أخذنا بالتألم منه، ونعنى حياة الآخرين؟

كان ضياء القمر أحياناً صافياً إلى حد أنى كنت أمضى بعد ما يقارب الساعة على إخلاد "ألبيرتين" للنوم، حتى سريرها لأقول لها أن تنظر من النافذة. وإنى على يقين أنى كنت أدخل غرفتها لهذا الغرض وليس للتحقق من أنها كانت هناك. فأى احتمال هناك أن تستطيع الهرب منها أو تتمنى ذلك؟ ولعله انبغى لذلك تواطؤ مستبعد مع "فرانسواز". ما كنت أبصر فى الغرفة المظلمة شيئاً سوى إكليل دقيق من الشعر الأسود على بياض الوسادة. لكنى كنت أسمع أنفاس "ألبيرتين". كان نومها عميقاً إلى حد كنت أتردد معه فى الذهاب حتى السرير: وأجلس على حافته، ويستمر النوم بالانسياب محملاً بالهمس عينه. أما ما يستحيل قوله فإلى أى حد كان استيقاظها مرحاً. كنت أعانقها وأهزها. وكانت فى الحال تتوقف عن النوم ولكنها كانت تنفجر ضاحكة حتى دون أن تفصلها لحظة عن ذلك وتقول لى وهى تعقد ذراعيها حول عنقى: "كنت بالضبط أتساءل إن كنت لن تجىء"، وتضحك بحنان وتعيد الكرة. لكأنما لا يملأ رأسها الجميل حينما كانت تنام سوى المرح والرقة والضحك. وكنت بإيقاظها أطلق فحسب، كما هى الحال حين تفلق ثمرة، دفق العصير الذى يرويك.

كان الشتاء فى تلك الأثناء يبلغ نهايته، وعاد الصيف، وكثيراً ما كنت أسمع، و"ألبيرتين" انتهت تواً فحسب من تمنى ليلة سعيدة ولا تزال غرفتى وستائرى والجدار من فوق الستائر بعد سوداء تماماً، فى حديقة جاراتى الراهبات، تنغيماً جميلاً نفيساً فى سكون الليل، وكأنما "هرمونيوم" فى كنيسة، تنغيماً لعصفور مجهول كان ينشد مذ ذاك ساعات السحر على اللحن الليدى(١)، وكان يضع فى وسط ظلماتى النغمة الساطعة النفيسة للشمس التى يراها. وسرعان ما قصرت الليالى، وأخذت أرى، قبل ساعات الصباح القديمة، بياض النهار المتزايد يومياً يتجاوز ستائر نافذتى. ولئن كنت أسلم بمواصلة "ألبيرتين" هذا النوع من الحياة التى كنت أحس على الرغم من صنوف إنكارى أنها ترى نفسها سجينة فيها فلأنى كنت فى كل يوم على يقين فحسب من أنى سأستطيع فى الغد أن أشرع فى النهوض والعمل فى الوقت نفسه والخروج فى نزهات والإعداد لرحلة إلى عقار لنا نبتاعه وتستطيع "ألبيرتين" أن تمضى فيه بقسط أكبر من الحرية، ودونما إثارة لمخاوفى، حياة ريفية أو بحرية تروق لها، من إبحار أو صيد.

لكنما هذا الزمن الماضى الذى كنت أحبه تارة وطوراً أمقته لدى "ألبيرتين"، (مثلما يعمل كل واحد، حينما يكون (ذاك الماضى) هو الحاضر، بدافع المصلحة أو التأدّب أو الشفقة، على أن ينسج بينه وبيننا ستاراً من الأكاذيب نضعها موضع الحقيقة)، كان يتفق فى الغد أن تقدم لى واحدة من الساعات التى تؤلفه، حتى عن تلك اللواتى ظننتنى أعرفهن، بصورة راجعة ومفاجئة، جانباً ما كانت تحاول حجبه عنى وهو مغاير تماماً لذاك الذى سبق أن بدت لى فيه. فوراء هذه النظرة أو تلك، وفى مكان الفكرة الطيبة التى ظننت بالأمس أنى أبصرها فيها كانت تنكشف رغبة ما ارتبت فيها حتى

(١) من الألحان اليونانية القديمة، وقيل إن اللحن "الغريغورى" مأخوذ عنه.

ذاك تصرف عنى جزءاً جديداً من فؤاد "ألبيرتين" الذى كنت أماثل بينه وبين فؤادى. مثال ذلك أن "ألبيرتين"، حينما غادرت "أندريه" "بالبيك" فى شهور تموز (يوليو)، لم تقل لى البتة إنها عازمة على لقائها عما قريب. وأخذت أفكر أنها عادت فالتقتها حتى قبلما لعلها ظنت بما أنها فى ليل الرابع عشر من أيلول (سبتمبر) كانت قد ضحت لى، بسبب الحزن الكبير الذى انتابنى فى "بالبيك"، بأن لا تمكث هناك وأن تعود فوراً إلى باريس. وكنت سألتها، بعدما وصلت فى الخامس عشر، أن تمضى للقاء "أندريه" وقلت لها: "هل سررت بلقائك؟" أما الآن، وإذ جاءت السيدة "بونتان" لتحمل شيئاً لـ "ألبيرتين"، فقد لقيتها لحظة وقلت لها إن "ألبيرتين" خرجت بصحبة "أندريه": "لقد ذهبتا للتنزه فى الريف". فأجابتنى السيدة "بونتان" قائلة: "أجل، ليست "ألبيرتين" متطلبة فيما يتصل بالريف. من ذلك أنه كان لابد، لثلاث سنوات خلت، من الذهاب كل يوم إلى موقع "بوت شومون".(١)" وحال سماعى اسم "بوت شومون" الذى سبق أن قالت لى "ألبيرتين" إنها لم تذهب إليه البتة تقطعت أنفاسى لحظة. إن الحقيقة أوفر الأعداء مهارة، فهى تقرر هجماتها على نقطة من فؤادنا ما كنا ننتظرها فيها ولم نعد فيها دفاعاتنا. فهل كذبت "ألبيرتين" عمتها حينذاك إذ تقول لها إنها تمضى كل يوم إلى "بوت شومون"، وكذبتنى مذ ذاك إذ تقول لى إنها لا تعرفه؟ وأردفت السيدة "بونتان" تقول: "لحسن الحظ، ستذهب "أندريه" المسكينة هذه بعد قليل إلى ريف أبعث للنشاط، إلى الريف الحقيقى، وهى بأشد الحاجة إليه إذ هى على أسوأ حال. والصحيح أنه لم يتوافر لها هذا الصيف مساحة الهواء الضرورية لها. تصور أنها غادرت "بالبيك" فى آخر تموز "يوليو" وفى ظنها أنها راجعة فى أيلول (سبتمبر)، ولما فك أخوها ركبته لم تستطع أن تعود." كانت "ألبيرتين" تنتظرها فى "بالبيك" إذن وأخفت عنى ذلك! وصحيح أنه كان من قبيل اللطف المتزايد أن تكون اقترحت علىّ العودة. ما لم.. "أجل، أذكر أن "ألبيرتين" حدثتنى عن الأمر.. (وما كان ذلك صحيحاً). ومتى وقع ذاك الحادث؟ فكل ذلك مشوش إلى حد ما فى رأسى." - "لكنه حدث بمعنى ما فى الوقت المناسب تماماً، إذ أن إيجار الدارة يكون قد بدأ عقب يوم واحد وكانت جدة "أندريه" ستضطر إلى دفع شهر لا جدوى منه. لقد كسر ساقه فى ١٤ أيلول (سبتمبر) واتسع لها الوقت لتبرق لـ "ألبيرتين" فى صباح ١٥ بأنها لن تجىء، ولـ "ألبيرتين" أن تخطر الوكالة. وكان سرى الإيجار عقب يوم واحد حتى ١٥ تشرين الأول (أكتوبر)." وهكذا، دون شك، حينما قالت لى "ألبيرتين" وقد غيرت رأيها: "فلنذهب هذا المساء"، فإن ما كانت تراه إنما شقة ما كنت أعرفها، هى شقة جدة "أندريه" حيث سيتاح لها، فور عودتنا، التقاء الصديقة التى ظننت أنها ستلتقيها عما قليل فى "بالبيك" دون أن أرتاب فى الأمر. والأقوال البالغة اللطف التى تفوهت بها للعودة معى، فى مقابل رفضها العنيد قبل قليل، إنما حاولت أن أنسبها إلى تبدل فى قلبها الطيب. لقد كانت مجرد انعكاس لتغير وقع فى وضع لا نعرفه وهو مجمل سر التبدل الحاصل فى سلوك النساء اللواتى لا يحببننا. إنهن يرفضن لنا بعناد موعداً للغد لأنهن متعبات، لأن جدهن يلزمهن بتناول العشاء فى منزله. ونلح قائلين: "فتعالى بعد ذلك". - "إنه

---

(١) موقع فى باريس.

يستبقيني حتى وقت متأخر جداً، ويمكن أن يرافقني في عودتي." وهن فقط على موعد مع شخص يروقهن. وفجأة لا يعود هذا الأخير طليق اليدين، فيجئن يعربن لنا عن أسفهن أن بعثن الغم في صدورنا وسوف يلبثن، وقد تخلصن من جدهن، إلى جانبنا لا يشغلهن أي شيء آخر. كان يجدر بي أن أتعرف هذه الجمل في الكلام الذي وجهته إليّ "ألبيرتين" في "بالبيك" في يوم رحيلي. ومع ذلك ربما لم يكن يجدر بي الاقتصار على تعرف هذه الجمل فحسب، بل أن أتذكر بغية تفسير هذا الكلام سمتين خاصتين بطبع "ألبيرتين".

عادت فبرزت في هذه الفترة في خاطري سمتان من طبع "ألبيرتين"، واحدة تجلب لي العزاء والأخرى الأسى، لأننا نجد في ذاكرتنا من كل صنف ونوع: فهي ضرب من الصيدلية، من المختبر الكيميائي حيث تضع يدك كيفما اتفق تارة على عقار مهدئ وطوراً على سم خطر. أما السمة الأولى، المعزية، فتلك العادة في استخدام فعلة واحدة لإمتاع عدة أشخاص، وذلك الاستخدام المتعدد لما كانت تقوم به وكان صفة مميزة لدى "ألبيرتين". لقد كان في صلب طباعها، إذ تعود إلى باريس (فأن لا تعود "أندريه" كان يمكن أن يجعل مكوثها في "بالبيك" أمراً غير مريح دون أن يعني ذلك أنها لا تستطيع أن تكون في غنى عن "أندريه")، أن تستخلص من هذه الرحلة الواحدة مناسبة تصيب بها شخصين تحبهما حباً صادقاً: أنا إذ تحملني على الظن بأن ذلك إنما كان من أجل أن لا تدعني وحدي وكي لا أتألم وبدافع الإخلاص لي، و"أندريه" بإقناعها أنها لم تشأ، إذ هي لم تجيء إلى "بالبيك"، أن تلبث فيها لحظة واحدة أكثر وأنها لم تمدد إلا لتراها وأنها مسارعة تواً إليها. هذا، وإن رحيل "ألبيرتين" برفقتي كان يعقب غمي ورغبتي في العودة إلى باريس من جهة، ومن جهة أخرى برقية "أندريه"، بصورة فورية إلى حد بدا معه من الطبيعي جداً أن استطعنا، "أندريه" وأنا، وكلانا نجهل، هي غمي، وأنا برقيتها، أن نعتقد أن رحيل "ألبيرتين" كان نتيجة السبب الوحيد الذي تسنى لكل منا معرفته والذي كان يليه بالفعل بفارق ساعات قليلة جداً وبصورة مفاجئة تماماً. كان بعد بمقدوري في هذه الحالة أن أعتقد أن مرافقتي كانت هدف "ألبيرتين" الحقيقي، مع أنها لم تشأ أن تفوت عليها فرصة أن تجعل منها صفة تستحق بها امتنان "أندريه". لكني لسوء الحظ تذكرت في الحال تقريباً سمة أخرى من طبع "ألبيرتين" قوامها السرعة التي تتملكها بها رغبة في المتعة لا تقاوم. فإني تذكرت حينذاك، بعد أن عزمت على الرحيل، أي تلهف كانت تبدي للوصول إلى القطار وكيف دفعت المدير بعيداً، وهو ربما كان استطاع أن يفوت علينا الحافلة في محاولته استبقاءنا، وما قامت به نحوي من ارتفاعات تواطؤ بمنكبيها كان لها أبعد الأثر في نفسي حينما سألنا السيد "دو كامبرمير" في القطار الصغير إن كان لا يمكننا التأجيل أسبوعاً آخر. أجل، إن ما كانت تراه نصب عينيها في ذلك الوقت، ما كان يجعلها محمومة إلى هذا الحد في ابتغاء الرحيل، ما كانت تتلهف للقائه، إنما كان شقة غير مأهولة سبق أن رأيتها مرة، وتعود ملكيتها لجدة "أندريه"، شقة فاخرة يتولى حراستها خادم عجوز، في هاجرة النهار، لكنها خالية هادئة حتى لتبدو الشمس وكأنها تلقي أغطية على الكنبة، على مقاعد الغرف حيث كانت "ألبيرتين" و"أندريه" تطلبان إلى الحارس الذي يفيض احتراماً، وربما سذاجة، وربما تواطؤاً، أن يدعهما تخلدان إلى الراحة.

كنت الآن أراها طوال الوقت، خالية، بسرير أو كنبة، وخادمة مخدوعة أو متواطئة، حيث كانت "ألبيرتين"، فى كل مرة تبدو فيها معجلة جدية، تمضى للحاق بصديقتها التى وصلت دون شك قبلها لأنها كانت أقل ارتباطاً. لم أكن حتى ذاك فكرت قط بهذه الشقة التى أخذت تكتسى الآن فى نظرى جمالاً مريعاً. إن الجانب المجهول فى حياة الأشخاص كالمجهول فى الطبيعة الذى لا يسهم أى اكتشاف علمى إلا فى تأجيله، لكنه لا يلغيه. ويثير الغيور حنق التى يحبها إذ يحرمها من طائفة من المتع التى لا شأن لها. لكن تلك التى تؤلف أساس حياتها فإنها تخبئها حيث لا يخطر له، فى الفترات التى يخيل لذكائه أنه يبدى أكبر قسط من نفاذ البصيرة ويمده الغير بأفضل المعلومات، أن يبحث.

لكن "أندريه" كانت على الأقل تزمع على الرحيل: بيد أنى ما كنت أود أن تستطيع "ألبيرتين" احتقارى أن كنت ضحية خديعة حاكتها هى و"أندريه". لكنى سأقول لها ذلك ذات يوم. وربما حملتها هكذا عنوة على أن تكلمنى بصراحة أكبر حينما أظهر لها أننى كنت مطلعاً على الأمور التى تحجبها عنى. لكنى ما كنت أبغى بعد أن أكلمها عن ذلك، أولاً لأنها ربما أدركت، وهى قريبة جداً من زيارة عمتها، من أين تأتينى معلوماتى فقطعت علىّ هذا المصدر وما خشيت لها مصادر مجهولة. ثم لأنى ما كنت أبغى، مادمت على غير تمام اليقين بالاحتفاظ بـ "ألبيرتين" قدر ما أبتغى، أن أجازف بإثارة مقدار مفرط من صنوف للغيظ فى صدرها ربما أمكن أن تقودها إلى الرغبة فى هجرى. صحيح أنى لو كنت أعمل عقلى وأبحث عن الحقيقة وأتوقع المستقبل انطلاقاً من أقوالها التى كانت على الدوام تقر مشروعاتى جميعاً وتعرب عن مدى حبها لهذه الحياة وعن القليل الذى يحرمها منه احتجازها، فما كنت لأشك بأنها باقية على الدوام إلى جانبى. بل كنت شديد الانزعاج لذلك فقد كنت أحس الحياة والكون اللذين ما تذوقتهما فى يوم يفلتان منى وقد استبدلت بهما امرأة ما كان بوسعى أن ألقى فيها من بعد شيئاً جديداً. ما كان بمقدورى حتى الذهاب إلى البندقية حيث ستسومنى، ساعة آوى إلى سريرى، عذاباً مفرطاً خشيتى من محاولات التقرب التى قد يقدم عليها "الغندولى" وناس الفندق ونساء البندقية. لكنى إما أعملت العقل بالعكس وفقاً للفرضية الأخرى، الفرضية التى تستند لا إلى أقوال "ألبيرتين"، بل إلى لحظات يعمرها الصمت ونظرات وحمرة فى الوجنتين وصنوف من الحرد وحتى من الحنق لعله كان من اليسير جداً علىّ أن أبرهن لها منها أنها كانت بغير ما سبب وكنت أفضل أن أبدو وكأنى لا ألاحظها، فقد كنت حينذاك أقول فى نفسى إن هذه الحياة كانت فيما يخصها لا تحتمل وإنها كانت طوال الوقت تلفى نفسها محرومة مما تحب وإنها حتماً مفارقتى ذات يوم. كل ما كنت أبغيه، إن هى أقدمت على ذلك، أن يسعنى اختيار الفترة، فترة لا يشق فيها الأمر علىّ كثيراً، وفى فصل لن يمكنها فيه الذهاب إلى أى من الأمكنة التى كنت أتخيل فيها مجونها، لا إلى "أمستردام" ولا إلى منزل "أندريه" ولا إلى منزل الآنسة "فانتوى"، وهى والحق يقال ستعود فتلتقيهم بعد بضعة شهور، لكنى حتى ذاك أكون قد هدأت نفساً ويصبح الأمر غير ذى بال فى نظرى. كان لابد فى كل الأحوال للتفكير فى ذلك من انتظار شفاء النكسة الصغيرة التى سببها اكتشاف الأسباب التى أرادت "ألبيرتين" من أجلها وبفارق ساعات أن لا تغادر ثم أن تغادر فى الحال "بالبيك"؛ كان لابد من توفير

وقت تزول فيه الأعراض التى لا يمكن إلا أن تتناقص إن لم أحط علماً بجديد، لكنها لا تزال مفرطة الشدة بعد كى لا تزيد من ألم وصعوبة قطيعة أقر الآن أنها حتمية لا مفر منها، لكنها غير ملحة ومن الأفضل القيام بها "على البارد". هذا الخيار الآنى كنت مالكه: فإنه إن ابتغت الرحيل قبل أن أكون قررت ذلك فسوف يتسع الوقت دوماً حينما تبلغنى أنها سئمت هذه الحياة، أن أنظر فى محاربة دوافعها وأن أدع لها قسطاً أوفر من الحرية وأن أعدها بمتعة عظيمة مقبلة تتمنى هى انتظارها، بل أن أصرح لها بغمى إن لم أجد لى مستجاراً إلا فى قلبها. كنت من وجهة النظر هذه إذاً هادئ البال دون أن أكون على أى حال منطقياً جداً فى ذلك مع ذاتى. ذلك أنى كنت، فى إطار فرضية لا أحسب فيها حساباً للأشياء التى تقولها وتنبئنى بها، كنت أفترض، إما تعلق الأمر برحيلها، أنها سوف تعطينى أسبابها سلفاً وتدع لى أن أقاتلها وأهزمها.

كنت أحس أن حياتى مع "ألبيرتين" لم تكن من جهة سوى سأم حين لم أكن غيوراً، وسوى عذاب، من جهة أخرى، حين تنهشنى الغيرة. وبافتراض أن كان ثمة سعادة فما كان بمقدورها أن تدوم. كنت أود، بالروحية الحكيمة ذاتها التى كانت تلهمنى فى "بالبيك" فى المساء الذى سعدنا فيه فى أعقاب زيارة السيدة "دو كامبرمير"، كنت أود هجرها إذ كنت أعلم أنى لن أكسب شيئاً فى الإطالة. لكننى كنت لا أزال أتصور أن الذكرى التى سأحفظها عنها ستكون نوعاً من رنين متطاول بفعل مدوس لدقيقة فراقنا. وكنت لذلك أحرص على اختيار دقيقة عذبة كى تكون هى من توالى الرنين فى داخلى. ما كان ينبغى الإفراط فى التشدد والإفراط فى الانتظار، بل ينبغى التعقل. ومع ذلك فقد يكون من الجنون، بعدما طال إلى هذا الحد انتظارى، أن لا أستطيع الانتظار بضعة أيام بعد إلى أن تطلع دقيقة مقبولة بدلاً من احتمال أن أراها ترحل بذات الثورة التى كانت تعصف بى فيما مضى حينما تبتعد أمى عن سريرى دون أن تعود فتتمنى لى ليلة سعيدة أو حينما كانت تودعنى فى المحطة. فأخذت كيفما اتفق أضاعف الملاطفات التى يمكن أن أخصها بها. أما بشأن مباذل "فورتونى" فقد قر رأينا أخيراً على مبذل أزرق وذهبى ببطانية زهرية وكان أنهى منذ قليل. وكنت مع ذلك أوصيت على الخمسة الأخرى التى تخلت عنها آسفة لتفضيلها هذا الأخير.

على أنى لدى حلول الربيع، وبعدما انقضى شهران على ما سبق أن قالته لى عمتها، أطلقت العنان لغضبى ذات مساء. وكان بالضبط ذاك المساء الذى ارتدت فيه "ألبيرتين" للمرة الأولى مبذل "فورتونى" الأزرق والذهبى الذى كان إذ يذكرنى بالبندقية يبعث فى نفسى إحساساً أكبر بعد بما كنت أضحى به فى سبيل "ألبيرتين" التى لم تكن تبدى أى امتنان لذلك. ولئن كنت لم أر البندقية فى يوم فقد كنت أحلم بها دون انقطاع منذ عطلة الفصح التى اضطررت أن أقضيها فيها وما أزال طفلاً، وأقدم من ذلك بعد من خلال رسوم "تيسيانو" وصور "جوتو" التى كان "سوان" قد أعطانى إياها فى "كومبريه". كان فسطان "فورتونى" الذى ترتديه "ألبيرتين" هذا المساء يبدو لى وكأنه الظل المغوى لهذه البندقية اللامرئية. فقد كان يزدحم بزخرفة عربية كما البندقية، كما قصور البندقية المحتجبة على غرار السلطانات خلف حجاب من حجر مفرغ، وكما التجاليد فى المكتبة "الأمبروسية"، كما الأعمدة

التى كانت طيورها الشرقية، وهى تعنى بالتعاقب الموت والحياة، تتكرر فى التماعات القماش ذى الزرقة الشديدة التى كانت تنقلب، كلما راح نظرى يسرح فيها قدماً، ذهباً مطواعاً جراء هذه التحولات نفسها التى تحيل، أمام الغندول المتقدمة، زرقة القناة الكبرى معدناً متموجاً لاهباً. وكان الكمان مبطنين بقماش وردى كرزى يمتاز بطابع البندقية الخاص حتى ليقولون هو لون "تييبولو"(١) الوردى.

كانت "فرانسواز" قد سربت أمامى فى بحر النهار أن "ألبيرتين" لم تكن راضية عن شىء وأنها، حينما كنت أرسل من يقول لها إنى سأذهب أو لاأذهب فى نزهة وإياها وإن السيارة ستأتى أو لا تأتى لنقلها، كانت تقوم بما يقرب من رفع منكبيها وتكاد تجانب الأدب فى إجابتها. وفى ذاك المساء الذى أحسستها فيه منحرفة المزاج والذى أثار أعصابى فيه أول حر شديد لم أقو على احتباس غيظى ولمتها على نكرانها للجميل، وصحت بكامل قواى وقد استشطت غضباً: "أجل، يمكن أن تسألى الجميع، يمكن أن تسألى "فرانسواز"، فإنها صيحة فحسب." لكننى ذكرت فى الحال أن "ألبيرتين" سبق أن قالت لى ذات مرة كم كانت ترى لى هيئة مخيفة حينما ينتابنى الغضب وطبقت علىّ أبيات "أستير" التالية:

"هيا تصور كم انبغى أن يلقى من قلق فى نفسى المضطربة

هذا الجبين الغاضب منى...

وأى فؤاد جسور يحتمل دونما رعدة، وا أسفى،

هذه البروق المنطلقة من عينيك؟"

فخجلت مما أبديت من عنف. وقلت، كيما أعوذ عما فعلت ولكن دون أن يبدو ذلك هزيمة وكيما يكون سلامى سلاماً يسوده السلاح والرهبة وفيما كان يبدو لى مفيداً أن أبرز أنى لا أخشى معها قطيعة كى لا تتبادر الفكرة إليها: "سامحينى يا عزيزتى "ألبيرتين"، فإنى خجلان من عنف أبديته ومنزعج منه. وإن لم نستطع التفاهم من بعد وإن انبغى أن نفترق فيجب أن لا يكون الأمر على هذه الصورة فليس يليق ذلك بنا. نفترق إن كان لابد من الافتراق، لكنما أحرص قبل كل شىء على أن أستغفرك بكل تواضع ومن صميم فؤادى." وفكرت أنه يستحسن، من أجل التكفير عن ذلك والتأكد من مقاصدها فى البقاء فى الفترة التى تلى وعلى الأقل إلى أن تكون "أندريه" قد رحلت، والأمر واقع بعد ثلاثة أسابيع، يستحسن أن أبحث منذ الغد عن متعة، أية متعة، أعظم من التى نعمت بها بعد، وأن تكون بعيدة الأجل بعض الشىء. وربما أحسنت صنعاً، بما أننى عازم على إزالة آثار الإزعاج الذى سببته لها فى الإفادة من هذه الفترة لأريها أنى أفضل اطلاعاً على حياتها مما تظن. وسوف تزيل ملاطفاتى فى غد الكدر الذى سينتابها، لكن التحذير سيظل فى بالها. "أجل، يا عزيزتى "ألبيرتين"،

---

(١) Tiepolo: من رسامى البندقية.

سامحينى إن كنت عنيفاً. لست مذنباً إلى الحد الذى تظنينه: فثمة أشرار يحاولون الإيقاع بيننا، وإنى لم أشأ فى يوم أن أحدثك عن ذلك كى لا أزعجك، ويبلغ بى أحياناً أن أجن جراء بعض الوشايات." وإذ أردت الإفادة من أنى سأستطيع أن أبرهن أنى كنت على علم بشأن السفر من "بالبيك" أضفت قولى: "هاك مثلاً، لقد كنت على علم بأن الآنسة "فانتوى" تزمع المجىء إلى منزل السيدة "فيردوران" فى العصر الذى ذهبت فيه إلى التروكاديرو." وكست الحمرة وجنتيها. "أجل، كنت على علم." - "وهل تستطيعين أن تقسمى أن لم يكن ذلك لتعودى إلى إقامة علاقات معها؟" - "بالتأكيد أستطيع أن أقسم على ذلك. ولماذا "أعود"؟ فإنى لم أقم علاقات البتة، إنى أقسم على ذلك." وحز فى نفسى أن أسمع "ألبيرتين" تكذبنى القول على هذه الصورة، وتنكر أمامى الحقيقة الواضحة التى أفرط احمرارها فى فضحها. كان زيفها يحزننى أشد الحزن. ولما كان يحوى مع ذلك توكيداً للبراءة كنت دون أن أتبين الأمر على استعداد لتصديقه فقد آلمنى أقل من صراحتها حينما أجابتنى، بعدما سألتها: "وهل يمكن على الأقل أن تقسمى أن متعة لقاء الآنسة "فانتوى" لا دخل لها إطلاقاً فى توقك إلى الذهاب إلى أمسية آل "فيردوران" تلك؟"، أجابت قائلة: "لا، لا أستطيع أن أقسم على ذلك، فقد كان لقاء الآنسة "فانتوى" يولينى متعة عظيمة." كنت قبل ثانية حاقداً عليها لإخفائها علاقاتها بالآنسة "فانتوى"، أما الآن فإن قرارها بالمتعة التى كانت أصابتها من لقائها كان يجمد أوصالى. ولا شك أن "ألبيرتين"، حينما قالت لى، بعدما عدت من منزل آل "فيردوران": "أما كان ينبغى أن تكون الآنسة "فانتوى" عندهم؟"، لا شك أنها أعادت لى كامل عذابى إذ برهنت لى أنها كانت عالمة بمجيئها. لكنى كنت دون شك قد قمت مذ ذاك بهذه المحاكمة العقلية: "كانت تدرى عن مجيئها الذى ما كان يوليها أى نوع من المتعة، ولكن، لأنها لابد أدركت بعد فوات الأوان أن الكشف عن أنها كانت تعرف امرأة سمعتها سيئة كما هى الآنسة "فانتوى" هو الذى أولانى قنوطاً عظيماً فى "بالبيك" إلى حد أيقظ فىّ فكرة الانتحار، لم تشأ أن تحدثنى عن ذلك." ثم أراها مضطرة أن تقر بأن مجيئها كان يمتعها. كان لابد على أية حال للطريقة الغريبة التى تريد بها الذهاب إلى منزل آل "فيردوران" أن تقدم لى البرهان الكافى. لكنى ما عدت فكرت فى الأمر تفكيراً كافياً. ومع أنى أقول فى نفسى الآن: "ولماذا لا تقر إلا نصف إقرار؟ فالأمر غباء أكثر مما هو شر ونكد"، فقد كنت أحس انسحاقاً عظيماً إلى حد لم تحالفنى معه الشجاعة للإلحاح على هذا الأمر الذى لم تكن لى اليد الطولى فيه إذ لا أملك وثيقة كاشفة أقدمها، وسارعت، بغية استعادة سلطانى، إلى الانتقال إلى موضوع "أندريه" الذى سيمكننى من هزيمة "ألبيرتين" شر هزيمة بالكشف الساحق عن برقية "أندريه". وقلت لها: "هاك مثلاً، إنهم يعذبوننى الآن ويضطهدوننى فى إعادة الحديث عن علاقاتك، ولكن مع "أندريه". فصاحت قائلة: "مع "أندريه"؟؟" وكان الغضب يلهب محياها. وكانت الدهشة، أو الرغبة فى أن تبدو مندهشة، توسع عينيها. "شىء رررائع!! وهل يمكن أن نعلم من قال لك هذه الأشياء الجميلة؟ وهل يمكن أن أكلمهم، هؤلاء الأشخاص؟ وأن أعلم إلام يستندون هذه الفضائح؟" - "لست أدرى يا عزيزتى "ألبيرتين"، إنها رسائل مغفلة، ولكن من أشخاص ربما وجدتهم بشىء من اليسر (كى أبدى لها أنى ما كنت أخشى أن تبحث)، لأنهم لابد يعرفونك حق المعرفة. الرسالة الأخيرة، إنى مقر

بذلك (وأذكر هذه الرسالة لأنها بالضبط تتعلق بأمر هين وليس فيها ما يشق علينا ذكره)، أثارت مع ذلك حفيظتي. كانت تقول لى أنك إن كنت أردت بادئ الأمر، فى اليوم الذى غادرنا فيه "بالبيك"، البقاء ثم الرحيل فلأنك تسلمت فى تلك الأثناء رسالة من "أندريه" تقول فيها إنها لن تجىء." - "أعلم تمام العلم أن "أندريه" كتبت لى بأنها لن تجىء، وهى حتى أبرقت لى، ولن يكون بمقدورى أن أريك البرقية لأنى لم أحتفظ بها، لكنها لم تكن فى ذلك اليوم على أى حال. وحتى لو وصلتنى فى ذلك اليوم، فما الذى يهمنى أن تجىء "أندريه" أم لا تجىء إلى "بالبيك"؟ كانت "ما الذى يهمنى" برهاناً على الغضب وأنها "تهمها" إلى حد ما، لكنها لم تكن اضطراراً برهاناً على أن "ألبيرتين" إنما عادت لمجرد رغبة فى لقاء "أندريه". ففى كل مرة كانت "ألبيرتين" تتبين فيها أن أحد الأسباب الحقيقية أو المزعومة لواحد من أفعالها قد كشفه شخص سبق أن قدّمت له عنه سبباً آخر، كانت "ألبيرتين" تغتاظ ولو كان الشخص ذاك الذي قامت بالحقيقة من أجله بفعلتها. هل كانت "ألبيرتين" تعتقد أن هذه المعلومات حول ما كانت تفعله لم يكن مجهولون هم الذين يرسلونها رغماً عنى بل أنا من كان يلتمسها بلهفة، ذلك ما لم يكن بوسعنا إطلاقاً استخلاصه من الأقوال التي نطقت بها فيما بعد وبدا منها أنّها تقبل بروايتي عن الرسائل المغفلة، بل ممّا بدا من غضبها مني، غضب ما كان يبدو سوى انفجار لصنوف استيائها السابقة، مثلما لم يكن التجسّس الذي لعلّها اعتقدت، في إطار هذه الفرضّية، أني مارسته سوى نقطة النهاية لمراقبة لأعمالها جميعاً ماعاد ساورها الشكّ حولها منذ زمن طويل. واتّسع غضبها ليشمل حتّى "أندريه"، وإذ تقول دون شكّ في نفسها إنّي الآن لن أطمئنّ من بعد حتّى حينما تخرج برفقة "أندريه" أضافت: "إني أضيق ذرعاً بـ"أندريه" على أيّ حال، فهى تبعث على السأم. إنّها عائدة في الغد، ولست أريد الخروج وإيّاها من بعد. ويمكنك نقل الخبر للذين قالوا لك إنيّ عدت إلى باريس من أجلها. فإن قلت لك إني لا أستطيع، بعد هذه السنين الكثيرة التي عرفت فيها "أندريه"، أن أقول لك كيف هو وجهها لقلّة ما نظرت إليها!". على أنّها سبق أن قالت لي في السنة الأولى في "بالبيك": "إن "إندريه" رائعة." وصحيح أنّ ذلك ما كان ليعني أنّها تقيم علاقات غراميّة معها، بل إني ما سمعتها قطّ آنذاك تتكلمّ، إلاّ ثائرة ساخطة، عن سائر العلاقات التي من هذا القبيل. ولكن ألا يمكن أن تكون تغيرّت، حتىّ دون أن تتبينّ أنّها تغيرّت، إذ لا تعتقد أنّ صنوف لهوها مع صديقة إنّما هي من قبيل العلاقات اللا أخلاقيةّ، وهي قليلة الوضوح في ذهنها، التي كانت تندّد بها لدي الآخرين؟ أما كان ذلك ممكناً، بما أنّ هذا التغيّر ذاته ولا وعي هذا التغيّر ذاته قد حدث في علاقاتها بي، أنا الذي سبق أن رفضتْ له بثورة عارمة في "بالبيك" هذه القبل التي كانت ستمنحني إيّاها من تلقاء ذاتها فيما بعد وفي كلّ يوم وسوف تمنحني إيّاها، كما آمل، فترة طويلة بعد وستمنحني إيّاها بعد لحظة؟ "ولكن كيف تريدينني أن أنقل الخبر إليهم ياعزيزتي وأنا لا أعرفهم؟" كان هذا الجواب قوياً إلى حدّ كان انبغي معه أن يذيب الاعتراضات والشكوك التي كنت أراها متبلّرة في حدقتي "ألبيرتين". لكنّها أبقت عليها سليمة: وكنت قد صمت وظلّت مع ذلك توالي النظر إليّ بهذا الاهتمام المتّصل الذي تصرفه إلى من لم ينهِ كلامه. واستمحتها عذراً من جديد، فأجابتني أنْ ليس ما تسامحني به؛ وكانت قد عادت فأضحت وديعة جداً. لكنمّا كان يبدو لي أن سراً

قد تشكلّ خلف وجهها الحزين الشاحب. كنت أعلم تمام العلم أنّها لا يمكن أن تفارقني دون أن تخطرني بذلك: ما كان بوسعها على أيّة حال لا أن تشتهي ذلك (فقد كان عليها أن تجرّب فساطين "فورتوني" الجديدة بعد ثمانية أيّام) ولا من باب اللياقة أن تقدم عليه، إذ تعود أمّي في آخر الأسبوع وكذلك تفعل عمّتها. وإذ كان يستحيل أن ترحل، فلماذا أعدت على أسماعها مراراً وتكراراً أننا سنخرج سويةً في الغد لنمضي لمشاهدة زجاجيّات من البندقيّة كنت أبغي إعطاءها إيّاها، وطبتُ نفساً لسماعها تقول لي إنّها موافقة؟ وحينما جاءت تتمنى لي ليلة سعيدة وقبلتها فإنّها لم تفعل كعادتها وأشاحت برأسها ولم تردّ لي قبلتي، وكان ذلك بعد لحظات، أو تكاد، من الوقت الذي خطرت لي فيه هذه الحلاوة التي قوامها أن تمنحني كلّ مساء ما سبق أن رفضته في "بالبيك". لكأنّما لم تكن تبغي، وقد خاصمتني، أن تعطيني دليل حنان ربّما أمكن أن يبدو لي فيما بعد نوعاً من الزيف يكذّب ذلك الخصام. لكأنّما كانت توفّق بين أفعالها وذلك الخصام، ولكنّما تفعل باعتدال، إمّا بغية أن لا نذيع الأمر، وإمّا لأنّها تريد، وهي تقطع علاقاتها الجنسيّة معي، أن تلبث مع ذلك صديقتي. حينئذ قبلتها مرّة ثانية وأنا أشدّ إلى صدري الزرقة الملتمعة المذهبة للفتاة الكبرى والطيور المتسافدة، رموز الموت والقيامة. لكنّها ابتعدت مرّة ثانية، بدلاً من أن تردّ لي قبلتي، بنوع العناد الغريزيّ المشؤوم لدى الحيوانات التي يوافيها إحساس الموت. وغمرني بدوري هذا الهاجس الذي بدا أنّها تعرب عنه، غمرني بخشية مقلقة إلى حدّ لم تخالفني معه الشجاعة، حينما بلغت "ألبيرتين" الباب، بأن أدعها تذهب فاستدعيتها وقلت لها: "ألبيرتين". لست أشعر البتّة بالنعاس، فإن كنت بدورك لا ترغبين في النوم أمكنك البقاء قليلاً بعد، إن أردت، لكنّي لا أصرّ على ذلك ولا أريد خصوصاً أن أتعبك." كان يبدو لي أني لو استطعت أن أعرّيها وأن تكون لي بقميص نومها الأبيض الذي كانت تبدو فيه أكثر تورّداً وأكثر دفئاً وتبعث في حواسّي إثارة أعظم، لكانت مصالحتنا أكمل وأشمل. لكنّي تردّدت لحظة لأن حاشية فسطانها الزرقاء كانت تضيف إلى محيّاها جمالاً وإشراقاً وسماء لعلّها كانت بدت بدونها أشدّ قسوة. وعادت الهوينى وقالت لي بكثير من الرقّة وبذات الوجه المنكسر الحزين: "يمكنني أن أمكث ما تشاء، فلست أشعر بالنعاس." وهدأ جوابها من روعي لأنني كنت أحسّني قادراً، ما دامت حاضرة هنا، على التفكير في المستقبل، وكان يحوي إلى ذلك شيئاً من المودّة والطاعة، لكنّها من طبيعة معينة وكانت تبدو لي وكأنّما يحدّها ذاك السرّ الذي أحسّه خلف نظرتها الحزينة وعاداتها المتغيّرة، نصفها على الرغم منها والنصف دون شك لتوفق سلفاً بينها وبين شيء لم أكن أعرفه، على أنّه بدا لي أنْ ليس ما يوليني جرأة كافية لحملها عنوة على الاستسلام سوى أن تبرز أمامي بثياب كلّها بيضاء، أن تكون أمامي بعنقها العاري مثلما سبق أن رأيتها في سريرها في "بالبيك". "بما أنّك أبديت من اللطف أن تمكثي قليلاً لتؤاسيني فيجدر بك أن تنزعي فسطانك، فهو مفرط الدفء مفرط الخشونة، ولست أجرؤ على الاقتراب منك كي لا أكرّش هذا القماش الجميل، ثم إن بيننا تلك الطيور القدريّة: هيّا انزعي ثيابك أيتها العزيزة."

-"لا، ليس من الملائم أن أفكّ هذا الفسطان هنا. سأنزع ثيابي عمّا قليل في غرفتي."- "لست تريدين إذاً حتّى أن تجلسي فوق سريري؟"-"بلى، بلى." لكنّها لبثت بعيداً بعض الشيء، بالقرب من

قدميّ. وجرى بنا الحديث. وسمعنا فجأة الإيقاع المنتظم لنداء منتحب. تلكم كانت الحمائم التي أخذت في الهديل فقالت "ألبيرتين": "ذلك دليل على أنّ النهار قد طلع". وأضافت مقطبة الحاجبين تقريباً وكأنّما تفوّت عليها في العيش عندي متع فصل الصحو والجمال: "لقد بدأ الربيع كيما تكون الحمائم عادت." كان التشابه بين هديلها وصياح الديك عميقاً وغامضاً كما هو في سباعيّة "فا نتوي" التشابه بين فكرة الحركة المتمهّلة المبنيّة على ذات الفكرة الرئيسيّة في المقطوعة الأولى والمقطوعة الأخيرة، ولكنّها تحوّلت جرّاء الفوارق النغميّة والإيقاعيّة، إلخ... إلى حدّ يعجب معه الجمهور غير المطلّع، إن فتح مؤلفاً حول "فانتوي"، أن يشاهد أن الحركات الثلاث بنيت على ذات النغمات الأربع التي يستطيع على أيّ حال أن يعزفها بأصبع واحد على البيانو دون أن يقع على أيّ من المقطوعات الثلاث. كذلك كانت تلك المقطوعة الثلاث. كذلك كانت تلك المقطوعة الحزينة التي عزفها الحمام نوعاً من صياح الديك على السلّم الصغير وما كان يرتفع صوب السماء ولا يصعد عمودياً، لكنّه كان يمضي، منتظماً كنهيق حمار، مغلّفاً بالعذوبة، من حمامه إلى أخرى على خطّ أفقيّ واحد ولا يرتفع البتّة ولا يغيّر نواحه الجانبيّ إلى ذاك النداء السعيد الذي أطلقته مرّات عديدة الحركة السريعة في الافتتاحيّة والخاتمة. إني أعلم أنني نطقت حينئذ بكلمة "الموت" كما لو أن "ألبيرتين" تزمع أن تموت. ويبدو أنّ الأحداث أوسع من الفترة التي تجرى فيها ولا يمكن تضمينها فيها كاملة. أجل، إنّها تفيض على المستقبل بالذكرى التي نحفظها عنها، لكنّها تطلب كذلك حيزاً من الزمن الذي يسبقها سوف يقال بالتأكيد إننا لا نراها طبقاً لما ستكون عليه، ولكن أليست تتغيّر أيضاً في الذكرى؟

لمّا رأيت أنّها لا تقبلني من تلقاء ذاتها، وأدركت أن ذلك كلّه وقت ضائع وأنّ الدقائق المهدّئة والحقيقيّة لن تبدأ إلاّ انطلاقاً من القبلة قلت لها: "ليلة سعيدة، لقد تأخرّ بنا الوقت كثيراً"، لأن ذلك سيحملها على تقبيلي ونستمرّ فيما بعد. لكنّها بعد أن قالت لي: "ليلة سعيدة، حاول أن تنام نوماً هنيئاً"، اكتفيت، تماماً كما فعلت في المرّتين الأوليين، بقبلة على الخدّ. ولم تحالفني الجرأة هذه المرّة في استدعائها ثانية. لكنّ قلبي كان يخفق بشدّة لم أقوَ معها على معاودة النوم. كنت انتقل دون توقّف من خوفي أن تستطيع "ألبيرتين" الرحيل إلى هدوء نسبيّ مثل عصفور يمضي من زاوية في قفصه إلى أخرى. وكان ذلك الهدوء ناتجاً عن المحاكمة العقليّة التي كنت أعيدها مرّات عدة في الدقيقة الواحدة: "لا يمكن في كلّ الأحوال أن ترحل دون أن تخطرني بذلك، فإنّها لم تقل لي البتّة إنّها سترحل."، ويوافيني الهدوء تقريباً. لكنّي كنت أعود في الحال فأقول في نفسي: "فإن ألفيتها قد رحلت مع ذلك غداً! إنّ قلقي نفسه إنّما يحمل سببه في أمر ما. لماذا لم تقبلني؟" حينئذ كان قلبي يؤلمني ألماً رهيباً. ثمّ هو يهدأ بالمحاكمة التي أعود فأباشرها، لكنّما ينتهي بي الحال إلى صداع لأن حركة فكري هذه كانت لا توقّف فيها البتّة وشديدة الرقابة. ثمّة بعض الحالات النفسيّة من هذا القبيل ولا سيّما القلق الذي لا يقدّم لنا سوى خيارين فيتسم بشيء رهيب في محدوديته كما هو مجرّد ألم جسديّ. لقد كنت أعيد باستمرار المحاكمة التي تجعل قلقي على حقّ، وتلك التي تخطّئه وتظمئنني، على حيّز يسير كما هو المريض الذي يجسّ دون توقف وبحركة باطنة العضو الذي يؤلمه، ويبتعد لحظة عن النقطة المؤلمة كيما يعود إليها في اللحظة التالية وفجأة هزّني في سكون الليل صوت غير ذي بال في ظاهره

لكنهَ ملأ فؤادي هلعاً، صوت نافذة "ألبيرتين" التي انفتحت بعنف. وحين لم يبلغ أسماعي شيء من بعد تساءلت لم أولاني ذاك الصوت خوفاً كهذا. فلم يكن يحمل في حدّ ذاته شيئاً خارقاً إلى هذا الحدّ، لكنيّ كنت أحمله على الأرجح دلالتين كانتا تبعثان الرعب في نفسي على السواء. كان ثمّة بادئ الأمر اتفاقيّة في حياتنا المشتركة قوامها ألاّ تفتح البتّة نافذة في الليل بما أنني كنت أخشى تيّارات الهواء. وكانوا قد قاموا بإيضاح الأمر لـ"ألبيرتين" حينما جاءت لتسكن في البيت، وعلى الرغم من يقينها بأنّه هوس منّي، وغير سليم، وعدتني أن لا تخرق البتّة هذا الحظر. وكانت شديدة التخّوف إزاء سائر هذه الأمور التي تعلم أني أريدها، وأن أنحتُ عليها باللائمة، إلى حدّ أني كنت أعلم أنّها كانت فضّلت النوم في رائحة نار الموقد على أن تفتح نافذتها، كما أنّها ما كانت لتعمل على إيقاظي بداعي الحدث الأكثر أهميّة. وما كانت تلك سوى واحدة من الاتفاقيات الصغيرة في حياتنا، لكنّها ما دامت تخرق هذه دون أن تكون كلّمتني عنها أفما كان ذلك يعني أنّه لم يعد لديها شيء تراعيه وأنّها قد تخرقها جميعاً أيضاً؟ ثمّ إن هذا الصوت كان عنيفاً وقارب أن يكون عديم التهذيب كما لو أنّها فتحت، وقد ألهب الغضب وجنتيها، وقالت: "هذه الحياة تضيقّ عليّ أنفاسي، فليكن ما يكون، إنّي بحاجة إلى الهواء!" لم أقل كلّ ذلك بالضبط في نفسي، لكنّي واليت التفكير، وكأنّما في نذير أكثر غموضاً وأشدّ كآبة من صرخة بوم، في صوت النافذة التي فتحتها "ألبيرتين". وفي جوّ من الاضطراب ربّما لم أعشه منذ ذلك المساء في "كومبريه" الذي تناول فيه "سوان" طعام العشاء في المنزل، سرت طوال الليل في الممرّ آملاً أنّي ألفت انتباه "ألبيرتين" بالضجّة التي أثيرها وأنّها سترقّ لحالي وتستدعيني، لكنّي ما كنت أسمع أيّ صوت ينطلق من غرفتها. كنت في "كومبريه" قد سألت أمي المجيء. لكني ما كنت أخشى من أميّ سوى غضبها وكنت أعلم أنيّ لا أقللّ من حنانها حين أبرز لها حناني. وجعلني ذلك أتأخرّ في استدعاء "ألبيرتين". وشعرت شيئاً فشيئاً أن الأوان فات، فلابد أنّها نائمة منذ فترة طويلة. وعدت أدراجي لأنام. وفي الغد قرعت جرس "فرانسواز" حالما استيقظت، إذ لم يكن أحد يجيء إلى غرفتي مهما جرى دون أن أكون ناديت عليه. وفكرّت في الوقت نفسه: "سأكلّم "ألبيرتين" عن يخت أودّ أن آمر بصنعه لها." وقلت لـ"فرانسواز" دون أن أنظر إليها وأنا آخذ رسائلي: "عندي عمّا قليل ما أقوله للآنسة "ألبيرتين": فهل نهضت من نومها؟"- "أجل، لقد نهضت باكراً." وشعرت بألف من الاضطرابات ترتفع في داخلي وكأنّما في عصفة ريح ولا أقوى على حجب حركتها بين أضلعي. كان الصخب عظيماً إلى حدّ فقدت معه أنفاسي وكأنّما في عاصفة. "عجباً! ولكن أين هي الآن؟"- "لابد أنّها في غرفتها."- "آه! حسن، سألتقيها عمّا قليل." وتنفّست الصعداء، إنّها هنا، وتهاوى اهتياجي، لقد كانت "ألبيرتين" هنا، وأصبحت لا أبالي تقريباً بأن تكون هنا. أفلم أتحامق على أيّة حال أنْ افترضت من الممكن أن لا تكون هنا؟ وأغفيت ولكن، على الرغم من يقيني بأنّها لن تفارقني أغفيت خفيف الأجفان، والخفّة تتعلق بها فحسب. ذلك لأنّ الأصوات التي لا يمكن ردّها إلاّ إلى أعمال في الباحة إنّما كنت ألبث مطمئناً إزاءها مع أني أسمعها بصورة مبهمة في نومي، فيما كانت أقلّ ارتعاشة تجيئني من غرفتها، أو حين تخرج أو حين تعود دون ضجّة وهي تضغط برفق شديد على الجرس، تجعلني أنتفض وتسري في كلّ مفاصلي

وتخلّيني خافق الفؤاد مع أنيّ سمعتها في إغفاءة عميقة، مثلما كانت جدّتي، في الأيام الأخيرة التي سبقت موتها والتي كانت فيها غارقة في سكون لا يعكرّد شيء ويسميه الأطباء سباتاً، تأخذ، فيما قيل لي، بالارتجاف على مدى لحظة كالورقة حينما تسمع النقرات الثلاث للجرس التي تعوّدت أن أنادي بها "فرانسواز" والتي ما كان أحد يستطيع، حتّى حينما جعلتها في ذلك الأسبوع أكثر رقّة كي لا أعكّر سكون غرفة الموتى، ما كان يستطيع، فيما تؤكّد "فرانسواز"، أن يخلط بينها، بسبب طريقة كنت أنتهجها، وأجهلها شخصياً، في الضغط على الجرس، وبين نقرات جرس لآخر غيري. فهل دخلت بدوري طور النزاع؟ وهل كان ذلك دنوّ الأجل؟

في ذلك اليوم وفي غده خرجنا سوية بما أنّ "ألبيرتين" لم تعد تبغي الخروج برفقة "أندريه". ولم أحدّثها حتّى عن اليخت. فقد كانت تلك النزهات قد هدّأت من روعي تماماً. بيد أنّها استمرّت تقبلني مساءً بالطريقة الجديدة نفسها، مما أثار حنقي. ولم يعد بإمكاني أن أبصر فيها سوى طريقة تبدي بها أنّها مستاءة منّي، وكان ذلك يبدو لي مفرط السخف بعد الألطاف التي لم أكفّ عن إسدائها لها. ولمّا لم تعد تلبي لي حتّى الحاجات الجنسيّة التي كنت أحرص عليها، وأجدها قبيحة في حردها، فقد وافاني شعور أكثر حدّة بحرماني من سائر النساء والرحلات التي تؤجّج فيّ أولى أيّام الربيع هذه الشوق إليها. كانت منطقة الربيع هذه التي أوقفته للتوّ فيها منذ ثلاثة أيام رحلة مسكننا الشارد عبر الفصول تحت سماء مؤاتية، والتي تسرع دروبها جميعاً صوب أغدية في الحقول وطلعات تجذيف وتسال، كانت تبدو لي، دون شكّ بفضل الذكرى المبعثرة للمواعيد المنسيّة التي نعمت بها، ولا أزال طالباً في المدرسة الثانويّة، مع نساء في ظلال خضرة كثيفة، بلد النساء وبلد الأشجار على حدّ سواء حيث المتعة المبذولة في كل مكان مصرّح بها لقواي الناقهة. كان التسليم بالكسل والتسليم بالعفّة وعدم تذوّق المتعة إلاّ مع امرأة واحدة ما كنت أحبّها، والتسليم بالمكوث في غرفتي وبالامتناع عن السفر، كلّ ذلك كان ممكناً في العالم القديم الذي كنا لانزال فيه البارحة، في عالم الشتاء الخاوي، وليس في هذا العالم الجديد المورق الذي استيقظت فيه مثل آدم فتيّ يواجه للمرّة الأولى مشكلة الوجود والسعادة ولا يثقل كاهله تراكم الحلول السلبيةّ السابقة. كان حضور "ألبيرتين" يثقل عليّ وكنت أنظر إليها رقيقة متجهّمة وأحسّ أنّها لمصيبة أن لانكون قطعنا علاقتنا. كنت أودّ الذهاب إلى البندقية، كنت أودّ، إلى أن يحين ذلك، الذهاب إلى "اللوفر" لمشاهدة لوحات عن البندقية، وإلى اللوكسمبور لمشاهدة لوحتي "ايلستير" اللتين باعتهما الأميرة "دوغيرمانت" منذ وقت قريب، فيما نقل إليّ، لهذا المتحف، تلكما اللتان ما أكثر ما تأملتهما بإعجاب في منزل الدوقة "دوغيرمانت: "متع الرقص" و"صورة عائلة س". لكنمّا كنت أخشى أن تولي بعض الوضعات الشهوانية في الأولى "ألبيرتين" اشتياقاً وحنيناً إلى التسليات الشعبيّة وتحملها على أن تقول في نفسها إن حياةً لم تقضها، حياة أسهم ناريّة وحانات ريفيّة، ربّما كانت لها بعض الحسنات. كنت أخشى مذذاك سلفاً أن تسألني في ١٤ تموز (يوليو) الذهاب إلى حفلة راقصة شعبية وأحلم بحادث مستحيل من شأنه أن يكون ألغى هذا الاحتفال. أضف أنّ ثمة أيضاً في لوحات "ايلستير" رسوماً عارية لنساء في مناظر طبيعيّة من الجنوب كثيفة الخضرة يمكن أن تذكر "ألبيرتين" ببعض الملذّات، على الرغم من أن ايلستير

نفسه ما كان ليرى فيها- ولكن أليس يحطّ ذلك من قدر العمل؟- سوى الجمال المرمري، والأحرى أن نقول سوى جمال صروح بيضاء تخطّها أجساد نساء جالسة في قلب الخضرة.

وسلمّت بالعدول عن ذلك وعزمت على الرحيل للذهاب إلى "فيرساي" أمّا "ألبيرتين" التي لم تشأ الخروج برفقة "أندريه" فقد لبثت تقرأ في غرفتها، في مبذل من صنع "فورتوني". وسألتها إن كانت تبغي المجيء إلى "فيرساي". لقد كانت تتسم بهذا الشيء الرائع أنّها كانت دائماً جاهزة لأيّ أمر، ربّما جرّاء هذه العادة التي اتخذتها فيما مضى بقضاء نصف وقتها في منازل الآخرين، ومثلما حزمت أمرها في المجيء معنا إلى باريس في مدى دقيقتين. وقالت لي: "بوسعي المجيء هكذا إن لم نترجّل من السيّارة." وتردّدت مقدار ثانية بين معطفين لـ"فورتوني" تستر بهما مبذلها- كما لعلّها كانت فعلت بين صديقين مختلفين تصطحبهما- فأخذت منهما واحداً أزرق عاتماً رائعاً وغرستْ دبوساً في قبّعة. وجهزتْ في دقيقة واحدة قبل أنْ أخذت معطفي ومضينا إلى "فيرساي". وخلّفتني هذه السرعة نفسها وهذه الطاعة المطلقة أوفر اطمئناناً كما لو أني كنت بالفعل في حاجة إلى الطمأنينة، دون أن يكون أيّ داع واضح لديّ للقلق. كنت أقول في نفسي ونحن ذاهبان إلى "فيرساي": "مع ذلك، ليس ثّمة ما أخشاه. إنّها تفعل ما أطلبه منها، على الرغم من صوت النافذة في تلك الليلة. فما إن تحدثت عن الخروج في نزهة حتّى ألقت بهذا المعطف الأزرق فوق مبذلها وجاءت، وليس ذلك ما قد تفعله متمرّدة، امرأة لم تعد وإياي على مايرام." ومكثنا هناك فترة طويلة. كانت السماء مصنوعة كلها من هذه الزرقة التي على شيء من الشحوب مثلما يراها أحياناً فوق رأسه المتنزه الذي استلقى في أحد الحقول، لكنها موحدة عميقة إلى حدّ تحس معه أن الزرقة التي صنعت منها جرى استخدامها دون أي مزيج وبثراء لا ينضب حتىّ ليسعك أن تتعمق أكثر فأكثر في ماهيتّها دون أن تلقى ذرة من غير هذه الزرقة نفسها. كنت أفكر في جدّتي التي كانت تحب السمّو في الفنّ الإنساني وفي الطبيعة وكان يمتعها أن ترى قبة جرس كنيسة القدّيس "هيلاريون" تنطلق صاعدة في هذه الزرقة نفسها. وفجأة عصف بي الحنين مجدّداً إلى حريتي المفقودة وأنا أسمع صوتاً لم أتعرّفه بادئ الأمر ولعل جدّتي كانت أحبّته بدورها أعظم الحبّ. كان كأنما طنين زرقطة. وقالت لي "ألبيرتين" "هيا، ثمّة طائرة، وهي عالية جداً، عالية جداً" كنت أنظر من حولي في كلّ جانب، لكنيّ كحال المتنزّه الذي استلقى في أحد الحقول، ما كانت أبصر سوى الزرقة الشاحبة المتساوية التي لا مزيج فيها، ودون أيّة لطخة سوداء. لكنيّ كنت أسمع مع ذلك دوماً طنين الجناحين اللذين دخلا فجأة في نطاق رؤيتي. كان ثمّة في الأعالي جناحان صغيران جداً داكنان ملتمعان يغضّنان الزرقة المتساوية في السماء الصافية. واستطعت أخيراً أن أربط الطنين بعلته، بتلك الحشرة الصغيرة التي تضطرب في الأعالي على ارتفاع نيف وألفي متر دون شك. كنت أرى ضجيجه. ربما كانت صفارة قطار يمر على بعد كيلو مترين، حينما المسافات على الأرض لم تكن بعد قُلصّت منذ زمن طويل جرّاء السرعة على نحو ما هي اليوم، ربّما كانت تتسم بهذا الجمال الذي يهزّ الآن مشاعرنا بعض الوقت بعد في طنين طائرة على ارتفاع ألفي متر لدى التفكير بأن المسافات المقطوعة في هذه الرحلة العمودية هي نفسها على الأرض وأنّه، في هذا الاتجاه الآخر الذي تبدو فيها المقاييس مختلفة لأن الوصول إليه كان يبدو ممتنعاً علينا، ليست تبعد عنّا طائرة على

ارتفاع ألفي متر أكثر من قطار على بعد كيلو مترين، وهي حتّى أقرب إذ المسافة الواحدة يتم القيام بها في وسط أكثر صفاء دونما فاصل بين المسافر ونقطة انطلاقه، مثلما في البحر أو السهول وفي جوّ ساكن يخدّد شق سفينة أضحت بعيدة أو هبّة نسيم مفردة بحر الأمواج أو الأقماح.

وداخلتني الرغبة في تناول العصرونية، فتوقفنا في دكان حلواني واقعة تقريباً خارج المدينة وكانت تنعم في تلك الفترة ببعض الشهرة. كان ثمة سيّدة تزمع الخروج فطلبت أشياءها من الحلوانية. وما إن ذهبت تلك السيدّة حتّى نظرت "ألبيرتين" عدّة مرات إلى الحلوانية كما لو تبغي جلب انتباهها وهي كانت ترتب الأكواب والصحون والمحمصات، إذ كان الوقت قد تأخّر. كانت تقترب منّي إن أنا طلبت شيئاً فقط. وكان يتفق حينئذ، إذ كانت الحلوانية، وهي من جانب آخر فارعة القدّ، واقفة لتخدمنا و"ألبيرتين" جالسة بالقرب مني، أنْ كانت "ألبيرتين" ترفع شاقولياً صوبها، بغية لفت انتباه الحلوانية، نظرة شقراء تضطر معها أن ترفع حدقتها وتزيد بمقدار ما لم تكن تملك، والحلوانيّة قريبة منا تواجهنا تماماً، وسيلة تخفيف ميل الانحدار بميلان نظرتها. كانت مضطرّة، دون أن تفرط في رفع رأسها، أن ترفع نظراتها حتّى ذاك الارتفاع الهائل حيث عينا الحلوانيّة. كانت "ألبيرتين" تخفض عينيها بسرعة لطفاً بي، ثم تعيد الكرّة إذ لم تعرها الحلوانيـة أيّ انتباه. وقد أفضى ذلك إلى سلسلة من النظرات المرفوعة المتوسّلة دون جدوى صوب إلهة يمتنع الوصول إليها. ثم اقتصر أمر الحلوانية على ترتيب الصحون على طاولة كبيرة مجاورة. وهنا لم يكن على "ألبيرتين" إلاّ أن تكون نظرتها جانبيّة. بيد أن عيني الحلوانية لم تحطا مرّة واحدة على صديقتي. وما كان ذلك يدهشني وأنا أعلم أن تلك المرأة التي كنت أعرفها بعض الشيء تملك عشاقاً كثيرين مع أنّها متزوجة، لكنها كانت تفلح تماماً في ستر مغامراتها، وهو ما كان يدهشني بالغ الدهشة بسبب غبائها الهائل. ونظرت إلى هذه المرأة فيما كنا ننهي عصرونيّتنا. لقد قاربت، وهي منغمسة في تنضيد حاجاتها، أن تكون قليلة التهذيب إزاء "ألبيرتين" لما لا تخصّ بنظرة واحدة نظرات صديقتي التي لم تكن تتسم على أيّة حال بأي مظهر غير لائق. كانت الأخرى في الترتيب، ماضية إلى ما لانهاية، لا يصرفها شيء عن ذلك. ولعلّ إعادة الملاعق الصغيرة إلى مكانها وأمواس الفواكه، لعلها كانت أسندت، لا إلى هذه المرأة الفارعة الجميلة، بل إلى مجرد آلة بغية توفير العمل الإنساني، فما أمكن أن ترى انعزالاً تاماً إلى هذا الحدّ عن الانتباه لـ"ألبيرتين"، مع أنها لم تكن تخفض عينيها ولا تستغرق بل تطلق بريق عينيها ومفاتنها وهي منصرفة إلى عملها فحسب. وصحيح أن لو لم تكن تلك الحلوانية امرأة تتسم بغباء خاص (فلم تكن تلك شهرتها فحسب بل كنت أعرف الأمر بالتجربة) لأمكن أن يكون هذا التجرّد قمّة المهارة. وإني أعلم تمام العلم أن الكائن الأكثر غباء، إن تعرّضت رغبته أو مصلحته للخطر، يستطيع في هذه الحالة الوحيدة، في جوّ تفاهة حياته الغبيّة، أن يتكيف فوراً مع تلافيف الوضع الأكثر تعقيداً: ولعل الأمر كان على الرغم من كلّ شيء افتراضاً مفرطاً في براعته بالنسبة إلى امرأة بمثل غباء الحلوانية. بل كانت هذه البلاهة تتخذ شكلاً للوقاحة لا يصدّق! فهي لم تنظر مرّة واحدة إلى "ألبيرتين" مع أنه ما كان يمكن أن لا تراها. لم يكن ذلك لطيفاً جداً بحقّ صديقتي، لكنّي سررت أعظم السرور أن تُلَقَّن "ألبيرتين" هذا الدرس الصغير وترى أن النساء ماكن في الغالب يعرنها انتباهاً. غادرنا دكان الحلوانيّة

واستقللنا العربة، وكنّا قد سلكنا طريق المنزل رجوعاً حينما داخلني الأسف فجأة أن فاتني أن أنتحي بالحلوانية جانباً وأسألها، تحسباً لأي طارئ، أن لا تقول للسيدة التي ذهبت حينما وصلنا اسمي وعنواني، ولابد أن الحلوانيّة كانت تعرفها تمام المعرفة بسبب طلبات كثيرة وسبق أن قمت بها. فقد كان من غير المفيد بالفعل أن تتمكن السيدة بذلك من معرفة عنوان "ألبيرتين" بصورة غير مباشرة. ورأيت من الإطالة بمكان أن نعود أدراجنا لأمر زهيد إلى هذا الحدّ وربّما بدا ذلك من قبيل إيلاء الأمر أهمية مبالغاً فيها في نظر الحلوانية البلهاء الكذابة وفكرت فقط أنّه لابد من العودة لتناول العصرونية هناك خلال ثمانية أيام كي أوصي بذاك الأمر وأنه لمن المزعج حقاً، إذ المرء ينسى دائماً نصف ما يجب أن يقوله، أن يفعل أبسط الأمور على عدة دفعات.

عدنا في ساعة متأخرّة جداً في ليلة كان يكشف فيها، ههنا وهناك على قارعة الطريق، بنطال أحمر إلى جانب تنوّرة أزواجاً من العشاق. واجتازت عربتنا للعودة بوّابة "مايّو". وكان قد حلّ محلّ أبنية باريس رسم أبنية باريس خالصاً تخطيطياً لا كثافة فيه، كما لعلهم كانوا فعلوا بشأن مدينة مهدّمة أحبّوا الاحتفاظ بمخطط صورتها: لكنّما كانت ترتفع على حافتها الحاشية الزرقاء الفاتحة التي كانت تبرز فوقها، ترتفع شديدة العذوبة حتّى لتبحث العيون العطشى في كل مكان، تبحث بعد عن شيء من هذه اللوينات الرائعة التي توزع عليهم بتقتير مفرط: فالليلة كانت مقمرة. وتأملتها "ألبيرتين" باعجاب. ولم أجرؤ على أن أقول لها إني كنت استمتعت بها بصورة أفضل لو كنت وحدي أو ماضياً في البحث عن امرأة مجهولة. وأسمعتها أبياتاً أو جملاً نثرية عن ضياء القمر مبرزاً لها كيف انقلب من فضيّ كانه فيما مضى إلى أزرق مع "شاتوبريان" و"فيكتور هوغو" واضع "أيفيرادنوس" و"الاحتفال لدى تيريز"، ليعود فيضحي أصفر معدنياً مع "بودلير" و"لوكونت دوليل". ثم ذكرتّها بالصورة التي تمثل الهلال في آخر مقطوعة "نوم بوعز" وأكملت فكلّمتها عن كامل المقطوعة.

لست أستطيع أن أقول إلى أيّ حدّ كانت حياتها، حينما أعود أفكّر فيها، محملة برغبات متناوبة متهرّبة متناقضة في الغالب. ولا شك أن الكذب كان يزيد التعقيد إذ لاتذكر من بعد بالضبط أحاديثنا يوم قالت لي: "آه! تلكم فتاة جميلة وكانت تجيد لعبة الغولف"، ويوم أجابتني، إذ سألتها اسم تلك الفتاة، أجابتني بهذا المظهر المتجرّد الشامل المتفوق الذي يملك على الدوام دون شك أطرافاً طليقة إذ يستعيره كلّ كذّاب من هذه الفئة مقدار لحظة في كلّ مرة حالما لا يبغي الإجابة عن سؤال، ولا يخذله البتّة: "آه! لست أدري (مغلّفة بأسف أن لا تستطيع تزويدي بمعلومات) ،ما عرفت اسمها في يوم، كنت ألتقيها في الغولف، لكني ما كنت أعلم أيّ اسم يطلقونه عليها": فإن قلت لها بعد مرور شهر: "ألبيرتين"، تعلمين، تلك الفتاة الحلوة التي كلّمتني عنها والتي كانت تجيد لعبة الغولف"، كانت تجيبني دونما تفكير: "آه! أجل، "إميلي دالاتييه"، لست أدري ما حلّ بها." وكانت الكذبة تُنقل، شأن التحصينات الميدانية، من دفاعات الاسم، وقد احُتل الآن، إلى إمكانات العثور عليها. "آه! لست أدري، لم أعرف عنوانها في يوم. ولست أرى أحداً يمكنه أن يقول لك ذلك. لا، لا، "أندريه"

لم تعرفها. فلم تكن في عداد جماعتنا الصغيرة، وما أكثر ما هي منقسمة اليوم." وفي مرآت كانت الكذبة من قبيل الإقرار الشنيع: "آه! لو كنت أملك إيراداً قوامه ثلاث مئة ألف فرنك..." وتعضّ على شفتيها. -"حسن، وما عساك تفعلين؟" فتقول وهي تعانقني: "أسألك الإذن بالبقاء عندك. فأين يمكن أن أكون أكثر سعادة؟" لكنما كان غريباً، حتّى إن أخذنا الكذبات في اعتبارنا، إلى أي حد كانت حياتها تعاقبيّة وأعظم رغباتها عابرة. كانت تُجَنُّ بشخص وما كانت لتقبل بزيارته بعد انقضاء ثلاثة أيّام. وما كان بوسعها أن تنتظر ساعة حتّى أكون أو صيت من يشتري لها قماشات وألواناً إذ تبغي معاودة الرسم الزيتي. وكانت على مدى يومين نافذة الصبر وتكاد تدمع عيناها، وما أسرع ماتجفّان، مثل طفل حُرم مرضعته. كان تذبذب عواطفها إزاء الكائنات والأشياء والمشاغل والفنون والبلدان، كان في الحقيقة شاملاً إلى حدّ أنّها إن أحبّت المال، وهو ما لا أصدقه، فما استطاعت أن تحبه فترة أطول من الباقي. وحينما كانت تقول: "آه! لو كنت أملك إيراداً قوامه ثلاث مئة ألف فرنك!" فما كانت، حتّي لو عبرّت عن فكرة شريرة لكنّها لا تستمرّ إلاّ القليل القليل، ما كانت لتستطيع التمسّك بها فترة أطول من تمسّكها برغبة الذهاب إلى منطقة "ليه روشيه" التي وفرّت لها صورتها نسخة جدّتي من كتاب السيّدة "دوسيفينييه"، أو اللحاق بصديقة لها في لعبة الغولف، أو أن تستقل الطائرة، أو تمضي لقضاء الميلاد مع عمتها، أو تعود لمزاولة الرسم الزيتي.

وقالت: "لسنا كلانا في الأساس جائعين وكان بإمكاننا المرور بآل "فيردوران" فإنها ساعتهم وإنّه يومهم." -"ولكن، إن كنت غاضبة منهم؟" -"أوه! هناك الكثير من القيل والقال بحقهم، لكنهم ليسوا في الأساس على هذا القدر من السوء. لقد أبدت لي السيدّة "فيردوران" دوماً مقداراً عظيماً من اللطف. ثم إنّه لايمكنك دوماً أن تكون على خصام مع الناس جميعاً. إن لهم عيوبهم، ولكن، من ذا يخلو منها؟" - "لست على أناقة كافية ولابدّ من عودتك لارتداء ثيابك ويكون الوقت متأخراً جداً." فأجابت "ألبيرتين" بذلك الانقياد الوادع الرائع الذي كان يذهلني دائماً: "أجل، أنت على حقّ، هيّا نعد فحسب".

قفز الطقس الجميل في تلك الليلة قفزة إلى الأرقام مثلما الميزان يتجه صعوداً وجهة الحرّ. وحينما استيقظت أخذت أسمع من سريري، في هذه الصباحات التي تبكرّ في الربيع، الحافلات الكهربائية تمرّ عبر العطور في الهواء الذي يمتزج الحرّ به شيئاً فشيئاً إلى أن يبلغ مرحلة تصلب وتكاثف الظهيرة. وكنت أراني، وهو على العكس أكثر برودة في غرفتي، بعدما يكون الهواء الطريّ اللذيذ قد انتهى من صقل وعزل رائحة المغسلة فيها ورائحة الخزانة ورائحة الكنبة، أراني لمحض الوضوح الذي تتراصف به شاقوليّة منتصبة على هيئة شرائح متجاورة متمايزة في تدرّج أضواء لؤلئيّ يضيف ألقاً نعومة على بريق السجف والكنبات التي من الساتين الأزرق، أراني لا لمجرّد نزوة من خيالي، بل لأن الأمر ممكن بالفعل، أسلك، في حي جديد من الضاحية شبيه بالذي كان "بلوك" يقطنه في "بالبيك"، الشوارع الغارقة في نور الشمس، وأشاهد لا الملاحم التافهة وحجارة البناء المنحوتة البيضاء، بل قاعة الطعام الريفيّة التي يمكن أن أصلها بعد قليل والروائح التي سألقاها لدى وصولي، رائحة الكرز والمشمش

المطبوخين وعصير التفاح وجبنة "الغروييـر". والتي تطفو معلقّة في الانجماد المضيء للظلمة التي تخطّطها بعروق ناعمة وكأنما باطن حجر من العقيق، فيما تلقي فيها حوامل السكاكين التي من زجاج موشوري أقواس قزح أو تغرس ههنا وهناك على القماش المشمع التماعات ريش طاووس.

وكمثل ريح تتعاظم في تدرج منتظم سمعت، يلفنّي الفرح، سيّارة تحت نافذتي. وشممت رائحتها البترولية، ويمكن أن تبدو مؤسفة في نظر المرهفين (وهم دوماً ماديوّن تُفسد عليهم الريف) وبعض المفكّرين، وهم ماديّون أيضاً على طريقتهم، ويتصوّرون، إذ يؤمنون بأهميّة الحدث، أن الإنسان قد يكون أكثر سعادة وقادراً على ابتداع شعر أكثر سمواً لو قدر لناظريه أن يبْصرا ألواناً أكثر ولمنخريه أن يتعرّفا عطوراً أكثر، وذلك هو التحريف الفلسفي للفكرة الساذجة لمن يؤمنون أن الحياة كانت أوفر جمالاً حينما كان الناس يلبسون، بدلاً من الرداء الأسود، أثواباً باذخة. أمّا بالنسبة إليّ (ومثلما شذا النفتالين وطيب العرب، وهو ربمّا كريه في حدّ ذاته، كان بعث النشوة في نفسي إذ يردّ لي صفاء البحر الأزرق يوم وصولي إلى "بالبيك")، فإن رائحة البترول هذه، التي ما أكثر ما تلاشت، مع الدخان الذي كان ينبعث من الآلة، في زرقة السماء الشاحبة في تلك الأيام اللاهبة التي كنت أمضي فيها من "سان جان دولاهيز" إلى "غورفيل"، كما تعقبت خطاي في نزهاتي في فترات العصر أثناء ما كانت "ألبيرتين" تنصرف إلى الرسم، كانت تفتح الآن في كلّ جانب منيّ، ومع أنيّ داخل غرفتي المظلمة، أزهار الترنشاه والخشخاش المنثور والأنفال القرمزية، وتسكرني كرائحة أرياف، لا تلك المحصورة الثابتة، كالتي هي موضوعة أمام أزهار الزعرور وتطفو، وقد حدّت من حركتها عناصرها الطليّة الكثيفة، بشيء من الاستقرار أمام السياج، بل رائحة تهرب أمامها الطرق ويتغيرّ وجه التربة وتسرع إليها القصور وتشحب أمامها السماء وتتضاعف القوى، رائحة كانت كأنّما رمز ثوابت وقوّة وكانت تجدّد الرغبة التي داخلتني في "بالبيك" في الصعود إلى القفص الذي من كريستال وفولاذ، ولكن لأذهب هذه المرّة لا للقيام بزيارات إلى مساكن مألوفة مع امرأة أعرفها معرفة كبيرة، بل لممارسة الحبّ في أماكن جديدة مع امرأة مجهولة. رائحة كان يرافقها في كل وقت نداء أبواق السيارات العابرة الذي كنت أؤالف بينه وبين كلمات، وكأنما مع لحن نحاسيّات عسكري: "أيّها الباريسّي هيّا انهض، انهض وتعال لتناول الغداء في الأرياف والتجديف في النهر، تحت ظلال الأشجار بصحبة فتاة جميلة، هيّا انهض، انهض." كانت كلّ هذه الفترات الحالمة شديدة العذوبة على قلبي إلى حدّ كنت أغبط به نفسي "للقانون الصارم" الذي ما كان يفكّر جراءه أيّ "بشريّ وجل"، حتىّ "فرانسواز" وحتّى "ألبيرتين"، بالمجيء، ما دمت لم أدّعه، لإقلاق راحتي "داخل هذا القصر" حيث:

"هناك جلال مهيب يتصنعّ

حجبي عن أنظار رعاياي".(١)

لكن المشهد تبدّل فجأة. فلم تعد ذكرى انطباعات قديمة، بل رغبة قديمة أيقظها لفترة قريبة جداً

---

(١) من نص محوّر بعض الشيء من مسرحية "إيستير" لـ"جان راسين".

خلت فسطان "فورتوني" الأزرق والذهبيّ هي التي بسطت أمامي ربيعاً آخر. لم يعد كثيف الأوراق البتّة بل عُرّي فجأة على العكس من شجره وزهره جراء. هذا الاسم الذي قلته في نفسي منذ قليل: "البندقية"، ربيعاً مصفّى رُدّ إلى جوهره ويعبرّ عن تطويل وتسخين وتفتحّ أيّامه التدريجي بالتخمرّ التدريجيّ لا لأرض دنسة، بل المساء لا تشويه شائبة أزرق ربيعي دون أن يحمل تويجات ولا يسعه الاستجابة لشهر أيّار (مايو) إلاّ بومضات، ماء صنعه هو ويوافقه تماماً في العري المشرق الثابت لياقوتة الأزرق العاتم لذلك لا تحمل السنوات الحديثة للمدينة القوطيّة تغييراً أكثر مما تحمل الفصول لشُعبها البحرية التي لا تزهر. كنت أعلم ذلك، ولا أستطيع تصورّه، أو إن أنا تصورّته هاك ما كنت أبغي من تلك الرغبة نفسها التي سبق أن حطمت بالأمس فيّ، حينما كنت طفلاً. وفي اندفاعة الرحيل نفسها، القدرة على الرحيل: أن أجدني وجهاً لوجه مع تخيلاتي البندقية وأتأمل كيف يحوط هذا البحر المقسم بتعرجاته، مثلما تثنيات نهر "أوقيانوس"، حضارة مدينية مرهفة لكنها، وقد عزلها نطاقها اللازوردي، تطورت وحدها، وملكت وحدها مدارسها في الرسم والعمارة - هذه الحديقة الخرافية من ثمر وطير صنعت من حجارة ملونة، حديقة أزهرت فى وسط البحر الذى يقبل ليبردها ويضرب بموجه ركائز الأعمدة ويلقى على بروز تيجان الأعمدة الجبارة، وكأنما نظرة لازوردية عاتمة تسهر فى الظلام، يلقى الضوء رقعاً ويحركه دون توقف. أجل كان لابد من الرحيل، وقد آن الأوان. فمنذ لم تعد "ألبيرتين" تبدو غاضبة منى لم يعد امتلاكها يبدو لى خيراً أنت مستعد أن تعطى مقابله الخيرات الأخرى جميعاً. ربما لأننا كنا فعلنا ذلك للتخلص من غم، من ضيق نفسى، وهما الآن هدئا. لقد أفلحنا فى اجتياز الدولاب القماشى الذى ظننا فترة أننا لن نستطيع البتة المرور عبره. لقد بددنا العاصفة وأعدنا صفاء البسمة. لقد تبدد السر المقلق لكراهية لا سبب معروفاً لها وربما لا نهاية. ونلقى ذواتنا مذ ذاك وجهاً لوجه مع المشكلة التى استبعدت مؤقتاً، مشكلة سعادة نعرفها مستحيلة. وشعرت الآن وقد عادت الحياة مع "ألبيرتين" فأضحت ممكنة أننى لن أستطيع أن أجنى منها غير المصائب بما أنها لم تكن تحبنى، وخير لى أن أفارقها وأنا فى حلاوة موافقتها التى سأطيل فيها بالتذكر. أجل، آن الأوان: ولابد من أن استعلم بالضبط عن التاريخ الذى تزمع "ألبيرتين" فيه مغادرة باريس والعمل بحزم لدى السيدة "بونتان" كى أكون على أوثق اليقين بأن "ألبيرتين" لن تستطيع فى هذا الوقت الذهاب إلى هولندا أو إلى "مونجوفان". فقد يتفق، لو عرفنا أن نحلل بصورة أفضل صنوف غرامنا، أن نرى أن النساء كثيراً ما لا يرقننا إلا بسبب المقابل من الرجال الذين يقع علينا أن ننازعهم فيهن: فإن حذف هذا المقابل تهاوى سحر المرأة. وإن لنا فى هذا الشأن مثالاً مؤلماً ووقائياً كامناً فى إيثار الرجال للنساء اللواتى ارتكبن قبل التعرف بهن المعاصى، لأولئك النساء اللائى يحسون أنهن يتخبطن فى المخاطر وينبغى لهم إعادة الفوز بهن فى أثناء كامل دوام حبهم لهن. أو المثال اللاحق على العكس، وما هو بالمأساوى، مثال الرجل الذى، إذ يحس تناقص ميله إلى المرأة التى يحب، يطبق تلقائياً القواعد التى استخلصها، وكيما يتيقن أنه لايزال على حب المرأة يضعها فى وسط خطر ينبغى له فيه أن يحميها فى كل يوم. (وهو عكس الرجال الذين يطالبون بأن تتخلى امرأة عن المسرح مع أنهم من جانب آخر إنما أحبوها لأنها ارتادت المسرح.)

وحينما لا يظل هكذا لذاك الرحيل أية محاذير، يجرى اختيار يوم صاح كهذا - ويزمع أن يكون منه الكثير - تكون فيه "ألبيرتين" عديمة الشأن بالنسبة إلىّ، وتغرينى فيه ألف رغبة ورغبة؛ ينبغى أن أدعها تخرج دون أن أراها، ثم أن أدع لها، لدى نهوضى واستعدادى السريع، كلمة وأفيد من أننى سوف يمكننى، بما أنها لن تستطيع فى هذه الفترة أن تذهب إلى أى مكان يشيع فى نفسى الاضطراب، أن أفلح، فى أثناء سفرى، فى استبعاد تصور الأسوأ التى يمكن أن تأتيها والتى كانت تبدو لى فى هذه الفترة، على أى حال، غير ذات بال إطلاقاً، وأن أذهب إلى البندقية دون أن أكون رأيتها. وقرعت الجرس أستدعى "فرانسواز" لأسألها أن تبتاع لى دليلاً ومرشداً للطرق، مثلما سبق أن فعلت طفلاً حينما عزمت مذ ذاك على الإعداد لرحلة إلى البندقية، تحقيقاً لرغبة بمثل عنف الرغبة التى كانت تعتمل فى صدرى فى هذه الفترة. وفاتنى أن كان ثمة مذ ذاك رغبة كنت بلغتها دون أية متعة، هى رغبة "بالبيك"، وأن البندقية، بما هى كذلك ظاهرة مرئية، لن تستطيع على الأرجح أكثر من "بالبيك" أن تحقق حلماً يمتنع على القول، حلم الزمن القوطى المحيّن لبحر ربيعى، وكان يقبل بين حين وحين ليداعب فكرى بصورة له مسحورة ناعمة متهربة خفية مبهمة. ودخلت "فرانسواز"، بعدما سمعت رنة جرسى، يساورها بعض القلق من الطريقة التى قد أنظر بها إلى أقوالها وسلوكها. وقالت لى: "لقد كنت منزعجة جداً أن يستدعينى سيدى اليوم فى ساعة متأخرة إلى هذا الحد. ولم أكن أعرف ما ينبغى لى أن أفعله. لقد طلبت منى الآنسة "ألبيرتين"، فى الساعة الثامنة هذا الصباح، حقائبها وما تجرأت أن أرفض، فقد خشيت أن يوبخنى سيدى إن جئت أوقظه. وعبثاً "قرأت على رأسها" وقلت لها أن تنتظر ساعة لأنى كنت أظن دوماً أن سيدى يزمع أن يقرع الجرس. فلم تشأ، وقد تركت لى هذه الرسالة لسيدى، وفى الساعة التاسعة رحلت." حينئذ - وما أكثر ما يمكن أن يجهل المرء مكنونات صدره، بما أننى كنت مقتنعاً بلامبالاتى بـ "ألبيرتين" - تقطعت أنفاسى وأمسكت قلبى بكلتا يدىّ اللتين بللهما عرق لم يسبق أن عرفته فى يوم منذ السر الذى كشفته لى صديقتى فى الحافلة الصغيرة بخصوص صديقة الآنسة "فانتوى"، ودون أن أقوى على قول غير ما يلى: "آه! حسن جداً يا "فرانسواز" وشكراً، لقد أحسنت بالطبع فعلاً أن لم توقظينى، دعينى لحظة، وسوف أستدعيك عما قليل."

النهاية

المترجم في سطور

- نشأ المرحوم إلياس بديوي (١٩٣٢-١٩٩٧) وتعلم في قرية "المسمية" السورية حتى سن العاشرة. عام ١٩٤٢ دخل دير المرسلين البولسيين للروم الكاثوليك بحريصا (لبنان) حيث أتقن اللغتين العربية والفرنسية، فضلا عن اليونانية واللاتينية، ونال الشهادة الثانوية ١٩٥٠. سافر إلى باريس وحصل من جامعتها على إجازة في الآداب العامة (شملت دراسات عليا في الأدب الفرنسي ١٩٥٥، وعلم النفس والتربية ١٩٥٦ وفقه اللغة الفرنسية، والتاريخ الحديث والمعاصر ١٩٥٧). اشتغل بالترجمة الفورية، العربية والفرنسية، وحصل على دبلوم في تدريس الفرنسية خارج فرنسا.

- درّس الفرنسية في سوريا (قرية "خبب"، والسويداء)، والكونغو (٦٣-١٩٦٥)، ثم عين في عام ١٩٦٦ موجها أول في وزارة التربية السورية.

- عضو هيئة تحرير "مجلة الآداب الأجنبية".

- عضو جمعية البحوث والدراسات "اتحاد الكتاب العرب".

- (٧٥-١٩٩٣) عمل مترجما فوريا في اتحاد البرلمانات العربية.

- ١٩٨٣ انتقل إلى القصر الجمهوري وصار مترجما للرئيس حافظ الأسد.

الأعمال التي قام بترجمتها

لعل أهم الأعمال الأدبية التي قام بترجمتها هي الأجزاء الخمسة من رواية "البحث عن الزمن المفقود" لمارسيل بروست (سبعة أجزاء). نشرت الأجزاء الثلاثة الأولى وزارة الثقافة السورية (٧٧- ١٩٨٢) ، ثم أعادت دار شرقيات نشرها (بعد أن نقحها الأستاذ بديوي بنفسه) مع الجزأين الجديدين (الرابع والخامس) اللذين أتم ترجمتهما بين ٩٤-١٩٩٧.

١٩٧٣ "أندريه بريتون والمعطيات الأساسية للحركة السيريالية / ميشيل كاروج" . وزارة الثقافة.

١٩٧٤ "فلسفة نيتشه / أولفن فنك". وزارة الثقافة.

١٩٧٧ "إنتاج المجتمع / آلن تورين". وزارة الثقافة.

١٩٨٧ "حافظ الأسد : مسيرة مناضل / لوسيان بيترلان". دار طلاس.

عيون الأدب الأجنبي

صدر منها

- **عبدة الصفر**

ألان نادو

ترجمة : البستاني والبطراوي

- **مدام بوفاري**

جوستاف فلوبير

ترجمة : محمد مندور

- **الكلمات**

چان بول سارتر

ترجمة : خليل صابات

- **الأحمر والأسود**

ستاندال

ترجمة : عبد الحميد الدواخلي

- **المكان**

آني إرنو

ترجمة : أمينة رشيد
وسيد البحراوي

- **الآثار الشعرية الكاملة**

إديت سودرجران

ترجمة : محمد عفيفى مطر
ومحمد عيد إبراهيم

- **چاز**

توني موريسون

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

دار شرقيات للنشر والتوزيع

comme ayant à compter [illegible] des années [illegible] ~~[illegible]~~ [illegible] plus [illegible] et qui [illegible] les traces [illegible] ~~[illegible]~~ ils se déplacent

puisque nous avons ~~[illegible]~~ rétabli le temps que nous avons vécu [illegible] l'être, puisque nous avons le [illegible] de nos années que c'est elles et non pas [illegible] corps que nous [illegible] avons [illegible] [illegible] qui [illegible] [illegible]

si elle [illegible] risque ~~[illegible]~~ [illegible]
multiplie en une notable [illegible] d'individus
nouveaux apporte [illegible] ces changements
~~[illegible]~~
autres (dont le ~~[illegible]~~ représenter si on veut [illegible]
coups de ce récit), dans la [illegible]
trompeuse d'un [illegible] qui
redessiner ~~tout~~ en entier de
~~[illegible]~~ [illegible] avait [illegible]
décrire les hommes) ~~et cela [illegible]~~
~~donner la forme d'un [illegible]~~
~~indéfiniment prolongés~~ comme
~~[illegible] place~~ ~~[illegible]~~
~~[illegible]~~ plus ~~[illegible]~~ que celle
~~qui leur est réservée~~ dans l'espace
~~place dans le Temps~~ [illegible]
— il faut ~~donner~~ faire ~~la~~ [illegible] ressembler
~~[illegible]~~
~~hideux~~, une ~~[illegible]~~ prolongée
~~dans le Temps~~ [illegible] considérable
celle si restreinte qui leur est réservée
une place au contraire prolongée dans
~~dans le Temps~~ puisqu'ils ~~[illegible]~~ touchent
~~[illegible]~~ [illegible] des époques si distantes [illegible]
[illegible] se placer [illegible] dans